التهذيب المليح

لكتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح

اختصار وترتيب موضوعي لكتاب الجواب الصحيح لابن تيمية

ويليه

تَلقِيحُ الألبَاب

بجُهودِ علمَاءِ المسلِمينَ في مُجادلَةِ أهْلِ الكِتَابِ

إلى نهاية القرن الثامن

اختصره ورتبه وعلَّق عليه وذيَّله

عمرو عفيفي

دار البشير

التهذيب المليح

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عفيفي، عمرو
التهذيب المليح لكتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح اختصار وترتيب موضوعي لكتاب الجواب الصحيح لابن تيمية
تأليف عمرو عفيفي
ويليه تلقيح الألباب بجهود علماء المسلمين في مجادلة أهل الكتاب إلى نهاية القرن الثامن
اختصره ورتبه وعلق عليه وذيله عمرو عفيفي
القاهرة، دار اليسر ٢٠١٩م.
٨٦٤ ص، ١٧ × ٢٤سم.
تدمك ٩٧٨٩٧٧٧٩٤٠٧٧١
١- الإسلام – دفع مطاعن
٢- الإسلام – دعوة
٣- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم أبو العباس، ١٢٦٣ - ١٣٢٨
أ – عفيفي، عمرو اختصر ورتب وعلق
ب – العنوان
٢١٦

٢٠ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة، الحي الثامن
مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية
تليفون: ٠٢ ٢٤٧٠٩٢٦٩ محمول: ٠١٠٦٢٢٧٦٢٠٨
فاكس: ٠٢ ٢٤٧١٤٨٠١ خدمة عملاء: ٠١١١٨٠٠٦٠٦٠

www.dar-alyousr.com
Email:alyousr@gmail.com
info@dar-alyousr.com

بسم الله الرحمن الرحيم

دار اليسر

عضو اتحاد الناشرين المصريين

رقم الإيداع
٢٠١٩/٢٦٨٤٦

ترقيم دولي
978-977-794-077-1

التهذيب المليح

التَّهْذِيبُ المَلِيحُ

لِكِتَابِ الجَوَابِ الصَّحِيحِ لِمَنْ بَدَّلَ دِينَ المَسِيحِ

اختصار وترتيب موضوعي لكتاب الجواب الصحيح لابن تيمية

ويليه

تلقِيحُ الأَلبَابِ

بِجُهُودِ عُلَمَاءِ المُسلِمِينَ فِي مُجَادَلَةِ أَهْلِ الكِتَابِ

إلى نهاية القرن الثامن

اختصره ورتبه وعلّق عليه وذيّله

عمرو عفيفي

بسم الله الرحمن الرحيم

«فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر، وناظر عنه المناظر، ظهرت له البراهين، وقوي به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره في صدور العالمين.

والدين الباطل إذا جادل عنه المجادل، ورام أن يقيم عوده المائل، أقام الله -تبارك وتعالى- من يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق».

[ابن تيمية الجواب الصحيح (١/٨٧)]

تمهيد

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

أما بعد:

فإن أصل هذا العمل الذي بين يديك أني كنت كلما قلَّبت النظر في جنبات هذا السِّفر الكبير والمصنف الجامع من مصنفات ابن تيمية، اجتمعت في نفسي مشاعر مختلطة؛ منها: الشعور بأهمية هذا الكتاب الجامع، وشدة الحاجة إليه، ليس في سياقه الزمني فقط، بل في عصرنا الحاضر، وليس فقط لما يشتمل عليه من مباحث شريفة، وحجج نيِّرة من المعقول والمنقول متعلقة بأصول شتى؛ كإثبات النبوة، أو النقد العقلي والنقلي للعقائد النصرانية، أو رد الشبهات، وجواب التساؤلات الواردة على الوحي الإلهي، بل مع ذلك كله ما يشتمل عليه من أدوات نقدية، ومَلَكات عقلية، وآداب جدلية يتحصل عليها القارئ فيه، والمتأمل لمباحثه.

ولكن كنت أشعر مع ذلك بالتعجب من أن ما في الكتاب من قوة الحجة، وحسن الطريقة، والعدل والأمانة في النقل ونحو ذلك، لم ينل ما يستحقه من المكان عند المختصين وغيرهم، ولا يظهر كبير أثره في كتاباتهم، وليس لهذا

الكتاب ما لكُتُب الشيخ الأخرى من المنزلة.

وبدا لي أن من أهم أسباب ضعف الاستفادة من هذا المصنف الجامع هو كبر حجم الكتاب، وافتقاده للترتيب الموضوعي الذي يسهل الانتفاع من مباحثه، ويجمع العقل على مقاصده، علاوةً على ما فيه من استطرادٍ خارجٍ عن صلب مقصد الكتاب وموضوعه على طريقة الشيخ المعروفة من التوسع في البحث، والتنوع في العرض لأدنى مناسبة وعلاقة، وهذا ما قد يوقع أيضًا في تكرارٍ لبعض المباحث أو الردود؛ ومع أن جُلَّ ما في الكتاب ماتعٌ ونافعٌ، ولكن توزع المباحث وتنوعها قد يؤثِّر على ذهن القارئ في متابعته لمباحث الكتاب وموضوعاته، ويضعف ويقلل الانتفاع منه.

فكان التفكير في تقريب هذا الكتاب عن طريق وَضْع تهذيبٍ له يسهل الانتفاع بمباحثه، ويجمع أفكاره ومقاصده عن طريق تكثيف مادة الكتاب، وترتيبها على نهجٍ سيأتي شرحه.

وسمَّيته: (**التهذيب المليح لكتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**).

ووجدتُ من المناسب أن أُصدِّرُه وأذيِّلُه؛ أُصدره بمقدمةٍ تتناول باختصار ترجمة المصنف، وطريقته في كتابه، وعلى شرح طريقتي في هذا التهذيب، والفائدة المرجوة منه.

ثم وضعت في ذيله رسالةً تشير باختصارٍ إلى جهود علماء المسلمين إلى عصر المصنف في مجادلة أهل الكتاب؛ تكميلًا للفائدة، ومساهمةً في تقريب الجهود التراثية، والتعريف بها.

فما أحوج المختصين والطالبين للعلم والهدى إلى التعرف على مادة

وجهد الأقدمين في هذا الباب! والذي يشتمل في معظمه على التنوع في الحُجَّة، والقوة والإفحام في المناظرة، واستكمال الآلة، والفصاحة وعفَّة اللسان، وعزَّة النفس، واستعلاء الإيمان، والقدرة على الشرح والبيان، وغير ذلك من الفوائد التي يراها من يصاحب شيئًا من هذه الأعمال.

ولا شك أن التهذيب والاختصار من أغراض التصنيف المهمة النافعة.

قال الإمام العلائي: «الأقسام السبعة التي لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها هي: إما شيء لم يسبق إليه يخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يخلَّ بشيءٍ من معانيه، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مصنفه يصلحه»(١).

وهذا التهذيب يشتمل على غرضين من هذه الأغراض، هما: اختصار كلام المُصنِّف، وجمع ما تفرَّق منه.

وأسأل الله تعالى اللطيف الودود المتصف بكمال الكرم والجود، الذي يتقبَّل عِدْل التمرة بيمينه، ويربيها لصاحبها، أن يتقبل هذا العمل على عُجره وبُجره، وينفع به كاتبه، ويثقل به وزنه، ويدني غايته، وينمي ثمرته، وأسأله سبحانه الذي يحب العفو، ويقبل التوب، ويعفو عن الإسراف والذنب أن يتجاوز ويعفو عما فيه من نسيانٍ أو زللٍ أو ضعفٍ أو لَكَنٍ.

إنه حسبنا ونعم الوكيل

كتبه

عمرو عفيفي

---

(١) المجموع الذهب (١/ ١١).

نبذة عن المصنف

شيخ الإسلام ابن تيمية كان في حياته وبعد وفاته من الشخصيات بليغة الأثر، ذائعة الصِّيت، ولذا فهناك رصيد وافر من التراجم له، والكتابات عنه، منها كتب مفردة مثل كتاب: (العقود الدرية) لابن عبدالهادي، و(الأعلام العلية) للبزار، (الرد الوافر) لابن ناصر الدين، و(الشهادة الزكية) لمرعي الكرمي، وغيرها.

ومنها تراجم موسعة في كتب التاريخ، والتراجم ممن عاصره أو تتلمذ له، مثل تراجم الذهبي له في أكثر من كتاب، كـ(تذكرة الحفاظ)، و(تاريخ الإسلام)، و(المعجم المختص)، وغيرها، وترجم له ابن كثير في (البداية والنهاية)، والصفدي في (الوافي بالوفيات)، وابن الوردي في (تاريخه)، والبرزالي في (تاريخه).

وكذا ممَّن تأخر عنه، وأفضل هذا النوع ترجمة زين الدين بن رجب في (ذيل طبقات الحنابلة)، وترجم له كذلك الحافظ ابن حجر في (الدرر الكامنة)، وبرهان الدين ابن مفلح في (المقصد الأرشد)، وابن العماد في (شذرات الذهب)، والشوكاني في (البدر الطالع)، وغيرهم كثير [١].

وليس من غرض هذا الكتاب استقصاء هذه السيرة، ولا حتى نقل أطرافٍ منها تليق بمكانة صاحبها، ففي هذا الباب من المصنفات المتقدمة والمتأخرة ما يفي بالغرض، ولكن سأكتفي بنبذة تعريفية مختصرة عن المصنف، مع الإشارة

---

(١) وللتوسع ينظر كتاب: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، وينظر تعليق عبد الرحمن العثيمين على «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٤٩١).

فيها إلى مواقف العلماء منه ومكانه في علم أصول الدين، والرد على أهل البدع والملل، وهو ما يتعلق بخصوص كتابنا هنا.

اسمه ومولده:

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد ابن تيمية الحراني، ثم الدمشقي، تقي الدين أبو العباس، وُلِدَ سنة إحدى وستين وستمائة بحران.

شيوخه وطلبه للعلم:

أخذ الشيخ عن جماعة كبيرة من العلماء:

منهم: والده، وابن عبد الدائم، ويحيى بن الصيرفي الفقيه، وأحمد بن أبي الخير الحداد، والشيخ شمس الدين بن أبي عمر، والشيخ زين الدين بن المنجا، وغيرهم.

قال ابن عبد الهادي: «وشيوخه الذين سمع منهم أزيد من مئتي شيخ»[١].

والظاهر أن البيئة العلمية التي نشأ فيها الإمام جعلته يتوجه مباشرةً منذ الصغر إلى تحصيل العلم، ويتزامن بلوغه حد الإدراك والتمييز مع شغفه بالعلم، وانشغاله به، فأول شيءٍ قرع أبواب عقله وقلبه كان القرآن والحديث وعلوم الشرع، ثم ساعده ما حباه الله إيَّاه من قوة الحافظة، ووفور العقل على سرعة الوصول إلى درجة البَراعة والإتقان.

قال البزار: «ولم يزل منذ إبَّان صغره مستغرق الأوقات في الجهد والاجتهاد، وختم القرآن صغيرًا، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية

---

(١) طبقات علماء الحديث (٤/ ٢٨١).

حتى برع في ذلك مع ملازمة مجالس الذِّكر، وسماع الأحاديث»[١].

قال الذهبي: «وقرأ القرآن والفقه، وناظر واستدل وهو دون البلوغ، وبرع في العلم، والتفسير وأفتى ودرس وله نحو العشرين سنةً، وصنَّف التصانيف، وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه»[٢].

قال ابن رجب: «وأقبل على العلوم في صغره؛ فأخذ الفقه والأصول، وقرأ في العربية، ثم أخذ كتاب سيبويه، فتأمله ففهمه، وأقبل على تفسير القرآن الكريم، فبرز فيه، وأحكم أصول الفقه، والفرائض، والحساب والجبر والمقابلة، وغير ذلك من العلوم، ونظر في علم الكلام والفلسفة، وبرز في ذلك على أهله، ورد على رؤسائهم وأكابرهم، ومهر في هذه الفضائل، وتأهَّل للفتوى والتدريس، وله دون العشرين سنةً، وأفتى من قبل العشرين أيضًا»[٣].

آراء العلماء فيه:

يمكن تقسيم مواقف العلماء المعاصرين لابن تيمية أو المتأخرين عنه إلى ثلاثة أنواع:

الأول: هو موقف أعداء ابن تيمية:

فمن الأمور التي أشار إليها أكثر مَن ترجم للإمام هو ما كان يتمتع به من قوة القلب والصلابة فيما يراه من الحقِّ، فكان الإمام بسبب ذلك يجهر وينصر ما يعتقده موافقًا للحق، ولو كان في هذا مخالفًا للسواد الأعظم من علماء عصره.

---

(١) الأعلام العلية (١٧).

(٢) العقود الدرية (٣٨).

(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٤٩٤) بتصرف واختصار.

ومن ذلك أنه كان ينصر قول أهل الحديث في باب الصفات والإيمان والقدر وغيرها، والذي كان -فيما يظهر- قد اندرس في هذه الأوقات، حتى صار الخاصة من العلماء -فضلًا عن العامة- يستنكرونه، بل بعضهم لا يعرفه أصلًا، أو لا يسلم نسبته للسلف وأهل الحديث.

ومن ذلك أيضًا أنه كان يذمُّ بعض شيوخ الصوفية من الحلولية والاتحادية كابن عربي وابن سبعين وابن الفارض، والظاهر أيضًا أن عصره كان يذخر بالمعظمين لهؤلاء الشيوخ أو السالكين طريقهم.

وأيضًا كانت له أقوالٌ في فروع الفقه تخالف قول جمهور الفقهاء، مثل قوله بعدم وقوع الطلاق البدعي، وتفصيله المشهور في الطلاق المعلق، ونحوها من اختياراته.

فهذه المسائل وما يشبهها قد استنفرت واستثارت الكثير من علماء عصره، حتى كان بعضهم يشكوه عند السلطان، وتسبَّب بعضهم في سجنه مرات، وحفظت لنا كتب التراجم بعض أسماء هؤلاء، مثل: ابن مخلوف المالكي ونصر المنبجي والبكري وغيرهم.

ومن الأسماء التي اشتهر عنها مخالفته وذمه لأجل هذه المسائل هو الإمام الشافعي الكبير تقي الدين السبكي، وكانت بينهما معركة علمية محتدمة، وبينهما ردود مشهورة في أكثر من مسألةٍ، ولقد امتدت هذه المنازعة لطبقة التلاميذ، فللسبكي ردٌّ على ابن القيم، ولابن عبد الهادي ردٌّ على السبكي، وحدثت بين ابن القيم وبين ابن السبكي تاج الدين فصول يطول بسطها، كما قال ابن كثير [١].

---

(١) البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٤).

أما الموقف الثاني: فهو على النقيض من هذا، وهو موقف الذين يجمعون بين تعظيم الشيخ وبين موافقته في اختياراته العلمية أو في الكثير منها، خاصةً في مذهبه العقدي الموافق لأهل الحديث، وهو موقف طائفةٍ من معاصريه وغيرهم، وهؤلاء لهم ثقلٌ كبيرٌ ليس لكثرة عددهم، بل لبروزهم ورسوخ أقدامهم في علوم شتَّى، ومن أشهر أصحاب هذا الموقف هو شمس الدين ابن قيم الجوزية وأبو الفداء ابن كثير والذهبي والمزي والبرزالي وابن عبد الهادي وغيرهم.

قال الذهبي: «وكان يتوقد ذكاءً، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه فما يلحق فيه، وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين فضلًا عن المذاهب الأربعة فليس له فيه نظير، وأما معرفته بالملل والنِّحل والأصول والكلام، فلا أعلم له فيه نظيرًا، ويدري جملةً صالحةً من اللغة، وعربيته قوية جدًّا، ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب، وأما شجاعته وجهاده وإقدامه فأمرٌ يتجاوز الوصف، ويفوق النعت، وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يُضرب بهم المثل، وفيه زهد وقناعة باليسير في المأكل والملبس»(١).

قال ابن رجب: «وكان الحافظ أبو الحجاج المزي يبالغ في تعظيم الشيخ، والثناء عليه، حتى كان يقول: لم ير مثله منذ أربعمائة سنةٍ»(٢).

قال البرزالي: «الإمام المجمع على فضله ونبله ودينه، قرأ القرآن وبرع فيه، والعربية والأصول، ومهر في علمي التفسير والحديث، وكان إمامًا لا يلحق غباره

---

(١) الرد الوافر (٣٣).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٤٩٦).

في كل شيءٍ، وبلغ رتبة الاجتهاد، واجتمعت فيه شروط المجتهدين، وكان إذا ذكر التفسير أبهت الناس من كثرة محفوظه، وحسن إبراده وإعطائه كل قولٍ ما يستحقه من الترجيح والتضعيف والإبطال، وخوضه في كل علمٍ كان الحاضرون يقضون منه العجب، هذا مع انقطاعه إلى الزهد والعبادة، والاشتغال بالله تعالى، والتجرد من أسباب الدنيا، ودعاء الخَلق الى الله تعالى»[١].

قال ابن عبد الهادي: «هو الشيخ الإمام الرباني إمام الأئمة، ومفتي الأمة، وبحر العلوم، سيد الحفاظ، وفارس المعاني والألفاظ، فريد العصر، وقريع الدهر، شيخ الإسلام، بركة الأنام، وعلامة الزمان، وترجمان القرآن، علم الزهاد، وأوحد العباد، قامع المبتدعين، وآخر المجتهدين»[٢].

أما الموقف الثالث: فهو موقف الذين يخالفون الشيخ في أكثر ما خالف فيه علماء عصره، في أصول الدين وفروعه، ولكنهم مع ذلك يعرفون له قدره، ويثنون على علمه وبذله، ويحمدون سيرته، وفي هذا القسم سنرى قائمةً طويلةً من العلماء الكبار، فيها ابن دقيق العيد، وابن سيد الناس، وابن الزملكاني، وابن رجب الحنبلي[٣]، وابن حجر العسقلاني، وبدر الدين العيني، والسيوطي، وغيرهم كثير،

---

(١) الرد الوافر (١١٩).

(٢) العقود الدرية (١٨).

(٣) وابن رجب لم يكن يخالف الشيخ في مذهبه العقدي، وإنما يخالفه في طريقه لنصرة هذا المعتقد بالخوض في الدقائق الكلامية، والمباحث الفلسفية، ولقد صرح بهذ الخلاف في ترجمة الشيخ في الذيل (٤/ ٥٠٥)، فقال: وطوائف من أئمة أهل الحديث وحُفَّاظهم وفقهائهم كانوا يحبون الشيخ ويعظمونه، ولم يكونوا يحبون له التوغُّل مع أهل الكلام، ولا الفلاسفة، كما هو طريق أئمة أهل الحديث المتقدمين؛ كالشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد ونحوهم.اهـ. وألمح إلى =

ولقد جمع أقوال معظمهم ابن ناصر الدين الدمشقي في (الرد الوافر)، ومرعي الكرمي الحنبلي في (الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية).

قال الحافظ ابن حجر: «وقد أثنى عليه (أي: ابن تيمية)، وعلى علمه ودينه وزهده جميع الطوائف من أهل عصره، حتى ممن كان يخالفه في الاعتقاد»[(١)].

ورغم أن الظاهر أن قائمة أعداء ابن تيمية وأصحاب الموقف الأول، ليسوا هم المعظم أو الأغلب من معاصريه، بل أكابر علماء عصره كانوا يُعظِّمونه، ويثنون عليه، إلا أن أثر أعدائه كان كبيرًا وبليغًا في القرون التالية، خاصة السبكي وابنه رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

فلقد اتخذ موقفًا مشابهًا أو زائدًا على موقفهما الفقيه الشافعي الشهير ابن حجر الهيتمي، والفقيه الحنفي علاء الدين البخاري، وتقي الدين الحصني الشافعي، وغيرهم، وظلت المدرسة المناهضة والمعادية لابن تيمية حاضرة وقوية حتى قريب من العصر الحاضر، ثم أصابها نوع فتور وضعف بعد ذلك، إلا أنها ما زالت موجودةً، وهناك محاولاتٌ شتَّى لإعادتها وإحيائها.

فائدة:

يمكن تقسيم مؤاخذات أعداء ابن تيمية عليه من جهة ثبوتها إلى أقسامٍ ثلاثةٍ:

القسم الأول: هو ما تصح نسبته إليه، مثل المسائل الفقهية التي خالف فيها جمهور الفقهاء، مثل قوله بعدم وقوع الطلاق البدعي ونحوها من الفروع، ومن

=

هذا الخلاف في كتابه «فضل علم السلف على الخلف» دون تسمية الشيخ.

كما أنه كان يخالفه في مفرداته الفقهية، وله رسالة في مسألة طلاق الثلاث سماها «سير الحاث إلى علم الطلاق الثلاث» يخالف فيها الشيخ، طبع جزء منها مع مجموع رسائله (٥/ ٣٢٨).

(١) الرد الوافر (٢٨٣).

هذا النوع قوله بإثبات الصفات الفعلية المتعلقة بالإرادة، والتي يسميها المتكلمون بـ«حلول الحوادث في ذات الله»، ومثل نقده الحاد وطعنه في الحلولية كابن عربي وأمثاله، وبغضِّ النظر عن صحة نقده وذمه لأجل هذه المسائل، فهي ثابتة النسبة إليه.

القسم الثاني: هو ما يعد نسخةً مشوهةً لأصل صحيح، بمعنى أن يكون المنسوب إليه له أصل في كلام ابن تيمية، ولكنه غُيِّر عن صورته في النقل إلى صورة مشوهة، إما عمدًا للتشنيع، وأحيانًا يكون قوله دقيقًا فيتعذر على الناقل ضبطه، ومن ذلك: نسبته إلى التجسيم، وأصل ذلك أن ابن تيمية يثبت الصفات الخبرية؛ كالوجه واليد، والصفات الفعلية؛ كاستواء الله تعالى على عرشه والنزول ونحوه، لكنه يثبت تفاوتًا بين صفة الخالق والمخلوق؛ كالتفاوت بين ذات الخالق والمخلوق، ويجعل إطلاق هذه الصفة على الخالق والمخلوق من باب التواطؤ؛ كإطلاق النور على نور الشمس ونور المصباح الخافت مع شدة التفاوت بينهما.

وهذا التحقيق بعض أعدائه يتجاهله عمدًا، وبعضهم لم يتوصل إلى حقيقة مذهبه لدقته، فينسبه إلى التجسيم والتشبيه، ومذهبه بعيد عن ذلك لمن أنصف.

ومن ذلك أيضًا قوله في «تسلسل الحوادث»، وهي مسألة طويلة الذيل، لكن الذي يعنينا منها هنا أن من أعداء الشيخ مَن ينسب إليه القول بقِدم العالم، وبعضهم ينسبه إلى القول بقِدم الحوادث، ولا شك أن هذا من الخطأ عليه، وقوله بتسلسل الحوداث ليس من ذلك.

القسم الثالث: هي أكاذيب مجردة، لا أصل لها في كلامه، وهذا القسم يشتمل على قدرٍ وافرٍ من المؤاخذات عليه، وأمثلته كثيرة كنسبته إلى القدح في

عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ووصفه له بالخذلان، وأنه لم يصح في فضله حديثٌ، وكذا القدح في عثمان وأبي بكرٍ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والمنع من زيارة قبر النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونفيه للتحريف اللفظي في الكتب المقدسة - وسيأتي الكلام على هذا- وأنه شبه نزول الله تعالى بنزوله على المنبر، ونحو ذلك.

تقدم ابن تيمية في علم أصول الدين، والرد على أهل الفرق والملل:

من الأمور التي أجمع عليها مَن يوافق الشيخ، وأقرَّ بها كثير من مخالفيه -بل وبعض أعدائه- هي تقدُّمه في علم أصول الدين والعلوم العقلية، وبلاؤه الحسن في مناظرة أهل البدع الخارجين على السُّنة، وأهل الملل المخالفين للإسلام.

فقال عنه ابن الزملكاني -وهو من مخالفيه: «ناصر السُّنة، وقامع البدعة، حُجَّة الله على العباد، راد أهل الزيغ والعناد»(١).

قال الذهبي: «وأما معرفته بالملل والنِّحل والأصول والكلام، فلا أعلم له فيه نظيرًا»(٢).

قال الحافظ ابن حجر: «هذا الرجل كان من أعظم الناس قيامًا على أهل البدع من الروافض والحلولية والاتحادية، وتصانيفه في ذلك كثيرة شهيرة، وفتاويه فيهم لا تدخل تحت الحصر»(٣).

قال الصفدي: «وأما أصول الدين، ومعرفة أقوال الخوارج والروافض

---

(١) الشهاة الذكية (٣٧).

(٢) الرد الوافر (٣٣).

(٣) تقريظ ابن حجر للرد الوافر.

والمعتزلة والمبتدعة، فكان لا يشق فيها غباره»(١).

ووصفه بدر الدين العيني: «والسيف الصارم على المبتدعين، والحبر القائم بأمور الدين»(٢).

وقال مرعي الكرمي: «فطالع كتابه (الكواكب الدرية في الرد على الروافض والإمامية)، تجد العجب أو (الرد على اليهود والنصارى وأهل البدع) يداخلك الطرب»(٣).

حكى عمر بن علي البزار عن الشيخ بإسناده: «كان إذا أراد المضي إلى المكتب يعترضه يهودي كان منزله بطريقه بمسائل يسأله عنها لما كان يلوح عليه من الذكاء والفطنة، وكان يجيبه عنها سريعًا حتى تعجب منه، ثم إنه صار كلما اجتاز به يخبره بأشياء مما يدلُّ على بطلان ما هو عليه، فلم يلبث أن أسلم، وحسن إسلامه، وكان ذلك ببركة الشيخ على صغر سنه»(٤).

وقال أيضًا: «وأما ما خصه الله تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعتهم، وأهل الأهواء في أهوائهم، وما ألفه في ذلك من دحض أقوالهم، وتزييف أمثالهم، وإظهار عوارهم، وانتحالهم وتبديد شملهم، وقطع أوصالهم وأجوبته عن شبههم الشيطانية، ومعارضتهم النفسانية للشريعة الحنيفية المحمدية بما منحه الله تعالى به من البصائر الرحمانية، والدَّلائل النقليَّة، والتوضيحات العقلية حتى ينكشف قناع

---

(١) الوافي بالوفيات (٧/ ١٤).

(٢) الرد الوافر (٢٦٢).

(٣) الشهادة الذكية (٨٨).

(٤) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (١٦).

الحق، وبان بما جمعه في ذلك وألفه الكذب من الصدق...».

وقال: «حدثني غير واحدٍ من العلماء الفضلاء النبلاء الممعنين بالخوض في أقاويل المتكلمين لإصابة الثواب، وتمييز القشر من اللُّباب أن كلًّا منهم لم يزل حائرًا في تجاذب أقوال الأصوليين ومعقولاتهم، وأنه لم يستقر في قلبه منها قولٌ، ولم يبن له من مضمونها حقٌّ، بل رآها كلها موقعةً في الحيرة والتضليل، وجلها ممعن بتكلف الأدلة والتعليل، وأنه كان خائفًا على نفسه من الوقوع بسببها في التشكيك والتعطيل حتى مَنَّ الله تعالى عليه بمطالعته مؤلفات هذا الإمام أحمد ابن تيمية شيخ الإسلام، وما أورده من النقليات والعقليات في هذا النظام، فما هو إلا أن وقف عليها وفهمها، فرآها موافقةً للعقل السليم، وعلمها حتى انجلى ما كان قد غشيه من أقوال المتكلمين من الظلام، وزال عنه ما خاف أن يقع فيه من الشك، وظفر بالمرام»(١).

وفي كتاب البزار نقلٌ نفيسٌ عن الشيخ يظهر بوضوح أن همة الشيخ كانت منصرفةً في الأساس إلى علم «أصول الدين»، والرد على أهل البدع والملل، ويشرح هذا النص أيضًا سبب هذا الاهتمام والالتفات، ومفادُهُ أن الخلاف في الفروع أمرُهُ يسيرٌ، والخطأ فيه مغفور إذا صدر الاجتهاد من أهله، وتَبْرأ ذمة المكلف فيه باتباع أحد الأئمة، أما الخلاف في الأصول أشد، والخطأ فيه قد يُفضي بصاحبه إلى بدعةٍ في الدين، وخطرٍ عظيمٍ.

قال البزار: «ولقد أكثر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ التصنيف في الأصول، فضلًا عن غيره من بقية

---

(١) السابق (٣٢).

العلوم، فسألته عن سبب ذلك، والتمست منه تأليف نصٍّ في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ليكون عمدةً في الإفتاء، فقال لي ما معناه: الفروع أَمرُها قريب، ومن قلَّد المسلم فيها أحد العلماء المقلدين، جاز له العمل بقوله ما لم يتيقن خطؤه.

وأما الأصول، فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمتفلسفة والباطنية والملاحدة والقائلين بوحدة الوجود والدهرية والقدرية والنصيرية والجهمية والحلولية والمعطلة والمجسمة والمشبهة والراوندية والكلابية والسليمية وغيرهم من أهل البدع قد تجاذبوا فيها بأزمَّة الضلال، وبان لي أن كثيرًا منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية الظاهرة العلية على كل دينٍ، وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قلَّ أن سمعت أو رأيت معرضًا عن الكتاب والسُّنة، مقبلًا على مقالاتهم إلا وقد تزندق، أو صار على غير يقينٍ في دينه واعتقاده.

فلمَّا رأيتُ الأمر على ذلك، بان لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم، وقطع حجتهم وأضاليلهم أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، ويزيف دلائلهم؛ ذبًّا عن الملة الحنيفية، والسُّنة الصحيحة الجلية.

ولا والله، ما رأيت فيهم أحدًا ممن صنَّف في هذا الشأن، وادعى علوم المقام إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام.

وَسببُ ذلك إعراضه عن الحقِّ الواضح المبين، وعمَّا جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين، واتباعه طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سمَّوها بزعمهم: حكميات وعقليات، وإنما هي جهالات وضلالات.

قال الشيخ الإمام قدَّس الله روحه: «فهذا ونحوه هو الذي أوجب أنِّي

صرفت جُلَّ همي إلى الأصول، وألزمني أن أوردت مقالاتهم، وأجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية»(١).

وما زال في سيرته ومسيرته جوانب شتى جديرة بالإشارة إليها، والحكاية عنها، مثل المحن التي تعرَّض لها الشيخ، والمناظرات التي قام بها، والمواقف السياسية والجهادية التي اتخذها، إلا أن التطرُّق لذلك قد يُفضي إلى إطالة تخرج الترجمة عن مقصودها ومقامها، وهو مقام الإشارة والتنبيه، وليس الاستقصاء والحصر، وفي المطولات وكتب التراجم والتواريخ كفاية لمن أراد الاستزادة.

وفاته:

وكانت وفاته سنة ثمانٍ وعشرين وسبعمائة.

قال ابن رجب: «وكان يومًا مشهودًا، لم يعهد بدمشق مثله، ولم يتخلف من أهل البلد وحواضره إلا القليل من الضعفاء والمُخدَّرات، وصرخ صارخٌ: هكذا تكون جنائز أئمة أهل السُّنة، فبكى الناس بكاءً كثيرًا عند ذلك»(٢).

---

(١) السابق (٣٣).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٥٢٧).

نبذة عن الكتاب

لا شك في أن كتاب (الجواب الصحيح) من أهم المصنفات في بابه، بل لو قيل: إنه من كتب الإسلام، لم تكن مبالغةً، فهذا الكتاب -كغيره من كتب الشيخ أو أكثر- صفحة كبيرة من الإمتاع والإفادة، وخليط نادر من الحجج العقلية والنقلية، والمباحث التفسيرية والحديثية واللغوية وغيرها، ولذا استحقَّ هذا الكتاب الإطراء عليه من الموافق والمخالف.

قال ابن عبد الهادي: «وهذا الكتاب من أجلِّ الكتب وأكثرها فوائد، ويشتمل على تثبيت النبوات وتقريرها بالبراهين النيرة الواضحة، وعلى تفسير آي كثيرٍ من القرآن، وعلى غير ذلك من المهمات»[(١)]

وقال مرعي الكرمي: «فطالع كتابه (الكواكب الدرية في الرد على الروافض والإمامية)، تجد العجب، أو (الرد على اليهود والنصارى وأهل البدع)، يداخلك الطرب»[(٢)].

قال محمود شكري الآلوسي: «ولم يؤلف في الرد على النصارى كتاب مثله»[(٣)]

بل إنَّ أحد أعداء الشيخ من المتأخرين -وهو النبهاني- وصف الكتاب بأنه في غاية النفاسة[(٤)].

---

(١) العقود الدرية (٤٥).

(٢) الشهادة الذكية (٨٨).

(٣) غاية الأماني في الرد على النبهاني (٤٩٢).

(٤) غاية الأماني (٤٨٨).

وقال بعض الباحثين المعاصرين: ويعتبر كتاب ابن تيمية (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) أهم وأطول نقدٍ صدر من عالمٍ مسلمٍ ضد النصرانية[(١)].

أجواء الكتاب:

ذكر ابن تيمية في صدر كتابه باعثَه على تصنيف الكتاب، وهو أن كتابًا ورده من قبرص يشتمل على الاحتجاج لدين النصارى بالمعقولات والمنقولات من كتاب المسلمين وكتبهم.

ثم نسب هذه الرسالة إلى بولص الراهب أسقف صيدا الأنطاكي، وهنا وقع خلاف بين الباحثين، هل الرسالة التي وردته هي نفس رسالة بولص، أم أنها رسالة أخرى اعتمدت على هذه الرسالة، ولكن زادت عليها، وحذفت منها.

فذهب محققو الكتاب ط. العاصمة إلى أنها الرسالة نفسها، وذكروا أنهم قابلوا النصوص المنقولة في كتاب ابن تيمية مع نصوص الرسالة، فوجدوا تشابهًا بينهما في المحتوى والمضمون[(٢)].

بينما ذهب بعض الباحثين مثل: ديفيد توماس[(٣)]، وتوماس ميشيل، ووافقهم محقق الكتاب ط. البيان[(٤)] إلى التفريق بين رسالة بولص، والكتاب الذي ورد من قبرص، وفرَّقوا بين محتوى الكتابين، فمع الإقرار بأن كاتب قبرص قد اعتمد على رسالة بولص إلا أنه أضاف عليها، وحذف منها، إلا أنهم

(١) دراسة ديفيد توماس عن الكتاب، ضمن كتاب «ابن تيمية وعصره»، تحرير يوسف ربوبورت وشهاب أحمد (٢٩٣).

(٢) في قسم دراسة الكتاب (١/ ٣٠).

(٣) «ابن تيمية وعصره» تحرير يوسف ربوبورت وشهاب أحمد (٢٨٦).

(٤) د.سفر الحوالي، ينظر مقدمة الجواب الصحيح. ط: البيان (١/ ٩٠).

لم يقيموا الأدلة الكافية على ذلك، والله تعالى أعلم بالصواب.

ولكن بالطبع لم يكن الكتاب مجرد تتبعٍ لهذه الحجج، وجواب عنها، بل كانت هذه الحجج مجرد نقطة ابتداءٍ يصدر عنها المصنف ليطوف في مباحث شتَّى، ليزيف هذا الاحتجاج من جهةٍ، ويقرر ما يخالفه من الحق، وفي سياق ذلك يتطرق إلى مباحث شتَّى من التفسير والحديث، والمباحث العقلية، والرد على الفرق، وغير ذلك.

موارد الكتاب:

لا شك في وجود الكثير من المصنفات في ميدان مجادلة أهل الكتاب سابقة على كتابنا هذا، ولا شك أيضًا في أن ابن تيمية كان واسع الاطلاع في شتَّى ميادين المعرفة، وكان قادرًا على تطويع وتوظيف ما يحصله من المعرفة لتشييد وتأييد بنائه المعرفي المتماسك.

وبناءً على هاتين المقدمتين، يمكن استنتاج أن ابن تيمية طالع بعضًا أو كثيرًا مما كتب في هذا الباب، وأنه استفاد منها.

ويمكننا أن نقسم هذه الكتابات من جهة علاقتها بكتاب (الجواب الصحيح) إلى أصنافٍ:

أولها: هي ما نجزم باستفادة المصنف منها، ونقله عنها؛ لأنه صرح باسم صاحبها.

ومن أمثلة ذلك: رسالة الحسن بن أيوب لأخيه، فقد أكثر الشيخ من النقل منها، وكذلك ابن حزم في كتاب (الفصل)، فقد صرح الشيخ بالنقل منه في بعض المواضع، وكذا تاريخ ابن البطريق.

ثانيها: ما يغلب على الظنِّ أنه استفاد منه، إما لشهرة صاحبها، وخبرة ابن

تيمية بكتبه مثل الإمام الباقلاني، وهو وإن لم يصرِّح باستفادته منه في كتابه هذا، ولكن كتبه الأخرى تظهر أن الشيخ كان على خبرة ودراية بكتبه؛ (التمهيد) وغيره، كما أننا نجد تشابهًا بين كتاب (الجواب الصحيح)، وكتاب (التمهيد) في بعض أنواع الجدل العقلي وإثبات النبوة.

والسبب الثاني الذي يغلب على الظن وجود استفادةٍ: هو التشابه الشديد الذي نراه في بعض المواطن بين ما يذكره ابن تيمية وبين ما سبقه من المصنفات، ومن أمثلة ذلك: التشابه بين كتاب ابن تيمية وبين كتاب (التخجيل) للجعفري في بعض الأدلة العقلية، وبعض البشارات، والكلام على تفسير «الفارقليط»، وكذلك نرى تشابهًا في تقرير دلائل النبوة بين ابن تيمية وبين ابن ربن الطبري في (الدين والدولة)، وكذلك التشابه في بعض المباحث بين ابن تيمية وبين القرطبي في (الإعلام).

فهذه بعض أمثلةٍ لما يغلب على الظن استفادة ابن تيمية منه، إما لشهرة المصنف، وإما لقوة التشابه، ولكن مع ذلك تظلُّ هذه العلاقة في حيِّز الظن والاحتمال، ويتعذَّر القطع بها لأمور؛ منها:

أ- عدم وجود الدليل القاطع على هذه العلاقة.

ب- ومنها: احتمال أن يكون التشابه من توارد الخواطر.

ج- ومنها: أنه حتى لو قوي احتمال الاستفادة، فيحتمل أن تكون الاستفادة بواسطةٍ وليست مباشرةً، ويحتمل أن يكون الكاتبان قد استفادا من مصدرٍ مشتركٍ لم يصل إلينا.

فكلُّ هذه الاحتمالات تجعل أي باحثٍ جادٍّ لا يجاوز بهذه العلاقة مرحلة

الظن الغالب، أمَّا القطع بهذه العلاقة، فهي مجازفة يتعذَّر التدليل الكافي عليها، وأبعد منها من يرى كتاب ابن تيمية مجرد تكريرٍ ونقلٍ لأحد الكتب السابقة عليه، كما زعم البعض أن كتاب ابن تيمية مجرد تكريرٍ لكتاب (التخجيل)، وقد نوَّهنا على ضعف هذه الدعوى عند تناول الكتاب المذكور.

أمَّا القسم الثالث: فهي الكتب التي يمكن أو يحتمل حصول النقل والاستفادة منها لوجود تشابهٍ، ولكنه إما ليس قويًّا، أو مما يَقْوى احتمال كونه من توارد الفكر، واتفاق الرأي لا من النقل، فلا تتجاوز العلاقة مرتبة الاحتمال، وذلك مثل كتاب (الرد الجميل) للغزالي، و(مقامع هامات الصلبان) للخزرجي، و(الأجوبة الفاخرة) للقرافي، وغيرها.

وبالطبع مهما قيل عن الاستفادة من الكتب السابقة، فإن شخصية ابن تيمية العلمية لها من القوة والهيمنة ما يجعل الكتابات التي طالعها، واستفاد منها تنصهر في بوتقته الخاصة، وتخرج عن صورتها الأصلية لتكتسي بطريقة ابن تيمية، وتوظف في سياق بنائه المنهجي والمعرفي.

وأكبر دليلٍ على هذا هو الاتساق والتماسك في المنهج والنسق الذي يلاحظه من يطالع الكتابات المختلفة لابن تيمية، فلو كان مجرد ناقلٍ أو جامعٍ، لاضطربت واختلفت منهجيته وطريقته واختياراته باختلاف المصادر التي ينقل عنها، ويتأثر بها، لكن الحقيقة أنَّ الغالب هو الاتساق والتماسك كما ذكرنا، وربما يرد اختلاف سببه تباين الترجيح والنظر، وليس اضطرابًا يمكن عزوه إلى النقل.

نظرة عامة على منهج الكتاب

من العسير وَضْع توصيفٍ مفصلٍ لمنهجية كتاب حافل متعدد المباحث كهذا، لكن من الممكن وَضْع توصيفٍ مجملٍ لملامح الكتاب العامة.

ويمكننا في هذا التوصيف أن نقسم الملامح المنهجية للكتاب إلى قسمين:

الأول: ما يشترك فيه الكتاب مع سائر أو بعض مصنفات علماء المسلمين في هذا الباب.

والثاني: ما يختص ويتفرد به الكتاب عن غيره من المصنفات.

فمن النوع الأول:

١-هو ما اتصف به الكتاب من تنوع الأدوات والحجج المستخدمة في الجدل، فلم يقتصر الكتاب على نوعٍ واحدٍ من أنواعه، بل جمع بين مختلف أنواع الجدل، فاستعمل المنقول من كتب المسلمين، ومن كتب أهل الكتاب؛ لبيان بطلان احتجاج النصارى على صحة عقائدهم من المنقولات.

واستعمل كذلك الجدل العقلي؛ لبيان تناقض أصول العقائد التثليثية مع القواطع العقلية، وإبطال ما استعملوه من الأمثلة والتشبيهات لتسويغ وإثبات أصول عقائدهم.

٢-وفي باب إثبات النبوة لم يقتصر على نوعٍ واحدٍ من دلائل النبوة كما هي طريقة بعض المتكلمين في الاقتصار على المعجزات الحسيَّة، بل توسَّع الشيخ وتنوَّع في ذكر الطرق والدلائل الموصلة إلى صحة النبوة، فطريقته في

ذلك هي أن لوازم صدق مُدَّعي النبوة كثيرة، ولوازم كذب المتنبي الكاذب كثيرة أيضًا، وبينهما بون شاسع، ومن الخطأ الاقتصار على أحد الأدلة للتفريق بينهما، واعتقاد أنه الدليل الوحيد، بل لابد من التوسع في استخدام القرائن، كما يستخدم الإنسان العادي القرائن في معرفة صدق الصادق، أو أمانته، أو إتقانه لصنعته.

وهذا التنوع في الحجج من خصائص الكتابات الإسلامية في الجدل مع النصارى في الجملة، وقد يختص بعضهم ببعض أنواع الجدل -وسيأتي بيان ذلك في موضعه- وكتاب (الجواب الصحيح) يعد من أكثرها تنوعًا، وأوسعها في استخدام الحجج العقلية والنقلية، ويشابهه في ذلك كتاب (الإعلام) للقرطبي، و(الأجوبة الفاخرة) للقرافي.

أما التنوُّع في استعمال دلائل النبوة، فنجده كذلك عند القرطبي وغيره، ولكن أوسع الكتابات في استعمال الأدلة، وتعداد الطرق الموصلة إلى صحة النبوة هو كتاب (الدين والدولة) لابن ربن الطبري.

٣- ومن ذلك أنه كان يجمع في جدله بين طريق التسليم بصحة الكتب المقدسة والنقل منها والاحتجاج بها، وبين المنع والمنازعة في ثبوت النسبة إلى الأنبياء، وفي صحة الترجمة في مواطن، فكان يُصدِّر أكثر ردوده على النصوص الكتابية التي احتجوا بها بأن الاحتجاج يتوقف على مقدمات يتعذر إثباتها، مثل إثبات صحة النسبة وصحة الترجمة ونحوها، ثم ينتقل للرد المفصل على طريق التسليم بصحة هذا المنقول، وليس هناك من شكٍّ بأن الجمع بين التسليم والمنع في المناظرة يُقوِّيها ويُثْريها، وهذه الطريقة

أيضًا شائعة في مناقشات علماء المسلمين؛ كالجعفري والقرطبي وغيرهما.

لكن من حيث الجملة لم تشغل مسألة النقد الكتابي وإثبات وقوع التحريف اللفظي مساحةً كبيرةً من الكتاب مقارنةً بالمباحث الأخرى، وأكثر بحثه في مسألة النقد الكتابي تعلق بإمكانه، فرد على ما كان يتمسك به النصارى، ويمنعون لأجله إمكان وقوع التحريف، مثل كثرة النُّسخ واتفاقها ونحوه، لكنه لم يشتغل بإثبات وقوع التحريف، أو بضرب أمثلةٍ له، وقد أشبه في ذلك بعض الكتابات ككتاب (الرد الجميل) للغزالي وغيره، في حين احتلت هذه المسألة المساحة الكبرى عند الإمام ابن حزم والإمام الجويني، واعتنى بها أيضًا الجعفري والقرطبي والجويني غيرهم، وسيأتي مزيد كلام عن هذه المسألة بعد.

٤-أما لغة الخطاب، فقد كانت لغةً هادئةً خاليةً -غالبًا- من الإزراء والتوبيخ، وربما يعود ذلك إلى أن الرسالة المردود عليها لم تشتمل على إساءةٍ أو تقبيحٍ للمسلمين أو لنَبِيِّهم، بل كان صاحبها يزعم التسليم بنبوة سيد المرسلين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إلا أنها عنده مختصَّة بالعرب، فخلوُّ الرسالة المردود عليها من إساءة مباشرة، جعل الرد عليها هادئًا منصرفًا إلى الجدل، مقتصدًا في التوبيخ والتقبيح، بينما نجد لغةً أقوى وأشد عند القرطبي وغيره، وسببها أن المردود عليه قد اشتمل كتابه على إساءة للمسلمين، فاستحق المثل، ويأتي الكلام على هذا بتفصيلٍ أكثر.

٥-ومن مباحث الكتاب المهمة: موقف الشيخ من مجادلة أهل الكتاب، فمن المصنفين في هذا الباب مَن صرَّح أو أشار إلى عدم استحقاق أهل الكتاب إلى المجادلة؛ إما لاستحقاقهم للسيف، أو لضعف عقولهم وركونهم إلى

الباطل، وسيأتي شرح ذلك وأسبابه في الذيل على هذا الكتاب.

أما ابن تيمية فذكر كلامًا طويلًا في مشروعية مجادلتهم، وإقامة الحجة عليهم، وعدم تعارض ذلك مع الأمر بالجهاد، ورد على من ادعى نسخ الأمر بالمجادلة.

ومن النوع الثاني: وهي الأمور التي اختص بها كتاب ابن تيمية:

١- منها اتساع مادته، وكثرة مباحثه، وغزارة فوائده، فطريقة ابن تيمية في هذا الكتاب -بل وفي كتبه عامة- أنه لا يكتفي في الرد بوجهٍ واحدٍ، بل يعدد أوجه الرد والجدل، ويتطرق في أثناء هذا التعدد والتنوع في الرد إلى مباحث شتى من التفسير والحديث واللغة، والرد على الفلاسفة أو المناطقة أو المتكلمين، فلأجل هذا يعدُّ كتابه أوسع كتب الجدل قاطبةً في مباحثها وموادها.

٢- كما أن طريقة ابن تيمية في تقرير أدلته وصياغتها هي في الحقيقة طريقة متفردة، فالشيخ لا يكتفي بسرد الأدلة أو جمعها، بل يُسْهب في تقريرها، وشرح أوجه الدلالة منها، ورد الاعتراضات الواردة عليها.

فعلى سبيل المثال في تقريره لدلائل النبوة، ألزم المؤمنين بالنبوات بالإيمان بنبوة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن كل دليل على نبوة واحدٍ من الأنبياء هو في حق نبينا عَلَيْهِ السَّلَامُ أظهر وأكثر، فمن كذب به، عجز عن إثبات نبوة غيره.

ثم لمَّا ذكر المعجزات الحسية كأحد دلائل النبوة، شرح كونها تفيد العلم، ثم أجاب عن الاعتراض عليها، وكذلك فعل في إخباره عَلَيْهِ السَّلَامُ بالغيوب الماضية، فاستطرد في بيان أنه يتعذر أن يكون استفاد هذه الأخبار من الكتب السابقة... وهكذا.

ولا يكتفي الشيخ -كغيره من المصنفين- بسرد الدلائل والحجج، بل

يحسن إيرادها، ويحكم تقريرها، ويجيب الاعتراض عليها، حتى تصير ملزمةً مفحمةً للخصم لا فكاك له عنها.

٣- **موقفه من التحريف اللفظي**: من الأمور التي تستدعي التوقف عندها: هو موقفه من الكتب المقدسة السابقة؛ لأنها من المؤاخذات التي أُخذت على المصنف، ومن ذرائع أعدائه للتشنيع عليه، هي مسألة: «التحريف اللفظي»، فقد ذمَّه بعض مخالفيه بأنه «سهل متسامح مع اليهود والنصارى، يقول عن كتبهم: إنها لم تحرف تحريفًا لفظيًّا، فاكتسب بذلك إطراء المستشرقين له»(١).

وهذه الدعوى من الخطأ عليه -كما أشرنا سابقًا- وتخالف ما ذكره الشيخ في كتابه هذا، فقد صرَّح في أكثر من موطنٍ بأن القول بوقوع التحريف هو قول جمهور علماء المسلمين، ورجحه واختاره، فمن ذلك قوله: «وأما تغيير بعض ألفاظها، ففيه نزاع بين المسلمين، والصواب الذي عليه الجمهور أنه بدل بعض ألفاظها، كما ذكر ذلك في مواضعه»(٢).

وقال: «هذا مع أن في القرآن من الرد على أهل الكتاب في بعض ما حرَّفوه مثل دعواهم أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ صُلب، وقول بعضهم: إنه إلهٌ، وقول بعضهم: إنه ساحر، وطعنهم على سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقولهم: إنه كان ساحرًا، وأمثال ذلك ما يبين أنه لم يأخذ عنهم»(٣).

لكن الذي تفرد به ابن تيمية بين أكثر المصنفين في هذا الباب هو حكايته

---

(١) الإشفاق في أحكام الطلاق للكوثري (٢٦٨).

(٢) الجواب الصحيح (٣/ ٩).

(٣) السابق (٢/ ٧٨).

الخلاف في وقوع التحريف اللفظي، بينما لم يحكِ أكثر المصنفين خلافًا في ذلك.

وقد ذكر الخلاف في هذه المسألة كذلك الإمام ابن القيم، ومما قال: «وقد اختلف أقوال الناس فى التوراة التى بأيديهم: هل هى مبدلة، أم التبديل والتحريف وقع فى التأويل دون التنزيل؟ على ثلاثة أقوالٍ؛ طرفين، ووسط.

فأفرطت طائفةٌ، وزعمت أنها كلها أو أكثرها مبدلة مغيرة، ليست التوراة التى أنزلها الله تعالى على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتعرض هؤلاء لتناقضها، وتكذيب بعضها لبعضٍ، وغلا بعضهم فجوز الاستجمار بها من البول.

وقَابَلهم طائفة أخرى من أئمة الحديث والفقه والكلام، فقالوا: بل التبديل وقع فى التأويل، لا فى التنزيل، وهذا مذهب أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قال فى صحيحه: يحرفون: يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتابٍ من كتب الله تعالى، ولكنهم يحرفونه: يتأولونه على غير تأويله، وهذا اختيار الرازي فى تفسيره».

إلى أن قال: «وتوسطت طائفة ثالثة، وقالوا: قد زِيدَ فيها، وغير ألفاظ يسيرة، ولكن أكثرها باقٍ على ما أنزل عليه، والتبديل فى يسيرٍ منها جدًّا، وممن اختار هذا القول شيخنا فى كتابه: (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)»[1].

ومن الأمور التي نبَّه عليها شيخ الإسلام أيضًا: هي أن هذه الكتب -حتى على القول بالتحريف اللفظي- قد بقي فيها ما هو حكمٌ لله تعالى، ثابت النسبة إليه، وذكر على ذلك أدلةً منها، منها قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٥١).

ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٤٣].

قال الشيخ: «فعُلِمَ أن التوراة التي كانت موجودةً بعد خراب بيت المقدس، وبعد مجيء بختنصر، وبعد مبعث المسيح، وبعد مبعث محمد ﷺ فيها حكم الله»[(١)].

فَجِمَاعُ مذهب الشيخ أنَّ هذه الكتب وقع فيها التبديل، ولكن مع ذلك بقي فيها ما هو حكم الله، وهذا كما هو ظاهرٌ بخلاف ما نقله عنه بعض مخالفيه.

٤-ومن خصائص جدل ابن تيمية: أن اعتقاده في أبواب الإلهيات اعتقاد قرآني، ليس فيه آراء كلامية ضعيفة، وهو وإن كان يستعمل العقليات والجدل الكلامي، فإنما يستعمله لدفع الباطل والشبهة عن العقائد القرآنية، وليبين اتفاق المعقول والمنقول، وليس له أصول كلامية مخالفة للوحي الإلهي، أو موجبة لتأويله كما هي طريقة أكثر المتكلمين، ومَنْ تأثَّر بهم.

ولذا، نرى بعض الضعف والثغرات عند المتكلمين وأتباعهم في جدالهم مع أهل الكتاب أصلها بعض الآراء الكلامية الضعيفة، ولا نرى مثلها لابن تيمية، وسأضرب أمثلةً على هذا.

من ذلك: أن النصارى لما احتجوا على المسلمين بكلام الله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن كلامه لموسى إن كان منه سبحانه، يلزم من ذلك التجسيم، وإثبات اللهوات واللسان، وإن لم يكن من الله، فقد أثبتم كلامًا قائمًا بنفسه يقول: أنا الله، وهو نفس دعواهم في المسيح أنه كلمة الله.

فأجاب عن ذلك بعض العلماء؛ كالإمام القرطبي في (الإعلام) بأنه كلام

---

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٤٢٢).

الله، ولكنه كلام قديم بغير حرفٍ، ولا صوتٍ، أسمعه الله لموسى، وهذا جواب لا يخلو من إشكال، ويفتح أبواب الإيرادات؛ لأن السماع ما هو إلا إدراك الأصوات، فإثبات السمع مع نفي الصوت يلزم منه رد السمع إلى محض الإدراك، ويتعذر حينها التفريق بين السماع وبين العلم بكلام الله تعالى، وقد يلزم من هذا إبطال خصيصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بتكليم الله تعالى له، إلى غير ذلك من الإشكالات.

وأصل كلام القرطبي هو إثبات الكلام النفسي الأزلي كما هي طريقة الإمام أبي الحسن الأشعري، ومن تبعه.

أما ابن تيمية، فكان على طريقة أهل الحديث في صفة الكلام كغيرها من الصفات، يثبتها على ما يليق بالله تعالى، فالله تعالى يتكلم إذا شاء دون أن يلزم من ذلك إثبات اللسان واللهوات ونحو ذلك، بل كلام يليق بجلاله، متعلق بمشيئته.

وأجاب على قياسهم هذا من وجوهٍ عدةٍ، بريئة من هذه الإشكالات، منها على سبيل التمثيل، قال: «إن الله لما كلم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشجرة، كان الكلام المسموع مخالفًا لما يسمع من كلام الناس، ولهذا لم تُطِقْ بنو إسرائيل سماع ذلك الصوت، بل قالوا لموسى: صِفْ لنا ذلك، وهذا عندهم في التوراة، كما روى الخلال في كتاب (السُّنة)، عن أحمد بن حنبل، فيما رواه من حديث الزهري، قال: «لما سمع موسى كلام الله، قال: يا رب، هذا الكلام الذي أسمع هو كلامك؟ قال: نعم يا موسى، هو كلامي، وإنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسانٍ، ولي قوة الألسن كلها، وأنا أقوى من ذلك، وإنما كلمتك على قدر ما

يُطيق بدنك، ولو كلمتك بأكثر من هذا لمتَّ، فلما رجع موسى إلى قومه قالوا له: صِفْ لنا كلام ربك. فقال: سبحان الله! وهل أستطيع أن أصفه لكم؟ قالوا: فشبِّهه لنا. قال: هل سمعتم أصوات الصواعق التي تُقْبل في أحلى حلاوة سمعتموها، فكأنه مثله.

وأما المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان كلُّ أحدٍ يسمع صوته كصوت سائر الناس، لم يتميز عنهم بما يوجب أن يكونوا سمعوا كلام الله كما سمعه موسى بن عمران»[(١)].

وقال: «إنَّ قولهم: (إن الله خاطب الناس في المسيح، كما خاطب موسى النبي من العوسجة) من أبطل الباطل، فإنَّ الله باتفاق الأمم كلها لم يحلَّ في الشجرة، ولم يتَّحد بها، كما يزعمون هم أنه حلَّ بالمسيح، واتَّحد به، فإنه عندهم حلَّ بباطن المسيح، بل وبظاهره، واتحد به باطنًا وظاهرًا، والرب تعالى لم يكن في باطن الشجرة، ولا حلَّ فيها، ولا اتحد بها، وقول الله إنه كلمه منها، وناداه منها، كقوله أنه: نودي من شاطئ الواد الأيمن، وذلك مثل قوله: ﴿هَلْ أَتَنٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦]، وفي البقعة المباركة، ونحو ذلك.

وليس في شيءٍ من ذلك أن الرب تعالى حلَّ في باطن الوادي المقدس، أو البقعة المباركة، أو الجانب الأيمن، ولا أنه اتَّحد بشيءٍ من ذلك، ولا صار هو وشيء من ذلك جوهرًا واحدًا، ولا شخصًا واحدًا، كما يقول بعض النصارى: إن اللاهوت والناسوت صارا جوهرًا واحدًا، وبعضهم يقول: صارا شخصًا

---

(١) الجواب الصحيح (٤/ ١٠).

واحدًا، بل ولا قال أحد: إنه حل في شيءٍ من ذلك كحلول الماء في اللبن، أو النار في الحديد، كما يقول بعضهم: إن اللاهوت حلَّ في الناسوت. كذلك ولو قُدِّر أنَّ بعض الناس قد قال شيئًا من المقالات التي لا تدلُّ عليها الكتب الإلهية، ولا تعلم بالعقل، لم يكن قوله حُجَّةً، إذ لا يحتج إلا بنقلٍ ثابتٍ عن الأنبياء، أو بما يعلم بالعقل»(١).

ومن ذلك أيضًا: في مناظرة الإمام الرازي لمَّا احتج عليه النصراني بنصوص الصفات التي توهم التجسيم، كان جوابه أن روايتهم لها إنما هو لعدالة رواتها، ولا يلزم منه أنهم يقولون بظاهرها، بل يتأوَّلون منها ما يخالف المعقول، وهذا ردٌّ مشكلٌ يشتمل على إقرار بأن فيما يرويه الثقات ويصح من النصوص ما يخالف المعقولات، وهو جارٍ على طريقة المتكلمين ومن وافقهم بأن في إثبات الصفات ما يخالف المعقول، ويلزم رده أو تأويله.

بينما أجاب ابن تيمية على هذا جوابًا آخر متناسبًا مع طريقته في باب الصفات، ومما قال: «من آمن بما جاءت به الرسل، وقال ما قالوه من غير تحريفٍ للفظه، ولا معناه، فهذا لا إنكار عليه، بخلاف من ابتدع أقوالًا لم تقلها الرسل، بل هي تخالف ما قالوه، وحرَّف ما قالوه، إما لفظًا ومعنًى، وإما معنًى فقط، فهذا يستحق الإنكار عليه باتفاق الطوائف.

وأصل دين المسلمين أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه في كتبه، وبما وصفته به رسله من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، بل يثبتون له -

---

(١) السابق (٤/ ٢٠).

تعالى- ما أثبته لنفسه، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه، ويتبعون في ذلك أقوال رسله، ويجتنبون ما خالف أقوال الرسل، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، أي: عما يصفه الكفار المخالفون للرسل ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١]؛ لسلامة ما قالوه من النقص والعيب ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فالرسل وصفوا الله بصفات الكمال، ونزَّهوه عن النقائص المناقضة للكمال، ونزَّهوه عن أن يكون له مثلٌ في شيءٍ من صفات الكمال، وأثبتوا له صفات الكمال على وجه التفصيل، ونفوا عنه التمثيل، فأتوا بإثباتٍ مفصلٍ ونفيٍ مجملٍ، فمَن نفى عنه ما أثبته لنفسه من الصفات، كان معطلًا، ومن جعلها مثل صفات المخلوقين، كان ممثلًا، والمعطل يعبد عدمًا، والممثل يعبد صنمًا، وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وهو ردٌّ على الممثِّلة، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وهو ردٌّ على المعطلة»(١).

ورد على قياسهم ما يعتقدونه من الأقانيم بما يعتقده المسلمون من الصفات، فقال:

«وإذا كان كذلك، فهم في أمانتهم لم يقولوا ما قاله المسيح والأنبياء، بل ابتدعوا اعتقادًا لا يوجد في كلام الأنبياء، فليس في كلام الأنبياء لا المسيح ولا غيره ذكر أقانيم لله، لا ثلاثة ولا أكثر، ولا إثبات ثلاث صفات، ولا تسمية شيءٍ من صفات الله ابنًا لله، ولا ربًّا، ولا تسمية حياته روحًا، ولا أن لله ابنًا هو إله حق

---

(١) الجواب الصحيح (٤/ ٤٠٥).

من إله حق، من جوهر أبيه، وأنه خالق كما أن الله خالق، إلى غير ذلك من الأقوال المتضمنة لأنواعٍ من الكفر لم تنقل عن نبيٍّ من الأنبياء».

وقال: «فأين في كلام الأنبياء أن شيئًا من صفات الله، أو من مخلوقاته يقال فيه: إنه أقنوم، وإنه حق من إله حق، من جوهر أبيه، وإنه مساوٍ لله في الجوهر، وإنه خالقٌ، خَلَق كل شيءٍ، وإنه قعد عن يمين الله فوق العرش، وإنه الذي يقضي بين الناس يوم القيامة؟

وأين في كلام الأنبياء أن لله ولدًا قديمًا أزليًّا؟

ومن الذي سمى كلام الله أو علمه أو حكمته- مولودًا له، أو ابنًا له، أو شيئًا من صفاته مولودًا له أو ابنًا له؟

ومن الذي قال من الأنبياء: إنه مولود، وهو -مع ذلك- قديم أزلي؟

وأين في كلامهم أن لله أقنومًا ثالثًا هو حياته، ويسمى بروح القدس، وأنه أيضًا ربٌّ حيٌّ محيٍ.

فلو كان النصارى آمنوا بنصوص الأنبياء كما آمن المؤمنون، لم يكن عليهم ملامٍ، ومن اعترض على نصوص الأنبياء، كان لفساد فهمه، ونقص معرفته»[١].

فليتأمل المنصف حسن هذا الجواب وقوته، ومفاده أنه ليس في نصوص الأنبياء ما يوهم التجسيم، أو يخالف المعقول، وإنما يأتي ما يخالف المعقول من الخطأ على الأنبياء.

(١) الجواب الصحيح (٤/ ٤٠٩).

عملي في هذا المختصر

يمكن شرح طريقتي في هذا المختصر في عدة نقاطٍ:

١- من خلال قراءة الكتاب لاحظت أن للكتاب مباحث رئيسة، ومقاصد كبرى، ثم حصرت هذه المباحث والمقاصد في عدة عناوين:

مناقشة الحجج النقلية القرآنية التي احتج بها النصارى على تصحيح عقائدهم.

مناقشة الحجج النقلية من كتبهم المقدسة التي احتج بها النصارى على عقائدهم.

مناقشة الحجج العقلية التي احتج بها النصارى على عقائدهم.

دلائل النبوة، وجواب الاعتراضات الواردة عليها.

جواب بعض الشبهات الواردة على القرآن، وعلى النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢- ثم جمعت ما يتعلق بهذه العناوين من جنبات الكتاب، مع حذف ما قد يتكرر منها بلفظه أو معناه، وقد أبقيت على بعض ما قد يبدو مكررًا، ولكنه عند التأمل يشتمل على زيادةٍ في المعنى.

٣- حذفت كثيرًا من الاستطرادات والمباحث البعيدة عن مقصود الكتاب وموضوعه الأساس، مع كونها نافعةً ونفيسةً في نفسها، ولكنها تتعلق بميادين أخرى كمجادلة الفلاسفة أو الحلوليين أو بعض مباحث علم التفسير أو اللغة، ونحو ذلك.

٤-أحيانًا يذكر المصنف أوجهًا متكاثرةً من الدلالة على شيء واحد، فربما أكتفي بعرض بعض الأدلة أو أقواها، وأحذف غيرها اختصارًا واستغناءً بالمذكور، وأساس الاختيار يكون أحيانًا بالنظر إلى الثبوت، فأثبت أصح الأحاديث،

وأحيانًا يكون بالنظر إلى الدلالة، فأبقي أقوى الأدلة وأوضحها في الدلالة.

٥-بَقِيت بعد ذلك بعض المباحث التي لا تندرج تحت العناوين المذكورة، ولكنها مع ذلك متعلقة بمقاصده وموضوعه، بل وتعدُّ تأسيسيةً وتمهيديةً لها، مثل بيان موقف الشيخ من الكتب المقدسة، وشرحه لأصل الانحراف عند أهل الفرق والملل، ونقله عن الحسن بن أيوب اعتقادات أهم الفرق النصرانية، فجمعت هذه المباحث التمهيدية، ووضعتها كتقدمةٍ للكتاب، وتمهيدٍ لمباحثه ومقاصده.

٦-وضعت عناوين جانبيةً تحت العناوين الكلية؛ ليسهل الوصول لمباحث الكتاب.

٧-وضعت افتتاحيةً لكل بابٍ؛ لتنبيه القارئ على مباحث الباب ومقاصده.

٨-علَّقت على بعض المواطن من الكتاب أنواعًا مختلفةً من التعليقات، منها: تخريج أحاديثه ونقولاته. ومنها: تخريج نصوصه الكتابية المعزوَّة إلى الكتاب المقدس. ومنها: بيان وشرح بعض ما يحتاج إليه القارئ من الاصطلاحات الإسلامية والكتابية. ومنها: تقرير بعض الأدلة وشرحها، أو الزيادة عليها وتأييدها، وأحيانًا أضع ما يشابهها أو يؤيدها من الكتب الأخرى في هذا الباب. ومنها: نقولات من الكتب الأخرى المتعلقة بمجادلة أهل الكتاب تكون متناسبةً مع موضوع كلام الشيخ، ومكملةً له، وغير ذلك من التعليقات.

٩-ثم وضعت في صدر الكتاب مقدمةً من عمل المُخْتَصِر، تشتمل على نبذةً عن حياة الشيخ، ركزت فيها على ما يتعلق بموضوع الكتاب من ترجمة الشيخ، ولم أتوسع فيها، أو أتطرق لكل جوانب حياته، وتشتمل أيضًا على توصيفٍ مجملٍ لمنهجية الكتاب، واستعملت فيها للتوضيح بعض المقارنة بين الكتاب والكتب الأخرى في نفس الباب، وتشتمل أيضًا على منهج

العمل في المختصر، والفائدة المقصودة منه.

١٠-ثم وضعت في ذيل الكتاب رسالةً مختصرةً تشير باختصار إلى أكثر الجهود الإسلامية في مجادلة أهل الكتاب إلى عصر الشيخ.

ملاحظات مهمة:

الأصل أنني لم أتصرف في شيءٍ من كلام الشيخ، ولم أغير شيئًا من عباراته، وإنما تصرفت فقط بالحذف والاختصار، وبالتقديم والتأخير، وحيث كان الحذف في منتصف الكلام، أو لبعض الأدلة النقلية، فإنني أضع نقاطًا ثلاثًا كما بين القوسين (...) إشارةً إلى أن الحذف هنا في منتصف الكلام.

أما حين تكون الفقرة من موضعٍ آخر في الكتاب مخالف لموضع الفقرة السابقة عليها، فإنِّي أختم الفقرة السابقة بعزوها لموضعها، ثم أبدأ الفقرة الجديدة بعلامة بداية الفقرة (-) للإشارة إلى كونها من موطنٍ آخر.

وفي نهاية كل فقرةٍ أقوم بالعزو إلى الموطن الأصلي في الكتاب، وجعلت رقم الجزء والصفحة المذكور هو موطن بداية الكلام، أو ابتداء الفقرة المذكورة في الكتاب.

وقد اعتمدت في العزو على طبعة دار العاصمة ذات الأجزاء السبع (ستة أجزاء مع جزء فهارس).

الاستثناء الوحيد من قاعدتي في عدم التصرُّف في كلام الشيخ، هو ذكر تعداد الوجوه، ذلك أنني كنت أحيانًا أحذف بعض الوجوه من كلام الشيخ اختصارًا واجتزاءً بالمذكور، فلو تُرِكَ تعداد الوجوه بغير تصرُّفٍ، سيجد القارئ الوجه الأول -مثلًا- ثم يجد بعده الوجه الثالث، أو الرابع.

ثم بدا لي أنَّ هذا سيكون مشوشًا على ذهن القارئ، فآثرت الحفاظ على

ترتيب الوجوه بترتيب خاص للمختصر مخالف لترتيب الكتاب الأصلي، فالوجه الخامس -مثلًا- في كتاب الشيخ قد يصير هنا الرابع أو الثالث للمحافظة على الترتيب، وصونًا لتركيز القارئ.

أما بالنسبة للتخريج، فإنه يكون للنصوص الحديثية أو الكتابية عند ذكرها في الموطن الأول فقط، أما عند تكرُّر ذكرها، فأكتفي بالتخريج السابق.

المقصود وغير المقصود من هذا المختصر:

١-من المستحسن أن أبدأ هنا بذكر ما ليس مقصودًا منه؛ دفعًا للاشتباه والإشكال قبل البيان، فليس مقصودًا من الكتاب بالطبع أن يُسْتغنى به عن الكتاب الأصلي، أو يحل محله؛ لأن المحذوف من هذا المختصر ليس عديم الفائدة، أو في الموجود ما يُغْني عنه، وإنما في المحذوف فوائد كثيرة لكنها ليست متعلقةً بمقاصد الكتاب الكبرى وموضوعه الرئيس، وهو مجادلة أهل الكتاب.

٢-فما المقصود من المختصر إذًا؟

من أهم مقاصد هذا المختصر: هو تركيز وتكثيف المادة المتعلقة بالجدل مع أهل الكتاب، وإبطال حججهم العقلية والنقلية على أصول عقائدهم، وكذلك المادة المتعلقة بدلائل النبوة والمتعلقة بالبيان والشرح لنصوص الإسلام، وجواب الأسئلة وحل الإشكالات الواردة عليها؛ لأنَّ هذه المادة هي المقصود الأكبر من الكتاب، وهي أهمُّ محتوياته وموضوعاته، وأكثرها نفعًا في عصرنا الحاضر لطالب العلم، وكذا لطالب الهدى والبيان.

فحاولت تجريدها وتهذيبها لمبتغيها، وكذلك ترتيبها وعنونتها؛ لتجتمع فكرة القارئ على موضوعاته، وكذلك ليسهل الوصول إلى مباحثه ومحتوياته.

فطالب العلم الذي يحتاج لمباحث الكتاب لتقوية مادته في المناقشة سيسهل له هذا المختصر الوصول لمبتغاه، وتركيز المادة بين يديه، وجمع عقله عليها.

وطالب الهدى من المسلمين وغيرهم، سيجد سهولةً في الوصول إلى ما يريد من الجواب على أسئلته الحائرة، والبيان والشرح الوافي للأدلة العقلية والنقلية القرآنية والكتابية.

٣-وممَّا يجدر التنبيه عليه أن المنتفع من هذا الكتاب ليس فقط المختص بالجدل الإسلامي مع أهل الكتاب، بل إنَّ أيَّ مشتغل بالبيان لأصول الإسلام، ودفع الإشكال والاشتباه عنها، وتثبيت دلائل النُّبوة، فإنه سيجد في الكتاب من الحجج والطرق ما يقوي به عدته، ويزود به مادته، ويحسن طريقته في بابه.

٤-من أهم مقاصد الكتاب أيضًا: هو التحقق والتدرب على طريقة ابن تيمية في الجدل وتقرير الأدلة، فتكثيف المادة الجدلية في الكتاب قد يعين القارئ على التحقق بها، والتدرب عليها، واكتساب مهارات جدلية، وأدوات نقدية من طريقة الإمام.

كما أن لغة ابن تيمية العلمية الرصينة الهادئة، والأمانة في النقل، والعدل مع الخصم، من آداب الجدل التي يكتسبها الناظر في هذا المختصر وأصله.

٥-ومن مقاصد الكتاب أيضًا: أن يكون مُعينًا وممهدًا للخائض المتبحر الذي لن يقنع بالمختصر، ويسمو إلى قراءة الأصل واستفادته، فإن هذا المختصر سيمهد له الطريق إليه، ويبرز له مقاصده وحججه الكبرى.

أما المقتصد الذي لا تسمو همَّته لقراءة الكتاب كله، فإن المختصر يضع بين يديه لُباب مادته، ومقاصده الجدلية الكبرى.

مقدمات

تمهيد

تشتمل هذه المقدمات على سبب تصنيف الكتاب، وبعض المباحث التمهيدية الإجمالية، مثل: مشروعية مجادلة أهل الكتاب، ومناقشة القول بنسخها، ومعتقد المسلمين في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واختلاف النصارى، وأشهر أقوالهم فيه، ووصف إجمالي لما انتهى إليه دينهم وشرائعهم.

وآراء الشيخ في بعض القضايا الكبرى، مثل: الخلاف حول معصومية الكتب المقدسة، ووقوع التبديل فيها، ورد بعض الاعتراضات الواردة على ما رجحه، والمقارنة بين تدوين القرآن وغيره من الكتب، والمقارنة بين أمة الإسلام وغيرها من الأمم، والشرح والبيان الإجمالي لضعف وتعذر الاحتجاج العقلي أو النقلي لليهود أو النصارى على المسلمين ودينهم ونبيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

سبب تصنيف الكتاب، وأهم مقاصده

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- «وكان من أسباب نصر الدين وظهوره أن كتابًا ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى، بما يحتج به علماء دينهم، وفضلاء ملَّتهم قديمًا وحديثًا من الحجج السمعية، والعقلية، فاقتضى ذلك أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب، وبيان الخطأ من الصواب؛ لينتفع بذلك أولو الألباب، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان، والكتاب[1]...

فإن هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك، ويتناقلها علماؤهم بينهم، والنسخ بها موجودة قديمة، وهي مضافةٌ إلى بولص الراهب أسقف صيدا الأنطاكي، كتبها إلى بعض أصدقائه، وله مصنفات في نصر النصراني...

ونحن -ولله الحمد والمنَّة- نُبيِّن أن كل ما احتجوا به من حُجَّة سمعية من القرآن، أو من الكتب المتقدمة على القرآن، أو عقلية، فلا حجة لهم في شيءٍ منها، بل الكتب كلها مع القرآن، والعقل حجة عليهم لا لهم، بل عامة ما يحتجون به من نصوص الأنبياء ومن المعقول فهو نفسه حجة عليهم، ويظهر منه فساد قولهم مع ما يفسده من سائر النصوص النبوية، والموازين التي هي مقاييس عقلية.

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، والكتاب هو النص، والميزان هو العدل، كما نص الشيخ على ذلك في مواطن.

وذلك أن دين النصارى الباطل إنما هو دين مبتدع، ابتدعوه بعد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغيَّروا به دين المسيح، فَضلَّ منهم من عدل عن شريعة المسيح إلى ما ابتدعوه، ثم لما بَعث الله محمدًا ﷺ، كفروا به، فصار كفرهم وضلالهم من هذين الوجهين: تبديل دين الرسول الأول، وتكذيب الرسول الثاني.

كما كان كفر اليهود بتبديلهم أحكام التوراة قبل مبعث المسيح، ثم تكذيبهم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ونُبيِّن -إن شاء الله- أن ما عليه النصارى من التثليث والاتحاد لم يدلَّ عليه شيءٌ من كتب الله، لا الإنجيل، ولا غيره، بل دلَّت على نقيض ذلك، ولا دلَّ على ذلك عقلٌ، بل العقل الصريح مع نصوص الأنبياء تدل على نقيض ذلك، بل وكذلك عامَّة شرائع دينهم محدثة مبتدعة، لم يشرعها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ»(١).

مشروعية مجادلة أهل الكتاب:

«وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فهو أمرٌ للمؤمنين أن يقولوا الحقَّ الذي أوجبه الله عليهم، وعلى جميع الخلق ليرضوا به الله، وتقوم به الحجة على المخالفين، فإن هذا من الجدال بالتي هي أحسن، وهو أن تقول كلامًا حقًّا يلزمك، ويلزم المنازع لك أن يقوله، فإن وافقك وإلَّا ظهر عناده وظلمه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ

---

(١) (١/ ٩٨).

مُخۡلِصُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٩]، فإنَّا مشتركون في أنه ربنا كلنا، وأن عمل كل عاملٍ له لا لغيره، وامتزنا نحن بأنَّا مخلصون له، وأنتم لستم مخلصين له، فأوجب هذا أنَّ الحقَّ معنا دونكم، وأنَّ أعمالنا صالحةٌ مقبولةٌ، وأعمالكم مردودة»(١).

هل نسخت مشروعية المجادلة؟

وآية الجزية هي قوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]، وهذه آية السيف مع أهل الكتاب، وقد ذكر فيها قتالهم إذا لم يؤمنوا حتى يعطوا الجزية، والنبي ﷺ لم يأخذ من أحدٍ الجزية إلا بعد هذه الآية، بل وقالوا: إن أهل نجران أول مَن أخذت منهم الجزية، كما ذكر ذلك أهل العلم كالزهري وغيره، فإنه باتفاق أهل العلم لم يضرب النبي ﷺ على أحدٍ قبل نزول هذه الآية جزيةً؛ لا من الأميين، ولا من أهل الكتاب، ولهذا لم يضربها على يهود قينقاع والنضير وقريظة، ولا ضربها على أهل خيبر؛ فإنها فتحت سنة سبعٍ قبل نزول آية الجزية، وأقرَّهم فلاحين، وهادنهم هدنةً مطلقةً، قال فيها: نقرُّكم ما أقرَّكم الله.

فإذا كان أول ما أخذها من وفد نجران، علم أنَّ قدومهم عليه، ومناظرته لهم، ومحاجته إيَّاهم، وطلبه المباهلة معهم، كانت بعد آية السيف التي فيها قتالهم، وعلم بذلك أنَّ ما ذكَره الله تعالى من مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا، محكمٌ لم ينسخه شيء، وكذلك ما ذكره تعالى من

---

(١) (٣/ ٨٢).

مجادلة الخَلق مطلقًا بقوله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فإن من الناس من يقول: آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف؛ لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة المشروعة.

وهذا غلطٌ، فإن النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضًا للحكم المنسوخ، كمناقضة الأمر باستقبال المسجد الحرام في الصلاة للأمر باستقبال بيت المقدس بالشام، ومناقضة الأمر بصيام رمضان للمقيم للتخيير بين الصيام وبين إطعام كل يومٍ مسكينًا، ومناقضة نهيه عن تعدي الحدود التي فرضها للورثة للأمر بالوصية للوالدين والأقربين، ومناقضة قوله لهم: كفُّوا أيديكم عن القتال لقوله: قاتلوهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ ﴾ [النساء: ٧٧]، فأمره لهم بالقتال ناسخٌ لأمره لهم بكفِّ أيديهم عنهم.

فأما قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]، وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فهذا لا يناقضه الأمر بجهاد من أمر بجهاده منهم، ولكن الأمر بالقتال يناقض النهي عنه، والاقتصار على المجادلة.

فأمَّا مع إمكان الجمع بين الجدال المأمور به، والقتال المأمور به، فلا منافاة بينهما، وإذا لم يتنافيا بل أمكن الجمع، لم يجز الحكم بالنسخ، ومعلوم أن كلًّا منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر، وأن استعمالهما جميعًا أبلغ في إظهار الهدين ودين الحق.

ومما يبين ذلك وجوهٌ:

أحدها: أن مَن كان من أهل الذمة والعهد والمستأمن منهم لا يجاهد بالقتال، فهو داخلٌ فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتي هي أحسن، وليس هو داخلًا فيمن أمَر الله بقتاله.

الثاني: أنه قال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فالظالم لم يؤمر بجداله بالتي هي أحسن، فمن كان ظالمًا مستحقًّا للقتال، غير طالبٍ للعلم والدين، فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يجادلون بالتي هي أحسن بخلاف مَنْ طلب العلم والدين، ولم يظهر منه ظلمٌ؛ سواء كان قصده الاسترشاد، أو كان يظن أنه على حقٍّ يقصد نصر ما يظنه حقًّا، ومن كان قصده العناد، يعلم أنه على باطلٍ، ويجادل عليه، فهذا لم يؤمر بمجادلته بالتي هي أحسن، لكن قد نجادله بطرقٍ أخرى نُبيِّن فيها عناده وظلمه وجهله؛ جزاءً له بموجب عمله.

الثالث: أنه سبحانه قال: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ [التوبة: ٦]، فهذا مستجيرٌ مستأمنٌ، وهو من أهل الحرب، أمر الله بإجارته حتى تقوم حجة الله عليه، ثم يبلغه مأمنه، وهذا في سورة (براءة) التي فيها نقض العهود، وفيها آية السيف، وذكر هذه الآية في ضمن الأمر بنقض العهود؛ ليبين سبحانه أنه مثل هذا يجب أمانه حتى تقوم عليه الحجة، لا تجوز محاربته كمحاربة مَن لم يطلب أن يبلغ حجة الله عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، قد علم أنَّ المراد أنه

يسمعه سمعًا يتمكن معه من فهم معناه، إذ المقصود لا يقوم بمجرد سمع لفظٍ لا يتمكن معه من فهم المعنى، فلو كان غير عربيٍّ، وجب أن يترجم له ما يقوم به عليه الحجة، ولو كان عربيًّا، وفي القرآن ألفاظ غريبة ليست لغته، وجب أن يُبيَّن له معناها، ولو سمع اللفظ كما يسمعه كثير من الناس، ولم يفقه المعنى، وطلب منَّا أن نفسره له، ونبين له معناه، فعلينا ذلك، وإن سألنا سؤالًا يقدح في القرآن، أجبناه عنه، كما كان النبي ﷺ إذا أورد عليه بعض المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالًا، يوردونه على القرآن، فإنه كان يجيبه عنه، كما أجاب ابن الزبعرى لمَّا قاس المسيح على آلهة المشركين، وظن أن العلة في الأصل بمجرد كونهم معبودين، وأن ذلك يقتضي كل معبودٍ غير الله، فإنه يُعذَّب في الآخرة، فجعل المسيح -مثلًا- لآلهة المشركين، قاسهم عليه قياس الفرع على الأصل، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧، ٥٨].

فبيَّن سبحانه الفرق المانع من الإلحاق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]، وبيَّن أن هؤلاء القائسين ما قاسوه إلا جدلًا محضًا لا يوجب علمًا؛ لأن الفرق حاصل بين الفرع والأصل، فإن الأصنام إذا جعلوا حصبًا لجهنم، كان ذلك إهانةً وخزيًا لعابديها من غير تعذيب من لا يستحق التعذيب، بخلاف ما إذا عذب عباد الله الصالحون بذنب غيرهم، فإنَّ هذا لا يفعله الله تعالى، لا سيما عند جماهير المسلمين، وسائر أهل الملل سلفهم وخلفهم الذين يقولون: إنَّ الله لا يخلق ويأمر إلا لحكمةٍ، ولا يظلم

أحدًا فينقصه شيئًا من حسناته، ولا يحمل عليه سيئات غيره، بل ولا يعذب أحدًا إلا بعد إرسال رسولٍ إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

وكذلك لما أورد بعض النصارى على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] ظنًّا منه أن هارون هذا هو هارون أخو موسى بن عمران، وأن عمران هذا هو عمران أبو مريم أم المسيح، فسئل النبي ﷺ عن ذلك، فأجاب بأن هارون هذا ليس هو ذاك، ولكنهم كانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين(١).

وكان المسلمون يوردون الأسئلة عليه، كما أورد عليه عمر عام الحديبية لمَّا صالح المشركين ولم يدخل مكة، فقال له: ألم تكن تُحدِّثنا أنَّا نأتي البيت، ونطوف به؟ قال: «**بلى، أقلتُ لك أنك تأتيه في هذا العام؟**». قال: لا. قال: «**فإنَّك آتيه، ومطوف به**»(٢)، وكذلك أجابه أبو بكرٍ، ولم يكن سمع جواب النبي ﷺ له، ومعلومٌ أنه ليس في ظاهر اللفظ توقيت ذلك بعامٍ، ولكن السائل ظن ما لا يدل اللفظ عليه.

وكذلك لمَّا قال: «**مَن نُوقش الحساب عُذِّب**»، «قالت له عائشة: ألم يقل الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]،

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢١٣٥) من حديث المغيرة بن شعبة، قال: لما قدمت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرءون: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨]، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك، فقال: «**إنَّهم كانوا يُسمُّون بأنبيائهم والصَّالحين قبلهم**».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٣١).

فقال: «**ذلك العرض، ومَن نُوقِش الحساب عُذِّب**»[(١)]، ومعلومٌ أن الحساب اليسير لا يتناول مَن نوقش، وقد زادها بيانًا، فأخبر أنه العرض لا المقابلة المتضمنة للمناقشة، وأمَّا ما في القرآن من ذكر أقوال الكفار وحججهم وجوابها، فهذا كثيرٌ جدًّا، فإنه يجادلهم تارةً في التوحيد، وتارةً في النبوات، وتارةً في المعاد، وتارةً في الشرائع بأحسن الحجج وأكملها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

وقد أخبر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن أولي العزم من الرسل بمجادلة الكفار، فقال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢]، وقال عن الخليل: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [الأنعام: ٨٠] إلى قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وأمَر الله تعالى محمدًا ﷺ بالمجادلة بالتي هي أحسن، وذمَّ سبحانه مَنْ جادل بغير علمٍ، أو في الحق بعدما تبيَّن، ومن جادل بالباطل: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦]...

الوجه الرابع: وهو أن يقال: المنسوخ هو الاقتصار على الجدال، فكان النبي ﷺ في أوَّل الأمر مأمورًا أن يجاهد الكفار بلسانه لا بيده، فيدعوهم ويعظهم ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويجاهدهم بالقرآن جهادًا كبيرًا، قال تعالى في سورة الفرقان وهي مكية: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٣)، ومواطن أخرى، ومسلم في صحيحه (٢٨٧٦).

جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢]، وكان مأمورًا بالكف عن قتالهم لعجزه وعجز المسلمين عن ذلك، ثم لما هاجر إلى المدينة، وصار له بها أعوان، أذن له في الجهاد، ثم لما قَوَوا، كتب عليهم القتال، ولم يكتب عليهم قتال مَن سالمهم؛ لأنهم لم يكونوا يطيقون قتال جميع الكفار؛ فلمَّا فتح الله مكة، وانقطع قتال قريش ملوك العرب، ووفدت إليه وفود العرب بالإسلام، أمَره الله تعالى بقتال الكفار كلهم إلا مَن كان له عهد مؤقت، وأمره بنبذ العهود المطلقة، فكان الذي رفعه ونسخه ترك القتال.

وأما مجاهدة الكفار باللسان، فما زال مشروعًا من أول الأمر إلى آخره، فإنه إذا شرع جهادهم باليد، فباللسان أَوْلَى، وقد قال النبي ﷺ: «**جاهدوا المشركين بأيديكم، وألسنتكم، وأموالكم**»(١)، وكان ينصب لحسان منبرًا في مسجده يجاهد فيه المشركين بلسانه جهاد هجوٍ، وهذا كان بعد نزول آيات القتال، وأين منفعة الهجو من منفعة إقامة الدلائل والبراهين على صحة الإسلام، وإبطال حجج الكفار من المشركين وأهل الكتاب؟

الوجه الخامس: أنه من المعلوم أن القتال إنما شُرِعَ للضرورة، ولو أنَّ الناس آمنوا بالبرهان والآيات لما احتيج إلى القتال، فبيان آيات الإسلام وبراهينه واجب مطلقًا وجوبًا أصليًّا، أما الجهاد فمشروع للضرورة، فكيف يكون هذا مانعًا من ذلك؟

الوجه السادس: وهو أنَّ القتال لا يكون إلا لظالمٍ، فإن مَن قاتل المسلمين لم يكن إلا ظالمًا معتديًا، ومَنْ قامت عليه الحجة، فشاقَّ الرسول من بعد ما تبيَّن له الهدى، واتَّبع غير سبيل المؤمنين، لم يكن إلا ظالمًا.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٥٠٥)، والنسائي في المجتبى (٣٠٩٦).

وأما المجادلة فقد تكون لظالمٍ؛ إما طاعن في الدين بالظلم، وإما من قامت عليه الحجة الظاهرة، فامتنع من قبولها، وقد تكون لمسترشد طالب حقٍّ لم يبلغه، وإما من بلغه بعض أعلام نُبوَّة محمدٍ ﷺ، ودلائل نبوته، ولكن عُورض ذلك عنده بشبهاتٍ تنافي ذلك، فاحتاج إلى جواب تلك المعارضات، وإما طالب لمعرفة دلائل النبوة على الوجه الذي يعلم به ذلك، فإذا كان القتال الذي لا يكون إلا لدفع ظلم المقاتل مشروعًا، فالمجادلة التي تكون لدفع ظلمه ولانتفاعه وانتفاع غيره مشروعةٌ بطريق الأَوْلَى...

الوجه السابع: أن كثيرًا من أهل الكتاب يزعم أن محمدًا ﷺ وأمته إنما أقاموا دينهم بالسيف لا بالهدى والعلم والآيات، فإذا طلبوا العلم والمناظرة، فقيل لهم: ليس لكم جواب إلا السيف، كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب، وكان هذا من أعظم ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام، وأنه ليس دين رسولٍ من عند الله، وإنما هو دين ملكٍ أقامه بالسيف»[١].

بيان أن دين الأنبياء عليهم السلام دين واحد:

«فدين الأنبياء والمرسلين دينٌ واحدٌ، وإن كان لكلٍّ من التوراة والإنجيل والقرآن شِرْعةٌ ومنهاجٌ، ولهذا قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته[٢]، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: **«إنَّا معاشرَ الأنبياء ديننا واحد، وإن أَوْلَى الناس بابن مريم لأنا، إنَّه ليس بيني وبينه نبي»**، فدين المرسلين يخالف دين المشركين

(١) (١/ ٢١٦).

(٢) البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥)، بلفظ: **«أنا أَوْلَى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علَّات، ليس بيني وبينه نبيٌّ»**.

المبتدعين الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعًا، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٠ - ٥٣].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]»[1].

-«وكان دينه الذي ارتضاه الله لنفسه هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، ولا يقبل من أحدٍ دينًا غيره؛ لا من الأولين، ولا من الآخرين، وهو دين الأنبياء وأتباعهم، كما أخْبَر الله تعالى بذلك عن نوحٍ ومَنْ بعده إلى الحواريين، قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ

---

(١) (١/ ٦٦).

أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧١، ٧٢].

وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

وقال تعالى عن يوسف الصِّدِّيق: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال تعالى عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وأخبر تعالى عن السَّحرة أنهم قالوا لفرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وقال تعالى عن بلقيس ملكة اليمن: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال تعالى عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى عن المسيح: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

فهذا دين الأوَّلين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم، هو دين الإسلام، وهو

عبادة الله وحده لا شريك له، وعبادته تعالى في كل زمانٍ ومكانٍ، بطاعة رسله عليهم السلام، فلا يكون عابدًا له مَن عَبَده بخلاف ما جاءت به رسله»[١].

اعتقاد المسلمين في عيسى عليه السلام إجمالاً:

-«قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، قال معمر عن قتادة: وكلمته ألقاها إلى مريم هو قوله: كن فكان، وكذلك قال قتادة: ليس الكلمة صار عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى.

وكذلك قال الإمام أحمد في مصنفه الذي صنفه في كتابه في الرد على الجهمية[٢]، وذكره عنه الخلال والقاضي أبو يعلى، قال أحمد: ثم إن الجهم ادعى أمرًا، فقال: إنا وجدنا في كتاب الله آيةً تدل على أن القرآن مخلوق. قلنا: أي آيةٍ؟ قال: قول الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ﴾ [النساء: ١٧١]، فقلنا: إنَّ الله منعكم الفهم في القرآن، عيسى عليه السلام تجري عليه ألفاظٌ لا تجري على القرآن؛ لأن عيسى يجري عليه نسمة ومولود وطفل وصبي وغلام يأكل ويشرب، وهو يخاطب بالأمر والنهي، يجري عليه الوعد والوعيد، هو من ذرية نوح، ومن ذرية إبراهيم، ولا يحلُّ لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى، هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال عيسى؟ ولكن المعنى في قوله جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: كن، فكان عيسى بـ (كن)، وليس عيسى هو الكن، ولكن بالكن كان، فالكن من الله قوله،

---

(١) (١/ ٨١).

(٢) الرد على الجهمية والزنادقة (١٢٥).

وليس الكن مخلوقًا.

وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالوا: عيسى روح الله وكلمته؛ لأن الكلمة مخلوقة. وقالت النصارى: روح الله من ذات الله، وكلمة الله من ذات الله، كما يقال: هذه الخرقة من هذا الثوب، وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة[١].

قال أحمد: وأما قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، يقول من أمره كان الروح فيه؛ كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، يقول من أمره، وتفسير روح الله إنما معناها أنها روح بكلمة الله، خلقهم الله كما يقال: عبد الله، وسماء الله، وفي نسخةٍ: روح يملكها الله، خلقها الله»[٢].

---

(١) وقد يرد على هذا سؤال هو: إذا صح ما تقولون، فما خصيصة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بذلك، فكل أحدٍ إنما يوجد بإرادة الله وأمره كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، فأي فضيلةٍ لعيسى على هذا؟ وأي معنى زائدٍ حمله هذا النص؟

يجيب الغزالي في الرد الجميل (١٠١) على نحو هذا السؤال بقوله: إن كل شيءٍ له سبب قريب، وسبب بعيد، فالأكثر إضافته إلى سببه القريب، فيقال عند رؤية الرياض الخضر: انظر إلى صنع المطر، والله هو الصانع الحقيقي، ولو رئي نبات نضر على صلد، والشمس في الأسد، لقيل: انظر إلى صنع الإله، فيصرِّح بالسبب الحقيقي؛ لفوات السبب العادي، وإذا وضح هذان الأصلان، نقول: السبب القريب في حق عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمَّا دلَّ الدليل على عدم وقوعه؛ أضيف تكوينه إلى السبب البعيد، وهو الكلمة؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ مخلوق بكلمة الله القائل بها لكل مخلوقٍ: «كن»، فإذا هو كائن، فلهذا السبب صرح في حقه بذلك، إشارةً إلى انتفاء السبب القريب العادي، وأنه إنما كون الكلمة التي هي «الكن»، من غير منيٍّ، يمكن إضافة التكوين إليه على ما شرح.اهـ.

(٢) (٢/ ١٦).

شرح مجمل لاختلاف النصارى، وأقوال أهمِّ فرقهم في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من كلام الحسن بن أيوب[1]:

- «ومن أخبر الناس بمقالاتهم: مَن كان من علمائهم، وأسلم على بصيرةٍ بعد الخبرة بكتبهم ومقالاتهم؛ كالحسن بن أيوب الذي كتب رسالةً إلى أخيه علي بن أيوب يذكر فيها سبب إسلامه، ويذكر الأدلة على بطلان دين النصارى، وصحة دين الإسلام، قال في رسالته إلى أخيه لمَّا كتب إليه يسأله عن سبب إسلامه بعد أن ذكر خطبته: (ثم أعلمك -أرشدك الله- أن ابتداء أمري في الشك الذي دخلني فيما كنت عليه، والاستبشاع بالقول به من أكثر من عشرين سنةً لما كنت أقف عليه في المقالة من فساد التوحيد لله عَزَّ وَجَلَّ بما أدخل فيه من القول بالثلاثة الأقانيم وغيرها ممَّا تضمَّنته شريعة النصارى، ووضع الاحتجاجات التي لا تزكو ولا تثبت في تقرير ذلك، وكنت إذا تبحَّرته، وأَجَلْتُ الفكرَ فيه، بان لي عواره، ونفرت نفسي من قبوله، وإذا فكرت في دين الإسلام الذي مَنَّ الله

---

(١) الحسن بن أيُّوب من علماء النصارى الذين اعتنقوا الإسلام، ثم كتب رسالةً إلى أخيه ذكر فيها سبب إسلامه، ثمَّ احتجَّ على النصارى بأدلةٍ من المعقول والمنقول من كتابهم، وقد نقل ابن تيمية عنه كثيرًا، وأثنى على معرفته وعلمه، ومما قال: «وهو ممَّن كان من أجلاء علماء النصارى، وأخبر الناس بأقوالهم، فنَقْله لقولهم أصح من نقل غيره، وقد ذكر في كتابه من الرد على ما يحتجون به من الحجج العقلية والسمعية، وما يبطل قولهم من الحجج السمعية والعقلية ما يبين ذلك». الجواب الصحيح (٢/ ٧٤).

وقد ذكره أيضًا ابن النديم في الفهرست (٢٢١)، وقال: الحسن بن أيوب من المتكلمين، وله من الكتب كتاب إلى أخيه علي بن أيوب في الردِّ على النصارى، وتبيين فساد مقالتهم، وتثبيت النُّبوة.

عليَّ به، وجدت أصوله ثابتةً، وفروعه مستقيمةً، وشرائعه جميلةً...

قال: ولمَّا نظرت في مقالات النصارى، وجدت صنفًا منهم يعرفون بالأريوسية(١) يجردون توحيد الله، ويعترفون بعبودية المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولا يقولون فيه شيئًا

---

(١) نسبةً لأريوس الليبي الذي تعلم في مدرسة لوقيانوس الأنطاكي، ثم رحل إلى الإسكندرية، ورسم كاهنًا بكنيستها.

وقد اختلفت عبارات علماء المسلمين في شرح مذهب آريوس في المسيح، فمنهم مَن جعلها مطابقةً لعقائد المسلمين في المسيح كابن تيمية، حيث قال في الجواب الصحيح (٢/ ٤٠٦): عبد الله آريوس الذي جعل المسيح عبدًا لله كما يقول المسلمون. ونحو ذلك قال الإمام ابن القيم في هداية الحيارى، والقرطبي في الإعلام، وهو الظاهر أيضًا من كلام الحسن بن أيوب، بينما نجد عند الإمام ابن حزم بعض التباين بين مذهب آريوس ومذهب المسلمين في المسيح، قال ابن حزم في الفصل: والنصارى فرقٌ، منهم أصحاب آريوس وكان قسيسًا بالإسكندرية، ومن قوله: التوحيد المجرد، وأن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبد مخلوق، وأنه كلمة الله تعالى التي بها خلق السموات والأرض.

ونحوه الشهرستاني في الملل والنحل (٢/ ٣٢): وزعم آريوس أنَّ الله واحد، سمَّاه أبًا، وأن المسيح كلمة الله وابنه على طريق الاصطفاء، وهو مخلوقٌ قبل خَلْق العالم، وهو خالق الأشياء، وبنحو ذلك شرح صاحب كتاب: «أدلة الوحدانية».

فعلى قول ابن حزم والشهرستاني أن آريوس كان يرى المسيح مخلوقًا، ولكنه ليس كغيره من المخلوقات، بل هو أول المخلوقات الذي خلق غيره من المخلوقات (كما عند الشهرستاني)، أو هو الكلمة التي خلق الله بها المخلوقات (على قول ابن حزم).

- ومع أنَّه لم يصل إلينا شيءٌ مما كتبه آريوس، أو مما تصح نسبته إليه، فإن المذكور في بعض المراجع النصرانيَّة يشير إلى أن أدق شرح لمذهب آريوس هو ما ذكره الإمام ابن حزم، وأن آريوس مع كونه يرى أن الابن ليس إلهًا وليس أزليًا، وأنه مخلوق ومسبوق بالعدم، ولكنه مع ذلك يرى أنه مشابهٌ للأب في الجوهر، وأنه الكلمة التي خلقها الله، ثم خلق بها الكون، وهذا كما هو ظاهر يخالف معتقد المسلمين في المسيح من وجوهٍ. ينظر: تاريخ الفكر الكنسي (٤/ ٦١٨)، تاريخ الكنيسة القبطية (٢٠٩)، الإسكندرية تاريخ ودليل (١١٨)، مختصر تاريخ الكنيسة (١٥٥).

مما يقوله النصارى من ربوبيةٍ، ولا بنوةٍ خاصة، ولا غيرهما، وهم متمسكون بإنجيل المسيح، مقرُّون بما جاء به تلاميذه والحاملون عنه، فكانت هذه الطبقة قريبة من الحق، مخالفة لبعضه في جحود نبوة محمد ﷺ، ودفع ما جاء به من الكتاب والسُّنة.

قال: ثم وجدت منهم صنفًا يعرفون باليعقوبية(١)، يقولون: إن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين، إحداهما: طبيعة الناسوت. والأخرى: طبيعة اللاهوت، وأن هاتين الطبيعتين تركبتا كما تركبت النفس مع البدن، فصارتا إنسانًا واحدًا، وجوهرًا واحدًا، وشخصًا واحدًا، وأن هذه الطبيعة الواحدة والشخص الواحد هو المسيح، وهو إله كله، وإنسان كله، وهو شخص واحد، وطبيعة واحدة من طبيعتين، وقالوا: إنَّ مريم ولدت الله، تعالى الله عمَّا يقولون، وإن الله مات وتألَّم وصلب متجسدًا، ودفن وقام من بين الأموات، وصعد إلى السماء، فجاءوا من القول بما لو عرض على السماء لانفطرت، أو على الأرض

---

(١) سموا بذلك نسبةً ليعقوب البرادعي، وليس هو مَنْ أنشأ المذهب، بل ظهر المذهب مع انعقاد مجمع أفسس الثاني في القرن الخامس، ولكن يعقوب نصره، ونشط في نشره، ويعقوب وُلِدَ في أواخر القرن الخامس في قريةٍ بالقرب من أعالي الفرات، ثم توجَّه إلى القسطنطينية لينصر مذهب الطبيعة الواحدة حتى رسم مطرانًا عامًّا على كل الكنائس الأرثوذكسية، وعمل على نشر المذهب، وضم شيعه المتفرقة.

- ومذهب اليعقوبية أو الطبيعة الواحدة هو الغالب على الكنائس الشرقية في مصر وبلاد الشام والحبشة وغيرها، وإن كان للمنتمين إليها مناقشات حول تسميتهم باليعاقبة أو نسبتهم ليعقوب، لن تفيد الإطالة بذكرها. راجع تاريخ الكنيسة القبطية (٢٧٣)، تاريخ المسيحية الشرقية (١٥٧)، المسيحية أحمد شلبي (١٩٣)، محاضرات في النصرانية محمد أبو زهرة (١٤٦).

لانشقت، أو على الجبال لانهدت، فلم يكن لمحاجة هؤلاء وجهٌ، إذ كان كفرهم بما صرَّحوا به أوضح من أن يقع فيه الشك، وكان غيرهم من النصارى كالمالكانية والنسطورية يشهدون بذلك عليهم.

قال: ثم نظرت في قول الملكانية[(١)]، وهم الروم، وهم أكثر النصارى، فوجدتهم قالوا: إنَّ الابن الأزلي الذي هو الله الكلمة تجسَّد من مريم تجسدًا كاملًا كسائر أجساد الناس، وركب في ذلك الجسد نفسًا كاملةً بالعقل والمعرفة والعلم كسائر أنفس الناس، وأنه صار إنسانًا بالنفس والجسد اللذين هما من جوهر الناس، وإلهًا بجوهر اللاهوت كمثل أبيه لم يزل، وهو إنسان بجوهر الناسوت مثل إبراهيم وداود، وهو شخص واحد لم يزد عدده، وثبت له جوهر اللاهوت كما لم يزل يصح له جوهر الناسوت الذي لبسه من مريم، وهو شخص واحد لم يزد عدده وطبيعتان، ولكل واحدةٍ من الطبيعتين مشيئة كاملة، فله بلاهوته مشيئة مثل الأب والروح، وله بناسوته مشيئة مثل مشيئة إبراهيم وداود.

وقالوا: إن مريم ولدت إلهًا، وأن المسيح -وهو اسم يجمع اللاهوت

---

(١) اختلف في سبب نسبتهم، فقال الشهرستاني (٢/ ٢٧): أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم، واستولى عليها.

بينما قال ابن القيم في الهداية (٥٣٤): نسبةً إلى دين الملك، لا إلى رجلٍ يدعى ملكايا، وهو صاحب مقالتهم.اهـ. وهو قريب مما ذكره ابن حزم في الفصل، ولعله الأصح.

- وكان أهل هذا المذهب متفقين على أصول مذهبهم، حتى جاء القرن التاسع، فاختلفوا في نهايته على انبثاق الروح القدس، هل هو من الآب وحده أم من الآب والابن، فانقسموا بسبب ذلك إلى الكنيسة الكاثوليكية الغربية، ورأسها هو بابا روما، والكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية، ولها بطارقة أكبرهم في القسطنطينية. ينظر أضواء على المسيحية، رؤوف شلبي (١١٣).

والناسوت- مات، وقالوا: إن الله لم يمت، والذي ولدت مريم قد مات بجوهر ناسوته، فهو إله تام بجوهر لاهوته، وإنسان تام بجوهر ناسوته، وله مشيئة اللاهوت، ومشيئة الناسوت، وهو شخص واحد لا نقول شخصان؛ لئلا يلزمنا القول بأربعة أقانيم.

قال: فهؤلاء أتوا من ذلك بمثل ما أتت به اليعقوبية في ولادة مريم الله، تعالى الله عما يقول الظالمون، وقالوا: إن المسيح وهو اسمٌ لا تشك جماعة النصارى أنه واقعٌ على اللاهوت والناسوت مات، وأن الله لم يمت، فكيف يكون ميتًا لم يمت، وقائمًا قاعدًا في حالٍ واحدةٍ؟ وهل بين المقالتين فرق إلا ما اختلفوا فيه من الطبائع؟

قال: ثم نظرت في قول النسطورية(١)، فوجدتهم قالوا: إن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئة واحدة، وأن طبيعة اللاهوت التي للمسيح غير طبيعة ناسوته، وأن طبيعة اللاهوت لمَّا توحَّدت بالناسوت بشخصها الكلمة التي صارت الطبيعتان بجهة واحدة وإرادة واحدة، واللاهوت لا يقبل زيادةً، ولا نقصانًا، ولا يمتزج بشيءٍ، والناسوت يقبل الزيادة والنقصان، فكان المسيح بتلك إلهًا وإنسانًا، فهو إله بجوهر اللاهوت الذي لا يزيد، ولا ينقص، وهو إنسان بجوهر الناسوت القابل للزيادة والنقصان.

---

(١) نسبةً إلى نسطور الذي ولد في مدينة مرعش، وبدأ تعليمه فيها، ثم انتقل إلى أنطاكية ليكمل تعليمه فيها، ثم انتهى به المطاف بطريركًا للقسطنطينية عام (٤٢٨ م)، ولما أظهر آراءه، انعقد مجمع أفسس الأول للنظر في أقواله، ولكنه لم يحضر، وانتهى المجمع إلى عزل نسطور ولعنه ونفيه، ومات في منفاه عام (٤٥١م). الفكر المصري في العصر المسيحي (٢٣١) أضواء على المسيحية (١٠٣).

وقالوا: إن مريم ولدت المسيح بناسوته(١)، وإن اللاهوت لم يفارقه قطُّ منذ توحَّدت بناسوته.

وقال: فوجدنا اليعقوبية قد صرَّحوا بأن مريم ولدت الله، تعالى عمَّا يصفه المبطلون، ويقوله العادلون، وأنه تألم وصلب ومات، وقام بعد ثلاثة أيامٍ من بين الموتى، وهذا الكفر الذي تشهد به عليهم سائر ملل النصارى وغيرهم، ووجدنا الملكانية قد حادوا عن هذا التصريح إلى ما هو دونه في الظاهر، فقالوا: إن المسيح شخص واحد وطبيعتان، فلكل واحدةٍ من الطبيعتين مشيئة، فله بلاهوته مشيئة مثل الأب والروح، وله بناسوته مشيئة كمشيئة إبراهيم وداود، وأوهموا الواقف على قولهم أنهم بما اخترعوه من هذا الاختيار قد فرَّقوا بين اللاهوت والناسوت.

ثم عادوا إلى قول اليعقوبية، فقالوا: إنَّ مريم ولدت إلهًا، وأن المسيح -وهو اسمٌ يجمع اللاهوت والناسوت عند جماعتهم لا يشكون في ذلك- مات بالجسد، وأن الله لم يمت، والذي قد ولدته مريم قد مات بجوهر ناسوته، فكيف يكون ميت لم يمت؟ وهل بين المقالتين إلا ما اختلفوا فيه من الطبائع فرق، إذا كانوا قد اعترفوا بأنَّ مريم ولدت الله، وأن الذي ولدته مريم وهو المسيح الاسم الجامع للجوهرين، للاهوت والناسوت قد مات، فهل وقعت الولادة والموت وسائر الأفعال التي تحكي النصارى أنها فعلت بالمسيح إلا عليهما؟ فكيف يصحُّ لذي عقلٍ عبادةُ مولودٍ من امرأة بشرية قد مات، ونالته العلل والآفات؟

---

(١) فنفى أن تسمى مريم عليها السلام والدة الإله، ولهذا كانت من قرارات مجمع أفسس تسمية مريم بأُمِّ الإله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا. ينظر تاريخ الكنيسة القبطية (٢٥٧)، والفرق والمذاهب المسيحية لنهاد خياطة (٩٠).

قلت[١]: ومما يوضح تناقضهم أنهم يقولون: إن المسيح وهو اللاهوت والناسوت شخص واحد، وأقنوم واحد مع قولهم: إنهما جوهران بطبيعتين ومشيئتين، فيُثْبتون للجوهرين أقنومًا واحدًا، ويقولون: هو شخص واحد، ثم يقولون: إن رب العالمين إله واحد، وأقنوم واحد، وجوهر واحد، وهو ثلاثة أقانيم[٢]، فيثبتون للجوهر الواحد ثلاثة أقانيم، وللجوهرين المتحدين أقنومًا واحدًا، مع أن مشيئة الأقانيم الثلاثة عندهم واحدة، والناسوت واللاهوت يثبتون لهما مشيئتين وطبيعتين، ومع هذا هما عندهم شخص واحد، أقنوم واحد.

---

(١) القائل: ابن تيمية.

(٢) «الأقنوم» كلمة يونانية، وقيل: رومية، وقيل غير ذلك، وهي لغة بمعنى: الأصل، وجمعها: أقانيم، لكن في اللاهوت النصراني لها معنًى آخر، وهو ما يقوم عليه الجوهر، أو ما يقوم فيه الجوهر، أو الطبيعة.

قال الأنبا بيشوي: والأقنوم هو كائنٌ حقيقيٌّ له شخصيته الخاصة به، وله إرادةٌ، ولكنه واحد في الجوهر والطبيعة مع الأقنومين الآخرين بدون انفصالٍ. مائة سؤال وجواب في العقيدة المسيحية (١١).

وهذا التعريف يحمل إشكالات ظاهرة؛ لأنه لو فسر الأقنوم بالصفة أو العرض، فالصفة لا تقوم بنفسها، ولا يصح أن يقال عنه: له شخصيته الخاصة، وله إرادة؛ لأنَّ الصفة تحتاج لمحلٍّ تقوم به، ولا تنسب لها الإرادة بإجماع العقلاء، وإن فُسِّر على أنه جوهر يقوم بنفسه للزم تعدُّد الجواهر بتعدُّد الأقانيم، وهذا يتنافى مع قوله: «ولكنه واحد في الجوهر»، ومعلوم عند العقلاء أن الموجودات تنقسم إلى ما يقوم بنفسه، وما يقوم بغيره، أو إلى صفات وموصوفات بلا واسطةٍ، والأقنوم يتعذَّر حَمْله على أحدهما، ولا ثالث.

- فيُعْلم من ذلك أنه لا يمكن شرحه بالمتعارف عليه من ألفاظ اللغة أو المنطق، ولعله لأجل هذا لم يكن لهذا المعنى كلمة مرادفة في لغة العرب، أو اصطلاحات المناطقة؛ لكونه لا يستقلُّ بمعنًى يمكن تعقُّله.

قال القرطبي في الإعلام (٨٦): فقولهم في الأقانيم غير معقولٍ.

وهذا يقتضي غاية التناقض؛ سواء فسَّروا الأقنوم بالصفة، أو الشخص، أو الذات مع الصفة، أو أي شيءٍ قالوه، وهو يبين أن الذين تكلموا بهذا الكلام ما تصوَّروا ما قالوه، بل كانوا ضلالًا جهالًا بخلاف ما يقوله الأنبياء، فإنه حقٌّ، فلهذا لا يوجد عن المسيح ولا غيره من الأنبياء ما يوافق قولهم في التثليث والأقانيم والاتحاد ونحو ذلك مما ابتدعوه بغير سمعٍ وعقلٍ، بل ألقوا أقوالًا مخالفةً للشرع والعقل.

ثم قال الحسن بن أيوب: ثم وجدنا النصارى المعروفين بالنسطورية قد خالفوا اليعقوبية والملكانية في قولهم بشخصين لهما مشيئة واحدة، وأن الطبيعتين اتحدتا، فصارتا بجهةٍ واحدةٍ، ثم عادوا إلى شبيه قولهم في أن مريم ولدت المسيح، فإذا كانت ولدت المسيح، فقد لزمهم ووجب عليهم الإقرار بأنها ولدت هذا اللاهوت والناسوت المتحدين، وقد رجع المعنى إلى قول اليعقوبية، إلا أنهم اختاروا لذلك ألفاظًا زوَّقوها، وقدروا بها التمويه على السامع، ولم يصرحوا بالقول كتصريح اليعقوبية؛ لأن المتحد بالشيء هو الممازج له، والمجتمع معه حتى صار مازجه وهو شيئًا واحدًا، ثم أكَّدوا القول بإقرارهم أن الناسوت منذ اتحد باللاهوت لم يفارقه، فما لم يفارق الشيء هل هو إلا يجري مجراه في سائر متفرقاته من ضرٍّ ونفعٍ، وخيرٍ وشرٍّ، وحاجةٍ وغنًى؟

قال: وأما قولهم: إن مريم ولدت المسيح بناسوته، فهذه أغلوطة، وإلا فكيف يولد ولد متحد بشيءٍ آخر مجامعٍ له دون ذلك الشيء؟ وكيف يكون ذاك وهم يقولون: إنه لم يفارقه قط؟ وهل يصحُّ هذا عند أهل النظر؟ أَوَ ليس الحكم عند كلِّ ناظرٍ ومن كل ذي عقلٍ يوجب أن تكون الولادة واقعةً على اللاهوت والناسوت معًا بمعنى الاتحاد، وبمعنى الاسم الجامع للاهوت والناسوت،

وهو المسيح، وكذلك الحمل بهما جميعًا، وأن يكون البطن قد حواهما؟

قال: فإن لجوا في الباطل، ودافعوا عن قبيح هذه المقالة، ومالوا إلى تحسينها بالتمويهات المشككة لمَن قصرت معرفته، فنحن نقيم عليهم شاهدًا من أنفسهم لا يمكنهم دَفْعه، وذلك أن شريعة إيمانهم التي ألَّفها لهم رؤساؤهم من البطاركة والمطارنة والأساقفة والأحبار في دينهم وذوي العلم منهم بحضرة الملك عند اجتماعهم من آفاق الأرض بمدينة قسطنطينية، وكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر رجلًا[(١)]، يصفون أنهم نطقوا بها بروح القدس، وهي التي لم تختلف جماعتهم عند اختلافهم في المقالات فيها، ولا يتمُّ لهم قربانٌ إلا بها على هذا النَّسق الذي نُبيِّنه: «نؤمن بالله الأب، مالك كل شيءٍ، صانع ما يرى، وما لا يرى، وبالرَّبِّ الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها، وليس بمصنوعٍ، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيءٍ، الذي من أجلنا معشر البشر، ومن أجل خَلاصنا نزل من السماء، وتجسَّد من روح القدس، وصار إنسانًا، وحبل به وولد من مريم

---

(١) يشير إلى المجمع المسكوني الأول الذي عقد في مدينة نيقية عام (٣٢٥ م) بدعوةٍ من الإمبراطور قسطنطين لحسم النزاع في الخلاف الذي نشأ بين آريوس ومَن وافقه من جهة وبين ألكسندروس بابا الإسكندرية، ورئيس شمامسته أثناسيوس ومن وافقهم من جهةٍ أخرى، فجمع قسطنطين عددًا كبيرًا من الأساقفة على آراء متباينة، ثم مال إلى ٣١٨ منهم، فجمعهم وعقد بهم المجمع المسكوني الأول، وكان من قرارات هذا المجمع الانتصار لألوهية المسيح، ولعن آريوس ونفيه، ثم قدم المجمع ما يرى أنه صورة الإيمان الصحيح، والذي سُمِّي بالأمانة. ينظر تاريخ الكنيسة القبطية يعقوب المقاري (١/ ١١٧)، تاريخ الكنيسة القبطية منسي يوحنا (١٩١)، محاضرات في النصرانية (١١٤).

البتول، وتألَّم وصلب أيام قيطوس بن بيلاطوس، ودفن، وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوبٌ، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعدٌّ للمجيء تارةً أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه روح، ومجيئه، وبمعمودية واحدةٍ لغفران الخطايا، وبجماعةٍ واحدةٍ قديسية سليخية جاثليقية، وبقيامة أبداننا، وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين(١).

قال: فهذه الشريعة يجتمع على الإيمان بها، وبذل المهج فيها، وإخراج الأنفس دونها جماهيرهم من الملكانية واليعقوبية والنسطورية»(٢)(٣).

أكثر ما انتهى إليه دين النصارى هي أمور أحدثوها بعد المسيح:

- «وأمَّا قولكم: السنة الجديدة المختارة هي السنة التي تسلَّمناها من يدي الرسل الأطهار على ما تسلَّموها هم من المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فيقال: لو كنتم على تلك السنة لم تُغيِّروها، لم ينفعكم المقام عليها إذا كذبتم الرسول النبي الأمي الذي بعث إليكم، وإلى سائر الخلق بسنةٍ أخرى أكمل من السنن التي كانت قبله، كما لم ينفع اليهود، ولو تمسَّكوا بسنة التوراة، ولم يتبعوا

---

(١) الظاهر أن قانون الإيمان النيقاوي الذي أسفر عنه مجمع نيقية يشتمل على جزء مما انتهت إليه الأمانة، وأنَّ بعض هذه العبارات مثل: «ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق... إلخ»، إنما هي تعديلاتٌ وإضافاتٌ لاحقةٌ، كما ذكرت أكثر المصادر.

(٢) (٤/ ٨٨).

(٣) وللإمام الجعفري في كتابه: «تخجيل من حرف التوراة والإنجيل»، باب كامل -وهو الباب الثامن: في الإبانة عن تناقض الأمانة- تتبع فيه ألفاظ الأمانة من أكثر من خمسة عشر وجهًا، وبيَّن ما فيها من تناقضٍ في نفسها من جهةٍ، ومخالفة لما ورد في الإنجيل من جهةٍ أخرى، فأجاد وأفاد.

سنة المسيح الذي أرسل إليهم، بل مَنْ كذب برسولٍ واحدٍ، فهو كافر، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٥٠].

فإنه وإن كانت السنة التي جاء بها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ حقًّا، وكل من كان متبعًا له فهو مؤمن مسلم من أولياء الله، من أهل الجنة الذين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

فمن اتبع المسيح كان مؤمنًا، ومن كفر به كان كافرًا، لكن غيَّرتموها وبدَّلتموها قبل مبعث مُحمَّدٍ ﷺ، فصرتم كفارًا بتبديل شريعة المسيح، وتكذيب شريعة مُحمَّدٍ ﷺ، كما كفرت اليهود بتبديل شريعة التوراة، وتكذيب شريعة الإنجيل، ثم كفروا بتكذيب شريعة محمدٍ ﷺ، وعلى سائر رسل الله أجمعين.

فإنَّ المسيح لم يسنَّ لكم التثليث والقول بالأقانيم، ولا القول بأنه رب العالمين، ولا سنَّ لكم استحلال الخنزير وغيره من المحرمات، ولا ترك الختان، ولا الصلاة إلى المشرق، ولا اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، ولا الشرك واتخاذ التماثيل والصليب، ودعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والصالحين وغيرهم، وسؤالهم الحوائج، ولا الرهبانية، وغير ذلك من المنكرات التي أحدثتموها، ولم يسنَّها لكم المسيح، ولا ما أنتم عليه هي السنة التي تسلَّمتموها من رسل المسيح، بل عامَّة ما أنتم عليه من السنن أمور محدثة مبتدعة بعد الحواريين؛ كصومكم خمسين يومًا زمن الربيع. واتخاذكم عيدًا يوم الخميس والجمعة والسبت، فإن هذا لم يسنَّه المسيح، ولا أحد من الحواريين.

وكذلك عيد الميلاد والغطاس، وغير ذلك من أعيادكم، بل عيد الصليب إنما ابتدعته (هيلانة) الحرانية القندقانية أم قسطنطين، فأنتم تقولون: إنها هي التي أظهرت الصليب، وصنعت لوقت ظهوره عيدًا، وذلك بعد المسيح والحواريين بمدة طويلة زمن الملك قسطنطين بعد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنةٍ، وفي ذلك الزمان أحدثتم الأمانة لنصوص الأنبياء في غير موضعٍ، وأظهرتم استحلال الخنزير، وعقوبة من لم يأكله، وابتدعتم في ذلك الزمان تعظيم الصليب، وغير ذلك من بدعكم.

وكذلك كتب القوانين التي عندكم جعلتموها سنةً وشريعةً فيها شيء عن الأنبياء والحواريين، وكثير ممَّا فيها ابتدعه من بعدهم لا ينقلونه لا عن المسيح، ولا عن الحواريين، فكيف تدعون أنكم على السنة والشريعة التي كان عليها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا مما يعلم بالاضطرار والتواتر أنه كذبٌ بيِّن»[١].

أصول وأسباب انحراف النصارى وغيرهم من أهل الملل والبدع في احتجاجهم بالقرآن والكتب المقدسة[٢]:

«ولكن هذا شأن الَّذين في قلوبهم زيغ من أهل البدع النصارى وغيرهم

---

(١) (٣/ ٤٣٦).

(٢) يمكن إجمال ما ذكره وفصَّله الشيخ في هذا المبحث في أربعة أمورٍ، هي سبب وأصل ضلال النصارى وغيرهم في النقولات، وهي:

١- اتباع المتشابه وترك المحكم.

٢- الاحتجاج والاعتماد على أخبار باطلة ظنوها صحيحةً.

٣- الاعتماد على ما يظنونه من الخوارق، وهو قد يكون من حيل الشياطين، أو من حيل الرهبان ونحوهم.

٤- حمل النصوص على المعاني التي اعتقدوها ورأوها قبل النظر في النصوص، ثم فسروا النصوص بها لأدنى مناسبةٍ.

يتَّبعون المتشابه، ويدعون المحكم، وبسبب مناظرة النصارى للنَّبيِّ ﷺ بالمتشابه، وعدولهم عن المحكم، أنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيهم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧]، فالتأويل يراد به تفسير القرآن، ومعرفة معانيه، وهذا يعلمه الراسخون، ويراد به ما استأثر الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعلمه من معرفة كنهه، وكنه ما وعد به، ووقت الساعة، ونحو ذلك مما لا يعلمه إلا الله، والضلال يذكرون آياتٍ تشتبه عليهم معرفة معانيها، فيتبعون تأويلها ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويلها، وليسوا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويلها مع أن هؤلاء الآيات من أوضح الآيات.

وهذا الذي سلكوه في القرآن هو نظير ما سلكوه في الكتب المتقدمة، وكلام الأنبياء من التوراة والإنجيل والزبور وغيرها، فإنَّ فيها من النصوص الكثيرة الصريحة بتوحيد الله وعبودية المسيح ما لا يحصى إلا بكلفةٍ، وفيها كلمات قليلة فيها اشتباه، فتمسكوا بالقليل المتشابه الخفي المشكل من الكتب المتقدمة، وتركوا الكثير المحكم المبين الواضح، فهم سلكوا في القرآن ما سلكوه في الكتب المتقدمة»(١).

- «وبيان ذلك أنَّ التوراة والإنجيل وسائر كتب الله، وغير ذلك مما هو مأثورٌ عن الأنبياء فيه نصوص كثيرة صريحة ظاهرة واضحة في وحدانيَّة الله، وأنه

---

(١) (١/ ٣٧٦).

لا إله غيره، وهو مسمًّى فيها بالأسماء الحسنى، موصوف بالصفات العلى، وأنَّ كل ما سواه مخلوق له، ليس فيه تثليث، ولا اتحاد الخالق بشيءٍ من المخلوقات، لا المسيح ولا غيره، وفيها ألفاظ قليلة مشكلة متشابهة، وهي -مع ذلك- لا تدلُّ على ما ذكرتموه من التثليث والاتحاد، لا نصًّا، ولا ظاهرًا، ولكن بعضها يحتمل بعض ما قلتم، وليس فيها شيءٌ يحتمل جميع ما قلتم، فضلًا عن أن يكون ظاهرًا فيه أو نصًّا، بل بعضها يحتمل بعض قولكم، فأخذتم ذلك المحتمل، وضممتم إليه من الكفر الصريح والتناقض القبيح ما صيَّرتموه أمانةً لكم -أي: عقيدة إيمانٍ لكم- ولو كانت كلها تحتمل جميع ما قلتم، لم يجز العدول عن النص والظاهر إلى المحتمل، ولو كان بعضها ظاهرًا فيما قلتم، لم يجز العدول عن النصوص الصريحة إلى الظاهر المحتمل، ولو قدر أنَّ فيها نصوصًا صريحة قد عارضتها نصوص أخرى صريحة، لَكان الواجب أن ينظروا بنور الله الذي أيَّد به عباده المؤمنين، فيتبعون أحسن ما أنزل الله، وهو المعنى الذي يوافق صريح المعقول، وسائر كتب الله، وذلك النص الآخر إن فهموا تفسيره، وإلا فوَّضوا معناه إلى الله تعالى إن كان ثابتًا عن الأنبياء»[(١)].

- «وممَّا ينبغي أن يُعلم أن سبب ضلال النصارى وأمثالهم من الغالية كغالية العباد والشيعة وغيرهم ثلاثة أشياء:

أحدها: ألفاظ متشابهة مجملة مشكلة منقولة عن الأنبياء، وعدلوا عن الألفاظ الصريحة المحكمة، وتمسَّكوا بها، وهم كلما سمعوا لفظًا لهم فيه

---

(١) (٤/٤٥١).

شبهة، تمسَّكوا به، وحملوه على مذهبهم وإن لم يكن دليلًا على ذلك، والألفاظ الصريحة المخالفة لذلك إما أن يُفوِّضوها، وإما أن يتأوَّلوها كما يصنع أهل الضلال، يتَّبعون المتشابه من الأدلة العقلية والسمعية، ويعدلون عن المحكم الصريح من القسمين.

والثاني: خوارق ظنوها آياتٍ، وهي من أحوال الشياطين، وهذا مما ضلَّ به كثيرٌ من الضلال المشركين وغيرهم، مثل دخول الشياطين في الأصنام، وتكليمها للناس، ومثل إخبار الشياطين للكهان بأمور غائبة، ولا بد لهم مع ذلك من كذبٍ، ومثل تصرفاتٍ تقع من الشياطين.

والثالث: أخبار منقولة إليهم ظنوها صدقًا، وهي كذب.

وإلا فليس مع النصارى ولا غيرهم من أهل الضلال على باطلهم لا معقول صريح، ولا منقول صحيح، ولا آية من آيات الأنبياء، بل إن تكلموا بمعقولٍ تكلموا بألفاظٍ متشابهةٍ مجملةٍ، فإذا استفسروا عن معاني تلك الكلمات، وفرق بين حقها وباطلها، تبيَّن ما فيها من التلبيس والاشتباه، وإن تكلموا بمنقولٍ، فإما أن يكون صحيحًا لكن لا يدل على باطلهم، وإما أن يكون غير صحيحٍ ثابت بل مكذوب.

وكذلك ما يذكرونه من خوارق العادات: إمَّا أن يكون صحيحًا قد ظهر على يد نبيٍّ كمعجزات المسيح ومن قبله كإلياس واليسع وغيرهما من الأنبياء، وكمعجزات موسى فهذه حق، وإمَّا أن تكون قد ظهرت على يد بعض الصالحين؛ كالحواريين، وذلك لا يستلزم أن يكونوا معصومين كالأنبياء، فإنَّ الأنبياء معصومون فيما يبلغونه لا يتصور أن يقولوا على الله إلا الحق، ولا

يستقرُّ في كلامهم باطل؛ لا عمدًا، ولا خطأً، وأما الصالحون فقد يغلط أحدهم ويخطئ مع ظهور الخوارق على يديه، وذلك لا يخرجه عن كونه رجلًا صالحًا، ولا يوجب أن يكون معصومًا إذا كان هو لم يدَّع العصمة، ولم يأت بالآيات دالَّة على ذلك، ولو ادعى العصمة وليس بنبيٍّ، لكان كاذبًا لابد أن يظهر كذبه، وتقترن به الشياطين فتضله، ويدخل في قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

والنصارى عندهم منقول في الأناجيل أن الذي صلب ودفن في القبر رآه بعض الحواريين وغيرهم بعد أن دفن قام من قبره، رأوه مرتين أو ثلاثًا، وأراهم موضع المسامير، وقال: لا تظنوا أني شيطان[1].

وهذا إذا كان صحيحًا، فذاك شيطان ادعى أنه المسيح، والتبس على أولئك، ومثل هذا قد جرى لخلقٍ عظيمٍ في زماننا وقبل زماننا؛ كناسٍ كانوا بـ (تدمر)، فرأوا شخصًا عظيمًا طائرًا في الهواء، وظهر لهم مرات بأنواع من

---

(١) الذي في إنجيل لوقا (١٤/ ٣٦-٤٠): «وفيما هم يتكلَّمون بهذا، وقف يسوع نفسه في وسطهم، وقال لهم: «سلامٌ لكم»، فجزعوا وخافوا، وظنوا أنهم نظروا روحًا، فقال لهم: «ما بالكم مضطربين، ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم؟، انظروا يدي ورجلي، إني أنا هو، جسوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي»، وحين قال هذا، أراهم يديه ورجليه، وفيما هم يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه في وسطهم، وقال لهم: «سلام لكم» (٣٧) فجزعوا وخافوا، وظنوا أنهم نظروا روحًا. (٣٨) فقال لهم: «ما بالكم مضطربين، ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم؟ (٣٩) انظروا يدي ورجلي، إني أنا هو، جسوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي» (٤٠)، وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه».

اللباس، وقال لهم: أنا المسيح ابن مريم، وأمرهم بأمور يمتنع أن يأمر بها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحضروا إلى عند الناس، وبيَّنوا لهم أن ذلك هو شيطان أراد أن يضلَّهم».

والشيطان إنما يضل الناس ويغويهم بما يظن أنَّهم يطيعونه فيه، فيخاطب النَّصارى بما يوافق دينهم، ويخاطب مَنْ يخاطب من ضلال المسلمين بما يوافق اعتقاده، وينقله إلى ما يستجيب لهم فيه بحسَب اعتقادهم، ولهذا يتمثَّل لمَن يستغيث من النصارى بجرجس في صورة جرجس، أو بصورة من يستغيث به النصارى من أكابر دينهم، إما بعض البطاركة، وإما بعض المطارنة، وإما بعض الرهبان، ويتمثَّل لمن يستغيث به من ضُلَّال المسلمين بشيخٍ من الشيوخ في صورة ذلك الشيخ، كما تمثل لجماعةٍ ممن أعرفهم في صورتي، وفي صورة جماعةٍ من الشيوخ الذين ذكروا في ذلك، ويتمثل كثيرًا في صورة بعض الموتى تارةً، يقول: أنا الشيخ عبد القادر، وتارةً يقول: أنا الشيخ أبو الحجاج الأقصري، وتارةً يقول: أنا الشيخ عدي، وتارةً يقول: أنا أحمد بن الرفاعي، وتارةً يقول: أنا أبو مدين المغربي، وإذا كان يقول: أنا المسيح أو إبراهيم أو محمد، فغيرهم بطريق الأَوْلَى، والنبي ﷺ قال: «**مَن رآني في المنام، فقد رآني حقًّا، فإن الشيطان لا يتمثَّل في صورتي**»[١]، وفي روايةٍ: «**في صورة الأنبياء**»، فرؤيا الأنبياء في المنام حق، وأما رؤية الميت في اليقظة فهذا جني تمثَّل في صورته.

والحسيات إن لم يكن معها عقليات تكشف حقائقها، وإلا وقع فيها غلط كبير.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (١١٠)، ومواطن أخرى، ومسلم (٢٢٦٦).

والمقصود هنا التنبيه على هذا الأصل، وعلماء النصارى يسلمون هذا، وعندهم من ذلك أخبار كثيرة من حكايات أولياء الشيطان الذين عارضهم أولياء الرحمن، وأبطلوا أحوالهم كما أبطل موسى -صلوات الله عليه- ما عارضته به السَّحرة من الخوارق، كما ذكر ذلك في التوراة، وكما يذكرونه عن فلانٍ وفلانٍ، مثل حكاية سيمون الساحر مع الحواريين، وغير ذلك.

وإذا كان هذا معلومًا، كان ما يذكرونه من هذا الجنس، إذا كان مخالفًا لما ثبت عن الأنبياء من الشيطان، فلا يجوز أن يحتج به على ما يخالف شرائع الأنبياء الثابتة عنهم، بل هؤلاء من جنس الدجال الكبير الذي أنذرت به الأنبياء كلهم حتى نوح أنذر قومه، وقال خاتم الرسل: **«ما من نبيٍّ إلا قد أنذر أمته حتى نوح أنذر قومه، وسأقول لكم فيه قولًا لم يقله نبي لأمته: إنه أعور، وإنَّ ربكم ليس بأعور، مكتوبٍ بين عينيه: كافر (ك ف ر)، يقرؤه كل مؤمنٍ؛ قارئ وغير قارئ -وقال- واعلموا أنَّ أحدًا منكم لن يرى رَبَّه حتى يموت»**(١)...

والخوارق التي تضل بها الشياطين لبني آدم مثل تصور الشيطان بصورة شخصٍ غائبٍ أو ميتٍ ونحو ذلك، ضلَّ بها خلقٌ كثيرٌ من الناس من المنتسبين إلى المسلمين، أو إلى أهل الكتاب وغيرهم، وهم بَنوا ذلك على مقدمتين:

إحداهما: أنَّ من ظهرت هذه على يديه، فهو وليٌّ لله، وبِلُغَة النصارى: هو قديس عظيم.

الثانية: أنَّ من يكون كذلك، فهو معصوم، فكل ما يخبر به فهو حقٌّ، وكل ما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠٧٥)، ومسلم (٢٩٣١)، واللفظ له.

يأمر به فهو عدلٌ، وقد لا يكون ظهرت على يديه خوارق؛ لا رحمانية، ولا شيطانية، ولكن صنع حيلةٍ من حيل أهل الكذب والفجور، وحِيَلُ أهل الكذب والفجور كثيرةٌ جدًّا، فيظن أن ذلك من العجائب الخارقة للعادة، ولا يكون كذلك مثل الحيل المذكورة عن الرهبان.

وقد صنَّف بعض الناس مصنفًا في حيل الرهبان؛ مثل الحيلة المحكية عن أحدهم في جعل الماء زيتًا بأن يكون الزيت في جوف منارة، فإذا نقص صب فيها ماء، فيطفو الزيت على الماء، فيظن الحاضرون أن نفس الماء انقلب زيتًا، ومثل الحيلة المحكية عنهم في ارتفاع النخلة، وهو أنَّ بعضهم مرَّ بدير راهبٍ، وأسفل منه نخلة، فأراه النخلة صعدت شيئًا شيئًا حتى حاذت الدير، فأخذ من رطبها، ثم نزلت حتى عادت كما كانت، فكشف الرجل الحيلة، فوجد النخلة في سفينةٍ في مكانٍ منخفضٍ، إذا أرسل عليه الماء امتلأ حتى تصعد السفينة، وإذا صرف الماء إلى موضعٍ آخر هبطت السفينة... ومثل ذلك كثير من حيل النصارى، فجميع ما عند النصارى المبدلين لدين المسيح من الخوارق إما حال شيطاني، وإما محال بهتاني ليس فيه شيءٌ من كرامات الصالحين...

والصالحون لهم كرامات مثل كرامات صالحي هذه الأمة، ومثل كرامات الحواريين وغيرهم ممَّن كان على دين المسيح، لكن وجود الكرامات على أيدي الصالحين لا توجب أن يكونوا معصومين كالأنبياء، لكن يكون الرجل صالحًا وليًّا لله، وله كرامات، ومع هذا فقد يغلط ويخطئ فيما يظنه، أو فيما

يسمعه ويرويه، أو فيما يراه، أو فيما يفهمه من الكتب»[(١)].

- «قلت: فإن هذا الذي فعلته النصارى وأشباههم يفتح باب الإلحاد في كتب الله المنزلة، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [فصلت: ٤٠].

وذلك أنَّ كلَّ من إعتقد معاني برأيه، يمكنه أن يعبر عنها بألفاظٍ تناسبها بنوع مناسبةٍ، وتلك الألفاظ موجودة في كلام الأنبياء عليهم السلام لها معانٍ أخر، ويجعل تلك الألفاظ دالَّة على معانيه التي رآها، ثم يجعل الألفاظ التي تكلمت بها الأنبياء، وجاءت بها الكتب الإلهية أرادوا بها معانيه هو.

وهكذا فعل سائر أهل الإلحاد في سائر الكتب الإلهية، كما فعلته النصارى، مثل ما عمدت الملاحدة المتبعون لفلاسفة اليونان القائلون بأنَّ هذه الأفلاك قديمة أزلية لم تزل ولا تزال، وأنَّ الله لم يتكلم بالتوراة ولا غيرها من الكتب الإلهية، ولا هو عالم بالجزئيات؛ لا بموسى بن عمران، ولا بغيره، ولا هو قادر أن يفعل بمشيئةٍ، ولا يقيم الناس من قبورهم، فقالوا: خلق وأحدث وفعل وصنع ونحو ذلك، يقال على الإحداث الذاتي، والإحداث الزماني، فالأول: هو إيجاب العلة لمعلولها المقارن لها في الزمان، والثاني إيجاد الشيء بعد أن لم يكن، ثم قالوا: ونحن نقول: إن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما، وأحدث ذلك وأبدعه وصنعه، كما أخبرت بذلك الأنبياء عليهم السلام، لكن مرادهم بذلك الإحداث الذاتي، وهو أنَّ ذلك معلول له، لم يزل معه.

---

(١) (٢/ ٣١٥).

فيقال لهم: لم يستعمل أحدٌ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل ولا أحد من سائر الأمم لفظ (الخلق) و(الإحداث) إلا فيما كان بعد عدمه، وهو ما كان مسبوقًا بعدمه، ووجود غيره، ومعنى هذا اللفظ معلومٌ بالاضطرار في جميع لغات الأمم.

وأيضًا فاللفظ المستعمل في لغة العامَّة والخاصَّة لا يجوز أن يكون معناه ما لا يعرفه إلا بعض الناس، وهذا المعنى الذي يدَّعونه لو كان حقًّا، لم يتصوره إلا بعض الناس، فلا يجوز أن يكون اللفظ العام الذي تداوله العامة والخاصة موضوعًا له إذا كان هذا يبطل مقصود اللغات، ويبطل تعريف الأنبياء للناس... فهذا الذي ذكرتموه كذبٌ صريحٌ على الأنبياء عليهم السلام لتُوهِمُوا الناس أنكم موافقون لهم، والكتب الإلهية كالتوراة والقرآن مصرحة بأن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيامٍ، والقديم الأزلي لا يكون مخلوقًا في ستة أيام... وأمثال هذا من تحريفات الملاحدة كثير.

فهكذا النصارى حرَّفوا كتب الله، وسموا صفة الله القديمة الأزلية التي هي علمه أو حكمته: ابنًا، وسموها أيضا: كلمةً، وسموا صفته القديمة الأزلية التي هي حياته: روح القدس.

وتسمية هذه الصفات بهذه الأسماء لا توجد في شيءٍ من كلام الأنبياء، ولا غيرهم، ولا يعرف أن أحدًا قط لا من الأنبياء ولا غيرهم سمَّى علم الله القائم به: ابنه، بل وسمَّى علم أحدٍ من العالمين القائم به: ابنه، ولكن لفظ (الابن) يعبر به عمن ولد الولادة المعروفة، ويعبر به عمن كان هو سببًا في وجوده، كما يقال: ابن السبيل، لمن ولدته الطريق، فإنه لمَّا جاء من جهة الطريق، جعل كأنه ولده. ويقال

لبعض الطير: ابن الماء؛ لأنه يجيء من جهة الماء، ويقال: كونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ الابن ينتسب إلى أبيه، ويحبه، ويضاف إليه، أي: كونوا ممَّن ينتسب إلى الآخرة ويحبها، ويضاف إليها، وهذا اللَّفظ موجودٌ في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب في حقِّ الصالحين الذين يحبُّهم الله ويربيهم.

كما ذكروا أن المسيح قال: (أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم)[(١)]، وفي التوراة: أن الله قال ليعقوب: (أنت ابني بكري)[(٢)]، ونحو ذلك مما يراد به إذا كان صحيحًا له معنًى صحيح، وهو المحبة له، والاصطفاء له، والرحمة له، وكان المعنى مفهومًا عند الأنبياء عليهم السلام ومن يخاطبونه، وهو من الألفاظ المتشابهة، فَصَار كثيرٌ من أتباعهم يريدون به المعنى الباطل»[(٣)].

إثبات إمكان ووقوع التحريف في الكتب المقدسة:

- «وأهل الكتاب -اليهود والنصارى- مع المسلمين متفقون على أن الكتب المتقدمة وقع التحريف بها، إما عمدًا، وإما خطأً في ترجمتها، وفي تفسيرها وشرحها وتأويلها[(٤)]، وإنما تنازع الناس: هل وقع التحريف في بعض ألفاظها؟»[(١)].

---

(١) في يوحنا (٢٠/ ١٧): قال لها يسوع: «لا تلمسيني؛ لأني لم أصعد بعدُ إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي، وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم».

(٢) في الخروج (٤/ ٢٢): فتقول لفرعون: هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر.

(٣) (٤/ ١٤٦).

(٤) يقصد بهذا الإجماع أن اليهود والنصارى، كلُّ طائفةٍ منهما تتهم أخرى، وكل فرقةٍ من فرقهما تتهم الفرق الأخرى بمخالفة الكتاب المقدس، وتحريفه عن مقصده، ففي هذا إجماعٌ منهم على وقوع تحريف المعنى، أما تحريف اللفظ فلم يتفقوا عليه، بل يقر به بعضهم، وينكره آخرون، وفي العهد الحديث ومع تطور وسائل ونتائج النقد الكتابي زاد عدد المُقرِّين بتحريف اللَّفظ حتى صار المنكرون له هم الأقل على عكس الحال في الأزمنة المتقدمة.

«ومن حجة الجمهور الذين يمنعون أن تكون جميع ألفاظ هذه الكتب المتقدمة الموجودة عند أهل الكتاب منزلة من عند الله لم يقع فيها تبديل، ويقولون: إنه وقع التبديل في بعض ألفاظها، ويقولون: إنه لم يعلم أن ألفاظها منزلة من عند الله، فلا يجوز أن يحتج بما فيها من الألفاظ في معارضة ما علم ثبوته، أنهم قالوا: التوراة والإنجيل الموجودة اليوم بِيَدِ أهل الكتاب لم تتواتر عن موسى وعيسى عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، أما التوراة فإن نقلها انقطع لما خرب بيت المقدس أولًا، وأجلي منه بنو إسرائيل، ثم ذكروا أن الذي أملاها عليهم بعد ذلك شخص واحد، يقال له: عزرا، وزعموا أنه نبي، ومن الناس من يقول: إنه لم يكن نبيًّا، وأنها قُوبِلَت بنُسْخةٍ وُجدت عتيقةً، وقد قيل: إنه أحضرت نسخة كانت بالمغرب، وهذا كله لا يوجب تواتر جميع ألفاظها، ولا يمنع وقوع الغلط في بعضها، كما يجري مثل ذلك في الكتب التي يلي نسخها ومقابلتها وحفظها القليل الاثنان والثلاثة.

وأما الإنجيل الذي بأيديهم، فهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عَلَيْهِالسَّلَامُ، ولا أملاه على مَن كتبه، وإنما أملوه بعد رفع المسيح متى ويوحنا، وكانا قد صحبا المسيح، ولم يحفظه خلقٌ كثيرٌ يبلغون عدد التواتر، ومرقس ولوقا وهما لم يريا المسيح عَلَيْهِالسَّلَامُ.

وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح، وبعض أخباره، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله وأفعاله، ونقل اثنين وثلاثة وأربعة يجوز عليه الغلط لا سيما وقد غلطوا في المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم بالمصلوب، ولكن النصارى

=

(١) (٥/ ١٢٣).

يزعمون أن الحواريين رسل الله مثل عيسى ابن مريم وموسى عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، وأنهم معصومون، وأنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل، وأنَّ لهم معجزات، وقالوا لهم هذه التوراة وهذا الإنجيل، ويقرُّون مع هذا بأنَّهم ليسوا بأنبياء، فإذا لم يكونوا أنبياء، فمَن ليس بنبيٍّ، ليس بمعصومٍ من الخطأ ولو كان من أعظم أولياء الله، ولو كان له خوارق عادات، فأبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من أفاضل الصحابة عند المسلمين أفضل من الحواريين، ولا معصوم عندهم إلا مَن كان نبيًّا، ودعوى أنَّهم رسل الله مع كونهم ليسوا بأنبياء تناقضٌ، وكونهم رسل الله هو مبنيٌّ على كون المسيح هو الله، فإنهم رسل المسيح، وهذا الأصل باطلٌ، ولكن في طريق المناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن نمنعهم في هذا المقام، ونطالبهم بالدليل على أنَّهم رسل الله، وليس لهم على ذلك دليلٌ، فإنه لا يثبت أنهم رسل الله إن لم يثبت أن المسيح هو الله.

ولكن يُقَال لهم في هذا المقام: أنتم لا يمكنكم إثبات كون المسيح هو الله إلا بهذه الكتب، ولا يمكنكم تصحيح هذه الكتب إلا بإثبات أنَّ الحواريين رسل الله معصومون، ولا يمكنكم إثبات أنهم رسل الله إلا بإثبات أن المسيح هو الله، فصار ذلك دورًا ممتنعًا(١).

فإنه لا تعلم إلهية المسيح إلا بثبوت هذه الكتب، ولا تثبت هذه الكتب إلا بثبوت أنهم رسل الله، ولا يثبت ذلك إلا بثبوت أنه الله، فصار ثبوت الإلهية

---

(١) «**الدور**»: هو توقف الشيء على ما يتوقف عليه، مثل أن يقال: وجود (أ) يتوقف على وجود (ب)، ووجود (ب) يتوقف على وجود (أ)، فيمتنع وجودهما؛ لأن وجود كلٍّ منهما يتوقف على وجود الآخر.

متوقفًا على ثبوت إلهيته، وثبوت كونهم رسل الله متوقفًا على كونهم رسل الله، فصار ذلك دورًا ممتنعًا.

قد يدعون عصمة الحواريين، وعصمة أهل المجامع بعد الحواريين كأهل المجمع الأول الذي كان بحضرة قسطنطين الذي حضره ثلاثمائة وثمانية عشر، ووضعوا لهم الأمانة التي هي عقيدة النصارى التي لا يصحُّ لهم قربان إلا بها، فيزعمون أنَّ الحواريين أو هؤلاء جرت على أيديهم خوارق، وقد يذكرون أنَّ منهم من جرى إحياء الموتى على يديه، وهذا إذا كان صحيحًا مع أن صاحبه لم يذكر أنه نبيٌّ لا يدل على عصمته، فإنَّ أولياء الله من الصحابة والتابعين بعدهم بإحسانٍ وسائر أولياء الله من هذه الأمة وغيرها لهم من خوارق العادات ما يطول وَصْفه، وليس فيهم معصوم يجب قبول كل ما يقول، بل يجوز الغلط على كل واحدٍ منهم، وكل أحدٍ يؤخذ من قوله ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام، ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتيه الأنبياء، ولم يجب الإيمان بكل ما يقوله كل وليٍّ لله.

والمقصود هنا أنه ليس مع النصارى نقلٌ متواترٌ عن المسيح بألفاظ هذه الأناجيل، ولا نقل لا متواتر ولا آحاد بأكثر ما هم عليه من الشرائع، ولا عندهم ولا عند اليهود نقلٌ متواترٌ بألفاظ التوراة ونبوات الأنبياء كما عند المسلمين نقل متواتر بالقرآن وبالشرائع الظاهرة المعروفة للعامة والخاصة، وهذا مثل الأمانة التي هي أصل دينهم، وصلاتهم إلى المشرق، وإحلال الخنزير، وترك الختان، وتعظيم الصليب، واتخاذ الصور في الكنائس، وغير ذلك من شرائعهم ليست منقولةً عن المسيح، ولا لها ذكرٌ في الأناجيل التي ينقلونها عنه.

وهم متفقون على أن الأمانة التي جعلوها أصل دينهم وأساس اعتقادهم

ليست ألفاظها موجودةً في الأناجيل، ولا هي مأثورة عن الحواريين، وهم متفقون على أن الذين وضعوها أهل المجمع الأول الذين كانوا عند قسطنطين الذي حضره ثلاثمائة وثمانية عشر، وخالفوا عبد الله بنأريوس الذي جعل المسيح عبدًا لله كما يقول المسلمون، ووضعوا هذه الأمانة»(١)(٢).

---

(١) (٢/ ٣٩٥).

(٢) لم يُطِلِ الشيخ في هذا الموطن، وفي كتابه عامة في مبحث وقوع التحريف اللفظي، واقتصر على دليل إمكان وقوع التحريف، وأشار في مواطن إلى وقوع التحريف باختصارٍ، ولم يتعرض الشيخ لكثيرٍ من الأدلة التي تعرض لها غيره في إثبات الوقوع، مثل الدليل النقلي، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، عن مجاهد وقتادة وغيرهما: «يلوون ألسنتهم بالكتاب»: يحرفونه.

- وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، ثم إن القرآن تعقب على سبيل التفصيل بعض ما جاء في كتبهم من التحريف على سبيل المثال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، وهو تعقب لما ورد في سفر التكوين من نسبة التعب والراحة للرب تعالى عن ذلك، كما جاء في سفر التكوين (٢/ ٢): «وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. (٣) وبارك الله اليوم السابع وقدسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقًا».

-وقال تعالى أيضًا: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهو تعقب لما نسبه اليهود لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتبهم من عبادة غير الله تعالى، كما في ملوك أول (١١/ ٣-١١): «(٣) وكانت له سبع مئةٍ من النساء السيدات، وثلاث مئةٍ من السراري، فأمالت نساؤه قلبه.
=

مقدار التبديل، والموقف من هذه الكتب بعد التبديل:

- «وأما ألفاظ الكتب، فقد ذهبت طائفةٌ من علماء المسلمين إلى أن ألفاظها لم تبدل، كما يقول ذلك مَن يقوله من أهل الكتاب، وذهب كثير من =

(٤) وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهةٍ أخرى، ولم يكن قلبه كاملًا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. (٥) فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين. (٦) وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تمامًا كداود أبيه. (٧) حينئذٍ بنى سليمان مرتفعةً لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تُجَاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون. (٨) وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن. (٩) فغضب الربُّ على سليمان؛ لأنَّ قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين، (١٠) وأوصاه في هذا الأمر ألَّا يتبع آلهةً أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب».

-وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]... إلى غير ذلك من النصوص القرآنية التصحيحية والتعقبية لما جاء في الكتب المتقدمة.

- إلى جانب أنواع النقد النصي التي تدلُّ بوضوحٍ على عدم صحة نسبة بعض المواطن في هذه الكتب إلى مَن نسبت إليه؛ كحكاية أخبارٍ في أسفار التوراة لم يشهدها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكر خبر موته، ومثل هذا في سفر صموئيل وأيوب، وكذلك ما هو منسوبٌ إلى الله تعالى والأنبياء من الصفات والأحوال التي يقطع ببطلانها، وعدم صحة نسبتها للأنبياء، وكذلك وقوع التناقضات والاختلافات داخل السفر الواحد أو بين السفر وغيره، وكذلك وجود إحالات إنجيلية على أسفارٍ وأعدادٍ لا وجود لها فيما وصل إلينا، إلى غير ذلك من أنواع النقد النصي المعلومة للدارسين...

ولقد عني كثير من المصنفين بهذا الجانب؛ كالإمام ابن حزم والقرطبي والجويني وغيرهم، علاوةً على مدارس النقد النصي الغربي التي طورت وسائل البحث في هذا الميدان، وفي الرسالة التي ذيلت بها الكتاب إشارة أكبر إلى هذه الجهود.

علماء المسلمين وأهل الكتاب إلى أنه بدل بعض ألفاظها، وهذا مشهورٌ عند كثيرٍ من علماء المسلمين، وقاله أيضًا كثيرٌ من علماء أهل الكتاب.

ثم هؤلاء منهم الذين يقولون: إنَّ في ألفاظ الكتب ما هو مبدلٌ، وفيهم مَن يجعل المبدل من التوراة والإنجيل كثيرًا منهما، وربما جعل بعضهم المبدل أكثرهما لا سيما الإنجيل، فإن الطعن فيه أكثر وأظهر منه في التوراة، ومن هؤلاء مَن يُسْرف حتى يقول: إنه لا حرمة لشيءٍ منهما، بل يجوز الاستنجاء بهما، ومنهم من يقول: الذي بُدِّلت ألفاظه قليل منهما، وهذا أظهر، والتبديل في الإنجيل أظهر، بل كثير من الناس يقول: هذه الأناجيل ليس فيها من كلام الله إلا القليل، والإنجيل الذي هو كلام الله ليس هو هذه الأناجيل.

والصحيح أن هذه التوراة التي بأيدي أهل الكتاب فيها ما هو حكم الله وإنْ كان قد بدل وغير بعض ألفاظهما؛ كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ [المائدة: ٤١]، إلى قوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣].

فعلم أن التوراة التي كانت موجودةً بعد خراب بيت المقدس، وبعد مجيء بختنصر، وبعد مبعث المسيح، وبعد مبعث مُحمَّدٍ ﷺ فيها حكم الله، والتوراة التي كانت عند يهود المدينة على عهد رسول الله ﷺ -وإن قيل: إنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه- فلا نشهد على كل نسخةٍ في العالم بمثل ذلك، فإنَّ هذا غير معلوم لنا،

وهو أيضًا متعذر، بل يمكن تغيير كثيرٍ من النسخ، وإشاعة ذلك عند الأتباع حتى لا يوجد عند كثيرٍ من الناس إلا ما غير بعد ذلك، ومع هذا فكثيرٌ من نسخ التوراة والإنجيل متفقةٌ في الغالب، إنما تختلف في اليسير من ألفاظها، وكذلك في الإنجيل، قال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]، فعُلِمَ أنَّ في هذا الإنجيل حكمًا أنزله الله تعالى.

وقد ذكر طائفةٌ من العلماء أن قوله تعالى في الإنجيل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧] هو خطابٌ لمن كان على دين المسيح قبل النسخ والتبديل، لا الموجودين بعد مبعث مُحمَّدٍ ﷺ، وهذا القول يناسب مناسبةً ظاهرةً لقراءة من قرأ: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ﴾ بكسر اللام كقراءة حمزة، فإن هذه لام (كي)، فإنه تعالى قال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦، ٤٧].

وقال آخرون: لا حاجة إلى هذا التكلُّف، فإن القول في الإنجيل كالقول في التوراة...

وعلى كُلِّ قولٍ، فقد أخبر الله ﷻ أن في التوراة الموجودة بعد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ حكم الله، وأنَّ أهل الكتاب اليهود تركوا حكم الله الذي في التوراة مع كفرهم بالمسيح، وهذا ذمٌّ من الله لهم على ما تركوه من حكمه الذي جاء به الكتاب الأول، ولم ينسخه الرسول ﷺ الثاني، وهذا من التبديل الثاني الذي

ذموا عليه، ودلَّ ذلك على أن في التوراة الموجودة بعد مبعث المسيح حكمًا أنزله الله أُمِرُوا أن يحكموا به، وهكذا يمكن أن يقال في الإنجيل.

ومعلومٌ أن الحكم الذي أمروا أن يحكموا به من أحكام التوراة ولم ينسخه الإنجيل، ولا القرآن، فكذلك ما أمروا أن يحكموا به من أحكام الإنجيل هو مما لم ينسخه القرآن، وذلك أنَّ الدين الجامع أن يعبد الله وحده، ويأمر بما أمر الله به، ويحكم بما أنزله الله في أيِّ كتابٍ أنزله ولم ينسخه، فإنه يحكم به.

ولهذا، كان مذهب جماهير السلف والأئمة أنَّ شرعَ مَنْ قبلنا شرعٌ لنا ما لم يَرِدْ شرعنا بخلافه، ومن حكم بالشرع المنسوخ فلم يحكم بما أنزل الله، كما أن الله أمر أمة مُحمَّدٍ ﷺ أن يحكموا بما أنزل الله في القرآن، وفيه الناسخ والمنسوخ، فهكذا القول في جنس الكتب المنزلة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٨ - ٥٠].

فقد أمر نبيَّه محمدًا ﷺ أن يحكم بما أنزل الله إليه، وحذَّره اتباع أهوائهم، وبيَّن أن المخالف لحكمه هو حكم الجاهلية... وأخبره تعالى أنه جعل لكلٍّ من

أهل التوراة والإنجيل والقرآن شِرْعةً ومنهاجًا، وأَمَره تعالى بالحكم بما أنزل الله، أمر عام لأهل التوراة والإنجيل والقرآن، ليس لأحدٍ في وقتٍ من الأوقات أن يحكم بغير ما أنزل الله، والذي أنزله الله هو دينٌ واحدٌ اتفقت عليه الكتب والرسل.

وهم متفقون في أصول الدين وقواعد الشريعة وإن تنوَّعوا في الشِّرعة والمنهاج بين ناسخٍ ومنسوخٍ، فهو شبيهٌ بتنوع حال الكتاب الواحد، فإن المسلمين كانوا أولًا مأمورين بالصلاة لبيت المقدس، ثم أُمِرُوا أن يصلُّوا إلى المسجد الحرام، وفي كلا الأمرين إنما اتبعوا ما أنزل الله ﷻ، وكذلك موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مأمورًا بالسبت، محرمًا عليه ما حرمه الله في التوراة، وهو متبع ما أنزله الله ﷻ، والمسيح أحلَّ بعض ما حرمه الله في التوراة، وهو متبع ما أنزل الله ﷻ، فليس في أَمر الله لأهل التوراة والإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله أمرٌ بما نسخ، كما أنه ليس في أَمْر أهل القرآن أن يحكموا بما أنزل الله أمرٌ بما نسخ، بل إذا كان ناسخ ومنسوخ، فالذي أنزل الله هو الحكم بالناسخ دون المنسوخ، فمن حكم بالمنسوخ، فقد حكم بغير ما أنزل الله ﷻ.

ومما يوضح هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، فإنَّ هذا يبيِّن أن هذا أمرٌ لمُحمَّدٍ ﷺ أن يقول لأهل الكتاب الذي بعث إليهم: إنهم ليسوا على شيءٍ حتى يقيموا التوراة والإنجيل، وما أنزل إليهم من ربهم، فدلَّ ذلك على أنهم عندهم ما يعلم أنه منزل من الله، وأنهم مأمورون بإقامته، إذ كان ذلك مما قرره

محمد ﷺ، ولم ينسخه، ومعلوم أن كل ما أمَر الله به على لسان نبيٍّ ولم ينسخه النبي ﷺ الثاني، بل أقرَّه، كان الله آمرًا به على لسان نبيٍّ بعد نبيٍّ، ولم يكن في بعثة الثاني ما يسقط وجوب اتباع ما أمر به النبي الأول، وقرَّره النبي الثاني، ولا يجوز أن يقال: إنَّ الله ينسخ بالكتاب الثاني جميع ما شرعه بالكتاب الأول، وإنما المنسوخ قليلٌ بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب والشرائع...

فإنَّ المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن في الكتب الإلهية الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وأنه أرسل إلى الخلق رسلًا من البشر، وأنه أوجب العدل، وحرَّم الظلم والفواحش والشرك، وأمثال ذلك من الشرائع الكليَّة، وأنَّ فيها الوعد بالثواب، والوعيد بالعقاب، بل هم متفقون على الإيمان باليوم الآخر.

وقد تنازعوا في بعض معانيها، واختلفوا في تفسير ذلك، كما اختلفت اليهود والنصارى في المسيح المُبشر به النبوات، هل هو المسيح ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو مسيح آخر ينتظر، والمسلمون يعلمون أن الصواب في هذا مع النصارى، لكن لا يوافقونهم على ما أحدثوا فيه من الإفك والشرك»(١).

الجواب على اعتراض: كيف ذمهم على الترك مع القول بالتبديل؟

- «وكذلك يقال إذا بدل قليلٌ من ألفاظها الخبرية لم يمنع ذلك أن يكون أكثر ألفاظها لم يبدَّل، لا سيما إذا كان في نفس الكتاب ما يدلُّ على المبدل، وقد يقال: إن ما بدل من ألفاظ التوراة والإنجيل ففي نفس التوراة والإنجيل ما يدلُّ

---

(١) (٢/ ٤١٩).

على تبديله، فبهذا يحصل الجواب عن شبهة من يقول: إنه لم يُبدَّل شيءٌ من ألفاظها، فإنهم يقولون: إذا كان التبديل قد وقع في ألفاظ التوراة والإنجيل قبل مبعث محمد ﷺ، لم يعلم الحق من الباطل، فسقط الاحتجاج بهما ووجوب العمل بهما على أهل الكتاب، فلا يذمون حينئذٍ على ترك اتباعهما، والقرآن قد ذمهم على ترك الحكم بما فيهما، واستشهد بهما في مواضع.

وجواب ذلك: أنَّ ما وقع من التبديل قليل، والأكثر لم يبدل، والذي لم يبدل فيه ألفاظ صريحة تبين بها المقصود من غلط ما خالفها، ولها شواهد ونظائر متعددة يصدق بعضها بعضًا بخلاف المبدل، فإنه ألفاظٌ قليلةٌ، وسائر نصوص الكتب يناقضها، وصار هذا بمنزلة كتب الحديث المنقولة عن النبي ﷺ، فإنه إذا وقع في (سنن أبي داود)، والترمذي أو غيرهما أحاديث قليلة ضعيفة، كان في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ ما يبين ضعف تلك»[1].

الجواب على اعتراض: كيف وقع التحريف مع كثرة النسخ؟ والمقارنة بينها وبين نقل القرآن:

-«قالوا: سبحان الله العظيم! إذا كان الكتاب الذي لهم، الذي هو باللسان الواحد لا يمكن تبديله، ولا تغيير حرف واحدٍ منه، فكيف يمكن تغيير كتبنا التي هي مكتوبة باثنين وسبعين لسانًا، وفي كل لسانٍ منها كذا وكذا ألف نسخةٍ؟ فمَن الذي تكلَّم باثنين وسبعين لسانًا؟ ومن هو الذي حكم على الدنيا جميعها ملوكها وقساوستها وعلمائها حتى حكم على جميعها في أقطار الأرض، وجمعها في أربع

(١) (٢/ ٤٤٢).

زوايا العالم حتى يغيِّرها؟ وإن كان غيَّر بعضها، وترك بعضها، فهذا لا يمكن أن يكون؛ لأنَّ كلها قول واحد، ولفظ واحد في جميع الألسن، فهذا ما لا يجوز لقائلٍ أن يقوله أبدًا.

الجواب من وجوهٍ:

أحدها: أن المسلمين لم يدَّعوا أن هذه الكتب حُرِّفت بعد انتشارها، وكثرة النسخ بها، ولكن جميعهم مُتَّفقون على وقوع التبديل والتغيير في كثيرٍ من معانيها، وكثيرٍ من أحكامها، وهذا ممَّا تسلمه النصارى جميعهم في التوراة والنبوات المتقدمة، فإنهم يسلمون أنَّ اليهود بدَّلوا كثيرًا من معانيها وأحكامها، وممَّا تسلَّمه النصارى في فرقهم أن كلَّ فرقةٍ تخالف الأخرى فيما تفسر به الكتب المتقدمة.

وممَّا تسلمه اليهود أنهم متفقون على أنَّ النصارى تفسر التوراة والنبوات المتقدمة على الإنجيل بما يخالف معانيها، وأنها بدلت أحكام التوراة، فصار تبديل كثيرٍ من معاني الكتب المتقدمة متفقًا عليه بين المسلمين، واليهود، والنصارى، وأما تغيير بعض ألفاظها ففيه نزاع بين المسلمين، والصواب الذي عليه الجمهور أنه بدل بعض ألفاظها، كما ذكر ذلك في مواضعه.

الوجه الثاني: أنَّ قياسهم كتبهم على القرآن، وأنه كما لا تسمع دعوى التبديل فيه، فكذلك في كتبهم، قياس باطل في معناه ولفظه.

أما معناه: فكلُّ ما أجمع المسلمون عليه من دينهم إجماعًا ظاهرًا معروفًا عندهم، فهو منقول عن الرسول نقلًا متواترًا، بل معلومًا بالاضطرار من دينه، فإن الصلوات

الخمس، والزكاة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق، ووجوب العدل والصدق، وتحريم الشرك والفواحش والظلم، بل وتحريم الخمر والميسر والربا، وغير ذلك منقولٌ عن النبي ﷺ نقلًا متواترًا كنقل ألفاظ القرآن الدالة على ذلك...

فالمسلمون -عندهم منقولًا عن نبيهم نقلًا متواترًا- ثلاثة أمورٍ: لفظ القرآن ومعانيه التي أجمع المسلمون عليها، والسُّنة المتواترة، وهي الحكمة التي أنزلها الله عليه غير القرآن، كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

فالمسلمون عندهم نقلٌ متواترٌ عن نبيهم بألفاظ القرآن ومعانيه المتفق عليها، وبالسنة المتواترة عنه، مثل: كون الظهر والعصر والعشاء أربعًا، وكون المغرب ثلاث ركعات، وكون الصبح ركعتين، ومثل الجهر في العشائين والفجر، والمخافتة في الظهر والعصر، ومثل كون الركعة فيها سجدتين، وكون الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة سبعًا، ورمي الجمرات كل واحدةٍ سبع حصيات، وأمثال ذلك.

وأيضًا فالمسلمون يحفظون القرآن في صدورهم حفظًا يستغنون به عن المصاحف، كما ثبت في الصحيح الذي رواه مسلم(١)، عن النبي ﷺ أنه قال: **(إنَّ ربي قال لي: إنِّي منزل عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظانًا)**، يقول: ولو غسل بالماء من المصاحف، لم يغسل من القلوب كالكتب المتقدمة، فإنه لو

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٥) بنحوه.

عدمت نسخها، لم يوجد من ينقلها نقلًا متواترًا محفوظةً في الصدور.

والقرآن ما زال محفوظًا في الصدور نقلًا متواترًا حتى لو أراد مريد أن يغير شيئًا من المصاحف، وعرض ذلك على صبيان المسلمين، لعرفوا أنه قد غير المصحف؛ لحِفْظِهم للقرآن من غير أن يقابلوه بمصحفٍ، وأنكروا ذلك، وأهل الكتاب يقدر الإنسان منهم أن يكتب نسخًا كثيرًا من التوراة والإنجيل، ويغير بعضها، ويعرضها على كثيرٍ من علمائهم، ولا يعرفون ما غير منها إن لم يعرضوه على النسخ التي عندهم، ولهذا لمَّا غير من نسخ التوراة، راج ذلك على طوائف منهم، ولم يعلموا التغيير.

وأيضًا فما ذكروه من أنَّ كتبهم مكتوبة باثنين وسبعين لسانًا هو أقرب إلى التغيير من الكتاب الواحد باللغة الواحدة، فإن هذا مما يحفظه الخَلق الكثير، فلا يقدر أحد أن يغيره، وأما الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لسانًا، فإذا قدر أن بعض النسخ الموجودة ببعض الألسنة غير بعض ما فيها، لم يعلم ذلك سائر أهل الألسن الباقية، بل ولم يعلم بذلك سائر أهل النسخ الأخرى، فالتغيير فيها ممكنٌ كما يمكن في نظائر ذلك.

وما ادَّعوه من تعذُّر جمع جميع النسخ هو حجةٌ عليهم، فإن ذلك إذا كان متعذرًا، لم يمكن الجزم باتفاق جميع النسخ لواحدٍ حتى يشهد بأنها كلها متفقة لفظًا ومعنًى، بل إمكان التغيير فيها أيسر من إمكان الشهادة باتفاقها، ولهذا لا يمكن أحدًا تغيير القرآن مع كونه محفوظًا في القلوب، منقولًا بالتواتر، مع أنَّا لا نشهد لجميع المصاحف بالاتفاق، بل قد يقع في بعض نسخ المصاحف ما هو غلط

يعلمه حُفَّاظ القرآن، ولا يحتاجون إلى اعتبار ذلك بمصحفٍ آخر.

وتلك الكتب لا يحفظ كلًّا منها قوم من أهل التواتر حتى تعتبر النسخ بها، ولكن لمَّا كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فيهم موجودين، كانوا هم المرجع للناس فيما يعتمدون عليه إذا غير بعض الناس شيئًا من الكتب، فلما انقطعت النبوة فيهم، أسرع فيهم التغيير، فلهذا بدل كثيرٌ من النصارى كثيرًا من دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد رفعه بقليلٍ من الزمان، وصاروا يبدلون شيئًا بعد شيءٍ، وتبقى فيهم طائفةٌ متمسكةٌ بدين الحق إلى أن بعث الله محمدًا ﷺ...

فالدين الذي اجتمع عليه المسلمون اجتماعًا ظاهرًا معلومًا هو منقول عن نبيهم نقلًا متواترًا، نقلوا القرآن، ونقلوا سُنَّته، وسنتُهُ مُفسِّرة للقرآن، مبينة له، كما قال تعالى له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فبين ما أنزل الله لفظه ومعناه، فصار معاني القرآن التي اتفق عليها المسلمون اتفاقًا ظاهرًا مما توارثته الأمة عن نبيها كما توارثت عنه ألفاظ القرآن، فلم يكن -ولله الحمد- فيما اتفقت عليه الأمة شيء محرف مبدل من المعاني، فكيف بألفاظ تلك المعاني، فإن نقلها والاتفاق عليها أظهر منه في الألفاظ، فكان الدين الظاهر للمسلمين الذي اتفقوا عليه مما نقلوه عن نبيِّهم لفظه ومعناه، فلم يكن فيه تحريف، ولا تبديل، لا للفظ، ولا للمعنى بخلاف التوراة والإنجيل، فإن من ألفاظها ما بدَّل معانيه وأحكامه اليهود والنصارى أو مجموعهما تبديلًا ظاهرًا مشهورًا في عامتهم.

كما بدلت اليهود ما في الكتب المتقدمة من البشارة بالمسيح ومحمد ﷺ، وما في التوراة من الشرائع، وأمره في بعض الأخبار، وكما بدلت النصارى كثيرًا مما في

التوراة والنبوات من الأخبار، ومن الشرائع التي لم يُغيِّرها المسيح، فإن ما نسخه الله على لسان المسيح من التوراة يجب اتباع المسيح فيه.

وأمَّا ما بدل بعد المسيح مثل استحلال لحم الخنزير وغيره ممَّا حرَّمه الله ولم يبحه المسيح، ومثل إسقاط الختان، ومثل الصلاة إلى المشرق، وزيادة الصوم، ونقله من زمانٍ إلى زمانٍ، واتخاذ الصور في الكنائس، وتعظيم الصليب، واتباع الرهبانية، فإن هذه كلها شرائع لم يشرعها نبيٌّ من الأنبياء؛ لا المسيح، ولا غيره خالفوا بها شرع الله الذي بعث به الأنبياء من غير أن يشرعها الله على لسان نبي...

والقرآن تلقته الأمة منه حفظًا في حياته، وحفظ القرآن جميعه في حياته غير واحدٍ من أصحابه، وما من الصحابة إلا مَن حفظ بعضه، وكان يحفظ بعضهم ما لا يحفظه الآخر، فهو جميعه منقول سماعًا منه بالنقل المتواتر، وهو يقول: إنه مبلغٌ له عن الله، وهو كلام الله لا كلامه، وفي القرآن ما يبين أنه كلام الله نصوص كثيرة، وكان الذين رأوا محمدًا ﷺ، ونقلوا ما عاينوه من معجزاته وأفعاله وشريعته، وما سمعوه من القرآن وحديثه- ألوفًا مؤلفة، أكثر من مائة ألفٍ رأوه، وآمنوا به.

وأما الأناجيل التي بأيدي النصارى، فهي أربعة أناجيل: إنجيل متى، ويوحنا، ولوقا، ومرقس، وهم متفقون على أن لوقا ومرقس لم يريا المسيح، وإنما رآه متى ويوحنا[1]، وأن هذه المقالات الأربعة التي يسمونها الإنجيل،

---

(١) وهذا على التسليم الجدلي بصحة نسبة هذين الكتابين لمتَّى ويوحنا، وإلا فيمكن منع ذلك أو المطالبة بالدليل عليه، فهذا مما تخيم عليه ظلالٌ من الشكِّ، ولا يسلم من المراجعة والنقد، فمن علماء النقد الكتابي من الأوربيين وغيرهم مَن جزم بعدم صحة نسبة هذه الكتب لمتَّى ويوحنا، أو توقف في ذلك، راجع بعض أقوالهم في «دراسات في اليهودية والنصرانية وأديان الهند»، لمحمد =

وقد يسمون كل واحدٍ منهم إنجيلًا، إنما كتبها هؤلاء بعد أن رفع المسيح، فلم يذكروا فيها أنها كلام الله، ولا أن المسيح بلغها عن الله، بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح، وأشياء من أفعاله ومعجزاته، وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ما سمعوه منه ورأوه، فكانت من جنس ما يرويه أهل الحديث والسير والمغازي عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله التي ليست قرآنًا، فالأناجيل التي بأيديهم شبه كتاب السيرة وكتب الحديث، أو مثل هذه الكتب، وإن كان غالبها صحيحًا، وما قاله عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو مبلغ له عن الله يجب فيه تصديق خبره، وطاعة أمره، كما قاله الرسول من السنة، فهو يشبه ما قاله الرسول من السُّنَّة، فإن منها ما يذكر الرسول أنه قول الله كقوله: (**يقول الله تعالى: مَن عادى لي وليًّا، فقد آذنتهُ بالحرب**)[1]، ونحو ذلك، ومنها ما يقوله هو، ولكن هو أيضًا مما أوحاه الله إليه، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله.

فهكذا ما ينقل في الإنجيل، وهو من هذا النوع، فإنه كان أمرًا من المسيح، فأمر المسيح أمر الله، ومن أطاع المسيح فقد أطاع الله، وما أخبر به المسيح عن الغيب، فالله أخبره به، فإنه معصوم أن يكذب فيما يخبر به.

وإذا كان الإنجيل يشبه السنة المنزلة، فإنه يقع في بعض ألفاظها غلطٌ كما يقع في كتب السيرة، وسنن أبي داود والترمذي وابن ماجه، ثم هذه الكتب قد

=

ضياء الرحمن الأعظمي (٣٧١، ٣٧٨)، و«الأسفار المقدسة قبل الإسلام» لعلي عبد الواحد وافي (٩٨)، و«منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل، دراسة مقارنة» عزية علي طه (١٧٢، ١٧٥).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢).

اشتهرت واستفاضت بين المسلمين، فلا يمكن أحدًا بعد اشتهارها وكثرة النسخ بها أن يبدلها كلها، لكن في بعض ألفاظها غلط وقع فيها قبل أن تشتهر، فإن المحدث وإن كان عدلًا، فقد يغلط، لكن ما تلقاه المسلمون بالقبول والتصديق والعمل من الأخبار فهو مما يجزم جمهور المسلمين بصدقه عن نبيهم، لكن المقصود هنا أن المسلمين تواتر عندهم عن نبيهم ألفاظ القرآن ومعانيه المجمع عليها، والسنة المتواترة، وعندهم عن نبيهم أخبار كثيرة معلومة الصدق بطرق متنوعة؛ كتصديق الأمة المعصومة، ودلالة العادات، وغير ذلك، وهم يحفظون القرآن في صدورهم لا يحتاجون في حفظه إلى كتابٍ مسطورٍ، فلو عدمت المصاحف من الأرض، لم يقدح ذلك فيما حفظوه بخلاف أهل الكتاب، فإنه لو عدمت نسخ الكتب، لم يكن عندهم به نقل متواتر بألفاظها؛ إذ لا يحفظها -إن حفظها- إلا قليل لا يوثق بحفظهم.

فلهذا، كان أهل الكتاب بعد انقطاع النُّبوة عنهم يقع فيهم من تبديل الكتب إما تبديل بعض أحكامها ومعانيها، وإمَّا تبديل بعض ألفاظها ما لم يقوموا بتقويمه، ولهذا لا يوجد فيهم الإسناد الذي للمسلمين، ولا لهم كلام في نقلة العلم وتعديلهم وجرحهم ومعرفة أحوال نقلة العلم ما للمسلمين، ولا قام دليل سمعي ولا عقلي على أنهم لا يجتمعون على خطأ، بل قد علم أنهم اجتمعوا على الخطأ لمَّا كذبوا المسيح، ثم كذبوا محمدًا ﷺ.

فإذا كانت الكتب المنقولة عن الأنبياء من جنس الكتب المنقولة عن محمدٍ، ولم تكن متواترةً عنهم، ولم يكن تصديق غير المعصوم حجة، لم يكن

عندهم من العلم بالتميز بين الصدق والكذب ما عند المسلمين، فهذه الأناجيل التي بأيدي النصارى من هذا الجنس فيها شيءٌ كثيرٌ من أقوال المسيح وأفعاله ومعجزاته، وفيها ما هو غلط عليه بلا شكٍّ، والذي كتبها في الأول إذا لم يكن ممَّن يُتَّهم بتعمد الكذب، فإن الواحد والاثنين والثلاثة والأربعة لا يمتنع وقوع الغلط والنسيان منهم، لا سيما ما سمعه الإنسان ورآه، ثم حدث به بعد سنين كثيرةٍ، فإن الغلط في مثل هذا كثير، ولم يكن هناك أمة معصومةٌ يكون تلقيها لها بالقبول والتصديق موجبًا للعلم بها؛ لئلَّا تجتمع الأمة المعصومة على الخطأ، والحواريون كلهم اثنا عشر رجلًا.

وأما قولهم: كيف يمكن تغيير كتبنا التي هي مكتوبة باثنين وسبعين لسانًا، وفي كل لسانٍ منها كذا وكذا ألف مصحفٍ، ومضى عليها إلى مجيء محمدٍ أكثر من ستمائة سنة؟

فيقال: أما بعد انتشارها هذا الانتشار، فلم يقل المسلمون -بل ولا طائفة معروفة منهم- إنَّ ألفاظ جميع كل نسخةٍ في العالم غيرت، لكن جمهور المسلمين الذين يقولون: إنَّ في ألفاظها ما غير، إنما يدَّعون تغيير بعض ألفاظها قبل المبعث، أو تغيير بعض النسخ بعد المبعث، لا تغيير جميع النسخ، فبعض الناس يقول: إنَّ ذلك التغيير وقع في أول الأمر، ويقول بعضهم: إن منها ما غير بعد مبعث محمد ﷺ، ولا يقولون: إنه غير كل نسخةٍ في العالم، بل يقولون: غير بعض النسخ دون البعض، وظهر عند كثيرٍ من الناس النسخ المبدلة دون التي لم تبدل، والنسخ التي لم تبدل هي موجودة عند بعض الناس...

وأما قولهم: إنها كتبت باثنين وسبعين لغةً، فهذا إن كان صحيحًا فإنما كتبت

بعد أن كتبت تلك الأربعة، فإذا كان الغلط وقع في مواضع من تلك الأربعة، لم يرفعه بعد ذلك كتابتها باثنين وسبعين لغةً، فإنَّ المسلمين لا يقولون: إنها كتبت باثنين وسبعين لغةً غير لفظها في جميع الألسن، وإنما يقال: التغيير وقع قبل ذلك كما يقال في سائر ما ورد عن المسيح وموسى ومحمد -عليهم صلوات الله وسلامه- من الحديث، مثل: سيرة ابن إسحاق، وأحاديث السنن، والمسانيد المأثورة عن النَّبيِّ ﷺ، فإنَّ في العالم بكلِّ كِتَابٍ منها نسخ كثيرة، لا يمكن أن يُغيَّر منها فصلٌ طويلٌ، ولكن في نفس السيرة وقع غلطٌ في مواضع وأحاديث وقعت في السنن، هي غلطٌ في الأصل، فاشتهار النسخ بها بعد ذلك لا يمنع وقوع الغلط في الأصل.

وهذه كتب التفسير والفقه والدقائق، ما من كتابٍ إلا وبه نسخ كثيرة في العالم لا يمكن تغيير فصلٍ طويلٍ منها، وفيها أحاديث غلط في الأصل، والأناجيل التي بأيدي النصارى تشبه هذا[1]...

---

(١) قد يفرق بينهما بأن كتب السنة يصعب وقوع التبديل فيها بعد تدوين أصحابها لها، وإن وقع يصعب استقراره وعدم انكشافه؛ لأنَّ أصحابها علمت أعيانهم وأمانتهم، ولأنها نقلت بلغتها الأصلية، وبقيت النسخ الأصلية التي كتبها أصحاب هذه الكتب أو التي عرضت عليهم أو التي قرب عهدها واتصل إسنادها بمصنفيها، كما أن العلماء كانت لهم اشتراطات وضوابط في تناقل الأحاديث والكتب المروية وضبطها، إلى غير ذلك مما هو معلوم ومرقوم في كتب المصطلح وغيرها من كتب آداب الرواية، وهذا كله يجعل احتمال حصول الخطأ قليلًا، وإنْ وقع، سهل اكتشافه بمقابلة النسخ.

- فهذا بخلاف كتب العهد الجديد التي لم تتأكد شخصية كُتَّابها، ولا اللغة التي كتبت بها، ولا توجد لها نسخ أصلية، ولا نسخ رُوجعت على مصنفيها، أو قرب عهدها، واتصلت أسانيدها، ولا توجد ضوابط واشتراطات تحكم المترجمين ولا النُّساخ، ولا يعلم شخص الناسخ، ولا =

وأما التوراة، فمن المعلوم عند المسلمين واليهود والنصارى أنَّ بيت المقدس خرب الخراب الأول، وجلى أهله منه وسبوا، ولم يكن هناك من التوراة نسخ كثيرة ظاهرة، بل إنما أخذت عن نفرٍ قليلٍ كما يقولون: إن عزيرًا أملاها، وأنهم وجدوا نسخة أخرى، فقابلوها بها، والمقابلة تحصل باثنين، وقد يغلط أحدهما، وهم يذكرون أن من الملوك من أمر اثنين وسبعين حبرًا منهم بنقلها، واعتبر بعض تلك النسخ ببعضٍ.

وهذا إذا كان صدقًا، لا يمنع أن يكون الغلط وقع في بعض ألفاظها قبل ذلك إلا أن يثبت أنها مأخوذةٌ عن نبيٍّ معصومٍ، أو أقر جميع ألفاظها نبي معصوم، فما قاله المعصوم فهو حقٌّ، وما ثبت بالنقل المتواتر فهو حقٌّ، وهؤلاء القائلون: إنه وقع التغيير في بعض ألفاظها في ذلك الزمان يقولون: لم تؤخذ عن نبيٍّ معصومٍ،

=

المترجم، ولا ثقته، ولا أمانته، ولا ضبطه في النقل، ولأجل ذلك وغيره كَثُر وقوع الخطأ من النُّسَّاخ والمترجمين، وتكاثرت الأدلَّة على ذلك حتى صار من الصعب إنكارها أو تجاوزها، فمقارنتها بكتب الحديث صحيحة من جهة إمكان وقوع الخطأ فيها أو الأحاديث الضعيفة والمنقطعة، وكذلك وقوع الخطأ من نَقَلتها ونُسَّاخها.

ولكن لا تصحُّ من جهة إمكان تمييز هذه الأخطاء فيها؛ سواء فيما نقل فيها من الأحاديث بطرقٍ وقواعد معلومةٍ، أو فيما وقع من النُّسَّاخ بمقارنة النسخ، وتصحيح بعضها ببعضٍ، وكل هذا مما لا طريق إليه في الكتب المقدسة.

ولذا وجدنا الإمام الخزرجي يضع كتب التاريخ عند المسلمين في منزلةٍ أعلى منها، فقال في «مقامع هامات الصلبان» (١٥٧): حتى أني أحلف بالذي لا إله إلا هو أن تاريخ الطبري عندنا أصح نقلًا من الإنجيل، ويعتمد عليه العاقل أكثر، مع أن التاريخ عندنا لا يجوز أن ينبني عليه شيء من أمر الدين، وإنما هو فكاهات في المجالس.اهـ.

وراجع دراسة حيدة في هذا بعنوان: «منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل دراسة مقارنة» لعزية علي طه.

ولا نقلت بالتواتر، ومَنْ نازع من المسلمين وأهل الكتاب يقولون: أُخذَت عن العزير، وهو نبيٌّ معصومٌ، وهذا مما يحتاج المثبت فيه والنافي إلى تحقيقه...

وأمَّا من قال: إنَّه غير بعض ألفاظها بعد مبعث محمدٍ ﷺ، فهؤلاء يقولون: إنه كان في التوراة والإنجيل وغيرهما ألفاظ صريحة بأمورٍ، منها: اسم محمد ﷺ، وأنه عمد بعض أهل الكتاب فغيَّروا بعض الألفاظ في النسخ التي كانت عندهم، لا يقولون: إن هؤلاء غيروا كل نسخةٍ كانت على وجه الأرض، لكن غيَّروا بعض ألفاظ النسخ، وكتب الناس من تلك النسخ المغيرة نسخًا كثيرةً انتشرت، فصار أكثر ما يوجد عند كثيرٍ من أهل الكتاب هو من تلك النسخ المغيرة، وفي العالَم نسخ أخرى لم تُغيَّر، فذكر كثير من الناس أنه رآها وقرأها، وفي تلك النسخ ما ليس في النسخ الأخرى.

ومما يدلُّ على ذلك أنك في هذا الزمان إذا أخذت نسخ التوراة الموجودة عند اليهود والنصارى والسامرة، وجدت بينهما اختلافًا في مواضع متعددة، وكذلك نسخ الإنجيل، وكذلك نسخ الزبور مختلفة اختلافًا متباينًا بحيث لا يعقل العاقل أن جميع نسخ التوراة الموجودة متفقة على لفظٍ واحدٍ، ولا يعلم أن جميع نسخ الإنجيل متفقة على لفظٍ واحدٍ، ولا يعلم أن جميع نسخ الزبور متفقة على لفظٍ واحدٍ فضلًا عن سائر النبوات، ومعلومٌ أنه لا يمكن أهل الكتاب إقامة حجة على أن جميع النسخ بجميع اللغات في زوايا الأرض متفقة على لفظٍ واحدٍ في جميع ما هو موجود من جميع النُّبوات، والحجة التي احتجُّوا بها على تعذُّر تغييرها كلها تدل على تعذُّر العلم بتساويها كلها»[١].

---

(١) (٣/ ٦).

فضل أمة الإسلام ووسطيتها بين اليهود والنصارى:

- «وأما أمة محمد ﷺ، فإن الله هداهم لما اختلف فيه الأمم قبلهم من الحقِّ بإذنه، وهذا بيِّن، فإنهم على الحق والعدل الوسط بين طرفي الباطل، وهذا ظاهر في اتباعهم الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى في التوحيد والأنبياء والأخبار والتشريع والنسخ والحلال والحرام والتصديق والتكذيب وغير ذلك.

أما التوحيد، فإن اليهود شبَّهوا الخالق بالمخلوق، فوصفوا الرب سبحانه بصفات النقص الذي يختص بها المخلوق، فقالوا: إن الله فقير وبخيل، وأنه يتعب، وغير ذلك، والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق؛ صفات الكمال الذي يختص بها الخالق، فقالوا عن المسيح: إنَّه خالق السماوات والأرض القديم الأزلي علَّام الغيوب، القادر على كل شيءٍ، و﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [التوبة: ٣١].

والمسلمون هداهم الله لما اختلفوا فيه من الحقِّ، فلم يشبهوا الخالق بالمخلوق، ولا المخلوق بالخالق، بل أثبتوا لله ما يستحقُّه من صفات الكمال، ونزَّهوه عن النقائص، وأقرُّوا بأنه أحدٌ ليس كمثله شيء، وليس له كفوًا أحد في شيءٍ من صفات الكمال، فنزَّهوه عن النقائص خلافًا لليهود، وعن مماثلة المخلوق له خلافًا للنصارى.

وأما الأنبياء عليهم السلام، فإن اليهود قتلوا بعضًا، وكذبوا بعضًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

والنصارى أشركوا بهم، وَبِمَنْ هو دونهم، فعبدوا المسيح، بل اتخذوا

أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وجعلوا الحواريين رسلًا لله، وزعموا أن الإنسان يصير بطاعته بمنزلة الأنبياء، وصوروا تماثيل الأنبياء والصالحين، وصاروا يدعونهم، ويستشفعون بهم بعد موتهم، وإذا مات فيهم الرجل الصالح بَنَوْا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تماثيلهم.

وأمَّا المسلمون، فهداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فآمنوا بأنبياء الله كلهم، ولم يفرقوا بين أحدٍ منهم، ولم يغلوا فيهم غلو النصارى، ولا قصروا في حقهم تقصير اليهود.

وكذلك قتل اليهود الذين يأمرون بالقسط من الناس، والنصارى يطيعون مَن يأمر بالشرك، وإن الشرك لظلم عظيم، ويطيعون من يحرم الحلال، ويحلل الحرام.

والمسلمون يطيعون من يأمر بطاعة الله، ولا يطيعون من يأمر بمعصية الله.

والنصارى فيهم الشرك بالله، واليهود فيهم الاستكبار عن عبادة الله، كما قال تعالى في النصارى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال في اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

والإسلام هو أن يستسلم العبد لله وحده، فيعبده وحده بما أمره به، فمَن استسلم له ولغيره، كان مشركًا، والله لا يغفر أن يُشْرك به، ومَنْ لم يستسلم له، بل استكبر عن عبادته، كان ممَّن قيل فيه: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]، فلهذا كان جميع الأنبياء وأممهم مسلمين لله، يعبدونه وحده بما أمرهم به وإن تنوَّعت شرائعهم.

وأما التشريع، فإن اليهود زعموا أن ما أمر الله به يمتنع منه أن ينسخه، والنصارى زعموا أن ما أمر الله به يسوغ لأكابرهم أن ينسخوه، فهدى الله المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق، فقالوا: إن الله سبحانه له أن ينسخ ما شرعه خلافًا لليهود، وليس للمخلوق أن يغير شيئًا من شرع الخالق خلافًا للنصارى، وأما الحلال والحرام والطهارة والنجاسة، فإن اليهود حرمت عليهم الطيبات، وشددت عليهم من أمر النجاسات، حتى منعوا من مؤاكلة الحائض، والجلوس معها في بيتٍ، ومن إزالة النجاسة، وحرم عليهم شحم الثرب والكليتين وكل ذي ظفرٍ، وغير ذلك، والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أحلَّ لهم بعض الذي حرم عليهم فقابلهم النصارى، فقالوا: ليس شيء محرم؛ لا الخنزير، ولا غيره، بل ولا شيء نجس، لا البول ولا غيره، وزعموا أنَّ بعض أكابرهم رأى ملاءة صُوِّر له فيها صورُ الحيوان، وقيل له: كُلْ ما طابت نفسك، ودع ما تكره، وأنه أبيح لهم جميع الحيوان، ونسخوا شرع التوراة بمجرد ذلك.

فالحلال عندهم ما اشتهته أنفسهم، والحرام عندهم ما كرهته أنفسهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق، فأحلَّ لهم الله الطيبات، وحرم عليهم الخبائث، وأزال عنهم الآصار والأغلال التي كانت على بني إسرائيل خلافًا لليهود، وأمرهم بالطهارة؛ طهارة الحدث والخبث خلافًا للنصارى.

والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ جعلته اليهود ولد زنا كذابًا ساحرًا، وجعلته النصارى هو الله خالق السماوات والأرض، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقِّ بإذنه، فشهدوا أنه عبد الله مخلوق خلافًا للنصارى، وأنه رسول وجيه في الدنيا

والآخرة ومن المقربين خلافًا لليهود.

وأمَّا التصديق والتكذيب، فإنَّ اليهود من شأنهم التكذيب بالحق، والنصارى من شأنهم التصديق بالباطل، فإن اليهود كذبوا مَن كذبوه من الأنبياء، وقد جاءوا بالحق، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

والنَّصارى يُصدِّقون بمحالات العقول والشرائع، كما صدقوا بالتثليث والاتحاد ونحوهما من الممتنعات»(١).

تعذر احتجاج أهل الكتاب على المسلمين بحجة عقلية أو نقلية:

- «كل ما يحتجُّون به على مخالفة ما ثبت عن مُحمَّدٍ ﷺ لا يمكن أن يقوم لهم عليه دليلٌ؛ لا شرعي، ولا عقلي، وهذا نعلمه مجملًا.

ونحن نُبيِّن ذلك مفصلًا، فنقول: ما يحتجون به إما أن يكون حجة عقلية، وإما أن يكون سمعية:

أما العقليات: فمعلوم أن الحجج العقلية الدالة على فساد ما يقوله النصارى أظهر مما يحتجون به على صحة دينهم، ومَن احتج منهم أو من اليهود بحجة عقلية على مخالفة شيءٍ من دينه، فلها أجوبة:

أحدها: أن يبين أن ذلك يلزم غيره من الأنبياء، فإنهم جاءوا بذلك أو بأعظم منه، فلا يقدح أحدٌ بحجة عقلية في مُحمَّدٍ ﷺ إلا كان ذلك قد جاء بطريق الأَوْلَى في غيره من الأنبياء، كما بينَّا في الرد على الرافضة أنه لا يقدح أحد في الخلفاء الثلاثة: أبي بكرٍ

(١) (٢/ ٢٦٠).

وعمر وعثمان، إلا أمكن أن يقدح بمثل ذلك وبأعظم منه في عليٍّ، فيمتنع أن يكون عليٌّ سليمًا من القوادح في إمامته إلا والثلاثة أسلم منه مما يقدح في إمامتهم، ويمتنع أن يكون موسى وعيسى وداود برآءً مما يقدح في نبوتهم إلا ومحمد أبرأ مما يقدح في نبوته، وهذا كما لو احتجَّ محتج بما في القرآن من إثبات الصفات، فيقال له: في التوراة وغيرها من كتب الأنبياء مثل ذلك وأعظم، وإذا احتج بإنزال المتشابهات، فيقال له: في الكتب المتقدمة من التشابه أعظم مما في القرآن، وهل ضلَّت النصارى إلا باتباع المتشابه من كلام الأنبياء، وترك المحكم؟

والثاني: أن يُبيِّن أن تلك الحجة لا تصلح أن يعارض بها ما جاءت به الأنبياء، كما إذا أخذ بعض الناس يطعن في شيءٍ من الشرائع بالرأي، بين له أن ما ثبت عن الأنبياء لا يعارض برأيٍ، ولا قياسٍ.

الثالث: أن يبين فساد تلك الحجة العقلية، إن كانت من باب الخبريات: بيَّن فسادها كما قد بسطنا القول في ذلك في كتاب (درء تعارض العقل والشرع)، وذكرنا أن جميع ما يحتج به على خلاف نصوص الأنبياء من العقليات، فإنه باطلٌ، وذكرنا ما يعتمد عليه النفاة من هذا الباب، وَإِنْ كانت من باب الطلبيات، فهي من باب الأمر والنهي، فمَنْ كان في مذهبه أنه لا يعلل أحكام الله، ولا يقول: إن حسن الأفعال وقبحها يعلم بالعقل، ولا ينزه الله عن فعلٍ، ولا عن حكمٍ، بل يجوز عليه كل شيءٍ، وإنما ينفي ذلك بالخبر السمعي أو العادة، فهذا يُجَاب بهذا الجواب، لكن عامة القلوب والعقول لا تقبل هذا.

وأما على قول الجمهور[(١)]: فنبين ما في مأموراته من الحكم والمصالح، وما في منهياته من المفاسد والضرر، ونُبيِّن رجحان ما جاء به على ما يعارض به، بل ونُبيِّن رجحان شرائع الأنبياء على سياسات سائر الأمم، بل ونُبيِّن رجحان شريعة مُحمَّدٍ ﷺ على سائر الشرائع، وهذا مبسوطٌ في مواضع[(٢)].

وأما إذا احتجَّ أهل الكتاب على مناقضة مُحمَّدٍ ﷺ بحجةٍ سمعيةٍ؛ سواء كانت من كلامه، أو كلام غيره من الأنبياء عليهم السلام، كان الجواب من وجوهٍ:

أحدها: أن يقال لهم: لا يمكنكم أن تصدقوا بنبوة نبيٍّ من الأنبياء مع التكذيب بمحمد ﷺ، والطريق الذي بها تثبت نبوة محمد ﷺ بمثلها وبأعظم منها، بل نحن نُبيِّن أن التصديق بنبوته أَوْلَى من التصديق بنُبوَّة غيره، وأن كل ما يستدلُّ به على نبوة نبيٍّ فمحمد أحق بجنس ذلك الدليل من غيره، وما يعارض به نبوة نبيٍّ، فالجواب عن محمد ﷺ أَوْلَى من الجواب عن غيره، فهو مقدم فيما يدل على النبوة، وفيما يجاب به عن المعارضة، وهذه أكمل في ذلك، فيمتنع مع العلم أو العدل أن يصدق بنبوة غيره مع التكذيب بنُبوَّته، كما يمتنع مع العلم والعدل في كلِّ اثنين أحدهما أكمل من الآخر في فنٍّ أن يقر بمعرفة ذلك الفن للمفضول دون الفاضل، وقولنا: مع العلم والعدل؛ لأن الظالم يفضل المفضول مع علمه بأنه مفضولٌ، والجاهل قد يعرف المفضول، ولا يعرف الفاضل، فإنَّ كثيرًا من الناس يعلمون فضيلة متبوعهم: إمَّا في العلم أو العبادة، ولا يعرفون

---

(١) أي: المثبتون للعلل والحكم والمصالح.

(٢) بعضها في هذا الكتاب، وسيأتي ذكر شيءٍ من ذلك عند الحديث على دلائل النبوة.

أخبار غيره حتى يوجد أقوامٌ يعظمون بعض الأتباع دون متبوعه الذي هو أفضل منه عند التابع، وغيره لا يعرفونه، فهؤلاء ليس عندهم علمٌ.

ولهذا تجد كثيرًا من هؤلاء يرجح المفضول؛ لعدم علمه بأخبار الفاضل، وهذا موجودٌ في جميع الأصناف حتى في المدائن، يفضل الإنسان مدينةً يعرفها على مدينةٍ هي أكمل منها؛ لكونه لا يعرفها، فمَن عنده علمٌ وعدلٌ، فينظر في القرآن وفي غيره من الكتب كالتوراة والإنجيل، أو في معجزات محمد ﷺ ومعجزات غيره، أو في شريعته وشريعة غيره، أو في أمته وأمة غيره، وجد له من التفضيل على غيره ما لا يخفى إلا على مفرط في الجهل أو الظلم، فكيف يمكن مع هذا أن يقال: هو كاذب مفترٍ، وغيره هو النبي الصادق؟»[١].

---

(١) (٥/ ١٢٧)، وسيأتي أيضًا بسط لهذا المعنى عند الكلام على الدلائل.

البَابُ الأَوَّلُ

مناقشة احتجاج النصارى بالمنقول من القرآن

الفصل الأول: الردُّ الإجمالي على احتجاجهم بالقرآن

الفصل الثاني: الرد التفصيلي على ما احتجوا به من القرآن

تمهيد

يشتمل هذا الباب على التعرض لبعض النصوص القرآنية التي تعلَّق بها النصارى، وزعموا أنها مؤيدة لمعتقدهم، ومصححة لدينهم وكتبهم.

فتناول الشيخ هذه النصوص بالشرح والبيان، وبرهن على بطلان تعلُّق النصارى بها على سبيل الإجمال الذي يشمل آي القرآن كلها، وعلى سبيل التفصيل في كلِّ آيةٍ تعلَّقوا بها.

وبيَّن أيضًا سوء تصرُّفهم في تأويلها، وحملها على غير المراد بها.

وكثيرٌ من الآيات التي ذكرها الشيخ وإن تعلَّق بها النصارى في الأصل -وما زالوا- لتصحيح دينهم، ولكن يتعلَّق ببعضها أيضًا بعض دعاة التقارب بين الأديان ونحوها من الدعوات الحادثة، ولهم في الاستدلال بها وتأويلها طريقةٌ شبيهةٌ بطريقة النصارى التي تشتمل على سوء التصرف أو الكذب كما بيَّن المُصنِّف.

وتفنيد الشيخ لاستدلال النصارى يصحُّ ويصلح تفنيدًا أيضًا لدعوى غيرهم من المحرفين لهذه النصوص، والمتعلِّقين بها في غير المراد لها.

الفصل الأول

الردُ الإجمالي على احتجاجهم بالقرآن

- «إن احتجاجكم على صحة ما تخالفون فيه المسلمين مما جاء به محمد ﷺ لا يصحُّ بوَجْهٍ من الوجوه، فاحتجاجكم على أنه لم يرسل إليكم، أو على صحة دينكم بشيءٍ من القرآن حجة داحضة على كلِّ تقديرٍ... وهذا بخلاف المسلمين، فإنه يصحُّ احتجاجهم على أهل الكتاب اليهود والنصارى بما جاءت به الأنبياء قبل محمد ﷺ، وأهل الكتاب لا يصح احتجاجهم بما جاء به محمد ﷺ، وذلك أن المسلمين مقرُّون بنبوة موسى، وعيسى وداود، وسليمان، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، وعندهم يجب الإيمان بكل كتابٍ أنزله الله، وبكل نبيٍّ أرسله الله، وهذا أصل دين المسلمين، فمَن كفر بنبيٍّ واحدٍ، أو كتابٍ واحدٍ، فهو عندهم كافر، بل من سبَّ نبيًّا من الأنبياء، فهو عندهم كافر مباح الدم، كما قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والكتاب اسم جنسٍ لكلِّ كتابٍ أنزله الله، يتناول التوراة والإنجيل، كما

يتناول القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]...

وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥]، فذكر أن هذا الكتاب الذي أنزل عليه هدًى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، والذين يؤمنون بما أنزل إليه، وما أنزل من قبله، وبالآخرة هم يوقنون.

ثم أخبر أن هؤلاء هم المفلحون، فحصر الفلاح في هؤلاء، فلا يكون مفلحًا إلا مَنْ كان من هؤلاء... بخلاف أهل الكتاب، فإنه لا يتمُّ مرادهم إلا بتكذيبهم ببعض ما أنزل الله، ومتى كذب بكلمةٍ واحدةٍ مما أخبر به من قال: إنه رسول الله، بطل احتجاجه بسائر كلامه، فكانت حجتهم التي يحتجون بها داحضة، وذلك أنَّ الذي يقول: إنه رسول الله، إما أن يكون صادقًا في قوله: إني رسول الله، وفي جميع ما يخبر به عن الله، وإما أن يكون كاذبًا، ولو في كلمةٍ واحدةٍ عن الله، فإن كان صادقًا في ذلك، امتنع أن يكذب على الله في شيءٍ مما يبلغه عن الله، فإن من كذب على الله، ولو في كلمةٍ واحدةٍ، كان ممن افترى على الله الكذب، ولم يكن رسولًا من رسل الله، ومن افترى على الله الكذب تبين أنه من المتنبئين الكذابين.

ومثل هذا لا يجوز أن يحتج بخبره عن الله، فإنه قد علم أن الله لم يرسله، وإذا قال هو قولًا وكان صدقًا، كان كما يقوله غيره: يقبل، لا لأنه بلغه عن الله، ولا لأنه رسول عن الله، بل كما يقبل من المشركين وسائر الكفار ما يقولونه من الحق، فإن

عُبَّاد الأوثان إذا قالوا عن الله ما هو حق مثل إقرار مشركي العرب بأن الله خلق السماوات والأرض، لم نكذبهم في ذلك وإن كانوا كفارًا، وكذلك إذا قال الكافر: إنَّ الله حيٌّ قادرٌ خالقٌ، لم نكذبه في هذا القول، فمَن كذب على الله في كلمةٍ واحدةٍ، قال: إن الله أنزلها عليه، ولم يكن الله أنزلها عليه، فهو من الكذَّابين الذين لا يجوز أن يحتج بشيءٍ من أقوالهم التي يقولون: إنهم يبلغونها عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وحينئذٍ، فهؤلاء إن أقرُّوا برسالة مُحمَّدٍ ﷺ، وأنه صادقٌ فيما بلغه عن الله من الكتاب والحكمة، وجب عليهم الإيمان بكلِّ ما ثبت عنه من الكتاب والحكمة، كما يجب الإيمان بكلِّ ما جاءت به الرسل، وإن كذَّبوه في كلمةٍ واحدةٍ، أو شكوا في صدقه فيها، امتنع مع ذلك أن يقرُّوا بأنه رسول الله، وإذا لم يقرُّوا بأنه رسول الله، كان احتجاجهم بما قاله كاحتجاجهم بسائر ما يقوله مَن ليس من الأنبياء، بل من الكذابين، أو من المشكوك في صدقهم، فإنَّ كل من أرسله الله لا بد أن يكون صادقًا في كل ما يبلغه عن الله، لا يكذب فيه عمدًا، ولا خطأً.

وهذا أمرٌ اتفق عليه الناس كلهم؛ المسلمون، واليهود، والنصارى، وغيرهم، اتفقوا على أن الرسول لا بد أن يكون صادقًا معصومًا فيما يبلغه عن الله، لا يكذب على الله خطأً، ولا عمدًا، فإن مقصود الرسالة لا يحصل بدون ذلك، كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٤، ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى

ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٢٤].

وإنما المقصود هنا: أن احتجاجهم بكلمةٍ واحدةٍ مما جاء به محمد ﷺ لا يصح بوجهٍ من الوجوه، فإنه إن كان رسولًا صادقًا في كل ما يخبر به عن الله ﷻ، فقد علم كل واحدٍ أنه جاء بما يخالف دين النصارى، فيلزم إذا كان رسولًا صادقًا أن يكون دين النصارى باطلًا، وإن قالوا في كلمةٍ واحدةٍ مما جاء به أنها باطلة، لزم ألَّا يكون عندهم رسولًا صادقًا مبلغًا عن الله، وحينئذٍ فسواء قالوا: هو ملك عادل، أو هو عالِم من العلماء، أو هو رجل صالح من الصالحين، أو جعلوه قديسًا عظيمًا من أعظم القديسين.

فمهما عظَّموه به ومدحوه به لما رأوه من محاسنه الباهرة، وفضائله الظاهرة، وشريعته الطاهرة، متى كذَّبوه في كلمةٍ واحدةٍ مما جاء به، أو شكوا فيها، كانوا مُكذِّبين له في قوله: إنه رسول الله، وأنه بلَّغ هذا القرآن عن الله، ومن كان كاذبًا في قوله: إنه رسول الله، لم يكن من الأنبياء والمرسلين، ومن لم يكن منهم، لم يكن قوله حُجَّةً ألبتة، لكن له أسوة أمثاله، فإن عرف صحة ما يقوله بدليل منفصل، قبل القول؛ لأنه عرف صدقه من غير جهته، لا لأنه قاله، وإن لم يعرف صحة القول، لم يُقْبل.

فتبين أنه إن لم يقرَّ المقر لمن ذكر أنه رسول الله بأنه صادقٌ في كل ما يبلغه عن الله، معصوم عن استقرار الكذب خطأً أو عمدًا، لم يصح احتجاجهم بقوله، وحينئذ فمتى كذبوا بكلمةٍ واحدةٍ مما في الكتاب، لم يصح استشهادهم واستدلالهم بشيءٍ مما في الكتاب، وإن صدقوا بالكتاب كله، لزمهم الإيمان بما

جاء به، واتباع شريعته، والاعتراف بكفر الذين كذبوه، وكفر الذين يقولون: إن الله هو المسيح ابن مريم، وإن الله ثالث ثلاثةٍ، وهذا بخلاف مَنْ آمن بالرسول، ولم يثبت عنده بعض ما نقل عنه، أو لم يعرف معناه، فإنَّ هذا لا يقدح في أصل إيمانه بالرسول، فالمسلمون إذا كذبوا ببعض ما نقل عن موسى والمسيح، فهو لطعنهم في الناقل، لا في النبي المنقول عنه.

وأمَّا النصارى فيعلمون أن محمدًا ﷺ جاء بالقرآن، فطعنُهُم في بعضه طعنٌ في الرسول نفسه، وكفرٌ به، وليس هذا بمنزلة ما مثلوا به من الوثيقة التي كتب وفاؤها في ظهرها، فإن الذي له الدين أقرَّ بالاستيفاء المسقط له، فلم يبق هناك حقٌّ له يدعيه بخلاف ما يخبر به الذي يقول: إنه رسول الله، فإنه يقول: إن الله أنزل عليَّ هذا الكتاب كله، وأرسلني بكذا وكذا إلى كذا وكذا، فإن كذب في شيءٍ مما أخبر به عن الله، لم يكن الله أرسله، فإن الذي أرسله هو الذي جعله يبلغ عنه ما يقوله، بلا زيادةٍ، ولا نقصٍ.

وإن كان مقصودهم الاحتجاج بذلك على المسلمين(١):

قيل لهم أولًا: هذه حجة جدلية(٢)، فما مستندكم فيما بينكم وبين الله في تصديق شخصٍ وتكذيب آخر مع أن دلالة الصدق فيهما واحدة، بل هي في

---

(١) أي: إن قالوا: إنما قصدنا في احتجاجنا بالقرآن إلزام المسلمين بما يؤمنون به، لا الإقرار بحجيته.

(٢) «**الجدل**»: هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم وإفحام مَنْ هو قاصرٌ عن إدراك مقدمات البرهان. التعريفات (٧٤).

فقصد أن هذه حجة تصلح فقط لمجادلة الخصم، لكنها قاصرة عن إثبات الحق، والبرهنة عليه.

الذي كذبتموه أظهر؟ فإن كانت حقًّا، لزم تصديق من كذبتموه، وفسد دينكم، وإن كانت باطلةً، بطل استدلالكم بها على دينكم، فثبت أنَّهم مع تكذيب مُحمَّد ﷺ لا يستقيم لهم الاستدلال بكلام أحدٍ من الأنبياء عليهم السلام.

وقيل لهم ثانيًا: المسلمون إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بما دلَّهم على صدق مُحمَّدٍ ﷺ، فإن لم يكن محمد صادقًا، لم يعرفوا صدق هؤلاء، فيبطل دليلكم، وإن كان صادقًا بطل دين النصارى، فيبطل دليل صحته، فثبت بطلان دليلهم على كل تقديرٍ.

وقيل لهم ثالثًا: المسلمون لم يصدقوا نبوة أحدٍ من هؤلاء إلا مع نبوة مُحمَّدٍ ﷺ، وإن قيل: إنهم عرفوا ذلك بطريقٍ آخر، فإن الدليل الذي يدلُّ على صدق واحدٍ منهم يدل على صدق مُحمَّدٍ ﷺ بطريق الأَوْلَى، فلا يمكنهم تصديق نبيٍّ مع تكذيب محمدٍ ﷺ.

وقيل لهم رابعًا: هم إنما يصدقون موسى وعيسى اللذين بشَّرا بمحمد ﷺ، فَإِنْ كانا قد بشَّرا به، فثبتت نبوته، وإن لم يكونا بشَّرا به، فهم لا يؤمنون إلا بالمبشرين به، وبالتوراة والإنجيل اللذين هو مكتوب فيهما، فإن قدر عدم ذلك، فهم لا يسلمون وجود موسى وعيسى، وتوراة وإنجيل منزلين من الله ليس فيهما ذكره ﷺ(١).

---

(١) (١/ ١٣٢).

الفصل الثاني

الرد التفصيلي على ما احتجوا به من القرآن

أولاً: احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى: ٢٤]:

وأما قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، فهو حقٌّ كما أخبر الله به، وقد ذكر تعالى تأييد عيسى ابن مريم بروح القدس في عدَّة مواضع، فقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال تعالى في القرآن: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٢]... فروح القدس الذي نزل بالقرآن من الله هو الروح الأمين، وهو جبريل، وثبت في الصحيح[1] عن أبي هريرة أنه سمع

---

(١) بنحوه في البخاري (٤٥٣)، ومسلم (٢٤٨٥).

النَّبيَّ ﷺ يقول لحسان بن ثابت: (**أجب عنِّي، اللَّهمَّ أيِّده بروح القدس**).

فهذا حسان بن ثابت واحد من المؤمنين لمَّا نافح عن الله ورسوله، وهجا المشركين الذين يُكذِّبون الرسول، أيده الله بروح القدس، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأهل الأرض يعلمون أن محمدًا ﷺ لم يكن يجعل اللاهوت متحدًا بناسوت حسان بن ثابت؛ فعلم أن إخباره بأنَّ الله أيده بروح القدس لا يقتضي اتحاد اللاهوت بالناسوت، فعلم أن التأييد بروح القدس ليس من خصائص المسيح، وأهل الكتاب يقرُّون بذلك، وأن غيره من الأنبياء كان مؤيدًا بروح القدس كداود وغيره، بل يقولون: إنَّ الحواريين كانت فيهم روح القدس.

وقد ثبت باتفاق المسلمين واليهود والنصارى أن روح القدس يكون في غير المسيح، بل في غير الأنبياء، كما سيأتي إن شاء الله، وإنما المقصود في هذا المقام بيان كذبهم على محمد ﷺ، وهذا التأييد نظير قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فهذا التأييد بروحٍ منه عام لكل مَن لم يحب أعداء الرسل وإن كانوا أقاربه، بل يحب من يؤمن بالرسل وإن كانوا أجانب، ويبغض من لم يؤمن بالرسل وإن كانوا أقارب، وهذه ملة إبراهيم، وليس في القرآن، ولا في الإنجيل، ولا غير ذلك من كتب الأنبياء أن روح القدس الذي أيد به المسيح هو صفة الله القائمة به، وهي حياته، ولا أن روح القدس رب يخلق ويرزق، فليس روح القدس هي

الله، ولا صفة من صفات الله، بل ليس في شيءٍ من كلام الأنبياء أن صفة الله القائمة به تسمى ابنًا، ولا روح القدس.

وهم إما أن يسلموا أن روح القدس في حق غيره ليس المراد بها حياة الله، فإذا ثبت أنَّ لها معنى غير الحياة، فلو استعمل في حياة الله أيضًا لم يتعين أن يراد بها ذلك في حق المسيح، فكيف ولم يستعمل في حياة الله في حق المسيح، وإما أن يدعوا أن المراد بها حياة الله في حق الأنبياء والحواريين، فإن قالوا ذلك، لزمهم أن يكون اللاهوت حالًّا في جميع الأنبياء والحواريين، وحِينَئِذٍ فلا فرق بين هؤلاء وبين المسيح، ويلزمهم أيضًا أن يكون في المسيح لاهوتان: لاهوت الكلمة، ولاهوت الروح، فيكون قد اتَّحد به أقنومان، ثم في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، يمتنع أن يُرادَ بها حياة الله، فإن حياة الله صفة قائمة بذاته لا تقوم بغيره، ولا تختصُّ ببعض الموجودات غيره، وأمَّا عندهم فالمسيح هو الله الخالق، فكيف يؤيد بغيره، وأيضًا فالمتحد بالمسيح هو الكلمة دون الحياة، فلا يصح تأييده بها، فتبيَّن أنهم يريدون أن يحرفوا القرآن كما حرفوا غيره من الكتب المتقدمة، وأن كلامهم في تفسير المتشابه من الكتب الإلهية من جنسٍ واحدٍ»(١).

ثانيًا: استدلالهم بمدح الرهبانية:

وأما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ

(١) (٢/ ١٨١).

وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٥-٢٧]، فهو حقٌّ كما قال تعالى.

وليس في ذلك مدح للرهبانية، ولا لمن بدَّل دين المسيح، وإنما فيه مدحٌ لمن اتبعه بما جعل الله في قلوبهم من الرحمة والرأفة، حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، ثم قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، أي: وابتدعوا رهبانيةً ما كتبناها عليهم، وهذه الرهبانية لم يشرعها الله، ولم يجعلها مشروعةً لهم، بل نفى جعله عنها كما نفى ذلك عما ابتدعه المشركون بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وهذا الجعل المنفي عن البدع هو الجعل الذي أثبته للمشروع بقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧]، فالرهبانيَّة ابتدعوها لم يشرعها الله.

وللناس في قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ قولان:

أحدهما: أنها منصوبة، يعني: ابتدعوها؛ إما بفعل مضمر يفسره ما بعده، أو يقال: هذا الفعل عمل في المضمر والمظهر كما هو قول الكوفيين، حكاه عنهم ابن جرير وثعلب وغيرهما، ونظيره قوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإنسان: ٣١]، وقوله: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وعلى هذا القول فلا تكون الرهبانية معطوفةً على الرأفة والرحمة.

والقول الثاني: أنها معطوفةٌ عليها، فيكون الله قد جعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والرهبانية المبتدعة، ويكون هذا جعلًا خلقيًّا كونيًّا، والجعل الكوني يتناول الخير والشَّرَّ؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وعلى هذا القول فلا مدح للرهبانية بجعلها في القلوب، فثبت على التقديرين أنه ليس في القرآن مدحٌ للرهبانية، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧]، أي: لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء رضوان الله بفعل ما أمر به لا بما يبتدع، وهذا يسمى استثناءً منقطعًا، كما في قوله: ﴿ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان: ٥٦]، وهذا أصحُّ الأقوال في هذه الآية كما هو مبسوطٌ في موضعٍ آخر.

ولا يجوز أن يكون المعنى أن الله كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله، فإنَّ الله لا يفعل شيئًا ابتغاء رضوان نفسه، ولا أن المعنى أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانه كما يظن هذا وهذا بعض الغالطين كما قد بسط في موضعٍ آخر.

فإن قيل: قد قال بعض الناس: إن قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ [الحديد: ٢٧] «عطف على ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، وإن المعنى: أنَّ الله جعل في قلوب

الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانيةً أيضًا ابتدعوها، وجعلوا الجعل شرعيًّا ممدوحًا. قيل: هذا غلطٌ لوجوهٍ:

منها: أن الرهبانية لم تكن في كل مَن اتبعه، بل الذين صحبوه كالحواريين لم يكن فيهم راهبٌ، وإنما ابتدعت الرهبانية بعد ذلك بخلاف الرأفة والرحمة، فإنها جعلت في قلب كلِّ من اتبعه.

ومنها: أنه أخبر أنهم ابتدعوا الرهبانية بخلاف الرأفة والرحمة، فإنهم لم يبتدعوها، وإذا كانوا ابتدعوها، لم يكن قد شرعها لهم، فإن كان المراد هو الجعل الشرعي الديني لا الجعل الكوني القدري، فلم تدخل الرهبانية في ذلك، وإن كان المراد الجعل الخلقي الكوني، فلا مدح للرهبانية في ذلك.

ومنها: أن الرأفة والرحمة جعلها في القلوب، والرهبانية لا تختص بالقلوب، بل الرهبانية ترك المباحات من النكاح واللحم، وغير ذلك، وقد كان طائفةٌ من الصحابة -رضوان الله عليهم- هموا بالرهبانية، فأنزل الله تعالى نهيهم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٧]... وقد بينت النصوص الصحيحة أن الرهبانية بدعة وضلالة، وما كان بدعة وضلالة لم يكن هدًى، ولم يكن الله جعلها بمعنى أنه شرعها كما لم يجعل الله ما شرعه المشركون من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

فإن قيل: قد قال طائفةٌ: معناها: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله. وقالت طائفةٌ: ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله.

قيل: كلا القولين خطأ، والأول أظهر خطأ، فإن الرهبانية لم يكتبها الله عليهم، بل لم يشرعها لا إيجابًا، ولا استحبابًا، ولكن ذهبت طائفة إلى أنهم لما ابتدعوها، كتب عليهم إتمامها، وليس في الآية ما يدل على ذلك، فإنه قال: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧]، فلم يذكر أنه كتب عليهم نفس الرهبانية، ولا إتمامها، ولا رعايتها، بل أخبر أنهم ابتدعوا بدعةً، وأن تلك البدعة لم يرعوها حقَّ رعايتها.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧] يدل على أنهم لو رعوها حقَّ رعايتها لكانوا ممدوحين.

قيل: ليس في الكلام ما يدل على ذلك، بل يدل على أنهم مع عدم الرعاية يستحقون من الذم ما لا يستحقونه بدون ذلك؛ فيكون ذم مَن ابتدع البدعة، ولم يرعها حقَّ رعايتها أعظم من ذم مَن رعاها، وَإِنْ لم يكن واحدٌ منهما محمودًا بل مذمومًا، مثل نصارى بني تغلب ونحوهم ممَّن دخل في النصرانية، ولم يقوموا بواجباتها، بل أخذوا منها ما وافق أهواءهم، فكان كفرهم وذمهم أغلظ ممن هو أقل شرًّا منهم، والنار دركات كما أن الجنة درجات...

وأما قول من قال: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله، فهذا المعنى لو دل عليه الكلام، لم يكن في ذلك مدحٌ للرهبانية، فإن من فعل ما لم يأمر الله به بل نهاه عنه مع حسن مقصده، غايته أن يثاب على قصده، لا يثاب على ما نُهِيَ عنه، ولا على ما ليس بواجبٍ ولا مستحبٍّ، فكيف والكلام لا يدلُّ عليه، فَإِنَّ الله قال: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧]، ولم يقل: ما فعلوها إلا

ابتغاء رضوان الله، ولا قال: ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله، ولو كان المراد: ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله، لكان منصوبًا على المفعولية، ولم يتقدم لفظ الفعل ليعمل فيه، ولا نفى الابتداع بل أثبته لهم، وإنما تقدَّم لفظ الكتابة، فعلم أنَّ القول الذي ذكرناه هو الصواب، وأنه استثناءٌ منقطعٌ، فتقديره: وابتدعوا رهبانيةً ما كتبناها عليهم، لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، فإن إرضاء الله واجب مكتوب على الخَلق، وذلك يكون بفعل المأمور، وبتَرْك المحظور، لا بفعل ما لم يأمر بفعله، وبترك ما لم يُنْه عن تركه، والرهبانية فيها فعل ما لم يؤمر به، وترك ما لم يُنْه عنه(١).

ثالثًا: الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]:

وأما قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣- ١١٤]، فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى، بل هي مذكورة بعد قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ

---

(١) (٢/ ١٨٨).

عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠-١١٢].

ثم قال: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ [آل عمران: ١١٣]، ومعلوم أن الصفة المذكورة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [آل عمران: ١١٢] صفة اليهود، وكذلك قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ [آل عمران: ١١٢]، فقوله عقب ذلك: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ [آل عمران: ١١٣] لا بد أن يكون متناولًا.

ثم قد اتفق المسلمون والنصارى على أن اليهود مع كفرهم بالمسيح ومحمد ﷺ ليس فيهم مؤمنٌ، وهذا معلومٌ بالاضطرار من دين محمد ﷺ، والآية إذا تناولت النصارى، كان حكمهم في ذلك حكم اليهود، والله تعالى إنما أثنى على مَنْ آمن من أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقد ذكر أكثر العلماء أنَّ هذه الآية الأخرى في (آل عمران) نزلت في النجاشي ونحوه ممن آمن بالنبي ﷺ، لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبي ﷺ، ولا العمل بشرائع الإسلام؛ لكون أهل بلده نصارى لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام...

وكذلك ذكر طائفة من المفسرين عن جابر بن عبد الله وابن عباس وأنس وقتادة أنهم قالوا: نزلت هذه الآية في النجاشي ملك الحبشة. وقد ذهبت طائفةٌ من العلماء إلى أنها نزلت فيمن كان على دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أن بعث محمد

ﷺ، فآمن به كما نقل ذلك عن عطاءٍ، وذهبت طائفةٌ إلى أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم.

والقول الأول أجود، فإنَّ مَنْ آمن بمُحمَّدٍ ﷺ، وأظهر الإيمان به، وهو من أهل دار الإسلام يعمل ما يعمله المسلمون ظاهرًا وباطنًا، فهذا من المؤمنين، وإنْ كان قبل ذلك مشركًا يعبد الأوثان، فكيف إذا كان كتابيًّا؟ وهذا مثل عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وغيرهما، وهؤلاء لا يقال: إنهم من أهل الكتاب كما لا يقال في المهاجرين والأنصار أنهم من المشركين وعُبَّاد الأوثان، ولا يمكن أحد من المنافقين ولا من غيرهم من أن يصلي على واحدٍ منهم بخلاف مَن هو في الظاهر منهم، وفي الباطن من المؤمنين...

وأما قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤]، فهذه الآية تتناول اليهود أقوى مما تتناول النصارى، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وهذا مدح مطلق لمن تمسَّك بالتوراة، ليس في ذلك مدح لمن كذب المسيح، ولا فيها مدح لمن كذب محمدًا ﷺ.

وهذا الكلام يُفسِّره سياق الكلام، فإنه قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فقد جعلهم نوعين، نوعًا مؤمنين،

ونوعًا فاسقين، وهم أكثرهم.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يتناول من كان منهم مؤمنًا قبل مبعث محمد ﷺ، كما يتناولهم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧] إلى قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقوله عن إبراهيم الخليل: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، ثم لما قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وضرب الذلَّة عليهم أينما ثقفوا، ومباؤهم بغضب الله، وما ذكر معه من قتل الأنبياء بغير حقٍّ، وعصيانهم واعتداؤهم كان اليهود مُتَّصفين به قبل مبعث مُحمَّدٍ ﷺ كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

فتناولت هذه الآية مَن كان من أهل هذه الملل الأربع متمسكًا بها قبل النسخ بغير تبديلٍ، كذلك آية آل عمران لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفًا به أكثرهم قبل محمد ﷺ من الكفر قال: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

وهذا يتناول من كان متصفًا منهم بهذا قبل النسخ، فإنَّهم كانوا على الدين الحقِّ الذي لم يبدل ولم ينسخ، كما قال في الأعراف: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

وقوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٨-١٧٠].

وقد قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، فهذا خبرٌ من الله عمن كان متصفًا بهذا الوصف قبل مبعث مُحمَّدٍ ﷺ، ومَنْ

أدرك من هؤلاء محمدًا ﷺ فآمن به، كان له أجره مرتين[(١)].

رابعًا: احتجاجهم بمدح الصوامع والبيع:

قالوا: ثم وجدناه يعظم إنجيلنا، ويقدم صوامعنا، ويشرف مساجدنا، ويشهد بأن اسم الله يذكر فيها كثيرًا، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

والجواب: أن فيها ذكر الصوامع والبيع، وأما قوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]، فإنما ذكره عقب ذكره المساجد، والمساجد للمسلمين، وليس المراد بها كنائس النصارى، فإنها هي البيع، ثم قوله تعالى: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]، إما أن يكون مختصًّا بالمساجد، فلا يكون في ذلك إخبار بأن اسم الله يذكر كثيرًا في البيع والصوامع، وإما أن يكون ذكر اسم الله في الجميع، فلا ريب أن الصوامع والبيع قبل أن يبعث الله محمدًا ﷺ كان فيها من يتبع دين المسيح الذي لم يبدل، ويذكر فيها اسم الله كثيرًا.

وقد قيل: إنَّها بعد النسخ والتبديل يذكر فيها اسم الله كثيرًا، وإنَّ الله يحب أن يذكر اسمه. قال الضحاك: إن الله يحب أن يذكر اسمه وإن كان يشرك به، يعني أن المشرك به خيرٌ من المعطل الجاحد الذي لا يذكر اسم الله بحالٍ، وأهل الكتاب خير من المشركين، وقد ذكرنا أنه لما اقتتل فارس والروم، وانتصرت الفرس، ساء ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، وكرهوا انتصار الفرس على

(١) (٢/ ٢٠١).

النصارى؛ لأنَّ النصارى أقرب إلى دين الله من المجوس، والرُّسل بعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وتقديم خير الخيرين على أدناهما حسَب الإمكان، ودفع شر الشرَّين بخيرهما، فهدم صوامع النصارى وبيعهم فساد إذا هدمها المجوس والمشركون، وأما إذا هدمها المسلمون، وجعلوا أماكنها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا، فهذا خيرٌ وصلاحٌ...

وأما التقديم في اللفظ(١)، فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى الأعلى؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٦]... ونظائره متعددة، وكذلك في قوله تعالى: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

فَبيَّن سبحانه أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعضٍ لهدمت مواضع العبادات، وهدمها فساد إذا هدمها من لا يبدلها بخيرٍ منها، وأدناها هي الصوامع، فإن الصومعة تكون لواحدٍ أو لطائفةٍ قليلةٍ، فبدأ بأدنى المعابد، وختم بأشرفها وهي المساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيرًا(٢)...

---

(١) هذا رد على قوله: «ويقدم صوامعنا»، قصد به المعترض أن الآية قدمت ذكر الصوامع على البيَعِ والمساجد، وهو ما يدل على شرفها.

(٢) وقد يقال: إنه قدَّمها لتقدمها في الوجود على المساجد، فإن جعل الصوامع أدنى من البِيَعِ محل نظر، ويتوقف على مقدماتٍ يتعذَّر إثباتها، بخلاف تقدُّمهما في الوجود على المساجد، =

فقد تبيَّن أنه ليس لهم حجة في شيءٍ مما جاء به محمد ﷺ، بل ما جاء به حُجَّة عليهم من وجوهٍ متعددةٍ(١) (٢).

خامسًا: احتجاجهم بمدح الحواريين:

ثم قالوا عن القرآن أنه يشهد لهم أنهم أنصار الله، حيث يقول: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

فيقال: هذا حق، والحواريون مؤمنون مسلمون، وهم أنصار الله، لكن ليس في هذا أنهم رسل الله، ولا في هذا أن كل ما أنتم عليه من الدين مأخوذٌ عنهم، ولا في هذا أن الواحد من الحواريين معصوم من الغلط، بل أمر الله المؤمنين من أمة مُحمَّدٍ ﷺ أن يكونوا أنصار الله، كما طلب المسيح ذلك بقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى

=

فهو مسلمٌ ومعلومٌ.

وقد ذكر القولين الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٣٠) قال: السؤال السادس: لِمَ قدم الصوامع والبِيَع في الذِّكر على المساجد؟ الجواب: لأنها أقدم في الوجود. وقيل: أخَّرها في الذِّكر كما في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، ولأنَّ أول الفكر آخر العمل، فلمَّا كان رسول الله ﷺ خير الرسل، وأمته خير الأمم، لا جرم كانوا آخرهم، ولذلك قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**نحن الآخرون السَّابقون**».

(١) (٢/ ٢١٤).

(٢) قال زكريا الأنصاري في «فتح الرحمن» (٣٨٤): فإن قلت: أي منة على المؤمنين في حفظ «الصوامع»، و«البيع»، و«الصلوات»، أي: الكنائس عن الهدم حتى امتنَّ عليهم بذلك؟!

قلت: المنة عليهم فيها أن الصوامع والبِيَع في حرسهم وحفظهم؛ لأنَّ أهلهما محترمون، أو المراد: لهدمت صوامع وبِيَع في زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكنائس في زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومساجد في زمن النَّبيِّ ﷺ، فالامتنان على أهل الأديان الثلاثة لا على المؤمنين خاصةً.اهـ.

ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

وقد وصف الله المؤمنين أصحاب النبي ﷺ من أهل المدينة النَّبويَّة بأنهم أنصار الله بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، والمهاجرون أفضل من الأنصار، وهم أيضًا من أنصار الله؛ نصروه كما نصره الأنصار، لكن لما كان لهم اسم يخصهم وهو المهاجرون، وهو أفضل الاسمين، خص الأنصار بهذا الاسم، والمهاجرون والأنصار أفضل ممَّن آمن بموسى، ومَن آمن بعيسى عند المسلمين، ومع هذا فليس فيهم عندهم نبيٌّ، ولا رسولٌ لله، ولكن فيهم رسل رسول الله ﷺ تسليمًا[1].

سادسًا: احتجاجهم بتعظيم القرآن للإنجيل:

قالوا: وأما تعظيمه لإنجيلنا وكتبنا التي بأيدينا، فيقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال في سورة آل عمران: ﴿الٓمٓ ① ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ② نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١ - ٤]... وقال في سورة المائدة: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ㊻ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦، ٤٧]...

وقال أيضًا: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

---

(١) (٢/٢٦٦).

فثبت بهذا ما معنا، ونفي عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التُّهم والتبديل والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

والجواب -بعد أن تعرف أنَّ لفظ الآية الأولى من سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]- أن يقال: أمَّا تصديق خاتم الرسل محمد رسول الله ﷺ لما أنزل الله قبله من الكتب، ولمَن جاء قبله من الأنبياء، فهذا معلومٌ بالاضطرار من دينه، متواترًا تواترًا ظاهرًا كتواتر إرساله إلى الخَلق كلهم، وهذا من أصول الإيمان، قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦- ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٤-٨٥]...

وتصديقه للتوراة والإنجيل مذكورٌ في مواضع من القرآن، وقد قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

فَبيَّن أنه أنزل هذا القرآن مهيمنًا على ما بين يديه من الكتب، والمهيمن الشاهد المؤتمن الحاكم يشهد بما فيها من الحق، وينفي ما حرف فيها، ويحكم بإقرار ما أقرَّه الله من أحكامها، وينسخ ما نسخه الله منها، وهو مؤتمنٌ في ذلك عليها، وأخبر أنه أحسن الحديث، وأحسن القصص، وهذا يتضمَّن أنه كل مَنْ كان متمسكًا بالتوراة قبل النسخ من غير تبديل شيءٍ من أحكامها، فإنه من أهل الإيمان والهدى.

وكذلك من كان متمسكًا بالإنجيل من غير تبديل شيءٍ من أحكامه قبل النسخ، فهو من أهل الإيمان والهدى، وليس في ذلك مدحٌ لمن تمسَّك بشرعٍ مبدلٍ فضلًا عمن تمسك بشرعٍ منسوخٍ، ولم يؤمن بما أرسل الله إليه من الرسل، وما أنزل إليه من الكتب، بل قد بين كفر اليهود والنصارى بتبديل الكتاب الأول، وبترك الإيمان بمُحمَّدٍ ﷺ في غير موضعٍ(١).

سابعًا: احتجاجهم بالأمر بالتحاكم إلى الإنجيل:

وأما قوله في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦- ٤٧]، فهذا ثناءٌ منه على المسيح والإنجيل، وأمرٌ للنصارى بالحكم بما أنزل فيه، كما أثنى على موسى والتوراة بأعظم مما عظم به المسيح والإنجيل... قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن

---

(١) (٢/٢٦٨).

جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢].

ثم قال: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٣-٤٥].

فهذا ثناؤه على التوراة، وإخباره أنَّ فيها حكم الله، وأنه أنزل التوراة، وفيها: ﴿هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال عقب ذكرها: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]...

وإذا كان ما ذكره من مدح موسى والتوراة لم يوجب ذلك مدح اليهود الذين كذبوا المسيح ومحمدًا ﷺ، وليس فيه ثناءٌ على دين اليهود المبدل المنسوخ باتفاق المسلمين والنصارى، فكذلك أيضًا ما ذكره من مدح المسيح والإنجيل ليس فيه مدح النصارى الذين كذبوا محمدًا، وبدلوا أحكام التوراة والإنجيل، واتبعوا المبدل المنسوخ.

وقد ذكر طائفةٌ من العلماء أن قوله تعالى في الإنجيل: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ

﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧] هو خطاب لمن كان على دين المسيح قبل النسخ والتبديل لا الموجودين بعد مبعث محمدٍ ﷺ، وهذا القول يناسب مناسبةً ظاهرةً لقراءة مَن قرأ: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ﴾ بكسر اللام كقراءة حمزة، فإن هذه لام (كي)، فإنه تعالى قال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦، ٤٧]، فإذا قرئ: ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ كان المعنى: وآتيناه الإنجيل لكذا وكذا، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، وهذا يوجب الحكم بما أنزل الله في الإنجيل الحقِّ لا يدلُّ على أن الإنجيل الموجود في زمن الرسول ﷺ هو ذلك الإنجيل.

وأما قراءة الجمهور: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ﴾ [المائدة: ٤٧]، فهو أمرٌ بذلك، فمن العلماء مَن قال: هو أمرٌ لمن كان الإنجيل الحق موجودًا عندهم أن يحكموا بما أنزل الله فيه، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ أمرٌ لهم قبل مبعث محمدٍ ﷺ.

وقال آخرون: لا حاجة إلى هذا التكلُّف، فإن القول في الإنجيل كالقول في التوراة، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ

ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة: ٤١-٤٦]، فهذا قد صرح بأنَّ أولئك الذين تحاكموا إلى النَّبيِّ ﷺ من اليهود عندهم التوراة فيها حكم الله، ثم تولَّوا عن حكم الله.

وقال بعد ذلك: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ [المائدة: ٤٧]، وهذه لام الأمر، وهو أمرٌ من الله أنزله على لسان مُحمَّدٍ، وأمر من مات قبل هذا الخطاب ممتنع، وإنما يكون الأمرُ أمرًا لمن آمن به من بعد خطاب الله لعباده بالأمر، فعلم أنه أمرٌ لمن كان موجودًا حينئذ أن يحكموا بما أنزل الله في

الإنجيل، والله أنزل في الإنجيل الأمر باتباع محمد ﷺ، كما أمر به في التوراة، فليحكموا بما أنزل الله في الإنجيل مما لم ينسخه محمد ﷺ.

كما أمر أهل التوراة أن يحكموا بما أنزله مما لم ينسخه المسيح، وما نسخه فقد أُمِرُوا فيها باتباع المسيح، وقد أمروا في الإنجيل باتباع مُحمَّدٍ ﷺ، فمن حكم من أهل الكتاب بعد مبعث محمدٍ ﷺ بما أنزل الله في التوراة والإنجيل، لم يحكم بما يخالف حكم محمدٍ ﷺ؛ إذ كانوا مأمورين في التوراة والإنجيل باتباع محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧](١)(٢).

---

(١) (٢/ ٢٨٥).

(٢) وقد يرد هنا إشكالٌ على قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، أورده القرطبي والخزرجي. قال الخزرجي في مقامع هامات الصلبان (٢٣٩): فإن قلتم: كان النبيون -صلوات الله عليهم- يحكمون بها إلى زمن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، والأنبياء معصومون عن الباطل، وهذا يبطل جميع ما يذكره المسلمون من دعوى التَّحريف، ويحتم عليهم أن يوافقونا على حكم النَّبيِّين بها؛ لقول القرآن: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾، ثم أجاب الخزرجي: قلت: الجواب من وجهين؛ أحدهما: لعلَّ النبيين كان يُوحَى إليهم بالصحيح منها. وثانيها: أن كل شيءٍ حكموا به فهو صحيح، ولكن لم قلتم: أنهم حكموا بجملتها مع أنَّ الذي حكموا به غير مُعيَّنٍ، فسقط الاستدلال بالجميع، ولا يفيدكم حكمهم شيئًا، ومع ذلك فالتغيير لم يتعيَّن له زمنٌ، فلعله كله قد وقع بعد النبيين بعد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.اهـ.

وقد وافق القرطبي في الإعلام (١٩٢) في بعض جوابه جواب الخزرجي، فقال: كل شيء حكم به الأنبياء من التوراة، فليس بمحرفٍ، وأما ما لم يحكموا به منها، فلعله الذي حرف مثل الأخبار الَّتي حكيناها ونحكيها إن شاء الله تعالى.اهـ.

قلت: أحد الاحتمالات والأجوبة التي ذكرها الإمامان من أن الأنبياء كان يوحى إليهم

ثامنًا: احتجاجهم بالأمر بسؤال أهل الكتاب:

قالوا: وقال أيضًا: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

فيقال لهم: من المعلوم بالاضطرار أنه ليس المراد بهذا النصارى فقط كما تقدم، بل اليهود يقرءون الكتاب من قبلنا، والنصارى يقرءون الكتاب من قبلنا، والكتاب اسم جنسٍ كما تقدم نظائره في قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦]، وقوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥]، وقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٦٤] في غير موضعٍ...

=

بالصحيح منها، قد ورد في كتب العهد القديم ما يقويه، ففي أرميا (٨/ ٨): «٨ كيف تقولون: نحن حكماء، وشريعة الرب معنا؟ حقًّا إنه إلى الكذب حولها قلم الكَتَبة الكاذب».

وفي حزقيال (١٨): (١ وكان إلي كلام الرب قائلًا: (٢) «ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل، قائلين: الآباء أكلوا الحصرم، وأسنان الأبناء ضرست... وأنتم تقولون: لماذا لا يحمل الابن من إثم الأب؟ أما الابن فقد فعل حقًّا وعدلًا، حفظ جميع فرائضي، وعمل بها، فحياة يحيا.(٢٠) النفس التي تخطئ هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون».

وهذا نص صريح بأن النبي حزقيال أوحي إليه بتكذيب بعض ما افتراه الكَتَبة من أن الابن يحمل إثم الأب، وذكر في سفر الخروج (٣٤/ ٧): «مفتقد إثم الآباء في الأبناء، وفي أبناء الأبناء، في الجيل الثالث والرابع»، فأوحى الله تعالى -على تقدير صحة النص- إلى النبي حزقيال لانتقاد هذا النص وتصحيحه.

وفي أرميا (٢٩/ ١٠): «لأنه هكذا قال الرب: إني عند تمام سبعين سنة لبابل، أتعهدكم وأقيم لكم كلامي الصالح، برَدِّكم إلى هذا الموضع»، وهذه نبوءة بتصحيح الكتاب، وتمييز الدخيل فيه، وعلى هذا يزول الإشكال الوارد.

وأمره تعالى بسؤال الذين يقرءون الكتاب من قبله على تقدير الشك لا يقتضي أن يكون الرسول شكَّ ولا سأل إن قيل: الخطاب له. وإن قيل: لغيره، فهو أَوْلى وأحرى؛ فإن تعليق الحكم بالشرط لا يدلُّ على تحقيق الشرط، بل قد يعلق بشرطٍ ممتنعٍ لبيان حكمه، قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٨٦].

فأخبر أنَّهم لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون مع انتفاءالشرك عنهم، بل مع امتناعه لأنهم قد ماتوا؛ لأنَّ الأنبياء معصومون من الشرك به، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٦]...

وكذلك قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ﴾ [يونس: ٩٤]، لا يدلُّ على وقوع الشك، ولا السؤال، بل النبي ﷺ لم يكن شاكًّا، ولا سأل أحدًا منهم، بل روي عنه أنه قال: «والله، لا أشك، ولا أسأل»(١)، ولكن المقصود بيان أنَّ أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٠٢١١)، والطبري في تفسيره (١٥/ ٢٠٢).

إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧]... وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فالمقصود: بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون، وذلك من وجوهٍ:

أحدها: أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة الله وحده، ونُهُوا عن الشرك، فكان في هذا حجة على مَن ظن أن الشرك دين، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]...

الوجه الثاني: أن أهل الكتاب يعلمون أن الله إنما أرسل إلى الناس بشرًا مثلهم، لم يرسل إليهم مَلَكًا، فإن من الكفار من كان يزعم أن الله لا يرسل إلا ملكًا أو بشرًا معه مَلَك، ويتعجبون من إرسال بشر ليس معه مَلَك ظاهر؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤- ٩٥]... وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٨-٩].

فبيَّن سبحانه أنكم لا تطيقون التلقِّي عن المَلَك، فلو أنزلناه ملكًا، لجعلناه في صورة بشرٍ، وحينئذٍ كنتم تظنونه بشرًا، فيحصل اللبس عليكم، فأمر الله تعالى

بسؤال أهل الكتاب عمن أرسل إليهم أكان بشرًا أم كان ملكًا؛ ليقيم الحجة بذلك على من أنكر إرسال بشرٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٧ - ٩]، وأهل الذكر هم أهل الذكر الذي أنزله الله تعالى.

الوجه الثالث: أنهم يسألون أهل الكتاب عما جرى للرسل مع أممهم، وكيف كان عاقبة المؤمنين بهم، وعاقبة المكذبين لهم.

الوجه الرابع: يسألون أهل الكتاب عن الدين الذي بعث الله به رسله، وهو دين الإسلام الذي اتَّفقت عليه الرسل؛ كالأمر بالتوحيد والصدق والعدل وبر الوالدين وصلة الأرحام والنهي عن الشرك والظلم والفواحش.

الوجه الخامس: يسألونهم عما وصفت به الرسل ربهم، هل هو موافق لما وصفه به محمد أم لا؟

وهذه الأمورُ المسؤول عنها متواترةٌ عند أهل الكتاب، معلومةٌ لهم، ليست مما يشكون فيه، وليس إذا كان مثل هذا معلومًا لهم بالتواتر فيسألون عنه، يجب أن يكون كل ما يقولونه معلومًا لهم بالتواتر.

وأيضًا، فإنهم يسألون أيضًا عما عندهم من الشهادات والبشارات بنبوة مُحمَّدٍ ﷺ، وقد أخبر الله بذلك في القرآن، فقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ

وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]... قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤] إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٧]...

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

والأخبارُ بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة- متواترةٌ عنهم، وكان قبل أن يُبعث النبي ﷺ تجري حروب وقتال بين العرب وبين أهل الكتاب، فتقول أهل الكتاب: قد قَرُب مبعث هذا النبي ﷺ الأُمِّي الذي يبعث بدين إبراهيم، فإذا ظهر اتبعناه، وقتلناهم معه شرَّ قتلةٍ، فلما بُعث النبي ﷺ، كان منهم من آمن به، ومنهم من كفر به، فقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾ [البقرة: ٨٩]، أي: يستنصرون بمحمد ﷺ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ولهذا كان النبي ﷺ في خطابه لأهل الكتاب يقول لهم: «**والله الذي لا إله إلا**

هو، **إنكم لتعلمون أنّي رسول الله**»[1]، وكذلك من أسلم منهم؛ كعبد الله بن سلام كان يقول لغيره من أهل الكتاب: والله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله ﷺ، وهذا أمر معروف في الأحاديث الصحاح المخرجة في (الصحيحين)، وغيرهما، فظهر بما ذكرناه تحريف هؤلاء لكلام الله، وأنه لا حجة لهم فيما أُنزل على محمد ﷺ، كما تقدم نظائر ذلك[2].

تاسعًا: احتجاجهم بتصديق المسلمين بالكتب السابقة:

قالوا: فثبت بهذا ما معنا نعم، ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التُّهم والتبديل لها، والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

فيقال: كلامكم الذي تحتجون به في هذا الموضع وغيره إما أن يكون باطلًا محضًا، وإما أن يكون مما لبستم فيه الحق بالباطل، فإنَّ قولكم بتصديقه إياها إن أردتم أنه صدق التوراة والإنجيل والزبور التي أنزلها الله على أنبيائه، فهذا لا ريب فيه، فإن هذا مذكور في القرآن في غير موضعٍ، وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بكل كتابٍ أنزله، وكل نبيٍّ من الأنبياء مع إخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن، وأنزل القرآن مصدقًا لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنًا عليه.

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ [آل عمران: ١ - ٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٩١١).

(٢) (٢/ ٢٦٩).

وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٤٨]...

وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله، وحكم بكفر مَن آمن ببعضٍ، وكفر ببعضٍ، فقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦- ١٣٧]...

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَـٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٠- ١٥٢].

فذم المفرق بينهم بأن يؤمن ببعض دون بعضٍ... وقد اتفق المسلمون على ما هو معلومٌ بالاضطرار من دين الإسلام، وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وبجميع ما أنزله الله من الكتب، فمن كفر بنبيٍّ واحدٍ تُعلم نبوته مثل إبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان ويونس وعيسى، فهو كافر عند جميع المسلمين، حكمه حكم الكفار، وإن كان مرتدًّا استتيب، فإن تاب وإلا قتل، ومن سب نبيًّا واحدًا من الأنبياء قتل أيضًا باتفاق المسلمين، وما علم المسلمون أن نبيًّا من الأنبياء أخبر به، فعليهم التصديق به كما يصدقون بما أخبر به محمد ﷺ...

وإن أرادوا بتصديقه كتبهم أنه صدق ما هم عليه من العقائد والشرائع التي ابتدعوها بغير إذنٍ من الله، وخالفوا بها ما تقدمه من شرائع المسلمين، أو خالفوا بها الشرع الذي بعث به مثل القول بالتثليث والأقانيم والقول بالحلول والاتحاد بين اللاهوت والناسوت.

وقولهم: إن المسيح هو الله، وابن الله، وما هم عليه من إنكار ما يجب الإيمان به من الإيمان بالله واليوم الآخر، ومن تحليل ما حرَّمه الله ورسله كالخنزير وغيره، وبيَّن أنَّهم لا يدينون بدين الحق الذي أنزل به كتابه، وأرسل به رسوله، بل بدينٍ مبتدعٍ ابتدعه لهم أكابرهم، كما قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١]...

فإن أرادوا بتصديقهم في هذه الأمور، أو أن محمدًا ﷺ صدق ما عندهم مما لم يأت به الأنبياء عن الله، فقد كذبوا على محمدٍ ﷺ كذبًا ظاهرًا معلومًا بالاضطرار من دينه، وإنما صدق ما جاءت به الأنبياء قبله، وأما ما أحدثوه وابتدعوه فلم يصدقوه، كما أنه لم يشرع لهم أن يستمروا على ما هم عليه من الشرع الأول، ولو لم يكن مبدلًا، بل دعاهم وجميع الإنس والجن إلى الإيمان به، وبما جاء به، واتباع ما بعث به من الكتاب والحكمة، وحكم بكفر كل مَن لم يتبع كتابه المنزل عليه، وأوجب مع خلودهم في عذاب الآخرة جهادهم في الدنيا حتى يكون الدين كله لله، وحتى تكون كلمة الله هي العليا.

وقد دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى عمومًا، ثم كلًّا من الطائفتين خصوصًا في غير موضع مع دعائه الناس كلهم؛ أهل الكتاب وغيرهم كقوله تعالى:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٨].

وقال تعالى يخاطب النصارى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ

فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ١٤].

أخبر سبحانه أن النصارى تركوا حظًّا مما ذكرهم به، وبسبب ذلك أغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، فعلم أنه سبحانه بين أنهم تركوا بعض ما جاء به المسيح ومن قبله من الأنبياء، واستحقوا لذلك أن يغري بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة...

وقال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقد خرج النبي ﷺ لقتالهم بنفسه عام تبوك، واستنفر لقتالهم جميع المؤمنين، ولم يأذن لأحدٍ من القادرين على الغزو في التخلف، ومن تخلف لأنه لم ير قتالهم واجبًا كان كافرًا، وإن أظهر الإسلام كان منافقًا ملعونًا بين الله أنه لا يغفر لهم، ونهى نبيَّه عن الصلاة عليهم، وأنزل في ذلك جمهور سورة (براءة) بالنقل المتواتر حتى بين كفر الذين استأذنوه في ترك الخروج معه لقتال النصارى...

فتبيَّن أن قولهم: «فثبت بهذا ما معنا نعم، ونفي عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التُّهم والتبديل لها والتغيير لما فيها بتصديقه إياها»، إنْ أرادوا به أنه ثبت ما جاءت الأنبياء قبله عن الله، فهذا حقٌّ، وإن أرادوا به أنه ثبت ما هُمْ عليه بعد مبعثه من الشرع الذي خالف شرعه، أو ما ابتدعوه مما لم يأت به الأنبياء عليهم السلام قبله، فهذا باطل.

وإن أرادوا بذلك أنه صدق ألفاظ الكتب التي بأيدينا -أي: التوراة والإنجيل- فهذا مما يسلمه لهم بعض المسلمين، وينازعهم فيه أكثر المسلمين وإن كان أكثر ذلك ممَّا يسلمه أكثر المسلمين، فأما تحريف معاني الكتب بالتفسير والتأويل، وتبديل أحكامها، فجميع المسلمين واليهود والنصارى يشهدون عليهم بتحريفها وتبديلها، كما يشهدون هم والمسلمون على اليهود بتحريف كثيرٍ من معاني التوراة وتبديل أحكامها.

وَإِنْ كانوا هم واليهود يقولون: إن التوراة لم تحرف ألفاظها، وحينئذٍ فلا ينفعهم بقاء حروف الكتب عندهم مع تحريف معانيها إلا كما ينفع اليهود بقاء حروف التوراة والنبوات عندهم مع تحريف معانيها، بل جميع النُّبوات التي يقرُّون بها هي عند اليهود، وهم مع اليهود ينفون عنها التُّهم والتبديل لألفاظها مع أن اليهود عندهم من أعظم الخلق كفرًا واستحقاقًا لعذاب الله في الدنيا والآخرة، وهم عند النصارى الذين يكفرون المسلمين أكثر من هؤلاء، وشر منهم، فإنَّ النصارى متفقون على أن المسلمين خير من اليهود، وكذلك اليهود متفقون على أن المسلمين خيرٌ من النصارى، بل جميع الأمم المخالفين للمسلمين يشهدون أن المسلمين خيرٌ من سائر الأمم والطوائف إلا أنفسهم، وشهادتهم لأنفسهم لا تُقْبل، فصار هذا اتفاق أهل الأرض على تفضيل دين الإسلام.

فعلم أن بقاء حروف الكتاب مع الإعراض عن اتباع معانيها، وتحريفها، لا يوجب إيمان أصحابها، ولا يمنع كفرهم، وحينئذ فليس شهادة محمد ﷺ وأمته للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولما أنزل عليه من الإنجيل في تثبيت ما عند النصارى بأعظم من شهادة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ والحواريين، وسائر مَن اتبعه لموسى، ولما أنزل عليه من

التوراة في تثبيت ما عند اليهود، فإن المسيح أمَر أتباعه باتباع التوراة إلا القدر اليسير الذي نسخه منها، وأما محمد ﷺ، فبعث بكتابٍ مستقلٍّ، وشرعٍ مستقلٍّ كاملٍ تامٍّ لم يحتج معه إلى شرع سابق تتعلمه أمته من غيره، ولا إلى شرع لاحق يكمل شرعه[(١)].

عاشرًا: احتجاجهم بتصديق المسلمين بالرسل السابقين:

وإن قال الكتابي للمسلم: أنت توافقني على نبوة هؤلاء المتقدمين، إجابة المسلم بوجوهٍ:

منها: أن يقول: إنِّي لم أوافقك على نبوة واحد منهم مع التكذيب بمحمد ﷺ، بل دين المسلمين كلهم أنه من آمن ببعض الأنبياء، وكفر ببعضٍ، فهو كافر، فكيف بمَن كفر بمن هو عند المسلمين أفضل الأنبياء وخاتمهم، بل قد يقول له أكثر المسلمين: نحن لم نعلم نبوة أولئك إلا بإخبار مُحمَّدٍ أنهم أنبياء، فلو قدحنا في الأصل الذي قد علمنا به نبوتهم، لزم القدح في نبوتهم، والفرع إذا قدح في أصله، دل على فساده في نفسه؛ سواء قدر أصله صحيحًا أو فاسدًا، فإنه إن كان أصله فاسدًا فسد هو، وإن كان أصله صحيحًا وهو يناقضه بطل هو، فهو إذا ناقض أصله باطل على كل تقديرٍ.

وكذلك إذا قال له الكتابي: قد اتفقنا على تصديق موسى والتوراة والمسيح والإنجيل. قال له المسلم: إنما وافقتك على تصديق موسى وعيسى اللَّذين بشَّرا بمحمد ﷺ كما أخبرنا به محمد عن الله، حيث قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا

---

(١) (٢/ ٣٦٨).

يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] إلى أمثال ذلك.

فأما الإيمان بموسى الذي ذكر أن شريعته مؤيدة[(١)] لا ينسخ منها شيء، أو بمسيح ادعى أنه الله، أو أن الله اتحد به، أو حلَّ فيه، ونحو ذلك مما يدعيه أهل الكتاب في الرسولين والكتابين، ويخالفهم فيه المسلمون، فهذا من موارد النزاع لا من مواقع الإجماع، فليس لأحدٍ من أهل الكتاب أن يحتج على أحدٍ من المسلمين بموافقته له على ذلك[(٢)].

حادي عشر: الاحتجاج بمساواة القرآن بين الملل:

قالوا: وقال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، فساوى بهذا القول بين سائر الناس: اليهود والمسلمين وغيرهم.

والجواب أن يقال:

أولًا: لا حجة لكم في هذه الآية على مطلوبكم، فإنه يسوي بينكم وبين اليهود والصابئين، وأنتم مع المسلمين متفقون على أن اليهود كفار من حين

---

(١) كذا في المطبوع، ولعل الصواب: مؤبدة، بالموحدة.
(٢) (٢/ ٣٩٠).

بعث المسيح إليهم فكذبوه، وكذلك الصابئون من حين بعث إليهم رسولٌ فكذبوه، فهم كفارٌ؛ فإن كان في الآية مدح لدينكم الذي أنتم عليه بعد مبعث محمد، ففيها مدح دين اليهود أيضًا، وهذا باطل عندكم وعند المسلمين، وإن لم يكن فيها مدح اليهود بعد النسخ والتبديل، فليس فيها مدح لدين النصارى بعد النسخ والتبديل...

وإنما معنى الآية أن المؤمنين بمُحمَّدٍ ﷺ والذين هادوا الذين اتبعوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم الذين كانوا على شرعه قبل النسخ والتبديل، والنصارى الذين اتبعوا المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم الذين كانوا على شريعته قبل النسخ والتبديل، والصابئين وهم الصابئون الحنفاء، كالذين كانوا من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق قبل التبديل والنسخ، فإن العرب من ولد إسماعيل، وغيره الذين كانوا جيران البيت العتيق الذي بناه إبراهيم وإسماعيل كانوا حنفاء على ملة إبراهيم إلى أن غير دينه بعض ولاة خزاعة، وهو عمرو بن لُحي، وهو أول من غير دين إبراهيم بالشرك، وتحريم ما لم يحرمه الله، ولهذا قال النبي ﷺ: «**رأيت عمرو بن لُحي يجر قصبه -أي: أمعاءه- في النار، وهو أول من بحر البحيرة، وسيَّب السوائب، وغيَّر دين إبراهيم**»(١).

وكذلك بنو إسحاق الذين كانوا قبل مبعث موسى متمسكين بدين إبراهيم كانوا من السعداء المحمودين، فهؤلاء الذين كانوا على دين موسى والمسيح وإبراهيم ونحوهم هم الذين مدحهم الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري في صحيحه (٣٥٢١)، ومسلم في صحيحه (٢٨٥٦) من حديث أبي هريرة.

وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

فأهل الكتاب بعد النسخ والتبديل ليسوا ممَّن آمن بالله، ولا باليوم الآخر، وعمل صالحًا، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقد تقدم أنه كفر أهل الكتاب الذين بدَّلوا دين موسى والمسيح، وكذَّبوا بالمسيح أو بمُحمَّدٍ ﷺ في غير موضعٍ، وتلك آيات صريحة، ونصوص كثيرة، وهذا متواتر معلوم بالاضطرار من دين محمد ﷺ، ولكن هؤلاء النصارى سلكوا في القرآن ما سلكوه في التوراة والإنجيل، يدعون النصوص المحكمة الصريحة البينة الواضحة التي لا تحتمل إلا معنًى واحدًا، ويتمسَّكون بالمتشابه المحتمل، وإن كان فيه ما يدل على خلاف مرادهم، كما قال تعالى فيهم وفي أمثالهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧][(١)].

ثاني عشر: احتجاجهم بمدح النصارى والقسيسين والرهبان:

ثم قالوا: وكذلك جاء في هذا الكتاب، يقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ

(١) (٣/ ١٢١).

قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]، فذكر القسيسين والرهبان؛ لئلا يقال: إن هذا قيل عن غيرنا، ودلَّ بهذا على أفعالنا وحسن نياتنا، ونفى عنا اسم الشرك بقوله: اليهود والذين أشركوا أشد الناس عداوةً للذين آمنوا، والذين قالوا إنا نصارى أقربهم مودةً.

والجواب: أن يقال تمام الكلام: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٣-٨٥]، فهو سبحانه لم يعد بالثواب في الآخرة إلا لهؤلاء الذين آمنوا بمُحمَّدٍ ﷺ الذين قال فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، والشاهدون هم الذين شهدوا له بالرسالة، فشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وهم الشهداء الذين قال فيهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]، قال: مع محمدٍ ﷺ وأمته، وكل مَنْ شهد للرسل بالتصديق، فهو من الشاهدين...

وأما قوله في أول الآية: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا

نَصَـٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢]، فهو كما أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن عداوة المشركين واليهود للمؤمنين أشد من عداوة النصارى، والنصارى أقرب مودةً لهم.

وهذا معروف من أخلاق اليهود، فإن اليهود فيهم من البغض والحسد والعداوة ما ليس في النصارى، وفي النصارى من الرحمة والمودة ما ليس في اليهود، والعداوة أصلها البغض، فاليهود كانوا يبغضون أنبياءهم، فكيف ببغضهم للمؤمنين، وأما النصارى فليس في الدين الذي يدينون به عداوة، ولا بغض لأعداء الله الذين حاربوا الله ورسوله، وسَعَوْا في الأرض فسادًا، فكيف بعداوتهم وبغضهم للمؤمنين المعتدلين أهل ملة إبراهيم، المؤمنين بجميع الكتب والرسل؟

وليس في هذا مدحٌ للنصارى بالإيمان بالله، ولا وعدٌ لهم بالنجاة من العذاب، واستحقاق الثواب، وإنما فيه أنَّهم أقرب مودةً. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]، أي: بسبب هؤلاء، وسبب ترك الاستكبار يصير فيهم من المودة ما يصيرهم بذلك خيرًا من المشركين، وأقرب مودةً من اليهود والمشركين، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

فهؤلاء الذين مدحهم بالإيمان، ووعدهم بثواب الآخرة، والضمير وإن عاد إلى المتقدمين، فالمراد جنس المتقدمين، لا كل واحدٍ منهم؛ كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وكأنَّ جنس الناس قالوا لهم: إن

جنس الناس قد جمعوا، ويمتنع العموم، فإن القائل من الناس، والمقول له من الناس، والمقول عنه من الناس، ويمتنع أن يكون جميع الناس قال لجميع الناس: إنه قد جمع لكم جميع الناس.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]، أي: جنس اليهود قال هذا، لم يقل هذا كل يهودي، ومن هذا أن في النصارى من رقَّة القلوب التي توجب لهم الإيمان ما ليس في اليهود، وهذا حقٌّ، وأما قولهم: ونفى عنا اسم الشرك، فلا ريب أنَّ الله فرَّق بين المشركين وأهل الكتاب في عدة مواضع، ووصف مَنْ أشرك منهم في بعض المواضع، بل قد ميَّز بين الصابئين والمجوس وبين المشركين في بعض المواضع، وكلا الأمرين حقٌّ، فالأول كقوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البينة: ١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ ﴾ [الحج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [المائدة: ٨٢].

وأما وصفهم بالشرك ففي قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، فنزَّه نفسه عن شركهم، وذلك أنَّ أصل دينهم ليس فيه شركٌ، فإن الله إنما بعث رسله بالتوحيد، والنهي عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فالمسيح -صلوات الله عليه وسلامه- ومن قبله من الرسل إنما دُعُوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وفي التوراة من ذلك ما يعظم وَصْفه، لم يأمر أحد الأنبياء بأن يعبد ملك، ولا نبي، ولا كوكب، ولا وثن، ولا أن تسأل، ولا تطلب الشفاعة إلى الله من ميتٍ ولا غائبٍ، لا نبي، ولا ملك، فلم يأمر أحد من الرسل بأن يدعو الملائكة، ويقول: اشفعوا لنا إلى الله، ولا يدعو الأنبياء والصالحين الموتى والغائبين، ويقول: اشفعوا لنا إلى الله، ولا تصور تماثيلهم؛ لا مجسدة ذات ظل، ولا مصورة في الحيطان، ولا بجعل دعاء تماثيلهم وتعظيمها قربةً وطاعةً، سواء قصدوا دعاء أصحاب التماثيل، وتعظيمهم والاستشفاع بهم، وطلبوا منهم أن يسألوا الله تعالى، وجعلوا تلك التماثيل تذكرة بأصحابها، أو قصدوا دعاء التماثيل، ولم يستشعروا أن المقصود دعاء أصحابها، كما فعله جهال المشركين، وإن كان في هذا جميعه إنما يعبدون الشيطان، وإن كانوا لا يقصدون عبادته، فإنه قد يتصور لهم في صورة ما يظنون أنها صورة الذي يعظمونه، ويقول: أنا الخضر، أنا المسيح، أنا جرجس، أنا الشيخ فلان، كما قد وقع هذا لغير واحدٍ من المنتسبين إلى المسلمين والنصارى، وقد يدخل الشيطان في بعض التماثيل، فيخاطبهم، وقد يقضي بعض حاجاتهم.

فبهذا السبب وأمثاله ظهر الشرك قديمًا وحديثًا، وفعل النصارى وأشباههم

ما فعلوه من الشرك، وأما الأنبياء والرسل -صلوات الله عليهم وسلامه- فنهوا عن هذا كله، ولم يشرع أحد منهم شيئًا من ذلك، والنصارى لا يأمرون بتعظيم الأوثان المجسدة، ولكن بتعظيم التماثيل المصورة، فليسوا على التوحيد المحض، وليسوا كالمشركين الذين يعبدون الأوثان، ويكذبون الرسل.

فلهذا، جعلهم الله نوعًا من غير المشركين تارةً، وذمهم على ما أحدثوه من الشرك تارةً، وإذا أطلق لفظ الشرك، فطائفة من المسلمين تدخل فيه جميع الكفار من أهل الكتاب، وغيرهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٢١].

فمن الناس مَن يجعل اللفظ عامًّا لجميع الكفار، ولا سيما النصارى، ثم من هؤلاء مَن ينهى عن نكاح هؤلاء، كما كان عبد الله بن عمر ينهى عن نكاح النصرانية، ويقول: لا أعلم شركًا أعظم من أن تقول: إن عيسى ربها، وهذا قول طائفةٍ من الشيعة وغيرهم، وأما جمهور السلف والخلف، فيجوزون نكاح الكتابيات، ويبيحون ذبائحهم، لكن إذا قالوا: لفظ المشركين عام. قالوا: هذه الآية مخصوصة أو منسوخة بآية المائدة، وهو قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

وطائفة أخرى تجعل لفظ «المشركين» إذا أُطْلق لا يدخل فيه أهل الكتاب، وأما كون النصارى فيهم شرك كما ذكره الله، فهذا متفق عليه بين المسلمين، كما

نطق به القرآن،كما أن المسلمين متفقون على أن قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢] أن النصارى لم يدخلوا في لفظ الذين أشركوا كما لم يدخلوا في لفظ اليهود.

وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]، ونحو ذلك، وهذا لأنَّ اللفظ الواحد تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران، فيدخل فيه مع الإفراد والتجريد ما لا يدخل فيه عند الاقتران بغيره؛ كلفظ المعروف والمنكر في قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فإنه هنا يتناول جميع ما أمر الله به فإنه معروف، وجميع ما نهى عنه فإنه منكر.

وفي قوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، هنا قرن الصدقة بالمعروف والإصلاح بين الناس، وكذلك المنكر في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، قرن الفحشاء بالمنكر.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، قرن الفحشاء بالمنكر والبغي... وكذلك لفظ الفقير والمسكين، إذا أُفْرِد أحدهما، دخل فيه معنى الآخر، وقد يجمع بينهما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، فيكونان هنا صنفين.

وفي تلك المواضع صنف واحد، فكذلك لفظ الشرك في مثل قوله: ﴿إِنَّمَا

ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، يدخل فيه جميع الكفار، أهل الكتاب وغيرهم عند عامة العلماء؛ لأنه أفرده وجرده، وإن كانوا إذا قرن بأهل الكتاب كانا صنفين(١).

ثالث عشر: زعمهم تشككه وعدم علمه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالعاقبة:

قالوا: وأيضًا في قول هذا الإنسان مما أتى في كتابه حيث اتبع القول أنه لم يرسل إلينا مع تشككه فيما أتى به في هذا الكتاب في سورة سبأ حيث يقول: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، وأيضًا في سورة الأحقاف يقول: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩]...

وأمَّا قولهم مع تشككه فيما أتى به، فمن الكذب البيِّن، فإنه تعالى قال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٦].

فإنه لمَّا دعاهم إلى التوحيد، وبيَّن أن ما يدعونه من دون الله لا يملك مثقال ذرةٍ في السماوات، ولا في الأرض، ولا هو شريك، ولا هو ظهير، ولا ينفع شفيع إلا بإذنه، نفى بذلك جميع وجوه الشرك، فإن ما يشرك به إما أن يكون له ملك، أو

---

(١) (٣/ ١٠٧).

شريك في الملك، أو يكون معينًا.

فإذا انتفت الثلاثة، لم يبق إلا الشفاعة التي هي دعاء لك ومسألة، وتلك لا تنفع عنده إلا لمن أذن له، ثم ذكر بعد هذا أنه لا رازق يرزق من السماء والأرض إلا الله، دلَّ بهذا وهذا على التوحيد، كما في قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥٣-٥٥].

فلما ذكر ما دلَّ على وجوب توحيده، وبيان أن أهل التوحيد هم على الهدى، وأن أهل الشرك على الضلال، قال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، يقول: إن أحد الفريقين أهل التوحيد الذين لا يعبدون إلا الله، وأهل الشرك لعلى هدًى، أو في ضلالٍ مبينٍ، وهذا من الإنصاف في الخطاب الذي كل مَن سمعه من وليٍّ وعدوٍّ، قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك، كما يقول العادل الذي ظهر عدله للظالم الذي ظهر ظلمه: الظالم إما أنا، وإما أنت، لا للشك في الأمر الظاهر، ولكن لبيان أن أحدنا ظالم ظاهر الظلم، وهو أنت لا أنا، فإنه إذا قيل: أهل التوحيد الذين يعبدون الله على هدًى، أو في ضلالٍ مبينٍ، وأهل الشرك الذين يعبدون ما لا يضر ولا ينفع على هدى أو في ضلالٍ مبينٍ، تبيَّن أن أهل التوحيد على الهدى، وأهل الشرك على الضلال، وهذا مما يعلمه جميع الملل من المسلمين واليهود والنصارى، يعلمون أنَّ أهل التوحيد على الهدى، وأهل الشرك على الضلال.

وفي القرآن في بيان مثل هذا ما لا يحصى إلا بكلفةٍ، بل قطب القرآن وسائر الكتب ومدارها على عبادة الله وحده، فكيف يقال: إن الرسول كان يشك هل المهتدى هم أهل التوحيد أم أهل الشرك؟ وهل يقول هذا إلا مَن هو في غاية

الجهل والعناد...

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] نفي لعلمه بجميع ما يفعل به وبهم، وهذا لا يعلمه إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذا لا ينفي أن يكون عالمًا بأنه سعيدٌ من أهل الجنة، وإن لم يدرِ تفاصيل ما يجري له في الدنيا من المحن والأعمال، وما يتجدد له من الشرائع، وما يكرم به في الآخرة من أصناف النعيم، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[١]...

ولا من شرط النبي أن يعلم حال المخاطبين: مَن يؤمن به، ومَن يكفر، وتفصيل ما يصيرون إليه، هذا إن قيل: إنه لم يعلم بعد هذه الآية ما نفي فيها، وإن قيل: إنه أعلم بذلك، فمعلوم أن الله لم يعلمه بكل شيءٍ جملةً، بل أعلمه بالأمور شيئًا بعد شيءٍ، وقد قال له بعد ذلك: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨][٢].

رابع عشر: استدلالهم برفع المسيح ونفي قتله وصلبه:

قال[٣] في سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، فأشار بهذا القول إلى اللاهوت الذي هو كلمة الله التي لم يدخل عليها ألمٌ، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٤٤)، ومسلم في صحيحه (٢٨٢٤).

(٢) (٣/ ١٥٤).

(٣) الكلام هنا للنصراني صاحب الرسالة.

عرضٌ، وقال أيضًا: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقال في سورة المائدة عن عيسى أنه قال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، فأعنى بموته عن موت الناسوت الذي أخذ من مريم العذراء.

وقال أيضًا في سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧- ١٥٨]، فأشار بهذا إلى اللاهوت الذي هو كلمة الله الخالقة، وعلى هذا القياس نقول: إن المسيح صلب وتألم بناسوته، ولم يصلب ولا تألم بلاهوته.

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: أن يقال: دعواهم على محمد ﷺ أنه أثبت في المسيح اللاهوت والناسوت، كما يزعمه هؤلاء النصارى فيه هو من الكذب الواضح المعلوم على محمد ﷺ الذي يعلم من دينه بالاضطرار كما يعلم من دينه تصديق المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإثبات رسالته.

فلو ادعى اليهود على محمد ﷺ أنه كان يكذب المسيح ويجحد رسالته، كان كدعوى النصارى عليه أنه كان يقول: إنه رب العالمين، وأن اللاهوت اتَّحد بالناسوت، ومحمد ﷺ قد أخبر فيما بلغه عن الله ﷻ بكفر من قال ذلك، وبما يناقض ذلك في غير موضع؛ كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ

ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة: ١٧]...

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

فأخبر عن المسيح أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به بقوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾، وكان عليهم شهيدًا ما دام فيهم، وبعد وفاته كان الله هو الرقيب عليهم، فإذا كان بعضهم قد غلط في النقل عنه، أو في تفسير كلامه، أو تعمد تغيير دينه، لم يكن على المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من ذلك دركٌ، وإنما هو رسول عليه البلاغ المبين.

الوجه الثاني: أن يقال: إن الله لم يذكر أن المسيح مات ولا قتل، إنما قال: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال المسيح: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ

ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٦١]، فذم الله اليهود بأشياء؛ منها: قولهم على مريم بهتانًا عظيمًا حيث زعموا أنها بغيٌّ، ومنها قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧]، قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾ [النساء: ١٥٧].

وأضاف هذا القول إليهم، وذمَّهم عليه، ولم يذكر النصارى؛ لأن الذين تولوا صلب المصلوب المشبه به هم اليهود، ولم يكن أحد من النصارى شاهدًا هذا معهم، بل كان الحواريون خائفين غائبين، فلم يشهد أحدٌ منهم الصلب، وإنما شهده اليهود، وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح، والذين نقلوا أن المسيح صلب من النصارى وغيرهم، إنما نقلوه عن أولئك اليهود، وهم شرط من أعوان الظلمة، لم يكونوا خلقًا كثيرًا يمتنع تواطؤهم على الكذب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]، ولفظ التوفِّي في لغة العرب معناه: الاستيفاء والقبض، وذلك ثلاثة أنواعٍ:

أحدها: توفِّي النوم. والثاني: توفي الموت. والثالث: توفي الروح والبدن جميعًا، فإنه بذلك خرج عن حال أهل الأرض الذين يحتاجون إلى الأكل

والشرب واللباس والنوم، ويخرج منهم الغائط والبول، والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ توفَّاه الله وهو في السماء الثانية إلى أن ينزل إلى الأرض، ليست حاله كحالة أهل الأرض في الأكل والشرب واللباس والنوم، والغائط والبول، ونحو ذلك.

الوجه الثالث: قولهم: إنه عني بموته عن موت الناسوت، كان ينبغي لهم أن يقولوا على أصلهم: عني بتوفيته عن توفي الناسوت، وسواء قيل: موته أو توفيته، فليس هو شيئًا غير الناسوت، فليس هناك شيء غيره لم يتوف، والله تعالى قال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، فالمتوفَّى هو المرفوع إلى الله.

وقولهم: إنَّ المرفوع هو اللاهوت، مخالفٌ لنص القرآن، لو كان هناك موت فكيف إذا لم يكن، فإنهم جعلوا المرفوع غير المتوفَّى، والقرآن أخبر أن المرفوع هو المتوفَّى، وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧- ١٥٨]، هو تكذيب لليهود في قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧]، واليهود لم يدعوا قتل لاهوت، ولا أثبتوا لله لاهوتًا في المسيح، والله تعالى لم يذكر دعوى قتله عن النصارى حتى يقال: إن مقصودهم قتل الناسوت دون اللاهوت، بل عن اليهود الذين لا يثبتون إلا الناسوت، وقد زعموا أنهم قتلوه، فقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨]، فأثبت رفع الذي قالوا: إنهم قتلوه، وإنما هو الناسوت، فعلم أنه هو الذي نُفِيَ عنه القتل، وهو الذي رفع.

والنصارى معترفون برفع الناسوت، لكن يزعمون أنه صلب، وأقام في القبر؛ إما يومًا، وإما ثلاثة أيامٍ، ثم صعد إلى السماء، وقعد عن يمين الرب

الناسوت مع اللاهوت. وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]، معناه: أن نَفْي قتله هو يقينٌ لا ريب فيه، بخلاف الذين اختلفوا، فإنهم في شكٍّ منه من قتله وغير قتله، فليسوا مستيقنين أنه قتل؛ إذ لا حجة معهم بذلك...

الوجه الخامس: قوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، دليل على أنه بعد توفيته لم يكن الرقيب عليهم إلا الله دون المسيح، فإن قوله: ﴿كُنتَ أَنتَ﴾ يدلُّ على الحصر، كقوله: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ونحو ذلك.

فعلم أن المسيح بعد توفيته ليس رقيبًا على أتباعه، بل الله هو الرقيب المطلع عليهم، المحصي أعمالهم، المجازي عليها، والمسيح ليس برقيبٍ، فلا يطلع على أعمالهم، ولا يحصيها، ولا يجازيهم بها[(١)].

خامس عشر: استدلالهم بوصف المسيح بالخلق:

قالوا: وقد سمَّاه الله أيضًا في هذا الكتاب خالقًا، حيث قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة بالناسوت، المأخوذ من مريم، فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة بالناسوت المأخوذ من مريم؛ لأنه كذا قال على لسان داود النبي: «بكلمة الله خلقت السماوات والأرض»[(٢)]، ليس خالق إلا الله، وكلمته وروحه.

---

(١) (٤/ ٢٧).

(٢) في مزامير (٣٣/ ٦): «بكلمة الرب صنعت السماوات، وبنسمة فيه كل جنودها».

وهذا مما يوافق رأينا واعتقادنا في السيد المسيح لذكره؛ لأنه حيث قال: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، أي: بإذن لاهوت الكلمة المتحدة في الناسوت...

الجواب عمَّا ذكروه هنا من وجوهٍ:

أحدها: أن الله لم يذكر عن المسيح خلقًا مطلقًا، ولا خلقًا عامًّا، كما ذكر عن نفسه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فأوَّل ما أنزل الله على نبيه محمد ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

فذكر نفسه بأنَّه الخالق البارئ المصور، ولم يصف قط شيئًا من المخلوقات بهذا؛ لا ملكًا، ولا نبيًّا...

وأما المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال فيه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، وقال المسيح عن نفسه: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فلم يذكر إلا خلق شيءٍ معينٍ خاصٍّ بإذن الله، فكيف يكون هذا الخالق هو ذاك؟

الوجه الثاني: أنه خلق من الطين كهيئة الطير، والمراد به تصويره بصورة

الطير، وهذا الخلق يقدر عليه عامَّة الناس، فإنه يمكن أحدهم أن يُصوِّر من الطين كهيئة الطير، وغير الطير من الحيوانات، ولكن هذا التصوير محرمٌ بخلاف تصوير المسيح، فإن الله أذن له فيه، والمعجزة أنه ينفخ فيه الروح فيصير طيرًا بإذن الله ﷻ، ليس المعجزة مجرد خلقه من الطين، فإن هذا مشتركٌ...

الوجه الثالث: أنهم قالوا: أشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة في الناسوت، ثم قالوا في قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بإذن الكلمة المتحدة في الناسوت، وهذا يبين تناقضهم وافتراءهم على القرآن؛ لأنَّ الله أخبَر في القرآن أنَّ المسيح خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله، ففرق بين المسيح وبين الله، وبين أن الله هو الآذن للمسيح، وهؤلاء زعموا أن مراده بذلك أن اللاهوت المتحد بناسوت المسيح هو الخالق، وهو الآذن، فجعلوا الخالق هو الآذن، وهو تفسير للقرآن بما يخالف صريح القرآن.

الوجه الرابع: أن اللاهوت إذا كان هو الخالق لم يحتج إلى أن يأذن لنفسه، فإنهم يقولون: هو إله واحد، وهو الخالق، فكيف يحتاج أن يأذن لنفسه، وينعم على نفسه؟

الوجه الخامس: قولهم: فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة في الناسوت المأخوذ من مريم؛ لأنه كذا قال على لسان داود النبي: «بكلمة الله خلقت السماوات والأرض».

يقال لهم: هذا النص عن داود حجة عليكم، كما أن التوراة والقرآن وسائر ما ثبت عن الأنبياء حجة عليكم، فإن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «بكلمة الله خلقت

السماوات والأرض»، ولم يقل: إن كلمة الله هي الخالقة، كما قلتم أنتم أنه أشار بالخالق إلى كلمة الله.

والفرق بين الخالق للسماوات والأرض وبين الكلمة التي بها خلقت السماوات والأرض أمرٌ ظاهرٌ معروفٌ، كالفرق بين القادر والقدرة، فإن القادر هو الخالق، وقد خلق الأشياء بقدرته، وليست القدرة هي الخالقة، وكذلك الفرق بين المريد والإرادة، فإن الله خلق الأشياء بمشيئته، وليست مشيئته هي الخالقة.

وكذلك الدعاء والعبادة هو للإله الخالق لا لشيءٍ من صفاته، فالناس كلُّهم يقولون: يا الله، يا ربنا، يا خالقنا، ارحمنا واغفر لنا، ولا يقول أحد: يا كلام الله، اغفر لنا وارحمنا، ولا يا قدرة الله، ويا مشيئة الله، ويا علم الله، اغفر لنا وارحمنا، والله تعالى يخلق بقدرته ومشيئته وكلامه، وليست صفاته هي الخالقة...

الوجه السادس: أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يجوز أن يريد بكلمة الله المسيح؛ لأنَّ المسيح عند جميع الناس هو اسمٌ للناسوت، وهو عندهم اسمٌ للاهوت والناسوت لمَّا اتحدا.

والاتحاد فعل حادث عندهم، فقبل الاتحاد لم يكن هناك ناسوتٌ، ولا ما يسمى مسيحًا، فعلم أن داود لم يرد بكلمة الله المسيح، ولكن غايتهم أن يقولوا: أراد الكلمة التي اتحدت فيما بعد بالمسيح، لكن الذي خلق بإذن الله هو المسيح، كما نطق به القرآن بقوله: ﴿يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، فالكلمة التي ذكرها وأنها هي التي خلقت السماوات والأرض ليست هي المسيح الذي خلق من الطين كهيئة

الطير بإذن الله، فاحتجاجُهُم بهذا على هذا احتجاجٌ باطلٌ، بل تلك الكلمة التي بها خلقت السماوات والأرض لم يكن معها ناسوتٌ حين خلقت باتفاق الأمم، والمسيح لا بد أن يدخل فيه الناسوت، فعلم أنه لم يرد بالكلمة المسيح(١).

سادس عشر: استدلالهم بتشبيه عيسى بآدم:

قالوا: وقال أيضًا في موضع آخر: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فأعنى بقوله: ﴿مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ [آل عمران: ٥٩] إشارة إلى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة؛ لأنه لم يذكر هاهنا اسم المسيح، إنما ذكر عيسى فقط، كما أن آدم خلق من غير جماعٍ ولا مباضعةٍ، فكذلك جسد السيد المسيح خُلِقَ من غير جماعٍ ولا مباضعةٍ، وكما أن جسد آدم ذاق الموت، فكذلك جسد المسيح ذاق الموت.

وقد يبرهن بقوله أيضًا قائلًا: إن الله ألقى كلمته إلى مريم، وذلك حسَب قولنا معشر النصارى: إن كلمة الله الأزلية الخالقة حلَّت في مريم، وتجسَّدت بإنسان كامل، وعلى هذا المثال نقول: في السيد المسيح طبيعتان؛ طبيعة لاهوتية التي هي طبيعة كلمة الله وروحه، وطبيعة ناسوتية التي أخذت من مريم العذراء، واتحدت به، ولما تقدم به القول من الله تعالى على لسان موسى النبي، إذ يقول: «أليس هذا الأب الذي خلقك وبراك واقتناك»(٢). قيل: وعلى لسان داود النبي

---

(١) (٤/ ٤٢).

(٢) في تثنية (٣٢/ ٦): «ألرب تكافئون بهذا يا شعبًا غبيًّا غير حكيم؟ أليس هو أباك ومقتنيك، هو عملك وأنشأك؟».

«روحك القدس لا تنزع مني»[١]، وأيضًا على لسان داود النبي: «بكلمة الله تشددت السماوات، وبروح فاه جميع قواهن»[٢]، وليس يدلُّ هذا القول على ثلاثة خالقين، بل خالق واحد، الأب ونطقه، أي: كلمته. وروحه، أي: حياته.

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] كلام حق، فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته، فخلق آدم من غير ذكرٍ ولا أنثى، وخلق زوجته حواء من ذكرٍ بلا أنثى، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وخلق المسيح من أنثى بلا ذكرٍ، وخلق سائر الخلق من ذكرٍ وأنثى، وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح، فإن حواء خُلقَت من ضلع آدم، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا، وهو أصل خلق حواء، فلهذا، شبَّهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح.

فإذا كان سبحانه قادرًا أن يخلقه من تراب، والتراب ليس من جنس بدن الإنسان، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأةٍ هي من جنس بدن الإنسان؟ وهو سبحانه خلق آدم من تراب، ثم قال له: كن فيكون، لمَّا نفخ فيه من روحه، فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه، وقال له: كن فيكون، ولم يكن آدم بما نفخ من روحه لاهوتًا وناسوتًا، بل كله ناسوت، فكذلك المسيح كله ناسوت.

---

(١) في مزامير (٥١/ ١١): «لا تطرحني من قدام وجهك، وروحك القدوس لا تنزعه مني».

(٢) في مزامير (٣٣/ ٦): «بكلمة الرب صنعت السماوات، وبنسمة فيه كل جنودها».

والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ذكر هذه الآية في ضمن الآيات التي أنزلها في شأن النصارى، لما قدم على النبي ﷺ نصارى نجران وناظروه في المسيح، وأنزل الله فيه ما أنزل، فبين فيه قول الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى، فكذب الله الطائفتين: هؤلاء في غلوهم فيه، وهؤلاء في ذمِّهم له...

وهذا كله يُبيِّن به أن المسيح عبدٌ ليس بإلهٍ، وأنه مخلوق كما خلق آدم... وبهذا ظهر الجواب عن قولهم: قال في موضعٍ آخر: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فأعنى بقوله: ﴿عِيسَىٰ﴾ إشارة إلى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة؛ لأنه لم يذكر هاهنا اسم المسيح إنما ذكر عيسى فقط، فإنه يقال: عيسى هو المسيح، بدليل أنه قال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥]، فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسولًا ليس هو بإلهٍ، وأنه ابن مريم، والذي هو ابنٌ من مريم هو الناسوت.

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧١، ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠][١].

(١) (٤/ ٥٣).

سابع عشر: استدلالهم بإلقاء الكلمة إلى مريم عليها السلام:

قولهم: وقد برهن بقوله: رأينًا أيضًا في موضع آخر قائلًا: إن الله ألقى كلمته إلى مريم، وذلك حسَب قولنا معشر النصارى: إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلَّت في مريم، واتحدت بإنسان كامل.

فيقال لهم: أمَّا قول الله في القرآن فهو حق، ولكن ضللتم في تأويله كما ضللتم في تأويل غيره من كلام الأنبياء، وما بلغوه عن الله، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٧]، ففي هذا الكلام وجوهٌ تبين أنه مخلوق، وليس هو ما يقوله النصارى:

منها: أنه قال: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، وقوله: «بكلمة منه»، نكرة في الإثبات تقتضي أنه كلمة من كلمات الله، ليس هو كلامه كله كما يقول النصارى.

ومنها: أنه يبين مراده بقوله: «بكلمة منه»، وأنه مخلوق حيث قال: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال تعالى في سورة مريم: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤- ٣٥]، فهذه ثلاث آياتٍ في القرآن تبين أنه قال له:

«كن فيكون»، وهذا تفسير كونه كلمة منه.

وقال: ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، أخبر أنه ابن مريم، وأخبر أنه وجيهٌ في الدنيا والآخرة ومن المقربين، وهذه كلها صفة مخلوقٍ، والله تعالى وكلامه الذي هو صفته لا يقال فيه شيءٌ من ذلك، وقالت مريم: أنَّى يكون لي ولد، فبين أن المسيح الذي هو الكلمة هو ولد مريم، لا ولد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وقال في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣].

فقد نهى النصارى عن الغلوِّ في دينهم، وأن يقولوا على الله غير الحقِّ، وبين أن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأمَرهم أن يؤمنوا بالله ورسله، فبين أنه رسوله، ونهاهم أن يقولوا: ثلاثة، وقال: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]، ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النساء: ١٧١]، وهذا تكذيبٌ لقولهم في المسيح أنه إله حق من إله حق، من جوهر أبيه.

ثم قال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ [النساء: ١٧١]، فنزَّه نفسه وعظمها أن يكون له ولد كما تقوله النصارى، ثم قال: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النساء: ١٧١]، فأخبر أن ذلك ملك له، ليس فيه شيءٌ من ذاته، ثم قال: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، أي: لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فمع هذا البيان الواضح الجلي، هل يظن ظانٌّ أن مراده بقوله: «وكلمته» أنه إله خالق؟ أو أنه صفة لله قائمة به؟ وأن قوله: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١] المراد به أنه حياته، أو روحه منفصلة عن ذاته؟

ثم نقول أيضًا: أما قوله: «وكلمته»، فقد بين مراده أنه خلقه بـ «كن»، وفي لغة العرب التي نزل بها القرآن أن يسمى المفعول باسم المصدر، فيسمى المخلوق خلقًا؛ لقوله: هذا خلق الله، ويقال: درهم ضرب الأمير، أي: مضروب الأمير، ولهذا يسمى المأمور به أمرًا، والمقدور قدرة وقدرًا، والمعلوم علمًا، والمرحوم به رحمة؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]...

قوله تعالى: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾:

وقوله: «بروحٍ منه»، لا يوجب أن يكون منفصلًا من ذات الله؛ كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩] ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢ فِيهَا كُتُبٞ

قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ١-٣].

فهذه الأشياء كلها من الله، وهي مخلوقةٌ، وأبلغ من ذلك روح الله التي أرسلها إلى مريم، وهي مخلوقةٌ، فالمسيح الذي هو روحٌ من تلك الروح أَوْلَى أن يكون مخلوقًا، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧-١٩]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقال: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

فأخبر أنه نفخ في مريم من روحه، كما أخبر أنه نفخ في آدم من روحه، وقد بيَّن أنه أرسل إليها روحه ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ١٧-٢١].

فهذا الروح الذي أرسله الله إليها ليهب لها غلامًا زكيًّا، مخلوق وهو روح القدس الذي خلق المسيح منه ومن مريم، فإذا كان الأصل مخلوقًا، فكيف الفرع الذي حصل منه. وقوله عن المسيح: «وروح منه»، خص المسيح بذلك؛ لأنه نفخ في أُمِّه من الروح، فحَبَلت به من ذلك النفخ، وذلك غير روحه التي يشاركه فيها سائر البشر، فامتاز بأن حبلت به من نفخ الروح، فلهذا سُمِّي روحًا منه، ولهذا قال طائفةٌ من المفسرين: روح منه، أي: رسول منه، سمَّاه باسم

الروح الرسول الذي نفخ فيها، فكما يسمى «كلمة» يسمى «روحًا»؛ لأنه كون بالكلمة، لا كما يخلق الآدميون غيره، ويسمى «روحًا»؛ لأنه حبلت به أمه بنفخ الروح الذي نفخ فيها، لم تحبل به من ذكرٍ كغيره من الآدميين.

وعلى هذا فيقال: لما خلق من نفخ الروح ومن مريم سمي «روحًا» بخلاف سائر الآدميين، فإنه يخلق من ذكرٍ وأنثى، ثم ينفخ فيه الروح بعد مضي أربعة أشهر، والنصارى يقولون في أمانتهم: «تجسد من مريم ومن روح القدس»، ولو اقتصروا على هذا، وفسَّروا روح القدس بالملك الذي نفخ فيها وهو روح الله، لكان هذا موافقًا لما أخبر الله به، لكنهم جعلوا روح القدس حياة الله، وجعلوه ربًّا، وتناقضوا في ذلك، فإنه على هذا كان ينبغي فيه أقنومان: أقنوم الكلمة، وأقنوم الروح، وهم يقولون: ليس فيه إلا أقنوم الكلمة، وكما يسمى المسيح كلمةً لأنه خلق بالكلمة، يسمى «روحًا»؛ لأنه حل به من الروح(١)(٢).

---

(١) (٤/ ٦٢).

(٢) قال الجعفري في «تخجيل من حرف التوراة والإنجيل» (٢٢٤): قال النصارى: أليس في كتابكم معشر المسلمين: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، فما تأويل ذلك غير ما ذهبنا إليه؟!

والجواب أنَّا نقول: هذا لا يفيدكم شيئًا في مطلوبكم؛ إذ ليس اعتقاد أحدٍ منكم أن روح الأب اتحد بالمسيح، وإنما الذي اتَّحد به هو العلم، وقد قلنا: إن الروح ترد على معانٍ شتَّى، منها: أن ترد والمراد بها الوحي؛ كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، وترد والمراد بها جبريل، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وترد والمراد بها ملك كبير يقوم يوم القيامة صفًّا وحده، والملائكة كلها صفًّا آخر.

فالمسيح سمَّاه الله (روحًا)؛ كتسمية جبريل روحًا، وقد قلنا: إن الشيء قد يسمى بما يلازمه، فالله =

ثامن عشر: استدلالهم بنصوص الصفات عند المسلمين:

قال الحاكي عنهم: فقلت لهم: إنهم يقولون لنا: إذا كان اعتقادكم في الباري تعالى أنه واحد، فما حَمَلكم على أن تقولوا: أب وابن وروح قدس، فتوهمون السامعين أنكم تعتقدون في الله ثلاثة أشخاص مركبة، أو ثلاثة آلهة، أو ثلاثة أجزاء، وأن له ابنًا، ويظن من لا يعرف اعتقادكم أنكم تريدون بذلك ابن

=

تعالى نفخ في مريم بواسطة جبريل، وهو المعني بقول لوقا في إنجيله: «روح القدس تحل عليك»، وقد قالت التوراة: «إن روح الله حالٌّ في يوسف»، وذلك كنايةٌ عن العلم والحكمة، وفي التوراة: «إن بصلئيل رجل من سبط يهوذا، ورجل آخر من سبط دان قد ملأتهما روح القدس»، وفي التوراة: «إن يوشع امتلأ من روح القدس؛ لأن موسى كان قد وضع يده على رأسه»، وفي كتاب الأسباط: «إنَّ روح الله لبست جدعون»، وفي كتاب شمويال: «إن روح الله تكلمت على لساني»، وفي كتاب حزقيال يقول: «رأيت قدوس الله، فوقعت فدخلت في الروح فأقامتني».

وترد والمراد بها أرواح الأشخاص، وهو المعني بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، وإذا كان اللفظ مترددًا بين معانٍ كثيرةٍ، فلا يسوغ التمسك به إلا مع اقترانه بما يفسره، وكل مفتقرٍ للتفسير فلا وجه للاستدلال بظاهره، وفي إنجيل لوقا: «إن يوحنا المعمداني امتلأ من روح القدس وهو في بطن أمه»، وقال لوقا في إنجيله: «كان في بيت المقدس رجل يقال له: سمعان، ينتظر عزاء إسرائيل، وروح القدس كانت تحلُّ عليه»، وقال يوحنا التلميذ في إنجيله: «كل إنسان لا يولد من الماء والروح لا يدخل ملكوت الله»، وقال فولس في رسالته الأولى لإخوانه: «أَوَ لا تعلمون أنكم هياكل الله، وأن روح الله حالٌّ فيكم، ومن يفسد هيكل الله يفسده الله (٤)».

وذلك كلُّه دليلٌ على مساواة المسيح غيره من الأنبياء والأولياء في حلول هذه الروح التي هي إما الملك، أو العلم والحكمة.

فما أجاب به النصارى عن حلول الروح على مَن ذكرنا، وامتلائهم منها، فهو جوابٌ عن قول جبريل لمريم: «روح القدس تحلُّ عليك».

المباضعة والتناسل، فتطرقون على أنفسكم تهمة أنتم منها بريئون؟

قالوا: وهم أيضًا لما كان اعتقادهم في الباري -جلَّت عظمته- أنه غير ذي جسمٍ، وغير ذي جوارح وأعضاء، وغير محصورٍ في مكان، فما حملهم على أن يقولوا: إن له عينين يبصر بهما، ويدين يبسطهما، وساقًا، ووجهًا يوليه إلى كل مكانٍ، وجنبًا، وأنه يأتي في ظلل من الغمام، فيوهمون السامعين أن الله ذو جسمٍ، وذو أعضاء وجوارح، وأنه ينتقل من مكانٍ إلى مكانٍ في ظللٍ من الغمام، فيظن مَن لا يعرف اعتقادهم أنهم يجسمون الباري، حتى إن قومًا منهم اعتقدوا ذلك، واتخذوه مذهبًا، ومن لم يتحقق اعتقادهم، يتهمهم بما هم بريئون منه.

قال: فقلت لهم: إنَّهم يقولون: إنَّ العلة في قولهم هذا أنَّ الله له عينان ويدان ووجه وساق وجنب، وأنه يأتي في ظللٍ من الغمام، فهو أن القرآن نطق به، وأن ذلك غير ظاهر اللفظ، وكل من يحمل ذلك على ظاهر اللفظ، ويعتقد أن الله له عينان ويدان ووجه وجنب وجوارح وأعضاء، وأن ذاته تنتقل، فهم يلعنونه ويكفرونه، فإذا كفروا من يعتقد هذا، فليس لمخالفيهم أن يلزموهم هذا بعد ألَّا يعتقدوه.

قالوا: وكذلك نحن أيضًا النصارى، العلة في قولنا: إن الله ثلاثة أقانيم: أب، وابن، وروح قدس، أن الإنجيل نطق به، والمراد بالأقانيم: غير الأشخاص المركبة والأجزاء والأبعاض، وغير ذلك مما يقتضي الشرك والتكثير، وبالأب والابن غير أُبوَّة وبُنُوَّة نكاح أو تناسل، أو جماع أو مباضعة.

وكل من يعتقد أن الثلاثة أقانيم ثلاثة آلهة مختلفة، أو ثلاثة آلهة متفقة، أو

ثلاثة أجسام مؤلفة، أو ثلاثة أجزاء متفرقة، أو ثلاثة أشخاص مركبة، أو أعراض، أو قوى، أو غير ذلك مما يقتضي الاشتراك والتكثير والتبعيض والتشبيه، أو بنوة نكاحٍ، أو تناسل، أو مباضعة، أو جماع، أو ولادة زوجة، أو من بعض الأجسام، أو من بعض الملائكة، أو من بعض المخلوقين، فنحن نلعنه ونكفره ونجرمه، وإذا لعنا أو كفرنا من يعتقد ذلك، فليس لمخالفينا أن يلزمونا بعد ألَّا نعتقده، وإن ألزمونا الشرك والتشبيه لأجل قولنا: أب وابن وروح قدس؛ لأن ظاهر ذلك يقتضي التكثير والتشبيه، ألزمناهم أيضًا نحن التجسيم والتشبيه لقولهم: إنَّ الله له عينان ويدان ووجه وساق وجنب، وأن ذاته تنتقل من مكانٍ إلى مكانٍ، وأنه استوى على العرش من بعد أَنْ لم يكن عليه، وغير ذلك مما يقتضي ظاهره التجسيم والتشبيه.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن يقال: مَن آمن بما جاءت به الرسل، وقال ما قالوه من غير تحريفٍ للفظه ولا معناه، فهذا لا إنكار عليه، بخلاف من ابتدع أقوالًا لم تقلها الرسل، بل هي تخالف ما قالوه، وحرف ما قالوه، إما لفظًا ومعنًى، وإما معنًى فقط، فهذا يستحق الإنكار عليه باتفاق الطوائف.

وأصل دين المسلمين أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه في كتبه، وبما وصفته به رسله، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، بل يثبتون له تعالى ما أثبته لنفسه، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه، ويتبعون في ذلك أقوال رسله، ويجتنبون ما خالف أقوال الرسل، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، أي: عَمَّا يصفه الكفار المخالفون

للرسل، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١] لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فالرسل وصفوا الله بصفات الكمال، ونزَّهوه عن النقائص المناقضة للكمال، ونزَّهوه عن أن يكون له مثلٌ في شيءٍ من صفات الكمال، وأثبتوا له صفات الكمال على وجه التفصيل، ونفوا عنه التمثيل، فأتوا بإثبات مفصل، ونفي مجمل، فمَن نفى عنه ما أثبته لنفسه من الصفات، كان معطلًا، ومَنْ جعلها مثل صفات المخلوقين، كان ممثلًا، والمعطل يعبد عدمًا، والممثل يعبد صنمًا.

وقد قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، وهو ردٌّ على الممثلة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وهو ردٌّ على المعطلة...

وما ورد في القرآن والسُّنة من إثبات صفات الله، فقد ورد في التوراة وغيرها من كتب الله مثل ذلك.

فهو أمرٌ اتفقت عليه الرسل، وأهل الكتاب في ذلك كالمسلمين، وإذا كان كذلك، فهم في أمانتهم لم يقولوا ما قاله المسيح والأنبياء، بل ابتدعوا اعتقادًا لا يوجد في كلام الأنبياء، فليس في كلام الأنبياء لا المسيح ولا غيره ذكر أقانيم لله، لا ثلاثة، ولا أكثر، ولا إثبات ثلاث صفاتٍ، ولا تسمية شيءٍ من صفات الله ابنًا لله، ولا ربًّا، ولا تسمية حياته روحًا، ولا أنَّ لله ابنًا هو إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، وأنه خالق كما أنَّ الله خالق، إلى غير ذلك من الأقوال المتضمنة لأنواعٍ من الكفر، لم تنقل عن نبيٍّ من الأنبياء...

ومن الذي سمى كلام الله أو علمه أو حكمته مولودًا له، أو ابنًا له، أو شيئًا من صفاته مولودًا له، أو ابنًا له؟ ومن الذي قال من الأنبياء: إنه مولودٌ، وهو مع ذلك

قديم أزلي؟ وأين في كلامهم أنَّ لله أقنومًا ثالثًا هو حياته، ويسمى بروح القدس، وأنه أيضًا رب حي محي؟ فلو كان النصارى آمنوا بنصوص الأنبياء، كما آمن المؤمنون، لم يكن عليهم ملامٌ، ومن اعترض على نصوص الأنبياء، كان لفساد فهمه ونقص معرفته، ولكنهم ابتدعوا أقوالًا وعقائد ليست منصوصةً عن أحدٍ من الأنبياء عليهم السلام، وفيها كفر ظاهر، وتناقض بيِّن.

فلو قدر أنهم أرادوا بها معنًى صحيحًا، لم يكن لأحدٍ أن يبتدع كلامًا لم يأت به نبيٌّ يدل على الكفر المتناقض الذي يخالف الشرع والعقل، ويقول: إنِّي أردت به معنًى صحيحًا، من غير أن يكون لفظه دالًّا على ذلك، فكيف والمراد الذي يفسرون به كلامهم فاسد متناقض كما تقدم؟

الوجه الثاني: أن يقال: ما ذكرتموه عن المسلمين كذبٌ ظاهرٌ عليهم، فهذا النظم الذي ذكروه ليس هو في القرآن، ولا في الحديث، ولا يعرف عالم مشهور من علماء المسلمين، ولا طائفة مشهورة من طوائفهم، يطلقون العبارة التي حكَوها عن المسلمين، حيث قالوا عنهم: «إنهم يقولون: إن لله عينين يبصر بهما، ويدين يبسطهما، وساقًا ووجهًا يوليه إلى كل مكان، وجنبًا».

ولكن هؤلاء ركبوا من ألفاظ القرآن بسوء تصرفهم وفهمهم، تركيبًا زعموا أن المسلمين يطلقونه، وليس في القرآن ما يدل ظاهره على ما ذكروه، فإنَّ الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

واليهود أرادوا بقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أنه بخيلٌ، فكذبهم الله في ذلك، وبيَّن أنه جواد لا يبخل، فأخبر أن يديه مبسوطتان، كما قال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ

مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، فبسط اليدين المراد به الجواد والعطاء، ليس المراد ما توهموه من بسطٍ مجردٍ، ولما كان العطاء باليد يكون ببسطها، صار من المعروف في اللغة التعبير ببسط اليد عن العطاء، فلما قالت اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وأرادوا بذلك أنه بخيلٌ، كذَّبهم الله في ذلك، وبيَّن أنه جواد ماجد، وإثبات اليدين له موجود في التوراة وسائر النبوات، كما هو موجود في القرآن، فلم يكن في هذا شيء يخالف ما جاءت به الرسل، ولا ما يناقض العقل...

وأما لفظ «العينين»، فليس هو في القرآن، ولكن جاء في حديثٍ، وذكر الأشعري عن أهل السنة والحديث أنهم يقولون: إن لله عينين، ولكن الذي جاء في القرآن: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧]، ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٣- ١٤].

وأمَّا قولهم: «له وجهٌ يوليه إلى كلِّ مكانٍ»، فليس هذا في القرآن، ولكن في القرآن: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وهذا قد قال فيه طائفةٌ من السلف: فثَمَّ قبلة الله، أي: فثم جهة الله، والجهة كالوعد والعدة، والوزن والزنة، والمراد بوجه الله: وجهة الله، الوجه والجهة والوجهة الذي لله يستقبل في الصلاة، كما قال في أوَّل الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥].

ثم قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن

يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢]، فإذا كان لله المشرق والمغرب ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وقوله: «موليها»، أي: متوليها أو مستقبلها، فهذا كقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]، أي: فأينما تستقبلوا فثَمَّ وجه الله. وقد قيل: إنه يدلُّ على صفة الله، لكن يدل على أن ثَمَّ وجه لله، وأن العباد أينما يولون فثَمَّ وجه الله، فهم الذين يولون ويستقبلون، لا أنه هو يولي وجهه إلى كلِّ مكانٍ، فهذا تحريفٌ منهم للفظ القرآن عن معناه، وكذبٌ على المسلمين.

ومن قال بالقول الثاني من المسلمين، فإنَّ ذلك يقتضي أن الله محيط بالعالم كله، كما قد بسطت هذه الأمور في غير هذا الموضع، إذ المقصود هنا بيان ضلال هؤلاء في دينهم فيما ابتدعوا من الكفر والتثليث والاتحاد دون الذين آمنوا بالله ورسله، وما أخبرت به الرسل عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وأما قولهم: «وجنب»، فإنه لا يعرف عالم مشهور عند المسلمين، ولا طائفة مشهورة من طوائف المسلمين، أثبتوا لله جنبًا نظير جنب الإنسان، وهذا اللفظ جاء في القرآن في قوله: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٦]...

وفي القرآن ما يبين أنه ليس المراد بالجنب ما هو نظير جنب الإنسان، فإنه قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٦]، والتفريط ليس في شيءٍ من صفات الله ﷻ، والإنسان إذا قال: فلان قد فرط في جنب فلان أو جانبه، لا يريد به أن التفريط وقع في شيءٍ من نفس ذلك الشخص، بل يريد به أنه فرط في جهته، وفي حقه، فإذا كان هذا اللفظ إذا أُضِيفَ إلى المخلوق لا يكون ظاهره أن التفريط في نفس جنب الإنسان المتصل بأضلاعه، بل ذلك التفريط لم يلاصقه،

فكيف يظن أنَّ ظاهره في حق الله أن التفريط كان في ذاته؟...

الوجه الثالث: قولهم: «فيوهمون السامعين أن الله ذو جسمٍ وأعضاءٍ وجوارح»، كلام باطل، وذلك أنَّ الله سمَّى نفسه وصفاته بأسماء، وسمى بعض عباده وصفات عباده بأسماء هي في حقهم نظير تلك الأسماء في حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فسمى نفسه حيًّا؛ كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وسمَّى بعض عباده حيًّا؛ كقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥] مع العلم بأنه ليس الحي كالحي، وسمَّى نفسه عليمًا؛ كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وسمَّى بعض عباده عليمًا؛ كقوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨].

مع العلم بأنه ليس العليم كالعليم، وسمَّى نفسه حليمًا بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، وسمَّى بعض عباده حليمًا بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

وكذلك سمَّى بعض صفاته علمًا وقوة وأيدًا، وقدرةً ورحمةً وغضبًا، ورضًا ويدًا وغير ذلك، وسمَّى بعض صفات عباده بذلك، وليس علمه كعلمهم، ولا قدرته كقدرتهم، ولا رحمته وغضبه كرحمتهم وغضبهم، ولا يده كأيديهم، وكذلك ما أخبر به عن نفسه من استوائه على العرش، ومجيئه في ظللٍ من الغمام، وغير ذلك من هذا الباب، ليس استواؤه كاستوائهم، ولا مجيئه كمجيئهم.

وهذه المعاني التي تُضَاف إلى الخالق تارةً، وإلى المخلوق أخرى، تذكر على ثلاثة أوجهٍ: تارةً تقيد بالإضافة إلى الخالق، أو بإضافته إليها؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٥]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾

[الذاريات: ٥٨]، وتارةً تتقيد بالمخلوق كقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وتارةً تطلق مجردةً، فإذا قيدت بالخالق، لم تدلَّ على شيءٍ من خصائص المخلوقين.

فإذا قيل: علم الله وقدرته واستواؤه ومجيئه ويده، ونحو ذلك، كانت هذه الإضافة توجب ما يختصُّ به الرب الخالق، وتمنع أن يدخل فيها ما يختص به المخلوق، كذلك إذا قيل: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، كانت هذه الإضافة توجب ما يختصُّ بالعبد، وتمنع أن يدخل في ذلك ما يختصُّ بالربِّ ﷻ، وإذا جرد اللفظ عن القيود، فذكر بوصف العموم والإطلاق، تناول الأمرين كسائر الألفاظ التي تُطْلق على الخالق والمخلوق، وهذه للنَّاس فيها أقوالٌ.

قيل: إنها حقيقةٌ في الخالق، مجازٌ في المخلوق؛ كقول أبي العباس الناشئ. وقيل بالعكس كقول غلاة الجهمية والباطنية والفلاسفة. وقيل: حقيقة فيهما، وهو قول الجمهور. ثم قيل: هي مشتركةٌ اشتراكًا لفظيًّا. وقيل: متواطئة، وهو قول الجمهور، ثم من جعل المشككة نوعًا من المتواطئة، لم يمتنع عنده إذا قيل: مشككة، أن تكون متواطئةً، ومن جعل ذلك نوعًا آخر، جعلها مشككةً لا متواطئةً، وهذا نزاعٌ لفظيٌّ...

والمقصود هنا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا أضاف إلى نفسه ما أضافه إضافةً يختص بها، وتمنع أن يدخل فيها شيءٌ من خصائص المخلوقين، وقد قال مع ذلك: إنه «ليس كمثله شيء» وإنه «لم يكن له كفوًا أحد»، وأنكر أن يكون له سَميٌّ، كان مَن فهم من هذه ما يختصُّ به المخلوق قد أُتِيَ من سوء فهمه، ونقص عقله، لا من قصورٍ في بيان الله ورسوله، ولا فرق في ذلك بين صفةٍ

وصفةٍ، فمَن فهم من علم الله ما يختص به المخلوق من أنه عرضٌ محدثٌ باضطرارٍ أو اكتسابٍ، فمن نفسه أُتِيَ، وليس في قولنا: علم الله ما يدلُّ على ذلك، وكذلك من فهم من قوله: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] ما يختص به المخلوق من جوارحه وأعضائه، فمن نفسه أُتِيَ، فليس في ظاهر هذا اللفظ ما يدل على ما يختص به المخلوق كما في سائر الصفات...

وليس في ظاهر كلام الله ﷻ ما يدل على ما يختصُّ به المخلوق من حاجةٍ إلى حاملٍ وغير ذلك، بل توهم هذا من سوء الفهم، لا من دلالة اللَّفظ، لكن إذا تخيَّل المتخيِّل في نفسه أن الله مثله، تخيَّل أن يكون استواؤه كاستوائه، وإذا عرف أن الله ليس كمثله شيء؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، علم أن استواءه ليس كاستوائه، ومجيئه كمجيئه، كما أن علمه وقدرته ورضاه وغضبه ليس كعلمه وقدرته ورضاه وغضبه، وما بين الأسماء من المعنى العام الكلي كما بين قولنا: حي وحي، وعالم وعالم.

وهذا المعنى العام الكلي المشترك لا يوجد عامًّا كليًّا مشتركًا إلا في العلم والذهن، وإلا فالَّذي في الخارج أمرٌ يختص بالموصوف، فصفات الرب ﷻ مختصة به، وصفات المخلوق مختصة به، ليس بينهما اشتراك، ولا بين مخلوق ومخلوق[(١)].

---

(١) (٤/٤٠٣).

البَابُ الثَّانِي

مناقشة احتجاج النصارى بالمنقول من الكتب المقدسة الأخرى

الفصل الأول: الجواب الإجمالي عما احتجوا به من الكتب المقدسة.

الفصل الثاني: الرد التفصيلي على حجج الكتابيين من كتبهم.

تمهيد

يتعلق هذا الباب بمناقشة استدلال النصارى على أصول عقائدهم من كتبهم المقدسة، وبيان تعذُّر هذا الاستدلال من جهتي الثبوت والدلالة.

أما من جهة الثبوت، فالاستدلال يتوقف على مقدماتٍ يتعذر إثباتها؛ كصحة النقل والترجمة.

ومن جهة الدلالة، فقد شرح الشيخ هذا التعذر إجمالًا وتفصيلًا، ففي الجملة ذكر أن كل ما ورد في حق المسيح مما يتعلقون به قد ورد مثله في حق غيره من الأنبياء، فيلزم نسبتهم إلى الألوهية، وهم لا يلتزمونه، فبطل الملزوم، وتعيَّن التأويل في الحالين.

وتفصيلًا تناول الشيخ ما استدلوا به بالنقد تفصيلًا، ونقل الشيخ في هذا الباب كثيرًا عن الحسن بن أيوب -المتقدم ذكره- مناقشاته لاحتجاجاتهم على عقائدهم، مع نقله للنصوص الكتابية الكثيرة المحكمة التي تثبت عبودية المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

فاشتمل هذا الباب على النفي والإثبات أوالسلب والإيجاب، إبطال استدلالهم الكتابي على عقائدهم، وإثبات أن النصوص الكتابية تدلُّ على عكسها، وهو التوحيد المجرد.

الفصل الأول

الجواب الإجمالي عما احتجوا به من الكتب المقدسة

أولاً: شروط الاحتجاج بالكتب المقدسة على المسلمين:

والمسلمون لا يستجيز أحدٌ منهم التكذيب بشيءٍ مما أنزل على من قبل محمد ﷺ، لكن الاحتجاج بذلك عليهم يحتاج إلى ثلاث مقدماتٍ:

إحداها: ثبوت ذلك على الأنبياء عليهم السلام.

والثانية: صحة الترجمة إلى اللسان العربي، أو اللسان الذي يخاطب به؛ كالرومي والسرياني؛ فإن لسان موسى وداود والمسيح وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل كانت عبرانيةً، ومن قال: إن لسان المسيح كان سريانيًّا أو روميًّا، فقد غلط.

والثالثة: تفسير ذلك الكلام، ومعرفة معناه.

فلهذا، كان المسلمون لا يردُّون شيئًا من الحجج بتكذيب أحد من الأنبياء في شيء قاله، ولكن قد يكذبون الناقل عنهم، أو يفسرون المنقول عنهم بما أرادوه، أو بمعنًى آخر على وجه الغلط.

وإن كان بعض المسلمين قد يغلط في تكذيب بعض النقل، أو تأويل بعض المنقول عنهم، فهو كما يغلط من يغلط منهم، ومن سائر أهل الملل في التكذيب على وجه الغلط ببعض ما ينقل عمَّن يقر بنبوته، أو في تأريل المنقول عنه، وهذا بخلاف تكذيب نفس النبي، فإنه كفرٌ صريحٌ.

ثانيًا: جماع الجواب عمَّا احتجوا به من الكتب المقدسة:

وجماع هذا الجواب: أن ما يوصف به المسيح عندهم من كونه ابن الله، وكون الله حلَّ فيه، أو ظهر أو سكن، وكون روح القدس أو روح الله حلَّت فيه، وكونه مسيحًا، كل ذلك موجود عندهم في حق غير المسيح، فليس للمسيح اختصاصٌ بشيءٍ من هذه الألفاظ، وإنما يوجد اختصاصه بلفظ الكلمة، وكونه تجسَّد من روح القدس، وهذا هو الذي خصَّه به القرآن، فإن الله قال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١].

وفي (الصحيحين)[1] عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، أدخله الله الجنة على ما كان من عملٍ**»، فهذا الذي خصَّه به القرآن هو الذي خصته الكتب المتقدمة، إذ كان القرآن مصدقًا لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنًا عليه.

وأمَّا سائر ما يوصف به، ويدعون اختصاصه به من كونه ابنًا لله، وكونه مسيحًا، فغيره أيضًا في كتب الله يُسمَّى ابنًا لله ومسيحًا، ولذلك ما يذكر من الألفاظ التي يحتجُّون بها على الحلول، مثل كون الرب ظهر فيه، أو حلَّ، أو سكن، فإن هذه الألفاظ موجودة عندهم في حق غير المسيح، والألفاظ المتشابهة التي يحتجون بها على اتحاد اللاهوت بالناسوت موجودة عندهم في حق غير المسيح، فليس للمسيح خاصة في كلام الأنبياء توجب أن يكون هو الله أو ابن الله.

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٣٥)، وصحيح مسلم (٢٨).

وتلك الألفاظ قد عرف باتفاقهم واتفاق المسلمين أن المراد بها حلول الإيمان بالله ومعرفته وهداه ونوره ومثاله العلمي في قلوب عباده الصالحين(١).

وجماع هذا أن النبوات المتقدمة والكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل والزبور، وسائر نبوات الأنبياء لم تخص المسيح بشيءٍ يقتضي اختصاصه باتحاد اللاهوت به، وحلوله فيه كما يقوله النصارى، بل لم تخصه إلا بما خصه الله به على لسان مُحمَّدٍ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

فكتب الأنبياء المتقدمة، وسائر النبوات موافقة لما أخبر به محمد ﷺ، يصدق بعضها بعضًا، وسائر ما تستدل به النصارى على إلهيته من كلام الأنبياء قد يوجد مثل تلك الكلمات في حق غير المسيح، فتخصيص المسيح بالإلهية ودون غيره باطل، وذلك مثل اسم الابن والمسيح، ومثل حلول روح القدس فيه، ومثل تسميته إلهًا، ومثل ظهور الرب، أو حلوله فيه، أو سكونه فيه، أو في مكانه، فهذه الكلمات وما أشبهها موجودةٌ في حق غير المسيح عندهم، ولم يكونوا بذلك آلهةً.

ولكن القائلون بالحلول والاتحاد في حقِّ جميع الأنبياء والصالحين قد يحتجون بهذه الكلمات، وهذا المذهب باطلٌ باتفاق المسلمين واليهود والنصارى، وهو باطل في نفسه عقلًا ونقلًا، وإن كان طوائف من أهل الإلحاد والبدع المنتسبين إلى المسلمين واليهود والنصارى تقول به.

---

(١) (٤/ ٤٩٤).

فهؤلاء اشتبه عليهم ما يحل في قلوب العارفين به من أهل الإيمان به ومعرفته ونوره وهداه والروح منه، وما يعبر عنه بالمثل الأعلى، والمثال العلمي، وظنوا أنَّ ذلك ذات الرب، كمَنْ يظن أن نفس اللفظ بالاسم هو المعنى الذي في القلب، أو نفس الخط هو نفس اللفظ، ومن يظن أن ذات المحبوب حلَّت في ذات المحب واتحدت به، أو نفس المعروف المعلوم حلَّ في ذات العالم العارف به، واتحد به، مع العلم اليقيني أنَّ نفس المحبوب المعلوم باين عن ذات المحب روحه وبدنه، لم يحلَّ واحد منها في ذات المحب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣].

فالمؤمنون يعرفون الله، ويحبونه، ويعبدونه، ويذكرونه، ويقال: هو في قلوبهم، والمراد معرفته ومحبته وعبادته، وهو المثل العلمي، ليس المراد نفس ذاته، كما يقول الإنسان لغيره: أنت في قلبي، وما زلتُ في قلبي وبين عيني...

والمساجد: هي بيوت الله التي فيها يظهر ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ﴾ [النور: ٣٥]. قال أُبيٌّ بن كعب: مثل نوره في قلوب المؤمنين. ثم قال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، ثم قال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦]، فذكر سبحانه نوره في قلوب المؤمنين، ثم ذكر ذلك في بيوته، كذلك ما ذكر في الكتب الأولى...

وأما الإتيان والمجيء والتجلي، فعندهم في التوراة يقول الله لموسى: «إني

آتي إليك في غلظ الغمام لكي يسمع القوم مخاطبتي لك»[(١)]، ثم قوله: «اجمع سبعين رجلًا من شيوخ بني إسرائيل، وخذهم إلى خباء العرب يقفون معك حتى أخاطبهم»[(٢)]...

وفي السِّفر الخامس قول موسى لبني إسرائيل: «لا تهابوهم، ولا تخافوهم؛ لأن الله ربكم السائر بين أيديكم هو يحارب عنكم»[(٣)]. وفي موضع آخر قال موسى: «إن الشعب هو شعبك، فقال: يا موسى، أنا أمضي أمامك فارتحل، فقال: إن لم تمض أنت معنا وإلا فلا تصعدنا من هاهنا، وكيف أعلم أنا وهذا الشعب أنِّي وجدت أمامك نعمة كذا بعلمك إلا بسيرك معنا؟»... ونظائره كثيرة[(٤)].

---

(١) في خروج (١٩/ ٩): «فقال الرَّبُّ لموسى: «ها أنا آتٍ إليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حينما أتكلم معك، فيؤمنوا بك أيضًا إلى الأبد».

(٢) بنحوه في العدد (١١/ ٦).

(٣) بنحوه في تثنية (١/ ٢٩).

(٤) (٣/ ٣٦٥).

الفصل الثاني

الرد التفصيلي على حجج الكتابيين من كتبهم

أولاً: احتجاجهم بما في كتاب متى: «عمدوا الناس باسم الآب والابن والروح القدس»:

وهذا أحد ما يثبت به ضلال النصارى، وأنهم حرفوا كلام الأنبياء وتأوَّلوه على غير ما أرادت الأنبياء، فإن أصل تثليثهم مبنيٌّ على ما في أحد الأناجيل من أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم: «عمدوا الناس باسم الآب والابن وروح القدس»[1].

فيقال لهم: هذا -إذا كان قد قاله المسيح- وليس في لغة المسيح، ولا لغة أحدٍ من الأنبياء أنهم يسمون صفة الله القائمة به، ولا كلمته، ولا حياته، لا ابنًا، ولا روح قدس، ولا يسمون كلمته ابنًا، ولا يسمونه نفسه ابنًا، ولا روح قدس، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يصفون المصطفى المكرم ابنًا، وهذا موجود في حق المسيح وغيره، كما يذكرون أنه قال تعالى لإسرائيل: «أنت ابني بكري»[2]، أي: بني إسرائيل. وروح القدس يراد به الروح التي تنزل على الأنبياء كما نزلت على داود وغيره، فإنَّ في كتبهم أنَّ روح القدس كانت في داود وغيره، وأن المسيح قال لهم: «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»[3]، فسمَّاه أبًا للجميع، لم يكن المسيح مخصوصًا

---

(١) في متَّى (٢٨/ ١٩): «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس».

(٢) في الخروج (٤/ ٢٢): «فتقول لفرعون: هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر».

(٣) في يوحنا (٢٠/ ١٧): «قال لها يسوع: لا تلمسيني؛ لأني لم أصعد بعدُ إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم».

عندهم باسم الابن، ولا يوجد عندهم لفظ الابن إلا اسمًا للمصطفى المكرم، لا اسمًا لشيء من صفات الله، ولا في كتب الأنبياء أن صفة الله تولدت منه.

وإذا كان كذلك، كان في هذا ما يبين أنه ليس المراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية التي يقولون: إنها تولَّدت من الله عندهم مع كونها أزليةً، ولا بروح القدس حياة الله، بل المراد بالابن: ناسوت المسيح، وبروح القدس: ما أنزل عليه من الوحي والملك الذي نزل به، فيكون قد أمرهم بالإيمان بالله وبرسوله، وبما أنزله على رسوله، والملك الذي نزل به، وبهذا أمرت الأنبياء كلهم، وليس للمسيح خاصَّة استحق بها أن يكون فيه شيءٌ من اللاهوت، لكن ظهر فيه نور الله، وكلام الله، وروح الله، كما ظهر في غيره من الأنبياء والرسل، فإنَّ غيره أيضًا فيما ينقلونه عن الأنبياء يسمى ابنًا، وروح القدس حلَّت فيه.

قاعدة مهمة في المضاف إلى الله تعالى:

والمضاف إلى الله نوعان، فإن المضاف إما أن يكون صفةً لا تقوم بنفسها؛ كالعلم والقدرة والكلام والحياة، وإما أن يكون عينًا قائمة بنفسها، فالأول إضافة صفة؛ كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]... وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥].

والثاني: إضافة عين؛ كقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وقوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]، وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، فالمضاف في الأول صفة لله قائمة به ليست مخلوقةً له، بائنةً عنه، والمضاف في

الثاني مملوك لله، مخلوق له، بائن عنه، لكنه مفضل مشرف لما خصَّه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله... ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، فإنه وصف هذا الروح بأنه تمثل لها بشرًا سويًّا، وأنها استعاذت بالله منه إن كان تقيًّا، وأنه قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩].

وهذا كله يدلُّ على أنها عينٌ قائمةٌ بنفسها... وإذا كان الله قد بيَّن أن المضاف هنا ليس من الصفات القائمة بغيرها، بل من الأعيان القائمة بنفسها، علم أن المضاف مملوك لله مخلوق له، لكن إضافته إلى الله تدل على تخصيص الله له من الاصطفاء والإكرام بما أوجب التخصيص بالإضافة(١).

والمسلمون أشد تعظيمًا للمسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واتباعًا له بالحق ممن بدل دينه، وخالفه من النصارى، فإن المسلمين يصدقونه في كل ما أخبر به عن نفسه، ولا يحرفون ما قاله عن مواضعه، ولا يُفسِّرون كلامه بغير مراده، وكلام غيره من الأنبياء كما فعلت النصارى، فإنهم نقلوا عن المسيح أنه قال: «عمدوا الناس باسم الآب والابن وروح القدس»، وهذا إذا قاله المسيح، فإنه يفسر بلغته وعادته في خطابه، وعادة سائر الأنبياء، وليس في كلام المسيح، ولا في كلام سائر الأنبياء، ولا كلام غيرهم أن كلمة الله القائمة بذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تسمى ابنًا، ولا روح قدس، ولا تسمى صفته القديمة ابنًا، ولا روح قدس، ولا يوجد قطُّ في كلام الأنبياء اسم الابن واقعًا إلا على مخلوقٍ.

والمراد في تلك اللغة أنه مصطفى محبوب لله، كما ينقلونه أنه قال

---

(١) (٢/ ١٥٢).

لإسرائيل: «أنت ابني بكري»، ولداود: «أنت ابني وحبيبي»[١]، وأن المسيح قال للحواريين: «أبي وأبيكم»، فجعله أبًا للجميع، وهم كلُّهم مخلوقون، فيكون اسم الابن واقعًا على المسيح الذي هو ناسوتٌ مخلوقٌ، فعمد هؤلاء الضلال، فجعلوا اسم الابن واقعًا على اللاهوت، قديم أزلي مولود غير مخلوقٍ، وزعموا أن الابن يراد به الابن بالوضع، وهو المخلوق، وهو الابن بالطبع، وهو القديم الأزلي المولود غير المخلوق.

وهذا التفريق هم أحدثوه وابتدعوه، ولا يوجد قط في كلام المسيح ولا غيره أنه سمى القديم الأزلي ابنًا، ولا جعل له ابنًا قديمًا مولودًا غير مخلوق، ولا سمى شيئًا من صفات الله قط ابنًا، وكذلك لفظ روح القدس موجود في غير موضع من كلام الأنبياء عليهم السلام، لا يراد بهذا قط حياة الله، ولا صفة قائمة به، وإنما يراد به ما أيد الله به الأنبياء والأولياء، ويجعله في قلوبهم من هداه ونوره ووحيه وتأييده، ومما ينزل بذلك من الملائكة، وهذا الذي تسميه الأنبياء روح القدس لم يختصَّ به المسيح باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل قد أنزله على غيره من الأنبياء والصالحين كما هو موجودٌ في كتبهم: إن روح القدس كانت في داود[٢] وغيره[٣]، وكانت أيضًا عندهم في الحواريين[٤].

---

(١) في مزمور (٢/ ٧): «أنت ابني، أنا اليوم ولدتك».

(٢) في مرقس (١٢/ ٣٦): «لأن داود نفسه قال بالروح القدس: قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئًا لقدميك».

(٣) في لوقا (١/ ٦٧، ٦٨): «وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس، وتنبأ قائلًا: ٦٨ مبارك الرب إله إسرائيل؛ لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه».

(٤) في مرقس (١٣/ ١١): «فمتى ساقوكم ليسلموكم، فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون، ولا تهتموا، بل مهما أعطيتم في تلك الساعة، فبذلك تكلموا؛ لأنَّ لستم أنتم المتكلمين، بل الروح القدس».

وهكذا خاتم الرسل، كان يقول لحسان بن ثابت: «**إنَّ روح القدس معك ما دمت تدافع عن نبيه**»، ويقول: «**اللَّهمَّ أيِّده بروح القدس**»(١)، وقد قال الله تعالى عن عباده المؤمنين: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فروح القدس لا اختصاص للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بها، بل ما يفسر به اسم الابن واسم روح القدس، وغير ذلك مما وصف به المسيح، فهو مشترك بينه وبين غيره من الرسل، وإذا فسروا الحلول بظهور نور الله وعلمه وهداه في الأنبياء، فهذا حق، وهو مشترك بين المسيح وغيره، فأما نفس ذات الله فلم تحلَّ في أحدٍ من البشر، والمسلمون مع شهادتهم للمسيح بأنه عبد الله ورسوله يقولون: إنه مؤيدٌ منصورٌ عصمه الله من أعدائه، وطهَّره منهم، ولم يسلطهم عليه(٢).

وهذا تفسير ظاهر ليس فيه تكلفٌ، ولا هو من التأويل الذي هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره، بل هو تفسيرٌ له بما يدل ظاهره عليه باللغة المعروفة، والعبارة المألوفة في خطاب المسيح، وخطاب سائر الأنبياء، أما تفسير النصارى بأن الابن مولود قديم أزلي هو العلم أو كلمة الله، فتفسير للفظ بما لم يستعمل هذا اللفظ فيه، لا في كلام أحدٍ من الأنبياء، ولا لغة أحدٍ من الأنبياء.

وكذلك تفسير روح القدس بحياة الله، فالذي فسر النصارى به ظاهر كلام المسيح هو تفسير لا تدل عليه لغة المسيح وعادته في كلامه، ولا لغة غيره من

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) (١/ ٥٤٧).

الأنبياء والأمم، بل المعروف في لغته وكلامه وكلام سائر الأنبياء تفسيره بما فسَّرناه، وبذلك فسَّره أكابر علماء النصارى، وأما ضلال النصارى المحرفون لمعاني كتب الله ﷻ، فسَّروه بما يخالف معناه الظاهر، وينكره العقل والشرع[(١)].

ولو كان لفظ الابن يستعمل في صفة الله، لسُمِّيت حياته ابنًا، وقدرته ابنًا، فتخصيص العلم بلفظ الابن دون الحياة خطأ ثانٍ لو كان لفظ الابن يستعمل في صفة الله، فكيف إذا لم يكن كذلك.

وقد قدمنا أن روح القدس يراد به الملك، ويراد به ما يجعله في القلوب من الهدى والقوة، ومنه قوله في بعض النُّبوات: «وفي تلك الأيام أسكب من روحي على كلِّ قديس»[(٢)]، وفي زبور داود: «روحك الصالح يهديني في أرض مستقيمة»[(٣)]، يوضح هذا أنهم قالوا في أمانتهم: الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسَّد من روح القدس، ومن مريم العذراء. وذكروا أنَّ ذلك في الكتب المقدسة، والذي في الكتب المقدسة لا يكون إلا حقًّا.

ولا ريب أن فيها مثل ما في القرآن، وفي القرآن أن الله أرسل روحه إلى مريم، فنفخ فيها، فحملت بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا

---

(١) (٣/ ١٣٣).

(٢) في أعمال الرسل (٢/ ١٧): يقول الله: ويكون في الأيام الأخيرة أنِّي أسكب من روحي على كل بشرٍ.

(٣) في مزامير (١٤٣/ ١٠): «علِّمني أن أعمل رضاك؛ لأنك أنت إلهي، روحك الصالح يهديني في أرضٍ مستويةٍ».

﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ١٧-٢٢] إلى آخر القصة...

وهذا الروح هو الرسول كما قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]، ونفخ فيها من هذا الروح، فكان المسيح مخلوقًا من هذا الروح، ومن أمه مريم كما قالوا في الأمانة: إنه تجسَّد من مريم، ومن روح القدس. لكن اعتقدوا أنَّ روح القدس التي خلق المسيح منها ومن مريم هي حياة الله.

وهذا ليس في الكتب ما يدلُّ عليه، بل الكتب كلُّها صريحةٌ في نقيض هذا، وهو أيضًا مناقض لقولهم: إن المتحد بالمسيح هو أقنوم الكلمة، وهو العلم، فإن كان قد تجسَّد من مريم، وأقنوم الكلمة لم يكن متجسدًا من روح القدس، وإن كان من روح القدس لم يكن من الكلمة، وإن كان منهما جميعًا كان المسيح أقنومين: أقنوم الكلمة، وأقنوم الروح.

والنصارى بفرقهم الثلاثة كلهم يقولون: إنما المتحد به أقنوم الكلمة لا أقنوم الحياة، فتبين تناقضهم في أمانتهم، وتبيَّن خطؤهم فيما فسروا به كلام الأنبياء، وتبيَّن أن ما ثبت عن الأنبياء فهو حقٌّ موافقٌ لما أخبر به محمد خاتم النبيين، لا يناقض شيئًا من كلام الأنبياء، كما أنه لا يناقض شيئًا من كلامهم صريح المعقول، وتبيَّن أنهم حملوا كلام الأنبياء في لفظ الابن وروح القدس وغيره على ما لم يوجد استعمال هذا اللفظ فيه، وتركوا حمله على المعنى الموجود في كلامهم.

وهذا من أبلغ ما يكون من تحريف كلامهم عن مواضعه، وتبديل معاني كلام الله، فكيف يجوز أن يحمل لفظ روح القدس على معنًى لم يستعمله فيه الأنبياء، ولا أرادوه به، ويترك حمله على المعنى المعروف الذي يستعملونه فيه دائمًا، وهل هذا إلا من فعل مَن يحرف كلام الأنبياء، ويفتري الكذب عليهم؟ بل ظاهر هذا الكلام أن يعمدوهم باسم الآب الذي يريدون به في لغتهم الرب، والابن الذي يريدون به في لغتهم المربي، وهو هنا المسيح وروح القدس، وهو روح القدس الذي أيَّد الله به المسيح من الملك والوحي وغير ذلك، وبهذا فسَّر هذا الكلام مَن فسَّره من أكابر علمائهم(١).

ثانيًا: احتجاجهم بالبشارات في الكتاب المقدس:

قالوا: ثم شهد لقرابيننا وذبائحنا أنها مقدسة مقبولة لدى الله من كتب اليهود التي في أيديهم يومنا هذا المنزلة من الله على أفواه الأنبياء المرسلين.

قال أشعيا: «قال الله: إنِّي أعرف بني إسرائيل وقلوبهم القاسية الخبيثة، فإذا أنا ظهرت إلى الأمم، فنظروا إلى كرامتي أقيم منها أنبياء، وأبعث منهم مخلصين يخلصون الأمم من البلدان القاصية الذين لم يسمعوا بسماعي، ولم يعرفوا من قبل كرامتي، ويكون اسمي فيهم، ويجلبون إخوتهم من الأمم كلها، ويجيبون قرابين الله على الدواب والمراكب إلى جبل قدسي بيت المقدس، فيقربون لي القرابين بالسميد، كما كان بنو إسرائيل من قبل، وكذلك باقي الأمم، وتقرب القرابين بين يدي، فهم وزرعهم إلى الأبد، ويحجون في كل سنةٍ،

---

(١) (٢/ ٢٥٧).

وفي كل شهرٍ، ومن سنةٍ إلى سنةٍ إلى بيت المقدس بيت الله، ويقربون لله ربهم فيه قرابين زكية نقية، ينظرون إلى الأمة الخبيثة الماردة: بني إسرائيل، لا يبلى حزنها، ولا ينقطع بلاؤها إلى الأبد»(١).

وقال دانيال النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وسيأتي على شعبك وقرية قدسك سبعون سابوعًا، وتنقضي الذنوب، وتفنى الخطايا وغفرانِ الإثم، ويؤتى بالحق الذي لم ينزل من قبل، وتتم نبوات الأنبياء وكتب الرسل، وتَبيد قرية القدس، وتخرب مع مجيء المسيح، ويفنى الميثاق العتيق من الناس، ومن بعد أسبوعٍ ونصفٍ تبطل ذبائح اليهود وقرابينهم، وتصير على كفِّ النجاسة والفساد إلى انقضاء الدهر»(٢).

وقال ميخا النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قال الله في آخر الزمان إذا أتى المسيح يدعو الأمم المبددة، ويضعهم شعبًا واحدًا، ويبطل قتال بني إسرائيل وسلاحهم وقرابينهم إلى الأبد»(٣).

وقال عاموص النبي: «لا تذبحوا العجول بعد، فإن الرب سيأتي صهيون، ويحدث وصيةً جديدةً طاهرةً من الخبز النقي، والخمر الزكي، ويصير بنو إسرائيل مطرودين».

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: أنَّ ما يحتجون به من النقل عن الأنبياء -صلوات الله عليهم-

---

(١) ينظر إشعيا (٦٦/ ١٥-٢٤).

(٢) ينظر دانيال (٩/ ٢٤-٢٧).

(٣) ينظر ميخا (٤/ ١-٨).

يحتاجون فيه إلى أربع مقدمات:

إلى أن تعلم نبوة المنقول عنه.

وإلى أن يعلم لفظه الذي تكلم به.

وإلى أن يعلم ما ذكروه ترجمة صحيحة عنده، فإن أولئك الأنبياء لم يتكلموا بالعربية، بل ولا بالرومية والسريانية واليونانية، وإنما تكلموا بالعبرية؛ كالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والرابع: أن يعلم أن ما ذكروه من كلام الأنبياء دليل على ما ادعوه من قبول قرابينهم في هذا الزمان.

ونحن في هذا المقام نقتصر على منازعتهم في هذه المقدمة، فليس فيما ذكروه دليلٌ على مدح قرابينهم وذبائحهم بعد التبديل والنسخ، ولكن غايتها أن يدلَّ على مدحها قبل النسخ والتبديل، وهذا ممَّا لا ينازع فيه المسلمون.

الوجه الثاني: أنَّ هذه النعوت المذكورة عن «أشعيا» وغيره من الأنبياء لا توافق ما عليه النصارى، فإنَّ النصارى لا يقربون القرابين بالسميد، كما كان بنو إسرائيل من قبل، ولا يحجون في كلِّ شهرٍ، ومن سنةٍ إلى سنةٍ إلى بيت المقدس بيت الله، ويقربون لله ربهم فيه قرابين نقية زكية، وإنما يحجون إلى قمامة(١) الخارجة عن بيت الله الذي كانت الأنبياء تقصده، وتصلي فيه، فإنَّ الأنبياء إنما

---

(١) هي كنيسة للنصارى ببيت المقدس فى وسط البلد، فيها قبة تحتها قبر، يقولون: إن المسيح دفن فيه، ومنه قام؛ فلذلك تسميها النصارى. القيامة. «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» (قمامة).

كانوا يصلون في بيت المقدس، ويزورون بيت المقدس نفسه.

وأما قمامة فليس لها ذكرٌ في كتب الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بل إنَّما ظهرت قمامة في زمن قسطنطين الملك، لما أظهرتها أمه هيلانة الحرانية لما جاءت بيت المقدس، واختارت من اليهود ثلاثةً، وسألتهم أن يدلُّوها على موضع الصليب فامتنعوا، فعاقبتهم بالحبس والجوع، فدلوها على موضعه في مزبلةٍ، فاستخرجوه، وجعلته في غلافٍ من ذهبٍ وحملته، وبنت كنيسة القمامة في موضعه، كما ذكر ذلك ابن البطريق في تاريخه، وغيره، كما سيأتي، وذلك بعد المسيح بأكثر من ثلاث مائة سنةٍ.

ومن ذلك الوقت أظهروا الصليب، وجعلوا «عيد الصليب»، ولم يشرع ذلك لا المسيح، ولا الحواريون، وهذا مذكور في كتبهم، متفق عليه بين علمائهم، كما قد ذكر في موضعٍ آخر، ولا هم يأتون بقرابين لله على الدواب والمراكب إلى جبل قدس بيت الله المقدس.

الوجه الثالث: أنَّ ما ذكروه عن «دانيال» لا يتضمن مدح دينهم بعد النسخ والتبديل، وإنما يتضمن أن الله يبعث المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحق الذي لم يزل من قبل، وهو الدين الذي بعث به الرسل قبله، وهو عبادة الله وحده، وأن بيت المقدس يخرب مع مجيء المسيح، ويفنى الميثاق العتيق، يعني: ما نسخ من شرع التوراة، وأنه يبطل ذبائح اليهود وقرابينهم.

وهذا كله إنما يدلُّ على نسخ شرع التوراة، وبطلان دولة اليهود، ويدل على أنَّ المسيح جاء بالحق، ومن اتبع المسيح كان على الحق، وهذا مما لا ينازع فيه

المسلمون، فإنهم متفقون على أن مَن كان متمسكًا بما أمر به المسيح، فإنه من عباد الله الصالحين، ولكن مَنْ جاء بشرعٍ لم يأت به المسيح، أو أراد اتباع شرعه بعد النسخ، فهو بمنزلة اليهود الذين نسخ الله ما نسخه من شرعهم، وأزال دولتهم.

وكذلك فعل بالنصارى لما بعث الله محمدًا ﷺ أزال دولتهم عن وسط الأرض وخيارها، وحيث بعثت الأنبياء كأرض الشام ومصر والجزيرة والعراق وأرمينية وأذربيجان وأجلاهم إلى طرفي الأرض من جهة الشمال والجنوب، وصار الذين في وسط الأرض منهم أحسن أحوالهم إذا لم يسلموا أن يؤدوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

وكذلك ما ذكروه عن «ميخا» و«عاموس» إنما يدل على مجيء المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبطلان ما نسخه الله وأبطله من شرع اليهود وملكهم، ولا يدلُّ على صحة دين النصارى الذي لم يشرعه المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا على صحته بعد أن نسخ بشرع مُحمَّدٍ ﷺ نسخًا هو أبلغ من نسخ بعض شرع موسى بشرع المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، هذا إذا سمى الشرع المؤقت بغايةٍ مجهولةٍ نسخًا، فإن الأول لم يبشر بالثاني، وأما إذا كان الأول بشَّر بالثاني، وكانت شريعة الأول مؤقتةً إلى مجيء الثاني، لم يسمِّ ذلك نسخًا، فالمسيح ومحمد -صلى الله عليهما وسلم- لم ينسخا شيئًا، بل كان شرع موسى إلى مجيء المسيح، وشرع المسيح إلى مجيء محمد - صلى الله عليهما وسلم -.

وأما ما حكي عن أشعيا عن الله أنه قال: «فإذا ظهرت إلى الأمم»، فهذا قد يحتج به النصارى وبأمثاله من كلام الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على الحلول الذي ابتدعوه،

وهو باطل، فإن مثل هذا اللفظ مذكور في كتب أهل الكتاب في غير موضعٍ، ولا يراد بشيءٍ منها حلول ذات الله في أحدٍ من البشر، كما ذكر في التوراة أن الله ﷻ استعلن لإبراهيم وغيره، وأن الله يأتي من طور سيناء، ويشرق من ساعير، ويستعلن من جبال فاران.

ومعلومٌ عند جميع أهل الملل أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يحلَّ في موسى وغيره لما كلَّمه، ولا يحل في شيءٍ من جبال فاران مع إخباره أنه استعلن منها، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، فأظهره بالعلم والحجة والبيان، وأظهره باليد والسنان، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: ٣٥].

قال أُبيُّ بن كعب وغيره: مثل نوره في قلب المؤمن. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]... والمخلوق الذي تظهر محبته وذكره وطاعته في بعض البلاد، يقال: فلان قد ظهر في هذه الأرض، فإذا ظهر ذكر الله وذكر أسمائه وصفاته وتوحيده وآياته وعبادته حتى امتلأت القلوب بذلك بعد أَنْ كانت ممتلئةً بظلمة الكفر والشرك، كان ذلك ممَّا أخبر به من ظهوره...

وكذلك ما في الكتب من ظهوره ببيت المقدس، فهو كظهوره بطور سيناء وبجبل فاران، ومع هذا فلم يره موسى، ولا غيره، لا مجردًا، ولا حالًّا في غيره،

وقد أخبر المسيح أنه لم يره أحد(١)، كما أخبر غيره، وذلك نفيٌ عامٌّ يوجب أنه لا يرى لا مجردًا، ولا حالًّا في دار الدنيا كما قد بسط هذا في موضعٍ آخر.

ومعلوم أن ملابسة الشيء أبلغ من رؤيته، فإذا كان الرب تعالى لا يراه ناسوت، فألَّا يلابسه ناسوت بطريق الأَوْلَى والأَحْرَى والنصارى يزعمون أنه اتحد هو والناسوت، وهذا أعظم من الرؤية(٢).

بشارات أخرى:

قالوا: وسبيلنا أن نذكر من بعض قول الأنبياء الذين تنبوا على السيد المسيح، ونزوله إلى الأرض. قال عزرا الكاهن حيث سَبَاهم بختنصر الفريدي إلى أرض بابل إلى أربعمائةٍ واثنتين وثمانين سنةً: «يأتي المسيح، ويخلص الشعوب والأمم»، وفي كمال هذه المدة أتى السيد المسيح..

وقال أرميا النبي عن ولادته في ذلك الزمان: «يقوم لداود ابنٌ هو ضوء النور يملك الملك، ويعلم ويفهم ويقيم الحق والعدل في الأرض، ويخلص مَن آمن به من اليهود من بني إسرائيل وغيرهم، ويبقى بيت المقدس بغير مقاتلٍ، ويسمى الإله»(٣). وأما قوله: ابن لداود؛ لأنَّ مريم كانت من نسل داود، ولأجل ذلك قال النبي: «يقوم لداود ابنٌ».

---

(١) في يوحنا (١/ ١٨): «الله لم يره أحد قط».

(٢) (٣/ ١٣٧).

(٣) في أرميا (٢٣/ ٥، ٦): «ها أيام تأتي، يقول الرب: وأقيم لداود غصن بر، فيملك ملك وينجح، ويجري حقًّا وعدلًا في الأرض. (٦) في أيامه يخلص يهوذا، ويسكن إسرائيل آمنًا، وهذا هو اسمه الذي يدعونه به: الرب برنا».

فيقال: أمَّا قول عزرا الكاهن، فليس فيه إلا إخباره بأنه يأتي المسيح، ويُخلِّص الشعوب والأمم، وهذا مما لا ينازع فيه المسلمون، فإنهم يقرُّون بما أخبر الله به في كتابه من إتيان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتخليص الله به كل مَن آمن به من الشعوب والأمم إلى أن بُعِثَ مُحمَّدٌ ﷺ، فكل مَنْ كان مؤمنًا بالمسيح، متبعًا لما أنزل عليه من غير تحريفٍ ولا تبديلٍ، فإن الله خلصه بالمسيح من شرِّ الدنيا والآخرة، كما خلَّص الله تعالى بموسى من اتبعه من بني إسرائيل، ومَن حرَّف وبدَّل، فلم يتبع المسيح، ومن كذب محمدًا ﷺ، فهو كمَن كذب المسيح بعد أن كان مقرًّا بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولكن هذا النص وأمثاله حجة على اليهود الذين يتأولون ذلك على أن هذا ليس هو المسيح ابن مريم، وإنما هو مسيح ينتظر، وإنما ينتظرون المسيح الدجال مسيح الضلالة، فإن اليهود يتبعونه، ويقتلهم المسلمون معه حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم، هذا يهودي ورائي، تعال فاقتله. وهكذا يقال في النبوة الثانية التي ذكروها عن أرميا النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ(١).

وأمَّا قوله: «واسمه الإله»، فهذا يدلُّ على أنه ليس هو الله رب العالمين، وإنما لفظ الإله اسمٌ سمي به كما سمي موسى إلهًا لفرعون عندهم في التوراة(٢)، إذ لو

---

(١) وقد يقال أيضًا: كلُّ ما في هذه النبوءة من حصول الملك، وتحقيق الحق والعدل، وتخليص اليهود، والإقامة الآمنة، لم يتحقق للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ كما هو معلومٌ من سيرته، فَإِنْ كان هو المقصود بها، فهي غير مطابقةٍ للواقع، فيلزم وقوع الخطأ في الكتاب، وإن قيل: بل المقصود بها غيره، بطل الاحتجاج بها.

(٢) في خروج (٧-١): «فقال الرب لموسى: انظر، أنا جعلتك إلهًا لفرعون».

كان هو الله رب العالمين، لكان أجلَّ من أن يقال: «ويسمى الإله»، فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يُعْرف بمثل هذا، ويقال فيه: إن الله يسمى الإله، ولَقال: يأتي الله بنفسه فيظهر. وقال: يملك الملك، ورب العالمين ما زال ولا يزال مالكًا للملك سبحانه.

وأيضًا فإنه قال: «يقوم لداود ابنٌ هو ضوء النور»، ومعلومٌ أن الابن الذي من نسل داود الذي اسم أمه مريم هو الناسوت فقط، فإنَّ اللاهوت ليس هو من نسل البشر، وقد تبيَّن أن هذا الناسوت الذي هو ابن داود يُسمَّى الإله، فعلم أن هذا اسمٌ للناسوت المخلوق لا للإله الخالق.

أيضًا فإنه قال: «وهو ضوء النور»، لم يجعله النور نفسه، بل جعله ضوء النور، والله تعالى منور كل نورٍ، فكيف يكون هو ضوء النور، والله تعالى قد سمَّى محمدًا ﷺ سراجًا منيرًا، ولم يكن بذلك خالقًا، فكيف إذا سُمِّي ضوء النور؟

وأيضًا، فإنه لم يجعل القائم إلا ابن داود، وابن داود مخلوق، وأضاف الفعل إلى هذا المخلوق، ولو كان هذا هو الله رب العالمين قد اتحد بالناسوت البشري، لَبيَّن أرميا وغيره من الأنبياء ذلك بيانًا قاطعًا للعذر، ولم يكتفوا بمثل هذه الألفاظ التي هي إما صريحة، أو ظاهرة في نقيض ذلك، أو مجملة لا تدلُّ على ذلك، فإنه من المعلوم أنَّ إخبارهم بإتيان نبيٍّ من الأنبياء أمرٌ معتادٌ ممكنٌ، ومع هذا يذكرون فيه من البشارات والدلائل الواضحة ما يزيل الشبهة.

وأمَّا الإخبار بمجيء الرب نفسه وحلوله أو اتحاده بناسوتٍ بشريٍّ، فهو إما ممتنع غير ممكنٍ كما يقوله أكثر العقلاء من بني آدم، ويقولون: يعلم بصريح العقل أن هذا ممتنع، وإما ممكن كما يقوله بعض الناس، وحينئذ فإمكانه خفي على أكثر العقلاء وهو أمرٌ غير معتاد، وإتيان الرب بنفسه أعظم من إتيان كل

رسولٍ ونبيٍّ، لا سيما إذا كان إتيانُهُ باتحاده ببشرٍ لم يظهر على يديه من الآيات ما يختص بالإلهية، بل لم يظهر على يديه إلا ما ظهر على يد غيره من الأنبياء ما هو مثله أو أعظم منه.

والله تعالى لمَّا كان يكلِّم موسى ولم يكن موسى يراه، ولا يتحد لا بموسى ولا بغيره، ومع هذا فقد أظهر من الآيات على ذلك، وعلى نُبوَّة موسى ما لم يظهر مثله، ولا قريب منه على يد المسيح، فلو كان هو بذاته متحدًا بناسوتٍ بشريٍّ، لكان الأنبياء يخبرون بذلك إخبارًا صريحًا بينًا لا يحتمل التأويلات، ولكان الرَّبُّ يظهر على ذلك من الآيات ما لم يظهر على يد رسولٍ، ولا نبيٍّ، فكيف والأنبياء لم ينطقوا في ذلك بلفظٍ صريحٍ، بل النصوص الصريحة تدلُّ على أن المسيح مخلوق، ولم تأت آيةٌ على خلاف ذلك، بل إنما تدلُّ الآيات على نبوة المسيح.

قالوا: وقال أشعيا النبي: «قل لصهيون: هنا تفرح وتتهلل، فإن الله يأتي ويخلص الشعوب، ويخلص مَن آمن به وبشعبه، ويخلص مدينة بيت المقدس، ويظهر الله ذراعه الطاهر فيها لجميع الأمم المبددين، ويجعلهم أمةً واحدةً، ويبصرون جميع أهل الأرض من خلاص الله؛ لأنه يمشي معهم وبين يديهم، ويجمعهم إله إسرائيل»(١).

فيقال: هذا محتاج أولًا أن يعلم من هذه النبوة أن هذا الكلام نقل بلا تحريفٍ للفظه، ولا غلطٍ في الترجمة، ولم يثبت ذلك، وإذا ثبت ذلك، فحينئذٍ

---

(١) ورد بعض هذه المعاني في إشعياء (٥٢/ ١-١٣).

هو نظير ما في التوراة من قوله: «جاء الله من طور سينا، وأشرف من ساعير، واستعلن من جبال فاران»(١).

ومعلومٌ أنه ليس في هذا ما يدلُّ على أن الله حالٌّ في موسى بن عمران، ومتحدٌ به، ولا أنه حالٌّ في جبل فاران، ولا أنه متحدٌ بشيءٍ من طور سينا، ولا ساعير، وكذلك هذا اللفظ لا يدل على أنه حالٌّ في المسيح، ومتحدٌ به، إذ كلاهما سواء، وإذا قيل: المراد بذلك قربه ودنوه كتكليم موسى، وظهور نوره وهداه وكتابه ودينه، ونحو ذلك من الأمور التي وقعت، قيل: وهكذا في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ...

وأما قوله: «ويبصرون جميع أهل الأرض خلاص الله؛ لأنه يمشي معهم وبين يديهم، ويجمعهم إله إسرائيل»، فمثل هذا في التوراة في غير موضعٍ، ولم يدلَّ ذلك على اتحاده بموسى، ولا حلوله فيه، كقوله في السِّفر الخامس من التوراة: «يقول موسى لبني إسرائيل: لا تهابوهم ولا تخافوهم؛ لأن الله ربكم السائر بين أيديكم هو يحارب عنكم»(٢)...

وفي السِّفر الرابع من الفصل الثالث عشر: «إن أصعدت هؤلاء من بينهم بقدرتك، فيقولون لأهل هذه الأرض الذين سمعوا أنك الله فيما بين هؤلاء القوم، يرونه عينًا بعينٍ، وغمامك يقيم عليهم، وبعمود غمامٍ يسير بين أيديهم نهارًا، وبعمود نار ليلًا»(٣).

قالوا: وقال زكريا النبي: «افرحي يا بيت صهيون؛ لأنِّي آتيك وأحلُّ فيك

---

(١) تثنية (٣٣/ ٢).

(٢) ينظر تثنية (١/ ٢٩).

(٣) ينظر عدد (١٤/ ١٣).

وأترايا، قال الله: ويؤمن بالله في ذلك اليوم الأمم الكثيرة، ويكونون له شعبًا واحدًا، ويحل هو وهم فيك، وتعرفين أني أنا الله القوي الساكن فيك، ويأخذ الله في ذلك اليوم الملك من يهوذا، ويملك عليهم إلى الأبد»(١).

فيقال: مثل هذا قد ذكر عندهم عن إبراهيم وغيره من الأنبياء أنَّ الله تجلَّى له، واستعلن له، وترايا له، ونحو هذه العبارات، ولم يدلَّ ذلك على حلوله فيه، واتحاده به، وكذلك إتيانه، وهو لم يقل: إنِّي أحلُّ في المسيح، وأتَّحد به، وإنما قال عن بيت صهيون: «آتيك وأحل فيك»، كما قال مثل ذلك عندهم في غير هذا، ولم يدلَّ على حلوله في بشرٍ.

وكذلك قوله: «وتعرفين أنِّي أنا الله القوي الساكن فيك»، لم يرد بهذا اللفظ حلوله في المسيح، فإنَّ المسيح لم يسكن بيت المقدس وهو قوي، بل كان يدخلها وهو مغلوبٌ مقهورٌ حتى أخذ وصلب أو شبهه، والله سبحانه إذا حصلت معرفته والإيمان به في القلوب، اطمأنت وسكنت، وكان بيت المقدس لما ظهر فيه دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد رفعه حصل فيه من الإيمان بالله ومعرفته ما لم يكن قبل ذلك(٢).

قالوا: وقال في السِّفر الثالث من أسفار الملوك: «والآن يا رب إله إسرائيل

---

(١) في زكريا (٢/ ١٠-١٢): «ترنمي وافرحي يا بنت صهيون؛ لأني هأنذا آتي وأسكن في وسطك، يقول الرب ١١: فيتصل أمم كثيرة بالرب في ذلك اليوم، ويكونون لي شعبًا، فأسكن في وسطك، فتعلمين أن رب الجنود قد أرسلني إليك. ١٢ والرب يرث يهوذا نصيبه في الأرض المقدسة، ويختار أورشليم بعد».

(٢) (١/ ٣٦٤).

لتحقق كلامك لداود؛ لأنه حق أن يكون إنه سيسكن الله مع الناس على الأرض، اسمعوا أيتها الشعوب كلكم، ولتنصت الأرض، وكل مَن فيها، فيكون الرَّبُّ عليها شاهدًا من بيته القدوس، ويخرج من موضعه وينزل ويطأ على مشاريق الأرض في شأن خطيئة بني يعقوب هذا كله»(١).

فيُقَال: هذا السِّفر يحتاج إلى أن يثبت أن الذي تكلم به نبيٌّ، وأن ألفاظه ضبطت وترجمت إلى العربية ترجمةً مطابقةً، ثم بعد ذلك يقال فيه ما يقال في أمثاله من الألفاظ الموجودة عندهم، وليس فيها ما يدلُّ على اتحاده بالمسيح، فإنَّ قوله: «إن الله سيسكن مع الناس في الأرض»، لا يدل على المسيح، إذ كان المسيح لم يسكن مع الناس في الأرض، بل لما أظهر الدعوة لم يبقَ في الأرض إلا مدة قليلة، ولم يكن ساكنًا في موضع معين، وقبل ذلك لم يظهر عنه شيء من دعوى النبوة فضلًا عن الإلهية، ثم إنه بعد ذلك رفع إلى السماء، فلم يسكن مع الناس في الأرض.

وأيضًا، فإذا قالوا: سكونه هو ظهوره في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ. قيل لهم: أما الظهور الممكن المعقول؛ كظهور معرفته ومحبته ونوره وذكره وعبادته، فهذا لا فرق فيه بين المسيح وغيره، وحِينَئِذٍ فليس في هذا اللفظ ما يدل على أن هذا السكون كان بالمسيح دون غيره، وإن كان بالمسيح، فليس هذا من خصائصه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليس في ظهوره فيه، أو حلول معرفته ومحبته ومثاله العلمي ما يوجب اتِّحاد ذاته به.

---

(١) ينظر أخبار الأيام الثاني (٦/ ١٧-٢٢).

وأما قوله: «فيكون الرَّبُّ عليها شاهدًا»، فيقال: أولًا: شهود الله على عباده لا يستلزم حلوله، أو اتحاده ببعض مخلوقاته، بل هو شهيد على العباد بأعمالهم كما قال: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، ولفظ النص: «ولتنصت الأرض، وكل من فيها فيكون الرب عليها شاهدًا»، وهذا كما في التوراة: أن موسى لمَّا خاطب بني إسرائيل أشهد عليهم[(١)].

وكذلك محمد ﷺ كان يقول لأمته لما بلغ الناس بقول: «**أَلَا هَلْ بَلَّغت؟**»، فيقولون: نعم، فيقول: (**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[(٢)]، وحينئذٍ فليس في هذا تعرُّض لكون المسيح هو الله، وقد يقال أيضًا: ليس فيه أن المراد بلفظ الرب هنا هو الله، ولفظ الرب يراد به السيد المطاع، وقد غَايَر بين اللفظين، فقال هناك: إنه سيسكن الله مع الناس، فقال: فيكون الرَّبُّ عليها شاهدًا، والأنبياء يشهدون على أممهم، كما قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥].

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ

---

(١) ينظر الخروج (٢٤/ ٨).

(٢) البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩).

شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النحل: ٨٩]، وحينئذٍ فيكون الرب الشهيد هو المسيح الذي هو الناسوت، وهو الذي جاء من بيت المقدس، وخرج من موضعه، ونزل ووطئ على الأرض من أجل خطيئة بني يعقوب، فإنَّهم لما أخطأوا وبدلوا، أرسل الله إليهم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعوهم إلى عبادة الله وحده وطاعته، فمَن آمن به كان سعيدًا مستحقًّا للثواب، ومَن كفر به كان شقيًّا مستحقًّا للعذاب.

قالوا: وقال ميخا النبي: «وأنت يا بيت لحم قرية يهودا بيت أفراتا، يخرج لي رئيس الذي يرعى شعبي إسرائيل، وهو من قبل أن تكون الدنيا، لكنه لا يظهر إلا في الأيام التي تلده فيها الوالدة، وسلطانه من أقاصي الأرض إلى أقاصيها»(١).

والجواب: أن عامة ما يذكرونه عن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- حجة عليهم لا لهم، كما ذكروه عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في أمر التثليث، فإنه حجةٌ عليهم لا لهم...

وهذا مثل قوله في هذه النبوة: «منك يخرج لي رئيس»، فهذا صريحٌ في أن هذا الذي يخرج هو رئيس الله ليس هو الله، بل هو رئيسٌ له كسائر الرؤساء الذين لله، وهم الرسل والأنبياء المُطَاعون مثل: داود، وموسى، وغيرهما، ولهذا قال: «الذي يرعى شعبي إسرائيل»، ولو كان هو، لكان هو راعي شعب نفسه.

وأما قوله: «وهو من قبل أن تكون الدنيا»، فهذا مثل «قول النبي ﷺ في حديث ميسرة الفجر، وقد قيل له: يا رسول الله، متى كنت نبيًّا؟ قال: **(وآدم بين الروح والجسد)**»(٢).

---

(١) ينظر ميخا (٥/ ٢-٤).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٠٥٩٦).

وفي لفظ: «متى كتبت نبيًّا؟ قال: (وآدم بين الروح والجسد)».

وفي (مسند الإمام أحمد)[(١)]، عن العرباض بن سارية، عن النبي ﷺ أنه قال: **«إنِّي عند الله لمكتوبٌ: خاتم النبيين، وإن آدم لَمُنْجدلٌ في طينته، وسأنبئكم بأول أمري، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي، رأت حين ولدتني أنه خرج منها نورٌ أضاء له قصور الشام»**.

فقد أخبر ﷺ أنه كان نبيًّا، وكتب نبيًّا وآدم بين الروح والجسد، وأنه مكتوب عند الله: خاتم النبيين وآدم منجدل في طينته، ومراده ﷺ أن الله كتب نبوته، وأظهرها وذكر اسمه، ولهذا جعل ذلك في ذلك الوقت بعد خلق جسد آدم، وقبل نفخ الروح فيه، كما يكتب رزق المولود وأجله وعمله، وشقي هو أو سعيد بعد خَلْق جسده، وقبل نفخ الروح فيه.

وكذلك قول القائل في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وهو من قبل أن تكون الدنيا»، فإنه مكتوب مذكور من قبل أن تكون الدنيا، فإنه قد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عمرٍو، عن النبي ﷺ أنه قال: **«قدَّر الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يخلقَ السَّماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»**[(٢)].

وفي (صحيح البخاري)[(٣)]، عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ أنه قال: **«كان الله ولم يكن شيءٌ قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيءٍ، ثم خلق السماوات والأرض»**، وهو قد قال: «قبل أن تكون الدنيا»، ولم يقل: إنه

---

(١) مسند أحمد (١٧١٦٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٥٣).

(٣) صحيح البخاري (٣١٩١).

كان قديمًا أزليًّا مع الله لم يزل، كما يقول النصارى: إنه صفة الله الأزليَّة، بل وقت ذلك بقوله: «قبل أن تكون الدنيا»، ولا يحسن أن يقال في رب العالمين: كان قبل أن تكون الدنيا؛ فإنه سبحانه قديم أزلي، ولا ابتداء لوجوده، فلا يوقت بهذا المبدأ، لا سيما إن أريد بكون الدنيا عمارتها بآدم وذريته، فإن الدنيا قد لا تدخل فيها السماوات والأرض، بل يجعل من الآخرة، وأرواح المؤمنين في الجنة في السماوات، ويراد بالدنيا الحياة الدنيا أو الدار الدنيا.

ولهذا قال: لكنه لا يظهر إلا في الأيام التي تلده فيها الوالدة كما يظهر غيره من الأنبياء بعد أن تلده أُمُّه، والوالدة إنما ولدت الناسوت، وأمَّا اللاهوت فهو عندهم مولودٌ من الله القديم الأزلي، وإذا قالوا: «فهي ولدت اللاهوت مع الناسوت»، كان هذا معلوم الفساد من وجوهٍ كثيرةٍ.

وإذا قيل: لِمَ خص عيسى المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالذِّكر؟ قيل: كما خص محمد ﷺ بالذكر؛ لأن أمر المسيح كان أظهر وأعظم ممَّن قبله من الأنبياء بعد موسى، وكذلك أمر محمدٍ ﷺ كان أظهر وأعظم من أمر جميع الأنبياء قبله، وإذا عظم الشيء، كان ظهوره في الكتاب أعظم.

وظنَّ بعض النَّصارى أن المراد بذلك وجود ذات المسيح، يضاهي ظن طائفةٍ من غلاة المنتسبين إلى الإسلام وغيرهم الذين يقولون: إن ذات النبي ﷺ كانت موجودةً قبل خلق آدم، ويقولون: إنه خُلق من نور رب العالمين، ووجد قبل خلق آدم، وأن الأشياء خلقت منه حتى قد يقولون في مُحمَّدٍ ﷺ من جنس قول النصارى في المسيح، حتى قد يجعلون مدد العالم منه، ويروون في ذلك

أحاديث، وكلها كذب، مع أن هؤلاء لا يقولون: إن المتقدم هو اللاهوت، بل يدعون تقدم حقيقته وذاته، ويشيرون إلى شيءٍ لا حقيقة له، كما تشير النصارى إلى تقدم لاهوت اتحد به لا حقيقة له...

وفي الجملة: ما يخبر عن المسيح أنه كان قبل أن تكون الدنيا بمنزلة ما عند أهل الكتاب، عن سليمان أنه قال: «كنت قبل أن تكون الدنيا»(١)، ثم قد ثبت باتفاق الخلائق أن سليمان لم يكن اللاهوت متحدًا به، فعلم أن مثل هذا الكلام لا يوجب اتحاد اللاهوت به، بل المسلمون يعدلون في القول، ويفسرون كلام الله في كتبه بعضه ببعضٍ، ويجعلون كلامه يصدق بعضه بعضًا، لا يناقض بعضه بعضًا...

قالوا: وقال حبقوق النبي: «إن الله في الأرض يتراءى، ويختلط مع الناس، ويمشي معهم»(٢).

وقال أرميا النبي: «الله بعد هذا في الأرض يظهر، وينقلب مع البشر، فيقول: أنا الله رب الأرباب».

والجواب: أن هذا يحتاج إلى تثبيت نُبوَّة هذين، وإلى ثبوت النقل عنهما، وثبوت الترجمة الصحيحة المطابقة، وبعد هذا يكون حكم هذا الكلام حكم نظائره؛ ففي التوراة ما هو من هذا الجنس، ولم يدلَّ ذلك باتفاق المسلمين

---

(١) في سفر الأمثال (٨/ ٢٧-٢٩): لما ثبت السماوات كنت هناك أنا، لما رسم دائرة على وجه الغمر. ٢٨ لما أثبت السحب من فوق، لما تشددت ينابيع الغمر. ٢٩ لما وضع للبحر حده، فلا تتعدَّى المياه تخمه، لما رسم أسس الأرض.

(٢) في حبقوق (٣/ ٦،٥): «قدامه ذهب الوبأ، وعند رجليه خرجت الحمى. ٦ وقف وقاس الأرض، نظر فرجف الأمم، ودكت الجبال الدهرية، وخسفت آكام القدم، مسالك الأزل له».

واليهود والنصارى على أن الله حلَّ في موسى، ولا في غيره من أنبياء بني إسرائيل، بل قوله: «يتراءى»، هو بمنزلة يتجلى ويظهر.

وقد ذكر في التوراة أنه تجلى، وتراءى لإبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام من غير أن تكون ذاته حلَّت بأحَدٍ منهم، وما في القلوب من المثال العلمي وبمعرفته ومحبته وذكره يطلق عليه ما يطلق على المعروف بنفسه؛ لعلم الناس أن المراد به المثال العلمي، وما في القلوب من معرفة المعروف ومحبته ليس المراد به نفس المعروف المحبوب.

فإذا قال القائل: أنت -والله- في قلبي، أو في سويداء قلبي، أو قال له: والله ما زلت في قلبي، وما زلت في عيني، ونحو ذلك علم جميع الناس أنه لم يرد ذاته، فإذا رأوا مَن يذكر عالمًا مشهورًا أو شيخًا مشهورًا، فيذكر علمه، وعمله، ويحيي ذلك بين الناس، قالوا: قد صار فلان، يعني: المعروف المذكور، عندنا وبين أظهرنا لعلم المخاطبين بالمراد...

وفي الحديث الصحيح، عن النبي ﷺ: «**يقول الله: عبدي مرضتُ فلم تَعُدني، فيقول العبد: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين، فيقول: أما علمتَ أن عبدي فلانًا مرض فلم تَعُده، أما لو عُدْته لوجدتني عنده، عبدي جعتُ فلم تطعمني، فيقول: يا رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟، فيقول: أما علمتَ أن عبدي فلانًا جاع، فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي، عبدي، عطشت فلم تسقني، فيقول: رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمتَ أن عبدي استسقاك فلم تسقه، أما لو سقيته لوجدت ذلك عندي**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٩).

فجعل جوع عبده جوعه، ومرضه مرضه؛ لأنَّ العبد موافقٌ لله فيما يحبه ويرضاه، ويأمر به، وينهى عنه، وقد عرف أن الرَّبَّ نفسه لا يجوع، ولا يمرض، ومعلومٌ أنَّ وَصْفه بالجوع والمرض أبعد من وصفه بالمشي بين الناس، والاختلاط بهم، ولهذا نظائرُ كثيرةٌ موجودةٌ في كلام الأنبياء، وغير الأنبياء من الخاصة والعامة.

ولا يفهم عاقلٌ من ذلك أن ذات المذكور اتَّحدت بالآخر، أو حلَّت فيه إلا مَن هو جاهلٌ كالنصارى، والناس يرون الشمس، والقمر، والكواكب، وغير ذلك في الماء الصافي، وفي المرآة المجلوة، ونحو ذلك، ويقول أحدهم: رأيت وجه فلانٍ في هذه المرآة، ورأيت الشمس والقمر في المرآة أو في الماء، مع علم كلِّ عاقلٍ أن نفس الشمس والقمر وغيرهما لم تحلَّا؛ لا في المرآة، ولا في الماء، ولكن هذه رؤية مقيدة رآها بواسطة المثال الذي تمثل في المرآة أو الماء؛ سواء كان ذلك شعاعًا منعكسًا أو غير ذلك.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٥٢]، وإنما في الزبر ذكر أعمالهم، وكتابة ذلك، ويقال في كتابة الوثائق: هذا ما أصدق فلان، وهذا ما يقاضي عليه فلان وفلان، ويقال: هذا ذكر ما أصدق فلان أو يقاضي عليه فلان وفلان، فيشار إلى الموجود تارةً، وإلى ذكره تارةً.

ومعلومٌ أن الموجود في الكتاب ذكره لا عينه، فما قيل في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمثاله من هذا فهو حقٌّ، لكن لا اختصاص للمسيح بهذا، وإذا كان مثل هذا الكلام كثيرًا موجودًا في كلام الأنبياء وغيرهم، بل هو المعروف في كلامهم، ولا يوجد قط

على أحدٍ من الأنبياء أنه جعل ذات الله في قلب أحدٍ من البشر علم أن النَّصارى تركوا المحكم من كلام الأنبياء عليهم السلام، وتمسَّكوا بالمتشابه كأمثالهم من الضلال، فاشتبه عليهم المعلوم بالقلوب، المذكور بالألسن، بالموجود في نفسه.

قالوا: وقال أشعيا النبي: «ها هي العذراء تحبل وتلد ابنًا، ويدعى اسمه عمانويل»(١)، وعمانويل: كلمة عبرانية تفسيرها بالعربي: «إلهنا معنا»، فقد شهد النبي أن مريم ولدت اللاهوت المتحد بالناسوت كلاهما، فيقال: ليس في هذا الكلام أن مريم ولدت اللاهوت المتحد بالناسوت، وأنها ولدت خالق السماوات والأرض، بل هذا الكلام يدلُّ على أن المولود ليس هو خالق السماوات والأرض، فإنه قال: تلد ابنًا، وهذا نكرة في الإثبات كما يقال في سائر النساء: إن فلانة ولدت ابنًا، وهذا دليلٌ على أنه ابنٌ من البنين، ليس هو خالق السماوات والأرضين.

ثم قال: ويدعى اسمه «عمانويل»، فدلَّ بذلك على أن هذا اسمٌ يوضع له، ويسمى به كما يسمي الناس أبناءهم بأسماء الأعلام، أو الصفات التي يُسمُّونهم بها، ومن تلك الأسماء ما يكون مرتجلًا ارتجلوه، ومنها ما يكون جملة يحكونها، ولهذا كثيرٌ من أهل الكتاب يسمي ابنه: عمانويل، ثم منهم من يقول: العذراء المراد بها غير مريم، ويذكرون في ذلك قصةً جرت، ومنهم من يقول: بل المراد بها مريم.

وعلى هذا التقدير فيكون المراد أحد معنيين: إما أنه يريد أن إلهنا معنا

---

(١) ينظر إشعيا (٧/ ١٤).

بالنصر والإعانة، فإن بني إسرائيل كانوا قد خذلوا بسبب تبديلهم، فلما بعث المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحق، كان الله مع مَن اتبع المسيح، والمسيح نفسه لم يبقَ معهم، بل رُفع إلى السماء، ولكن الله كان مع مَن اتبعه بالنصر والإعانة، كما قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وهذا أظهر، وإما أن يكون يسمى المسيح إلهًا، كما يقولون: إنه يسمى موسى إله فرعون، أي: هو الآمر الناهي له، المسلط عليه، وقد حرف بعضهم معنى هذه الكلمة، فقال: معناها: الله معنا. فقال: من ردَّ عليهم من علمائهم يقال لهم: أهذا هو القائل: أنا الرب لا إله غيري، أنا أُميتُ، وأنا أُحْيي، أم هو القائل لله: إنك أنت الإله الحق وحدك، والذي أرسلت يسوع المسيح؟(١).

وإذا كان الأول باطلًا، والثاني هو الذي شهد به الإنجيل، وجب تصديق الإنجيل، وتكذيب من كتب في الإنجيل أن «عمانويل» وتأويله «الله معنا»، بل تأويل عمانويل «معنا إله»، وليس المسيح مخصوصًا بهذا الاسم، بل عمانويل اسمٌ يسمى به النصارى، واليهود من قبل النصارى، وهذا موجود في عصرنا هذا، في أهل الكتاب من سمَّاه أبوه عمانويل يعني «شريف القدر»، وكذلك السريان أكثرهم يسمون أولادهم عمانويل.

قلت: ومعلوم أنَّ الله مع المتقين والمحسنين والمقسطين بالهداية، والنصر،

---

(١) في يوحنا (١٧-٣): «وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته».

والإعانة، ويقال للرجل في الدعاء: الله معك، فإذا سمي الرجل بقول: «الله معك»، كان هذا تبركًا بمعنى هذا الاسم، وإذا قيل: إن المسيح سُمِّي: «الله معنا» أو «إلهنا معنا»، ونحو ذلك، كان ذلك دليلًا على أن الله مع من اتبع المسيح وآمن به، فيكون الله هاديه وناصره ومُعينه.

قالوا: وقال أشعيا أيضًا: «إن غلامًا ولد لنا، وابنًا أعطيناه، الذي رياسته على عاتقيه وبين منكبيه، ويدعى اسمه ملكًا، عظيم المشية، مسيرًا عجيبًا، إلهًا قويًّا مسلطًا رئيس السلامة في كل الدهور، وسلطانه كامل ليس له فناء»(١).

فيقال: ليس في هذه البشارة دلالةٌ بينةٌ أن المراد به المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولو كان المراد به المسيح، لم يدلَّ على مطلوبهم، بل قد يقال: المراد بها محمد ﷺ، فإنه الذي رياسته على عاتقيه وبين منكبيه من جهتين: من جهة خاتم النُّبوة على بعض كتفيه.

وهو علامةٌ من أعلام النُّبوة الذي أخبرت به الأنبياء، وعلامة ختمهم، ومن جهة أنه بعث بالسيف الذي يتقلَّد به على عاتقه ويرفعه إذا ضرب به على عاتقه، ويدل على ذلك قوله: «مسلط رئيس قوي السلامة»، وهذه صفة محمد ﷺ المؤيد المنصور المسلط رئيس السلامة، فإن دينه الإسلام، ومن اتبعه سَلِمَ من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، ومن استيلاء عدوِّه عليه.

---

(١) في إشعياء (٩/ ٦، ٧): «لأنه يولد لنا ولدٌ، ونعطى ابنًا، وتكون الرياسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيبًا، مشيرًا، إلهًا قديرًا، أبًا أبديًّا، رئيس السلام. ٧ لنمو رياسته، وللسلام لا نهاية على كرسي داود، وعلى مملكته، ليثبتها ويعضدها بالحقِّ والبرِّ من الآن إلى الأبد».

والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يسلط على أعدائه، كما سلط محمد ﷺ، بل كان أعداؤه بحيث يقدرون على صلبه، وعند النصارى قد صلبوه، وعند المسلمين ألقى الله شبهه على غيره، فصلب ذاك المشبه، فبهذه الطريق دفع الله الصلب عنه لا بقهر أعدائه، وإهلاكهم وذلهم له، كما نصر الله محمدًا ﷺ على أعدائه. وقال: «في كل الدهور سلطانه كامل ليس له فناء»، وهذا صفة خاتم الرسل الذي لا يأتي بعده نبيٌّ ينسخ شرعه، وسلطانه بالحجة واليد، كامل لا يحتاج فيه إلى الاستعانة بشرعٍ آخر، وشرعه ثابت باقٍ إلى آخر الدهر...

قالوا: وقال أشعيا أيضًا: «يخرج عصاه من بيت يسي ينبت نور منها، ويحل فيه روح القدس روح الله، روح الحكمة والفهم، روح الحيل والقوة، روح العلم وخوف الله، وفي تلك الأيام يكون أصل يسي آية للأمم، وبه يؤمنون، وعليه يتوكلون، ويكون لهم التاج والكرامة إلى دهر الداهرين»(١).

والجواب: أنَّ هذا الكلام بعد المطالبة بصحة نقله عن النبي، وصحة الترجمة له باللسان العربي هو حجة على النصارى لا لهم، فإنه لا يدل على أن المسيح هو خالق السماوات والأرض، بل يدل على مثل ما دل عليه القرآن من أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أيد بروح القدس، فإنه قال: «ويحل فيه روح القدس، وروح الله، وروح الحكمة والفهم، وروح الحيل والقوة، روح العلم وخوف الله»، ولم يقل: تحل فيه حياة الله، فضلًا عن أن يقول: حلَّ فيه الله أو اتحد به، ولكن جعل روح القدس هي روح الله، وهي روح الحكمة والفهم والعلم، وهي روح الحيل والقوة.

---

(١) ينظر إشعياء (١١/ ١-١١).

كما أن عندهم في التوراة: «أن الذين كانوا يعملون في قبة الزمان حلَّت فيهم روح الحكمة روح الفهم، روح العلم»(١)، فهي ما يحصل به الهدى والنصر، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥]، فقال: هي روح الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢]، فما أنزله يسمى هدى الله، وروح الله، ووحي الله، ونور الله، ونحو ذلك(٢).

جواب مجمل على البشارات ونحوها:

قالوا: ومثل هذا القول في كتب الله المنزلة على أفواه الأنبياء والرسل شيء كثير عند النصارى جميعهم، المختلفة ألسنتهم، المفرقين في سبعة أقاليم العالم، المتمسكين بدين النصرانية- قول واحد ونص واحد على ما تسلموه من الحواريين حين أنذروهم وردوهم عن عبادة الأصنام إلى معرفة الله تعالى، سلموها إليهم، كل أُمَّةٍ بلسانها، وهي على هيئتها إلى يومنا هذا.

والجواب على هذا من وجوهٍ:

أحدها: أن القول في سائر ما يذكرونه من النصوص كما تقدَّم، وقد تكلم

---

(١) في الخروج (١٣/ ١-٥): «(١) وكلم الرب موسى قائلًا: (٢) انظر، قد دعوت بصلئيل بن أوري بن حور من سبط يهوذا باسمه، (٣) وملأته من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة، (٤) لاختراع مخترعات ليعمل في الذهب والفضة والنحاس، (٥) ونقش حجارة للترصيع، ونجارة الخشب، ليعمل في كل صنعة».

(٢) (٣/ ٣٥٣).

على هذا من تكلم عليه من علماء النصارى الذين هداهم الله، وبيَّنوا ما وقع في ذلك من تحريفهم لمعاني الكتب التي عندهم، وذكروا ممَّا عندهم من النصوص الصريحة بأن المسيح عبد الله ليس هو الله ما يتبيَّن به بطلان قولهم، وأنهم ممَّن تركوا المحكم من الآيات، واتبعوا المتشابه، ولهذا أنزل الله فيهم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

وهذا كقول المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا سئل عن علم الساعة، فقال: «لا يعلمها إنسانٌ، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن إلا الأب فقط»(١)، فَنفَى عن نفسه علم الساعة، وهذا يدلُّ على شيئين:

على أن اسم الابن إنما يقع على الناسوت دون اللاهوت، فإنَّ اللاهوت لا يجوز أن ينفى عنه علم الساعة، ويدل على أن الابن لم يكن يعلم ما يعلمه الله، وهذا يبطل قولهم بالاتحاد، فإنه لو كان الاتحاد حقًّا كما يزعمون، لَكَان الابن يعلم ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر عليه، فإنه هو الله عندهم، والناسوت لا يتميَّز عندهم عن اللاهوت فيما يوصف به المسيح من كونه عالمًا قادرًا يحيي ويميت.

وقال المسيح لتلاميذه: «آمنوا بالله، وآمنوا بي»(٢)، وقال أيضًا: «مَن يؤمن بي، فليس يؤمن بي فقط، بل وبالذي أرسلني»(٣)، وهم يذكرون أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ

(١) في متَّى (٢٤/ ٣٦): «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة، فلا يعلم بهما أحد، ولا ملائكة السماوات، إلا أبي وحده».

(٢) في متَّى (٢٤/ ٣٦): «لا تضطرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي».

(٣) ورد نحو هذا اللفظ في غير موضعٍ، منها متَّى (١٠/ ٤٠)، مرقس (٩/ ٣٧)، لوقا (٩/ ٤٨).

استصرخ الله قائلًا: «إلهي إلهي، انظر لماذا تركتني وتباعدت عن خلاصي»[(١)].

الوجه الثاني: إن هذا كذب ظاهر، فإن كثيرًا من الألسنة ليس عند أهله إنجيلًا قديمًا، ومن ذلك لسان العرب، فإن العرب النصارى كثيرون قبل الإسلام، ولا تَعرف توراةً، ولا إنجيلًا، ولا نبوات عربية، إلا ما عرب من النسخ العبرية والرومية والسريانية.

ونحن نطالبهم بهذه الكتب التي هي بالعربية الَّتي في زمن الحواريين، أين هي؟ ومَن رآها؟ ولو قُدِّر أنها كانت بالعربية، فهذه النسخ اليوم العربية الموجودة بأيدي الناس هي ممَّا عرب ممَّا بأيديهم، وحينئذٍ فلا تعرف صحتها إن لم تعرف صحة الترجمة، ويثبت نقل تلك عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهكذا القول في سائر الألسن...

الوجه الثالث: أن الحواريين ليسوا معصومين، بل يجوز على أحدهم الغلط في بعض ما ينقله، وما ينقل من خوارقهم للعادات، فمن الناس مَن يكذبه، ومنهم من يصدقه، ولا دلالة فيه على عصمتهم إلا أن يثبت أَنَّهم ادعوا النُّبوة، وأقاموا المعجزات الدالة على نبوتهم، ولم يكن الأمر كذلك، وإلا فالصَّالحون إذا كانت لهم كرامات، لم تدلَّ كراماتهم على أنهم معصومون كالأنبياء، بل يجوز عليهم الغلط مع ثبوت كراماتهم، والحواريون عندهم ليسوا بأنبياء، وإن سمَّوهم رسلًا، فهم رسل المسيح، لا رسل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

---

(١) في متى (٢٧/ ٤٦)، مرقس (١٥/ ٣٤)، واللفظ له: وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوتٍ عظيمٍ قائلًا: «إلوي، إلوي، لما شبقتني؟»، الذي تفسيره: إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟

الوجه الرابع: أنَّ في هذه الكتب التي بأيديهم ما يناقض قولهم من الأقوال الصريحة الكثيرة ما هو أكثر وأصرح ممَّا احتجوا به على قولهم، والواجب حينئذٍ التمسك بالصريح المحكم، ورد المتشابه إليه، ولا يجوز التمسك بالمتشابه، ورد المحكم إليه.

الوجه الخامس: أنَّ جميع ما عندهم من النصوص الصحيحة لا يدلُّ على مذهبهم ألبتة نصًّا، بل غاية ما يدعون فيها الظهور، وهم منازعون في ذلك حتى يقال: بل الظاهر فيما يحتجون به خلاف قولهم. ومعلومٌ أن أصول الإيمان التي يؤمن أهل الإيمان بها، ويكفرون مَن خالفها لا بد أن تكون معلومةً عندهم عن الأنبياء، والعلم لا يحصل بلفظٍ محتملٍ، فعلم أنه لا علم عندهم عن الأنبياء عليهم السلام، وهو محل النزاع[١].

ثالثًا: دعواهم أن ذكر الأقانيم موجود في التوراة وكتب الأنبياء:

الموضع الأول:

قالوا: وقال الله عندما أخسف بسدوم وعامورة، قال في التوراة: «وأمطر الرب من عند الرب من السماء على سدوم وعامورة نارًا وكبريتًا»[٢]، أوضح بهذا ربوبية الأب والابن.

والجواب: أنَّ احتجاجهم بهذا من أبطل الباطل لوجوهٍ:

أحدها: أن تسمية الله علمه وحياته ابنًا وربًّا تسمية باطلة، لم يسم موسى في التوراة شيئًا من صفات الله باسم الابن، ولا باسم الأب، فدعوى المُدَّعي أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

---

(١) (٣/ ٤١٥).

(٢) في تكوين (١٩/ ٢٤): «فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الرب من السماء».

أراد بالرب شيئًا من صفات الله، أو أنَّ له صفة تُسمَّى: ابنه- كلام باطل.

الثاني: أنه لو قُدِّر أنَّ صفة الله تسمى بذلك، فمعلوم أن الذي أمطر هو الذي كان المطر عنده، لم يكن المطر عند أحدهما، والآخر هو الممطر، كما لا يجوز أن يُقَال: خلق أحدهما من شيءٍ عند الآخر، ولا أنزل أحدهما المطر من سحاب الآخر.

الثالث: أنَّ الصفة لا تفعل شيئًا، ولا عندها شيء، بل هي قائمة بالموصوف، والذات المتصفة بالصفة هي التي تفعل، وعندها يكون ما يكون.

الرابع: أن هذا بمنزلة قوله: «أمطر الرب من عنده»، لكن جعل الاسم الظاهر موضع المضمر إظهارًا؛ لأن الأمر له وحده في هذا وهذا، ومثل هذا في القرآن كقوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١، ٢] ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١- ٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]... والله هو المنزل، ولم يقل: مني.

الموضع الثاني:

قالوا:... وقال داود في الزبور في المزمور المائة والتسعة قائلًا: «قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك تحت موطأ قدميك»[(١)].

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: أنه لا يجوز أن يراد بـ«ربي» شيء من صفات الله، فإنه لم يُسمِّ داود ولا أحد من الأنبياء شيئًا من صفات الله ربًّا ولا ابنًا، ولا قال أحدٌ لشيءٍ من صفات الله: يا رب، ارحمني، ولا قال لعلم الله أو كلامه أو قدرته: يا رب، وإذا

---

(١) مزامير (١١٠/ ١).

لم يكونوا يُسمون صفات الله ربًّا، ولو كان المسيح صفةً من صفاته، لم يجز أن يكون هو المراد بلفظ الرَّبِّ، فكيف وناسوته أبعد عن اللاهوت أن يراد بذلك؟ فعلم أنهم لم يريدوا بذلك لا اللاهوت، ولا الناسوت.

الثاني: أنه قال: لربي، وهذا يراد به السيد، كما قال يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣]، وقال لغلام الملك: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢].

ولهذا ذكر الأول مطلقًا، والثاني مقيدًا، فيكون المعنى: وقال الله لسيدي، قال رب العالمين لسيدي، وسمَّاه سيدًا تواضعًا من داود، وتعظيمًا له؛ لاعتقاده أنه أفضل منه.

الموضع الثالث:

قالوا:... وقال في المزمور الثاني: «الذي قال لي: أنت ابني، وأنا اليوم ولدتك»(١).

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: أنَّ هذا ليس فيه تسمية صفات الله علمه، وحياته ابنًا، ولا فيه ذكر الأقانيم الثلاثة، فليس فيه حجة لشيء مما تدعونهُ.

والثاني: أن هذا حجة عليهم، فإنه هو سمَّى داود ابنه، فعلم أنَّ اسم الابن ليس مختصًّا بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل سمى غيره من عباده ابنًا، فعلم أن اسم الابن ليس اسمًا لصفاته، بل هو اسمٌ لمن ربَّاه من عبيده، وحينئذٍ فلا تكون تسمية

---

(١) مزامير (٢/ ٧).

المسيح ابنًا لكون الرب أو صفته اتحدَّت به، بل كما سمَّى داود ابنًا، وكما سمى إسرائيل ابنًا، فقال: «أنت ابني بكري»...

الثالث: أن قوله: «وأنا اليوم ولدتك»، يدل على حدوث هذا الفعل، وعندهم تولد الكلمة التي يسمونها الابن من الأب قديم أزلي، كما قالوا في أمانتهم: «وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور نور من نور إله حق من إله حق من جوهر أبيه، مولود غير مخلوقٍ، مساو الأب في الجوهر الذي به كان كل شيءٍ»، فهذا الابن عندهم مولودٌ من الأب قبل كل الدهور، وذاك ولد في يوم خاطبه بعد خلق داود، فلم يكن في هذا المحدث دليلٌ على وجود ذلك القديم.

الوجه الرابع: أنه إذا كان الأب في لغتهم هو الرَّب الذي يربي عبده، أعظم ممَّا يربي الأب ابنه، كان معنى لفظ الولادة مما يناسب معنى هذه الأُبوَّة، فيكون المعنى: اليوم جعلتك مرحومًا مصطفى مختارًا، والنصارى قد يجعلون الخطاب الذي هو ضميرٌ لغير المسيح يراد به المسيح، فقد يقولون: المراد بهذا المسيح.

وهذا باطلٌ لا يدل اللفظ عليه، وبتقدير صحته، فهو يدلُّ على أن المسيح هو الناسوت المخلوق، وهو المسمى بالابن، لقوله: «وأنا اليوم ولدتك»، واللاهوت عندهم مولود من قبل الدهور، وحينئذٍ فإن كان المراد به يوم ولادته، فالمعنى خلقتك، وإن كان يوم اصطفاه، فالمراد اليوم اصطفيتك وأحببتك، كأنه قال: اليوم جعلتك ولدًا وابنًا على لغتهم...

الموضع الرابع:

قالوا:... في السِّفر الثاني من التوراة: وكلم الله موسى من العليقة قائلًا: «أنا

إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب»[١]، ولم يقل: أنا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، بل كرر اسم الإله ثلاث دفوعٍ قائلًا: أنا إله وإله؛ لتحقق مسألة الثلاث أقانيم في لاهوته.

والجواب: أنَّ الاحتجاج بهذا على الأقانيم الثلاثة من أفسد الأشياء، وذلك يظهر من وجوهٍ:

أحدها: أنه لو أريد بلفظ الإله: أقنوم الوجود، وبلفظ الإله مرة ثانية: أقنوم الكلمة، وبالثالث: أقنوم الحياة، لكان الأقنوم الواحد إله إبراهيم، والأقنوم الثاني إله إسحاق، والأقنوم الثالث إله يعقوب، فيكون كل من الأقانيم الثلاثة إله أحد الأنبياء الثلاثة، والأقنومين ليسا بإلهين له، وهذا كفر عندهم، وعند جميع أهل الملل.

وأيضًا فيلزم من ذلك أن يكون الآلهة ثلاثةً، وهم يقولون: إله واحد، ثم هم إذا قالوا: كلٌّ من الأقانيم إله واحد، فيجعلون الجميع إله كل نبيٍّ، فإذا احتجوا بهذا النص على قولهم، لزم أن يكون إله كل نبيٍّ، ليس هو إله النبي الآخر مع كون الآلهة ثلاثةً.

الوجه الثاني: أنه يقال: إنَّ الله رب العالمين، ورب السماوات، ورب الأرض، ورب العرش، ورب كل شيءٍ، أفيلزم أن يكون رب السماوات ليس هو رب الأرض، رب كل شيءٍ.

وكذلك يقال: إله موسى، وإله محمد، مع قولنا: إله إبراهيم وإسحاق،

---

(١) الخروج (٣/ ٦).

ويعقوب؛ أفتكون الآلهة خمسةً، وقد قال يعقوب لبنيه: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، أفتراه أثبت إلهين؛ أحدهما إلهه، والآخر إله الثلاثة؟

الوجه الثالث: أن العطف يكون تارةً لتغاير الذوات، وتارةً لتغاير الصفات؛ كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٥]، والذي خلق هو الذي قدَّر وأخرج، وكذلك قوله: ﴿إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وهو هو سبحانه... فقوله في التوراة: إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب، هو من هذا الباب، ولا يختصُّ هذا بثلاثةٍ، بل يقال في الاثنين والأربعة والخمسة بحسَب ما يقصد المتكلم ذِكْره من الصفات، وفي هذا من الفائدة ما ليس في قوله: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فإنه لو قيل ذلك، لم يفد إلا أنه معبود الثلاثة، لا يدلُّ على أنهم عبدوه مستقلين، كلٌّ منهم عبده عبادةً اختص بها، لم تكن هي نفس عبادة الأول...

الموضع الخامس:

قالوا: فمن أجل هذا البيان الواضح الذي قاله الله في التوراة، وفي كتب الأنبياء نجعل ثلاثة أقانيم: جوهرًا واحدًا، إلهًا واحدًا، خالقًا واحدًا، وهو الذي نقوله: أب، وابن، وروح قدس.

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: أن في التوراة والكتب الإلهية من إثبات وحدانية الله، ونفي تعدد الآلهة، ونفي إلهية ما سواه ما هو صريح في إبطال قول النصارى ونحوهم،

وليس فيها ذكر الأقانيم؛ لا لفظًا، ولا معنًى، حيث يجعلون الأقنوم اسمًا للذات مع الصفة، والذات واحدة، والتعدد في الصفات لا في الذات.

ولا يمكن أن تتحد صفة دون الأخرى، ولا دون الذات، فيمتنع اتحاد أقنوم أو حلوله بشيءٍ من المخلوقات دون الأقنوم الآخر، ولا إثبات ثلاثة أقانيم، ولا إثبات ثلاث صفاتٍ دون ما سواها في شيءٍ من الكتب الإلهية، ولا كلام الحواريين، ولا إثبات إله حق من إله حق، ولا تسمية صفات الله مثل كلامه وحياته، لا ابنًا، ولا إلهًا، ولا ربًّا، ولا إثبات اتحاد الرب خالق السماوات والأرض بشيءٍ من الآدميين، ولا حلول ذاتٍ وصفةٍ دون ذاتٍ مع الصفات الأخرى، بل ولا حلول نفس الصفة القائمة به في غيره، لا علمه ولا كلامه ولا حياته، ولا غير ذلك، بل جميع ما أثبتوه من التثليث والحلول والاتحاد ليس في كتب الأنبياء التي بأيديهم ما يدل عليه، بل فيها أقوال كثيرة صريحة بنقيض ذلك مع القرآن والعقل، فهم مخالفون للمعقول وكتب الله المنزلة[١].

رابعًا: احتجاجهم بورود اصطلاحاتهم في الكتب المقدسة:

قالوا: وهذه الأسماء لم نسمه نحن معشر النصارى بها من ذات أنفسنا، بل الله سمَّى لاهوته بها، وذلك أنه قال على لسان موسى النبي في التوراة مخاطبًا بني إسرائيل قائلًا: «أليس هذا الأب الذي صنعك وبراك واقتناك»[٢].

---

(١) (١/ ٨٤٧).

(٢) في تثنية (٣٢/ ٦): «ألرب تكافئون بهذا يا شعبًا غبيًّا غير حكيم؟ أليس هو أباك ومقتنيك، هو عملك وأنشأك؟».

وقوله على لسان داود النبي: «روحك القدس لا تنزع مني»(١)، وأيضًا على لسانه: «بكلمة الله تشددت السماوات والأرض، وبروح فاه جميع قواتهن»(٢)، وقوله على لسان أشعيا: «ييبس القتاد، ويجف العشب، وكلمة الله باقية إلى الأبد»(٣)، وعلى لسان أيوب الصديق: «روح الله خلقني وهو يعلمني»(٤).

وقال السيد المسيح في الإنجيل المقدس للتلاميذ الأطهار: «اذهبوا إلى جميع العالم، وعَمِّدوهم باسم الآب والابن وروح القدس إله واحد، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به»، وقال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، وسائر المسلمين يقولون: إنَّ الكتاب كلام الله، ولا يكون كلامٌ إلا لحيٍّ ناطقٍ، وهذه صفات جوهرية تجري مجرى الأسماء، وكل صِفَةٍ منها غير الأخرى، والإله واحد لا يتبعَّض، ولا يتجزَّأ.

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: أن تقول: إن كلام الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- لا يكون إلا حقًّا وصدقًا، ولا يكون فيه شيءٌ يعلم بطلانه بصريح العقل، وإن كان فيه ما يعجز العقل عن معرفته بدون إخبار الأنبياء، ولا يكون كلام النبي الذي يخبر به

---

(١) مزامير (٥١/ ١١).

(٢) مزامير (٣٣/ ٦): «٦ بكلمة الرب صنعت السماوات، وبنسمة فيه كل جنودها».

(٣) إشعياء (٤٠/ ٨): «يبس العشب، ذبل الزهر، وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد».

(٤) أيوب (٣٣/ ٤): «٤ روح الله صنعني، ونسمة القدير أحيتني».

مناقضًا لكلامه في موضعٍ آخر، ولا لكلام سائر الأنبياء، بل كل ما أخبرت به الأنبياء فهو حقٌّ وصدقٌ، يصدق بعضه بعضًا...

وإذا كان كذلك، فما ينقلونه عن الأنبياء إنما تتمُّ الحجة به إذ علم إسناده ومتنه، فيعلم أنه منقولٌ عنهم نقلًا صحيحًا، ونعلم أن ترجمته من العبرية إلى اللسان الآخر، كالرومية والعربية والسريانية ترجمة صحيحة، ويعلم بعد ذلك أنَّهم أرادوا به ذلك المعنى، وليس مع النصارى حجة عن الأنبياء تثبت فيها هذه المقدمات الثلاث.

ونحن في هذا المقام يكفينا المنع، والمطالبة لهم بتصحيح هذه المقدمات، فإنهم ادَّعوا أنَّ التثليث أخذوه عن الأنبياء، فنحن نطالبهم بتصحيح هذه المقدمات.

والجواب الثاني: أنَّا نُبيِّن تفسير ما ذكروه من الكلمات:

أما قوله على لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطبًا بني إسرائيل قائلًا: «أليس الأب الذي صنعك وبراك واقتناك؟»، فهذا فيه أنه سمَّاه أبًا لغير المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا نظير قوله لإسرائيل: «أنت ابني بكري»، وداود: «ابني حبيبي»، وقول المسيح: «أبي وأبيكم»، وهم يسلمون أن المراد بهذا في حق غير المسيح بمعنى الرب لا معنى التولد الذي يخصون به المسيح.

الثالث: أن هذا حجة عليهم، فإذا كان في الكتب المتقدمة تسميته أبًا لغير المسيح، وليس المراد بذلك إلا معنى الرب، علم أن هذا اللفظ في لغة الكتب يراد به الرب، فيجب حَمْله في حق المسيح على هذا المعنى؛ لأنَّ الأصل عدم الاشتراك في الكلام.

الرابع: أنَّ استعماله في المعنى الذي خصوا به المسيح إنما يثبت إذا علم أنه أريد المعنى الذي ادَّعوه في المسيح، فلو أثبت ذلك المعنى بمجرد إطلاق لفظ الأب، لزم الدور، فإنه لا يعلم أنه أريد به ذلك المعنى من حيث يثبت أنه كان يراد به في حق الله هذا المعنى، ولا يثبت ذلك، حتى يعلم أنه أريد به ذلك المعنى في حق المسيح، فإذا توقف العلم بكلٍّ منهما على الآخر، لم يعلم واحد منهما، فتبيَّن أنه لا علم عندهم بأنه أريد في حقِّ المسيح بلفظ الأب ما خصوه به في محلِّ النزاع...

قالوا: وقوله على لسان داود النبي ﷺ: «روحك القدس لا تنزع مني».

فيقال: هذا دليلٌ على أن روح القدس كانت في داود، فعلم بذلك أن روح القدس التي كانت في المسيح من هذا الجنس، فعلم بذلك أن روح القدس لا تختصُّ بالمسيح، وهم يسلمون ذلك، فإن ما في الكتب التي بأيديهم في غير موضعٍ أن روح القدس حلَّت في غير المسيح في داود، وفي الحواريين، وفي غيرهم، وحِينَئذٍ فإن كان روح القدس هو حياة الله، ومن حلَّت فيه، يكون لاهوتًا، لزم أن يكون إلهًا، ولزم أن يكون كل هؤلاء فيهم لاهوت وناسوت كالمسيح، وهذا خلاف إجماع المسلمين والنصارى واليهود.

ويلزم من ذلك أيضًا أن يكون المسيح فيه لاهوتان؛ الكلمة وروح القدس، فيكون المسيح مع الناسوت أقنومين: أقنوم الكلمة، وأقنوم روح القدس. وأيضًا فإن هذه ليست صفةً لله قائمةً به، فإن صفة الله القائمة به، بل وصفة كل موصوفٍ لا تفارقه وتقوم بغيره، وليس في هذا أن الله اسمه روح القدس، ولا أنَّ

حياته اسمها روح القدس، ولا أن روح القدس الذي تجسَّد المسيح منه، ومن مريم هو حياة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنتم قلتم: إنَّا معاشر النصارى لم نُسمِّه بهذه الأسماء من ذات أنفسنا، ولكن الله سمَّى لاهوته بها، وليس فيما ذكرتموه عن الأنبياء أن الله سمَّى نفسه، ولا شيئًا من صفاته بروح القدس، ولا سمَّى نفسه ولا شيئًا من صفاته ابنًا، فبطل تسميتكم لصفته التي هي الحياة بروح القدس، ولصفته التي هي العلم بالابن.

وأيضًا فأنتم تزعمون أن المسيح مختص بالكلمة والروح، فإذا كانت روح القدس في داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والحواريين وغيرهم، بطل ما خصصتم به المسيح، وقد علم بالاتفاق أن داود عبدٌ لله ﷻ، وإن كانت روح القدس فيه، وكذلك المسيح عبدٌ لله وإن كانت روح القدس فيه، فما ذكرتموه عن الأنبياء حجة عليكم لأهل الإسلام، لا حجة لكم.

قالوا: وأيضًا على لسان داود النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «بكلمة الله تشددت السماوات والأرض، وبروح فاه جميع قواتهن».

فيقال: أما قوله: «بكلمة الله تشددت السماوات والأرض»، فهو أيضًا حجة عليكم لوجوهٍ:

أحدها: أن الله خلق الأشياء بكلمته التي هي «كن»، كما قال في التوراة: «ليكن كذا، ليكن كذا، ليكن كذا»[1]، وكذلك في الزبور: «لأنه قال فكانوا، وهو

---

(١) ينظر سفر التكوين الإصحاح الأول.

أمر فخلقوا»[(١)]، فجعل كونهم عن قوله... وفي القرآن: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وليس المسيح هو هذه الكلمات.

الثاني: أنَّ كلمة الله اسم جنسٍ، فإن كلمات الله لا نهاية لها، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، والتوراة تدلُّ على تعدُّد الكلمات، وإذا كان كذلك، فالمسيح ليس هو مجموع الكلمات، بل خلق بكلمةٍ منها...

قالوا: وقوله على لسان أيوب الصديق: «روح الله خلقني وهو يعلمني».

فيقال: هذا لا حجة فيه؛ لأنكم ادعيتم أن الأنبياء سمت حياة الله روح القدس، وهذا لم يقل: روح القدس، بل قال: روح الله، وروح الله يراد بها الملك الذي هو روح اصطفاه الله فأحبها، كما قال في القرآن: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، فقد أخبر أنه أرسل إليها روحه فتمثَّل لها بشرًا سويًّا، وتبيَّن أنه رسوله، فعلم أن المراد بالروح مَلَك، هو روح اصطفاها فأضافها إليه، كما يضاف إليه الأعيان التي خصها بخصائص يحبها؛ كقوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]، وقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]...

وإذا كان كذلك، فهذا اللفظ إن كان ثابتًا عن النبي، وترجم ترجمةً صحيحةً، فقد يكون معناه أن الملك صوَّرني في بطن أمي، وهو يعلمني، فإن

---

(١) في مزامير (١٤٨/ ٤، ٥): «سبحيه يا سماء السماوات، ويا أيتها المياه التي فوق السماوات. (٥) لتسبح اسم الرب؛ لأنه أمر فخلقت».

النبي ﷺ قال: «**إذا مرَّ بالنُّطفة ثنتان وأربعون ليلةً، بعث الله إليها مَلَكًا فصَوَّرها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب، أذَكَر أو أنثى، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب أجله؟ فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب، رزقه؟ فيقول ربك ما يشاء، ويكتب الملك، ثم يخرج المَلَك بالصحيفة في يده، فلا يُزَاد على أمرٍ، ولا ينقص**»، رواه مسلم[١] من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري.

وقد يقال: من هذا قوله في الزبور في مزمور الخليقة: «ترسل روحك فيخلقون»[٢]، وفي المزمور أيضًا: «هو قال فكانوا، وأمر فخلقوا»، فقد يُضاف الخَلق إلى المَلَك، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فأخبره أنه يخلق من الطين كهيئة الطير طيرًا بإذن الله، وكذلك الملك يخلق النطفة في الرحم بإذن الله.

ولا يجوز أن يريد به أن حياة الله خلقتني وتعلمني، فإنَّ الصفة لا تخلق، ولا تعلم، إنما يخلق ويعلم الرب الموصوف الذي خلق الإنسان من علقٍ، الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، ولكن هو سبحانه يخلق بواسطة الملائكة، فإن الملائكة رسل الله في الخلق، فجاز أن يضاف الفعل إلى الوسائط تارةً، وإلى الرب أخرى.

وهذا موجود في الكتب الإلهية في غير موضعٍ كما في القرآن: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٤٥).

(٢) في مزامير (١٠٤/ ٣٠): «٣٠ ترسل روحك فتخلق، وتجدد وجه الأرض».

ﭐلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وفي موضعٍ آخر: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، وفي موضعٍ ثالثٍ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، الجميع حق، فإذا وجد لفظ له معنى في كلام بعض الأنبياء، ولم يوجد له معنًى يخالف ذلك من كلامهم، كان حملُهُ على ذلك المعنى أَوْلَى من حمله على معنًى يخالف كلامهم، ولا يوجد في كلامهم أن حياة الله تُسمَّى روحًا، ولا أن صفات الله تخلق المخلوقات(١).

---

(١) (١/ ٦٥٤).

مبحث في ذكر احتجاج الحسن بن أيوب[1] على بطلان عقيدة التثليث من الكتاب المقدس

قال[2]: ثم نقول قولًا آخر: قد نستدل على صحة هذه الشريعة من سقمها بأربعة أوجهٍ، لا يقع في شيءٍ منها شك، ولا طعن، ولا زيادة، ولا نقصان، وهي أصل أمر المسيح عندكم:

فأوَّلها: البشرى التي أتى بها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والثانية: قول يحيى بن زكريا الذي شهد له المسيح بأنه لم تقم النساء عن مثله.

والثالثة: النداء المسموع من السماء.

والرابعة: قول المسيح عن نفسه حين سأله يحيى عن شأنه.

والذي قال جبريل على ما ثبت في إنجيلكم لمريم حين بشَّرها: «السلام عليك أيتها الممتلئة نعمًا، ربنا معك أيتها المباركة في النساء، فلما رأته مريم ذعرت منه، فقال: لا ترهبي يا مريم، فقد فزت بنعمةٍ من ربك، فها أنت تحبلين وتلدين ابنًا، وتسميه يسوع، ويكون كبيرًا، ويسمى: ابن الله العلي، ويعطيه الله الرب كرسي أبيه داود، ويكون ملكًا على آل يعقوب إلى الأبد. فقالت مريم: أنَّى يكون لي ذلك ولم يمسسني رجل؟ قال لها الملك: إنَّ روح القدس يأتيك،

---

(١) تقدمت ترجمته، والكلام الآتي نقله عنه الشيخ من رسالته التي تقدَّم ذكرها.

(٢) القائل: «قال»: هو ابن تيمية حاكيًا كلام الحسن ابن أيوب، هنا وفيما يأتي.

أو قال: يحل فيك، وقوة العلي تحبلك، من أجل ذلك يكون الذي يولد منك قديسًا، ويسمى: ابن الله العلي»[١].

قال: فلم نرَ الملك قال لها: إن الذي تلدين هو خالقك، وهو الرَّبُّ كما سمَّيتموه، بل أزال الشك في ذلك بأن قال: «إن الله الرب يعطيه كرسي أبيه داود»، ويصطفيه ويكرمه، وأن داود النبي أبوه، وأنه يسمى ابن الله.

وما قال أيضًا: أنه يكون ملكًا على الأرض، وإنما جعل له الملك على بني إسرائيل فقط، وقد علمتم أن مَن يُسمَّى بابن الله كثير لا يحصون، فمن ذلك: إقراركم بأنكم جميعًا أبناء الله بالمحبة، وقول المسيح: «أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم»، في غير موضعٍ من الإنجيل، ثم تسمية الله يعقوب وغيره بنيه خصوصًا.

فالسبيل في المسيح إذا لم تلحقوه في هذا الاسم بالجمهور أن يجري في هذه التسمية مجرى الجماعة الذين اختصوا بها من الأنبياء والأبرار، ونسبة الملك إياه إلى أبيه داود تُحقِّق أنَّ أباه داود، وأنَّ التسمية الأولى على جهة الاصطفاء والمحبة، وأن حلول الرُّوح عليه على الجهة التي قالها متى التلميذ للشعب عن المسيح في الإنجيل: «لستم أنتم متكلمين، بل روح الله تأتيكم تتكلم فيكم»[٢].

فأخبر أن الروح تحلُّ في القوم أجمعين، وتتكلم فيهم. وقال الملك في بشارته لمريم بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنه يكون ملكًا على آل يعقوب»، فخص آل يعقوب بتملكه عليهم دون غيرهم من الناس، ولم يقل: إنه يكون إلهًا للخلائق.

ومعنى قول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لمريم: «ربنا معك» مثل معنى قول الله عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) بنحوه في لوقا (١/ ٢٨-٣٣).

(٢) في متَّى (١٠/ ٢٠): «لأن لستم أنتم المتكلمين، بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم».

لموسى وغيره من الأنبياء: «إني معكم»، فقد قال ليوشع بن نون: «إني أكون معك، كما كنت مع موسى عبدي»(١)، فقول النصارى كلهم في مجاري لغتهم ومعاني ألفاظهم أن الله ﷻ وروح القدس مع كل خطيبٍ وراهبٍ وفاضلٍ في دينه على هذه السبيل.

قال: وأما النداء الذي سمعه يحيى بن زكريا من السماء في المسيح، وشهادة يحيى له، فإن متى قال في إنجيله: «إن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لما خرج من الأردن، تفتحت له السماء، فنظر يحيى إلى روح القدس قد نزلت على المسيح كهيئة حمامةٍ، وسمع نداءً من السماء: إن هذا ابني الحبيب الذي اصطفيته»(٢) قد علمنا وعلمتم أنَّ المصطفى مفعول، والمفعول مخلوق، وليس يستنكف المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ من الاعتراف بذلك عن الاعتراف بذلك في كلِّ كلامه، وما زال يقول: «إلهي وإلهكم وأبي وأبيكم»...

ثم قال: وقد وجدنا المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ احتاج إلى تكميل أمره بمعمودية يحيى له، فسار إليه لذلك، وسأله إياه، فليس مرتبة المقصود بدون مرتبة القاصد الراغب. وقال لوقا التلميذ في إنجيله: «إن يحيى المعمداني أرسل إلى المسيح بعد أن عمده وسأله: أنت ذلك الذي تجيء، أو نتوقع غيرك؟»، فكان جواب المسيح لرسله: «أن ارجعوا، فأخبروه بما ترون من عميانٍ يبصرون، وزمنٍ ينهضون، وصُمٍّ يسمعون، فطوبى لمن لم يغتر بي، أو يذل في أمري»(٣).

---

(١) ينظر يشوع (١/ ٥).

(٢) بنحوه في متَّى (٣/ ١٦، ١٧).

(٣) نحوه في لوقا (١١/ ٢-٦).

قال: فوجدنا يحيى مع محله وجلالة قدره عند الله ﷻ، ثم ما شهد به للمسيح له من أنه ما قامت النساء عن مثله، قد شك فيه، فاحتاج إلى أن يسأله عن شأنه، ثم لم يكن من جواب المسيح له بشيءٍ مما تصفون من الربوبية، ولا قال: إنِّي خالقك وخالق كل شيءٍ، كما في شريعة إيمانكم، بل حذر الغلط في أمره والاغترار، ولا كان من قوله أكثر مما ذكر أنه أظهر بنُبوَّته من هذه الآيات التي سبق إلى مثلها أكثر الأنبياء.

قال: ولا رأينا يحيى زاد في وضعه إياه لما قرظه، وأعلى ذكره مع تشككه في أمره، وحاجته إلى مسألته عن حاله على أن قال: «هو أقوى مني، وإني لا أستحق أن أحلَّ معقد خُفه»[1]، ولم يقل: إنه خالقي. وقد يقول الرجل الخير فيمن هو دونه مثل الذي قال يحيى فيه تواضعًا لله وخشوعًا، كما قال المسيح في يحيى: «إنه ما قامت النساء عن مثله»[2].

قال: فتركتم ما أتت به الرُّسل والنُّبوات في المسيح، وهو أصلكم الذي وقع عليه بناؤكم، وجعلتم لأنفسكم شريعةً غيرها، ومثل الذين عقدوا هذه الشريعة لكم مثل مَنْ آمن بنبوة رجلٍ ينتفي من النبوة؛ لأن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: إنه مربوب مبعوث.

ويقول جبريل: إنه مكرم مصطفى، وأن أباه داود، وأنَّ الله جعله ملكًا على آل يعقوب، وينادي منادٍ من السماء بمثل ذلك، ويشهد يحيى بن زكريا على مثله، وتقولون: بل هو خالق أزلي إلا أنه يستر نفسه، ويقول المسيح وغيره ممَّن

(١) ورد في غير موضعٍ منها مرقس (١/ ٧)، لوقا (٣/ ١٦).
(٢) متَّى (١١/ ١١)، ولوقا (٧/ ٢٨).

سمينا: إنه معطى، وأن الله معطيه، وتقولون: بل رازق النعم وواهبها، ويقول: إنَّ الله أرسله، وتقولون: بل هو الذي نزل لخلاصنا، وتعتقدون سبب نزوله من السماء أنه أراد أن يُخلِّصكم، ويحتمل الخطيئة، ويربط الشيطان، فقد وجدنا الخلاص لم يقع.

والخطيئة قائمة لم تزل، والشيطان أعتى ما كان لم يربط، بل سلَّطه الله عليه على ما تقولون، فحصره في الجبل أربعين يومًا يمتحنه، وقال له في بعض أحواله معه: «إن كنت ابن الله، فقل لهذه الصخور تصير خبزًا، فقال له المسيح مجيبًا له: إنه مكتوبٌ: إن حياة الإنسان لا تكون بالخبز، بل بكل كلمةٍ تخرج من الله. ثم ساقه الشيطان إلى مدينة بيت المقدس، وأقامه على قرنة الهيكل، وقال له: إن كنت ابن الله، فارم بنفسك من هاهنا، فإنه مكتوبٌ: إن الملائكة توكل بك؛ لئلَّا تعثر رجلك بالحجر.

قال يسوع: ومكتوب أيضًا: لا تجرب الرَّب إلهك. ثم ساقه إلى جبلٍ عالٍ، وأراه جميع مملكات الدنيا وزخارفها، وقال له: إن خررت على وجهك ساجدًا لي، جعلت هذا الذي ترى كله لك. قال له المسيح: اغرب أيها الشيطان، فإنه مكتوبٌ: اسجد للرب إلهك، ولا تعبد شيئًا سواه. ثم بعث الله ﷻ ملكًا اقتلع العدو من مكانه، ورمى به في البحر، وأطلق السبيل للمسيح»(١).

وقال: أفلا يعلم من كان في عقله أدنى مسكة أن هذا الفعل لا يكون من شيطانٍ إلى إلهٍ، ولو كان إلهًا لأزاله عن نفسه قبل أن يأتيه الملك من عند ربه، ولما قال: «أمرنا ألَّا نجرب الله، وأن نسجد للرب، ولا نعبد شيئًا سواه»، وكيف

---

(١) ينظر متَّى (٤/ ١-١١)، ولوقا (٤/ ١-١٣).

لم يربط الشيطان عن نفسه قبل أن يربط عن أمته؟

قال: فهذه أمورٌ إذا تأملها المتأمل قبحت جدًّا، وكثر اختلافها، واشتد تناقضها واضطرابها.

قال: وممَّا يعجب منه أنكم تعتقدون أن الابن الأزلي اتحد بالمسيح، فصارا بجهةٍ واحدةٍ، ولم يفارقه قط منذ اتَّحد به، ومكث على ذلك في بطن أمه تسعة أشهرٍ، ثم أقام مولودًا، وتغذى باللبن، ومربوبًا صبيًّا مُغذًّى بالأغذية إلى أن بلغ ثلاثين سنةً لا يظهر منه شيء من آلة الربوبية.

ولا أمر يوجب هذا المحل، ولا كان بينه وبين نظرائه من الآدميين فرقٌ، ولا سطع منه نور، ولا ظهرت له سكينةٌ، ولا حفته الملائكة بالتهليل، ولا ألمَّ به الشعث بعد ذلك فوق ما كان من الأنبياء قبله، فقد كلم الله موسى من العوسجة كيف شاء، فأشرق ما حولها نورًا، وكلَّمه من طور سيناء، فاضطربت في الجبل النيران، والتبس وجهه النور الساطع حتى كان يتبرقع إذا جلس مع بني إسرائيل بعد ذلك؛ لأنَّهم كانوا لا يستطيعون النظر إليه، ثم سأل موسى ربه ﷻ لما قرب منه، فقال: رب أرني أنظر إليك. قال: لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًّا، وخرَّ موسى صعقًا، فلما أفاق من صعقته، استغفر ربه، فتاب عليه.

وتجلَّى مجد الله لجماعةٍ من الأنبياء، فرأوا حول مجده ربوات الملائكة، وقال داود: «يا رب، إنك حيث عبرت ببلاد سنين تزلزلت الأرض منك، وانفطرت من هيبتك».

وقال أيضًا كالمخاطب للبحر والجبال، والمتعجب منها: «ما لك أيها البحر

هاربًا، وأنت يا نهر الأردن لم وليت راجعًا، وما لكِ أيتها الجبال تنفرين كالأبابيل، وما لكُنَّ أيتها الشوامخ والهضبات تنزو نزو الشياء»، ثم قال كالمجيب عنهم: «من قدام الرب تزلزلت البقاع»[(١)].

قال: فإن كان المسيح هو الأزلي الخالق، أو كان متحدًا به، فكيف لم ترجف بين يديه الجبال، ولم تتصرف عن مشيئته الأنهار والبحار؟ أو كيف لم تظهر منه آيات باهرات أجلُّ من آيات الأنبياء قبله مثل المشي على متون الهواء، والاضطجاع على أكتاف الرياح، والاستغناء عن المآكل والمشارب، وإحراق مَن قرب منه من الشياطين والجن، كما أحرق إيليا مَن قرب منه من جند أحاب الملك، ويمنع الآدميين من نفسه، وما فعلوا على زعمكم بجسمه ليعلم الناس أنه خالقهم أو أنه هيكل الخالق؟

قال: ووجدناكم تقولون: إن الابن إنما يُسمَّى: ابن الله وكلامه؛ لأنه تولد من الأب وظهر منه، فلم نقف على معنى ذلك؛ لأنَّ شريعة إيمانكم تقول: إنَّ الروح أيضًا تخرج من الأب، فإن كان الأمر كما تقولون، فالروح أيضًا ابن؛ لأنها تخرج عن الله تعالى، وإلا فما الفرق بينهما؟

قال: ولم نفهم أيضًا قولكم: إنَّ الابن تجسَّد من روح القدس، وأن روح القدس ساقه إلى البر ليمتحنه الشيطان، فما كانت حاجة الابن إلى أن تكون الروح، وهي في قولكم مثله تُدبِّره وتُغيِّره من حالٍ إلى حالٍ، أو ما علمتم أن الغير السابق المدبر فاعل، والمسبوق المدبر مفعول به، فالابن إذن دون الروح وليس مثله؛ لأن الأزلي لا ينفكُّ من الأزلي وهو مثله.

---

(١) ينظر مزامير (١١٤/ ٥-٨).

قال: وإن كان المسيح من روح القدس، كما قال جبريل الملك لأمه مريم، فلم سمَّيتموه كلمة الله وابنه، ولم تسموه روحه، فإنَّما قال لها الملك: إنَّ الذي تلدين من روح القدس، والروح غير الابن، ولو كان المعنى واحدًا لما قالت الشريعة: إنه تجسد من روح القدس، وإن روح القدس ساقه إلى البر، وإن روح القدس نزل عليه، ولم تثلثون به في إيمانكم، فتقولون: نؤمن بالأب والابن والروح القدس؟(١)

مناقشة الحسن بن أيوب لاستدلالهم بالمعجزات على إلهية المسيح:

قال: فإن قلتم: إنكم استدللتم على ربوبيته بأنه أحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، ومشى على الماء، وصعد إلى السماء، وصيَّر الماء خمرًا، وكثر القليل؛ فيجب الآن أن ينظر إلى كل من فعل من هذه الأمور فعلًا فنجعله ربًّا وإلهًا، وإلا فما الفرق؟ فمن ذلك أن كتاب (سفر الملوك) يخبر أن إلياس أحيا ابن الأرملة(٢)، وأن اليسع أحيا ابن الإسرائيلية(٣)، وأن حزقيال أحيا بشرًا كثيرًا، ولم يكن أحد ممن ذكرنا بإحيائه الموتى إلهًا.

وأما إبراء الأكمه فهذه التوراة تخبر أن يوسف أبرأ عين أبيه يعقوب بعد أن ذهبت، وهذا موسى طرح العصا، فصارت حيَّةً لها عينان تبصر بهما، وضرب بها الرمل، فصار قملًا لكلِّ وَاحِدَةٍ منها عينان تبصر بهما، ولم يكن واحدٌ منهم بذلك إلهًا.

وأما إبراء الأبرص، فإن كتاب (سفر الملوك)(٤) يخبر بأن رجلًا من عظماء

---

(١) (٤/ ١٠١).

(٢) ينظر الملوك الأول، الإصحاح السابع.

(٣) ينظر الملوك الثاني، الإصحاح الرابع.

(٤) ينظر الملوك الثاني، الإصحاح الخامس.

الروم برص، فرحل من بلده قاصدًا اليسع عَلَيْهِ السَّلَامُ ليبرأه من برصه، فأخبر الكتاب بأن الرجل وقف بباب اليسع أيامًا لا يُؤْذَن له، فقيل لليسع: إن ببابك رجلًا يقال له: «نعمان»، وهو أجلُّ عظماء الروم، به برص، وقد قصدك لتبرأه من مرضه، فإن أذنت له دخل إليك، فلم يأذن له، وقال لرجلٍ من أصحابه: اخرج إلى هذا الرجل، فقل له: ينغمس في الأردن سبع مرات، فأبلغ الرسول لنعمان ما أمره به اليسع، ففعل ذلك، فذهب عنه البرص، ورجع قافلًا إلى بلده، فأتبعه خادم اليسع، فأوهمه أن اليسع وجه به إليه يطلب منه مالًا، فسُرَّ الرجل بذلك ودفع إلى الخادم مالًا وجوهرًا، ورجع، فأخفى ذلك وستره، ثم دخل إلى اليسع، فلما مثل بين يديه، قال له: تبعت نعمان وأوهمته عني كذا وكذا، وأخذت منه كذا، وأخفيته في موضع كذا، إذ فعلت الذي فعلت به، فليصر بَرَصُهُ عليك وعلى نسلك، فبرص ذلك الخادم على المكان.

قال: فهذا اليسع قد أبرأ أبرصًا، وأبرص صحيحًا، وهو أعظم مما فعل المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلم يكن في فعله ذلك إلهًا.

قال: وأما قولكم: إنه مشى على الماء، فإن كتاب (سِفر الملوك)[1] يخبر بأن إلياس عَلَيْهِ السَّلَامُ سار إلى الأردن ومعه اليسع تلميذه، فأخذ عمامته، فضرب بها الأردن، فاستيبس له الماء حتى مشى عليه هو واليسع، ثم صعد إلى السماء على فرسٍ من نورٍ، واليسع يراه، ودفع عمامته إلى اليسع، فلما رجع اليسع إلى الأردن، ضرب بها الماء فاستيبس له حتى مشى عليه راجعًا، ولم يكن واحد منهما بمشيه على الماء إلهًا، ولا كان إلياس بصعوده إلى السماء إلهًا.

---

(١) ينظر الملوك الثاني، الإصحاح الثاني.

قال: وأما قولكم: إنَّه صيَّر الماء خمرًا، فهذا كتاب (سفر الملوك)[١] يخبر بأن اليسع نزل بامرأةٍ إسرائيليةٍ، فأضافته وأحسنت إليه، فلما أراد الانصراف قال لها: هل لك من حاجةٍ؟ فقالت المرأة: يا نبي الله، إنَّ على زوجي دينًا قد فدحه، فإن رأيت أن تدعو الله لنا بقضاء ديننا فافعل. فقال لها اليسع: اجمعي كل ما عندك من الآنية، واستعيري من جيرانك جميع ما قدرت عليه من آنيتهم، ففعلت، ثم أمَرها، فملأت الآنية كلها ماءً، فقال: اتركيه ليلتك هذه. ومضى من عندها، فأصبحت المرأة وقد صار ذلك الماء كله زيتًا، فباعوه فقضوا دينهم، وتحويل الماء زيتًا أبدع من تحويله خمرًا، ولم يكن اليسع بذلك إلهًا.

وأما قولكم: المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ كثَّر القليل حتى أكل خلقٌ كثيرٌ من أرغفة يسيرة، فإن كتاب (سفر الملوك)[٢] يخبر بأن إلياس نزل بامرأةٍ أرملةٍ، وكان القحط قد عمَّ الناس، وأجدبت البلاد، ومات الخلق ضرًّا وهزلًا، وكان الناس في ضيقٍ، فقال للأرملة: هل عندك طعامٌ؟ فقالت: والله ما عندي إلا كف من دقيقٍ في قلةٍ، أردت أن أخبزه لطفلٍ لي، وقد أيقنا بالهلاك لما الناس فيه من القحط، فقال لها: أحضريه، فلا عليك، فأتته به، فبارك عليه، فمكث عندها ثلاث سنين وستة أشهرٍ تأكل هي وأهلها وجيرانها منه حتى فرَّج الله عن الناس، فقد فعل إلياس في ذلك أكثر ممَّا فعل المسيح؛ لأنَّ إلياس كثَّر القليل وأدامه، والمسيح كثَّر القليل في وقتٍ واحدٍ، ولم يكن إلياس بفعله هذا إلهًا.

قال: فإن قلتم: إن هؤلاء الأنبياء ليس لهم صنعٌ في هذه الأفعال، وإن الصنع

---

(١) ينظر الملوك الثاني، الإصحاح الرابع.

(٢) ينظر الملوك الأول، الإصحاح السابع عشر.

فيها والقدرة لله ﷻ إذ كان هو الَّذي أجراها على أيديهم، فقد صدقتم، ونقول لكم أيضًا: كذلك المسيح ليس له صنعٌ فيما ظهر على يديه من هذه الأعاجيب، إِذْ كان الله هو الذي أظهرها على يديه، فما الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء؟ وما الحجة في ذلك؟[(١)][(٢)]

---

(١) (٤/ ١٢٠).

(٢) قال الباقلاني في «التمهيد» (٩٨): «ويقال لهم: لم قلتم: إن كلمة الله اتحدت بجسد المسيح دون جسد موسى وإبراهيم وغيرهما من النبيين، فإن قالوا: لأجل ما ظهر على يد عيسى من فعل الآيات، واختراع المعجزات التي لا يقدر البشر على مثلها من نحو إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وجعل القليل كثيرًا، وقلب الماء خمرًا... فوجب أنه إله، وأن الكلمة متحدة به، يقال لهم: لِمَ زعمتم أن عيسى فاعل، لما وصفتم من الآيات، ومخترع لها، وما أنكرتم أن يكون غير قادرٍ على قليلٍ من ذلك، ولا كثيرٍ، وأن يكون الله تعالى هو الذي فعل جميع ما ظهر على يده من ذلك، وتكون حاله فيه حال سائر الأنبياء فيما ظهر عليهم من الآيات، ثم يقال لهم: فما أنكرتم أن يكون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلهًا، وأن تكون الكلمة متحدةً به، لِمَا فعله من الآيات الغريبة نحو قلب العصا حيةً ذات فم وعينين وخروق، ولم تكن من قبلُ حَيَّةً، ولا فيها رسم عينٍ، ولا فم، ونحو فلق البحر، وإخراج يده بيضاء وغير ذلك، وما أتى به من الجراد والقمل والضفادع والدم، وغير ذلك مما لا يقدر عليه البشر، فإن قالوا: موسى لم يكن مخترعًا لشيءٍ من ذلك، وإنما كان يدعو ويرغب إلى الله في أن يظهر ذلك على يده، يقال لهم: فما أنكرتم أن تكون هذه حال عيسى، وأنه كان يرغب إلى خالقه وربه ومالكه في أن يظهر الآيات على يده، وقد نطق الإنجيل بذلك؛ لأنَّ في الإنجيل أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بكى وقال: «رب إن كان في مشيئتك أن تصرف هذه الكأس عن أحدٍ، فاصرفها عني»، وأنه أراد أن يحيي رجلًا، فقال: «يا أبي، أدعوك كما كنت أدعوك فتستجيب لي، وإنما أدعوك من أجل هؤلاء القوم ليعلموا»، وقال: «يا أبي، أنا أحمدك»، وقال وهو على الخشبة وقت الصلب بزعمهم: «إلهي إلهي لو تركتني»، وهذا فوق دعاء موسى وتضرعه وابتهاله، فوجب أنه عبد مربوب، ومحدث مخلوق كموسى وغيره من الرسل عليهم السلام، فإن قالوا: كان عيسى يدعو ويرغب بهذا الدعاء على سبيل التعليم للأتباع والتلاميذ، وإلا فقد كان يخترع الآيات اختراعًا، ويأمر أن يكون فيكون. قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون دعاء موسى ورغبته إنما وقع علي

تضرع المسيح لربه وتصريحه بالعبودية:

قال: وإن قلتم: إنَّ الأنبياء كانت إذا أرادت أن يظهر الله على أيديهم آيةً، تضرعت إلى الله ودعته، وأقرت له بالربوبية، وشهدت على أنفسها بالعبودية.

قيل لكم: وكذلك سبيل المسيح، سبيل سائر الأنبياء، قد كان يدعو ويتضرع ويعترف بربوبية الله، ويقر له بالعبودية.

فمن ذلك: أنَّ الإنجيل يخبر بأن المسيح أراد أن يحيي رجلًا يقال له: العازر، فقال: «يا أبي، أدعوك كما كنت أدعوك من قبل فتجيبني وتستجيب لي، وأنا أدعوك من أجل هؤلاء القيام ليعلموا»[١]، وقال بزعمكم وهو على الخشبة: «إلهي إلهي، لم تركتني؟»[٢]، وقال: «يا أبي، اغفر لليهود ما يعملون، فإنهم لا يدرون ما يصنعون»[٣].

=

سبيل التعليم، وإلا فقد كان يخترع فلق البحر، وإخراج اليد بيضاء، وقلب العصا حيةً، وتظليلهم بالغمام... وإن قالوا: قولنا: «مسيح» اسم لمعنيين؛ لاهوت هو إله، وناسوت هو إنسان مخلوق، فما كان من تضرع ودعاء فإنما وقع من الإنسان الذي هو الناسوت، وما كان من إحداث آيةٍ، وإظهار معجزةٍ، فهو واقع من الإله دون الإنسان، يقال لهم: فما أنكرتم أيضًا من أن يكون موسى اسمًا لمعنيين؛ إله وإنسان، فما كان من دعاء ورغبة فإنه واقع من الناسوت، وما كان من اختراع آيةٍ، وإبداع معجزةٍ، فإنه من اللاهوت دون الناسوت. وَإنْ قالوا: كل واحدٍ من الأنبياء قد أقرَّ بلسانه بأنه إنسان مخلوق، وعبد مربوب مألوه مرسل من عند الله، والمسيح لم يقرَّ بذلك، يقال لهم: وكذلك المسيح قد اعترف بأنه نبي مرسل، وعبد مخلوق؛ لأنَّ الإنجيل ينطق بأنه قال: «إني عبد الله أرسلت معلمًا»، وقال: «كما بعثني أبي أبعثكم».اهـ. باختصارٍ.

(١) ينظر إنجيل يوحنا، الإصحاح الحادي عشر.

(٢) تقدم.

(٣) في لوقا (٢٣/ ٣٤): «فقال يسوع: يا أبتاه، اغفر لهم؛ لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

وقال في إنجيل متى: «يا أبي، أحمدك»(١)، وقال: «يا أبي، إن كان بدٌّ أن يتعداني هذا الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا، فلتكن مشيئتك»(٢)، وقال أيضًا: «أنا أذهب إلى إلهي الذي هو أعظم مني»(٣)، وقال: «لا أستطيع أنْ أصنع شيئًا، ولا أتفكر فيه إلا باسم إلهي»(٤)، وقال -يعني نفسه: «لا ينبغي للعبد أن يكون أعظم من سيده، ولا للرسول أن يكون أعظم ممن أرسله»(٥)...

قال: وقال في إنجيل يوحنا: «إنكم متى رفعتم ابن البشر، فحينئذ تعلمون أنِّي أنا هو وشيءٌ من قبل نفسي لا أفعل، ولكن كل شيءٍ كالذي علمني أبي»(٦)...

وقال لأصحابه: «اخرجوا بنا من هذه المدينة، فإن النَّبيَّ لا يجل في مدينته»(٧)، مدينته»(٧)، وأخبر الإنجيل أن امرأةً رأت المسيح، فقالت: إنك لذلك النبي الذي كنا ننتظر مجيئه؟ فقال لها المسيح: «صدقت، طوبى لك»(٨)، وقال لتلامذته: «كما «كما بعثني أبي كذلك أبعث بكم»(٩)، قال: فاعترف بأنه نبيٌّ، وأنه مألوهٌ ومربوبٌ

---

(١) في متَّى (١١/ ٢٥): «أحمدك أيها الآب، رب السماء والأرض».

(٢) في لوقا (٢٢/ ٣٩): «ثم تقدم قليلًا، وخرَّ على وجهه، وكان يصلي قائلًا: يا أبتاه، إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا، بل كما تريد أنت».

(٣) في يوحنا (١٤/ ٢٨): «لو كنتم تحبونني، لكنتم تفرحون لأني قلت: أمضي إلى الآب؛ لأن أبي أعظم مني».

(٤) في يوحنا (٨/ ٢٨): «ولست أفعل شيئًا من نفسي، بل أتكلم بهذا كما علمني أبي».

(٥) متَّى (١٠/ ٢٤)، ويوحنا (١٣/ ١٦).

(٦) تقدم.

(٧) بنحوه في متَّى (١٣/ ٥٦)، ومرقس (٦/ ٤)، ويوحنا (٤/ ٤٤).

(٨) وردت قصة هذه المرأة بألفاظ مختلفة في يوحنا، الإصحاح الرابع.

(٩) في يوحنا (٢٠/ ٢١): «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا».

ومبعوثٌ، وقال لتلامذته: «إن من قبلكم وآواكم فقد قبلني، ومن قبلني فإنما يقبل من أرسلني، ومن قبل نبيًّا باسم نبيٍّ، فإنما يفوز بأجر من قبل النبي»(١).

فبين هاهنا في غير موضع أنه نبي مرسل، وأن سبيله مع الله سبيلهم معه. وقال متى التلميذ في إنجيله يستشهد على المسيح بنبوة أشعيا عن الله ﷻ: «هذا عبدي الذي اصطفيته، وحبيبي الذي ارتاحت إليه نفسي، أنا واضع روحي عليه، ويدعو الأمم إلى الحق»(٢)، فلن يحتاج إلى حجةٍ أوضح من هذا القول الذي جعلتموه حُجَّةً لكم، فقد أوضح الله أمره، وسمَّاه عبدًا، وأعلم أنه يضع عليه روحه، ويؤيده بها كما أيد سائر الأنبياء بالروح، فأظهروا الآيات المذكورة عنهم، وهذا القول يوافق ما بشر به جبريل الملك مريم حين ظهر لها، وقال القول الذي سقناه في صدر كتابنا.

وقال يوحنا التلميذ في الإنجيل عن المسيح عَلَيهِ السَّلَامُ: «إنَّ كلامي الذي تسمعون هو كلام مَنْ أرسلني»(٣)، وقال في موضعٍ آخر: «إن أبي أجلُّ وأعظم

---

(١) متَّى (١٠/ ٤٠، ٤١).

(٢) في متَّى (١٢/ ١٧، ١٨): «لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل: ١٨ هو ذا فتاي الذي اخترته، اخترته، حبيبي الذي سرت به نفسي، أضع روحي عليه، فيخبر الأمم بالحق».

والشاهد هنا أن متَّى جعل هذا النص بشارةً بالمسيح، وهو نص يشير إلى نبيٍّ مرسلٍ، وليس إلى إلهٍ متجسدٍ كما يزعم القوم، فهذا يدل على أن متَّى لم يره إلا نبيًّا مرسلًا.

- هذا محل الاستدلال، ولا يلزم من ذلك إقرار المصنف لمتَّى على هذا الاقتباس، بل الظاهر أنه لم يُصِبْ في هذا، وأن هذا النص لم يرد به المسيح، بل أريد به خاتم الرسل كما يأتي مبينًا في باب الدلائل والبشارات.

(٣) يوحنا (١٤/ ٢٤).

مني»(١)، وقال أيضًا: «كما أمرني أبي كذلك أفعل أنا، أنا الكرم وأبي هو الفلاح»(٢)...

قال: وقال المسيح في إنجيل يوحنا: «إني لو كنت أنا الشاهد لنفسي على صحة دعواي، لكانت شهادتي باطلةً، لكن غيري يشهد لي، فأنا أشهد لنفسي ويشهد لي أبي الذي أرسلني»(٣)، وقال المسيح لبني إسرائيل: «تريدون قتلي، وأنا رجلٌ قلت لكم الحق الذي سمعت الله يقوله»(٤).

قال: وقال في الرجل الذي أقامه من الموتى: «يا أبي، أشكرك على استجابتك دعائي، وأعترف لك بذلك، وأعلم أنك كل وقتٍ تجيب دعوتي، لكن أسألك من أجل هذه الجماعة ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتني»(٥). قال: فأيُّ تضرعٍ وإقرارٍ بالرسالة والمسألة والطلب للإجابة من الله ﷻ أشد من هذا أو أكثر؟...

وقال لوقا في آخر إنجيله: «إن المسيح عرض له وللوقا تلميذه جبريل في الطريق وهما محزونان، فقال لهما وهما لا يعرفانه: ما بالكما محزونين؟ فقالا: كأنك أنت وحدك غريب ببيت المقدس، إذ كنت لا تعلم ما حدث فيها في هذه الأيام من أمر يسوع الناصري، فإنه كان رجلًا نبيًّا قويًّا في قوله وفعله عند الله

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) في يوحنا (١٤/ ٣١)، (١٥/ ١): «ولكن ليفهم العالم أني أحب الآب، وكما أوصاني الآب هكذا أفعل، قوموا ننطلق من ههنا. ١ أنا الكرمة الحقيقية، وأبي الكرام».

(٣) ورد هذا المعنى بعبارةٍ أطول في يوحنا (٥/ ٣١-٣٦).

(٤) يوحنا (٨/ ٤٠).

(٥) بنحوه في يوحنا (١١/ ٤١، ٤٢).

وعند الأمة، أخذوه وقتلوه»(١) على قولهم فيه.

قال: فهذا قوله وأقوال تلاميذه قد تركتموها، وعقدتم على بدع ابتدعها لكم أولوكم تؤدي إلى الضلالة والشرك بالله جل ثناؤه...

قال: فهذا ما حضرنا من الآيات في تصحيح خلق المسيح وعبوديته، وبطلان ما يدعونه من ربوبيته، ومثله كثيرٌ في الإنجيل لا يحصى، فإذا كانت الشهادات منه على نفسه، ومن الأنبياء عليه، ومن تلاميذه بمثل ما قد بينَّاه في هذا الكتاب، وإنما اقتصرنا على الاحتجاج عليكم من كتبكم، فما الحجة فيما تدعونه له، ومن أي جهةٍ أخذتم ذلك، واخترتم الكلام الشنيع الذي يخرج عن المعقول، وتُنكره النفوس، وتنفر منه القلوب، الذي لا يصح بحجةٍ ولا قياسٍ ولا تأويلٍ على القول الجميل الذي تشهد به العقول، وتسكن إليه النفوس، ويشاكل عظمة الله وجلاله، قال: وإذا تأملتم كل ما بينَّاه تأمُّلَ إنصافٍ من أنفسكم، وإشفاقٍ عليها، علمتم أنه قول لا يحتمل أن يتأول فيه للناسوت شيئًا دون اللاهوت(٢).

مناقشته لاحتجاجهم بألفاظ البُنوَّة:

قال: فإن قلتم: إنه يثبت للمسيح البنوة بقوله: «أبي وأبيكم»، «ويا أبي»، «وبعثني أبي».

قلنا: فإن كان الإنجيل أُنْزل على هذه الألفاظ، لم تبدل، ولم تغير، فإن اللغة قد أجازت أن يُسمَّى الوليُّ ابنًا، وقد سمَّاكم الله جميعًا بنيه، وأنتم لستم في مثل

---

(١) ينظر لوقا (٢٤/ ١٣-٢١).

(٢) (٤/ ١٢٤).

حاله، ومن ذلك أنَّ الله ﷻ قال لإسرائيل في التوراة: «أنت ابني بكري»[(١)].

وقال لداود في الزبور: «أنت ابني وحبيبي»، وقال المسيح في الإنجيل للحواريين: «أريد أن أذهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»، فسمَّى الحواريين أبناء الله، وأقرَّ بأن له إلهًا هو الله، ومن كان له إله، فليس بإلهٍ كما تقولون، فإن زعمتم أن المسيح إنما استحق الإلهيَّة بأن الله سمَّاه ابنًا، فنلتزم ذلك، ونشهد بالإلهية لكل من سمَّاه ابنًا، وإلا فما الفرق؟

قال: فإن قلتم: إن إسرائيل وداود ونظراءهم إنما سموا أبناء الله على جهة الرحمة من الله لهم، والمسيح ابن الله على الحقيقة، تعالى الله عن ذلك، قلنا: يجوز لمعارضٍ أن يعارضكم، فيقول لكم: ما تنكرون أن يكون إسرائيل وداود ابني الله على الحقيقة، والمسيح ابن رحمة، وما الفرق؟[(٢)(٣)]

---

(١) قال الجعفري في التخجيل (١١٨): «لقد فاوضني بعض الرهبان ممن يدعي بنانًا في البيان، فأفضى الحديث معه إلى ذكر الابن والبنوة، فألزمته قول التوراة: «ابني بكري»، وقلت له: لعلَّ البكر يكون أحظى عند والده بطريف بره وتالده، فما تقول في بنوة إسرائيل، فقال: إسرائيل وغيره ابن النعمة، والمسيح ابنٌ على الحقيقة، فعكست عليه كلامه، فتلبَّد واختزى، ولجأ إلى ضعف العبارة واعتزى.

(٢) (٤/ ١٣٦).

(٣) قال الغزالي في الرد الجميل (٨٥): «أما ما تعلقوا به من إطلاق الأبوة على الله ﷻ، والبنوة على نفسه، ظانين بأن ذلك محصل غرضًا، أو مثبت خصوصية؛ يقع بها الامتياز، فليس الأمر كذلك، وبيانه: أنه قد جاء في التوراة التي يقولون بصدق ما فيها من النصوص: «ابني بكري بني إسرائيل». وقال أيضًا في التوراة: «قل لفرعون: إن لم ترسل ابني بكري ليعبدني في البرية، وإلا قتلت ابنك بكرك، يريد بابني: بني إسرائيل، وكان عدتهم إذ ذاك ستمائة ألف سوى النساء =

=

والصبيان»، هذا لفظ التوراة.

وفي مزامير داود، وهو عندهم لا ينطق في مزاميره إلا عن الوحي «وبنو العلي كلكم»، وأطلق عيسى ذلك عليه وعليهم، فقال: «أنا صاعدٌ إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم»، إن من يعتقد فيمن هذه كلماته أنه إلهٌ، لَمدفوعٌ عن الصواب الواضح.

وأطلق أيضًا ذلك عليهم فقط، فقال في إنجيل لوقا: «ولا تقطعوا رجاء أحدٍ، فيكون أجركم كثيرًا، وتكونوا بني العلي؛ لأنه رحيم على غير المنعمين الأشرار، وكونوا رحماء مثل أبيكم».

وأطلق ذلك أيضًا تلميذه يوحنا بن زبدى لما فهم المجاز الذي سنذكره، فقال في رسالته: «من يعترف بأن يسوع هو المسيح؛ فهو من الله مولود».

وإنَّما حمله على أن تجوز بمثل ذلك مع القطع بأنَّ الحقيقة غير مرادة؛ لأن الأب جُبِلَ على أن يكون شديد الحنان والرأفة والرحمة والشفقة لولده، حريصًا على أن يجلب إليه جميع الخيور، ويدفع عنه جميع الشرور، مجتهدًا على أن يوضح له طرق الخير، ويأمره بالمبادرة إليها، مسارعًا إلى تحذيره ممَّا يفضي به إلى عقوبة، أو لوم، أو ضرر دائم، أو جهالة ساترة لما يُرَادُ به في المستقبل، هذا وضع الأب فيما نشاهده، وأما الابن فوضعه أن يكون موقرًا لأبيه، معظمًا له، شديد الحياء منه، ممتثلًا أوامره، ملاقيًا لها بالإجلال والتعظيم وعدم المخالفة، واقفًا عند ما يأمره به، وينهاه عنه، والله ﷻ إذا قيس إحسانه إلى كل شيءٍ، ورحمته له، وشفقته عليه، وما جَبَله عليه من الخير، وما دفعه عنه من الشر، وما بيَّنه له مما هو لائقٌ بجلاله، ثم وفَّقه للعمل بمقتضاه، كان ما يصنعه الوالد بالنسبة إلى هذا تافهًا حقيرًا.

ثم توقير الأنبياء أيضًا لله، وحياؤهم منه، وانقيادهم لأوامره، ووقوفهم عند مناهيه، وإجلالهم له أعظم من صنيع الأبناء مع آبائهم، فهو لهم أرحم أبٍ، وهم له أبر ولدٍ، فهذا سرُّ التجوز في إطلاق مثل ذلك، فإذا تجوز في إطلاق الأب على الله، كان معناه: أنه راحم له، عطوف عليه، وإذا تجوز بإطلاق البنوة على نفسه، كان معناه أنه موقر لله، معظم له...

وها هم الآن أنفسهم مقيمون على إطلاق ذلك، فإذا رأوا راهبًا أو قسيسًا، قالوا له: يا أبانا، وليس هو أباهم حقيقةً، ولكن مرادهم بالإطلاق ما أشرنا إليه، وهو أنه ينزلونه في الشفقة منزلة الأب، وينزلون أنفسهم في توقيره منزلة الأبناء، وقد صرَّح داود عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بما أشرنا إليه في

خامساً:احتجاجهم باختصاص المسيح بمغفرة الذنوب:

فإن قلتم: إن الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء من قبل أن المسيح جاء إلى مُقْعدٍ، فقال: «قُم قُم، فقد غفرت لك، فقام الرجل، ولم يدع الله في ذلك الوقت»[(١)].

قلنا لكم: هذا إلياس أمَر السماء أن تمطر فأمطرت، ولم يدع الله في ذلك الوقت[(٢)]، وكذلك اليسع أمر نعمان الرومي أن ينغمس في الأردن من غير دعاءٍ ولا تضرعٍ[(٣)]، على أنَّا قد وجدناه في الإنجيل قد تضرَّع، وسأل مسائل قد تقدَّم ذكرها، وقال في بعض الإنجيل: «يا أبي، أشكرك على استجابتك دعائي، وأعلم أنك في كل وقتٍ تجيب دعوتي، لكن أسألك من أجل هذه الجماعة لِيؤمنوا بأنك أنت أرسلتني».

فإن قلتم: إنَّ الغفران من الله ﷻ، وأن المسيح قال لبعض بني إسرائيل:

=

مزاميره، فقال: «كما يترأف الأب على بنيه، كذلك يترأف الرَّبُّ على خائفيه».

فقد ثبت بما ذكرناه أن إطلاق البنوة عليه غير مثبتٍ خصوصية يقع بها تميز، وصريح الإنجيل ناطق بصحة هذا التأويل، وهو قوله: «فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا بني الله»، أي: أعطاهم ما يتمكنون به من تحصيل ما ذكر من المعاني المستفادة من الأبوة على حد ما أول».اهـ. باختصارٍ.

(١) في متَّى (٩/ ١-٦): «(١) فدخل السفينة، واجتاز وجاء إلى مدينته. (٢) وإذا مفلوج يقدمونه إليه مطروحًا على فراش، فلما رأى يسوع إيمانهم قال للمفلوج: «ثق يا بني، مغفورة لك خطاياك». (٣) وإذا قومٌ من الكَتَبَة قد قالوا في أنفسهم: «هذا يجدف» (٤) فعلم يسوع أفكارهم، فقال: «لماذا تفكرون بالشر في قلوبكم؟ (٥) أيما أيسر، أن يقال: مغفورة لك خطاياك، أم أن يقال: قم وامش؟ (٦) ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطانًا على الأرض أن يغفر الخطايا»، حينئذٍ قال للمفلوج: «قم احمل فراشك، واذهب إلى بيتك» ٧ فقام ومضى إلى بيته.

(٢) ينظر الملوك الأول، الإصحاح الثامن عشر.

(٣) ينظر ملوك الثاني (٥/ ١-١٥).

«قُم، فقد غفرت لك»، والله هو الذي يغفر الذنوب.

قلنا: فقد قال الله في السِّفر الخامس من التوراة لموسى: «اخرج أنت وشعبك الذي أخرجت من مصر، وأنا أجعل معكم مَلَكًا يغفر ذنوبكم»، فإن زعمتم أنَّ المسيح إله؛ لأنه غفر ذنوب المُقْعد، فالملك إذا إلهٌ؛ لأنه يغفر ذنوب بني إسرائيل وإلا فما الفرق؟[١]،[٢].

سادسًا: احتجاجهم بإطلاق الربوبية على المسيح:

فإن قلتم: إنَّ الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء من قبل أن الله سماه ربًّا، فقال: «ابن البشر رب السبت»[٣].

قلنا: فهذه التوراة تُخْبر بأن لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رأى الملكين قد أقبلا من

---

(١) (٤/ ١٣٧).

(٢) وقد يقال أيضًا: ليس في هذا الخبر إلا أن الله أعطى المسيح سلطانًا على الأرض لمغفرة الخطايا؛ إمَّا من جهة الخبر، أي: أن الله يطلعه على هذا، فيخبر به يقينًا، وإما من جهة الشفاعة أي: أن الله جعل دعاءه بذلك مقبولًا لا يرد، وليس يلزم من هذا تحقق الربوبية أو شيء من لوازمها له، وهو لم يدع أكثر من هذا كما في قوله: «ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطانًا على الأرض أن يغفر الخطايا»، أي: أنه يفعل ذلك بسلطان الله.
وقد فهم مَن شهد الواقعة أنَّ هذا سلطان أعطاه الله إليه دون أن ينسبوا إليه الألوهية أو لوازمها، كما في متَّى (٩/ ٨): «رأى الجموع تعجَّبوا ومجَّدوا الله الذي أعطى الناس سلطانًا مثل هذا».
ومثل هذا لا يختص بالمسيح، فقد يكون لغيره، كما أخبر نبينا عن غفران الله ذنوب أهل بدرٍ، وأخبر عن العشرة وعكاشة وغيرهم أنهم من أهل الجنة، وقال لامرأةٍ: «**إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة**»، وقال: «**أوَّل جيشٍ من أُمَّتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم**»، وغير ذلك مما أعطاه الله له من الخبر اليقين، أو الشفاعة المقبولة.

(٣) ورد هذا في غير موضعٍ منها، متَّى (١٢/ ٨)، ومرقس (٢/ ٢٨)، ولوقا (٦/ ٥).

البرية لهلاك قومه قال لهما: «يا ربي، ميلًا إلى منزل عبدكما»(١)، وقد تقدم لنا احتجاج في هذا الكتاب بذكر من سمي في الكتب ربًّا من يوسف وغيره(٢)، فإن كان المسيح إلهًا لأنه سمي ربًّا، فهؤلاء -إذًا- آلهة؛ لأنهم سموا بمثل ذلك.

فإن قلتم: إن الأنبياء قد تنبَّأت بإلهية المسيح، فقال أشعيا: «العذراء تحبل وتلد ابنًا، ويدعى اسمه «عمانويل»، وتفسيره: «معنا إلهنا».

قلنا: إن هذا اسم يعاره السيد الشريف من الناس، وإن كان الله ﷻ المنفرد بمعنى الإلهية جل ثناؤه، فقد قال الله في التوراة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قد جعلتك لهارون إلهًا، وجعلته لك نبيًّا»(٣)، وقال في موضعٍ آخر: «قد جعلتك يا موسى إلهًا لفرعون»، وقال داود في الزبور لمن كانت عنده حكمة: «كلكم آلهة، ومن العلية تدعون»(٤).

فإن قلتم: إن الله ﷻ جعل موسى إلهًا لهارون على معنى الرياسة عليه.

قلنا: وكذلك قال أشعيا في المسيح إنه إلهٌ لأمته على هذا المعنى، وإلا فما الفرق؟(٥)

---

(١) في تكوين (١٩/ ٢): «يا سيدي، ميلا إلى بيت عبدكما».

(٢) قال كما في (٤/ ١٣٤): «قال: وقد سمى الله -جلَّ ثناؤه- يوسف ربًّا، قال داود في مزمور مائة وخمسة: (وللعبودية بيع يوسف، وشدوا بالكبول رجليه، وبالحديد دخلت نفسه حتى صدقت كلمته قول الرب: جربه، بعث الملك فخلاه وصيَّره مسلطًا على شعبه، وربًّا على بنيه، ومسلطًا على فتيانه)».

(٣) في خروج (٤/ ١٦): «وهو يكلم الشعب عنك، وهو يكون لك فمًا، وأنت تكون له إلهًا».

(٤) في مزامير (٨٢/ ٦): «أنا قلت: إنكم آلهة، وبنو العلي كلكم».

(٥) قال الباقلاني في التمهيد (١٠١): «وإن قالوا: إنما قلنا: إن المسيح إله؛ لأن الله قال في الكتب: إنه إلهٌ، وسمَّاه بذلك، فقال: «العذراء البتول تحمل وتلد ابنًا، ويدعى اسمه إلهًا».

=

فإن قلتم: إنَّ المسيح قد قال في الإنجيل: «مَن رآني فقد رأى أبي»(١)، «وأنا وأبي واحد»(٢).

قلنا: إن قوله: «أنا وأبي واحد»، إنما يريد به أن قبولكم لأمري هو قبولكم لأمر الله، كما يقول رسول الرجل: أنا ومَن أرسلني واحد، ويقول الوكيل: أنا ومن وكلني واحد؛ لأنه يقوم فيما يؤديه مقامه، ويؤدي عنه ما أرسله به، ويتكلم بحُجَّته، ويطالب له بحقوقه(٣).

=

يقال لهم: فقد قال الله أيضًا لموسى: «إنِّي قد جعلتك إلهًا لهارون»، و«جعلتك إلهًا لفرعون»، على معنى أنك مدبرٌ له، وآمرٌ له، وواجبةٌ عليه طاعتك، وقد كانت هذه لغة.

ثم يقال: لم يُخْبر الله تعالى أنه هو سمَّاه أو يسميه إلهًا، وإنما قال: يدعى اسمه إلهًا، فيمكن أن يكون أراد أن قومًا يغلون في تعظيمه، ويدعونه بذلك، ويتجاوزون به حد الخلق، ويكذبون في ذلك ويفترون، فمن أين لكم إنَّ ما سمي به من ذلك واجب صحيح، فلا يجدون إلى ذلك سبيلًا».اهـ.

(١) في يوحنا (١٢/ ٤٥): «والذي يراني، يرى الذي أرسلني».

(٢) في يوحنا (١٠/ ٣٠): «أنا والآب واحد».

(٣) قال الغزالي في الرد الجميل (٥٦): «النص الأول ذكره يوحنا في إنجيله في الفصل الرابع والعشرين: «أنا والأب واحد، فتناول اليهود حجارةً ليرجموه، فأجابهم قائلًا: أريتكم أعمالًا كثيرةً حسنةً من عند أبي من أجل أي الأعمال ترجمونـي؟ فأجابه اليهود قائلين: ليس من أجل الأعمال الحسنة نرجمك، ولكن لأجل التجديف، وإذ أنت إنسان تجعل نفسك إلهًا. فأجابهم يسوع: أليس مكتوبًا في ناموسكم: أنِّي قلت: إنكم آلهة، فإن كان قد قال لأولئك آلهة؛ لأنَّ الكلمة صارت إليهم، وليس يمكن أن ينتقص المكتوب فيكم بالحري الذي قدسه وأرسله إلى العالم»، هذا آخر كلامه.

فنقول: هذا النص بالغ في تحصيل غرضنا الذي نحاوله في مسألة الاتحاد، وبيانه: أن اليهود =

وكذلك قوله: «مَن رآني فقد رأى أبي»، يريد بذلك أنَّ من رأى هذه الأفعال التي أظهرها، فقد رأى أفعال أبي(١)(٢).

=

لمَّا أنكروا عليه قوله: «أنا والأب واحد»، وهذه هي مسألة الاتحاد نفسها، ظانِّين بأنه أراد بقوله: «أنا والأب واحد»، مفهومه الظاهر، فيكون إلهًا حقيقةً، انفصل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن إنكارهم، مصرحًا بأن ذلك من قبيل المجاز، ثم أبان لهم جهة التجوُّز بضربه لهم المثل، فقال: «قد أطلق عليكم في ناموسكم أنكم آلهةٌ، ولستم آلهةً حقيقةً»، وإنما أطلق عليكم هذا اللفظ لمعنًى، وهو صيرورة الكلمة إليكم، وأنا قد شاركتكم في ذلك...

فهذا ضربٌ من المجاز، استعماله حسن شائع غير منكورٍ، وقد صرح عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا النص بجهة المجاز بقوله: «لأنَّ الكلمة صارت إليهم»، ومحالٌ أن يريد بالكلمة لفظًا ذا حروفٍ، وإنما يريد بالكلمة سرًّا منه يهبه لمن يشاء من عباده، يحصل لهم به التوفيق إلى ما يصيرهم غير مباينين لله ﷻ، بل يصيرهم لا يحبون إلا ما يحبه، ولا يبغضون إلا ما يبغضه، ولا يكرهون إلا ما يكرهه، ولا يريدون إلا ما يريده من الأقوال والأعمال اللائقة بجلاله، فإذا أصارهم التوفيق إلى هذه الحالة، حصل لهم المعنى المصحح للتجوُّز، ويدل على صحة هذا التأويل الصارف إلى المجاز المذكور أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ احترز عن إرادة ظاهر هذا النص الدَّال على الاتحاد بقوله: «فيكم بالحري الذي قدسه وأرسله»، فصرح بأنه رسول متبرئًا من الإلهية التي تخيل اليهود أنه ادعاها مثبتًا لنفسه خصوصية الأنبياء، وعلو درجاتهم على غيرهم ممَّن ليسوا أنبياء بقوله: «فيكم بالحري الذي قدسه وأرسله»، أي: قد شاركتكم في السبب المصحح للتجوُّز، وفضَّلتكم بمراتب النُّبوة والرسالة، ولو لم يكن ما ضربه لهم من التمثيل جوابًا قاطعًا لما تخيلوه من إرادة ظاهر اللفظ، لكان ذلك مغالطةً منه، وغشًّا في المعتقدات المفضي الجهل بها إلى سخط الإله، وهذا لا يليق بالأنبياء المرسلين الهادين إلى الحق؛ لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة، غير جائزٍ للأنبياء».اهـ. باختصار.

(١) (٤/ ١٣٩).

(٢) قال الغزالي عن هذا النص وأمثاله في الرد الجميل (٦٠): «وقد صرح في إنجيل يوحنا أيضًا، في الفصل الخامس والخمسين بما يدلُّ على أنَّ هذا التأويل الذي ذكر هو المراد، فقال: «مَنْ
=

سابعًا: احتجاجهم بقول المسيح: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»:

فإن قلتم: إنَّ المسيح قد قال في الإنجيل: «أنا قبل إبراهيم»(١)، فكيف يكون قبل إبراهيم، وإنما هو من ولده؟ ولكن لما قال: «قبل إبراهيم»، علمنا ما أراد

=

يؤمن بي، فليس يؤمن بي فقط، بل وبالذي أرسلني، ومن رآني فقد رأى الذي أرسلني(٣)».
لما جعل طاعته نفس طاعة الإله، لزم أن يكون مخبرًا عن الإله، فقال: «ومَن رآني فقد رأى الذي أرسلني»، أي: أنا أخبرعنه حقيقةً، فأمري أمره، ونهيي نهيه، وجميع أحكامي عنه صادرة، وهذا شأن الأنبياء الصادقين، ومن أوضح ما يستدلُّ به على أن حقائق هذه النصوص ليست مرادةً، وأنها محمولةٌ على المجاز السالف ذكره، أن يوحنا بن زبدى الإنجيلي المنقولة هذه النصوص من إنجيله، وهو عندهم من أجلِّ تلامذته، حتى إنهم يغلون فيه فيسمونه: حبيب الرب، لما فهم هذه المعاني المذكورة، وعلم أن هذه النصوص مصروفة عن حقائقها إلى المجاز المذكور، قال في رسالته الأولى المذكورة في كتاب الرسائل: «الله لم يره أحد قط، فإن أحب بعضنا بعضًا، فالله حالٌّ فينا، ومحبته كاملة فينا، وبهذا نعلم أنَّا حالُّون فيه، وهو أيضًا حالٌّ فينا؛ لأنه قد أعطانا من روحه، ونحن رأينا ونشهد أن الأب أرسل ابنه لخلاص العالم»، وذكر فيها أيضًا: «مَن يعترف أن يسوع ابن الله، فالله حالٌّ فيه، وهو أيضًا حالٌّ في الله»، أطلق هذا التلميذ الجليل -عندهم- هذه الكلمات مصرحًا فيها بالحلول بقوله: «وبهذا نعلم أنَّا حالُّون فيه، وهو أيضًا حالٌّ فينا»، فإن يكن هذا التلميذ الجليل -عندهم- فهم أنَّ الحلول الذي أطلقه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في النصوص المذكورة مقتضٍ للإلهية، فيكون مثبتًا لنفسه ولغيره الإلهية بقوله: «وبهذا نعلم أنَّا حالُّون فيه، وهو أيضًا حالٌّ فينا»، وهم لا يعتقدون فيه ذلك، ولا في أحدٍ من سائر تلامذة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأتباعه، فتعيَّن أنه فهم من النصوص ما أشرنا إليه من المجاز السالف ذكره.
ويدل على ذلك أنه أومأ إلى جهة المجاز بقوله: «لأنه قد أعطانا من روحه»، يريد: أنه أفاض علينا سرًّا وعنايةً علمنا بهما ما يليق بجلاله، ثم وفَّقنا إلى العمل بمقتضاه، فلا نريد إلا ما يريده، ولا نحبُّ إلا ما يحبه، فحينئذٍ تعود الحالة جذعةً في إرادة المجاز المذكور».اهـ.

(١) في يوحنا (٨/ ٥٨): «قال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن».

أنه قبل إبراهيم من جهة الإلهية.

قلنا: هذا سليمان بن داود يقول في حكمته: «أنا قبل الدنيا، وكنت مع الله حيث بدأ الأرض»(١)، فما الفرق بينه وبين من قال: إنَّ سليمان ابن الله، وأنه إنَّما قال: أنا قبل الدنيا بالإلهية، وقد قال داود أيضًا في الزبور: «ذكرتك يا رب من البدء، وهديت بكلِّ أعمالك»(٢).

فإن قلتم: إنَّ كلام سليمان بن داود متأول؛ لأنهما من ولد إسرائيل، وليس يجوز أن يكونا قبل الدنيا.

قلنا: وكذلك قول المسيح: أنا قبل الدنيا متأولٌ؛ لأنه من ولد إبراهيم، ولا يجوز أن يكون قبل إبراهيم، فإن تأولتم تأولنا، وإن تعلقتم بظاهر الخبر في المسيح تعلقنا بظاهر الخبر في سليمان وداود، وإلا فما الفرق؟(٣)(٤).

---

(١) في سفر الأمثال (٨/ ٢٧-٣٠): «لما ثبت السماوات كنت هناك أنا، لما رسم دائرة على وجه الغمر. ٢٨ لما أثبت السحب من فوق، لما تشددت ينابيع الغمر. ٢٩ لما وضع للبحر حده، فلا تتعدى المياه تخمه، لما رسم أسس الأرض،٣٠ كنت عنده صانعًا، وكنت كل يوم لذته، فرحة دائمًا قدامه».

(٢) في مزامير (١١٩/ ٥٢): «تذكرت أحكامك منذ الدهر يا رب، فتعزيت».

(٣) (٤/ ١٤١).

(٤) قال الغزالي في الرد الجميل (٩٥): «المعضلة الثانية: ذكرها يوحنا في الفصل الخامس والعشرين: إبراهيم أبوكم اشتهى أن يرى يومي، فرأى وفرح، فقال له اليهود: لم يأت لك بعد خمسون سنةً، وقد رأيت إبراهيم، فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم؛ إني قبل أن يكون إبراهيم(٢)»، هذا آخر كلامه.

فنقول إذًا: هذا الكلام ناطق بالمجاز؛ لأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يرَ يوم ولادته، ولا يوم إرساله، ولا يوم حصول الحقيقة الثالثة له كما يزعمون؛ لأنَّ هذه كلها حدثت بعد إبراهيم، بل المراد =

=

من ذلك أن الأنبياء يحبُّون دوام طاعة الله، ودوام إظهار شرائعه المتكفلة بمصالح العباد، فلمَّا أعلم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ برسالة عيسى وهدايته للعالم، وما يظهر على يده من مصالح العباد على ما اقتضته شريعته، سرَّ بذلك، فالرؤية هاهنا محمولةٌ على البصيرة التي هي العلم، لا على البصر، وقد صرَّح بولص في رسالته التي سيَّرها إلى قورنيته بأبلغ من ذلك، وهذا يدلُّ على أنه أراد عين ما أردناه، فقال: «ولكننا ننطق بحكمة الله الخفية، بالسر الذي لم يزل مستترًا، وكان الله تقدم فقررها قبل العالمين»، يريد أن هذه الأحكام مقررة في علم الله، فليست إذًا تقولًا وافتراءً، وهذا عين ما أوَّلناه، وقد صرَّح في قصص الرسل في الفصل الثالث بمثل ذلك عظيم تلامذته بطرس بن يونا المعروف بشمعون الصفا، قائلًا: «يا بني إسرائيل، اسمعوا هذا الكلام، إن يسوع الناصري رجل ظهر عندكم من الله بالقوى والآيات التي فعلها الله على يديه بينكم كما تعلمون أنتم، فهذا الذي كان مقررًا لهذا من سابق علم الله ومشيئته»، صرَّح هذان العظيمان عندهم بعين ما أوَّلناه، وزاد ابن يونا زيادةً، فصرح بأنه رجلٌ، وصرَّح بأن القوى والآيات التي ظهرت على يديه ليست واقعةً بفعله، بل صرَّح بأن فاعلها إنما هو الله بقوله: «رجل ظهر عندكم بالقوى والآيات التي فعلها الله على يديه»، وهذا التلميذ المصرح بجميع ما ذكر لا يسع أحدًا منهم أن يحظر بباله مخالفته، وصريح الإنجيل ناطق عمومًا وخصوصًا بوجوب متابعته، والوقوف عند أقواله...

ويدل على صحة هذا التأويل أيضًا قوله: «إنِّي قبل إبراهيم»، القبلية هاهنا مُحَالٌ أن تكون مضافةً إلى ناسوته، لا باعتبار انفكاكه عن اللاهوت، ولا باعتبار تعلُّقه به، ومُحَالٌ أن تكون أيضًا مضافةً للحقيقة الثالثة لما تبين، إذ هذه كلها حوادث لم تكن موجودةً عند وجود إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل المرادُ بالقبلية علمُهُ بتقدير الإرسال، وما يترتب عليه من الإرشاد، هذا هو المعنى الذي حمله على السرور.

فإن قيل: فأي خصوصيةٍ له في ذلك؛ إذ هذا المحمل مشتركٌ بينه وبين سائر الأنبياء، بل وبين كلِّ موجودٍ؟

فالجواب: أنَّه لم يذكر ذلك في معرض الخصوصية، وإنما ذكره قاطعًا به استبعاد اليهود لسرور إبراهيم، وفرحه بيومه، وتصحيحًا لصدقه فيما أخبر؛ لأنَّ الأنبياء إذا صدر منهم مثلٍ

ثامنًا: احتجاجهم بآيات التلاميذ:

فإن قلتم: إن تلاميذ المسيح كانوا يعملون الآيات باسم المسيح.

قلنا لكم: فقد قال الله -جلَّ ثناؤه- ليحيى بن زكريا: «قد أيَّدتك بروح القدس، وبقوة إلياس، وهي قوة تفعل الآيات»(١)، فأضاف القوة إلى إلياس، فإن زعمتم أن المسيح إله لأنه فُعِلَت الآيات باسمه، فما الفرق بينكم وبين من قال: إن إلياس إلهٌ، فإنه فُعلت بقوته الآيات؟

فإن قلتم: إن الخشبة التي صُلب عليها المسيح على زعمكم ألصقت بميتٍ فعاش، فإن هذا دليل على أنه إلهٌ. قلنا لكم: فما الفرق بينكم وبين من قال: إنَّ اليسع إله؟ واحتج في ذلك بأنَّ كتاب «سفر الملوك» يخبر بأن رجلًا مات، فحمله أهله إلى المقبرة.

=

ذلك، إنما يصدر في معرض التكذيب لأقوالهم، وإن ما يدَّعونه من الرسالة ليس ثابتًا في نفس الأمر، فيكون ذلك ردًّا على المكذب، وإعلامًا له بأن هذه الدعوى ثابتة في نفس الأمر، مقررة في علم الله قديمًا، ويدل على صحة هذا التأويل أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما ورد منه ذلك حين أعظم اليهود قوله، قائلين: «لم يأت لك بعد خمسون سنة».

فذكر حِينَئِذٍ الجهة المصححة لسرور إبراهيم، فيحصل لهم بذلك استمالة مُكذِّبيهم إلى صدقهم فيما يدَّعونه من النُّبوة والرسالة، وتقوية ظنون مُصدِّقيهم الذين لم يصلوا إلى درجة العلم». اهـ. باختصار.

(١) قد جاء في وصف يحيى في لوقا (١/ ١٥-١٧): «لأنه يكون عظيمًا أمام الرب، وخمرًا ومسكرًا لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس. ١٦ ويرد كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم. ١٧ ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء، والعصاة إلى فكر الأبرار، لكي يهيئ للرب شعبًا مستعدًّا».

فلمَّا كانوا بين القبور، رأوا عدوًّا لهم يريد أنفسهم، فطرحوا الميت عن رقابهم، وبادروا إلى المدينة، وكان الموضع الذي ألقوا عليه الميت قبر اليسع، فلما أصاب ذلك الميت تراب قبر اليسع، عاش وأقبل يمشي إلى المدينة[١]، فإن زعمتم أن المسيح إله لأَنَّ الخشبة التي ذكروا أنه صلب عليها ألصقت بميتٍ فعاش، فاليسع إله؛ لأن تراب قبره لصق بميت فعاش[٢].

تاسعًا: احتجاجهم بالولادة المعجزة للمسيح:

فإن قلتم: أن المسيح كان من غير فحلٍ.

قلنا لكم: قد كان ذلك، وليس أعجوبة الولادة توجب الإلهية، ولا الربوبية؛ لأن القدرة في ذلك للخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لا للمخلوق، وعلى أنه يوجدكم لأَنَّ حواء خُلقَت من فحلٍ بلا أنثى، وخلق أنثى من ذكرٍ بلا أنثى أعجب من ذكرٍ من أنثى بغير ذكرٍ، وأعجب من ذلك أن آدم خلقه الله من ترابٍ، وخَلْق بشرٍ من تراب أعجبُ وأبدعُ من خلق ذكرٍ من أنثى بلا فحلٍ، فما الفرق؟

قال: وهذه الأسباب التي ذكرناها كلها هي الأسباب التي تتعلقون بها في نِحْلتكم المسيح الربوبية، وإضافتكم إليه الإلهية، وقد وصفناها على حقائقها عندكم، وقبلنا فيها قولكم، وإنْ كنَّا لا نشك في أن أهل الكتاب قد حرَّفوا بعض ما فيها من الكلام عن مواضعه، وأوجدناكم بطول ما تنتحلونه، وفساد ما تتأوَّلونه من الكتب التي في أيديكم التوراة والزبور والأنبياء والإنجيل، فما الذي

(١) ينظر الملوك الثاني (١٣/ ٢٠، ٢١).

(٢) (٤/ ١٤٢).

يثبت الحجة بعد ذلك لكم؟[(١)][(٢)].

عاشرًا: الاحتجاج الكتابي على عبودية المسيح:

قال: وقد قال السيد المسيح في الإنجيل لتلاميذه لمَّا سألوه عن الساعة والقيامة: «إن ذلك اليوم وتلك الساعة لا يعرفه أحدٌ، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن أيضًا، ولكن الأب وحده يعرفه»[(٣)].

قال: فهذا إقرار منه بأنه منقوص العلم، وأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أعزُّ وأعلم منه، وأنه خلافه وأعلى منه، وقد بين بقوله: «أحد» عمومه بذلك الخلق جميعًا، ثم قال: «ولا الملائكة»، وعندهم من علم الله ما ليس عند أهل الأرض.

ثم قال: «ولا الابن»، وله من القوة ما ليس لغيره، وشهد قوله هذا شهادة واضحة عليه بأنه لا يعلم كلَّ ما يعلمه الله، بل ما علمه الله إياه، وأطلعه على معرفته، وجعله له، وأنه لِقصور معرفته بكل الأشياء ليس بحيث يصفونه من الربوبية، وأنه هو الله ومن جوهر أبيه، تعالى الله الخالق لكل شيءٍ علوًّا كبيرًا، ولو كان إلهًا كما يقولون لعلم ما يعلمه الله من سائر الأشياء وسرائر الأمور

---

(١) (٤/ ١٤٣).

(٢) قال الباقلاني في التمهيد (١٠١): «وإن هم قالوا: إن عيسى إله، وإن الكلمة اتَّحدت به؛ لأنه وُلِدَ لا من فحل، وليس كذلك من تقدم من الرسل.

فيقال لهم: فيجب أن يكون آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلهًا؛ لأنه وُجِدَ لا من ذكرٍ، ولا أنثى، فهو أبعد عن صفة المحدث؛ لأنه لم يَحْوه بطن مريم، ولا غيره، ولا كان من معدن ولدٍ، ولا موضع حملٍ لهم، وكذلك يجب أن تكون حواء ربًّا؛ لأنها خُلقَت من ضلع آدم من غير ذكرٍ، ولا أنثى، فهو أبعد، وكذلك المطالبة عليهم في وجوب كون الملائكة آلهةً؛ لأنهم لا من ذكرٍ، ولا أنثى، ولا على وجه التبنِّي.

(٣) متَّى (٢٤/ ٣٦).

وعلانيتها، إذا كان هذا المعنى ليس من الكلام الذي إذا سئلتم عنه تعلقتم بأنه قيل للناسوت دون اللاهوت.

قلت[١]: مقصوده بذلك أنه صرح بأنه لا يعلمه أحدٌ، ثم خص الملائكة بالذكر؛ لئلَّا يظن أن أحدًا منهم يعلمه، فقال: «ولا الملائكة الذين في السماء»، ثم قال: «ولا الابن يعرفه، وأن الأب وحده يعرفه»، فنفى معرفة الابن، وأثبت أن الأب وحده يعرفه، ومراده بالابن المسيح، فعرف أن المسيح لا يعرفه، وأثبت أن الرَّبَّ يعرفه دون الابن.

ودلَّ ذلك على أن لفظ الابن عند المسيح إنما يراد بها الناسوت وحده، إذ كان لا يجوز نفي العلم عن اللاهوت، فإنَّ اللاهوت يعلم كل شيءٍ، وقد دلَّ ذلك على أن قوله: «عمدوا الناس باسم الأب والابن»، المراد به الناسوت وحده، كما أريد بلفظ الابن في سائر كلامه وكلام غيره لم يرد قط أحد منهم بلفظ الابن اللاهوت، بل إطلاق الابن على اللاهوت ممَّا ابتدعته النصارى، وحملوا عليها كلام المسيح، فابتدعوا لصفات الله أسماء ما أنزل الله بها من سلطانٍ، وحملوا عليها كلام المسيح، وإنما يحمل كلام الأنبياء عليهم السلام وغيرهم على معنى لغتهم التي جرت عادتهم بالتكليم بها، لا على لغةٍ يحدثها من بعدهم، ويحمل كلامهم عليها...

قال الحسن بن أيوب: ومثل هذا أنه لما خاطبه الرجل على ما كتب في الإنجيل، فقال له: «أيها الخير، فقال: ليس الخير إلا الله وحده».

---

(١) القائل هو ابن تيمية.

قلت: وبعضهم يترجمه: «أيها الصالح، فقال: ليس الصالح إلا الله وحده»[(١)].

قال: ومثله قوله في الإنجيل: «إنِّي لم آت لأعمل بمشيئتي، لكن بمشيئة من أرسلني»[(٢)]. قال: ولو كانت له مشيئة لاهوتية كما يقولون، لَما قال هذا القول، فقد أبطل به ما تدعونه في ذلك.

قال: ثم أنتم مع ذلك تدعون أن المسيح كلمة الله، ومن قوة الله غير بائنةٍ منه، ولا منفصلة عنه، وتشهدون عليه في الإنجيل بقوله: إنه يصعد إلى السماء، ويجلس عن يمين أبيه، ويدين الناس يوم القيامة، ويجازيهم بأعمالهم، ويتولَّى الحكم بينهم، وأن الله ﷻ منحه ذلك؛ إذ كان لا يراه أحد من خلقه في الدنيا، ولا في الآخرة، فإن كان هذا الجالس للحكومة بين العالمين يوم الدين، والقاعد عن يمين أبيه وهو شخص قائم بذاته لا يشك فيه هو الجسد الذي كان في الأرض المتوحد به الربوبية، فقد فَصَلتُمْ بين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وبينه، وبعَّضتموه باجتماعهما في السماء شخصين متباينين أحدهما عن يمين صاحبه، وهذا كفرٌ وشركٌ بالله ﷻ وإن كان جسدًا خاليًا من الإلهية، وهي الكلمة، وقد عادت إلى الله كما بدت منه، فقد زال عنه حكم الربوبية التي تنتحلونه إياها.

قال: ونسألكم عن واحدةٍ نحب أن تخبرونا بها، هي أصل ما وضعتموه من عبادة الثلاثة الأقانيم التي ترجع بزعمكم إلى جوهرٍ واحدٍ وهو اللاهوت، ما هو؟ ومن أين أخذتموه؟ ومَن أمركم به؟ وفي أيِّ كتابٍ نزل؟ وأي نبيٍّ تنبأ به؟

---

(١) جاء بهذا اللفظ في غير موضعٍ، متَّى (١٩/ ١٧)، مرقس (١٠/ ١٨)، لوقا (١٨/ ١٩).

(٢) يوحنا (٦/ ٣٨).

أو أي قولٍ للمسيح تدعونه فيه؟ وهل بنيتم أمركم في ذلك إلا على قول «متى» التلميذ على المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال لتلاميذه حيث أراد أن يفارقهم: «اذهبوا فعمدوا الناس باسم الآب والابن وروح القدس».

قال: وهذا كلام يحتمل معناه -إن كان صحيحًا- أن يكون ذهب فيه بأن يجمع هذه الألفاظ إلى أن تجتمع لهم بركات الله، وبركة نبيه المسيح وروح القدس التي يؤيد بها الأنبياء والرسل، وقد نراكم إذا أردتم الدعاء بعضكم لبعضٍ قلتم: صلاة فلانٍ القديس تكون معك. ومعنى الصلاة: الدعاء. واسم فلان النَّبي يعينك على أمورك، وكما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء: ٥٩] يقرن طاعته نبيه وأولي الأمر من المسلمين، أفنقول لذلك إنهم جميعًا آلهة؟...

وإذا قلتم بثلاثة أقانيم، كل أقنومٍ بذاته، فلا بدَّ من أن تعترفوا ضرورةً بأن كل أقنوم منها حي سميع بصير عالم حكيم منفرد بذاته، كما يقولون في المسيح: إنه جالسٌ عن يمين أبيه، فنراكم أخذتم الأقنومين اللذين أحدثتموها مع الله من جهة أن الله حكيم حي، فحكمته الكلمة وهي المسيح، وروحه روح القدس، وهذه صفةٌ من صفات الله مثلها كثيرٌ؛ لأنه يقال: حكيم عليم سميع بصير حي قدير...

وقال الحسن بن أيوب أيضًا: إنَّا كلما تأملنا معكم في نسبة المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الإلهية، وعبادتكم له مع الله على الجهة التي تذهبون إليها، وطلبنا لكم الحجة في ذلك من كتبكم، ازددنا بصيرةً في استحالة ذلك، ووضعكم له من القول ما يثبت لكم به حجة، ولا يشهد به لكم شيء من كتبكم، ووجدنا أبين ما جاء في المسيح وصحة أمره فيما أتى به ما قال «متى» التلميذ: «إنه لما جاء

يسوع إلى أرض قيسارية سأل تلاميذه، فقال: ماذا يقول الناس في أنِّي ابن البشر؟ فقالوا: منهم مَن يقول: إنك يوحنا المعمداني، وآخرون يقولون: إنك أرميا، أو أحد الأنبياء. فقال لهم يسوع: فأنتم ماذا تقولون؟ فأجابه سمعان الصفا، وهو رئيسهم، فقال: أنت المسيح ابن الله الحق، فأجابه المسيح وقال: طوبى لك يا سمعان ابن يونان، إنه لم يطلعك على هذا لحمٌ، ولا دمٌ، ولكن أبي الذي في السماء»(١).

وحكى لوقا في إنجيله هذا الخبر، فقال: «إن سمعان أجابه فقال: أنت مسيح الله»(٢)، ولم يقل: ابن الله، فهذا كلام تلميذه الرئيس فيه، وأرضاه ما قال. وقوله: إنه لم ينطق بذلك إلا ما أوحاه الله في قلبه، ولم ندفعكم قط عن أنه مسيح الله، ولا عن أنه كما تقولون في لغتكم أنه ابن الله بالرحمة والصفوة مع هذا الاختلاف الواقع في ذلك في الإنجيلين، وقد قال مثل ذلك فيكم جميعًا: «إن الله إلهي وإلهكم، وأبي وأبيكم»، فنعمل على احتجاجكم بأنه ليس مثلكم في معنى النبوة، ونجعله مثل من سمي في الكتب ابنًا على جهة الاصطفاء والمحبة مثل: إسرائيل وغيره، بل قد خص إسرائيل بأن قال ﷻ: «أنت ابني بكري»، وهذا كلام له مذهب في اللغة القديمة التي جاءت بها الكتب، وليست بموجبة الإلهية إذ كان قد شاركه في هذا الاسم غيره، فلم لا جعلتموه كما جعل نفسه؟

قال: ونسألكم أيضًا عن واحدةٍ: لم سميتم الأب أبًا والابن ابنًا؟ فإنه إن كان

(١) ينظر متَّى (١٦/ ١٣-١٧).

(٢) في لوقا (٩/ ٢٠).

وجب للأب اسم الأبوة لقدمه، فالابن أيضًا يستحق هذا الاسم بعينه، إذ كان قديمًا مثله، وإن كان الأب عالمًا عزيزًا، فهو أيضًا عالم عزيز تشهد شريعة الإيمان له بذلك في قولها: إنه خلق الخلائق كلها، وأتقنت على يده، وأنه نزل لخلاصكم، ومَنْ قدر على ذلك لم يكن إلا عالمًا عزيزًا.

فهذه المعاني التي ذكرناها تبطل اسم الأُبوَّة والبُنوَّة، وفي إبطالها بطلان الشريعة التي تقول: ولد من أبيه، وإلا فإن كان الأب والابن متكافئين في القدم والقدرة، فبأي فضلٍ وسلطانٍ للأب عليه أمره ونهاه، فصار الأب باعثًا، والابن مبعوثًا، والأب متبوعًا مطاعًا، والابن تابعًا مطيعًا؟

قال: وقلتم: إن المسيح ولد من أبيه قبل العوالم وليس بمصنوعٍ، فليس يخلو الأب من أن يكون أولد شيئًا موجودًا أو غير موجود، فإن كان لم يزل موجودًا، فإن الأب لم يلد شيئًا، وإن كان غير موجود وإنما هو حادث، لم يكن، فهو مخلوق كما قلنا.

قال: وإذا نظر في الإنجيل وكتب بولس وغيره ممَّن يحتج به النصارى، وجد نحوًا من عشرين ألف آية مما فيه اسم المسيح، وكلها تنطق بعبودية المسيح، وأنه مبعوثٌ مربوبٌ، وأنَّ الله اختصَّه بالكرامات، ما خلا آيات يسيرة مشكلات قد تأوَّلها كل فريقٍ من أولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم على هواهم، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد، وتركوا المعظم الذي ينطق بعبوديته.

فلو كانوا قصدوا الحقَّ، لردوا تلك المشكلات الشاذَّة اليسيرة التي يوجد لها من التأويل خلاف ما يتأولونه على الواضحات الكثيرة التي قد بانت بغير تأويلٍ؛ لأنه إنما يجب أن يُقاسَ الجزء على الكلِّ، ويستدل على ما غاب بما

حضر، وعلى ما أشكل بما ظهر، فمن تلك الآيات المشكلات ما ذكرناه في كتابنا هذا، وبينَّا معناه، والحجة فيه، وأنه ليس كما تأوَّلوه.

قال: ومن أعجب العجب أن تكون أمة كتابها ودعوتها ومعبودها واحد يتمسَّكون بأمر المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتلامذته وإنجيله وسنته وشرائعه، وهم مع ذلك مختلفون فيه أشد الاختلاف، فمنهم مَن يقول: إنه عبدٌ، ومنهم من يقول: إنه إلهٌ، ومنهم من يقول: إنه ولدٌ، ومنهم من يقول: إنه أقنوم وطبيعة، ومنهم من يقول: إنه أقنومان وطبيعتان، وكلٌّ منهم يكفر صاحبه ويقول: إن الحق في يده.

وكلُّهم لا يأتي من الكتاب بحجةٍ واضحةٍ يثبت بها دعواه، ولا من قياسه لنفسه، وتأوله بما يصحُّ له عند المناظرة، وإنما يرجع في دينه واعتقاده إلى ما تأوَّله له المتأولون بما يخالف إنجيلهم وكتبهم بالهوى والعناد من بعضهم لبعضٍ، فهم يشركون بالله على التأويل، ولا شريك له، ويدَّعون له ولدًا من جهة ما أحدثوا لأنفسهم، سبحانه أنَّى يكون له ولدٌ[1].

---

(١) (٤/ ١٤٤).

البَابُ الثَّالِثُ

الاحتجاج بالمعقول

الفصل الأول: نقد استدلالهم العقلي على التثليث.

الفصل الثاني: نقد استدلالهم العقلي فيما يتعلق بطبيعة المسيح وألوهيته.

الفصل الثالث: مناقشة الأمثلة التي يضربونها لعقيدة التثليث، وتعدد الأقانيم.

الفصل الرابع: رد ابن تيمية على سعيد بن البطريق في تقريره لعقيدة التثليث.

تمهيد

يتعلق هذا الباب بمناقشة محاولات النصارى للتبرير والتسويغ العقلي لأصول عقائدهم، عن طريق الاحتجاج بالمعقولات وضرب الأمثلة والتشبيهات.

فتعرَّض الشيخ لمناقشة هذه الحجج، والأمثلة، وعدم مطابقتها وكفايتها لتسويغ عقائد النصارى.

وتعرض الشيخ خلال ذلك أيضًا إلى الحجج العقلية التي تثبت بطلان أصول اعتقادهم، كعقيدة التثليث، وعقيدة الصلب والفداء والخطيئة الأصلية، ونحوها.

فاشتمل الباب على مقام سلبي يبطل إمكان الاحتجاج أو التسويغ العقلي على أصول العقائد النصرانية، ومقام إيجابي يقيم الأدلة العقلية على بطلان هذه العقائد، ومخالفتها للقواطع والبدهيات العقلية.

الفصل الأول

نقد استدلالهم العقلي على التثليث

أولاً: دليلهم العقلي على التثليث والجواب عنه:

قال الحاكي عنهم: فقلت: إنهم ينكرون علينا في قولنا: أب وابن، وروح قدس. وأيضًا في قولنا: إنهم ثلاثة أقانيم، وأيضًا في قولنا: إن المسيح رب وإله وخالق، وأيضًا يطلبون منَّا إيضاح تجسيد تجسُّم كلمة الله الخالق بإنسانٍ مخلوقٍ.

أجابوا قائلين: لو علموا قولنا هذا، إنما نريد به القول الذي يعني أن الله شيءٌ حيٌّ ناطقٌ، لما أنكروا علينا ذلك؛ لأننا معشر النصارى لما رأينا حدوث الأشياء، علمنا أن شيئًا غيرها أحدثها، إذ لا يمكن حدوثها من ذواتها؛ لما فيها من التضاد والتقلُّب، فقلنا: إنه شيءٌ لا كالأشياء المخلوقة؛ إذ هو الخالق لكلِّ شيءٍ، وذلك لننفي عنه العدم، ورأينا الأشياء المخلوقة تنقسم قسمين: شيء حي، وشيء غير حيٍّ، فوصفناه بأجملهما، فقلنا: هو شيء حي، لننفي الموت عنه، ورأينا الحي ينقسم قسمين: حي ناطق، وحي غير ناطق، فوصفناه بأفضلهما، فقلنا: هو شيء حي ناطق لننفي الجهل عنه، والثلاثة أسماء، وهي: إله واحد، مسمى واحد، ورب واحد، خالق واحد، شيء حي ناطق، أي: الذات والنطق والحياة، فالذات عندنا الأب الذي هو ابتداء الاثنين، والنطق الابن الذي هو مولود منه لولادة النطق من العقل، والحياة روح القدس، وهذه أسماء لم نُسمِّه نحن بها.

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: قولهم: «أما قولنا: أب، وابن، وروح قدس، فلو علموا قولنا هذا إنما نريد به تصحيح القول بأن الله حي ناطق لما أنكروا ذلك علينا»، فيقال: ليس الأمر كما ادَّعوه؛ فإن النصارى يقولون: إنَّ هذا القول تلقَّوه عن الإنجيل، وإن في الإنجيل عن المسيح -صلوات الله عليه وسلامه- أنه قال: «عَمِّدوا الناس باسم الآب، والابن، وروح القدس».

فكان أصل قولهم هو ما يذكرونه من أنه مُتلقًّى من الشرع المنزل لا أنهم أثبتوا الحياة والنطق بمعقولهم، ثم عبروا عنها بهذه العبارات، كما ادعوه في مناظرتهم، ولو كان الأمر كذلك، لَمَا احتاجوا إلى هذه العبارة، ولا إلى جعل الأقانيم ثلاثة، بل معلوم عندهم، وعند سائر أهل الملل أنَّ الله موجودٌ حيٌّ عليمٌ، قدير متكلم لا تختص صفاته بثلاثة، ولا يعبر عن ثلاثةٍ منها بعبارة لا تدل على ذلك، وهو لفظ: الأب، والابن، وروح القدس، فإن هذه الألفاظ لا تدلُّ على ما فسروها به في لغة أحدٍ من الأمم، ولا يوجد في كلام الأنبياء أنه عبر بهذه الألفاظ عما ذكروه من المعاني، بل إثبات ما ادَّعوه من التثليث والتعبير عنه بهذه الألفاظ هو مما ابتدعوه لم يدل عليه لا شرع، ولا عقل، وهم يدعون أن التثليث والحلول والاتحاد إنما صاروا إليه من جهة الشرع، وهو نصوص الأنبياء والكتب المنزلة، لا من جهة العقل، وزعموا أنَّ الكتب الإلهية نطقت بذلك.

ثمَّ تكلَّفوا لما ظنوه مدلول الكتاب طريقًا عقلية، فسَّروه بها تفسيرًا ظنوه جائزًا في العقل، ولهذا نجد النصارى لا يلجئون في التثليث والاتحاد إلا إلى الشرع والكتب، وهم يجدون نفرة عقولهم وقلوبهم عن التثليث والاتحاد

والحلول، فإنَّ فطرة الله التي فطر الناس عليها، وما جعله الله في قلوب الناس من المعارف العقلية التي قد يُسمُّونها ناموسًا عقليًّا طبيعيًّا يدفع ذلك، وينفيه، وينفر عنه، ولكن يزعمون أن الكتب الإلهية جاءت بذلك، وأنَّ ذلك أمرٌ يفوق العقل، وأن هذا الكلام من طورٍ وراء طور العقل، فينقلونه لظنِّهم أن الكتب الإلهية أخبرت به، لا لأنَّ العقول دلَّت عليه، مع أنه ليس في الكتب الإلهية ما يدلُّ على ذلك، بل فيها ما يدلُّ على نقيضه كما سنذكره إن شاء الله تعالى...

فدعوى المُدَّعين أنَّا إنما قلنا: أب وابن وروح قدس لتصحيح القول بأنَّ الله حي ناطق- كذبٌ ظاهرٌ، وهم يعلمون أنه كذبٌ، وتصحيح القول بأن الله حيٌّ متكلم، لا يقف على هذه العبارة، بل يمكنه تصحيح ذلك بالأدلة الشرعية والسمعية والعقلية، والتعبير عنه بالعبارات البينة كما يقوله المسلمون وغيرهم بدون قولنا: أب وابن وروح قدس.

ومما يُبيِّن ذلك: الوجه الثاني: وهو أن النصارى المقرون بأن هذه العبارة في الإنجيل المأخوذ عن المسيح مختلفون في تفسير هذا الكلام، فكثيرٌ منهم يقول: الأب هو الوجود، والابن هو الكلمة، وروح القدس هو الحياة.

ومنهم من يقول: بل الأب هو الوجود، والابن هو الكلمة، وروح القدس هو القدرة.

وبعضهم يقول: إنَّ الأقانيم الثلاثة: جواد حكيم قادر، فيجعل الأب هو الجواد، والابن هو الحكيم، وروح القدس هو القادر، ويزعمون أنَّ جميع الصفات تدخل تحت هذه الثلاثة، ويقولون: إنا استدللنا على وجوده بإخراجه الأشياء من العدم إلى الوجود، وذلك من جوده.

وقد رأيت في كتب النصارى هذا وهذا، ومنهم مَن يعبر عن الكلمة

بالعلم، فيقولون: موجود حي عالم، أو موجود عالم قادر، كما يقول بعضهم: ناطق، ومنهم من يقول: موجود حي حكيم.

ومنهم من يقول: قائم بنفسه حي حكيم، وهم مُتَّفقون على أن المتحد بالمسيح والحال فيه هو أقنوم الكلمة، وهو الذي يسمُّونه الابن دون الأب، ومن أنكر الحلول والاتحاد منهم كالأريوسية يقول: إنَّ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ عبدٌ مرسلٌ، كسائر الرسل صلوات الله عليهم وسلامه[1]، فوافقهم على لفظ: الأب، والابن، وروح القدس.

ولا يفسر ذلك بما يقوله منازعوه من الحلول والاتحاد... فإذا كانوا متفقين على اللفظ، متنازعين في معناه، علم أنهم صدقوا أولًا باللفظ لأجل اعتقادهم مجيء الشرع به، ثم تنازعوا بعد ذلك في تفسير الكتاب، كما يختلفون هم وسائر أهل الملل في تفسير بعض الكلام الذي يعتقدون أنه منقولٌ عن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وعلم بذلك أنَّ أصل قولهم: الأب، والابن، وروح القدس، لم يكن لأجل تصحيح القول بأنَّ الله موجود حي ناطق الذي علموه أولًا بالعقل[2].

ثانيًا: مناقشة تفسيرهم للأقانيم:

قالوا: والثلاثة أسماء فهي إلهٌ واحدٌ وربٌّ واحدٌ وخالقٌ واحدٌ، مسمى واحد، لم يزل ولا يزال شيئًا حيًّا ناطقًا، أي: الذات، والنطق، والحياة، فالذات عندنا: الأب الذي هو ابتداء الاثنين، والنطق: الابن الذي هو مولود منه كولادة

---

(١) سبق أن بحثنا وتحدثنا عن هذا الإطلاق عن الآريوسية، وما فيه.

(٢) (٣/ ١٨٢).

النطق من العقل، والحياة: هي الروح القدس.

والجواب عن هذا من وجوهٍ:

الأول: أن أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ متعددة كثيرة، فإنه ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢- ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]...

وإذا كانت أسماء الله كثيرة، كالعزيز والقدير وغيرها، فالاقتصار على ثلاثة أسماء دون غيرها باطل، وأي شيءٍ زعم الزاعم في اختصاص هذه الأسماء به دون غيرها، فهو باطل، كما قد بسط في موضعٍ آخر.

الوجه الثاني: قولهم: الأب الذي هو ابتداء الاثنين، والابن: النطق الذي هو مولود منه، كولادة النطق من العقل، كلام باطل، فإنَّ صفات الكمال لازمة لذات الرَّبِّ ﷻ أولًا وآخرًا، ولم يزل ولا يزال حيًّا عالمًا قادرًا، لم يصر حيًّا بعد أن لم يكن حيًّا، ولا عالمًا بعد أن لم يكن عالمًا.

فإذا قالوا: إن الأب الذي هو الذات، هو ابتداء الحياة والنطق، اقتضى ذلك أن يكون الأب قبل الحياة والنطق، وأن يكون فاعلًا للحياة والنطق، فإن ما كان ابتداء لغيره يكون متقدمًا عليه، أو فاعلًا له، وهذا في حق الله باطل.

وكذلك قولهم: إنَّ النطق مولود منه كولادة النطق من العقل، فإن المولود من غيره متولد منه، فيحدث بعد أَنْ لم يكن، كما يحدث النطق شيئًا فشيئًا، سواء أريد بالنطق العلم أو البيان، فكلاهما لم يكن لازمًا للنفس الناطقة، بل حدث فيها، واتصفت به بعد أَنْ لم يكن، وإن كانت قابلةً له ناطقةً بالقوة، فإذا مثلوا، تولد النطق من الرَّب كتولُّده عن العقل، لزم أن يكون الرب كان ناطقًا بالقوة، ثم صار ناطقًا بالفعل، فيلزم أنه صار عالمًا بعد أن لم يكن عالمًا.

وهذا من أعظم الكفر وأشده استحالةً، فإنه لا شيء غيره يجعله متصفًا بصفات الكمال بعد أَنْ لم يكن متصفًا بها، إذ كل ما سواه فهو مخلوقٌ له، وكماله منه، فيمتنع أن يكون هو جاعل الرَّب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كاملًا، وذلك دورٌ ممتنعٌ في صريح العقل، إذ كان الشيء لا يجعل غيره متصفًا بصفات الكمال حتى يكون هو متصفًا بها، فإذا لم يتصف بها حتى جعله غيره متصفًا بها، لزم الدور الممتنع.

الوجه الثالث: أنَّ قولهم في الابن أنه مولودٌ من الله إن أرادوا به أنه صفة لازمة له، فكذلك الحياة صفة لازمة لله، فيكون روح القدس أيضًا ابنًا ثانيًا، وإن أرادوا به أنه حصل منه بعد أن لم يكن، صار عالمًا بعد أن لم يكن عالمًا، وهذا مع كونه باطلًا وكفرًا، فيلزم مثله في الحياة، وهو أنه صار حيًّا بعد أن لم يكن حيًّا...

الوجه الرابع:. أن العلم أيضًا صفة، والصفة لا تخلق ولا ترزق، والمسيح نفسه ليس هو صفةً قائمةً بغيرها باتفاق العقلاء، وأيضًا فهو عندهم خالق السماوات والأرض، فامتنع أن يكون المتحد به صفةً، فإن الإله المعبود هو الإله الحي العالم القادر، وليس هو نفس الحياة، ولا نفس العلم والكلام.

فلو قال قائلٌ: يا حياة الله، أو يا علم الله، أو يا كلام الله، اغفر لي، وارحمني واهدني، كان هذا باطلًا في صريح العقل، ولهذا لم يُجوِّز أحدٌ من أهل الملل أن يقال للتوراة أو الإنجيل وغير ذلك من كلام الله: اغفر لي وارحمني. وإنما يقال للإله المتكلم بهذا الكلام: اغفر لي وارحمني. والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ عندكم هو الإله الخالق الذي يقال له: اغفر لنا وارحمنا، فلو كان هو نفس علم الله وكلامه، لم يجز أن يكون إلهًا معبودًا، فكيف إذا لم يكن هو نفس علم الله وكلامه، بل هو مخلوق بكلامه حيث قال له: كن فيكون؟

فتبيَّن من ذلك أن كلمات الله كثيرة لا نهاية لها، وفي الكتب الإلهية كالتوراة أنه خلق الأشياء بكلامه، وكان في أول التوراة أنه قال: ليكن كذا، ليكن كذا، ومعلوم أنَّ المسيح ليس هو كلمات كثيرة، بل غايته أن يكون كلمةً واحدةً، إذ هو مخلوق بكلمةٍ من كلمات الله ﷻ.

ثالثًا:نقد عقيدة الأمانة:

الوجه الخامس: أن أمانتكم التي وضعها أكابركم بحضرة قسطنطين، وهي عقيدة إيمانكم التي جعلتموها أصل دينكم تناقض ما تدعونه من أن الإله واحد، وتُبيِّن أنكم تقولون لمن يناظركم خلاف ما تعتقدونه.

وهذان أمران معروفان في دينكم؛ تناقضكم وإظهاركم في المناظرة بخلاف ما تقولونه من أصل دينكم، فإن الأمانة التي اتفق عليها جماهير النصارى يقولون فيها: «أومن بإلهٍ واحدٍ، أب ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، كل ما يُرى، وما لا يُرى، وبربٍّ واحدٍ يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من

الأب قبل كلِّ الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، مولود غير مخلوقٍ، مساوٍ للأب في الجوهر الذي به كان كل شيءٍ، الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسَّد من روح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنَّس وصُلب وتألَّم وقُبر، وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب المقدسة، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب، وأيضًا سيأتي بمجده ليدين الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه.

وبرُوح القدس الرَّب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن المسجود له، ومُمجَّد ناطق في الأنبياء، كنيسة واحدة جامعة رسولية، وأعترف بمعموديةٍ واحدةٍ لمغفرة الخطايا، وابن جاء لقيامة الموتى، وحياة الدهر العتيد كونه أمينًا».

ففي هذه الأمانة التي جعلتموها أصل دينكم، ذكر الإيمان بثلاثة أشياء، بـ«إله واحد خالق السماوات والأرض، خالق ما يرى وما لا يرى»، فهذا هو رب العالمين الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، وهو إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء والمرسلين، وهو الذي دعت جميع الرسل إلى عبادته وحده لا شريك له، ونهوا أن يعبد غيره، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]...

ثم قلتم: «وبربٍّ واحدٍ يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدُّهور، نور من نور، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، مولود غير مخلوقٍ، مساو الأب في الجوهر»، فصرَّحتم بالإيمان مع خالق السماوات والأرض بربٍّ واحدٍ مخلوقٍ، مساو الأب ابن الله الوحيد، وقلتم: «هو إله حق

من إله حق من جوهر أبيه».

وهذا تصريحٌ بالإيمان بإلهين، أحدهما من الآخر، وعلم الله القائم به، أو كلامه أو حكمته القائمة به الذي سمَّيتموه ابنًا، ولم يسم أحد من الرسل صفة الله ابنًا ليس هو إله حق من إله حق، بل إله واحد، وهذا صفة الإله، وصفة الإله ليست بإلهٍ، كما أن قدرته وسمعه وبصره وسائر صفاته ليس بآلهةٍ، ولأنَّ الإله واحد، وصفاته متعددة، والإله ذات مُتَّصفة بالصفات قائمة بنفسها، والصفة قائمة بالموصوف، ولأنكم سمَّيتم الإله جوهرًا، وقلتم: «هو القائم بنفسه»، والصفة ليست جوهرًا قائمًا بنفسه.

وهم في هذه الأمانة قد جعلوا الله والدًا، وهو الأب، ومولودًا وهو الابن، وجعلوه مساويًا له في الجوهر، وقد نزَّه الله نفسه عن الأنواع الثلاثة، فقالوا: «مولود غير مخلوقٍ، مساو الأب في الجوهر»، فصرحوا بأنه مساو له في الجوهر، والمساوي ليس هو المساوى، ولا يساوي الأب في الجوهر إلا جوهر، فوجب أن يكون الابن جوهرًا ثانيًا، وروح القدس جوهرًا ثالثًا كما سيأتي.

وهذا تصريح بإثبات ثلاثة جواهر، وثلاثة آلهة، ويقولون مع ذلك: إنما نثبت جوهرًا واحدًا، وإلهًا واحدًا. وهذا جمع بين النقيضين، فهو حقيقة قولهم يجمعون بين جعل الآلهة واحدًا، وإثبات ثلاثة آلهة، وبين إثبات جوهر واحد، وبين إثباته ثلاثة جواهر، وقد نزَّه الله نفسه عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، فنزَّه نفسه أن يلد كما يقولون: هو الأب، وأن يولد كما يقولون:

هو الابن، وأن يكون له كفوًا أحد، كما يقولون: إن له مَن يساويه في الجوهر.

وإذا قلتم: نحن نقول: أحدي الذات ثلاثي الصفات. قيل لكم: قد صرحتم بإثبات إله حق من إله حق، وبأنه مساوٍ للأب في الجوهر، وهذا تصريحٌ بإثبات جوهر ثاني لا بصفةٍ، فجمعتم بين القولين بين إثبات ثلاثة جواهر، وبين دعوى إثبات جوهر واحد، ولا ينجيكم من هذا اعتذار مَن اعتذر منكم؛ كيحيى بن عدي ونحوه، حيث قالوا: هذا بمنزلة قولك: زيد الطبيب الحاسب الكاتب، ثم تقول: زيد الطبيب، وزيد الحاسب، وزيد الكاتب، فهو مع كلِّ صفةٍ له حكم خلاف حكمه مع الصفة الأخرى.

وقد يُفسِّرون الأقنوم بهذا، فيقولون: الأقنوم هو الذات مع الصفة، فالذات مع كل صفة أقنوم، فصارت الأقانيم ثلاثة؛ لأن هذا المثال لا يطابق قولكم، فإن زيدًا هنا هو جوهر واحد له ثلاث صفات: الطب والحساب والكتابة، وليس هنا ثلاثة جواهر، ولكن لكلِّ صفةٍ حكم ليس للأخرى، ولا يقول عاقل: إنَّ الصفة مساوية للموصوف في الجوهر، ولا أن الذات مع هذه الصفة تساوي الذات مع الصفة الأخرى في الجوهر؛ لأنَّ الذات واحدة، والمساوي ليس هو المساوى، ولأنَّ الذات مع الصفة هي الأب، فإن كان هذا هو الذي اتحد بالمسيح، فالمتحد به هو الأب، ولأنكم قلتم عن هذا الذي قلتم: «إنه إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي هو مساو الأب في الجوهر، وأنه نزل، وتجسَّد من روح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنَّس وصُلب وتألَّم»، فاقتضى ذلك أن يكون الإله الحق المساوي للأب في الجوهر صُلب وتألَّم، فيكون اللاهوت مصلوبًا متألمًا، وهذا تقرُّ به

طوائف منكم، وطوائف تنكره، لكن مقتضى أمانتكم هو الأول.

وأيضًا، فإذا كان تجسد من روح القدس ومريم، فإن كان روح القدس هو حياة الله كما زعمتم، فيكون المسيح كلمة الله وحياته، فيكون لاهوته أقنومين من الأقانيم الثلاثة، وعندهم إنما هو أقنوم الكلمة فقط، وإن كان روح القدس ليس هو حياة الله، بطل تفسيركم لروح القدس بأنه حياة الله، وقيل لكم: لا يجب أن يكون روح القدس صفةً لله، ولا أقنومًا.

ثم ذكرتم في عقيدة أمانتكم أنكم تؤمنون بـ«روح القدس الرَّب المحيي»، فأثبتم ربًّا ثالثًا، قلتم: «المنبثق من الأب»، والانبثاق الانفجار؛ كالاندفاق والانصباب، ونحو ذلك، يقال: بثق السيل موضع كذا يبثقه بثقًا، أي: خرقه وشقَّه فانبثق، أي: انفجر، فاقتضى ذلك أن يكون هذا الرب المحيي انفجر من الأب، واندفق منه.

ثم قلتم: «هو مع الأب مسجود له، وممجد ناطق في الأنبياء»، فجعلتموه مع الأب مسجودًا له، فأثبتم إلهًا ثالثًا يسجد له، ومعلوم أن حياة الله التي هي صفته ليست منبثقةً منه، بل هي قائمةٌ به لا تخرج عنه البتَّة، وهي صفة لازمة له لا تتعلق بغيره، فإن العلم يتعلق بالمعلومات، والقدرة بالمقدورات والتكليم بالمخاطبين بخلاف التكلُّم، فإنه صفة لازمة، يقال: علم الله كذا، وقدر الله على كل شيءٍ، وكلَّم الله موسى.

وأما الحياة فاللفظ الدالُّ عليها لازم لا يتعلق بغير الحي، يقال: حيا يحيا حياةً، ولا يقال: حيا كذا ولا بكذا، وإنما يقال: أحيا كذا، والإحياء فعل غير كونه حيًّا، كما

أن التعليم غير العلم، والإقدار غير القدرة، والتكليم غير التكلُّم، ثم جعلتم روح القدس هذا ناطقًا في الأنبياء عليهم السلام، وحياة الله صفة قائمة به لا تحلُّ في غيره.

وروح القدس الذي تكون في الأنبياء والصالحين ليس هو حياة الله القائمة به، ولو كان روح القدس الذي في الأنبياء هو أحد الأقانيم الثلاثة لكان كلٌّ من الأنبياء إلهًا معبودًا قد اتَّحد ناسوته باللاهوت كالمسيح عندكم، فإنَّ المسيح لما اتحد به أحد الأقانيم صار ناسوتًا ولاهوتًا، فإذا كان روح القدس الذي هو أحد الأقانيم الثلاثة ناطقًا في الأنبياء، كان كلٌّ منهم فيه لاهوت وناسوت كالمسيح، وأنتم لا تُقرُّون بالحلول والاتحاد إلا للمسيح وحده مع إثباتكم لغيره ما ثبت له(١).

رابعًا: مناقشة دعواهم أنَّ التثليث أمرٌ يفوق العقل:

وَإنْ قالوا: هذا أمرٌ لا يعقل، بل هو فوق العقول، كان الجواب من وجهين:

أحدهما: أنه يجب الفرق بين ما يعلم العقل بطلانه وامتناعه، وبين ما يعجز العقل عن تصوُّره ومعرفته، فالأوَّل من مُحَالات العقول. والثاني: من محارات العقول، والرسل يخبرون بالثاني، وأمَّا الأول فلا يقوله إلا كاذبٌ، ولو جاز أن يقول هذا، لَجاز أن يقال: إن الجسم الواحد يكون أبيض أسود في حالٍ واحدةٍ، وإنه بعينه يكون في مكانين، وإن الشيء الواحد يكون موجودًا معدومًا في حالٍ واحدةٍ، وأمثال ذلك مما يعلم العقل امتناعه، وقول النصارى مما يعلم بصريح العقل أنه باطلٌ، ليس هو مما يعجز عن تصوُّره.

---

(١) (٣/ ٢٢١).

يوضح هذا أنه لو قال قائلٌ في مريم أُمِّ المسيح: امرأة الله وزوجته، وأنه نكحها نكاحًا عقليًّا، كما يقولون: إن المسيح ولده ولادة عقلية، لم يكن هذا القول أفسد في العقل من قولهم في المسيح، كما قد بسطناه في موضعه، وهم يُكفِّرون من يقول ذلك، ويحتجُّون بالعقل على فساده، وإذا قال: هذا فوق العقل، لم يقبلوه.

وكذلك كلُّ طائفةٍ من طوائفهم احتجَّت على الأخرى بالعقل، وإذا قالوا: قولنا فوق العقل، لم يقبلوا هذا الجواب، فإن كان هذا جوابًا صحيحًا، فيجب ألَّا يبحث في شيءٍ من الإلهيات بالعقل، بل يقول كل مبطلٍ ما شاء من الباطل، ويقول: كلامي فوق العقل، كما يقول أصحاب الحلول والاتحاد والوحدة الذين يقولون: إن وجود الخالق وجود المخلوق، ويقولون: إنَّ هذا فوق العقل، وإنه يعلم بالذوق لا بالسمع، ولا بالعقل.

الوجه الثاني: أن يقال: ما يعجز العقل عن تصوُّره إذا أخبرت به الأنبياء عليهم السلام، قبل منهم؛ لأنَّهم يعلمون ما يعجز غيرهم من معرفته، وهذه الأقوال لم يقل الأنبياء شيئًا منها، بل نفس فرق النصارى قالوها بآرائهم، وزعموا أنهم استنبطوها من بعض ألفاظ الكتب، فيقال لمَن قالها منهم: أنت تتصوَّر ما تقول، أم لا تتصوره وتفهمه وتعقله؟ فإن قال: لا أتصور ما أقول، ولا أفقهه، ولا أعقله، قيل له: فقد قلت على الله ما لا تعلم، وقفوت ما ليس لك به علمٌ.

ومن أعظم القبائح المحرمة في جميع الشرائع أن يقول الإنسان برأيه على الله قولًا لا يتصوره ولا يفهمه، وجميع العقلاء يعلمون أنَّ من قال قولًا وهو لا يتصوره، ولا يفقهه، فإنَّ قوله مردود عليه، غير مقبولٍ منه، وإن قوله من الباطل المذموم.

وإن قال قائلهم: إنِّي أفقه ما أقول، وأتصوَّره وأعقله، قيل له: بيِّنه لغيرك حتى

يفقهه ويعقله ويتصوَّره، ولا تقل: هو فوق العقل، بل هو قولٌ قد عقلته وفقهته، وهذا تقسيم لا محيد لهم عنه؛ فإنهم إن كانوا يفقهون ما يقولون ويعقلونه، لَزِمَ أن يكون معقولًا، وإن كانوا لا يفقهونه ولا يعقلونه، لزم أنهم قالوا على الله ما لا يفقهونه، ولا يعقلونه قولًا برأيهم وعقلهم، لا نقلًا لألفاظ الأنبياء، فإن من نقل ألفاظ الأنبياء الثابتة عنهم، لم يكن عليه أن يفقه ويعقل ما يقول.

ولهذا، قال النبي ﷺ: «**نضَّر الله امرءًا سمع منَّا حديثًا، فبلغه إلى مَن لم يسمعه، فرُبَّ حامل فِقْهٍ غير فقيهٍ، ورُبَّ حامل فِقْهٍ إلى مَن هو أفقه منه**»(١)، فقد يحفظ الرجل كلامًا، فيبلغه غيره وهو لا يفقه معناه، ولا يعقله، فمَن نقل لفظ التوراة، أو الإنجيل، أو القرآن، أو ألفاظ سائر الأنبياء، لم نطالبه ببيان معناه بخلاف مَن ادَّعى أنه فهم ما قاله الأنبياء، وعبَّر عن ذلك بعبارةٍ أخرى، فإنه يقال له: إن كنت فهمت ما قالوه، فهو معنًى واحدٌ عبَّروا عنه بعبارةٍ، وعبرت عنه بعبارةٍ أخرى كالترجمان، فهذا يعقل ما يقول ويفقهه، وإن قال: إنِّي لم أفهم كلامهم، أو لم أفهم ما قلته، فقد اعترف بجهله وضلاله، وأنه من الذين لم يفهموا كلام الأنبياء عليهم السلام، ولم يفقهوا ما قالوه هم.

فلو قالوا: لم نفهم كلام الأنبياء وسكتوا، لكانوا أُسْوة أمثالهم من الجُهَّال بمعاني كلام الأنبياء، وأما إذا وضعوا عبارةً وكلامًا ابتدعوه، وأمروا الناس باعتقاده، وقالوا: هذا هو الإيمان والتوحيد، وقالوا: إنَّا مع هذا لا نتصور ما قلناه، ولا نفقهه، ولا نعقله، فهؤلاء من الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، ويفترون على الله وعلى كتب الله وأنبياء الله بغير عِلْمٍ، بل يقولون الكذب المفترى والكفر

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٦٦٠)، والترمذي في الجامع (٢٦٥٦)، وابن ماجه في السنن (٢٣٠) من حديث زيد بن ثابت.

الواضح، ويقولون مع ذلك: إنا لا نعقله، وهذا حال النصارى بلا ريبٍ[(١)][(٢)].

---

(١) (٤/ ٣٩١).

(٢) قال القرطبي في الإعلام (٩٨) كلامًا حسنًا في معنى ما ذكره الشيخ هنا.

قال: «لتعلم يا هذا أن الأنبياء عليهم السلام صادقون مصدقون، والصادق ما يخبر بصحة ما يعلم بالعقول فساده واستحالته، فإنَّ الصادق لا يناقض قوله دليل العقل، ولا يعارضه، بل يصدقه ويشهد بصحته، فلو فرضنا شخصًا جاء بأمرٍ معجزٍ فيما يرى، وادعى أنه أرسله الله لنا ليخبرنا أن الثلاثة واحد من حيث هي ثلاثة، وأن الواحد ثلاثة من حيث إنه واحد، وفهم ذلك منه بنصٍّ لا يقبل التأويل، لَبَادر العقلاء إلى تكذيبه، ولعلموا أن ما أظهره على جهة المعجزة إنما هي حيلةٌ ومخرقةٌ؛ لأنَّ المعجزة إنما هي دليل الصدق، ولا يقلب دليل الصدق دليل الكذب، وكذلك لو قال: إن الضدين يجتمعان بعد مراعاة شروط التضاد، وكذلك لو أخبر أنَّ الله تعالى يقلب جوهرًا عرضًا، ولونًا وطعمًا إلى غير ذلك من أنواع المُحَالات، ومن هذا القبيل هو ما ادَّعيتم من الاتحاد، وسيتبيَّن إن شاء الله.

وبعد هذا: فلو فرضنا نبينا علمنا صدقه على القطع تكلم بشيءٍ من هذا، فيكون ذلك الكلام لا يدل على ذلك المعنى دلالةً قاطعةً، بل دلالة محتملة أو ظاهرة، فسبيلنا أن نتأول إن وجدنا وجهًا للتأويل، أو نتوقف على تأويله إنْ لم نجد له محملًا في التأويل مع أن العقل يعلم استحالة الظاهر، ويكل معرفة باطنه إلى الله تعالى، فإنَّ الشرائع وإن لم تأت بما يخالف العقول، فقد تأتي مما تقصر العقول عن دركه، وفرق بين يعلمه العقلاء بين العلم بالاستحالة وبين عدم العلم بالاستحالة، فإنَّ عدم العلم بالاستحالة لا يلزم منه نفي الجواز، ولا إثباته، ولا نفي الوجوب، ولا إثباته، وهذا ممَّا لا خفاء به عند العقلاء.

الفصل الثاني

نقد استدلالهم العقلي فيما يتعلق بطبيعة المسيح وألوهيته

أولاً: مناقشة قولهم: إله بلاهوته، ورسول بناسوته:

وقولهم: إنه إلهٌ بلاهوته، ورسولٌ بناسوته، كلام باطل من وجوهٍ:

منها: أن الذي كان يكلم الناس إما أن يكون هو الله، أو هو رسول الله، فإن كان هو الله، بطل كونه رسول الله، وإن كان رسول الله، بطل كونه هو الله.

ولهذا، لمَّا كان الذي كلم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشجرة هو الله، لم تنطق الكتب بأنه رسول الله، وهذا واردٌ بأيِّ وجهٍ فسروا الاتحاد، فإنه من المعلوم أنَّ الناس كانوا يسمعون من المسيح كلامًا بصوته المعروف، وصوته لم يختلف، ولا حاله عند الكلام تغيَّرت كما يختلف الإنسان وحاله عند الكلام إذا حلَّ فيه الجني، وإذا فارقه الجني، فإن الجني إذا تكلَّم على لسان المصروع، ظهر الفرق بين ذلك المصروع وبين غيره من الناس، بل اختلف حال المصروع وحال كلامه، وسمع منه من الكلام ما يعلم يقينًا أنه لا يعرفه، وغاب عقله بحيث يظهر ذلك للحاضرين، واختلف صوته ونغمته، فكيف بمَنْ يكون رب العالمين هو الحالَّ فيه، المتحد به، المتكلم بكلامه؛ فإنه لا بد أن يكون بين كلامه وصوته وكلام سائر البشر وصوتهم من الفرق أعظم من الفرق الذي بين المصروع وغير المصروع بما لا نسبة بينهما.

يُبيِّن هذا أن موسى لمَّا سمع كلامه، سمع صوتًا خارقًا للعادة، مخالفًا لما يُعْهَد من الأصوات، ورأى من الآيات الخارقة والعجائب ما يُبيِّن أن ذلك الذي سمعه لا يقدر على التكلم به إلا الله.

وأما المسيح فلم يكن بين كلامه وصوته مع طول عمره وكلام سائر الناس فرقٌ يدلُّ على أنه نبيٌّ فضلًا عن أن يدل على أنه إلهٌ، وإنما علم أنه نبي بأدلةٍ منفصلةٍ، ولم يكن حاله يختلف مع أنهم يقولون: إنَّ الاتحاد ملازم له من حين خلق ناسوته في بطن أُمِّه مريم وإلى الأبد، لا يفارق اللاهوت لذلك الناسوت أبدًا، وحينئذٍ فمن المعلوم أن خطابه للناس إن كان خطاب رب العالمين، لم يكن هو رسوله، وإن كان خطاب رسوله، لم يكن ذلك صوت رب العالمين.

الوجه الثاني: أن خطابه خطاب رسولٍ ونبيٍّ كما ثبت ذلك عنه في عامَّة المواضع.

الثالث: أنَّ مصير الشيئين شيئًا واحدًا مع بقائهما على حالهما بدون الاستحالة والاختلاط- ممتنعٌ في صريح العقل، وإنما المعقول مع الاتحاد أن يستحيلا ويختلطا كالماء مع الخمر واللبن، فإنهما إذا صار شيئًا واحدًا، استحالا واختلطا.

الرابع: أنه مع الاتحاد يصير الشيئان شيئًا واحدًا، فيكون الإله هو الرسول، والرسول هو الإله؛ إذ هذا هو هذا، وإن كان الإله غير الرسول، فهما شيئان، ومهما مثلوا به قولهم كتشبيههم ذلك بالنار في الحديد والروح في البدن، فإنه يدل على فساد قولهم[(١)].

ثانيًا: مناقشة قولهم: صلب الناسوت دون اللاهوت:

وما ذكروه من أنه صلب ناسوته دون لاهوته، باطلٌ من وجهين:

فإنَّ ناسوته لم يصلب، وليس فيه لاهوت، وهم ذكروا ذلك دعوى مجردة، فيكتفى في مقابلتها بالمنع.

---

(١) (٢/ ٤٦).

لكن نقول في الوجه الأول: إنَّهم في اتحاد اللاهوت بالناسوت يشبهونه تارةً باتحاد الماء باللبن، وهذا تشبيه اليعقوبية، وتارةً باتحاد النار بالحديد أو النفس بالجسم، وهذا تشبيه الملكانية وغيرهم، ومعلومٌ أنه لا يصل إلى الماء شيءٌ إلا وصل إلى اللبن، فإنه لا يتميَّز أحدهما عن الآخر، وكذلك النار التي في الحديد متى طرق الحديد أو بصق عليه، لحق ذلك بالنار التي فيه، والبدن إذا ضرب وعذب، لحق ألم الضرب والعذاب بالنفس، فكأنَّ حقيقة تمثيلهم يقتضي أن اللاهوت أصابه ما أصاب الناسوت من إهانة اليهود، وتعذيبهم له، وإيلامهم له، والصلب الذي ادعوه، وهذا لازمٌ على القول بالاتحاد، فإن الاتحاد لو كان ما يصيب أحدهما لا يشركه الآخر فيه، لم يكن هنا اتحاد بل تعدد.

الثاني: أن هؤلاء الضُّلال لم يكفهم أنْ جعلوا إله السماوات والأرض متحدًا ببشرٍ في جوف امرأةٍ، وجعلوه له مسكنًا، ثم جعلوا أخابث خَلْق الله، أمسكوه وبصقوا في وجهه، ووضعوا الشوك على رأسه، وصلبوه بين لصين، وهو في ذلك يستغيث بالله ويقول: «إلهي إلهي، لم تركتني»، وهم يقولون: الذي كان يسمع الناس كلامه هو اللاهوت، كما سمع موسى كلام الله من الشجرة، ويقولون: هما شخص واحد، ويقول بعضهم: لهما مشيئةٌ واحدةٌ، وطبيعةٌ واحدةٌ، والكلام إنما يكون بمشيئة المتكلم، فيلزم أن يكون المتكلم الداعي المستغيث المصلوب هو اللاهوت، وهو المستغيث المتضرع، وهو المستغاث به.

وأيضًا فهم يقولون: إنَّ اللاهوت والناسوت شخصٌ واحدٌ، فمع القول بأنهما شخصٌ واحدٌ، إما أن يكون مستغيثًا، وإما أن يكون مستغاثًا به، وإما أن يكون داعيًا، وإما أن يكون مدعوًّا، فإذا قالوا: إن الداعي هو غير المدعو، لزم أن

يكونا اثنين لا واحدًا، وإذا قالوا: هما واحد، فالداعي هو المدعو.

الوجه الثالث: أن يقال: لا يخلو إما أن يقولوا: إن اللاهوت كان قادرًا على دفعهم عن ناسوته، وإما أن يقولوا: لم يكن قادرًا، فإن قالوا: لم يكن قادرًا، لزم أن يكون أولئك اليهود أقدر من ربِّ العالمين، وأن يكون رب العالمين مقهورًا مأسورًا مع قومٍ من شرار اليهود، وهذا من أعظم الكفر والتنقُّص بربِّ العالمين، وهذا أعظم من قولهم: إن لله ولدًا، وأنه بخيلٌ، وأنه فقيرٌ، ونحو ذلك مما يسبُّ به الكفار رب العالمين.

وإن قالوا: كان قادرًا، فإن كان ذلك من عدوان الكفار على ناسوته وهو كارهٌ لذلك، فسُنَّة الله في مثل ذلك نصر رسله المستغيثين به، فكيف لم يغث ناسوته المستصرخ به، وهذا بخلاف مَن قتل من النبيين وهو صابرٌ، فَإنَّ أولئك صبروا حتى قتلوا شهداء، والناسوت عندهم استغاث، وقال: «إلهي إلهي، لماذا تركتني»، وإن كان هو قد فعل ذلك مكرًا، كما يزعمون أنه مكر بالشيطان، وأخفى نفسه حتى يأخذه بوجه حقٍّ، فناسوته أعلم بذلك من جميع الخلق، فكان الواجب ألَّا يجزع ولا يهرب؛ لما في ذلك من الحكمة، وهم يذكرون من جزع الناسوت وهربه ودعائه ما يقتضي أن كل ما جرى عليه كان بغير اختياره.

ويقول بعضهم: مشيئتهما واحدة، فكيف شاء ذلك وهرب مما يكرهه الناسوت؟ بل لو كانا متباينين، وقد اتفقا على المكر بالعدو، ولم يجزع الناسوت، كما جرى ليوسف مع أخيه، لَمَا وافقه على أنه يحمل الصواع في رحله، ويظهر أنه سارقٌ، لم يجزع أخوه لما ظهر الصواع في رحله، كما جزع إخوته حيث لم يعلموا، وكثيرٌ من الشطار العيارين يمسكون ويصلبون وهم

ثابتون صابرون، فما بال هذا يجزع الجزع العظيم الذي يصفون به المسيح، وهو يقتضي غاية النقص العظيم مع دعواهم فيه الإلهية(١).

ثالثًا: مناقشة قولهم بنوة وأبوة من غير نكاح:

قولهم: ويراد بالأب والابن غير أُبوَّة وبُنُوَّة نكاحٍ، ومَن أراد ولادة زوجة، لعنَّاه.

فيقال: لفظ الولادة المعروفة إنما يكون من أصلين، وإنما يكون بانفصال جزءٍ من الأصلين، وإنما يكون بحدوث المولود؛ سواء أريد ولادة الحيوان أو غيرها، كما تتولَّد النار من بين الزنادين، فإذا قدح أحدهما بالآخر، خرج منهما جزءٌ لطيف، فاستحال نارًا، ثم سقط على الحراق.

وقد توسع بعض الناس في الولادة حتى عبر به عمَّا يحدث عن الشيء، وإن لم يكن بانفصال جزءٍ منه؛ كتولُّد الشعاع عن النار والشمس وغيرها؛ لأنَّ هذا يحدث بشيئين:

أحدهما: ما يصدر عنه من الشمس والنار.

والثاني: المحل القابل له الذي ينعكس عليه، وهو الجرم المقابل له الذي يقوم به الشعاع(٢).

---

(١) (٤/ ٩٤).

(٢) قد يقال: مثل حصول الشعاع من الشمس يسمى تولدًا، ولا يسمى ولادةً -فقد فرقت أكثر المعاجم بين الولادة المعروفة، وبين التولد- ولا يسمى الحاصل من التولد كالشعاع وغيره ولدًا أو ابنًا، وإنما يسمى متولدًا، وهو خلاف زعمهم، وإنما لا يعرف الولادة والبنوة والولد والابن لغةً وعرفًا إلا من التقاء النظيرين، وكذا أن يكون حادثًا مسبوقًا بالعدم، فإن زعم القوم أنَّ المسيح ابن الله حقيقة، فيلزمهم القول بالصاحبة لزومًا لا ينفكُّ، كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وكذا بحدوث الولد، وإن =

فأمَّا ما يحدث عن شيءٍ واحدٍ، فلا يعرف أنه يسمى ولادةً إن قدر وجود ذلك، وكذلك لا يعرف ما يلزم الشيء الواحد أنه يسمى ولدًا، فأمَّا ما يقوم بالموصوف من صفاته اللازمة له، فهذا أبعد شيءٍ عن أن يُسمَّى هذا الملزوم ولادةً، بل لا تكون الولادة إلا عن أصلين، وكل مَن قال: إنَّ لله ولدًا، لزمه أن يكون له صاحبة بأي وجهٍ فسر الولادة، وأن يكون له ولد حادث.

ولهذا، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١]، فاستفهم تعالى استفهام إنكارٍ؛ ليُبيِّن امتناع أن يكون له ولد، إذ لم تكن له صاحبة، فإن الولد لا يكون إلا من أصلين...

والنَّصارى يزعمون أنَّ كلمة الله التي يفسرونها بعلمه أو حكمته، وروح القدس التي يُفسِّرونها بحياته وقدرته هي صفةٌ له قديمةٌ أزليةٌ، لم يزل ولا يزال موصوفًا بها، ويقولون مع ذلك: إن الكلمة هي مولودة منه، فيجعلون علمه القديم الأزلي متولدًا عنه، ولا يجعلون حياته القديمة الأزلية متولدةً عنه.

وقد أصابوا في أنهم لم يجعلوا حياته متولدةً عنه، لكن ظهر بذلك بعض

=

قالوا: ولادة حقيقية كولادة الشعاع من الشمس، وقالوا بأزلية الابن، فقد أتوا بما لا يعرفه أرباب الألسنة، ولا يصحُّ إلا على طريق المجاز، والتوسُّع في اللغة، والمجاز يصحُّ نفيه، فيقال: ليس الشعاع ابن الشمس. ويقال: ليس المسيح ابنًا لله حقيقةً، وهذا يناقض أصل أصولهم، ولو سلَّموا بالمجاز، فيقال حينها: إن إطلاق الولادة على الاصطفاء هو المجاز الأقرب الموافق للغة الكتاب، والمعقول والمنقول، فيتعيَّن القول به.

مناقضاتهم وضلالهم، فإنه أنواع كثيرة، فإنه إن كانت صفة الموصوف القديمة اللازمة لذاته يقال: إنها ابنه وولده، ومتولد عنه، ونحو ذلك، فتكون حياته أيضًا ابنه وولده، ومتولدًا عنه، وإن لم يكن كذلك، فلا يكون علمه ابنه، ولا ولده، ولا متولدًا عنه.

وأبلغ من ذلك أنَّ روح القدس المنفصلة عنه، القائمة بالأنبياء والصِّدِّيقين، لا يقولون: إنها ولده، ولا إنها متولدةٌ عنه، بل يخصون ذلك بالكلمة، فلا ينقلون عن أحدٍ من الأنبياء أنه سمى شيئًا من صفات الله ابنًا، ولا ولدًا، ولا قال: إن علم الله أو كلامه أو حكمته ولده أو ابنه، أو هو متولد عنه، فعلم أنَّ القوم في غاية التناقض في المعاني والألفاظ، وأنَّهم مخالفون للكتب الإلهية كلها، ولما فطر الله عليه عباده من المعقولات التي يسمُّونها: نواميس عقلية، ومخالفون لجميع لغات الآدميين.

وهذا ممَّا يظهر به فساد تمثيلهم، فإنهم قالوا: تولَّدت الكلمة عنه، كما تولد الكلمة والحكمة فينا عن العقل. فيُقَال لهم: لو قُدِّر أن الأنبياء سموا ذلك تولدًا، فما يتولد فينا حادث بعد أن لم يكن، وحدوثه يتسبب من فعلنا وقدرتنا ومشيئتنا، فأمَّا صفاتنا اللازمة لنا التي لا اختيار لنا في اتِّصافنا بها، ولم نزل متَّصفين بها، فلا يقول عاقلٌ: إنها متولدة فينا وعنَّا، وأنتم تجعلون صفة الله القديمة اللازمة له التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها، متولدة عنه، فلو قدر أنَّ ما ذكرتموه من التولُّد العقلي أمر معروف في اللغة والعقل والشرع، لم يكن لكم أن تجعلوا علم الله وحكمته التي فسَّرتم بها كلمته ابنًا له، ومولودًا منه، لم يزل مولودًا منه؛ لأنَّ هذا باطلٌ عقلًا وشرعًا ولغةً.

أما العقل فإن صفة الموصوف اللازمة له -وإن كان مخلوقًا- ليست متولدةً عنه، فكيف الصفة القديمة للموصوف القديم؟ ولو جاز هذا، جاز أن يجعل ما كان لازمًا لغيره ولدًا له، ومولودًا منه، فيجعل كيفيات الأشياء وكمياتها متولدة عنها وأمثالها، ويقال: إنَّ طولَ الجسم وعرضه وعمقه متولدٌ عنه، وإن حياة الحي متولدة عنه، وإن القوى والطبايع التي جعلها الله في المخلوقات متولدة عنها.

وأما الشرع، فإنَّ هذا لو كان متولدًا وهو في بعض اللغات يسمى ولدًا، لم يجز أن يُحمل على ذلك كلام الأنبياء إلا أن يكون في لغتهم يسمى ولدًا، وكل مَن نظر في كتب الأنبياء من علماء النصارى وغيرهم، لم يجد أحدًا من الأنبياء يسمي علم الله وكلمته وحياته ولدًا له، ولا ابنًا له، ولا قال: إنَّ ذلك يتولد عنه...

وأمَّا اللغة، فإنَّ هذا التعبير الذي ذكروا، وهو تسمية صفات الموصوف اللازمة له ولدًا وابنًا ومتولدًا، لا يُعْرف في لغات بني آدم المعروفة، وقد يتبنى الرجل ولد غيره، فيتخذه ولدًا، ويجعله بمنزلة الولد، وإن لم يكن متولدًا عنه، كما كانت تفعله أهل الجاهلية من العرب وغيرهم.

ولهذا، نزَّه الله تعالى نفسه عن الولادة، وعن اتخاذ الولد، فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٢]... وقال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣- ٤]...

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦- ١١٧].

وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

وأهل الكتاب يذكرون أنَّ في كتبهم تسمية عباد الله الصالحين ابنًا، وتسمية الله أبًا، وتسمية المصطفين أبناء، وهذا إذا كان ثابتًا عن الأنبياء، فإنهم لا يعنون به إلا معنًى صحيحًا، واللفظ قد يكون له في لغةٍ معنًى، وله في لغةٍ أخرى معنًى غير ذلك، والمراد بهذا الولد والابن لا ينافي كونه مخلوقًا مربوبًا عبدًا لله ﷻ.

وأمَّا تسمية شيءٍ من صفات الله ابنًا أو ولدًا، فهذا لا يُعْرف عن أحدٍ من الأنبياء، ولا الأمم أهل اللغات سوى مبتدعة النصارى، ولم يبق للتولد إلا معنيان؛ أحدهما: أن ينفصل عنه جزء. والثاني: أن يحدث عنه شيء؛ إمَّا باختياره، وإما بغير اختياره وقدرته، كحدوث الشعاع عن النار والشمس، وكلٌّ من الأمرين لا يكون إلا عن أصلين، ولا بد أن يكون حادثًا، لا يكون من صفاته اللازمة له، فيمتنع أن يتولد عنه شيءٌ إن لم يكن معه أصلٌ آخر يتولد عنهما[1].

رابعًا: نقد عقيدة الصلب والفداء:

وهم قد نسبوا إلى الله من الظلم العظيم على هذا الأصل ما لم ينسبه إليه أحدٌ من الأمم كما سبوه وشتموه مسبَّةً ما سبَّه إياها أحدٌ من الأمم، فهم من أبعد الأمم عن توحيده وتمجيده وحمده والثناء عليه، وذلك أنهم يزعمون أنَّ آدم لما

---

(١) (٤/٤٦٨).

أكل من الشجرة، غضب الرب عليه وعاقبه، وأن تلك العقوبة بقيت في ذريته إلى أن جاء المسيح وصلب[(١)]، وأنه كانت الذرية في حبس إبليس، فمن مات منهم، ذهبت روحه إلى جهنم في حبس إبليس حتى قالوا ذلك في الأنبياء نوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وغيرهم[(٢)]، ومعلوم أن إبراهيم كان أبوه كافرًا، ولم

---

(١) وهذا مع تنافيه مع أحد قواعد العدل المتفق عليها بين أهل الملل، وهو ألَّا يلام إنسان على خطيئة غيره، فهو يتنافى مع نصوص كتابية، كما في حزقيال (١٨-٢٢): النفس التي تخطئ هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون. ٢١ فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كل فرائضي، وفعل حقًّا وعدلًا، فحياة يحيا، لا يموت. ٢٢ كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه، في بره الذي عمل يحيا.

ففي هذا النص أن الإنسان لا يعاقب بعمل أبيه الأقرب، بل إنه لو حسن عمله، وتاب من ذنبه، لا يُلَام على ذنبه هو، ولا يمكن الجمع بين هذا وبين عقيدة الخطيئة الأصلية.

ونحوه في تثنية (١٦/٢٤): لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسانٍ بخطيته يقتل.

وآباء الكنيسة لهم شروح ضعيفة لهذا الاعتقاد، مثل كون آدم رمزًا للإنسان، أو أن معصيته اشتملت على المعاصي كلها، ونحو هذه الدعاوى التي تفتقر إلى دليل يثبتها، وليس تصلح دليلًا لتثبت أصلًا من أصول الاعتقاد.

(٢) وهذا أيضًا يتعارض مع كثير من نصوص الكتاب التي تثني على كثيرٍ من أنبياء الله كنوحٍ «كان نوح رجلًا بارًّا كاملًا في أجياله، وسار نوح مع الله»، وإبراهيم «وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي»، وموسى «وأمَّا عبدي موسى فليس هكذا، بل هو أمين في كل بيتي»، ويوحنا «لأنَّه يكون عظيمًا أمام الرب»، وغيرهم من الأنبياء، فإذا كان هؤلاء الأنبياء محملين بالخطيئة الأصلية، مُلَامين لأجلها، فكيف استحقوا الثناء قبل تخليص المسيح منها؟ وما حكمة إرسالهم إن كانوا لن يخلصوا الناس من الإثم، ولن يدلوهم على طريق النجاة؟

يؤاخذه الله بذنب أبيه، فكيف يؤاخذه بذنب آدم وهو أبوه الأبعد، هذا لو قدر أن آدم لم يتب، فكيف وقد أخبر الله عنه بالتوبة؟ ثم يزعمون أن الصلب الذي هو من أعظم الذنوب والخطايا، به خلص الله آدم وذريته من عذاب الجحيم، وبه عاقب إبليس مع أن إبليس ما زال عاصيًا لله، مستحقًّا للعقاب من حين امتنع من السجود لآدم، ووسوس لآدم إلى حين مبعث المسيح، والرب قادر على عقوبته، وبنو آدم لا عقوبة عليهم في ذنب أبيهم...

والنصارى يقولون: إن المسيح الذي هو عندهم اللاهوت والناسوت جميعًا إنما مكن الكفار من صلبه ليحتال بذلك على عقوبة إبليس، قالوا: فأخفى نفسه عن إبليس؛ لئلَّا يعلم، ومكن أعداءه من أخذه وضربه والبصاق في وجهه، ووضع الشوك على رأسه وصلبه، وأظهر الجزع من الموت، وصار يقول: يا إلهي، لم سلطت أعدائي علي، ليختفي بذلك عن إبليس، فلا يعرف إبليس أنه الله أو ابن الله، ويريد إبليس أن يأخذ روحه إلى الجحيم كما أخذ أرواح نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين، فيحتج عليه الرَّبُّ حِينَئِذٍ، ويقول: بماذا استحللت يا إبليس أن تأخذ روحي؟ فيقول له إبليس: بخطيئتك، فيقول: ناسوتي لا خطيئة له كنواسيت الأنبياء، فإنه كان لهم خطايا استحقوا بها أن تؤخذ أرواحهم إلى جهنم، وأنا لا خطيئة لي. وقالوا: فلما أقام الله الحجة على إبليس، جاز للرب حينئذٍ أن يأخذ إبليس ويعاقبه، ويخلص ذرية آدم من إذهابهم إلى الجحيم.

وهذا الكلام فيه من الباطل ونسبة الظلم إلى الله ما يطول وَصْفه؛ فمن هذا قوله:

فقد قدح في علم الرَّبِّ وحكمته وعدله قدحًا ما قدحه فيه أحدٌ، وذلك من وجوهٍ:

أحدها: أن يقال: إبليسُ إنْ كان أَخَذ الذرية بذنب أبيهم، فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره، وإن كان بخطاياهم، فلم يأخذهم بذنب أبيهم، وهم قالوا: إنما أخذهم بذنب آدم.

الثاني: أن يقال: مَن خلق بعد المسيح من الذريَّة كمَنْ خلق قبله، فكيف جاز أن يمكن إبليس من الذرية المتقدمين دون المتأخرين، وكلهم بالنسبة إلى آدم سواء، وهم أيضًا يخطئون أعظم من خطايا الأنبياء المتقدمين، فكيف جاز تمكين إبليس من عقوبة الأنبياء المتقدمين، ولم يمكن من عقوبة الكفار والجبابرة الذين كانوا بعد المسيح؟

الوجه الثالث: أن يقال: أخذ إبليس لذرية آدم وإدخالهم جهنم إما أن يكون ظلمًا من إبليس، وإما أن يكون عدلًا، فإن كان عدلًا، فلا لوم على إبليس، ولا يجوز أن يحتال عليه ليمتنع من العدل الذي يستحقُّه، بل يجب تمكينه من المتأخرين والمتقدمين، وإن كان ظلمًا فلم لا يمنعه الرب منه قبل المسيح؟

فإن قيل: لم يقدر، فقد نسبوه إلى العجز. وإن قيل: قدر على دفع ظلم إبليس ولم يفعله، فلا فرق بين دفعه في زمانٍ دون زمانٍ، إن جاز ذلك جاز في كل زمانٍ، وإن امتنع امتنع في كل زمانٍ.

الوجه الرابع: أن إبليس إنْ كان معذورًا قبل المسيح، فلا حاجة إلى عقوبته، ولا ملام عليه، وإن لم يكن معذورًا، استحق العقوبة، ولا حاجة إلى أن يحتال عليه بحيلةٍ تُقَام بها الحجة عليه...

الوجه الخامس: أن يقال: هَبْ أن آدم أذنب، وبنوه أذنبوا بتزيين الشيطان، فعقوبة بني آدم على ذنوبهم هي إلى الله أو إلى إبليس؟ فهل يقول عاقلٌ: إن إبليس له أن يغوي بني آدم بتزيينه لهم، ثم له أن يعاقبهم جميعًا بغير إذنٍ من الله في ذلك، وهل هذا القول إلا من قول المجوس الثنوية الذين يقولون: إن كلَّ ما في العالم من الشَّرِّ من الذنوب والعقاب وغير ذلك هو من فعل إبليس لم يفعل الله شيئًا من ذلك، ولا عاقب الله أحدًا على ذنبٍ، ولا ريب أن هذا القول سَرَى إلى النصارى من المجوس؛ لهذا لا ينقلون هذا القول في كتاب منزل، ولا عن أحدٍ من الحواريين؛ ولهذا كان المانوية دينهم مركبًا من دين النصارى والمجوس، وكان رأسهم ماني نصرانيًّا مجوسيًّا، فالنسب بين النصارى والمجوس -بل وسائر المشركين- نسب معروف.

الوجه السادس: أن يقال: إبليس عاقب بني آدم، وأدخلهم جهنم بإذن الله أو بغير إذنه؟ إن قالوا: بإذنه، فلا ذنب له، ولا يستحقُّ أن يحتال عليه ليعاقب ويمتنع، وإن كان بغير إذنه، فهل جاز في عدل الله أن يمكنه من ذلك، أم لم يجز، فإن جاز ذلك في زمانٍ، جاز في جميع الأزمنة، وإن لم يجز في زمانٍ، لم يجز في جميع الأزمنة، فلا فرق بين ما قبل المسيح وما بعده.

الوجه السابع: أنَّ ما فعله به الكفار اليهود الذين صلبوه طاعة لله أو معصية، فإن كان طاعةً لله استحق اليهود الذين صلبوه أن يثيبهم ويكرمهم على طاعته كما يثيب سائر المطيعين له.

والنصارى متفقون على أن أولئك من أعظم الناس إثمًا، وهم من شرِّ الخلق،

وهم يستحلُّون من دمهم ولعنتهم ما لا يستحلُّونه من غيرهم، بل يبالغون في طلب اليهود وعقوبتهم في آخر صومهم الأيام التي تشبه أيام الصليب، وإن كان أولئك اليهود عصاةً لله، فهل كان قادرًا على منعهم من هذه المعصية أم لا.

فإن لم يكن قادرًا، لم يكن قادرًا على منع إبليس من ظلم الذرية في الزمن المستقبل، وإن كان قادرًا على مَنْعهم من المعاصي ولم يمنعهم، كان قادرًا على منع إبليس بدون هذه الحيلة، وإذا كان حسنًا منه تمكينهم من هذه المعصية، كان حسنًا منه تمكين إبليس من ظلم الذرية في الماضي والمستقبل، فلا حاجة إلى الحيلة عليه.

واعلم أنَّ الوجوه الدالَّة على فساد دين النصارى كثيرة جدًّا، وكلَّما تصور العاقل مذهبهم، وتصور لوازمه، تبين له فساده(١).

والمسلمون يثبتون بالدلائل الكثيرة أنهم بدَّلوا معاني التوراة والإنجيل والزبور وغيرهم من نبوات الأنبياء، وابتدعوا شرعًا لم يأت به المسيح ولا غيره.

ولا يقول عاقل مثل زعمهم أن جميع بني آدم من الأنبياء والرسل وغيرهم كانوا في الجحيم في حبس الشيطان لأجل أنَّ أباهم آدم أكل من الشجرة، وأنهم إنما تخلَّصوا من ذلك لمَّا صلب المسيح؛ فإن هذا الكلام لو نقله ناقلٌ عن بعض الأنبياء، لَقَطعنا بكذبه عليهم، فكيف وهذا الكلام ليس منقولًا عندهم عن أحدٍ من الأنبياء، وإنما ينقلونه عمن ليس قوله حجة لازمة، فإن كثيرًا من دينهم مأخوذ عن رؤوسهم الذين ليسوا بأنبياء، فإذا قطعنا بكذب من ينقله عن الأنبياء،

---

(١) (٢/ ١٠٧).

فكيف إذا لم ينقله عنهم.

وذلك أن الأنبياء عليهم السلام يُخْبرون الناس بما تقصر عقولهم عن معرفته لا بما يعرفون أنه باطلٌ ممتنعٌ، فيخبرونهم بمحيرات العقول لا محالات العقول، وآدم عليه السلام وإن كان أكل من الشجرة، فقد تاب الله عليه واجتباه وهداه، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وليس عند أهل الكتاب في كتبهم ما ينفي توبته، وإنما قد يقول قائلهم: إنَّا لا نعلم أنه تاب أو ليس عندنا توبته. وعدم العلم بشيءٍ ليس علمًا بعدمه، وعدم وجود الشيء في كتابٍ من كتب الله لا ينفي أن يكون في كتابٍ آخر، ففي التوراة ما ليس في الإنجيل، وفيهما ما ليس في الزبور، وفي الإنجيل والزبور ما ليس في التوراة، وفي سائر النبوات ما لا يوجد في هذه الكتب، والقرآن لو كان دون التوراة والإنجيل والزبور والنبوات أو كان مثلها لأمكن أن يكون فيه ما ليس فيها، فكيف إذا كان أفضل وأشرف، وفيه من العلم أعظم مما في التوراة والإنجيل[1].

---

(١) قد يقال: إنَّ التوبة لم تذكر في كتبهم، لكن ذكرت العقوبة على هذا الذنب، ففي تكوين (٣/ ١٦-١٨): «(١٦) وقال للمرأة: تكثيرًا أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادًا، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك» (١٧) وقال لآدم: «لأنك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلًا: لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. (١٨) وشوكًا وحسكًا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل.

- فإن كانت هذه العقوبة في مقابلة الذنب، فهي ماحية ومكفرة له، كما في حديث عبادة في =

وسواء تاب آدم أو لم يتب، فكيف يجوز أن يكون رسل الله الذين هم أفضل منه محبوسين في حبس الشيطان في جهنم بذنبه؟... ثم أي مناسبةٍ بين الصلب الذي هو من أعظم الذنوب سواء صلبوا المسيح أو المشبه به، وبين تخليص هؤلاء من الشيطان، فإنَّ الشيطان إن فعل ذلك بالذرية كان ظالمًا معتديًا، والله ﷻ قادر على منعه من ظلمهم، بل وعلى عقوبته إذا لم ينته عن ظلمهم، فلماذا أخر منعه من ظلمهم إلى زمن المسيح؟

وهو سبحانه ولي المؤمنين وناصرهم ومؤيدهم، وهم رسله الذين نصرهم على مَن عاداهم، بل أهلك أعداءهم الذين هم جند الشيطان، فكيف لا يمنع الشيطان بعد موتهم أن يظلمهم، ويجعل أرواحهم في جهنم هذا إن قدر أن الشيطان كان قادرًا على ذلك، وكيف يجوز أن يجعل الشيطان بعد موت أنبيائه وأوليائه، وسقوط التكليف عنهم، واستحقاقهم كرامته وإحسانه وجنته بحكم وعده، ومقتضى حكمته، فجعله مسلطًا على حبسهم في جهنم؟

وإن قالوا: الرَّبُّ ﷻ ما كان يقدر على تخليصهم من الشيطان مع علمه بأنه ظالمٌ معتدٍ عليهم بعد الموت إلا بأن يحتال عليه بإخفاء نفسه ليتمكن الشيطان منه كما يزعمون، فهذا -مع ما فيه من الكفر العظيم وجعل الرب سبحانه عاجزًا، كما جعلوه أولًا ظالمًا- فيه من التناقض ما يقتضي عظيم جهلهم الذي جعلوا به الرب جاهلًا، فإنهم يقولون: إنه احتال على الشيطان ليأخذه بعدل، كما احتال الشيطان على آدم

=

الصحيحين، وفيه: «رمَنْ أَصاب من ذلك شيئًا، فعُوقِبَ به في الدنيا، فهو له كفارةٌ»، وَإِنْ لم تكن هذه في مقابلة الذنب، وماحية له، كانت تعذيبًا بغير حكمةٍ، والله مُنزَّهٌ عن هذا.

بالحية، فاختفى منه؛ لئلَّا يعلم أنه ناسوت الإله، وناسوت الإله لم يعمل خطيئةً قط بخلاف غيره، فلما أراد الشيطان أخذ روحه ليحبسه في جهنم كسائر مَن مضى وهو لم يعمل خطيئةً، استحق الشيطان أن يأخذه الرَّبُّ، ويخلص الذُّريَّة من حبسه.

وهذا تجهيلٌ منهم للرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عما يقولون مع تعجيزه وتظليمه، فإنه إن كان هو سلط الشيطان على بني آدم كما يقولون، فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره؛ إذ الجميع بني آدم، وأيضًا فإذا قدر أن الناسوت يدفع الشيطان عن نفسه بحقٍّ، فإنَّهم يقولون: إنَّه دخل الجحيم، وأخرج منه ذرية آدم. فيقال: إن كان تسلط الشيطان على حبسهم في الجحيم بحقٍّ لأجل ذنوبهم مع ذنب أبيهم، لم يجز إخراجهم لأجل سلامة ناسوت المسيح من الذنب، وإن كانوا مظلومين مع الشيطان، وَجَبَ تخليصهم قبل صلب الناسوت، ولم يجز تأخير ذلك، فليس في مجرد سلامة المسيح من الذنوب ما يوجب سلامة غيره.

وإن قالوا: إنه كان بدون تسلُّطه على صلبه عاجزًا عن دفعه، فهو مع تسلطه على صلبه أعجز وأعجز[1].

خامسًا: مناقشة دعواهم أنهم لا يقولون بتعدد الآلهة:

قالوا: وقد علمنا أنه لا يلزمنا إذا قلنا: هذا عبادة ثلاثة آلهة، بل إله واحد، كما لا يلزمنا إذا قلنا: الإنسان ونطقه وروحه ثلاثة أناسي، بل إنسان واحد، ولا إذا قلنا: لهيب النار وضوء النار وحرارة النار ثلاثة نيران، ولا إذا قلنا: قرص

(١) (٣/ ٤١٣).

الشمس، وضوء الشمس، وشعاع الشمس ثلاثة شموس.

وإذا كان هذا رأينا في الله تقدست أسماؤه، وجلت آلاؤه، فلا لوم علينا، ولا ذنب لنا إذ لم نهمل ما تسلمناه، ولا نرفض ما تقلَّدناه، ونتبع ما سواه...

والجواب من وجوهٍ:

أحدها: أنكم صرَّحتم بتعدد الآلهة والأرباب في عقيدة إيمانكم، وفي استدلالكم، وغير ذلك من كلامكم، فليس ذلك شيئًا ألزمكم الناس به، بل أنتم تصرحون بذلك، كما تقدم من قولكم: «نؤمن بإله واحد، أب، ضابط الكل، خالق ما يرى وما لا يرى، وبربٍّ واحدٍ يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور إله حق من إله حق، من جوهر أبيه يولد، غير مخلوق، مساو الأب في الجوهر، وبروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي مع الأب، مسجود له وممجد».

فهذا تصريحٌ بالثلاثة أرباب، وأن الابن إله حق من إله حق، ومع تصريحكم بثلاثة أرباب وتصريحكم بأنَّ هذا إله حق من إله حق، تقولون: إنَّ ذلك إله واحد، وهذا تصريحٌ بتعدُّد الآلهة مع القول بإلهٍ واحدٍ، ولو لم تذكروا ما يقتضي أنه جوهر آخر، لأمكن أن يحمل كلامكم على عطف الصفة، لكن يكون كلامكم أعظم كفرًا، فتكونون قد جعلتم المسيح هو نفس الإله الواحد الأب، خالق ما يرى وما لا يرى.

وهذا أعظم من كفركم مع أنَّ هذا حقيقة قولكم، فإنكم تقولون: المسيح هو الله، وتقولون: هو ابن الله، كما ذكر الله القولين عنكم في كلامه، وكفركم بذلك، وليس هذا قول طائفةٍ وهذا قول طائفةٍ كما يقوله بعض الناس، بل القولان جميعًا

يقولهما فرق النصارى كالنسطورية واليعقوبية والملكية ونحوهم.

وهذا أيضًا من تناقضكم، فإنه إن كان هو الله، لم يكن هو ابن الله؛ سواء عبر بالابن عن الصفة أو غيرها، فإن الأب هو الذات، والذات ليست هي الصفة، وإن عنى بالابن الذات مع صفة الكلام، كما تُفسِّرون الأقنوم بذلك، فهذه الذات متصفةٌ مع ذلكِ بالحياة والكلام، سواء عنوا به العلم أو البيانِ مع العلم هو مع الحياة قائمٌ بالأب، والصِّفة ليست عين الموصوف، بل ولا يعبر عنها بأنها ابن الموصوف، ولا عبر بذلك أحدٌ من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ...

ثم قلتم: مساو الأب في الجوهر، فاقتضى هذا أن يكون المولود الذي هو الكلمة جوهرًا، وأنه مساو الأب في الجوهر، والمساوى ليس هو المساوي، وهذا يقتضي إثبات جوهر ثانٍ مساو الجوهر الأول، وهو صريح بإثبات إلهين، ويقولون مع ذلك: إنه إله واحد، جوهر واحد، ولا يقال: الجوهر مع العلم الذي يعبرون عنه بالأقنوم مساو الجوهر الذي هو الذات؛ فإن الجوهر هو الذات.

وليس هنا جوهران، أحدهما مجرد عن العلم، والآخر متصف به حتى يقال: إنَّ أحدهما مساو للآخر، بل الرب تعالى هو الذات المتصفة بالعلم، فإن كان الأب هو الذات المجردة، فالابن أكمل من الأب، وهو الذات مع العلم، والأب بعض الابن، وكذلك يلزمهم أن يكون الابن هو بعض روح القدس؛ فإنهم في أمانتهم جعلوا روح القدس هو الرب المحيي، والرب المحيي هو الذات المتصفة بالحياة، والذات المجردة بعض ذلك، فإن كان الأب هو الذات المجردة، فالابن بعض روح القدس.

ثم قلتم في أقنوم روح القدس الذي جعلتموه الرب المحيي: إنه منبثقٌ من الأب، مسجود له ممجد، ناطق في الأنبياء، فإن كان المنبثق ربًّا حيًّا، فهذا إثبات إله ثالث، وقد جعلتم الذات الحية منبثقة من الذات المجردة، وفي كلٍّ منهما من الكفر والتناقض ما لا يخفى.

ثم جعلتم هذا الثالث مسجودًا له، والمسجود له هو الإله المعبود، وهذا تصريح بالسجود لإلهٍ ثالثٍ مع ما فيه من التناقض، ثم جعلتموه ناطقًا بالأنبياء، وهذا تصريح بحلول هذا الأقنوم الثالث بجميع الأنبياء، فيلزمكم أن تجعلوا كلَّ نبيٍّ مركبًا من لاهوت وناسوت، وأنه إله تام وإنسان تام، كما قلتم في المسيح؛ إِذْ لا فرق بين حلول الكلمة وحلول روح القدس، كلاهما أقنوم.

وأيضًا فيمتنع حلول إحدى الصفتين دون الأخرى، وحلول الصفة دون الذات، فيلزم أن يكون الإله الحي الناطق بأقانيمه الثلاثة حالًّا في كل نبيٍّ، ويكون كل نبيٍّ هو رب العالمين، ويقال مع ذلك: هو ابنه، وفي هذا من الكفر الكبير والتناقض العظيم ما لا يخفى، وهذا لازمٌ للنصارى لزومًا لا محيد عنه، فإنَّ ما ثبت للشيء ثبت لنظيره، ولا يجوز التفريق بين المتماثلين، وليس لهم أن يقولوا: الحلول أو الاتحاد في المسيح ثبت بالنَّصِّ، ولا نصَّ في غيره؛ لوجوهٍ:

أحدها: أن النصوص لم تدل على شيءٍ من ذلك، كما قد تبيَّن.

الثاني: أن في غير المسيح من النصوص ما شابه النصوص الواردة فيه؛ كلفظ الابن، ولفظ حلول روح القدس فيه، ونحو ذلك.

الثالث: أنَّ الدليل لا ينعكس، فلا يلزم من عدم الدليل المعين عدم

المدلول، وليس كل ما علمه الله، وأكرم به أنبياءه، أعلم به الخلق بنصٍّ صريحٍ، بل من جملة الدلالات دلالة الالتزام، وإذا ثبت الحلول والاتحاد في أحد النبيين بمعنى مشترك بينه وبين النبي الآخر، وَجَبَ التسوية بين المتماثلين، كما إذا ثبت أن النبي يجب تصديقه لأنه نبيٌّ، ويكفر من كذبه لأنه نبيٌّ، فيلزم من ذلك أنه يجب تصديق كل نبيٍّ، وتكفير من كذبه.

الرابع: هَبْ أنه لا دليل على ثبوت ذلك في الغير، فيلزم تجويز ذلك في الغير؛ إذ لا دليل على انتفائه، كما يقولون: إنَّ ذلك كان ثابتًا في المسيح قبل إظهاره الآيات على قولهم، وحينئذٍ فيلزمهم أن يجوزوا في كل نبيٍّ أن يكون الله قد جعله إلهًا تامًّا وإنسانًا تامًّا كالمسيح وإن لم يعلم ذلك(١).

---

(١) (١/ ٨٢٨).

الفصل الثالث

مناقشة الأمثلة التي يضربونها لعقيدة التثليث، وتعدد الأقانيم

أولاً: التمثيل بالشمس:

وهم تارةً يشبهون الأقنومين -العلم والحياة التي يسمونها الكلمة وروح القدس- بالضياء والحرارة التي للشمس مع الشمس، ويشبهون ذلك بالحياة والنطق الذي للنفس مع النفس.

وهذا تشبيهٌ فاسدٌ، فإنَّهم إنْ أرادوا بالضياء والحرارة ما يقوم بذات الشمس، فذلك صفةٌ للشمس قائمةٌ بها لم تحل بغيرها، ولم تتحد بغيرها، كما أنَّ صفة النفس كذلك، هذا إن قيل: إنَّ الشمس تقوم به حرارة، وإلا فهذا ممنوعٌ، والمقصود هنا: بيان فساد كلامهم وقياسهم، وإن أرادوا ما هو بائنٌ عن الشمس قائمٌ بغيرها؛ كالشعاع القائم بالهواء والأرض، والحرارة القائمة بذلك، كان هذا دليلًا على فساد قولهم من وجوهٍ:

منها: أن هذه أعراضٌ منفصلةٌ بائنةٌ عن الشمس قائمة بغيرها لا بها، ونظير هذا ما يقوم بقلوب الأنبياء من العلم والحكمة والوحي الذي أنذروا به، وعلى هذا التقدير فليس في الناسوت شيء من اللاهوت، وإنما فيه آثار حكمته وقدرته.

ومنها: أن الحرارة والضوء القائم بالهواء والجدران أعراض قائمة بغير الشمس، والكلمة وروح القدس عندهم هما جوهران.

ومنها: أنَّ هذا ليس هو الشمس، ولا صفة من صفات الشمس، وإنما هو

أثرٌ حاصل في غير الشمس بسبب الشمس، ومثل هذا لا ينكر قيامه بالأنبياء والصالحين، ولكن ليس للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بذلك اختصاص، فما حلَّ بالمسيح حلَّ بغيره من المرسلين، وما لم يحل بغيره لم يحل به، فلا اختصاص له بأمرٍ يوجب أن يكون إلهًا دون غيره من الرسل، ولا هنا اتحادٌ بين اللاهوت والناسوت، كما لم تتحد الشمس، ولا صفاتها القائمة بها بالهواء، والأرض التي حصل بها الشعاع والحرارة[1].

قال سعيد بن البطريق: وذلك مثل ما أن الشعاع المولود من عين الشمس الذي يملأ ضوءه ما بين السماء والأرض نورًا، وفي بيتٍ من البيوت يكون فيه ضياء بنوره من غير مقارنةٍ لعين الشمس التي تولد منها حقًّا؛ لأنه لم ينقطع من العين، ولا من الضوء، فكذلك سكن الله في الناسوت من غير أن يفارقه الأب، فهو مع الناسوت، وهو مع الأب وروح القدس حقًّا.

ثم هذا التمثيل باطلٌ من وجوهٍ:

أحدها: أنَّ الشعاع ليس متولدًا من جرم الشمس، ولا شعاع النار متولد من جرم النار، بل هو حادثٌ بائنٌ عن جرم الشمس، ولكنها سببٌ في حصوله، ولهذا يشبه به العلم الحاصل في قلب المتعلم بسبب تعلم العلم من غير أن يكون من ذات علم العالم.

ولهذا، يشبه علم العالم بالسراج الذي يقتبس كل أحدٍ من نوره، وهو لم ينقص، بخلاف تولد المولود عن والده، فإنه متولدٌ عن عينه، والشعاع القائم

---

(١) (٣/ ٢٣٤).

بالهواء والأرض، ليس هو قائمًا بذات الشمس والنار، بل هو عرضٌ قائمٌ بمحلٍّ آخر، والعرض الواحد لا يكون في محلين، والنصارى يقولون: إن الكلمة التي هي علم الله أو حكمته متولدة منه، وهي قديمة أزلية، والصفة قائمة بالموصوف، فالصفة مثل ما يقوم بذات الشمس من استدارةٍ وضوءٍ، فذاك صفة لها، وهو غير الشعاع القائم بالهواء، فإن ذاك بائن عنها، فكيف يجعل هذا هو هذا.

فإن قالوا: نحن مقصودنا أن حكمة الله وعلمه ونوره أنزله إلى المسيح، وأفاضه على المسيح كما يفيض الشعاع عن الشمس. قيل لهم: فهذا قدرٌ مشتركٌ بين المسيح وسائر الأنبياء، فلا اختصاص للمسيح بذلك.

الوجه الثاني: قولهم: الذي يملأ ضوءه ما بين السماء والأرض نورًا، وفي بيتٍ من البيوت يكون فيه حقًّا من غير مقارنةٍ لعين الشمس التي تولد منها حقًّا.

فيقال لهم: الشعاع الذي بين السماء والأرض هو الضوء، وهو النور، فقولكم: إنَّ الشعاع يملأ ضوءه ما بين السماء والأرض نورًا، يقتضي أنه شعاع وضوء شعاع، ونور حدث عن ذلك، وهذا غلطٌ، بل ليس هنا إلا جرم الشمس التي في السماء وشعاعها، وهو الضوء والنور الذي ما بين السماء والأرض.

الثالث: قولكم: من غير مفارقة عين الشمس، يقتضي أن هذا الشعاع هو نفس ما قام بالشمس، وهذا مكابرةٌ للحس والعقل، بل الشعاع الذي قام بالهواء والأرض عرضٌ لم يقم بالشمس فقط، وكل شعاع بقعة، فليس هو عين الشعاع الذي في البقعة الأخرى، وإن كان هو نظيره ومثله، وجنس الشعاع يجمعهما، كما أنَّ شعاع هذا السراج ليس هو شعاع هذا السراج، وإن قدر اختلاطهما حتى

يقوى الضوء، ولا حركة هذا الهواء هي حركة هذا الهواء، ونظائر ذلك متعددة.

الرابع: قولكم: كذلك الله سكن في الناسوت من غير أن يفارقه الأب، تمثيل باطل؛ فإن الشمس نفسها لم تكن في الهواء والأرض، وإنما سكن شعاعها، فوزانه أن يقال: فكذلك سكن نور الله وبرهانه، وهداه وروحه، وهذا إذا قلته، فهو منقولٌ عن الأنبياء، تنطق كتبهم بأن نور الله وروحه وهداه في قلوب المؤمنين، لكن لا اختصاص للمسيح بذلك، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ [النور: ٣٥]. قال أُبيٌّ بن كعب: مثل نوره في قلب المؤمن...

الخامس: إنكم إذا جعلتم الله نفسه ساكنًا في المسيح، فوزانه أن تكون الشمس نفسها ساكنةً في موضعٍ صغيرٍ من الأرض. وهذا التمثيل يبطل قولكم: إنَّ الله أعلى وأعظم وأجلُّ وأكبر، والله أجلُّ وأكبر وأعظم من كل شيءٍ، والشمس آيةٌ من آياته، ومخلوقٌ من مخلوقاته.

ومع هذا فلو قال قائلٌ: إنَّ الشمس سكنت في جوف امرأةٍ، وخرجت من فرج تلك المرأة، لكان كل عاقلٍ يعلم فساد قوله، وينسبه إلى الجهل العظيم أو الجنون، وسواء قال: إن الشمس نفسها نزلت أو لم تنزل، وأنتم تقولون: إنَّ رب العالمين سكن في بطن مريم، ويقول أكثركم كالملكية واليعقوبية: إنه خرج من فرج مريم، ولو قال قائلٌ عما هو من أصغر مخلوقات الله، كوكب من الكواكب، أو جبل من الجبال، أو صخرة عظيمة: إن ذلك كان في بطن امرأة وخرج من فرجها، لَضَحِكَ الناس من قوله، فكيف بمَن يدَّعي مثل ذلك في ربِّ

العالمين؟![1]

وأمَّا المثل الثالث، وهو تمثيل ذلك بالشمس مع الماء والطين، فهو أشد فسادًا، فإنهم قالوا كما تقدم: ومثل الشمس المخالطة للماء والطين وكل رطوبة وحمأة، فهي لا تتغير، ولا تستحيل عن نورها وبقائها وضوئها مع مخالطتها كل سوادٍ ووسخٍ ونتنٍ ونجسٍ.

فيقال: أما جرم الشمس الذي في السماء، فلم يخالط شيئًا من الماء والطين، ولا اتحد به، ولا حلَّ فيه بوجهٍ من الوجوه، بل بينهما من البعد ما لا يقدر قدره إلا الله، والله تعالى أجلُّ وأعظم وأبعد من مخالطة الإنسان من الشمس للماء والطين، فإذا كانت الشمس نفسها لم تتحد، ولم تختلط، ولا حلت في الماء والطين، بل ولا بغيرها من المخلوقات، فربُّ العالمين أَوْلى أن ينزه عن الاتحاد والاختلاط والحلول بشيءٍ من المخلوقات، ولكن شعاع الشمس حلَّ بالماء والطين والهواء وغير ذلك مما يقوم به الشعاع، كما يحلُّ شعاع النار في الأرض والحيطان، وإن كان نفس جرم النار القائم بنفسه الَّذي في ذبالة المصباح هو جوهر قائم بنفسه، لم تحلَّ ذاته في شيءٍ من تلك المواضع.

ولفظ الضياء والنور ونحو ذلك، يُرَاد به الشيء بنفسه المستنير؛ كالشمس والقمر وكالنار، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣]...

والمقصود هنا: أن لفظ الضياء والنور ونحو ذلك يراد به الشيء المستنير

---

(١) (٤/٣١٩).

المضيء القائم بنفسه، كالشمس والقمر والنار، ويراد به الشعاع الذي يحصل بسبب ذلك في الهواء والأرض، وهذا الثاني عَرَضٌ قائمٌ بغيره، ليس هو الأول، ولا صفة قائمة بالأول، ولكنه حادث بسببه، فالشعاع الذي هو الضوء والنور الحاصل على الماء والطين والهواء وغير ذلك، هو عَرَضٌ قائمٌ بغيره، وليس هو متحدًا به البتة...

فإذا قيل: إن ما يكون عن الرب من نوره وروح قدسه وهداه وكلامه ومعرفته، يحلُّ بقلوب أنبيائه والمؤمنين من عباده، ومثل ذلك بحلول الشعاع بالأرض كان أقرب إلى العقول، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ﴾ [النور: ٣٥]، قال أُبيٌّ بن كعب: مثل نوره في قلوب المؤمنين بهذا.

وأما نفس ما يقوم بالرب، فلا يتصور أن يقوم هو نفسه بغير الرب، بل ما يقوم بالمخلوق من الصفات والأعراض يمتنع أن يقوم هو نفسه بغيره، فيمتنع في صفات الشمس القائمة بها من شكلها واستدارتها، وما قام بها من نورٍ أو غيره أن يقوم بغيرها، وكذلك ما قام بجرم النار من حرارةٍ وضوءٍ، فلا يقوم بغيرها، بل إذا جاورت النار هواءً أو غير هواءٍ، حصل في ذلك المحل سخونةٌ أخرى غيرُ السخونة القائمة بنفس النار تسخن الهواء الذي يجاورها، كما تسخن القِدْر الذي يوقد تحتها النار فيسخن، ثم يسخن الماء الذي فيها مع أن سخونة النار باقية فيها، وسخونة القِدْر باقية فيها، وسخونة الماء سخونة أخرى حصلت في الماء ليست واحدةً من تَيْنِك، وإن كانت حادثةً عنها، وجنس السخونة يجمع ذلك كله....

فقولهم: ومثل الشمس المخالطة للطين والماء وكل رطوبة وحمأة، تمثيل باطل من وجوهٍ:

منها: أنَّ ذلك عامٌّ في المخلوقات من وجهٍ، وبعباده المؤمنين من وجهٍ لا يختص المسيح به، فالمخلوقات كلها مشتركةٌ في أن الله خلقها بمشيئته وقدرته، وأنه لا قوام لها إلا به، فلا حول ولا قوة إلا به، وهي كلُّها مفتقرةٌ إليه، محتاجةٌ إليه مع غناه عنها، ولهذا كانت من آيات ربوبيته وشواهد إلهيته.

ومَنْ سمَّاها مظاهرَ ومجاليَ، بمعنى أن ذاته نفسها تظهر فيها، فهو مُفْترٍ على الله، ومن أراد بذلك أنه أظهر بها مشيئته وقدرته وعلمه وحكمته، فأراد بالمظاهر والمجالي ما يراد بالدلائل والشواهد، فقد أصاب، وكذلك إذا قال: هي آثاره ومقتضى أسمائه وصفاته.

وأما المؤمنون، فإن الإيمان بالله ومعرفته ومحبته ونوره وهداه يحلُّ في قلوبهم، وهو المثل الأعلى والمثال العلمي، فلا اختصاص للمسيح بهذا، وكذلك كلامه في قلوب عباده المؤمنين، لا اختصاص للمسيح بذلك.

ومنها: أن الشعاع لم يخالط الماء والطين، ولا يخالط شيئًا من الأعيان، ولا ينفذ فيه، ولا يتحد به، بل يكون على سطحه الظاهر فقط، لكن الشعاع يسخن ما يحل فيه، فإذا سخن ذلك، سخن جوفه بالمجاورة، كما يسخن الماء بسخونة القِدْر من غير أن تكون النار خالطت القِدْر، ولا الماء، فأين هذا من قولهم: إنَّ رب العالمين اتحد بابن امرأةٍ، فصار إلهًا تامًّا وإنسانًا تامًّا؟ وهل يقول عاقل: إن الماء والطين صار شعاعًا تامًّا، وطينًا تامًّا؟ بل الطين طين، لكن أثر الشعاع فيه

بتجفيفه لم يتحد به الشعاع، ولا نفذ فيه، ولا حلَّ في باطنه[(١)].

ثانيًا: تمثيلهم بالروح:

قولهم: ولا يلزمنا إذا قلنا هذا عبادة ثلاثة آلهةٍ، بل إله واحد، كما لا يلزمنا إذا قلنا: الإنسان وروحه ونطقه ثلاثة أناسي.

وأما تمثيلهم بروح الإنسان ونطقه، فإن أرادوا بالروح حياته، فليس هذا هو مفهوم الروح، وإن أرادوا بالروح التي تفارق بدنه بالموت، وتسمى النفس الناطقة، فهذه جوهر قائم بنفسه، ليس عرضًا من أعراضه، وحينئذٍ فيلزم أن تكون روح الله جوهرًا قائمًا بنفسه مع جوهرٍ آخر نظير بدن الإنسان، ويكون الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مركبًا من بدنٍ وروحٍ كالإنسان، وليس هذا قول أهل الملل، لا المسلمين، ولا اليهود، ولا النصارى، بل هو كفر عندهم، فتبيَّن أن تمثيلهم بالثلاثة باطل[(٢)(٣)].

قال سعيد بن البطريق: وليس حلول كلمة الله الخالقة والتحامها بجوهر

---

(١) (٤/ ٣٦٧).

(٢) (٣/ ٤٨٣).

(٣) ويقال أيضًا: الروح جزء من الإنسان كالسن واليد والقدم، ولكن لها خاصية أنها عند انفصالها عن البدن يكون لها نوع حياة، وتقوم بنفسها، ولكن تكون حياتها ناقصةً لانفصالها عن البدن، والبدن يكون له وجود ناقص لا حياة فيه بانفصال الروح، فكلٌّ منهما مفتقرٌ للآخر.

- فيلزم على هذا التشبيه لوازم منافية لقولهم؛ منها: أن الابن جزء من الأب، وأن الإله يتبعَّض وينفصل، وأن الأب بعد انفصال الابن كالجسد بلا روحٍ، وجوده ناقص، ولا حياة فيه لانفصال الروح، وأنَّ الابن حياته ناقصة بانفصاله، وأن كلًّا منهما مفتقر للآخر، وكل هذه اللوازم باطلة عندهم لا يقولون بها، ولا تطابق معتقدهم، فيلزم من ذلك بطلان هذا التشبيه، وعدم مطابقته.

وسيأتي في كلام الشيخ نحو من هذا مفرقًا.

الناسوت عن انتقالٍ، ولا تغيرٍ، ولا احتيالٍ من واحدٍ من الجوهرين عن كثافةٍ، فلا الإلهي احتال أن يكون إلهًا خالقًا، ولا الناسي احتال عن أن يكون ناسيًّا مخلوقًا.

والاحتيال والتغير إنما يلزم الخلطة إذا كانت من خلقين ثقيلين غليظين، مثل الماء والخمر، أو الماء والعسل، أو السمن والعسل، والذهب والورق والنحاس والرصاص، وما أشبه ذلك؛ لأن كله ثقيل غليظ، وكل ثقل تخالطه ثقلة لا محالة يلزمه التغير حتى يصير إلى ما كانت عليه الأثقال، فلا الخمر خمرًا، ولا الماء ماء بعد اختلاطهما، ولكنهما احتالا جميعًا عن جوهرهما، فصار إلى أمرٍ متغيرٍ ليس هو أحدهما بعينه، ولا أحدهما خالص من الفساد والاحتيال عن حاله.

فأما إذا كانت الخلطة من خلقٍ لطيفٍ وخلقٍ غليظٍ، لم يخالط تلك الخلطة تغير ولا احتيال، مثل خلطة النفس والجسد إنسانًا أحدهما يلتحم بالآخر من غير أن تكون النفس تغيرت واحتالت، أي: استحالت عن جوهرها أن تكون نفسًا تعرفها بفعالها، ولا الجسد تغيَّر، ولا احتال عن حاله وأفعاله، ومثل ما كان تخالط النار والحديد، فيلتحمان جميعًا، فيكونان جمرةً واحدةً من غير أن تكون النار قد تغيرت إلى أن تكون حديدة ثقيلة تشج وتقطع، ولا الحديدة تغيرت واحتالت إلى أن تكون نارًا تحرق، فكذلك تفعل كل خلطةٍ مؤلفة من شيئين مختلفين؛ أحدهما روحاني لطيف، والآخر ثقلي غليظ، مثل النفس والجسد والنار والحديد، ومثل الشمس المخالطة للماء والطين، وكل رطوبةٍ وحمأةٍ،

فهي لا تتغير، ولا تحتال عن نورها ونقائها وضوئها، مع مخالطتها كل سوادٍ ووسخٍ، ونتنٍ ونجسٍ.

قال: والخلطة تكون على ثلاثة أوجهٍ:

أحدها: خلطة باختلاطٍ من الطبيعتين الثقيلتين، واحتيالهما وفسادهما، مثل خلطة الخمر والماء، والخل والعسل، والذَّهب والورق والرصاص والنحاس، فإنَّ في ذلك كله وما أشبهه، احتيالًا وفسادًا؛ لأنَّ مزاج الخمر والماء ليس بخمرٍ، ولا ماءٍ؛ لاحتيال كل واحدٍ منهما عن طبعه واختلاطهما بفسادهما، وتغيرهما عن حالهما، وكذلك خلطة الخل والعسل قد صارت لا خلًّا، ولا عسلًا؛ لاحتيال كل واحدٍ منهما.

والوجه الثاني: خلطة افتراقٍ من الطبيعتين الثقيلتين، وقد تعرف من تلك الخلطة كل واحدةٍ من الطبيعتين ثابتة في الأخرى بقوامها ووجهها، مثل الزيت والماء في قنديلٍ واحدٍ، ومثل الكتان والقز في ثوب واحد منسوج بكتان مضلع بقز، ومثل صنم نحاس رأسه من ذهب، وما أشبه ذلك مما لا ينبغي أن يسمى خلطةً مع افتراق الطبيعتين والقوامين، مثل ما لا ينبغي أن يكون بين الماء والقلة التي هو فيها خلطة؛ لأنَّ طبيعة القلة فخار، قوامها قلة، وليس بينهما وبين الماء خلطة، بل أشد الفرقة...

فهاتان الخلطتان لا تكونا أبدًا إلا في أثقال جسمانيات غليظة، فإن التحم بعضهما ببعض مثلما يُذَاب الذهب والنحاس، ويفرغان جميعًا، وقعت في وجه خلطة الاحتيال والفساد؛ لأن تلك النقرة ليست بذهبٍ صحيحٍ، ولا بنحاسٍ

صحيحٍ، فإن لم تلحم وألزم بعضها بعضًا، مثل طوق يكون من نحاس وذهب، وقعت من وجه خلطة الافتراق التي لا يحقُّ لها أن تُسمَّى خلطةً...

الوجه الثالث من الخلطة: وهي خلطة الحلول بلا اختلاطٍ، ولا احتيالٍ، ولا فسادٍ، ولا فرقةٍ، ولا انقطاعٍ، لكنها نفاذ الطبيعة الروحانية في الطبيعة الثقيلة السفلية، حتى تنتشر في جميعها، وتحل بكلِّها، فلا يبقى موضعٌ من الطبيعة الثقيلة السفلية خلوًا من الطبيعة الروحانية، ولا احتيال من الثقيلة الجسمانية عن طبيعتها الغليظة الثقيلة، ولا تغيير، ولا فساد لإحداهما، مثل خلطة النفس والجسد، ومثل خلطة النار والحديد في قوام جمرةٍ واحدةٍ، فهي جمرة واحدة بالقوام من طبيعة نار ملتحمة مخالطة لطبيعة الحديدة بلا فرقةٍ من انقطاعٍ، ولا تخليط احتيالٍ وفسادٍ، وقد انتشرت النار في جميع الحديدة، ولبستها، وأنالت النار الحديدة من قوامها وقوتها حتى أنارت الحديدة وأحرقت، ولم تنل النار من ضعف الحديدة شيئًا من السواد، ولا البرودة...

والجواب عن هذا الكلام -بعد أن يقال: إنه تناقض، فجعل هذا تارةً اختلاطًا، وتارةً يقول: ليس هو اختلاطًا- أن يقال: إنه أولًا: قد يجعل هذا الحلول والالتحام اختلاطًا، ويقول: إنه لا يكون فيه استحالة، ولا تغير، ويقول: الاستحالة والتغيير إنما يلزم الخلطة، إذا كانت من خلقين غليظين، كالماء والخمر، فأما إذا كانت من لطيفٍ وكثيفٍ، لم يخالط تلك الخلطة تغير ولا احتيال -أي: استحالة- ويقول: والخلطة تكون على ثلاثة أوجهٍ، ثم يقول: أحدهما: كالخمر والماء. والثاني: كالزيت والماء، والكتان والقز، ثم يقول: وما

أشبه ذلك مما ينبغي أن يسمى خلطةً مع افتراق الطبيعتين، فيجعله من أقسام الخلطة، ثم يقول: ولا ينبغي أن يسمى خلطةً.

وليس المقصود المنازعات اللفظيَّة، بل نقول: دعواه أن أحد نوعي الاختلاط يكون عن تغيرٍ واستحالةٍ بخلاف النوع الآخر الذي هو اختلاطٌ لطيفٌ وغليظٌ- دعوى ممنوعة، ولم يُقم عليها دليلًا، بل نقول: هي باطلة، بل لا يكون الاختلاط بين شيئين إلا مع تغيرٍ واستحالةٍ.

وما ذكره من الأمثال والشواهد، فهي حجةٌ عليه؛ لقوله: فأمَّا إذا كانت الخلطة من خلقٍ لطيفٍ وخلقٍ غليظٍ، لم يخالط تلك الخلطة تغيرٌ، ولا احتيالٌ، مثل خلطة النفس والجسد إنسانًا واحدًا، أحدهما ملتحم بالآخر من غير أن تكون النفس تغيرت واحتالت عن جوهرها، أن تكون نفسًا تعرفها بفعالها، ولا الجسد تغير واستحال عن حاله وفعاله.

فيقال: هذا قول باطل ظاهر البطلان لكلِّ من تصوره، فإنَّ الجسد إذا خلا عن النفس، مثل ما يكون قبل نفخ الرُّوح فيه، وما يكون بعد مفارقة الرُّوح له بالموت، بل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أبو البشر، خُلِقَ من ترابٍ وماءٍ، وصار صلصالًا كالفخار، ثم نفخت فيه الروح، فصار جسدًا هو لحم وعظم وعصب ودم، فهل يقول عاقل: إن جسد آدم قبل النفس وبعدها على صفةٍ واحدةٍ لم يتغير، ولم تستحل، وذريته من بعده يخلق أحدهم من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، فيكون جسدًا ميتًا، ثم ينفخ فيه الروح، فيصير الجسد حيًّا بعد أن كان ميتًا؟ وأي تغييرٍ أعظم من انتقال الجسد من الموت إلى الحياة؟

ومعلوم بالحسِّ والعقل الفرق بين الحي والميت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا

يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ٢٢]، والجسد إذا لم ينفخ فيه الروح، فهو مواتٌ ليس له حسٌّ، ولا حركةٌ إراديةٌ، ولا يسمع ولا يبصر، ولا ينطق ولا يعقل، ولا يبطش ولا يأكل ولا يشرب، ولا يمني ولا ينكح، ولا يتفكر ولا يحب ولا يبغض، ولا يشتهي ولا يغضب، فإذا اتصلت به النفس، تغيَّرت أحواله واستحالت صفاته، وصار حساسًا متحركًا بالإرادة، فكيف يقال مثل خلطة النفس والجسد إنسانًا واحدًا، أحدهما يلتحم بالآخر من غير أن تكون النفس تغيَّرت واستحالت عن جوهرها، أن تكون نفسًا يعرفها بفعالها، ولا الجسد تغير ولا استحال عن حاله وأفعاله؟

فهل يقول عاقلٌ يتصور ما يقول: إن الجسد كان حاله وفعاله مع مفارقة النفس له كحاله وفعاله مع مخالطتها له؟

وهل يقول عاقل: إن الجسد بعد موته ومفارقة النفس له، حاله وفعاله كحاله وفعاله إذا كانت النفس مختلطةً به، وهو إذا مات كالجماد لا يسمع ولا يبصر، ولا ينطق ولا يبطش ولا يمشي، قد جمد دمه واسودَّ، ولم يبق سائلًا، وتغير سحنته ولونه، وتغير الجسد بالحياة بعد الموت، وبالموت بعد الحياة من أعظم التغيُّرات والاستحالات؟

وكذلك النفس، فإن النفس عند اتصالها بالبدن تلتذُّ بلذته، وتتألَّم بألمه؛ فإذا أكل البدن وشرب، ونكح واشتم، التذَّت النفس، وإذا ضرب البدن وصفع، وأُهين وحط الشوك على رأسه، وبصق في وجهه، تألَّمت النفس بذلك، فإذا شبهوا اتحاد الرب بالمسيح باتحاد النفس بالبدن، وهم يقولون: إن المسيح وكل أحدٍ إذا ضرب وصفع وصلب فتألم بدنه، تألمت نفسه أيضًا؛ فإن كان

الألم مع نفس المسيح وجسده كالنفس مع الجسد، وجب أن يكون الرب يتألم بتألم الناسوت، ويجوع بجوعه، ويشبع بشبعه، فإن ألم الجوع ولذَّة الشبع يحصل للنفس إذا جاع البدن وشبع.

وأيضًا فالمسيح عندهم إلهٌ تامٌّ، وإنسانٌ تامٌّ، والإله إله قبل الاتحاد، والإنسان إنسان قبل الاتحاد، فهم يقولون: إنهما بعد الاتحاد إله تام كما كان، وإنسان تام كما كان، فنظير هذا أن يكون الإنسان المركب من بدنٍ ونفسٍ، نفسًا تامةً وبدنًا تامًّا، وأن تكون الحديدة المحماة، حديدًا تامًّا ونارًا تامةً، وهو باطل، بل الإنسان مركب من نفسٍ وبدنٍ، والإنسان اسمٌ لمجموعٍ، ليس الإنسان روحًا، والإنسان بدنًا؛ فلو كان الاتحاد حقًّا، لوجب أن يقال: إن المسيح نصفه لاهوت، ونصفه ناسوت، وهو مركب من هذا وهذا.

ولا يقال: إن المسيح نفسه إنسان تام، والمسيح نفسه إله تام، فإن تصور هذا القول على الوجه التام يوجب العلم الضروري، حيث جعلوا المسيح الذي هو المبتدأ، الموضوع المخبر عنه المحكوم عليه، هو إنسان تام وإله تام، يوجب أن يكون نفس الإنسان هو نفس الإله، ولو قيل هذا في مخلوقين، فقيل: نفس الملك نفس البشر، لكان ظاهر البطلان، فكيف إذا قيل في ربِّ العالمين؟ لا سيما وكثير من النصارى لا يقولون: إنَّ جسد المسيح مخلوق، بل يصفون الجميع بالإلهية.

وهذا مقتضى قول أئمتهم القائلين: إنَّ المسيح إله تام، لكنهم تناقضوا فقالوا مع ذلك، وهو إنسان تام، فكأنهم قالوا: هو الخالق ليس هو الخالق، هو مخلوقٌ ليس هو مخلوق، فجمعوا بين النقيضين، وهذا حقيقة قول النصارى،

لا سيما واتحاد اللاهوت بناسوت المسيح عندهم اتحاد لازم، لم يفارقه البتَّة، فيكون ذلك أبلغ من الاتحاد العارض، ومن أن الرَّبَّ كان متحدًا بجسدٍ لا روح فيه، ثم بالجسد مع نفخ الروح فيه، ثم بالجسد بعد مفارقة الروح له، وحيث دفن في القبر، ووُضع التراب عليه، ومعلومٌ أن الإنسان إذا كانت فيه النفس، وجعلت في التراب معه، تألَّمت النفس ألمًا شديدًا، ثم تفارق البدن.

ومن العجائب أنهم يقولون: إن المسيح صُلب ومات، ففارقته النفس الناطقة، وصار الجسد لا روح فيه، واللاهوت مع هذا متحد لم يفارقه وهو في القبر، واللاهوت متحد به، فيجعلون اتحاده به أبلغ من اتحاد النفس والبدن، والنفس عند اتِّصالها بالبدن تتغيَّر وتتبدَّل صفاتها وأحوالها، ويصير لها من الصفات والأفعال ما لم يكن بدون البدن، وعند مفارقة البدن، تتغيَّر صفاتها وأفعالها، فإن كان تمثيلهم مطابقًا، لزم أن يكون الرب قد تغيرت أوصافه وأفعاله، لما اختلط بالمسيح، كما تتغيَّر صفات النفس وأفعالها، ويكون الرَّبُّ قبل هذا الاختلاط كالنفس المجردة التي لم تقترن ببدنٍ.

وأيضًا فالنفس والبدن شريكان في الأعمال الصالحة والفاسدة، لهما الثواب وعليهما العقاب، والثواب والعقاب على النفس أكمل منه على البدن، فإن كان الربُّ كذلك، كان جميع ما يفعله المسيح باختياره فعل الرب، كما أن جميع ما يفعله البدن باختيار فعل النفس عن التي تخاطب بالأمر والنهي، فيقال لها: كُلِي واشربي وانكحي، ولا تأكلي ولا تشربي ولا تنكحي، فإن كان الرب مع الناسوت كذلك، كان الرَّبُّ هو المأمور والمنهي بما يأمر به المسيح، وكان

الرَّب هو المصلي الصائم العابد الداعي، وبطل قولهم: يخلق ويرزق بلاهوته، ويأكل ويعبد بناسوته، فإن النفس والبدن لما اتَّحدا، كانت جميع الأفعال الاختيارية للنفس والبدن، فإذا صلى الإنسان وصام ودعا، فالنفس والبدن يُوصَفان بذلك جميعًا، بل النفس أخص بذلك.

وكذلك إذا أمر أو نهى، فكلاهما موصوف بذلك، وكذلك إذا ضرب، فألَمُ الضرب يصل إليهما كما تصل إليهما لذة الأكل والجماع.

بل أبلغ من ذلك، أنَّ الجني إذا دخل في الإنسي وصرعه، وتكلم على لسانه، فإن الإنسي يتغير حتى يبقى الصوت والكلام الذي يسمع منه، ليس هو صوته وكلامه المعروف، وإذا ضرب بدن الإنسي، فإن الجني يتألم بالضرب ويصيح ويصرخ، ويخرج منه ألم الضرب، كما قد جرب الناس من ذلك ما لا يحصى...

فهل يقول عاقلٌ مع هذا الاتحاد: إنهما جوهران، لكلٍّ منهما أفعال اختيارية، لا يشركه الآخر فيها، ويقولون مع قولهم بالاتحاد: إنَّ الذي كان يصلي ويصوم، ويدعو ويتضرَّع، ويتكلَّم ويتألَّم، ويضرب ويصلب، هو نظير البدن، والذي كان يأمر وينهى، ويخلق ويرزق هو نظير النفس، هذا مع قولهم: إن مريم ولدت اللاهوت مع الناسوت، وأنه اتَّحد به مع كونه حيًّا وقبل حياته وعند مماته، والجسد في ذلك كله كسائر أجساد الآدميين، لم يظهر فيه شيءٌ من خصائص الرب أصلًا، بل ولا بعد إتيانه بالآيات، فإن تلك كان يجري مثلها وأعظم منها على يد الأنبياء، فهذا أقرب أمثالهم، وقد ظهر فساده(١).

---

(١) (٤/ ٣٥١).

ثالثًا: تشبيههم بحلول الماء في الظرف، والنار في الحديد، والماء في اللبن، ونحو ذلك:

ولهذا، يشبهون الحلول والاتحاد تارةً بحلول الماء في الظرف، وتارةً بحلول النار في الحديد، وتارةً بالنفس والبدن، وتارةً يقولون بأنهما جوهر واحد اختلطا كاختلاط الماء واللبن.

وكل هذه الأمثال التي ضربوها لله أمثال باطلة، فإن الماء في الظرف وغيره من الأوعية محتاج إلى وعائه، لو انخرق وعاؤه لتبدد، وهو محيط به، ولا يتَّصف الظرف بشيءٍ من صفات الماء، والربُّ تعالى يمتنع أن يحتاج إلى شيءٍ من مخلوقاته لا إلى العرش، ولا إلى غيره، أو يحيط به شيءٌ من الموجودات؛ إذ هو الظاهر، فليس فوقه شيءٌ، كما ثبت في الصحيح[١]، عن النبي ﷺ أنه قال: «**أنت الأوَّل فليس قبلك شيءٌ، وأنت الآخر فليس بعدك شيءٌ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيءٌ، وأنت الباطن فليس دونك شيءٌ**»، فهو غنيٌّ عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه.

ولهذا، لم يكن ما وصف الله به نفسه مماثلًا لصفات المخلوقين، كما لم تكن ذاته كذوات المخلوقين، فهو مستوٍ على عرشه، كما أَخْبَرنا عن نفسه مع غناه عن العرش، والمخلوق المستوي على السرير أو الفلك أو الدابة لو ذهب ما تحته لسقط؛ لحاجته إليه، والله غنيٌّ عن كلِّ ما سواه، وهو الحامل بقدرته للعرش، ولحَمَلة العرش.

---

(١) صحيح مسلم (٢٧١٣).

وأما الحديد والخشب وغيرهما إذا ألقي في النار، فإنه يستحيل نارًا لاتصاله بالنار، لا أن النار التي استحال إليها كانت موجودةً، فحلَّت به، فهذا استحالةٌ بلا حلولٍ، والنار التي صارت في الحديد حادثة عن تلك النار ليست إياها، ثم تلك الحديدة إذا طرقت، وقع التطريق على النار، وكذلك إذا أُلقيت في الماء، فلو كان هذا تمثيلًا مطابقًا، لكان الضرب والصلب والإهانة وقع على اللاهوت، وكان اللاهوت هو الذي يغتسل بالماء، وهو الذي يأكل ويشرب، وهذا من أعظم الكفر.

ويُحْكَى عن بعض طائفةٍ منهم كاليعقوبية أنه يقول بهذا الكفر، وإن كان كثير منهم كالملكية والنسطورية ينكره، فهو لازمٌ لهم، وكذلك إذا شبَّهوه بالنفس والبدن، فإن النفس تتألَّم تألُّم البدن، وتستحيل صفاتها بكونها في البدن، وتكتسب عن البدن أخلاقًا وصفات، فلو كان هذا تمثيلًا مطابقًا، لزم تألُّم اللاهوت بآلام البدن، وأن يكون متألمًا بجوع البدن وعطشه وضربه وصلبه، وأن يكون مستحيلًا لما اكتسبه من صفات الناسوت الذي هو عندهم بمنزلة البدن للنفس[(١)].

وأبعد منه وأشد فسادًا، تمثيلهم ذلك بالنار والحديد، ومعلوم عند كلِّ مَن له خبرةٌ أن النار إذا اتصلت بشيءٍ من الأجسام الحيوانية والنباتية والمعدنية، مثل جسد الإنسان وغيره، ومثل الخشب والقصب والقطن وغيره، ومثل الحديد والذهب والفضة، فإنها تغير ذلك الجسد وتبدل صفاته عمَّا كانت، فتحرقه، أو تذيبه، أو تلينه، والنار المختلطة به لا تبقى نارًا محضةً، بل تستحيل وتتغير أيضًا؛ فقول هؤلاء: ومثل ما تختلط النار والحديد، فيلتحمان جميعًا،

---

(١) (٣/ ٤٩١).

فيكونان جمرةً واحدةً من غير أن تكون النار تغيرت، إلى أن تكون حديدة ثقيلة تشج وتقطع، ولا الحديدة تغيرت واستحالت إلى أن تكون نارًا تحرق، كلام باطل ملبس، فإن الجمرة ليست حديدةً محضةً، ولا نارًا محضة، بل نوعًا ثالثًا.

وقوله: لم تتغيَّر النار إلى أن تصير حديدةً، ولا الحديدة إلى أن تصير نارًا، تلبيسٌ؛ فإن الاختلاط لا يتضمن الاستحالة والتغير؛ كاختلاط الكثيفين الذي سلمه مثل الماء والخمر، والماء والعسل، والسمن والعسل، والذهب والورق، والنحاس والرصاص، قد قال فيه: إنه لا الخمر خمرٌ، ولا الماء ماءٌ بعد اختلاطهما، ولكنهما استحالا جميعًا عن جوهرهما، فصارا إلى أمرٍ متغيرٍ ليس هو أحدهما بعينه، ولا أحدهما خالصًا من الفساد، والاستحالة عن حاله.

فيقال له: فهذا الذي سلمت فيه الفساد والاستحالة، لم يصر الخمر فيه ماءً، ولا الماء فيه خمرًا، فكذلك مورد النزاع إذا لم تصر النار حديدة، ولا الحديدة نارًا، لم ينفعك هذا النفي، ولم يكن هذا مانعًا من الاستحالة إلى نوعٍ ثالثٍ، ومن الاستحالة والفساد كما ذكرته في اختلاط الكثيفين، فإنه معلومٌ أن ما خالطته النار واتحدت به، غيَّرته وأحالته، وأفسدت صورته الأولى، والنار الملتحمة به ليست نارًا محضةً.

ومعلوم أيضًا أن الجمرة التي ضربتها مثلًا للمسيح فقلت: إن الله وعيسى اتحدا كاتحاد النار والحديد، حتى صارا جمرةً، فمعلوم أن الجمرة إذا ضربت بالمطرقة، أو وضعت في الماء، أو مدت، فإن هذه الأفعال تقع بالمجموع، لا تقع على حديدةٍ بلا نارٍ، ولا نار بلا حديدة.

فيلزم من ذلك أن يكون ما حَلَّ بالمسيح من ضربٍ وبصاقٍ في الوجه، ووضع الشوك على الرأس، ومن أكلٍ وشربٍ وعبادةٍ، ومن مشيٍ وركوبٍ، ومن حملٍ

وولادةٍ، وغير ذلك مما حلَّ بالمسيح، ومن موت، إما متقدم وإما متأخر إذا نزل إلى الأرض، ومن صلب -على قولهم- أن يكون جميع ذلك حلَّ بالمسيح الذي هو عندهم إله تام، وإنسان تام، من غير فرقٍ بين لاهوته ولا ناسوته، كما يكون ما يحل بجمرة النار من حملٍ ووضعٍ وطرقٍ بالمطرقة ومدٍّ وتصويرٍ بشكل مخصوصٍ وإلقاءٍ في الماء وغير ذلك حال بمجموع الجمرة، لا يقول عاقلٌ: إنَّ ذلك يحل بالحديد دون النار، بل هو حال بالجمرة المستحيلة من حديدةٍ ونارٍ، ومن خشبةٍ ونارٍ، وليست حديدةً محضةً، ولا نارًا محضةً، ولا مجموع حديد محض، ونار محضة، بل جوهر ثالث مستحيل من حديدٍ ونارٍ، كسائر ما يستحيل بالاتحاد والاختلاط إلى حقيقةٍ ثالثةٍ؛ فلا فرق بين الشيئين إذا اتحدا واختلطا، وصارا شيئًا واحدًا من أن يكونا كثيفين، أو يكون أحدهما كثيفًا، والآخر لطيفًا، لا بد في ذلك كله أن يحصل لكلٍّ منهما من التغير والاستحالة ما يوجب الاتحاد، وأن يكون المتحد المختلط المركب منهما شيئًا ثالثًا، ليس هو أحدهما فقط، ولا هو مجموع كلٍّ منهما على حاله.

فقولهم: إنه مع الاتحاد إنسان تام وإله تام، كلام فاسد معلوم الفساد بصريح العقل، وكلما ضربوا له مثلًا، كان المثل حجةً على فساد قولهم، بل مع الاتحاد ليس بإنسانٍ تامٍّ، ولا إلهٍ تامٍّ، لكنه شيءٌ ثالثٌ مركبٌ من إنسانٍ استحال وتغير، وإله استحال وتغير، وإذا كان كلٌّ من هذين باطلًا، بل إنسانية المسيح باقية تامة، كما كانت لم تستحل ولم تتغير، ورب العالمين باقٍ بصفات كماله، لم يستحل، ولم يتصف بشيءٍ من خصائص المخلوقات، ولا استحال عمَّا كان عليه قبل ذلك، كان قولهم ظاهر الفساد.

فهذا مثلهم الثاني الذي ضربوه لله، حيث شبَّهوا المسيح أو الله مع الإنسان بالنفس مع الجسد، وشبهوه بالنار مع الحديد، وهذا المثل أشد فسادًا وأظهر(١).

رابعًا: تمثيلهم بالكلام في القرطاس:

قال سعيد بن البطريق: ومثلما أن كلمة الإنسان المولودة من عقله تكتب في قرطاسٍ، فهي في القرطاس كلها حقًّا من غير أن تفارق العقل الذي منه ولدت، ولا يفارقها العقل الذي ولدها؛ لأن العقل بالكلمة يعرف؛ لأنها فيه، والكلمة كلها في العقل الذي ولدها، وكلها في نفسها، وكلها في القرطاس الذي التحمت به، فكذلك كلمة الله كلها في الأب الذي ولدت منه، وكلها في نفسها، وفي الروح، وكلها في الناسوت التي حلَّت فيها، والتحمت به.

فيُقَالُ: هذا التمثيل حجةٌ عليكم، وعلى فساد قولكم، لا حجة لكم، وذلك يظهر بوجوهٍ:

أحدها: أن يقال: إنْ كان حلول كلمة الله التي هي المسيح في الناسوت، مثل كتابة الكلام في القرطاس، فحينئذٍ يكون المسيح من جنس سائر كلام الله؛ كالتوراة وزبور داود والإنجيل والقرآن وغير ذلك، فإنَّ هذا كله كلام الله، وهو مكتوبٌ في القراطيس باتفاق أهل الملل، بل الخلق كلُّهم متفقون على أن كلام كل متكلمٍ يكتب في القراطيس، وقد قال تعالى في القرآن: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]... وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩].

---

(١) (٤/ ٣٦٤).

وإذا كانت الكلمة التي هي المسيح عندكم هكذا، فمعلوم أن كلام الله المكتوب في القراطيس ليس هو إلهًا خالقًا، وهو كلام كثير لا ينحصر في كلمةٍ ولا كلمتين، ولو قال قائل: يا كلامِ الله، اغفر لي وارحمني، أو يا توراة، أو يا إنجيل، أو يا قرآن اغفر لي وارحمني، كان قد تكلم بباطلٍ عند جميع أهل الملل والعقلاء، وأنتم تقولون: المسيح إله خالق، وهو يدعى ويعبد، فكيف تشبهونه بكلام الله المكتوب في القراطيس؟

الثاني: أن الكلام المكتوب صفةٌ للمتكلم، يقوم به ويكتب في القراطيس عند سلف أهل الملل وجماهيرهم، وعند بعضهم، هو عَرَضٌ مخلوقٌ، يخلقه في غيره، فالجميع مُتَّفقون على أن الكلام صفة تقوم بغيرها، ليس جوهرًا قائمًا بنفسه، والمسيح عندكم لاهوته جوهر قائم بنفسه، وهو إله حق من إله حق، وهو عندكم إله تام وإنسان تام؛ فكيف تجعلون الإله الذي هو عين قائمة بنفسها كالصفة التي لا تقوم إلا بغيرها؟

الثالث: قولكم: إن كلمة الإنسان مولودة من عقله، لو كان صحيحًا، فالتولد لا يكون إلا حادثًا، وأنتم تقولون: إن كلمة الله القديمة الأزلية متولدة منه قبل الدهور، وتقولون مع هذا: هي إلهٌ، وهذا كما أنَّ بطلانه معلوم بصريح العقل، فهي بدعةٌ وضلالةٌ في الشرع، فإنه لم يسم أحد من الأنبياء شيئًا من صفات الله ابنًا له، ولا قال: إنَّ صفته متولدة منه، ولفظ الابن لا يوجد عندكم عن الأنبياء إلا اسمًا لناسوتٍ مخلوقٍ، لا لصفة الله القديمة، فقد بدلتم كلام الأنبياء بهذا الافتراء...

الرابع: أنَّ تسميتكم تكلم الإنسان بالمعنى أو اللفظ تولدًا، أمر اخترعتموه لا يعرف عن نبيٍّ من الأنبياء، ولا أُمَّة من الأمم، ولا في لغةٍ من اللغات، وإنما ابتدعتم هذا لتقولوا: إذا كان كلام الإنسان متولدًا منه، فكلام الله متولد منه، ولم ينطق أحدٌ من الأنبياء بأن كلام الله تولد منه، ولا أنه ابنه، ولا أن علمه تولد منه، ولا أنه ابنه.

الخامس: قولكم: إن كلمة الإنسان المولودة من عقله تكتب في القرطاس، فهي في القرطاس كلها حقًّا من غير أن تفارق العقل الذي منه ولدت، إلى قولكم: الكلمة كلها في العقل الذي ولدها، وكلها في القرطاس الذي التحمت به، مكابرة ظاهرة، معلومة الفساد بصريح العقل، فإن وجود الكلام في القلب واللسان ليس هو عين وجوده مكتوبًا في القرطاس، بل القائم بقلب المتكلم معانٍ: طلب وخبر وعلم وإرادة، والقائم بنفسه حروف مؤلفة هي أصوات مقطعة، أو هي حدود أصوات مقطعة، وليس في قلب الإنسان ولا فمه مداد كالمداد الذي في القرطاس، والكلام مكتوب في القرطاس باتفاق العقلاء، مع علمهم بأنَّه ليس في القرطاس علم وطلب وخبر قائم به كما تقوم بقلوب المتكلم، ولا قام به أصوات مقطعة مؤلفة، ولا حروف كالأصوات القائمة بفم المتكلم، بل لفظ الحرف يقال على الحرف المكتوب: إما المداد المصور، وإما صورة المداد وشكله، ويقال على الحرف المنطوق: إما الصوت المقطع، وإمَّا حد الصوت ومقطعه وصورته.

وكل عاقلٍ يميز بحسه وعقله بين الصوت المسموع من المتكلم، وبين المداد

المرئي بالبصر، ولا يقول عاقلٌ: إن هذا هو هذا، ولا يقال: إن هذا وهذا هو نفس المعنى القائم بقلب المتكلم، فكيف تقولون: إنَّ الكلمة في القرطاس كلها، وكلها في العقل الذي ولدها، وكلها في نفسها؟

السادس: أن حرف «في» التي يسميها النحاة ظرفًا، يستعمل في كل موضع بالمعنى المناسب لذلك الموضع؛ فإذا قيل: إن الطعم واللون والريح حالٌّ في الفاكهة، أو العلم والقدرة والكلام حالٌّ في المتكلم، فهذا معنى معقول.

وإذا قيل: إن هذا حالٌّ في داره، أو إن الماء حالٌّ في الظرف، فهذا معنى آخر، فإن ذاك حلول صفة في موصوفها، وهذا حلول عين قائمة تسمى جسمًا وجوهرًا في محلها، ومنه يقال لمكان القوم: المحلة، ويقال: فلان حلَّ بالمكان الفلاني.

وإذا قيل: الشمس والقمر في الماء، أو في المرآة، أو وجه فلان في المرآة، أو كلام فلان في هذا القرطاس، فهذا له معنًى يفهمه الناس، يعلمون أنه قد ظهرت الشمس والقمر والوجه في المرآة، ورؤيت فيها، وأنه لم يحل بها ذات ذلك، وإنما حل فيها مثال شعاعي عند مَنْ يقول ذلك، وكذلك الكلام إذا كتب في القرطاس، فالناس يعلمون أنه مكتوب فيه، ومقروء فيه، ومنظور فيه، ويقولون: نظرت في كلام فلانٍ وقرأته، وتدبرته وفهمته ورأيته، ونحو ذلك، كما يقولون: رأيت وجهه في المرآة، وتأملته، ونحو ذلك.

وهم في ذلك كله صادقون يعلمون ما يقولون، ويعلمون أنَّ نفس جرم الشمس والقمر والوجه لم يحل في المرآة، وأن نفس ما قام به من المعاني والأصوات لم تقم بالقرطاس، بل كانت المرآة واسطةً في رؤية الوجه، فهو

المقصود بالرؤية، وكان القرطاس واسطةً في معرفة الكلام، فهو المقصود بالرؤية، ويعلمون أن حاسة البصر باشرت ما في المرآة من الشعاع المنعكس، ولكن المقصود بالرؤية هو الشمس، وحاسَّة البصر باشرت ما في القرطاس من المداد المكتوب، ولكن المقصود بالرؤية هو الكلام المكتوب، ويعلمون أنَّ نفس المثال الذي في المرآة ليس هو الوجه، وأن نفس المداد المكتوب به ليس هو الكلام المكتوب، بل يُفرِّقون بينهما...

السابع: أنَّه لا ريب أن كلام المتكلم يقال: إنه قائمٌ به. ويقال مع ذلك: إنه مكتوب في القرطاس، ويقال: هذا هو كلام فلانٍ بعينه، وهذا هو ذاك، ونحو ذلك من العبارات التي تُبيِّن أن هذا المكتوب في القرطاس هو هذا الكلام الذي تكلَّم به المتكلم بعينه، لم يزد فيه ولم ينقص، لم يكتب كلام غيره، ولا يريدون بذلك أن نفس الخط نفس الصوت، أو نفس المعنى، فإنَّ هذا لا يقوله عاقل[(١)].

خامساً: تمثيلهم باعتقاد المسلمين أن القرآن كلام الله:

قالوا: وسائر المسلمين يقولون: إنَّ الكتاب كلام الله، ولا يكون كلامٌ إلا لحيٍّ ناطقٍ، وهذه صفات جوهرية تجري مجرى الأسماء، وكل صفةٍ منها غير الأخرى، فالإله واحد، خالق واحد، ورب واحد لا يتجزأ.

فيقال لهم: أمَّا قول المسلمين: إن الكتاب -أي: القرآن- كلام الله، فهذا حق، والكلام لا يكون إلا لمتكلمٍ، والمسلمون يقولون: إن الله حي متكلم، وإنه تكلم بالتوراة والإنجيل والقرآن، وغير ذلك من كلامه، والقرآن قد أخبر بكلام

---

(١) (٤/ ٣٢٥).

الله في مواضع كثيرة...

والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وجمهورها: أن كلام الله قائم به، وكذلك سائر ما يوصف به من الحياة والقدرة، وغير ذلك، وأحدث قومٌ منهم بعد انقراض الصحابة وأكابر التابعين بعد أكثر من مائة سنةٍ من موت النبي ﷺ أنه مخلوق خلقه في غيره، وشاركهم في هذه البدعة كثيرٌ من اليهود والنصارى.

وظهرت هذه المقالة بعد المائة الثانية، وانتصر لها قومٌ من الولاة، وغيرهم، ثم أطفأها الله بمَنْ أقامه الله من أئمة الإسلام والسُّنة الَّذين بيَّنوا فسادها، وبيَّنوا ما اتفق عليه السلف من أن كلام الله منزلٌ منه غير مخلوقٍ، بل منه بدأ، لم يبتدئ من شيءٍ من المخلوقات، ومع هذا فلم يقل أحدٌ من المسلمين: إن كلام الله يكون إلهًا، ولا ربًّا، وكذلك حياته لم يقل أحد منهم: إن حياته تكون إلهًا ولا ربًّا، ولا أنه مساو للرب تعالى في الجوهر...

وأما قولهم: هذه صفات جوهرية تجري مجرى أسماء، فإنْ أرادوا بقولهم: «جوهرية» أن كل صفة جوهر، فهذا كلام ظاهر الفساد، فإن الصفة القائمة بغيرها لا تكون جوهرًا قائمًا بنفسه، ومَن ظن أن حرارة النار القائمة بها جوهر قائم بنفسه كالنار، فهو إما مصابٌ في عقله، وإما مسفسط معاند، والأول يستحق علاج المجانين، والثاني يستحق العقوبة التي تردعه عن العناد، ثم إِنْ جاز أن تكون الصفة جوهرًا، كانت القدرة أيضًا جوهرًا، إن أرادوا بقولهم: جوهرية أنها صفات ذاتية، وغيرها صفات فعلية كالخالق والرازق، فمعلوم أن صفاته الذاتية منها القدرة وغيرها، فلم تنحصر في هذه.

وأما قولهم: كل صفةٍ منها غير الأخرى، فهذا إن أرادوا به أن صفات الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد تباينه وتنفصل عنه، وهو حقيقة قولهم، ويقولون مع ذلك: إنها متصلةٌ به، فهو جمعٌ بين النقيضين.

فإن قالوا: بل ما يقوم به من العلم يفيض منه على قلوب الأنبياء علوم، كما يفيض الشعاع من الشمس. قيل لهم: لا اختصاص للمسيح بهذا، بل هذا قدرٌ مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء، وليس في هذا حلول ذات الرب ولا صفته القائمة به بشيءٍ من مخلوقاته، ولا أن العبد بما حلَّ فيه من العلم والإيمان يصير إلهًا معبودًا، وإن أرادوا أنها قائمةٌ به، وتسمى كلُّ وَاحِدَةٍ غير الأخرى، فهنا نزاع لفظي، هل تسمى غيرًا أو لا تسمى غيرًا؟

فإن من الناس من يقول: كل صفةٍ للرب ﷻ فهي غير الأخرى، ويقول: الغيران ما جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر، أو ما جاز العلم بأحدهما مع الجهل بالآخر، ومنهم مَن يقول: ليست هي الأخرى، ولا هي هي؛ لأن الغيرين ما جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر، أو ما جاز مفارقة أحدهما الآخر بزمانٍ أو مكانٍ أو وجودٍ.

والذي عليه سلف الأمة وأئمتها إذا قيل لهم: علم الله وكلام الله، هل هو غير الله أم لا؟ لم يُطْلقوا النَّفي، ولا الإثبات، فإنه إذا قال: غيره، أوهم أنه مباينٌ له، وإذا قال: ليس غيره، أوهم أنه هو، بل يستفصل السائل، فإن أراد بقوله: غيره؛ أنه مباينٌ له، منفصلٌ عنه، فصفات الموصوف لا تكون مباينةً له، منفصلةً عنه، وإن كان مخلوقًا، فكيف بصفات الخالق؟

وإن أراد بالغير أنها ليست هي هو، فليست الصفة هي الموصوف، فهي غيره بهذا الاعتبار، واسم الرب تعالى إذا أطلق يتناول الذات المقدسة بما يستحقه من صفات الكمال، فيمتنع وجود الذات عريَّةً عن صفات الكمال، فاسم الله يتناول الذات الموصوفة بصفات الكمال، وهذه الصفات ليست زائدةً على هذا المسمى، بل هي داخلة في المسمى، ولكنها زائدةٌ على الذات المجردة التي تثبتها نفاة الصفات.

فأولئك لما زعموا أنه ذات مجردة، قال هؤلاء: بل الصفات زائدة على ما أثبتموه من الذات، وأما في نفس الأمر، فليس هناك ذات مجردة تكون الصفات زائدةً عليها، بل الرب تعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال، وصفاته داخلة في مُسمَّى أسمائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقولهم: فالإله واحد، خالق واحد، رب واحد، هو حقٌّ في نفسه، لكن قد نقضوه بقولهم في عقيدة إيمانهم: «نؤمن بربٍّ واحدٍ، يسوع المسيح ابن الله الوحيد، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، مساو الأب في الجوهر»، أثبتوا هنا إلهين، ثم أثبتوا روح القدس إلهًا ثالثًا، وقالوا: إنه مسجود له، فصاروا يثبتون ثلاثة آلهة، ويقولون: إنما نثبت إلهًا واحدًا، وهو تناقض ظاهر، وجمعٌ بين النقيضين، بين الإثبات والنفي.

ولهذا، قال طائفةٌ من العقلاء: إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلا مقالة النصارى، وذلك أنَّ الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا، بل تكلموا بجهلٍ، وجمعوا في كلامهم بين النقيضين، ولهذا قال بعضهم: لو اجتمع عشرة

نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولًا. وقال آخر: لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم، لقال الرجل قولًا، وامرأته قولًا آخر، وابنه قولًا ثالثًا.

بطلان قولهم بنفي التبعُّض والتجزؤ:

وقولهم: «لا يتبعَّض، ولا يتجزَّأ»، مناقض لما ذكروه في أمانتهم، ولما يُمثِّلونه به؛ فإنهم يمثلونه بشعاع الشمس، والشعاع يتبعَّض ويتجزَّأ، فإن ما يقوم منه بهذا الموضع بعض وجزء منه، ويمكن زوال بعضه مع بقاء بعضٍ، فإنه إذا وضع على مطرح الشعاع شيء فصل ما بين جانبيه، وصار الشعاع الذي كان بينهما على ذلك الفوقاني فاصلًا بين الشعاعين السافلين، يُبيِّن ذلك أن الشعاع قائم بالأرض والهواء، وكلٌّ منهما متجزئ متبعض، وما قام بالمتبعض فهو متبعض، فإن الحال يتبع المحل، وذلك يستلزم التبعض والتجزؤ فيما قام به.

ويقولون أيضًا: إنه اتحد بالمسيح، وأنه صعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب، وعندهم أن اللاهوت منذ اتحد بالناسوت لم يفارقه، بل لما صعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب، كان الصاعد عندهم هو المسيح الذي هو ناسوت ولاهوت، إله تام، وإنسان تام، فهم لا يقولون: إن الجالس عن يمين الأب هو الناسوت فقط، بل اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يمين اللاهوت، فأيُّ تبعيضٍ وتجزئةٍ أبلغ من هذا؟

وليس هذا من كلام الأنبياء حتى يقال: إن له معنًى لا نفهمه، بل هو من كلام أكابرهم الذي وضعوه وجعلوه عقيدة إيمانهم، فَإِنْ كانوا تكلَّموا بما لا يعقلونه، فهم جهالٌ، لا يجوز أن يتبعوا، وإن كانوا يعقلون ما قالوه، فلا يعقل

أحدٌ من كون اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يمين اللاهوت المجرد عن الاتحاد، إلا أن هذا اللاهوت المجرد منفصلٌ مباينٌ للاهوت المتحد، وليس هو متصلًا به، بل غايته أن يكون مماسًّا له، بل يجب أن يكون الذي يماس اللاهوت المجرد هو الناسوت مع اللاهوت المتحد به، فهذا حقيقة التبعيض والتجزئة مع انفصال أحد البعضين عن الآخر.

وأيضًا، فيقال لهم: المتحد بالمسيح أهو ذات رب العالمين، أم صفة من صفاته؟ فإن كان هو الذات، فهو الأب نفسه، ويكون المسيح هو الأب نفسه، وهذا ممَّا اتفق النصارى على بطلانه؛ فإنهم يقولون: هو الله، وهو ابن الله، كما حكى الله عنهم، ولا يقولون هو الأب والابن، والأب عندهم هو الله، وهذا من تناقضهم.

وإن قالوا: المتحد بالمسيح صفة الرَّبِّ، فصفة الرب لا تفارقه، ولا يمكن اتحادها، ولا حلولها في شيءٍ دون الذات.

وأيضًا فالصفة نفسها ليست هي الإله الخالق رب العالمين، بل هي صفته، ولا يقول عاقلٌ: إن كلام الله أو علم الله أو حياة الله، هي رب العالمين الذي خلق السماوات والأرض، فلو قدر أنَّ المسيح هو صفة الله نفسها، لم يكن هو الله، ولم يكن هو رب العالمين، ولا خالق السماوات والأرض، والنصارى يقولون: إن المسيح رب العالمين خالق كل شيءٍ، وهو خالق آدم ومريم، وإن كان ابن آدم ومريم، فإنه خالق ذلك بلاهوته، وهو ابن آدم ومريم بناسوته، فلو قدر أن المسيح هو صفة الرب، لم تكن الصفة هي الخالق، فكيف والمسيح ليس هو صفة الله نفسها، بل هو مخلوقٌ بكلمة الله، وسُمِّي كلمة الله؛ لأنَّ الله

كوّنه بـ «كن»؟...

وإن قالوا: المتحد به بعض ذلك دون بعضٍ، فقد قالوا بالتبعيض والتجزئة، فهم بين أمرين: إما بطلان مذهبهم، وإما اعترافهم بالتبعيض، والتجزئة مع بطلانه.

وأيضًا فقولهم: «إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، مولود غير مخلوقٍ، مساو للأب في الجوهر، ابن الله الوحيد، المولود قبل كل الدهور».

يُقَال لهم: هذا الابن المولود المساوي للأب في الجوهر، الذي هو إله حق من إله حق، هل هو صفةٌ قائمةٌ بغيرها؟ أو عينٌ قائمةٌ بنفسها؟ فإن كان الأول، فالصفة ليست إلهًا، ولا هي خالقة، ولا يقال لها: مولودة من الله، ولا إنها مساويةٌ لله في الجوهر، ولم يسم قط أحد من الأنبياء، ولا أتباع الأنبياء صفات الله، لا ابنًا له، ولا ولدًا، ولا قال: إن صفة الله تولدت منه، ولا قال عاقل: إنَّ الصفة القديمة تولدت من الذات القديمة. وهم يقولون: إنَّ المسيح إله خلق السماوات والأرض لاتحاد ناسوته بهذا الابن المولود قبل كل الدهور، المساوي الأب في الجوهر، وهذا كله نعت عين قائمة بنفسها؛ كالجواهر القائمة بنفسها، لا نعت صفات قائمة بغيرها.

وإذا كان كذلك، كان التبعيض والتجزئة لازمة لقولهم، فإنَّ القول بالولادة الطبيعية مستلزمٌ لأَنْ يكون خرج منه جزءٌ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٥-١٩].

وأمَّا هذا المعنى الذي يثبته مَن يثبته من علماء النصارى ويسمونه ولادةً وبنوةً، فيسمونه الصفة القديمة الأزلية القائمة بالموصوف ابنًا، ويسمونها تارةً النطق، وتارةً الكلمة، وتارةً العلم، وتارةً الحكمة، ويقولون: هذا مولود من الله، وابن الله، فهذا لم يقله أحدٌ من الأنبياء وأتباعهم، ولا من سائر العقلاء غير هؤلاء المبتدعة من النصارى، ولا يفهم أحد من العقلاء من اسم الولادة والبنوة هذا المعنى(١).

سادسًا: مناقشة جعلهم تجسُّم الكلمة في الإنسان من ظهور اللطائف في الكثائف:

قالوا: وأما تجسُّم كلمة الله الخالقة بإنسانٍ مخلوقٍ، وولادتهما معًا -أي: الكلمة مع الناسوت- فإنه لم يخاطب الباري أحدًا من الأنبياء إلا وحيًا أو من وراء حجاب، حسَب ما جاء في هذا الكتاب بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]، وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا في الكثائف؛ روح القدس وغيرها، فكلمة الله التي بها خلقت اللطائف والكثائف تظهر في غير كثيفٍ كلا، ولذلك ظهر في عيسى ابن مريم، إذ الإنسان أجلُّ ما خَلَقه الله، ولهذا خاطب الخَلق، وشاهدوا منه ما شاهدوا.

والجواب من طرقٍ:

أحدها: أنه يقال: هذا الذي ذكروه، وادعوا أنه تجسُّم كلمة الله الخالقة بإنسانٍ مخلوقٍ، وولادتهما معًا -أي: الكلمة مع الناسوت- وهو الذي يُعبَّر عنه

---

(١) (٣/ ٣٠٠).

باتِّحاد اللاهوت بالناسوت هو أمر ممتنع في صريح العقل، وما علم أنه ممتنعٌ في صريح العقل، لم يجز أن يخبر به رسول، فإن الرسل إنما تخبر بما لا يعلم بالعقل أنه ممتنعٌ.

فأما ما يعلم بصريح العقل أنه ممتنع، فالرسل مُنزَّهون عن الإخبار عنه.

الطريق الثاني: أنَّ الأخبار الإلهيَّة صريحة بأن المسيح عبد الله ليس بخالق العالم، والنصارى يقولون: هو إله تام، وإنسان تام.

الطريق الثالث: الكلام فيما ذكروه.

فأما الطريق الأول، فمن وجوهٍ:

أحدها: أن يقال: المتحد بالمسيح إما أن يكون هو الذات المتصفة بالكلام، أو الكلام فقط، وإن شئت قلت: المتحد به، إما الكلام مع الذات، وإما الكلام بدون الذات، فإن كان المتحد به الكلام مع الذات، كان المسيح هو الأب، وهو الابن، وهو روح القدس، وكان المسيح هو الأقانيم الثلاثة. وهذا باطلٌ باتفاق النصارى، وسائر أهل الملل، وباتفاق الكتب الإلهية، وباطلٌ بصريح العقل كما سنذكره إن شاء الله، وإن كان المُتَّحد به هو الكلمة فقط، فالكلمة صفة، والصِّفة لا تقوم بغير موصوفها، والصفة ليست إلهًا خالقًا، والمسيح عندهم إله خالق، فبَطَل قولهم على التقديرين.

وإن قالوا: المتحد به الموصوف بالصفة، فالموصوف هو الأب، والمسيح عندهم ليس هو الأب، وإن قالوا: الصفة فقط، فالصفة لا تفارق الموصوف، ولا تقوم بغير الموصوف، والصفة لا تخلق، ولا ترزق، وليست الإله، والصِّفة

لا تقعد عن يمين الموصوف، والمسيح عندهم صعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه، وأمَّا كونه هو الأب فقط، وهو الذات المجردة عن الصفات، فهذا أشدُّ استحالةً، وليس فيهم من يقول بهذا.

الوجه الثاني: أن الذات المتحدة بناسوت المسيح مع ناسوت المسيح إن كانتا بعد الاتحاد ذاتين، وهما جوهران كما كانا قبل الاتحاد، فليس ذلك باتحادٍ.

وإن قيل: صارا جوهرًا واحدًا، كما يقول مَنْ يقول منهم: إنهما صارا كالنار مع الحديدة، أو اللبن مع الماء، فهذا يستلزم استحالة كلٍّ منهما، وانقلاب صفة كلٍّ منهما، بل حقيقته كما استحال الماء واللبن إذا اختلطا، والنار مع الحديدة، وحِينَئِذٍ فيلزم أن يكون اللاهوت استحال وتبدَّلت صفته وحقيقته.

والاستحالة لا تكون إلا بعدم شيءٍ، ووجود آخر، فيلزم عدم شيءٍ من القديم الواجب الوجود بنفسه، وما وجب قدمه استحال عدمه، وما وجب وجوده، امتنع عدمه، فإنَّ القديم لا يكون قديمًا إلا لوجوبه بنفسه، أو لكونه لازمًا للواجب بنفسه، إذ لو لم يكن لازمًا له، بل كان غير لازمٍ له، لم يكن قديمًا بقدمه، والواجب بنفسه يمتنع عدمه، ولازمه لا يعدم إلا بعدمه، فإنه يلزم من انتفاء اللازم انتفاء الملزوم.

الوجه الثالث: أن يقال: لو كان المسيح نفس كلمة الله، فكلمة الله ليست هي الإله الخالق للسماوات والأرض، ولا هي تغفر الذنوب، وتجزي الناس بأعمالهم؛ سواء كانت كلمته صفة له أو مخلوقة له كسائر صفاته ومخلوقاته، فإن علم الله وقدرته وحياته لم تخلق العالَم، ولا يقول أحد: يا علم الله، اغفر

لي، ويا قدرة الله توبي عليَّ، ويا كلام الله ارحمني، ولا يقول: يا توراة الله، أو يا إنجيله، أو يا قرآنه، اغفر لي وارحمني، وإنما يدعو الله سبحانه، وهو سبحانه متصفٌ بصفات الكمال، فكيف والمسيح ليس هو نفس الكلام؟ فإنَّ المسيح جوهر قائم بنفسه، والكلام صفة قائمة بالمتكلم، وليس هو نفس الرب المتكلم، فإنَّ الربَّ المتكلم هو الذي يسمُّونه الأب، والمسيح ليس هو الأب عندهم، بل الابن...

الطريق الثاني: أنَّ ما ذكروه حجة عليهم، فإنَّ الله إذا لم يكلم أحدًا من الأنبياء إلا وحيًا، أو من وراء حجابٍ، فالمسيح عيسى ابن مريم يجب ألَّا يكلمه إلا وحيًا، أو من وراء حجابٍ، أو يرسل إليه رسولًا، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، يعمُّ كل بشرٍ؛ المسيح وغيره، وإذا امتنع أن يُكلِّمه الله إلا وحيًا، أو من وراء حجابٍ، فامتناع أن يتحد به أو يحل فيه أَوْلَى وأَحْرَى؛ فإن ما اتَّحد به، وحلَّ فيه كلمة الله من غير حجابٍ بين اللاهوت والناسوت، وهم قد سلَّموا أن الله لا يكلم بشرًا إلا من وراء حجابٍ.

الوجه الثالث: أنَّ قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، يقتضي أن يكون الحجاب حجابًا يحجب البشر كما حجب موسى، فيقتضي ذلك أنَّهم لا يرونه في الدنيا وإن كلَّمهم، كما أنه كلَّم موسى ولم يره موسى، بل سأل الرؤية، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ

جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، قيل: أنا أوَّل مَنْ آمن أنه لا يراك أحد في الدنيا، وعندهم في التوراة: إنَّ الإنسان لا يمكنه أن يرى الله في الدنيا فيعيش[(١)].

وكذلك قال عيسى لمَّا سألوه عن رؤية الله، فقال: «إن الله لم يره أحد قط»[(٢)]، وهذا معروف عندهم، وإذا كان كذلك، فلا بد أن يكون الحجاب الحاجب للبشر ليس هو من البشر، وهذا يُبْطل قول النصارى، فإنهم يقولون: إنَّ الرب احتجب بحجابٍ بشريٍّ، وهو الجسد الذي ولدته مريم، فاتخذه حجابًا، وكلم الناس من ورائه، والقرآن يدل على أن الحجاب ليس من البشر.

يبين هذا الوجه الرابع: وهو أن ذلك الجسد الذي ولدته مريم هو من جنس أجسام بني آدم، فإنْ جاز أن يتَّحد به، ويحل فيه، ويطيق الجسد البشري ذلك في الدنيا بما يجعله الله فيه من القوة، جاز أن يتَّحد بغيره من الأجسام بما يجعله فيها من القوة، وإذا جاز أن يتَّحد بها، جاز أن يكلمها بغير حجابٍ بينه وبينها بطريق الأَوْلَى والأَحْرَى، وهذا خلاف ما ذكروه، وخلاف القرآن؛ فتبيَّن أن نفي الأنبياء لأَنْ يراه المرء في الدنيا هو نفيٌ لمماسته ببشرٍ بطريق الأَوْلى والأَحْرى، والناسوت المسيحي هو بشرٌ، فإذا لم يمكنه أن يرى الله، فكيف يمكنه أن يتَّحد به، ويماسه، ويصير هو وإياه كاللبن والماء، والنار والحديد، أو كالروح والبدن؟

الوجه الخامس: أنه من المعلوم أنَّ رؤية الآدمي له أيسر من اتحاده به،

---

(١) في الخروج (٢٣/ ٢٠): «وقال: لا تقدر أن ترى وجهي؛ لأنَّ الإنسان لا يراني، ويعيش».

(٢) يوحنا (١/ ١٨).

وحلوله فيه، وأَوْلَى بالإمكان، فإذا كانت الرؤية في الدنيا قد نفاها الله، ومنعها على ألسن رسله -موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه- فكيف يجوز اتصاله بالبشر، واتحاده به؟

الوجه السادس قولهم: وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا في الكثائف مثل الروح وغيرها، فكلمة الله التي بها خلقت الكثائف تظهر في غير كثيفٍ كلا.

فيقال لهم: ظهور اللطائف في الكثائف كلام مجمل، فإن أردتم أن روح الإنسان تظهر في جسده، أو الجني يتكلم على لسان المصروع، ونحو ذلك، فليس هذا مما نحن فيه، وإن أردتم أن الله تعالى نفسه يحلُّ في البشر، فهذا محل النزاع، فأين الدليل عليه وأنتم لم تذكروا إلا ما يدلُّ على نقيض ذلك؟

الوجه السابع: قولهم: فكلمة الله التي بها خلقت اللطائف تظهر في غير كثيفٍ كلا.

فيقال لهم: كلمة الله التي يدَّعون ظهورها في المسيح، أهي كلام الله الذي هو صفته، أو ذات الله المتكلمة، أو مجموعها؟

فإن قلتم: الظاهر فيه نفس الكلام، فهذا يراد به شيئان: إن أريد به أن الله أنزل كلامه على المسيح، كما أنزله على غيره من الرسل، فهذا حقٌّ اتفق عليه أهل الإيمان، ونطق به القرآن.

وإن أريد به أن كلام الله فَارَق ذاته، وحلَّ في المسيح أو غيره، فهو باطلٌ مع أن هذا لا ينفع النصارى، فإنَّ المسيحَ عندهم إلهٌ خلَق السماوات والأرض، وهو عندهم ابن آدم، وخالق آدم، وابن مريم وخالق مريم، ابنها بناسوته، وخالقها بلاهوته.

وإن أرادوا بظهور الكلمة ظهور ذات الله، أو ظهور ذاته وكلامه في الكثيف الذي هو الإنسان، فهذا أيضًا يراد به ظهور نوره في قلوب المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] إلى قوله: ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ الآية [النور: ٣٥].

وكما ظهر الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران، وكما تجلى لإبراهيم، كما ذكره في التوراة، فهذا لا يختص بالمسيح، بل هو لغيره كما هو له. وإن أرادوا أن ذات الرب حلَّت في المسيح، أو في غيره، فهذا محل النزاع، فأين دليلهم على إمكان ذلك، ثم وقوعه؟ مع أن جماهير العقلاء من أهل الملل وغيرهم يقولون: هذا غير واقعٍ، بل هو ممتنع[1].

سابعًا: مناقشة تمثيلهم بتكليم الله لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

قالوا: وأما تجسُّم كلمة الله الخالقة التي بها خلق كل شيءٍ وتجسدها بإنسانٍ مخلوقٍ، وهو الذي أخذ من مريم العذراء المصطفاة التي فُضِّلت على نساء العالمين، واتحدت الكلمة به اتحادًا بريًّا من اختلاطٍ أو تغيرٍ أو استحالةٍ، وخاطب الناس كما خاطب الله موسى النبي من العوسجة، ففعل المعجز بلاهوته، وأظهر العجز بناسوته، والفعلان هما من المسيح الواحد.

والجواب: إنَّ في هذا الكلام من أنواع الكذب والكفر والتناقض أمورًا كثيرة، وذلك يظهر بوجوهٍ:

الأوَّل: أن قولهم: كلمة الله الخالقة التي بها خلق كل شيءٍ، كلام متناقض،

---

(١) (٤/ ٥).

فإنَّ الخالق هو الإله الخالق، وهو خلق الأشياء بكلامه، وهو قوله: «كن»، فالخالق لم يخلق به الأشياء، بل هو خلقها، والكلام الذي به خلقت الأشياء ليس هو الخالق لها، بل خلق الخالق الأشياء، والفرق بين الخالق والمخلوق وبين ما به خلق الخالق معقول، وهؤلاء جعلوا الخالق هو الذي به خلقت المخلوقات، فجعلوا الكلمة هي الخالق، وجعلوا المخلوقات خلقت بها.

وإيضاح هذا أنَّ الكلمة إن كانت مجرد الصِّفة، فإنَّ الصفة ليست خالقةً، وإن كانت الصفة مع الموصوف، فهذا هو الخالق، ليس هذا هو المخلوق به.

والثاني: قولهم: تجسَّدها بإنسانٍ مخلوقٍ، وقولهم: تجسَّم كلمة الله، فإنَّ قولهم: تجسمت وتجسدت يقتضي أن الكلمة صارت جسدًا وجسمًا بالإنسان المخلوق، وذلك يقتضي انقلابها جسدًا وجسمًا، وهذا يقتضي استحالتها وتغيرها، وهم قالوا: اتحادًا بريًّا من تغيرٍ واستحالةٍ.

الثالث: قولهم: اتَّحدت الكلمة به اتحادًا بريًّا من اختلاطٍ أو تغيرٍ أو استحالةٍ، كلام متناقض أيضًا، فإن الاتحاد يُصيِّر الاثنين واحدًا، فيقال قبل الاتحاد: كان اللاهوت جوهرًا، والناسوت جوهرًا آخر. وإن شئت قلت: كان هذا شيئًا، وهذا شيئًا، أو هذا عينًا قائمة بنفسها، وهذا عينًا قائمة بنفسها، فبعد الاتحاد إما أن يكونا اثنين كما كانا، أو صار الاثنان واحدًا، فإن كانا اثنين كما كانا، فلا اتحاد، بل هما متعددان كما كانا متعددين، وإن كانا قد صارا شيئًا واحدًا، فإن كان هذا الواحد هو أحدهما، فالآخر قد عدم، وهذا عدم لأحدهما لا اتحاده، وإن كان هذا الذي صار واحدًا ليس هو أحدهما، فلا بد من تغييرهما واستحالتهما، وإلا فلو كانا

بعد الاتحاد اثنين باقيين بصفاتهما، لم يكن هناك اتحادٌ...

الوجه الرابع: قولهم: وخاطب الناس كما خاطب الله موسى من العوسجة، يوجب أن يكون الَّذين كلَّمهم المسيح ممَّن آمن به، وكفر به، بمنزلة موسى بن عمران الذي كلَّمه الله تكليمًا، ومعلوم أن تكليم الله لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ممَّا فضَّله به على غيره من النبيِّين، فإن كان آحاد الناس بمنزلة موسى بن عمران، لزم أن يكون كلٌّ من آحاد الناس في ذلك بمنزلة موسى بن عمران، وهذا مما يُعْلم فساده بالاضطرار من دين الرسل.

الوجه الخامس: أنَّ الله لمَّا كلَّم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشجرة، كان الكلام المسموع مخالفًا لما يسمع من كلام الناس، ولهذا لم تُطق بنو إسرائيل سماع ذلك الصوت، بل قالوا لموسى: صِفْ لنا ذلك(١)، وهذا عندهم في التوراة... وأما المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ فكان كل أحدٍ يسمع صوته كصوت سائر الناس، لم يتميَّز عنهم بما يوجب أن يكونوا سمعوا كلام الله كما سمعه موسى بن عمران.

الوجه السادس: أن المخاطب للناس إن كان هو مجموع اللاهوت والناسوت، فكلامه صريحٌ في أنه مخلوقٌ مربوبٌ يدعو ويسأل، والمجموع ليس بمخلوقٍ يسأل الله ويعبده، وإن كان هو اللَّاهوت وحده كما يقتضيه كلامهم هذا، فهو أبعد وأبعد، وإن كان هو الناسوت وحده، فلم يكن اللَّاهوت

---

(١) في خروج (٢٠/١٨، ١٩): «وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق، والجبل يدخن، ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد ١٩ وقالوا لموسى: تكلم أنت معنا فنسمع، ولا يتكلم معنا الله؛ لئلا نموت».

مخاطبًا للناس، ولم يكلم الله الناس من الناسوت كما كلَّم الله موسى من الشجرة.

وأيضًا فلم يكن فرقٌ بين حقيقة كلام الناسوت وكلام اللاهوت. وكلام المسيح الصَّريح في أنه مخلوقٌ كثيرٌ، وهم يقرون به، لكن يقولون: ذلك كلام الناسوت، فيُقَالُ لهم حينئذٍ: فالمخاطب للنَّاس هو الناسوت دون اللَّاهوت، وأنتم قلتم: إنَّ الله خاطب الخَلْق من بدن المسيح كما خاطب موسى من الشجرة. والخطاب الذي سمعه موسى من الشَّجرة هو كله كلام اللاهوت، والكلام الذي كان يسمع من المسيح ليس فيه شيءٌ يختصُّ باللاهوت، بل عامَّته صريحٌ في أنه كلام الناسوت...

الوجه السابع: أنَّ الله لمَّا كلَّم موسى من الشجرة، كان الكلام كلام الله وحده، لم يكن للشَّجرة كلام أصلًا بوجهٍ من الوجوه، فإن كان هذا المثل مطابقًا، كان الذي يكلم الناس من ناسوت المسيح هو اللاهوت وحده. ومعلومٌ أن في الإنجيل وغيره من النصوص الصريحة ما يدل على أن الناسوت كان هو المتكلم، مما يبيِّن الفرق الواضح بين هذا وهذا...

الوجه الثامن: أن يقال: إنَّ قولهم: إن الله خاطب الناس في المسيح، كما خاطب موسى النبي من العوسجة من أبطل الباطل، فإن الله باتفاق الأمم كلها لم يحلَّ في الشجرة، ولم يتحد بها، كما يزعمون هم أنه حلَّ بالمسيح واتحد به، فإنه عندهم حلَّ بباطن المسيح، بل وبظاهره، واتحد به باطنًا وظاهرًا، والرب تعالى لم يكن في باطن الشجرة، ولا حلَّ فيها، ولا اتَّحد بها.

وقول الله: إنه كلَّمه منها، وناداه منها؛ كقوله أنه: نُودِيَ من شاطئ الواد الأيمن، وذلك مثل قوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦]، وفي البقعة المباركة ونحو ذلك.

وليس في شيءٍ من ذلك أن الرَّبَّ تعالى حلَّ في باطن الوادي المقدس، أو البقعة المباركة، أو الجانب الأيمن، ولا أنه اتحد بشيءٍ من ذلك، ولا صار هو وشيءٌ من ذلك جوهرًا واحدًا، ولا شخصًا واحدًا، كما يقول بعض النصارى: إنَّ اللاهوت والناسوت صارا جوهرًا واحدًا، وبعضهم يقول: صارا شخصًا واحدًا، بل ولا قال أحد: إنه حلَّ في شيءٍ من ذلك كحلول الماء في اللبن، أو النار في الحديد، كما يقول بعضهم: إن اللاهوت حلَّ في الناسوت، كذلك ولو قدر أنَّ بعض الناس قد قال شيئًا من المقالات التي لا تدل عليها الكتب الإلهية، ولا تعلم بالعقل، لم يكن قولُهُ حُجَّةً، إذ لا يحتج إلا بنقلٍ ثابتٍ عن الأنبياء، أو بما يعلم بالعقل.

الوجه التاسع: أنَّ الرَّبَّ ﷻ إذا تكلم، تكلم بكلام الربوبية، فلو كان في المسيح اللَّاهوت الذي أرسل موسى وغيره، لم يخضع لموسى ولتوراته، ويذكر أنه إنما جاء ليكملها لا لينقضها، ولا كان يقوم بشرائعها، فإنَّ ربَّ العالمين أعظم وأجلُّ من ذلك، بل لو كان ملكًا من الملائكة، لم يفعل مثل ذلك، فكيف بربِّ العالمين؟

وإذا قالت النَّصارى: فعل ذلك خوفًا من بني إسرائيل، أو خوفًا أن يكذبوه، كان عذرهم أقبح من ذنبهم، فربُّ العالمين ممَّن يخاف سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؟! وموسى لمَّا كان فرعون يكذبه كان يظهر من الآيات يذلُّ بها فرعون وقومه مع عُتوِّه وعُتوِّ

قومه، ولم تكن بنو إسرائيل أعتى من فرعون وقومه، فلو كان هو رب العالمين، كان ما يؤيد به نفسه من الآيات أعظم مما يؤيد به عبده موسى.

ومن عجائب النصارى أنهم يدَّعون فيه الإلهية مع ادعائهم فيه غاية العجز حتى صلب، وأما المسلمون فيقولون: هو رسولٌ مؤيدٌ، لم يصلب، وهذه سُنَّة الله سبحانه في رسله، فإنه يؤيدهم وينصرهم على عدوهم، كما نصر نوحًا وإبراهيم ومحمدًا صلوات الله عليهم وسلامه، فإذا كان لا يجوز أن يكون رسولًا مغلوبًا، فكيف يكون ربًّا مغلوبًا مصلوبًا؟![1].

(١) (٣/٣٠٨).

الفصل الرابع

رد ابن تيمية على سعيد بن البطريق في تقريره لعقيدة التثليث

قال سعيد بن البطريق: إنَّ أئمة الضلالة، أعني: «نسطوريوس» و«أرطيوس» و«ديسقورس» و«سورس» و«يعقوب البرادعي» وأشياعهم الذين أرادوا أن يقيموا الزيف والمحال، ولم يرجعوا إلى خشية الله، وَزَاغوا عن سبيل الحقِّ لسوء رأيهم، فقد تورَّطوا في بحر الضلالة.

وهم جميعًا فيما ارتطموا فيه من ضلالتهم يضمرون جهلًا منهم باتحاد لاهوت سيدنا المسيح بناسوته، ويتورط كلُّ واحدٍ منهم في وجهٍ من وجوه الخلطة، ويتمسَّك به، فقد رأيت أن أوضح وجه الخلطة، وأبين ذلك؛ لتقف على فساد قولهم: إن من عظيم تدبير الله وكمال عدله وجليل رحمته أَنْ بعث كلمته الخالقة التي بها خلق كل شيءٍ، وهي التي من جوهره ليست مخلوقةً، ولكن مولودةً منه قبل كل الدهور، ولم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط، ولا كانت الكلمةُ بريَّةً منه قط، ولا من روحه الخالقة، ولا من جوهره، فَهَبطتْ كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم الثابت الذي لم يزل ولا يزال، فالتحمت من مريم العذراء، وهي جارية طاهرة مختارة من نسل داود، اصطفاها الله لهذا التدبير من نساء العالمين، وطهَّرها بروح القدس، روحه الجوهرية حتى جعلها أهلًا لحلول كلمة الله الجوهرية بها، فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسانٍ مخلوقٍ خلقته لنفسها بمسرة الأب، ومؤازرة روح القدس، خلقًا جديدًا من غير نطفة

آدمية جرت عليها الخطيئة، ومن غير مجامعةٍ بشريةٍ، ولا انفكاك عذرة تلك الجارية المقدسة، فهو إنسانٌ تامٌّ بجسده ونفسه الدموية، وروحه الكلمانية التي من صورة الله في الإنسان وشبهه، فكانت مَسْكنًا لله في حلوله واحتجابه للطفها عن جميع ما لطف من الخلائق كلهم. واعلم أنه لا يُرَى شيءٌ من لطيف الخلق إلا في غليظ الخلق، ولا يرى ما هو لطيف من اللطيف إلا مع ما هو أغلظ منه فيما يظهر لأهل الأثقال من غليظ الخلق، وإنَّا وجدنا روح الإنسان العاقلة الكلمانية ألطف من لطيف الخلق، فلذلك كانت أولى خلق الله بحجاب الله، فكانت لها حجابًا، ولمن هو ألطف منها، وكانت النفس الدموية لها حجابًا، والجسد الغليظ حجابًا.

فعلى هذا خالطت كلمة الله الخالقة لنفس الإنسان الكاملة بجسدها ودمها وروحها العاقلة الكلمانية، وصارت كلمة الله بقوامها قوامًا لتثليث الناسوت التي كَمُل جوهرها بتقويم قوام كلمة الله إياها؛ لأنها لم تخلق، ولم تكُ شيئًا إلا بقوامٍ من كلمة الله الذي خلقها وكوَّنها لا من شيءٍ، لا سبق قبل ذلك في بطن مريم، ولا من شيءٍ كان لها من نطفةٍ، ولا من غير ذلك، غير قوام الكلمة الخالقة الذي هو أحد التثليث الإلهي، فذلك القوام معدودٌ معروفٌ مع الناس؛ لما ضمَّ إليه، وخلقه له، التحم به من جوهر الإنسان، فهو -بتوحيد ذلك القوام الواحد- قوام لكلمة الله الخالقة، واحد في التثليث بجوهر لاهوته، واحد في الناس بجوهر ناسوته، وليس باثنين، ولكن واحد مع الأب والروح، وهو إياه واحدٌ مع الناس جميعًا بجوهرين مختلفين من جوهر اللَّاهوت الخالق،

وجوهر الناسوت المخلوق بتوحيد القوام الواحد، قوام الكلمة التي هي الابن المولود من الله قبل الأدهار كلها، وهو إياه المولود من مريم العذراء في آخر الزمان من غير مفارقةٍ من الأب، ولا من روح القدس.

قلت: فهذا كلام سعيد بن البطريق الذي قرر به دين النصارى، وفيه من الباطل ما يطول وَصْفه، لكن نذكر من ذلك وجوهًا:

الوجه الأول: قوله: إنَّ من عظيم تدبير الله أن بعث كلمته الخالقة التي بها خلق كل شيءٍ من جوهره، ليست مخلوقةً، ولكن مولودةً منه، فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم، فالتحمت من مريم العذراء.

فيقال: قد جعلت الكلمة الخالقة، وقلت بعد هذا: ولا كانت الكلمة بريَّةً منه، ولا من روحه الخالقة.

وقلت بعدها: فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسانٍ مخلوقٍ، خلقته لنفسها بمسرَّة الأب، ومؤازرة روح القدس جميعًا، خلقًا جديدًا.

فيُقَالُ لهم: أخالق العالم عندكم خالق واحد وهو إله واحد، أم للعالم ثلاثة آلهةٍ خالقون؟ فإن قالوا: إن الخالق واحد، وهم ثلاثة آلهة خالقون، كما أنهم في كثيرٍ من كلامهم يُصرِّحون بثلاثة آلهةٍ، وثلاثة خالقين، ثم يقولون: إله واحد، وخالق واحد. فيقال: هذا تناقض ظاهر، فإما هذا، وإما هذا.

وإذا قلتم: الخالق واحد، له ثلاث صفاتٍ، لم ننازعكم في أن الخالق له صفات، لكن لا يختص بثلاثةٍ. فإن قالوا بثلاثة آلهةٍ خالقين، كما قد كثر منهم في كثيرٍ من كلامهم، بان كفرهم، وعظم شركهم، وبان أنَّ شِرْكَهم أعظم من كلِّ

شركٍ في العالم، فغاية المجوس الثنويَّة إثبات اثنين، نور وظلمة، وهؤلاء يثبتون ثلاثةً، ثم الأدلَّة السمعية في التوراة والإنجيل والزبور وسائر كلام الأنبياء مع الأدلَّة العقليَّة المبينة لكون الخالق واحدًا، كثيرة جدًّا لا يمكن حصرها هنا.

وإن قالوا: إنَّ الخالق واحد، له صفات. قيل لهم: فهذا مناقضٌ لقولكم: إنه بعث كلمته الخالقة. وقولكم: ولا كانت الكلمة بريَّةً منه، ولا من روحه الخالقة. وقولكم: فهبطت الكلمة الخالقة. وقولكم: فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسانٍ مخلوقٍ، خلقته لنفسها بمسرة الأب، ومؤازرة الروح، فهذا يقتضي أن الكلمة خالقة، وأن الروح خالقة، وأنها خلقت بمسرة الأب الخالق، ومؤازرة الروح الخالقة، وهذا الخالق هبط، والأب لم يهبط، فإذا كان الخالق واحدًا له صفاتٌ، لم يكن هنا إلا خالق واحد.

الوجه الثاني: قولكم: بعث كلمته الخالقة التي بها خلق كل شيءٍ، وقد نطقت الكتب بأنَّ الله يخلق الأشياء بكلامه، فيقول لها: «كن فيكون»، هكذا في القرآن والتوراة وغيرهما، لكن الخالق هو الله تعالى، يخلق بكلامه، ليس كلامه خالقًا، ولا يقول أحدٌ قط: إن كلام الله خلق السماوات والأرض، والتوراة كلام الله، والإنجيل كلام الله، ولا يقول أحدٌ: إن شيئًا من ذلك خلق السماوات والأرض، ولا يقول أحد: يا كلام الله، اغفر لي وارحمني، فقول هؤلاء: إن كلمته هي الخالقة، وإنه خلق بها، كلام متناقض، فإنها إن كانت هي الخالقة، لم تكن هي المخلوق به، فالمخلوق به ليس هو الخالق...

الوجه الثالث: أنه إذا كان قد بعث كلمته الخالقة، وهبطت والتحمت من

مريم، فهو نفسه رب العالمين، هبط والتحم من مريم، أم رب العالمين نفسه لم يهبط، ولم يلتحم من مريم، وإنما هبط والتحم الكلمة التي أرسلها؟ فإن قلتم: هو نفسه هبط والْتحَم، كان الأب الوالد للكلمة هو الذي هبط والْتحَم، وكان الأب هو الكلمة، وهذا مناقضٌ لأقوالكم. وإن قلتم: إنَّ المبعوث الهابط الملتحم ليس هو الأب، بل هو كلمة الرَّبِّ، فقد جعلتموه الخالق، فيكون هناك خالقان، خالقٌ أرسل فهبط والتحم، وخالق أرسل ذلك ولم يهبط، ولم يلتحم، وقد أثبتم خالقًا ثالثًا، وهو الروح، وهذا تصريح بثلاثة آلهة خالقين.

الوجه الرَّابع: أنه قال: إنَّ الله بعث كلمته الخالقة التي بها خلق كل شيءٍ، فمع كونه جعلها خالقةً، جعل أنه بها خلق كل شيءٍ، والذي خلق بها كل شيءٍ هو خالقٌ، فجعلها خالقةً، وجعل خالقًا آخر، وجعل أحد الخالقين قد خلق الآخر به كل شيءٍ، وجعل هذا الخالق قد بعث ذاك الخالق الذي به خلق كل شيءٍ، وجعل الكلمة الخالقة احتجبت بإنسانٍ مخلوقٍ خلقته لنفسها بمسرة الأب، ومؤازرة روح القدس خلقًا جديدًا، وإذا كانت هي الخالقة بمسرة الأب الخالق على الخلق، فالأب لم يخلقه، بل سرَّ بذلك، وروح القدس وازرت ذلك، والخالق خَلق الخلق، ومعلومٌ أنه إذا كان للخالق مَن يوازره على الخَلق، لم يكن مستقلًّا بالخلق، بل يكون له فيه شريكٌ.

فهذه الكلمة تارةً يقولون: هي الخالقة، وتارةً يقولون: خلق بها الخالق فخلقت، وتارةً يقولون: إن روح القدس وازرها في الخلق، فهذه أربعة أقوالٍ ينقض بعضها بعضًا، فإن كان الله هو الخالق لكلِّ شيءٍ، فالخالق واحد، فليس

هناك خالقٌ آخر، ولا شريك له في الخَلق، والخالق إذا خلق الأشياء بقوله: «كن»، لم يكن كلامه خالقًا، ولو كانت كلُّ كلمةٍ إلهًا خالقًا، لكان الآلهة الخالقون كثيرين لا نهاية لهم.

ثم قال: ليست بمخلوقةٍ، ولكن مولودة منه من قبل كلِّ الدهور.

فيُقَال: مَنْ مِنَ الأنبياء سمَّى شيئًا من صفات الله مولودًا قديمًا أزليًّا؟ فكيف يكون مولودًا قديمًا أزليًّا؟ وهل يعقل مولود إلا محدثًا؟

وأيضًا فإذا جاز أن تكون الكلمة التي يفسرونها بالعلم أو الحكمة مولودة منه، فكذلك حياتُهُ مولودةً منه، وإن كانت حياتُهُ منبثقةً منه، فكلمته منبثقة منه، فجعل إحدى الصِّفتين الأزليتين مولودةً من الأزل غير منبثقةٍ، والأخرى ليست مولودةً من الأزل، بل منبثقة مع كونه باطلًا، فهو متناقضٌ، وتفريقٌ بين المتماثلين؛ فإنه إن جاز أن يُقَال للصفة القديمة الأزلية: إنها مولودةٌ منه، فالحياة مولودة، وإن جاز أن يقال: إنها منبثقةٌ، فالكلمة منبثقة.

وأيضًا، فكون الصفة إلهًا خالقًا، وإثبات ثلاثة آلهةٍ خالقين مع قولهم: إن الخالق واحد، تناقض آخر.

وأيضًا فقوله: ولم يكن الله بلا كلمته، ولا روحه قط، إن أراد بروحه حياته، فهذا صحيح، لكن مَن مِن الأنبياء سمَّى حياة الله روحه؟ ومن الذي جعل الله روحًا قديمةً أزليةً؟ وهل هذا إلا افتراء على الأنبياء؟

وليس لقائلٍ أن يقول: إنَّ هذا نزاع لفظي، فلا اعتبار به؛ لأنَّ هذا تفسيرٌ لكلام الأنبياء، فهم الذين تكلَّموا بروح الله، وروح القدس، ونحو ذلك، ولم

يرد أحدٌ بذلك حياة الله قط؛ فتسمية حياة الله روحًا، وتفسير مراد الأنبياء بذلك افتراء على الله ورسله.

الوجه الخامس: قوله: فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم الثابت الذي لم يزل، ولا يزول، فالتحمت من مريم العذراء، وهي جارية طاهرة، مختارة من نسل داود، اصطفاها الله لهذا التدبير من نساء العالمين، وطهرها بروح القدس، روحه الجوهرية التي جعلها أهلًا لحلول كلمة الله الجوهرية بها، فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسانٍ مخلوقٍ خلقته لنفسها بمسرة الأب، ومؤازرة روح القدس خلقًا جديدًا.

فيقال: إنَّ الكتب دلَّت على أن المسيح تجسَّد من روح القدس، ومن مريم العذراء البتول، وهكذا هو في الأمانة التي لهم، وبهذا أخبر القرآن حيث أخبر في غير موضعٍ أنه نفخ في مريم من روحه مع إخباره أنه أرسل إليها روحه، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ١٦-٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا

﴿وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]...

فالكتب الإلهية يصدق بعضها بعضًا، لكن دعواكم أنَّ روح القدس روح الله الجوهرية -أي: حياته القديمة الأزلية- أمر مخالف لجميع كتب الله وأنبيائه، فلم يفسر أحدٌ منهم روح القدس بصفة الله، لا جوهرية، ولا غير جوهرية، ولا قديمة، ولا غير قديمة، ولا أرادوا بذلك حياة الله، فقولُكُم هذا تبديلٌ لكلام الله، وكلام أنبيائه ورسله، كما أنَّكم في قولكم: إنَّ كلمة الله أو علمه أو حياته مولودة منه، وَإنَّ صفته القديمة الأزلية هي ابنه، ممَّا حرفتم فيه كلام الأنبياء، فلم يرد أحدٌ منهم هذا المعنى بهذا اللفظ قط، ولم يطلق في جميع الكتب التي عندكم لفظ الابن المولود إلا على محدثٍ مخلوقٍ لا على شيءٍ قديمٍ أزليٍّ، لا موصوفٍ، ولا صفة، ولا علم، ولا كلام، ولا حكمة، ولا غير ذلك، وكل ولادةٍ في الكتب الإلهية التي عندكم وغيرها، فهي ولادة حادثة زمانية، وكل مولودٍ فهو محدث مخلوق زماني، ليس في الكتب ولادة قديمة أزلية، ولا مولود قديم أزلي، كما أنَّكم ذكرتم ذلك في أمانتكم وغيرها.

فلو كان ما ذكرتموه ممكنًا في العقول، لم يجز أن تجعلوه موجودًا واقعًا، وتقولوا: الأنبياء أرادوا ذلك، إلا أن يكونوا بيَّنوا أن ذلك مرادهم، فإذا كان كلامهم صريحًا في أنهم لم يريدوا ذلك، والمعقول الصريح يناقض ذلك، كان ما قلتموه كذبًا على الله، وعلى أنبيائه ورسله ومسيحه، وكان باطلًا في المعقول، وكنتم ممن قيل فيه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

ثم يقال: أنتم قلتم: إنَّ الكلمة الخالقة هبطت فالتحمت من مريم، واحتجبت

بإنسانٍ مخلوقٍ خلقته لنفسها. وقلتم: إن مريم حملت بالإله الخالق، وولدته الذي هو الابن، فإذا جوزتم أن تكون مريم هي أُمًّا للخالق الذي هو الابن، حملته وولدته، فَلِمَ لا يجوز أن تكون زوجةً للخالق الذي هو الأب مع أن الخالق الْتحَم من مريم؟ وقد قلتم: لم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط، ولا كانت الكلمة بريَّةً منه قط، ولا من روحه الخالقة، ولا من جوهره، فجعلتم الرُّوح خالقةً، والله الذي هو الأب خالقًا، والمسيح قد تجسَّد من الروح الخالقة، ومن مريم، فكما أنَّ مريم أمه، فالروح الخالقة بمنزلة أبيه.

وأيضًا فمريم لها اتصالٌ بالأب وبروح القدس، وكلاهما أبٌ للمسيح على ما ذكرتموه، فإذا كانت مريم متصلةً بكلِّ واحدٍ ممَّن جعلتموه أبًا للمسيح، وقلتم: إن الخالق الْتحَم من مريم، فهذا أبلغ ما يكون من جَعْل الخالق زوج مريم، ومهما فسرتم به اتحاد اللاهوت بناسوت المسيح المخلوق منها، كان تفسير التحام اللاهوت بناسوت مريم حتى يصير زوجًا لمريم أَوْلى وأَحْرى.

وليس في ذلك نقصٌ، ولا عيبٌ، إلا وفي كون اللاهوت ابن مريم ما هو أبلغ منه في النقص والعيب، ومعلوم أن أُمَّ الإنسان أعلى قدرًا عنده من زوجته، وأنَّ تسلُّطه على زوجته أعظم منه على أُمِّه، فإن الرجل مالكٌ للزوجة، قوَّامٌ عليها، والمرأة أسيرة عند زوجها بخلاف أمه، فإذا جعلتم اللاهوت الخالق القديم الأزلي ابنًا لناسوت مريم بحكم الاتحاد مع كونه خالقًا لها بلاهوته، وابنًا لها بناسوته، ولم يكن هذا ممتنعًا عندكم، ولا قبيحًا، فأَنْ تكون مريم صاحبةً له وزوجةً وامرأةً بحكم الالتحام بالناسوت أَوْلى وأَحْرى، وإنْ كان هذا ممتنعًا

وقبيحًا، فذاك أشد امتناعًا وقبحًا.

ولهذا، ذهب طوائف من النصارى إلى أن مريم امرأة الله وزوجته، وقالوا أبلغ من ذلك حتى ذكروا شهوته للنكاح. ولقد قال بعض أكابر عقلاء الملوك ممن كان نصرانيًّا: إنهم كانوا إذا نبهوا على قولهم: إن عيسى ابن الله، لم يفهم من ذلك إلا أنَّ الله أحبل أمه، وولدت له المسيح ابنه، كما يحبل الرجل المرأة، وتلد له الولد، فيكون قد انفصل من الله جزءٌ في مريم بعد أن نكحها، وذلك الجزء الذي من الله ومن مريم ولدته مريم كما تلد المرأة الولد الذي منها ومن زوجها، وقد قالت الجن المؤمنون: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، فنزَّهوه عن هذا وهذا، وهؤلاء الجن المؤمنون أكمل عقلًا ودينًا من هؤلاء النصارى، وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، تقديره: من أين يكون له ولد؟ فـ «أنَّى» في اللغة بمعنى: من أين ذلك؟ وهذا استفهام إنكارٍ، فبيَّن سبحانه أنه يمتنع أن يكون له ولدٌ، ولم تكن له صاحبةٌ مع أنه خالق كل شيءٍ، وأنَّ هذا الولد يمتنع أن يكون، وأن هذا الامتناع مستقرٌّ في صريح المعقول...

الوجه السادس: قوله: فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسانٍ مخلوقٍ خلقته لنفسها. وقوله: فكانت مسكنًا في حلوله واحتجابه للطفها عن جميع ما لطف من الخلائق كلهم.

يقال لهم: أولًا: من أين لك أن روح الإنسان ألطف من جميع المخلوقات،

وأنها ألطف من الملائكة والروح الذي قال الله فيه: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨]، وأنها ألطف من الرُّوح التي نفخ في آدم منه بقوله: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، وبتقدير أن تكون ألطف، فأنت لا تقول: إنَّ الاحتجاب والاتحاد كان بروح الإنسان مجردةً، بل بالجسد الناسوتي الدموي الغليظ، وتقول: إنَّ الخالق التحم من مريم العذراء، فتجعل الخالق قد التحم من لحم مريم، ومن رحمها الذي هو لحم ودم، وهذه أجساد كثيفة، بل جمهورهم يقول: إنه اتحد بجسدٍ لا روح فيه قبل النفخ، وبعد الموت، وقبل أن يقوم من قبره.

وحينئذٍ فقولك: فكانت مسكنًا لله في حلوله واحتجابه للطفها عن جميع ما لطف من الخلائق كلهم، وصفٌ ممنوعٌ، والتعليل به باطلٌ، فإنه لو كان مسكنًا للطفه، لم يجز أن يسكن إلا في الروح اللطيفة، فلما أثبت اتحادًا بالجسد الكثيف، بطل قولك: إنه اتحد بالإنسان للطفه.

والمقصود: أن الباطل في كلامهم كثير؛ كقولهم: فهو بتوحيد ذلك القوام الواحد قوام لكلمة الله الخالقة، والمسيح عندهم اسمٌ للاهوت والناسوت جميعًا، اسمٌ للخالق والمخلوق، وأحدهما متحد بالآخر، فهو بتوحيد ذلك القوام، قوام لكلمة الله الخالقة. وسواء أريد بذلك أن الناسوت واللاهوت قوام للاهوت، أو أن الناسوت قوام للاهوت، وهم يُمثِّلون ذلك بالروح والجسد والنار والحديد، فيكون كما لو قيل: إن الجسد والروح، أو الجسد قوام للروح، أو النار والحديد، أو الحديد قوام للنار.

فيُقَال: الخالق الأزلي الذي لم يزل، ولا يزال، هل يكون المحدث المخلوق قوامًا له؟ فيكون المخلوق المصنوع المحدث المفتقر إلى الله من كلِّ وجهٍ، قوامًا للخالق الغني عنه من كلِّ وجهٍ؟ وهل هذا إلا من أظهر الدور الممتنع؟ فإنه من المعلوم بصريح العقل واتفاق العقلاء أنَّ المخلوق لا قوام له إلا بالخالق، فإن كان الخالق قوامه بالمخلوق، لزم أن يكون كلٌّ من الخالق والمخلوق قوامه بالآخر، فيكون كلٌّ منهما محتاجًا إلى الآخر، إذ ما كان قوام الشيء به، فإنه محتاج إليه.

وهذا مع كونه يقتضي أن الخالق يحتاج إلى مخلوقه، وهو من الكفر الواضح، فإنه يظهر امتناعه بصريح العقل، وهذا لازمٌ للنصارى، سواء قالوا بالاتحاد، أو بالحلول بلا اتحادٍ.

وإن كانت فرقهم الثلاث يقولون بنوعٍ من الاتحاد، فإنه مع الاتحاد كل من المتحدين لا بدَّ له من الآخر، فهو محتاجٌ إليه كما يُمثِّلون به في الرُّوح مع البدن، والنار مع الحديد، فإنَّ الروح التي في البدن محتاجة إلى البدن، كما أنَّ النار في الحديد محتاجة إلى الحديد، وكذلك الحلول، فإن كل حالٍّ محتاج إلى محلولٍ فيه، وهو من الكفر الواضح، فإنه يظهر امتناعه بصريح العقل؛ فإن ذلك المخلوق إن قدر أنه موجود بنفسه قديم أزلي، فليس هو مخلوقًا، ومع هذا فيمتنع أن يكون كلٌّ من القديمين الأزليين محتاجًا إلى الآخر، سواء قدر أنه فاعلٌ له، أو تمام الفاعل له، أو كان مفتقرًا إليه بوجهٍ من الوجوه؛ لأنه إذا كان مفتقرًا إليه بوجهٍ من الوجوه، لم يكن موجودًا إلا به، فإن الموجود لا يكون موجودًا إلا بوجود لوازمه، ولا يتم وجوده إلا به، فكل ما قدر أنه محتاج إليه لم يكن موجودًا إلا به، فإذا كان كلٌّ من القديمين

محتاجًا إلى الآخر، لزم ألَّا يكون هذا موجودًا إلا بخلق ذلك ما به تتم حاجة الآخر، وألَّا يكون هذا موجودًا إلا بخلق ذلك ما به تتم حاجة الآخر.

والخالق لا يكون خالقًا حتى يكون موجودًا، ولا يكون موجودًا إلا بلوازم وجوده، فيلزم ألَّا يكون هذا موجودًا حتى يجعله الآخر موجودًا، ولا يكون ذاك موجودًا حتى يجعله الآخر موجودًا، إذ كان جعله لما لم يتم به وجوده يتوقف وجوده عليه، فلا يكون موجودًا إلا به، فلا فرق بين أن يحتاج أحدهما إلى الآخر في وجوده، أو فيما لا يتم وجوده إلا به، وهذا هو الدور القبلي الممتنع باتفاق العقلاء[(١)].

---

(١) (٤/٢٦٨).

البَابُ الرَّابِعُ

تثبيت دلائل النبوة
ورد الاعتراضات الواردة عليها

الفصل الأول: أصول تثبيت دلائل النبوة.

الفصل الثاني: دلائل نبوة محمد ﷺ.

تمهيد

يتعلَّق هذا الباب بإثبات نُبوَّة النبي محمد ﷺ.

وجمع كلام الشيخ في ذلك بين التقعيد والتدليل، فشرح الشيخ طرق إثبات النبوة إجمالًا، ورد على مَن حصر ذلك في المعجزة، بل بيَّن أن طرق إثبات النُّبوة كثيرة ومتنوعة.

ثم ذكر حجة نيِّرة على كلِّ من يصدق بنبيٍّ من الأنبياء، جِمَاعها أنه يتعذر التصديق بنبيٍّ من الأنبياء مع التكذيب بنُبوَّة محمد ﷺ؛ لأنَّ أيَّ طريقٍ يثبت نبوة أي نبيٍّ من الأنبياء، فهو في حقِّ نبينا عَلَيْهِ السَّلَامُ أظهر وأكثر.

ثمَّ ذكر الشَّيخ طرق إثبات النُّبوة تفصيلًا، وقرر وجه الاستدلال من كلٍّ منها على أحسن وجهٍ، ورد على الاعتراضات التي وردت، أو يمكن ورودها عليها.

الفصل الأول

أصول تثبيت دلائل النبوة

أولاً: قاعدة كلية في باب الدلائل:

إن دلائل صدق النَّبي الصَّادق، وكذب المتنبي الكذاب كثيرة جدًّا، فإن من ادَّعى النبوة وكان صادقًا، فهو من أفضل خَلْق الله وأكملهم في العلم والدين، فإنه لا أحد أفضل من رسل الله وأنبيائه صلوات الله عليهم وسلامه، وإنْ كان بعضهم أفضل من بعضٍ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

وإن كان المدعي للنبوة كاذبًا، فهو من أكفر خَلْق الله، وشرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٢ - ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

فالكذب أصلٌ للشر، وأعظمه الكذب على الله ﷻ، والصدق أصلٌ للخير، وأعظمه الصدق على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. وفي (الصحيحين)[1] عن عبد الله بن مسعودٍ

---

(١) البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**عليكم بالصِّدق، فإنَّ الصِّدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقًا، وإياكم والكذب، فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرَّجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكْتب عند الله كذابًا**».

ولمَّا كان هذا من أعلى الدرجات، وهذا من أسفل الدركات، كان بينهما من الفروق والدلائل والبراهين التي تدل على صدق أحدها، وكذب الآخر ما يظهر لكلِّ مَنْ عرف حالهما، ولهذا كانت دلائل الأنبياء وأعلامهم الدالَّة على صدقهم كثيرة متنوعة، كما أنَّ دلائل كذب المتنبئين كثيرة متنوعة[(١)].

وفي الجملة أمرهُ[(٢)] أظهرُ وأشهرُ وأعجبُ وأبهرُ، وأخرقُ للعادة من كل أمرٍ ظهر في العالم من البشر، ومثل هذا إذا كان كاذبًا، فلكذبه لوازم كثيرة جدًّا تفوق الحصر متقدمة ومقارنة ومتأخرة، فإن مَن هو أدنى دعوةً منه إذا كان كاذبًا، لزم كذبه من اللوازم ما يبين كذبه، فكيف مثل هذا؟

فإذا انتفت لوازم المكذوب، انتفى الملزوم، وصدقُهُ لازمٌ لأمورٍ كثيرةٍ، كلها تدلُّ على صدقه، وثبوت الملزوم يقتضي ثبوت اللازم ماضيه ومقارنه ومتأخره، ومُدَّعي النُّبوة لا يخلو من الصِّدق أو الكذب، وكلٌّ من الصِّدق والكذب له لوازم وملزومات، فأدلَّة الصدق مستلزمة له، وأدلة الكذب مستلزمة له، والصدق له لوازم، والكذب له لوازم، فصدقه يُعْرف بنوعين: بثبوت دلائل

---

(١) (١/ ٢٢٧).

(٢) أي: النبي محمد -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم-.

الصدق المستلزمة لصدقه، وبانتفاء لوازم الكذب الموجب انتفاؤها انتفاء كذبه، كما أن كذب الكذاب يعرف بأدلة كذبه المستلزمة لكذبه، وبانتفاء لوازم الصدق المستلزم انتفاؤها لانتفاء صدقه، والله أعلم[١](٢).

---

(١) (٢/ ٣٨٣).

(٢) تقرير طريقة شيخ الإسلام في إثبات دلائل النبوة: هي أن لوازم صدق مُدَّعي النبوة كثيرة، ولوازم كذب المتنبي الكاذب كثيرة أيضًا، وبينهما بونٌ شاسعٌ، ومن العي والحصر الاقتصار على أحد الأدلة للتفريق بينهما، واعتقاد أنه الدليل الوحيد، بل لابدَّ من التوسُّع في استخدام القرائن التي لا تنحصر إلا بمَشقَّةٍ، كما يستخدم الإنسان العادي القرائن في معرفة صدق الصادق، أو أمانته، أو إتقانه لصنعته، وللشيخ كلام متفرق في شرح هذه الطريقة في مواطن أخر.

قال في شرح الأصفهانية (٨٩): ومعلوم أن مدعي الرسالة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم، وإما أن يكون من أنقص الخلق وأرذلهم، ولهذا قال أحد أكابر ثقيف للنبي ﷺ لمَّا بلغهم الرسالة، ودعاهم إلى الإسلام: «والله، لا أقول لك كلمةً واحدةً، إن كنت صادقًا فأنت أجلُّ في عيني من أن أرد عليك، وإن كنت كاذبًا، فأنت أحقر من أن أردَّ عليك».

فكيف يشتبه أفضل الخلق وأكملهم بأنقص الخلق وأرذلهم، وما أحسن قول حسان:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تأتيك بالخير

وما من أحدٍ ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمَنْ له أدنى تمييزٍ، وما من أحدٍ ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر لمَنْ له أدنى تمييزٍ، فإن الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمورٍ، ويأمرهم بأمورٍ، ولا بد أن يفعل أمورًا.

- والكذاب يظهر في نفس ما يأمر به، ويخبر عنه، وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوهٍ كثيرةٍ، والصادق يظهر في نفس ما يأمر به، وما يخبر عنه ويفعله ما يظهر به صدقه من وجوهٍ كثيرةٍ، بل كل شخصين ادعيا أمرًا من الأمور؛ أحدهما صادق في دعواه، والآخر كاذب، فلا بد أن يبين صدق هذا، وكذب هذا من وجوهٍ كثيرةٍ؛ إذ الصدق مستلزم للبر، والكذب مستلزم للفجور، =

=

كما في الصحيحين عن ابن مسعودٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**»، ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٦]، بيَّن سبحانه أنه ليس بكاهنٍ تنزل عليه الشياطين، ولا شاعر حيث كانوا يقولون: ساحر وشاعر، فبيَّن أن الشياطين تنزل على الكاذب الفاجر يلقون إليهم السمع وأكثرهم كاذبون، فهؤلاء الكهان ونحوهم وإن كانوا يخبرون أحيانًا بشيءٍ من المغيبات، ويكون صدقًا، فمعهم من الكذب والفجور ما يُبيِّن أن الذي يخبرون به ليس عن ملكٍ، وليسوا بأنبياء.

ولهذا، لمَّا قال النبي ﷺ لابن صياد: «**قد خبَّأت لك خبيئًا**. قال: هو الدخ. قال له النبي ﷺ: **اخسأ فلن تعدو قدرك**»، يعني: إنما أنت كاهنٌ، كما قال للنبي ﷺ: «**يأتيني صادقٌ وكاذبٌ**»، وقال: «**أرى عرشًا على الماء**»، وذلك هو عرش الشيطان كما ثبت مثل ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ، وبيَّن الله تعالى أن الشعراء يتبعهم الغاوون، والغاوي الذي يتبع هواه وشهوته وإن كان ذلك مضرًّا له في العاقبة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥، ٢٢٦]، فهذه صفة الشعراء كما أن تلك صفة مَن تنزل عليه الشياطين، فمن عرف الرسول، وصدقه، ووفاءه، ومطابقة قوله لعلمه، عَلِمَ علمًا يقينًا أنه ليس بشاعرٍ، ولا كاهنٍ، ولا كاذبٍ، والناس يُميِّزون بين الصادق والكاذب بأنواعٍ من الأدلة حتَّى في المُدَّعين للصناعات والمقالات؛ كالفلاحة والنساجة والكتابة وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك، فما من أحدٍ يدَّعي العلم بصناعةٍ أو مقالةٍ إلا والتفريق في ذلك بين الصادق والكاذب له وجوه كثيرة، وكذلك مَن أظهر قصدًا وعملًا كمن يظهر الديانة والأمانة والنصيحة والمحبة وأمثال ذلك من الأخلاق، فإنه لا بد أن يتبيَّن صدقه وكذبه من وجوهٍ متعددةٍ.

=

=

والنبوة مشتملة على علومٍ وأعمالٍ لا بد أن يتصف الرسول بها، وهي أشرف العلوم، وأشرف الأعمال، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب، ولا يتبيَّن صدق الصادق وكذب الكاذب من وجوهٍ كثيرةٍ لا سيما والعالم لا يخلو من آثار نبيٍّ من لدن آدم إلى زماننا، وقد علم جنس ما جاءت به الأنبياء والمرسلون، وما كانوا يدعون إليه، ويأمرون به، ولم تزل آثار المرسلين في الأرض، ولم يزل عند الناس من آثار الرسل ما يعرفون به جنس ما جاءت به الرسل، ويفرقون به بين الرسل وغير الرسل، فلو قدر أن رجلًا جاء في زمان إمكان بعث الرسل، وأمر بالشرك وعبادة الأوثان وإباحة الفواحش والظلم والكذب، ولم يأمر بعبادة الله، ولا بالإيمان باليوم الآخر، هل كان مثل هذا يحتاج أن يطالب بمعجزةٍ أو يشك في كذبه أنه نبي، ولو قدر أنه أتى بما يظن أنه معجزة، لعلم أنه من جنس المخاريق أو الفتن والمحنة، ولهذا لما كان الدجال يدعي الإلهية، لم يكن ما يأتي به دالًّا على صدقه للعلم بأنَّ دعواه ممتنعةٌ في نفسها، وإنَّه كذابٌ، وكذلك مَنْ نشأ في بني إسرائيل معروفًا بينهم بالصدق والبر والتقوى بحيث قد خبر خبرةً باطنةً يعلم منها تمام عقله ودينه، ثم أخبر بأنَّ الله نبَّأه وأرسله إليهم، فإنَّ هذا لا يكون أَوْلَى بالرد من أن يخبرنا الرجل الذي لا يشك في عقله ودينه وصدقه أنه رأى رؤيا.

وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه تنازع الناس في أن خبر الواحد هل يجوز أن يقترن به من القرائن والضمائم ما يفيد معه العلم، ولا ريب أن المحققين من كل طائفةٍ على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم الضروري بخبر المخبر، بل القرائن وحدها قد تفيد العلم الضروري كما يعرف الرجل رضاء الرجل وغضبه وحبه وبغضه وفرحه وحزنه وغير ذلك مما في نفسه بأمورٍ تظهر على وجهه قد لا يمكنه التعبير عنها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [محمد: ٣٠]، ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، فأقسم أنه لا بد أن يعرف المنافقين في لحن القول، وعلق معرفتهم بالسِّيما على المشيئة؛ لأن ظهور ما في نفس الإنسان من كلامه أبين من ظهوره على صفحات وجهه، وقد قيل: «ما أسرَّ أحدٌ سريرةً إلا أظهرها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه»، فإذا كان مثل هذا يعلم به ما في نفس الإنسان من غير إخبارٍ، فإذا اقترن بذلك أخباره، كان أَوْلَى بحصول العلم، ولا يقول عاقلٌ من العقلاء: إن مجرد خبر الواحد أو خبرٍ

=

=

كل واحدٍ يفيد العلم، بل ولا خبر كل خمسةٍ أو عشرةٍ، بل قد يخبر ألف أو أكثر من ألفٍ ويكونون كاذبين إذا كانوا متواطئين، وإذا كان صدق المخبر أو كذبه يعلم بما يقترن به من القرائن، بل في لحن قوله وصفحات وجهه، ويحصل بذلك علمٌ ضروريٌّ لا يمكن المرء أن يدفعه عن نفسه، فكيف بدعوى المدَّعي أنه رسول الله؟ كيف يخفى صدقه وكذبه، أم كيف لا يتميَّز الصادق في ذلك من الكاذب بوجوهٍ من الأدلة لا تعدُّ، ولا تحصى؟ وإذا كان الكاذب إنما يأتي من وجهين؛ إما أن يتعمد الكذب، وإما أن يلبس عليه كمن يأتيه الشيطان، فمن المعلوم الذي لا ريب فيه أن من الناس من يعلم منه أنه لا يتعمد الكذب، بل كثير ممَّن خبره الناس وجرَّبوه من شيوخهم ومعامليهم يعلمون منهم علمًا قاطعًا إنهم لا يتعمدون الكذب، وإن كانوا يعلمون أن ذلك ممكن، فليس كل ما علم إمكانه جوز وقوعه، فإنَّا نعلم أن الله قادر على قلب الجبال ياقوتًا، والبحار دمًا، ونعلم أنه لا يفعل ذلك، ونعلم من حال البشر من حيث الجملة أنه يجوز أن يكون أحدهم يهوديًّا ونصرانيًّا ونحو ذلك، ونعلم مع هذا أنَّ هذا لم يقع، بل ولا يقع من الأشخاص، وإن مَن أخبرنا بوقوعه منهم كذبناه قطعًا.

ونحن لا ننكر أن الرجل قد يتغيَّر، ويصير متعمدًا الكذب بعد أن لم يكن كذلك، لكن إذا استحال وتغيَّر، ظهر ذلك لمن يخبره، ويطلع على أموره.

ولهذا، لما كانت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق البار، قال لها لما جاءه الوحي: «**إنِّي قد خشيتُ على عقلي**»، فقالت: كلَّا والله، لا يخزيك الله، إنك لَتصل الرحم، وتَصدق الحديث، وتَحمل الكَلَّ، وتَقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتُعين على نوائب الحق، فهو لم يخف من تعمُّد الكذب، فإنه يعلم من نفسه ﷺ أنه لم يكذب، لكن خاف في أول الأمر أن يكون قد عَرَض له عارض سوء، وهو المقام الثاني، فذكرت خديجة ما ينفي هذا، وهو ما كان مجبولًا عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم والأعمال، وهو الصدق المستلزم للعدل، والإحسان إلى الخلق، ومَن جُمع فيه الصدق والعدل والإحسان لم يكن مما يخزيه الله، وصلة الرحم وقرى الضيف وحمل الكل وإعطاء المعدوم والإعانة على نوائب الحق هي من أعظم أنواع البر والإحسان، وقد علم من سُنَّة الله أنَّ مَنْ جَبَله الله على الأخلاق المحمودة، ونزَّهه عن الأخلاق المذمومة، فإنَّه لا يخزيه، أيضًا فالنُّبوة في الآدميين هي من عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه كان نبيًّا، وكان بنوه يعلمون نبوته وأحواله بالاضطرار، وقد علمٍ

ثانيًا: الرد على دعوى حصر دلائل النبوة في خوارق العادات(١):

فإذا قالوا: ما سوى الخارق للعادة ليس يختص بالنبيِّ، فلا يدل على نُبوَّته.

قيل لهم: الدليل هو الذي يكون مستلزمًا للمدلول يلزم من تحقُّقه تحقُّق

=

جنس ما يدعو إليه الرسول، وجنس أحوالهم، فالمدعي للرسالة في زمن الإمكان إذا أتى بما ظهر به مخالفته للرسل علم أنه ليس منهم، وإذا أتى بما هو من خصائص الرسل علم أنه منهم، لا سيما إذا علم أنه لا بد من رسولٍ منتظرٍ، وعلم أن لذلك الرسول صفات متعددة تميزه عمن سواه، فهذا قد يبلغ بصاحبه إلى العلم الضروري بأن هذا هو الرسول المنتظر، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

والمسلك الأول النوعي: هو ممَّا استدل به النجاشي على نبوَّته، فإنه لمَّا استخبرهم عما يخبر به، واستقرأهم القرآن فقرءوه عليه، قال: «إنَّ هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاةٍ واحدةٍ»، وكذلك قبله ورقة بن نوفل لما أخبره النبي ﷺ بما رآه، وكان ورقة قد تنصَّر، وكان يكتب الإنجيل بالعبرانية، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك ما يقول، فأخبره النبي ﷺ بخبره، فقال: «هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى، وإن قومك سيُخرجونك»، فقال النبي ﷺ: «أَوَ مخرجي هم؟»، فقال: «نعم لم يأت أحدٌ بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك، أنصرك نصرًا مؤزرًا»، ثم لم ينشب ورقة أن تُوفِّي.

والمسلك الثاني الشخصي: استدلَّ به هرقل ملك الروم.اهـ.

- وقال في النُّبوَّات (٢٣): بل طريق معرفة الأنبياء كطريق معرفة نوعٍ من الآدميين، خصَّهم الله بخصائص، يعرف ذلك من أخبارهم، واستقراء أحوالهم، كما يعرف الأطباء والفقهاء.اهـ.

(١) وقعت هذه الدعوى في كلام بعض المتكلمين؛ كإمام الحرمين الجويني رحمه الله، قال في «الإرشاد» (٢٦٢): «فإن قيل: هل في المقدور نصب دليلٍ على صدق النبي غير المعجزة؟ قلنا: ذلك غير ممكنٍ».اهـ.

بل ذهب الرازي أبعد من ذلك، وقال في «المحصل» (٥٠٨): «المعتمد في رسالة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ ظهور القرآن عليه، وسائر الوجوه إنما تذكر للتتمة والتكميل».

المدلول، ولفظ الخارق للعادة فيه إجمالٌ كما تقدم، وحينئذٍ فنفس إنباء الله للنبي، واصطفائه لرسالته، وإقداره على التلقِّي من الملك هو من خوارق العادات، وذلك من المعجزات التي أَعْجَز الله الخَلق أن يفعلوه، وهو مختصٌّ بالأنبياء.

وهذا الوصف أجلُّ وأعظم قدرًا من غيره من الخوارق، والمستلزم لهذا الخارق لا يكون إلا خارقًا، وهو الدليل، إذ يلزم من ثبوت الملزوم ثبوت اللازم، ومن انتفاء اللازم انتفاء الملزوم، والمعتاد الذي يوجد بدون النُّبوة لا يكون دليلًا.

وأمَّا ما لا يوجد إلا وجدت النُّبوة، فهو دليلٌ، فقد تبيَّن أن كل ما يدلُّ على صدق الرسول، وهو خارقٌ للعادة يكون آيةً ونبوةً على صدقه، وأما ما كان خارقًا للعادة، ولا يستلزم النبوة، فليس يكون دليلًا، وقد يكون الشيء معتادًا بدون النبوة، ومع النبوة يكون خرقًا للعادة بحيث يكون وجوده مع النُّبوة خرقًا للعادة بخلاف وجوده مجردًا عنها؛ لأن النُّبوة خرقٌ للعادة، فلا يكون مستلزمًا لها إلا خارق للعادة...

وما يظهره الله على يد النَّبيِّ من الأنواع التي بها يعرف صدقه، ليس فيها شيءٌ يكون للكاذب، بل الكاذب لا يكون له من الأدلَّة إلا ما يستلزم كذبه، فكلُّ ما يدلُّ على كذب الكاذب لا يدلُّ على صدق الصَّادق، وبالعكس، فإنَّ دليل الكذب مستلزمٌ له، ودليل الصدق مستلزمٌ له، وهما ضدان يمتنع أن يكون مدعي النبوة نبيًّا صادقًا، ومتنبئًا كاذبًا، والضدان لا يجتمعان، فيمتنع أن يكون شيءٌ واحدٌ يدلُّ على الضدين، وهذه القاعدة ينتفع بها في مواضع:

منها: أن كثيرًا من الناس إذا رأوا الكاذب، وسمعوا كلامه، تبيَّن لهم كذبه تارةً بعلمٍ ضروريٍّ، وتارةً بعلمٍ استدلاليٍّ، وتارةً بظنٍّ قويٍّ، وكذلك النبي

الصادق إذا رأوه وسمعوا كلامه، فقد تبيَّن لهم صدقه بعلمٍ ضروريٍّ أو نظريٍّ، وقد يكون أولًا بظنٍّ قويٍّ ثم يقوى الظن حتى يصير يقينيًّا كما في العلوم بالأخبار المتواترة والتجارب، فإن خبر الأول يفيد نوعًا من الظن، ثم يقوى بخبَر الثاني والثالث حتى يصير يقينًا، وهذا الطريق سلكها طوائف من الناس(١)،

---

(١) وهذه الطريقة قد استعملها طوائف من العلماء الخائضين في الكلام على الدلائل كما ذكر الشيخ، منهم الماوردي، وذكر أيضًا الاعتراض على هذه الطريقة وحله، فقال في «أعلام النبوة» (٢١٥): «الباب العشرون في شرف أخلاقه، وكمال فضائله ﷺ المهيأ لأشرف الأخلاق، وأجمل الأفعال، المؤهل لأعلى المنازل، وأفضل الأعمال؛ لأنها أصولٌ تقود إلى ما ناسبها ووافقها، وتنفرد مما باينها وخالفها، ولا منزلة في العالم أعلى من النُّبوة التي هي سفارةٌ بين الله تعالى وعباده تبعث على مصالح الخلق، وطاعة الخالق، فكان أفضل الخلق بها أخص، وأكملهم بشروطها أحق بها وأمسَّ، ولم يكن في عصر الرسول ﷺ وما دانى طرفيه من قاربه في فضله، ولا داناه في كماله خلقًا وخلقًا وقولًا وفعلًا، وبذلك وصفه الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

- فإن قيل: فليست فضائله دليلًا على نبوته، ولم يسمع بنبيٍّ احتج بها على أُمَّته، ولا عوَّل عليها في قبول رسالته؛ لأنه قد يشارك فيها حتى يأتي بمعجزٍ يخرق العادة، فيعلم بالمعجز أنه نبيٌّ لا بالفضل.

قيل: الفضل من أماراتها وإن لم يكن من معجزاتها، ولأن تكامل الفضل معوزٌ، فصار كالمعجز، ولأن من كمال الفضل اجتناب الكذب، وليس من كذبٍ في ادعاء النبوة بكامل الفضل، فصار كمال الفضل موجبًا للصدق، والصدق موجبًا لقبول القول، فجاز أن يكون من دلائل الرسل».اهـ.

- ونحو هذا عند الإمام أبي العباس القرطبي في كتاب «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام»، حيث ذكر على النبوة أربعة أنواعٍ من الأدلة، النوع الثاني منها: «الاستدلال على نُبوَّته بقرائن أحواله ﷺ».

وكذلك عقد الإمام أبو نعيم الأصفهاني في كتابه «دلائل النبوة» فصلًا عن أخلاق النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ وصفاته، وختم الإمام أبو عبيد الخزرجي في «مقامع هامات الصلبان» كلامه عن =

وممَّن نبَّه على ذلك القاضي عياض، قال القاضي عياض[١]: إذا تأمل المتأمل المنصف ما قدَّمنا من جميل أثره، وحميد سيره، وبراعة علمه، ورجاحة عقله، وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله، وشاهد حاله، وصواب مقاله، لم يَمْتر في صحة نبوته، وصدق دعوته.

قال: وقد كفى هذا غير واحدٍ في إسلامه، والإيمان به، فروينا عن الترمذي[٢]، وابن قانع[٣]، وغيرهما[٤] بأسانيدهم أن عبد الله بن سلام قال: «لمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة، جئتُهُ لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجهِ كذابٍ»، رواه غير واحد كعبد الوهاب الثقفي، ومحمد بن جعفر، وابن أبي عدي، ويحيى بن سعيد عن عوف بن أبي جميلة الأعرابي عن زرارة بن أوفى عن عبد الله بن سلام.

وعن أبي رمثة البلوي قال: أتيت النبي ﷺ ومعي لي ابنٌ لي، فأريته فلما رأيته قلت: هذا نبي الله[٥].

=

دلائل النبوة بذكر بعض صفات النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخلاقه.

- والإمام علي بن ربن الطبري جعل الباب الثاني من كتابه «الدين والدولة» في إثبات النبوة، عن فضائل سنن النبي وشرائعه، وقال فيه (ص٥٩): «فأما زهد النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ وتورعه واستخفافه بزخارف الدنيا وغرورها، فإني ذاكرٌ منه ما يستدل به على أن مَن كان في مثل تألهه وعفافه لم يظن به الاختراع والبطل».اهـ.

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٢٤٦).

(٢) جامع الترمذي (٢٤٥٨).

(٣) معجم الصحابة لابن قانع (٢/ ١٣٢).

(٤) أخرجه أيضًا ابن ماجه في السنن (١٣٣٤)، وأحمد في المسند (٢٣٧٨٤).

(٥) أخرجه الترمذي في الشمائل (٤٣)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٢٨٣).

وروى مسلم في (صحيحه)[١]، وغيره عن ابن عباس أن ضمادًا قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذا الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدًا مجنون. فقال: لو أنِّي رأيت هذا الرجل لعلَّ الله يشفيه على يدي. قال: فلقيه فقال: يا محمد، إني أرقي من هذه الريح، وإنَّ الله يشفي على يدي مَن شاء الله، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**(إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، أما بعد)**، فقال: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهنَّ رسول الله ﷺ ثلاث مراتٍ.

قال: فقال: لقد سمعتُ قول الكَهَنة، وقول السَّحَرة، وقول الشعراء، فما سمعتُ بمثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر، هاتِ يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: **(وعلى قَوْمك؟)**. قال: وعلى قومي...»، الحديث...

قلت: وإيمان خديجة، وأبو بكرٍ، وغيرهما من السابقين الأوَّلين كان قبل انشقاق القمر، وقبل إخباره بالغيوب، وقبل تحدِّيه بالقرآن، لكن كان بعد سماعهم القرآن الذي هو نفسه آية مستلزمة لصدقه، ونفس كلامه وإخباره بأنِّي رسول الله مع ما يعرف من أحواله مستلزمٌ لصدقه إلى غير ذلك من آيات الصدق، وبراهينه، بل خديجة قالت له: «كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لَتَصل الرحم، وتصدق الحديث، وتَحمل الكَلَّ، وتَقري الضيف، وتَكسب المعدوم، وتُعين على نوائب الحق»[٢]، فكانت عارفةً بأحواله التي تستلزم نفي

---

(١) صحيح مسلم (٨٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

كذبه وفجوره وتلاعب الشيطان به. وأبو بكرٍ كان من أعقل الناس، وأخيرهم، وكان مُعظَّمًا في قريش لعلمه، وإحسانه، وعقله، فلما تبيَّن له حاله، علم علمًا ضروريًّا أنه نبي صادق، وكان أكمل أهل الأرض يقينًا وعلمًا وحالًا[(١)].

ثالثًا: من كذب محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ عجز عن تصديق غيره[(٢)]:

وذلك أنكم إذا كذبتم محمدًا، لم يبقَ لكم طريق تعلمون به صِدْق غيره من الأنبياء، فيمتنع مع تكذيبه القول بصدق غيره، بل مَن اعتقد كذبه وصدق غيره، لم يكن عالمًا بصدق غيره، بل يكون مصدقًا لهم بغير علمٍ، وإذا لم يكن عالمًا بصدقهم، لم يجز احتجاجه قط بأقوالهم، بل ذلك قولٌ منه بلا علمٍ ومحاجةٍ

---

(١) (٦/ ٥٠٣).

(٢) هذا أصلٌ عامٌّ في باب الدلائل، وحجة باهرة على مَن يصدق بنبوة أحد الأنبياء، ويكذب بنبوة محمد ﷺ، جماعها: أنه ما من دليلٍ أو طريقٍ يستدل به على نبوة وصدق مَن يصدقه إلا وهو في حق نبينا أَوْلَى وأوضح، والتكذيب به في حق نبيِّنا يلزم منه من باب الأَوْلَى التكذيب به في حق غيره، وإلا لزم التناقض أو التحكم المحض.

قال السموأل بن يحيى المغربي في «غاية المقصود» (٤٠): «لا يسع عاقلًا أن يكذب نبيًّا ذا دعوة شائعة، وكلمة قائمة، ويصدق غيره؛ لأنه لم يرَ أحدهما، ولا شاهد معجزاته، فإذا خصص أحدهما بالتصديق، والآخر بالتكذيب، فقد تعيَّن عليه الملام، والإزراء عقلًا.

ولنضرب لذلك مثالًا: وهو أنَّا إذا سألنا يهوديًّا عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهل رآه وعاين معجزاته؟ فهو بالضرورة يقر بأنه لم يشاهد شيئًا من ذلك عيانًا.

فنقول له: بماذا عرفت نبوة موسى وصدقه؟

فإن قال: إن التواتر قد حقق ذلك، وشهادات الأمم بصحته دليل ثابت فى العقل، كما قد ثبت عقلًا وجود بلاد وأنهار لم نشاهدها، وإنما تحققنا وجودها بتواتر الأنباء والأخبار.

قلنا: إن هذا التواتر موجود لمحمد وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كما هو موجود لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيلزمك التصديق بهما».اهـ.

فيما لا علم له بها.

فإن الدلائل الدالة على صدق مُحمَّدٍ ﷺ أعظم وأكثر من الدلائل الدالَّة على صدق موسى وعيسى، ومعجزاته أعظم من معجزات غيره، والكتاب الذي أرسل به أشرف من الكتاب الذي بعث به غيره، والشريعة التي جاء بها أكمل من شريعة موسى وعيسى عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، وأُمَّته أكمل في جميع الفضائل من أُمَّة هذا وهذا، ولا يوجد في التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلا وهو في القرآن، أو مثله، أو منه، وفي القرآن من العلم النافع والعمل الصالح ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل، فما من مطعنٍ من مطاعن أعداء الأنبياء يطعن به على محمد ﷺ إلا ويمكن توجيه ذلك الطعن وأعظم منه على موسى وعيسى...

فيمتنع الإقرار بنبوة موسى وعيسى عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ مع التكذيب بنُبوَّة محمدٍ ﷺ، ولا يفعل ذلك إلا مَن هو من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عنادًا واتباعًا لهواه، وذلك أن هؤلاء القوم احتجوا بما نَقَلوه عن الأنبياء، ولم يذكروا الأدلَّة الدالَّة على صدقهم، بل أخذوا ذلك مسلمًا، وطلبوا أن يحتجُّوا بما نقلوه عن الأنبياء قبله، وبما نقلوه عنه على صحة دينهم، وهذه حجة داحضة؛ سواء صدَّقوه أو كذَّبوه، فإن صدقوه بطل دينهم، وإن كذبوه بطل دينهم، فإنهم إن صدقوه فقد علم أنه دعاهم وجميع أهل الأرض إلى الإيمان به وطاعته كما دعا المسيح وموسى وغيرهما من الرسل، وأنه أبطل ما هُمْ عليه من الاتحاد وغيره، وكفرهم في غير موضعٍ[(١)].

---

(١) (٢/ ٥).

وإنْ كذَّبوا محمدًا تكذيبًا عامًّا مطلقًا، وقالوا: ليس هو نبي أصلًا، ولا أرسل إلى أحدٍ؛ لا إلى العرب، ولا إلى غيرهم، بل كان كذابًا، امتنع مع هذا أن يُصَدِّقوا بنُبوَّة غيره، فإن الطريق الذي يعلم به نُبوَّة موسى وعيسى يعلم به نُبوَّة محمد ﷺ بطريق الأَوْلَى.

فإذا قالوا: علمت نُبوَّة موسى والمسيح بالمعجزات، وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا. قيل لهم: معجزات مُحمَّدٍ ﷺ أعظم، وتواترها أبلغ، والكتاب الذي جاء به محمد ﷺ أكمل، وأمته أفضل، وشرائع دينه أحسن، وموسى جاء بالعدل، وعيسى جاء بتكميلها بالفضل، وهو ﷺ قد جمع في شريعته بين العدل والفضل.

فإن ساغ لقائلٍ أن يقول: هو مع هذا كاذب مفتر، كان على هذا التقدير الباطل غيره أَوْلَى أن يقال فيه ذلك، فيبطل بتكذيبهم محمدًا ﷺ جميع ما معهم من النبوات؛ إذ حكم أحد الشيئين حكم مثله، فكيف بما هو أَوْلَى منه؟

فلو قال قائلٌ: إن هارون ويوشع وداود وسليمان كانوا أنبياء، وموسى لم يكن نبيًّا، أو أن داود وسليمان ويوشع كانوا أنبياء، والمسيح لم يكن نبيًّا، أو قال ما تقوله السامرة: إن يوشع كان نبيًّا، ومن بعده كداود وسليمان والمسيح، لم يكونوا أنبياء. أو قال ما يقوله اليهود: إن داود وسليمان وأشعيا وحبقوق ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء، والمسيح ابن مريم لم يكن نبيًّا، كان هذا قولًا متناقضًا معلوم البطلان، فإنَّ الذين نفى هؤلاء عنهم النبوة أحق بالنبوة، وأكمل نبوةً ممن أثبتوها له، ودلائل نُبوَّة الأكمل أفضل، فكيف يجوز إثبات النُّبوة

للنبي المفضول دون الفاضل، وصار هذا كما لو قال قائلٌ: إنَّ زفر وابن القاسم والمزني والأثرم كانوا فقهاء، وأبا حنيفة ومالكًا والشافعي وأحمد لم يكونوا فقهاء، أو قال: إن الأخفش وابن الأنباري والمبرد كانوا نحاةً، والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاةً، أو قال: إن صاحب الملكي والمسبحي ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء، وبقراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطباء، أو قال: إن كوشيار والخرقي ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة، وبطليموس ونحوه لم يكن لهم علم بالهيئة.

ومن قال: إن داود وسليمان ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء، ومحمد بن عبد الله لم يكن نبيًّا، فتناقضه أظهر، وفساد قوله أبين من هذا جميعه، بل وكذلك من قال: إنَّ موسى وعيسى رسولان، والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله، ومحمد ليس برسولٍ، والقرآن لم ينزل من الله، فبطلان قوله في غاية الظهور والبيان لمَن تدبَّر ما جاء به محمد ﷺ، وما جاء به مَن قبله، وتدبَّر كتابه، والكتب التي قبله، وآيات نبوته وآيات نبوة هؤلاء وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء...

وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليلٍ واحدٍ يدل على صدق من احتجوا به من الأنبياء، فلو ناظرهم من يكذب بهؤلاء الأنبياء كلهم من المشركين والملاحدة، لم يكن فيما ذكروه حجة لهم، ولا حجة لهم أيضا على المسلمين الذين يقرون بنبوة هؤلاء، فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بإخبار محمدٍ أنهم أنبياء، فيمتنع أن يصدقوا بالفرع مع القدح في الأصل الذي به علموا صدقهم.

وأيضًا فالطريق الذي به علمت نبوة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم

وأخبارهم، فكذلك تعلم نُبوَّة مُحمَّد بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق الأَوْلَى، فيمتنع أن يصدق أحد من المسلمين بنبوة واحدٍ من هؤلاء مع تكذيبه لمُحمَّدٍ في كلمةٍ مما جاء به[(١)].

ونحن نذكر هنا أنه لا يجوز استدلالهم بقول أحدٍ من الأنبياء أو الرسل على صحة دينهم.

وأيضًا فإنَّ الذين احتجُّوا بقولهم مثل موسى وداود والمسيح وغيرهم إما أن يكونوا عرفوا أنهم أنبياء بدليلٍ على نبوتهم؛ كالاستدلال بآياتهم وبراهينهم التي تسمى بالمعجزات، وإما أن يكونوا قد اعتقدوا ذلك بلا علمٍ، ولا دليلٍ، وإما أن يكونوا احتجوا بذلك على المسلمين؛ لأنهم يسلمون نبوة هؤلاء، وعلى كل تقدير لا يصحُّ استدلالهم بقولهم.

أمَّا على الأول، فلأنه أي طريقٍ ثبتت بها نبوة واحدٍ من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، فإنه تثبت نُبوَّة محمدٍ ﷺ بمثلها، وأعظم منها، وحينئذٍ، فإن لم يُقرُّوا بنُبوَّة محمدٍ ﷺ مع أن كل دليلٍ يدل على نبوة موسى وداود وعيسى وغيرهم يدل على نبوة محمد ﷺ، لزم أن يكونوا قد نقضوا دليلهم، فجعلوه قائمًا مع انتفاء مدلوله.

وإذا انتقض الدليل بطلت دلالته، فإنه إنَّما يدل إذا كان مستلزمًا للمدلول، فإذا كان تارةً يوجد مع المدلول، وتارةً لا يوجد، لم يكن مستلزمًا له، فلا يكون دليلًا؛ فإنَّ من جعل المعجزات دليلًا على نبوة نبيٍّ، وقال: المعجزة هي الفعل الخارق

---

(١) (٢/ ٢٢).

للعادة المقرون بالتحدي، السالم من المعارضة، ونحو ذلك مما يذكر في هذا المقام، وجعلوا ذلك دليلًا على نُبوَّة موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء.

قيل له: إن كان هذا دليلًا، فهو دليل على نبوة محمد ﷺ، وإن لم يكن دليلًا، لم يكن دليلًا على نبوة موسى وعيسى، فإنه قد ثبت عن محمدٍ من المعجزات ما لم يثبت مثله عن غيره، ونقل معجزاته متواتر أعظم من نقل معجزات عيسى وغيره، فيمتنع التَّصديق بآياته مع التكذيب بآيات مُحمَّدٍ ﷺ.

وإن قالوا: معجزات مُحمَّدٍ ﷺ لم تتواتر عندنا. قيل: ليس من شرط التواتر أن يتواتر عند طائفةٍ معينةٍ، بل هذا كما يقول المشركون والمجوس وغيرهم: لم يتواتر عندنا معجزات موسى والمسيح عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وإنما تتواتر أخبار كلِّ إنسانٍ عند مَن رأى المشاهدين له، أو رأى مَن رآهم، وهَلُمَّ جرًّا.

ومعلومٌ أن أصحاب مُحمَّدٍ ﷺ الذين رأوه ونقلوا معجزاته أضعاف أصحاب المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، والتابعون الذين نقلوا ذلك عن الصحابة كذلك، فيَلْزم من التصديق بمعجزات المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ التصديق بمعجزات مُحمَّدٍ ﷺ، ومن التكذيب بمعجزات مُحمَّدٍ، التكذيب بمعجزات المسيح.

وإن قالوا: عرفت نُبوَّة المسيح ببشارات الأنبياء قبله، قيل: وفي الكتب المتقدمة من البشارات بمُحمَّدٍ ﷺ مثل ما فيها من البشارات بالمسيح وأكثر... وإن تأوَّلوا تلك البشارات بمُحمَّدٍ ﷺ بما يمنع دلالتها، قيل لهم: واليهود يتأولون بشارات المسيح بما يمنع دلالتها على المسيح. فإذا قالوا: تلك التأويلات باطلةٌ من وجوهٍ معروفةٍ، بين لهم أنَّ هذه باطلةٌ أيضًا بمثل تلك الوجوه وأقوى، فما من

جِنْسٍ من الأدلة يدلُّ على نُبوَّة موسى والمسيح إلا ودلالته على نُبوَّة مُحمَّدٍ ﷺ أقوى وأكثر، فيلزم من ثبوت نُبوَّة موسى والمسيح ثبوت نُبوَّة محمد ﷺ، ومن الطعن في نُبوة محمدٍ ﷺ الطعن في نبوة موسى والمسيح.

وإن قالوا: إنَّ المسيح إلهٌ. قيل لهم: ثبوت كونه إلهًا لو كان ممكنًا أبعد من ثبوت كونه رسولًا، فكيف إذا كان ممتنعًا؟ وذلك أنه ليس معهم ما يدلُّ على إلهيته إلا ما ينقلونه من أقوال الأنبياء أو الخوارق، والخوارق لا تدلُّ على الإلهية، فإن الأنبياء ما زالوا يأتون بالآيات الخارقة للعادة، ولم تدل على إلهية أحدٍ منهم.

وأمَّا أقوال الأنبياء عليهم السلام، فلا ريب أنَّ دلالتها على رسالته ورسالة مُحمَّدٍ ﷺ أظهر من دلالتها على إلهيَّة المسيح، فيمتنع الاحتجاج بها على إلهيَّة المسيح دون رسالة مُحمَّدٍ ﷺ، ورسالة المسيح، ومتى ثبت أنَّ محمدًا رسول الله ﷺ، بطلت إلهيَّة المسيح، فإنه كفر من قال: إنه الله، أو ابن الله، بل وكذلك متى ثبت أن المسيح رسول الله، بطل كونه إلهًا، فإن كونه هو الله مع كونه رسول الله متناقضٌ[1].

---

(١) (٢/ ٤٣).

الفصل الثاني

دلائل نبوة محمد ﷺ

المبحث الأول: المعجزات الحسية له ﷺ ولأمته

إجمال معجزاته الحسية ﷺ:

معجزاته ﷺ تزيد على ألف معجزةٍ، مثل انشقاق القمر وغيره من الآيات، ومثل القرآن المعجز، ومثل أخبار أهل الكتاب قبله، وبشارة الأنبياء به، ومثل أخبار الكهان والهواتف به، ومثل قصة الفيل التي جعلها الله آيةً عام مولده، وما جرى عام مولده من العجائب الدالة على نبوته، ومثل امتلاء السماء ورميها بالشهب التي ترجم بها الشياطين بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه، وبعد مبعثه.

المقصود هنا: التنبيه بأن محمدًا ﷺ له معجزات كثيرة، مثل نبع الماء من بين أصابعه غير مرةٍ، ومثل تكثير الطعام القليل حتى أكل منه الخَلق العظيم، وتكثير الماء القليل حتى شرب منه الخَلق الكثير، وهذا ما جرى غير مرةٍ له ولأمته من الآيات ما يطول وَصْفه، فكان بعض أتباعه يُحْيي الله له الموتى من الناس والدواب، وبعض أتباعه يمشي بالعسكر الكثير على البحر حتى يعبروا إلى الناحية الأخرى، ومنهم مَنْ أُلْقي في النار، فصارت عليه بردًا وسلامًا، وأمثال ذلك كثير(١).

---

(١) (١/٣٩٩).

ذكر تفصيل وأنواع المعجزات الحسية:

وآياته ﷺ المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير أنواع:

النوع الأوَّل: ما هو في العالم العلوي:

كانشقاق القمر، وحراسة السماء بالشُّهب الحراسة التامة لما بعث... وكذلك صعوده ليلة المعراج إلى ما فوق السماوات، وهذا ممَّا تواترت به الأحاديثُ، وأخبر به القرآن، أخبر بمَسْراه ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس، وفي موضعٍ آخر بصعوده إلى السماوات، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، فأخبر هنا بمَسْراه ليلًا بين المسجدين، وأخبر أنه فعل ذلك ليريه من آياته.

ومعلومٌ أن الأرض قد رأى سائر الناس ما فيها من الآيات، فعلم أنَّ ذلك ليريه آيات لم يرها عموم الناس، كما قال في السورة الأخرى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٢-١٨].

وفي (الصحيحين)(١): «عن ابن عباسٍ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال: هي رؤيا عينٍ أريها النبي ﷺ ليلة أُسْري به»... فكان في إخباره بالمسرى -لنريه من آياتنا- بيان أنه رأى من آياته ما لم يره الناس.

---

(١) البخاري (٣٨٨٨)، ولم أقف عليه في صحيح مسلم، ولم يعزه له المزي في التحفة (٥/ ١٥٥).

وقد بين ذلك في السورة الأخرى، فإنه رأى جبريل عند سدرة المنتهى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٥، ١٦]، وأنه رأى بالبصر آيات ربه الكبرى، وذكر في تلك السورة المسرى؛ لأنَّه أمكنه أن يقيم عليه برهانًا، فإنه لما أخبرهم به، فكذبه من كذبه، وتعجبوا من ذلك، سألوه عن نعته وصفته، فنعته لهم، لم يخرم من النعت شيئًا، وأخبر خبر عيرهم التي كانت في الطريق، فظهر لهم صدقه، وكان صدقه في هذا آيةً على صدقه فيما غاب عنهم، وكان قطع المسافة البعيدة في الزمان اليسير لأجل ما أراه من الآيات التي تختصُّ برؤيتها الأنبياء.

وأحاديث المعراج وصعوده إلى ما فوق السماوات، وفرض الرَّب عليه الصلوات الخمس حينئذٍ، ورؤيته لما رآه من الآيات، والجنة والنار، والملائكة والأنبياء، في السماوات والبيت المعمور، وسدرة المنتهى، وغير ذلك، معروف متواتر في الأحاديث(١).

استطراد عن آية انشقاق القمر:

فإنَّ المشركين لما سألوا النبي ﷺ آيةً، واقترحوا عليه انشقاق القمر، فأراهم ذلك، وقد أخبر الله تعالى بذلك في القرآن، فقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ

---

(١) (٦/ ١٥٩).

نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ١ - ٧].

ثم ذكر تعالى ما جرى قبله للمكذبين، فذكر قصة قوم نوح وهود وصالح ولوط ثم فرعون، وهذه السورة كان النبي ﷺ يقرأ بها في أعظم اجتماعات الناس عنده، وهي الأعياد، والناس كلهم يسمعون ما يذكره من انشقاق القمر، وقول المكذبين أنه سحر، والناس كلهم المؤمن به والمنافق والكافر يقرُّون على هذا، لم يقل أحدٌ منهم أن القمر لم ينشق، ولا أنكره أحدٌ.

وفي (صحيح مسلم) أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل أبا واقدٍ الليثي ما يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر، فقال: كان يقرأ فيهما بـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، ومعلوم بالضرورة في مطرد العادة أنه لو لم يكن انشقَّ، لأسرع الناس المؤمنون به إلى تكذيب ذلك فضلًا عن أعدائه من الكفار والمنافقين، لا سيما وهو يقرأ عليهم ذلك في أعظم مجامعهم.

وأيضًا، فمعلومٌ أن محمدًا ﷺ كان من أحرص الخَلْق على تصديق الناس له، واتباعهم إياه، مع أنه كان أخبر الناس بسياسة الخلق، فلو لم يكن القمر انشق، لَمَا كان يخبر بهذا، ويقرؤه على جميع الخلق، ويستدل به، ويجعله آيةً له، فإن مَنْ يكون من أقل الناس خبرةً بالسياسة لا يتعمَّد إلى ما يعلم جميع الناس أنه كاذبٌ به، فيجعله من أعظم آياته الدالة على صدقه، ويقرؤه على الناس في أعظم المجاميع[1].

النوع الثاني: آيات الجوِّ:

كاستسقائه ﷺ، واستصحائه، وطاعة السَّحاب له، ونزول المطر بدعائه ﷺ،

---

(١) (١/ ٤١٨).

ففي (الصحيحين)(١): عن أنس بن مالكٍ أن رجلًا دخل المسجد في يوم جمعةٍ من بابٍ كان نحو دار القضاء، ورسول الله ﷺ قائمًا يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا، ثم قال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا. قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثم قال: «**اللهمَّ أغثنا، اللهمَّ أغثنا، اللهمَّ أغثنا**».

قال أنس: فلا والله، ما نرى في السماء من سحابٍ، ولا من قَزَعةٍ، وأن السماء لمثل الزجاجة، وما بيننا وبين سَلْع من دارٍ، فوالذي نفسي بيده ما وضع يديه حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر عن لحيته.

وفي روايةٍ أخرى: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء، انتشرت ثم أمطرت، قال: فلا والله، ما رأينا الشمس سبتًا، قال: ثم دخل رجلٌ من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله ﷺ قائمًا يخطب، فاستقبله قائمًا، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنَّا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثم قال: «**اللهمَّ حَوَالينا ولا علينا، اللهمَّ على الآكام، والظِّراب، وبطون الأودية، ومنابت الشجر**».

قال: فما يشير بيده إلى ناحيةٍ إلا تفرجت حتى رأيت المدينة في مثل الجوبة، وسال الوادي قناةَ شهرًا، ولم يجئ أحد من ناحيةٍ إلا أخبر بجودٍ.

ومن هذا الباب: نصر الله بالريح التي قال الله فيها: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٩].

---

(١) البخاري (١٠١٣)، ومسلم (٨٩٧).

قال مجاهدٌ: يعني: ريح الصبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى كفأت قُدُورهم على أفواهها، ونزعت فساطيطهم، ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾: يعني الملائكة. وفي المغازي والسير قصة الأحزاب، وكيف أرسلت عليهم الريح والملائكة، وانهزموا بغير قتالٍ معروف.

النوع الثالث: تصرُّفه في الحيوان:

من الإنس، والجن، والبهائم، فروي عن عبد الله بن جعفرٍ قال: «أردفني رسول الله ﷺ ذات يومٍ، فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس، قال: وكان أحب ما استتر به هدف أو حائش نخل، فدخل حائط رجلٍ من الأنصار، فإذا جملٌ، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ، فمسح رأسه وذفراه فسكن، قال: (**لمَن هذا الجمل؟**)، فجاء فتى من الأنصار، فقال: هو لي يا رسول الله، فقال له رسول الله ﷺ: (**ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها؟ فإنه شكا إليَّ أنك تُجيعُهُ، وتُدْئبه**)».

روى مسلم بعضه(١)، وبعضه على شرطه، ورواه أبو داود وغيره(٢). وفي (الصحيحين) عن أنسٍ قال: «كان بالمدينة فزعٌ، فاستعار النبي ﷺ فرسًا لأبي طلحة، وكان يقطف، فلما رجع قال: «وجدنا فَرسكم هذا بحرًا، وكان بعد ذلك لا يجارى».

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٣٤٢) عن عبد الله بن جعفر، قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يومٍ خلفه، فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس «وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته، هدف أو حائش نخل».

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٢٥٤٩)، وأحمد في المسند (١٧٤٥).

وفي (الصحيحين)، عن سلمة بن الأكوع، وسهل بن سعد، «عن النبي ﷺ في غزوة خيبر أنه أرسل إلى عليٍّ وهو أرمد العين، فقال: (**لأعطينَّ الراية رجلًا يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه**)، فبصق في عينيه، فبَرأ كأن لم يكن به وجعٌ قط، وأعطاه الراية، فقال عليٌّ: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: (**انفذ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأَخْبرهم بما يَجب عَلَيهم من حقِّ الله تعالى فيه، فوالله لأَنْ يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النعم**)»...

وفي (صحيح البخاري)[1]، عن البَراء بن عازب قال: «بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافعٍ اليهودي رجالًا من الأنصار، وأمَّر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافعٍ يؤذي رسول الله ﷺ، ويعين عليه، وكان في حصنٍ له بأرض الحجاز، فلما دَنوا منه، وقد غربت الشمس، وراح الناس، قال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلقٌ ومتلطفٌ للبواب لعلِّي أدخل.

قال: وأقبل حتى دنا من الباب، وذكر قصة قتله إلى أن قال: ثم وضعت السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعلمت أنَّني قد قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابًا فبابًا حتى انتهيت إلى درجةٍ، فوضعت رجلي وأنا أرى أنِّي قد انتهيت إلى الأرض، فَوقعتُ في ليلةٍ مقمرةٍ، فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامتي، ثم انطلقت حتى جلست عند الباب، فقلت: لا أبرح حتى أعلم أقتلته أم لا، فلمَّا صاح الديك قام الناعي على السور، فقال: أنعي أبا رافع.

---

(١) صحيح البخاري (٤٠٣٩).

قال: فانطلقتُ إلى أصحابي، فقلت: النجاة النجاة، قد قتل الله أبا رافع. قال: فانتهينا إلى النبي ﷺ، وحدثناه، فقال: (ابسط رجلك)، فبسطها فمسحها، فكأنَّما لم أشتكها قط».

وفي البخاريِّ[(١)]: «عن يزيد بن أبي عبيد قال: رأيت في ساق سلمة بن الأكوع أثر ضربةٍ، فقلت: يا أبا مسلم، ما هذه الضربة؟ قال: هذه ضربةٌ أصابتني يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة. قال: فأتيتُ رسولَ الله ﷺ، فنفث فيه ثلاث نفثاتٍ، فما اشتكيت منها حتى الساعة»...

وفي الترمذي[(٢)]، وغيره[(٣)]: «عن عثمان بن حنيف أن رجلًا ضريرًا أتى رسول الله ﷺ، فقال: ادع الله تعالى أن يعافيني. قال: (إن شئتَ صبرتَ، فهو خيرٌ لك، وإن شئتَ دعوتُ الله). قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ، فيحسن الوضوء، فيصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: (اللَّهمَّ إنِّي أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إنِّي أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضيها لي، اللهم فشفِّعه فيّ)».

وفي روايةٍ قال: يا رسول الله، ليس لي قائد، وقد شق عليَّ. وذكر الحديث. فقال عثمان: والله ما تفرقنا، ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضرٌّ قط. قال الترمذي: حديث صحيح.

---

(١) صحيح البخاري (٤٢٠٦).

(٢) جامع الترمذي (٣٥٧٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٣٨٥)، وأحمد في المسند (١٧٢٤٠).

النَّوع الرابع: آثاره في الأشجار والخشب:

ففي (الصحيحين)(١) عن جابر بن عبد الله قال: «كان المسجد مسقوفًا على جذوع النخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذعٍ منها، فلما صنع المنبر، فكان عليه، سمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار حتى جاء النبي ﷺ، فوضع يده عليها، فسكنت. وفي روايةٍ: فصاحت النخلة صياح الصبي».

وفي (صحيح مسلم)(٢) من حديث جابر قال: «سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا واديًا أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتبعته بإداوةٍ من ماءٍ، فنظر رسول الله ﷺ، فلم ير شيئًا يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصنين من أغصانها، فقال: انقادي عليَّ بإذن الله، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصنٍ من أغصانها، فقال: انقادي عليَّ بإذن الله، فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصف فيما بينهما، فلأَمَ بينهما حتى جمع بينهما، فقال: الْتَئِما عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ تَعالَى، فالتأمتا عليه، فخرجتُ أحضرُ مخافةَ أن يحس رسول الله ﷺ بقربي فيتباعد، فجلست أُحدِّث نفسي، فحانت مني لفتةٌ، فإذا برسول الله ﷺ مقبلًا، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدةٍ منهما على ساقٍ»، وذكر الحديث...

النوع الخامس: الماء والطعام والثمار الذي كان يكثر ببركته فوق العادة:

وهذا باب واسع نذكر منه ما تيسَّر:

---

(١) صحيح البخاري (٩١٨)، ولم أقف عليه في صحيح مسلم، ولم يعزه له المزي في التحفة (٢٢٣٢).
(٢) صحيح مسلم (٣٠١٢).

أما الماء: ففي (الصحيحين)[١] عن أنسٍ «أنَّ النبيَّ ﷺ دعا بماءٍ، فأُتِيَ بقدحٍ رحراحٍ، فجعل القوم يتوضئون، قال: فحزرت ما بين السبعين إلى الثمانين».

وفي رِوَايةٍ عنه: أن النبي ﷺ «خرج في بعض مخارجه ومعه أناسٌ من أصحابه، فانطلقوا يسيرون، فحضرت الصلاة، فلم يجدوا ما يتوضئون به، فانطلق رجلٌ من القوم، فجاء بقدح فيه ماءٌ يسيرٌ، فأخذه النبيُّ ﷺ، فتوضأ ثم مد أصابعه الأربع على القدح، ثم قال: (**قُومُوا فَتوضَّئوا**)، وكانوا سبعين أو نحوه»... وفي (الصحيحين)[٢] عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء، فلم يجدوه، فأُتِيَ رسول الله ﷺ بوضوءٍ، فوضع في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضئوا منه، قال: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه حتى توضئوا من عند آخرهم».

وفي (الصحيحين)[٣] عن جابرٍ قال: «قد رأيتني مع رسول الله ﷺ، وقد حضرت صلاة العصر، وليس معنا ماءٌ غير فضلةٍ، فجعل في إناءٍ، فأتى النبي ﷺ فأدخل يده فيه، وفرج أصابعه، وقال: حيَّ على الوضوء، والبَركةُ من الله، فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه، فتوضأ الناس وشربوا، فجعلت لا آلو ما جعلت في بطني منه، فعلمت أنه بركةٌ، قلت: لجابرٍ: كم كنتم يومئذٍ؟ قال: ألفًا وأربعمائة».

---

(١) صحيح البخاري (٢٠٠)، وصحيح مسلم (٢٧٧٩).

(٢) صحيح البخاري (١٦٩)، وصحيح مسلم (٢٧٧٩).

(٣) صحيح البخاري (٥٦٣٩)، وصحيح مسلم (١٨٥٦)، وليس في مسلمٍ ذكر تفجر الماء.

وفي البخاري[١]، عن البراء بن عازب قال: «تعدُّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنَّا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها، فلم نترك فيها قطرةً، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناءٍ من ماءٍ فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبَّه فيها، فتركناها غير بعيدٍ، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن ورِكَابنا، وكنا ألفًا وأربعمائة، أو أكثر من ذلك».

وفي (صحيح مسلم)[٢]، عن سلمة بن الأكوع قال: «قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ، ونحن أربع عشرة مائة، أو أكثر من ذلك، وعليها خمسون شاةً لا ترويها، فقعد رسول الله ﷺ على جَبا الرَّكيَّة، فإمَّا دعا، وإمَّا بصق فيها، قال: فجاشت فسقينا واستقينا»...

وفي (الصحيحين)[٣]، عن عمران بن حصين، قال: «كنت مع النبي ﷺ في مسيرٍ له، فأدلجنا ليلتنا حتى إذا كان وجه الصبح عرَّسنا، فغلبتنا أعيننا حتى بزغت الشمس، فكان أول من استيقظ منَّا أبو بكر الصديق، وكنا لا نوقظ رسول الله ﷺ من منامه حتى يكون هو الذي يستيقظ؛ لأنَّا لا ندري ماذا يحدث له في نومه، ثم استيقظ عمر، فجعل يُكبِّر حتى استيقظ رسول الله ﷺ، فلمَّا رفع رأسه ورأى الشمس قد بزغت، قال: (ارتحلوا)، فسار بنا حتى إذا ابيضَّت الشمس، نزل

---

(١) صحيح البخاري (٤١٥٠).

(٢) صحيح مسلم (١٨٠٧).

(٣) صحيح البخاري (٣٤٤)، وصحيح مسلم (٦٨٢).

فصلى بنا الغداة، فاعتزل رجلٌ من القوم لم يُصلِّ معنا.

فلمَّا انصرف قال له رسول الله ﷺ: (**يا فلان، ما منعك أن تصلِّي معنا؟**). قال: أصابتني جنابةٌ ولا ماء. فقال له: (**عليك بالصَّعيد، فإنه يكفيك**)، فتيمم بالصعيد فصلى، ثم عجلني في ركبٍ بين يديه يطلب الماء، وقد عطشنا عطشًا شديدًا، فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأةٍ سادلةٍ رجليها بين مزادتين، فقلنا لها: أين الماء؟ فقالت: إيهاه إيهاه، لا ماء لكم.

فقلت: كم بين أهلك وبين الماء؟ قالت: مسيرة يومٍ وليلةٍ. قلنا: انطلقي إلى رسول الله ﷺ. قالت: وما رسول الله؟ فلم نملكها من أمرها شيئًا حتى انطلقنا بها، واستقبلنا بها رسول الله ﷺ فسألها، فأخبرته مثل الذي أخبرتنا، وأخبرته أنها موتمةٌ لها صبيان أيتامٌ، فأمَر براويتها فأُنيخَت، فمجَّ في العزلاوين العلياوين، ثم بعث براويتها فشربنا ونحن أربعون رجلًا عِطاشًا حتى روينا، وملأنا كل راويةٍ، وملأنا كل قِرْبةٍ معنا وإداوةٍ، وغسّلنا صاحبنا غير أنَّا لم نسق بعيرًا، وهي تكاد تتضرج من الماء -يعني: المزادتين- ثم قال: هاتوا ما كان عندكم، فجمعنا لها من كسرٍ، وتمرٍ، وصرَّ لها صُرةً، فقال لها: اذهبي، فأطعمي هذا عيالك، واعلمي أنَّا لم نرزأ من مائك شيئًا، فلمَّا أتت أهلها قالت: لقد لقيت أَسْحرَ البشر، أو إنه لنبيٌّ كما زعم، كان من أمره ذيت وذيت، فهدى الله ﷻ ذلك القوم بتلك المرأة، فأسلمت وأسلموا».

وفي (الصحيحين)(١)، عن أبي قتادة قال: «خطبنا رسول الله ﷺ، فقال:

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٤)، وصحيح مسلم (٦٨١)، واللفظ له.

(إنكم تسيرون عشيَّتكم وليلتكم، وتأتون الماء غدًا -إن شاء الله-)، فانطلق الناس لا يلوي أحدٌ على أحدٍ، وذكر حديث النوم في الوادي، فقال: ثم دعا بميضأةٍ كانت معي فيها شيء من ماءٍ، فتوضأ منها وضوءًا دون وضوءٍ، وبقي فيها شيءٌ من ماءٍ، ثم قال لأبي قتادة: احفظ علينا ميضأتك، فسيكون لها نبأٌ، ثم قال: أصبح الناس فقدوا نبيَّهم، فقال أبو بكرٍ وعمر: إن رسول الله ﷺ يَعِدُكم لم يكن ليُخْلفكم.

وقال الناس: إنَّ رسول الله ﷺ بين أيديكم، فَإنْ تطيعوا أبا بكرٍ وعمر ترشدوا. قال: فانتهينا إلى الناس حين امتدَّ النهار، وحمي كل شيءٍ، وهم يقولون: يا رسول الله، هلكنا عطشًا. فقال: **(لَا هلك عليكم)**، ثم قال: **(أطلقوا لي غُمَري)**.

قال: ودعا بالميضأة، فجعل رسول الله ﷺ يصبُّ، وأبو قتادة يسقيهم، فلم يعد أن رأى الناس ماءً في الميضأة، تكابُّوا عليها، فقال رسول الله ﷺ: **(أحسنوا الملأ، كلكم سيروى)**. قال: ففعلوا، فجعل رسول الله ﷺ يصبُّ وأسقيهم حتى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ، ثم صبَّ، فقال لي: اشرب، فقلت: لا أشرب حتى يشرب رسول الله. قال: **(إنَّ ساقي القوم آخرهم شربًا)**، فشربت وشرب رسول الله ﷺ، قال: فأتى الناس الماء جامين رواءً».

قال عبد الله بن رباح: إنِّي لأُحدِّث بهذا الحديث في مسجد الجامع، إذ قال لي عمران بن حصين: انظر كيف تحدث، فأنا أحد الرَّكب تلك الليلة. فقلت: أنت أعلم. فقال: ممَّن أنت؟ قلت: من الأنصار. قال: أنتم أعلم بحديثكم. قال

عمران: لقد شهدت تلك الليلة، وما شعرت أن أحدًا حفظه كما حفظته.

وأما تكثير الطعام: ففي (الصحيحين)[(١)]: «عن جابرٍ قال: لما حفر الخندق، رأيتُ رسول الله ﷺ خمصًا، فانكفأت إلى امرأتي، فقلت لها: هل عندك شيءٌ؟ فإنِّي رأيت برسول الله ﷺ خمصًا شديدًا، فأخرجت لي جرابًا فيه صاعٌ من شعيرٍ، ولنا بهيمة داجن، قال: فذبحت وطحنت، ففرغت إليَّ فراغي، فقطعتها في بُرْمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ ومَنْ معه.

قال: فجئت فساررته، فقلت: يا رسول الله، إنا ذبحنا بهيمةً لنا، وطحنت صاعًا من شعيرٍ عندنا، فتعال أنت ونفرٌ معك، فصاح رسول الله ﷺ، وقال: (**يا أهل الخندق، إن جابرًا قد صنع لكم سورًا، فحيَّ هَلًا بكم**). وقال رسول الله ﷺ: (**لا تُنْزِلُن بُرْمتكم، ولا تَخبزُن عجينكم حتى أجيء**)، فجئت، وجاء رسولُ الله ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتي، فقالت: بك وبك.

قال: قد فعلت الذي قلت لي، فأخرجت له عجينًا، فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى بُرْمتنا، فبصق فيها، وبارك، ثم قال: (**ادع لي خابزةً، فلتخبز معي، واقدحي من بُرْمتكم ولا تُنْزلوها**)، وهم ألف، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه، وانحرفوا، وإن بُرْمتنا لتغطُّ كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو».

وفي روايةٍ: «قال جابر: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كُدْيةٌ شديدةٌ، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: هذه كُدْيةٌ عرضت. فقال: (**أنا نازلٌ**)، فقام وبطنه معصوبٌ بحجر، ولبثنا ثلاثًا لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المِعْول، فضرب فعاد

---

(١) صحيح البخاري (٤١٠٢)، وصحيح مسلم (٢٠٣٩).

كثيبًا أَهْيل، فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيتُ من رسول الله ﷺ شيئًا ما في ذلك صبرٌ.

قالت: عندي شعير، وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البُرْمة، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ، والعجين قد انكسر، والبُرْمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج. فقلت: طُعيِّم لي، فقم أنت يا رسول الله، ورجل أو رجلان. قال: (**كَمْ هو؟**)، فذكرت له. قال: (**كثير طيِّب**). قال: (**قل لها: لا تنزع البُرْمة، ولا الخبز من التنُّور حتى آتي**). قال: (**قوموا**)، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك! جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار، ومَن معهم إلى أن قال: فلم يزل يكسر ويغرف حتى شبعوا، وبقي بقيةٌ، قال: (**كُلْ هذا، وأَهْد، فإن الناس أصابتهم مجاعةٌ**)».

وفي (الصحيحين)(١): «عن أنس بن مالك، قال: قال أبو طلحة لأُمِّ سليم: قد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيءٍ؟ فقالت: نعم، فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخذت خمارًا لها، فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت ثوبي، وردتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ، قال: فذهبت به، فوجدته جالسًا في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال رسول الله ﷺ: (**أرسلك أبو طلحة؟**)، فقلت: نعم. فقال: (**بالطعام؟**)، فقلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمَنْ معه: (**قوموا**). قال: فانطلق، وانطلقت معهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم، قد جاء رسول

---

(١) صحيح البخاري (٣٥٧٨)، وصحيح مسلم (٢٠٤٠).

الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم. فقالت: الله ورسوله أعلم.

قال: فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ معه حتى دخل، فقال رسول الله ﷺ: (**هلمِّي يا أم سليم ما عندكِ**)، فأتت بذلك الخبز ففتَّ، وعصرت عليه أم سليم عكةً لها فأدمته، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول، ثم قال: (**ائذن لعشرةٍ**)، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: (**ائذن لعشرةٍ**)، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: (**ائذن لعشرةٍ**)، فأذن لهم حتى أكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون رجلًا أو ثمانون».

وفي (صحيح مسلم)، عن سلمة قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر، فأمرنا أن نجمع ما في أزوادنا -يعني: من التمر- فبسط نطعًا، فنثرنا عليه أزوادنا، قال: فتمطيت، وتطاولت فنظرت، فحزرته كربضة شاةٍ، ونحن أربع عشرة مائة، قال: فأكلنا ثم، تطاولت فنظرته فحزرته كربضة الشاة».

وفي (الصحيحين): عن أبي هريرة، وأبي سعيد، وسلمة بن الأكوع، واللفظ لمسلمٍ(١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في مسيرٍ، قال: فنفدت أزواد القوم حتى هموا بنحر بعض حمائلهم، قال: فقال عمر: يا رسول الله، لو جمعت ما بقي من أزواد القوم فدعوت الله عليها. قال: ففعل، فجاء ذو البُر ببُرِّه، وذو التمر بتمره، وذو النوى بنواه، قيل: وما كانوا يصنعون بالنوى؟ قال: يمصُّونه، ويشربون عليه الماء. قال: فدعا عليها حتى ملأ القوم أزوادهم، قال: فقال عند ذلك: (**أشهد أن لا إله إلا الله، وأنِّي رسول الله، لا يلقى الله بهما**

---

(١) صحيح مسلم (٢٧).

عبد غير شاكٍّ فيها إلا دخل الجنة)».

وروى البخاري[١] من حديث سلمة بن الأكوع قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوةٍ، فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فأمرنا نبي الله ﷺ، فجمعنا مزاودنا، فبسطنا له نطعًا، فاجتمع زاد القوم على النطع، قال: فتطاولت لأحزره كم هو، فحزرته كربضة العنز، ونحن أربع عشرة مائة، قال: فأكلنا حتى شبعنا جميعًا، ثم حشونا جربنا، فقال نبيُّ الله ﷺ: (هل من وَضوءٍ؟). قال: فجاء رجل بإداوةٍ فيها نطفة، فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلنا نُدَغْفقه دَغْفَقة أربع عشرة مائة، ثم جاء بعد ذلك ثمانية، فقالوا: هل من طهورٍ؟ فقال رسول الله ﷺ: (فرغ الوضوء)».

وفي (صحيح مسلم)[٢]، عن جابر «أن أُمَّ مالك كانت تهدي للنبي ﷺ في عكةٍ لها سمنًا، فيأتيها بَنُوها، فيسألون الأدم، وليس عندهم شيء، فتعمد إلى الذي كانت تهدي فيه للنبي ﷺ، فتجد فيها سمنًا، قال: فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته، فأتت النبي ﷺ فقال: (عصرتيها؟)، فقالت: نعم. قال: (لو تركتيها ما زال قائمًا)».

وفي (الصحيحين)[٣]: عن أنس بن مالكٍ قال: «تزوَّج النبي ﷺ زينب، فدخل بأهله، قال: فصنعت أُمِّي أم سليم حيسًا، فجعلته في تورٍ من حجارة،

---

(١) لم أقف عليه في البخاري، وعزاه المزي في التحفة (٤/ ٤٠) لمسلم، وهو في صحيح مسلم (١٧٢٩).

(٢) صحيح مسلم (٢٢٨٠).

(٣) صحيح البخاري (٥١٦٣)، وصحيح مسلم (١٤٢٨).

فقالت: يا أنس، اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ، فقل: بَعثتْ بهذا أمي إليك، وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله.

قال: فذهبتُ بها إلى رسول الله ﷺ، فقلتُ: إن أمي تقرئكَ السلام وتقول: إن هذا لك منَّا قليل. فقال: (ضَعْه)، ثم قال: **(اذهب فَادْعُ فلانًا وفلانًا وفلانًا، ومَنْ لقيت)**، وسمَّى رجالًا، قال: فدعوت مَن سمَّى، ومَن لقيت.

قال الجعد -وهو الراوي عن أنس: عدد كم كانوا؟ قال: كانوا زُهاء ثلاثمائة، وقال لي رسول الله ﷺ: **(يا أنس، هات التور)**. قال: فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله ﷺ: **(ليتحلَّق عشرة عشرة، وليأكل كلُّ إنسانٍ ممَّا يليه)**. قال: فأكلوا حتى شبعوا.

قال: فخرجت طائفة، ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم، فقال: **(يا أنس، ارفع)**، فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت، قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون، وذكر نزول آية الحجاب»...

وفي (الصحيحين)(١): عن عبد الرحمن بن أبي بكرٍ الصدِّيق قال: «كنا مع رسول الله ﷺ ثلاثين ومائة، فقال النبي ﷺ: **(هل مع أحدٍ منكم طعام؟)**، فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه، فعجن، ثم جاء رجل مشعان طويل بغنمٍ يسوقها، فقال النبي ﷺ: **(أبيعًا؟ أم عطية؟)** -أو قال: هبةً؟- قال: بل بيع، فاشترى منه شاةً فصنعت، وأمر النبي ﷺ بسواد البطن أن يشوى، وايم الله، ما في الثلاثين ومائة إلا مَن قد حز له النبي ﷺ حزةً من سواد بطنها، إن كان شاهدًا أعطاه، وإن

---

(١) صحيح البخاري (٢٦١٨)، وصحيح مسلم (٢٠٥٦).

كان غائبًا خبَّأ له، فجعل منها قصعةً، فأكلوا أجمعون، وشبعنا، ففضلت القصعتان، فحملناها على البعير»، أو كما قال.

وأما تكثير الثمار: ففي (صحيح البخاري)[1]: «عن جابر بن عبد الله أن أباه استشهد، وترك دَينًا، وترك ست بناتٍ، فلما حضر جداد النخل قال: أتيت النبي ﷺ، فقلت: قد علمت أن والدي قد استشهد يوم أُحُد وترك دَينًا كثيرًا، وإني أحب أن يراك الغرماء. قال: **(اذهب، فبيدر كل تمرٍ على ناحيةٍ)**، ففعلت، ثم دعوته.

فلما نظروا إليه كأنهم أغروا بي تلك الساعة، فلما رأى ما يصنعون، أطاف حول أعظمها بيدرًا ثلاث مرات، ثم جلس عليه، ثم قال لي: **(ادع لي أصحابك)**، فما زال يكيل لهم حتى أدى الله عن والدي أمانته، وأنا أرضى أن يؤدي الله عن والدي أمانته، ولا أرجع إلى أخواتي بتمرةٍ، فسلم الله البيادر كلها، حتى إني لأنظر إلى البيدر الذي كان عليه النبي ﷺ كأنها لم تنقص تمرةً واحدةً»...

النوع السادس: تأثيره في الأحجار، وتصرفه فيها، وتسخيرها له:

ففي (صحيح البخاري)[2]، عن أنسٍ قال: «صعد النبي ﷺ أُحدًا ومعه أبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف بهم الجبل، فقال: **(اسْكُنْ)** -وضربه بِرِجْله- **(فليس عليك إلا نبي، وصدِّيق، وشهيدان)**».

وفي (الصحيحين) عن جابر بن سمرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلِّم عليَّ قبل أن أُبْعث، إني لأعرفه الآن**».

---

(١) صحيح البخاري (٢٧٨١).

(٢) صحيح البخاري (٣٦٧٥).

وفي (صحيح مسلم)(١): عن سلمة بن الأكوع قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ حنينًا، فلما واجهنا العدو تقدمته، فأعلو ثنيةً، فاستقبلني رجل من العدو، فأرميه بسهمٍ، فتوارى عني، فما دريت ما صنع، ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنيةٍ أخرى، فالتقوا هم وأصحاب النبي ﷺ، فولَّى أصحاب النبي ﷺ، وأرجع منهزمًا، وعليّ بُردتان متزرًا بإحداهما، مرتديًا بالأخرى، فاستطلق إزاري، فجمعتهما جميعًا، ومررت على رسول الله ﷺ منهزمًا وهو على بغلته الشهباء، فقال رسول الله ﷺ: (**لقد رأى ابن الأكوع فزعًا**)، فلما غشوا النبي ﷺ، نزل عن البغلة، ثم قبض قبضةً من الأرض، واستقبل به وجوههم، فقال: (**شاهت الوجوه**)، فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا بتلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله».

وفي (صحيح مسلم)(٢): عن العباس بن عبد المطلب قال: «شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ، فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلةٍ له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار، ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفُّها، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ إرادة ألَّا تسرع، فقال رسول الله ﷺ: (**أي عباس، نادِ أصحاب الشجرة، فوالله لكأن عطفتهم حين**

---

(١) صحيح مسلم (١٧٧٧).

(٢) صحيح مسلم (١٧٧٥).

سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، يا لبيك، يا لبيك). قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: **(هذا حين حَمِي الوطيس)**، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصياتٍ، فرمى وجوه الكفار، ثم قال: **(انهزموا ورب الكعبة)**. قال: فذهبت أنظر، فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أَنْ رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدهم كليلًا، وأمرهم مدبرًا حتى هزمهم الله».

النوع السابع: تأييد الله له ﷺ بملائكته:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ الآية [الأنفال: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥].

وقال تعالى في الخندق: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

وقال تعالى في حنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

وفي (الصحيحين)(١): عن سعد بن أبي وقاص قال: «رأيت يوم أُحُد عن يمين النبي ﷺ، وعن يساره رجلين عليهم ثياب بيض يقاتلان عن رسول الله ﷺ أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم، ولا بعده، ويعني: جبرائيل وميكائيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ»...

وروى البخاري(٢)، عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ قال يوم بدرٍ: (**هذا جبريل آخذٌ برأس فرسِهِ عليه أداة الحرب**)».

النوع الثامن: في كفاية الله له أعداءه، وعصمته له من الناس:

وفي هذا آيةٌ لنبوته ﷺ من وجوهٍ:

منها: أن ذلك تصديق لقوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٦].

فهذا إخبار الله بأنه يكفيه المشركين المستهزئين، وأخبَر أنه يكفيه أهل الكتاب بقوله: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧].

فأخبره الله أنه يكفيه هؤلاء الشاقين له من أهل الكتاب، وأخبره أنه يعصمه

---

(١) صحيح البخاري (٥٨٢٦)، وصحيح مسلم (٢٣٠٦).

(٢) صحيح البخاري (٣٩٩٥).

من جميع الناس بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، فهذا خبر عام بأنَّ الله يعصمه من جميع الناس، فكلٌّ من هذه الأخبار الثلاثة العامة قد وقع كما أخبر، وفي هذا عدة آياتٍ:

منها: أنه كفاه أعداءه بأنواعٍ عجيبةٍ خارجةٍ عن العادة المعروفة.

ومنها: أنه نصره مع كثرة أعدائه، وقوتهم، وغلبتهم، وأنه كان وحده جاهرًا بمعاداتهم، وسب آبائهم، وشتم آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، والطعن في دينهم، وهذا من الأمور الخارقة للعادة، والمستهزئون كانوا من أعظم سادات قريشٍ، وعظماء العرب، وكان أهل مكة أهل الحرم أعز الناس، وأشرفهم، يعظمهم جميع الأمم، أما العرب فكانوا يدينون لهم، وأما غيرهم من الأمم فكانوا يُعظِّمونهم به لا سيما من حين ما جرى لأهل الفيل ما جرى كما كانت الأمم تعظم بني إسرائيل لما ظهر فيهم من الآيات ما ظهر... وقد سمى أهل العلم بعض مَن كفاه الله إياه من المستهزئين، وكانوا معروفين مشهورين عند الصحابة بالرياسة والعظمة في الدنيا، فذكروهم ليعرف هذا الأمر العظيم الذي أكرم الله نبيه به.

ففي (الصحيحين)(١): عن أبي هريرة قال: «قال أبو جهلٍ: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قيل: نعم. قال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنَّ على رقبته، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له ما لك؟ قال: إنَّ بيني وبينه لخندقًا من نارٍ، وهولًا، وأجنحة. فقال رسول الله

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٩٧)، ولم أقف عليه عند البخاري، ولم يعزه له المزي في التحفة (١٠/ ٩٢).

ﷺ: (**لو دَنَا منِّي لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا**)»...

وفي (الصحيحين)[(١)]: من حديث البراء بن عازب حديث هجرة النبي ﷺ، وأبي بكر من مكة إلى المدينة، قال فيه: «واتبعنا سراقة بن مالك بن جعشم، ونحن في جلدٍ من الأرض، فقلت: يا رسول الله، أتينا. فقال: (**لا تَحْزن، إنَّ الله معنا**)، فدعا عليه رسول الله ﷺ، فارتطمت فرسه إلى بطنها، فقال: إنِّي قد علمت أنكما دعوتما عليَّ، فادعوا لي، والله لكما أن أردَّ عنكما الطلب، فدعا الله فنجا، فرجع لا يلقى أحدًا إلا قال: قد كفيتم ما هاهنا، فلا يلقى أحدًا إلا رده».

وفي لفظٍ: «فساخ فرسه في الأرض إلى بطنه، ووثب عنه، فقال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن يخلصني مما أنا فيه، ولك عليَّ لأعمينَّ على مَن ورائي».

وفي (الصحيحين)[(٢)]: عن ابن شهاب من رواية سراقة نفسه: «قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ، وأبي بكر دية كل واحدٍ منهما لمن قتله أو أَسَره، فبينما أنا جالس في مجلس قومي بني مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إنِّي رأيت آنفًا أسودةً بالساحل أراهما محمدًا وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت: ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا،

---

(١) صحيح البخاري (٣٦١٥)، وصحيح مسلم (٢٠٠٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٩٠٦)، ولم أقف عليه في صحيح مسلم، ولم يعزه له المزي في التحفة (٣/ ٢٦٩).

ثم لبثت ساعة، ثم قمت فدخلت بيتي، فأمرت جاريتي أن تخرج فرسي وهي من وراء أكمة، فتحبسها عليَّ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، وعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت بيدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها، فخرج الذي أكره، فركبت وعصيت الأزلام، فقربت بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكرٍ يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الرُّكبتين، فخررت عنها ثم زجرتها، فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمةً إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ...»، وذكر تمام الحديث.

وفي (الصحيحين)[1]: عن جابرٍ قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ غزاةً قبل نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ في القائلة، في وادٍ كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرةٍ، فعلق سيفه بغصنٍ من أغصانها، وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، فقال رسول الله ﷺ: **(إن رجلًا أتاني وأنا نائمٌ، فأخذ السيف، فاستيقظت وهو قائمٌ على رأسي، والسيف صلتًا في يده، فقال: مَنْ يمنعك مني؟ قلت: الله)**، فشام السيف، فها هو ذا جالس، ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ،

---

(١) صحيح البخاري (٢٩١٠)، وصحيح مسلم (٨٤٣).

وكان ملك قومه، فانصرف حين عفا عنه، فقال: لا أكون في قومٍ هم حرب لك».

النوع التاسع: في إجابة دعوته ﷺ:

وإجابة الدعاء منه ما تكون إجابته معتادة لكثيرٍ من عباد الله كالإغناء، والعافية، ونحو ذلك، ومنه ما يكون المدعو به من خوارق العادات؛ كتكثير الطعام والشراب كثرةً خارجةً عن العادة، وإطعام النخل في العام مرتين مع أن العادة في مثله مرة، ورد بصر الذي عمي، ونحو ذلك مما يأتي، وما تقدم من أدعيته.

ومعلوم أنَّ من عوَّده الله إجابة دعائه لا يكون إلا مع صلاحه ودينه، ومن ادَّعى النبوة لا يكون إلا من أبرِّ الناس إن كان صادقًا، أو من أفجرهم إن كان كاذبًا، وإذا عوَّده الله إجابة دعائه، لم يكن فاجرًا بل برًّا، وإذا لم يكن مع دعوى النبوة إلا برًّا، تعيَّن أن يكون نبيًّا صادقًا، فإنَّ هذا يمتنع أن يتعمد الكذب، ويمتنع أن يكون ضالًّا يظن أنه نبي، وأن الذي يأتيه مَلَك، ويكون ضالًّا في ذلك.

والذي يأتيه الشيطان فإن هذا حال مَن هو جاهل بحال نفسه، وحال من يأتيه، ومثل هذا لا يكون أضل منه، ولا أجهل منه؛ لأنَّ الله تعالى جعل بين الملائكة والشياطين، وبين الأنبياء الصادقين، وبين المتشبهين بهم من الكذابين من الفرق ما لا يحصيه غيره من الفروق، بل جعل بين الأبرار والفجار من الفروق أعظم مما بين الليل والنهار، ولأن ما يأتي به الأنبياء من الأخبار والأوامر مخالفٌ من كل وجه لما يأتي به الشيطان، ومَن استقرأ أحوال الرسل وأتباعهم، وحال الكهان والسَّحَرة، تبيَّن له ما يحقق ذلك، والشيطان الذي يقول لمن ليس بنبيٍّ: إنك نبي صادق، والله أرسلني إليك، يكون من أعظم الناس كذبًا.

والكذب يستلزم الفجور، فلا بد أن يأمره بما ليس برًّا، بل إثمًا، ويخبره بما ليس صدقًا بل كذبًا كما هو الواقع ممن تضله الشياطين من جَهَلة العباد، وممن يزين له أنه نبي أو أنه المهدي أو خاتم الأولياء، وكل هؤلاء لا بد أن تأمره الشياطين بإثمٍ، ولا بد أن يكذب في بعض ما تخبره به؛ تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٢]، وحينئذٍ فمثل هذا لا يكون مع دعوى النبوة من الأبرار الذين عوَّدهم الله إجابة دعائهم إجابة خارجة عن العادات، بل لا يكون مع دعوى النبوة إلا من الأفَّاكين الفجَّار، وإذا كان صادقًا في دعوى النبوة، عالمًا بأنه صادق، ثبت أنه نبيٌّ...

والمقصود هنا ذكر بعض أدعية النَّبيِّ ﷺ التي شُوهد إجابتها، وقد تقدم ذكر بعض أدعيته؛ مثل دعائه على الملأ من قريش، فقتلوا يوم بدرٍ، وألقوا في القَليب، ومثل دعائه على عتيبة بن أبي لهب، ومثل دعائه على الذي كذب عليه بأن يجعله آيةً، ومثل دعائه لمَّا قلَّ الزاد وجمعوه على نطعٍ، فكثَّره الله ببركة دعوته حتى كفى الجيش العظيم في غزوة تبوك، ومثل دعائه في غزوة الخندق، فكفى الطعام، وهو صاع من شعيرٍ لألف نفرٍ.

وكذلك دعاؤه لما نزحت بئر الحديبية فكثر ماؤها حتى كفى الرَّكْب، وهم ألف وخمسمائة ورِكَابهم، وقد تقدم دعاؤه للذي ذهب بصره فأبصر، ودعاؤه في الاستسقاء، فما رد يديه إلا والسماء قد أمطرت، ودعاؤه في الاستصحاء، وإشارته إلى السحاب، فتقطع من ساعته، ودعوته على سراقة بن جعشم لما تبعهم في الهجرة، فغاصت فرسه في الأرض، ودعاؤه يوم بدرٍ، ويوم حنين...

وروى البخاري[(١)] قال: «دخل النبي ﷺ على أم سليم، فأتته بتمر وسمن، فقال: (**أعيدوا سمنكم في سقائه، وتمركم في وعائه**)، ثم قام إلى ناحية البيت فصلَّى غير مكتوبةٍ، فدعا لأم سليم وأهل بيتها، فقالت أم سليم: يا رسول الله، إن لي خُوَيْصة. فقال: (**ما هي؟**). قالت: خادمك أنس. قال: فما ترك آخرةً ولا دنيا إلا دعا به: (**اللهمَّ ارزقه مالًا وولدًا، وبارك له فيه**)، فإني أكثر الأنصار مالًا، وحدثتني ابنتي أمينة أنه دفن لصلبي إلى مقدم الحجاج البصرة بضع وعشرون ومائة». وفي روايةٍ لمسلمٍ: «دعا لي بثلاث دعواتٍ قد رأيت منها اثنتين، وأنا أرجو الثالثة في الآخرة»...

وفي (صحيح مسلم)[(٢)]: «عن أبي هريرة قال: كنت أدعو أُمِّي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يومًا، فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فَأتيتُ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله، إنِّي كنت أدعو أُمِّي إلى الإسلام، وتأبى عليَّ، فدعوتها اليوم، فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أُمَّ أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: (**اللَّهمَّ اهْدِ أُمَّ أبي هريرة**)، فخرجت مستبشرًا بدعوة رسول الله ﷺ، فصرت إلى الباب، فإذا هو مجافٍ، فسمعت أُمِّي خشف قدمي، فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء فاغتسلت، ولبست درعها، وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، فقالت: يا أبا هريرة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فأتيتُهُ وأنا أبكي من الفرح، فقلت: يا رسول الله،

---

(١) صحيح البخاري (١٩٨٢).

(٢) صحيح مسلم (٢٤٩١).

أبشر فقد استجاب الله دعوتك، وهدى أُمَّ أبي هريرة، فحمد الله وقال خيرًا، فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يحببني وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، فقال رسول الله ﷺ: (**اللَّهمَّ حبِّب عَبْدَك هذَا** -يعني: أبا هريرة- **وأُمَّه إلى عبادك المؤمنين، وَحبِّب إليهما المؤمنين**)، فما خلق الله مؤمنًا يسمع بي، ولا يراني إلَّا أحبَّني»...

وفي الترمذي(١) وصحَّحه، ورواه ابن حبان في (صحيحه)(٢) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (**اللهمَّ أعزَّ الإسلام بأحبِّ الرجلين إليك؛ بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشامٍ**)، فكان عمر بن الخطاب أحبهما إلى الله، فأسلم عمر».

وروي أنَّ الدعوة كانت في يوم الأربعاء، فأسلم يوم الخميس، وأعزَّ الله به الإسلام. قال عبد الله بن مسعود: ما زلنا أعزَّةً منذ أسلم عمر، رواه البخاري. وظهر من عزِّ الإسلام في إمارته شرقًا وغربًا، وفتح الشام والعراق ومصر، وكسر عساكر كسرى وقيصر ما تحقق به إجابة الدعوة.

وفي (الصحيحين)(٣): «أنَّ ابن عباس وضع للنبي ﷺ لما أتى الخلاء وضوءًا، فقال لمَّا خرج: (**مَنْ وضع هذا؟**)، فقيل: ابن عباس، فقال: (**اللَّهمَّ فَقِّهه في الدِّين، وعلِّمه التأويل**)».

---

(١) جامع الترمذي (٣٦٨١).

(٢) صحيح ابن حبان (٦٨٨١).

(٣) صحيح البخاري (١٤٣)، وصحيح مسلم (٢٤٧٧).

وقال فيه ابن مسعودٍ: لو أدرك ابن عباسٍ أسناننا، لما عشره منا أحدٌ(١).
وكان عمر يقدمه ويدخله مع كُبَراء الصحابة، وعِلْمُ ابن عباس مشهورٌ في الأمة.

وفي (الصحيحين)(٢): «عن جابرٍ قال: كنت أسير على جملٍ قد أعيا، وأردت أن أُسيِّبه. قال: فلحقني رسول الله ﷺ، فضربه ودعا له، فسار سيرًا لم يسر مثله. وفي روايةٍ: فقال لي: (**ما لبعيرك؟**)، فقلت: عليل. قال: فتخلَّف رسول الله ﷺ، فزجره فدعا له، فما زال يسير بين يدي الإبل قُدَّامها، فقال: (**كيف ترى بعيرك؟**). قلت: بخيرٍ، قد أصابته بركتك. قال: فتبعنيه...»، وذكر الحديث.

وفي (صحيح مسلم)(٣): عن سلمة بن الأكوع «أن رجلًا أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال له: (**كُلْ بيمينك**). قال: لا أستطيع. قال: (**لا استطعت، ما منعه إلا الكِبْر**). قال: فما رفعها إلى فيه»(٤).

فصل: في الطرق التي تبين بها أن هذه الأخبار تفيد العلم(٥):

وهذه الأخبار منها ما هو في القرآن، ومنها ما هو متواترٌ يعلمه العامة والخاصة؛ كنبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام، وحنين الجذع، ونحو

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٢٢١٩)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦١٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ١٩٣).

(٢) صحيح البخاري (٢٠٩٧)، وصحيح مسلم (٧١٨).

(٣) صحيح مسلم (٢٠٢١).

(٤) (٣/ ١٨٢).

(٥) هذا العنوان من وَضع المصنف.

ذلك، فإن كلًّا من ذلك تواترت به الأخبار واستفاضت، ونقلته الأُمَّة جيلًا بعد جيلٍ، وخلفًا عن سلفٍ، فما من طبقةٍ من طبقات الأمة إلا وهذه الآيات منقولة مشهورة مستفيضة فيها، ينقلها أكثر ممن ينقل كثيرًا من القرآن.

وقد نقلها وسمعها من الأمة أكثر ممَّن سمع ونقل كثيرًا من آيات القرآن، وأكثر ممَّن سمع ونقل أنه كان يسجد في الصلاة سجدتي السهو، وممَّن سمع ونقل نصب الزكاة وفرائضها، بل مواقيت الصلاة وأعدادها إنما شاع نقلها للعمل الدائم بها.

وأمَّا هذه الآيات فنقلها أكثر ممَّن نقل مواقيت الصلاة من جهة الأخبار المعينة، وذلك أن آيات الرسول كان كثيرًا منها يكون بمشهدٍ من الخلق العظيم، فيشاهدون تلك الآيات كما شاهد أهل الحديبية -وهم ألفٌ وخمسمائة- نبع الماء من بين أصابعه، وظهور الماء الكثير من بئر الحديبية لمَّا نزحوها، ولم يتركوا فيها قطرةً، فكثر حتى روى العسكر، وكما شاهد العسكر في غزوة ذات الرقاع الماء اليسير لمَّا صبَّه جابر في الجفنة وامتلأت، وملأ منها جميع العسكر.

وكما شاهد الجيش في رجوعهم من غزوة خيبر المزادتين مع المرأة، وقد ملأوا كل وعاءٍ معهم وشربوا، وهي ملأى كما هي، وكما شاهد أهل خيبر -وهم ألفٌ وخمسمائة- الطعام الذي كان كربضة الشاة، فأشبع الجيش كلهم، وكما شاهد الجيش العظيم، وهم نحو ثلاثين ألفًا في تبوك العين لمَّا كانت قليلة الماء، فكثر ماؤها حتى كفاهم، وشاهدوا الطعام الذي جَمعوه على نطعٍ، فأخذوا منه حتى كفاهم.

وكما شاهد أهل الخندق -وهُمْ أكثر من ألفٍ- كثرة الطعام في بيت جابر بعد أن كان صاعًا من شعيرٍ وعناقًا، فأكلوا كلهم بعد الجوع حتى شبعوا، وفَضلتْ فضلةٌ.

وكما شاهد الثمانون نفسًا كثرة الطعام لمَّا أكلوا في بيت أبي طلحة، وكما شاهد الثلاثمائة كثرة الماء لمَّا توضئوا من قدحٍ، والماء ينبع من بين أصابعه حتى كفاهم للوضوء، وكذلك وليمة زينب كانوا ثلاثمائة، فأكلوا من طعامٍ في تورٍ من حجارة، وهو باقٍ، فظن أنس أنه أزيد مما كان، وكانوا يتداولون قصعةً من غدوة إلى الليل، يقوم عشرة ويقعد عشرة، كما في حديث سمرة بن جندب، وأهل الصفة لمَّا شربوا كلهم من اللبن القليل، وكفاهم وفضل، وكانوا ينقلون ذلك بينهم، وهو مشهورٌ ينقله بعض مَنْ شاهده إلى مَن غاب عنه، فكان استفاضة آياته وشهرتها وتواترها في الأمة أعظم من تواتر سجود السهو في الصلاة، فإنَّ هذا إنما كان مرات قليلة، ولم يحضره إلا المُصلُّون خلفه لتلك الصلاة.

وكذلك نقلهم لنصب الزكاة وفرائضها، فإنَّ هذا إنما سمعه منه طائفةٌ قليلةٌ، ونقلوه، وكذلك حكمه بالشفعة فيما لا يقسم، وقضاؤه بأنَّ دية الخطأ على العاقلة، وقضاؤه بأنَّ الولد للفراش، وللعاهر الحجر، ونهيه عن نكاح الشغار، وتحريمه لطلاق الحائض، وطلاق الموطوءة قبل أن يتبيَّن حَمْلها، وأن المعتقة تحت عبدٍ يثبت لها الخيار، وتوريث الجدة السدس، ونَهْيه أن تُنكح المرأة على عمتها وخالتها. وقوله: «**فيما سَقت السَّماء العشر، وما سقي بالدوالي والنواضح نصف العشر**».

وأمثال ذلك إنما سمعها طائفةٌ من الأمة هم أقل بكثيرٍ ممن شاهدوا آياته،

ثم إنَّ الأمة متفقةٌ على نقل ذلك، وهذه الأحكام متواترة عنه، معلومة بالاضطرار من دينه، فإذا كان مثل هذه الأمور تواتر في الأمة، واتفقت على نقله، فكيف بما كان أشهر وأظهر عند مَن عاينه، وكان علم الذين رأوه به أظهر من علمهم بهذه الأحكام، وقد نقلوا ذلك إلى مَن غاب عنهم، فإنه قطعًا يجب أن يكون تواتُر هذه الآيات في الأمة أعظم وأظهر.

ولهذا، لا يكاد يوجد مسلمٌ إلا وقد عرف كثيرًا من هذه الآيات وسمعها ونقلها إلى غيره بخلاف كثيرٍ من الأحكام المتواترة عنه المتفق على نقلها عند العلماء، فإن كثيرًا من الناس لا يعرفها، ولا سمعها...

وما كان من هذه الآيات في الصحاح بل وكثير مما لم يخرجه البخاري ومسلم، فهذه عامَّتها مما يقطع أهل العلم بالحديث بصحتها، ويتيقَّنون ذلك، وهذا عندهم مستفيضٌ متواترٌ...

وعامة أخبار (الصحيحين) مما اتفق علماء الحديث على التصديق بها، وجزموا بذلك، وإنما تنازعوا في أحاديث قليلة منها، وعامة ما ذكرناه من آيات النبي ﷺ التي في الصحاح هي من موارد إجماعهم المستفيضة عندهم التي يجزمون بصدقها، ليست من موارد نزاعهم، فهذا طريقٌ يسلكه مَن عرفه من العلماء، ويعلم خيرة أهله مَن كان خبيرًا بهم.

فهذه طريقان في تصديق هذه الآيات: التواتر العام، والتواتر الخاص.

الطريق الثالث: التواتر المعنوي، وهذا مما اتفق على معرفته عامة الطوائف، فإنَّ الناس قد يسمعون أخبارًا متفرقةً بحكاياتٍ يشترك مجموعها في

أمرٍ واحدٍ، كما سمعوا أخبارًا متفرقةً تتضمن شجاعة عنترة، وخالد بن الوليد، وأمثالهما، وتتضمَّن سخاء حاتم، ومعن بن زائدة، وأمثالهما، وتتضمن حِلْم الأحنف بن قيس، ومعاوية بن أبي سفيان، وأمثالهما، وتتضمَّن شعر امرئ القيس والنابغة ولبيد وأمثالهم من المتقدمين، وشعر الفرزدق وجرير وعمر بن أبي ربيعة، وأمثالهم من المولدين، وشعر أبي نواس والمتنبي وأبي تمام، وأمثالهم من المحدثين.

بل وسمعوا أقوالًا وفتاوى متفرقةً تتضمن فقه مالك، والثوري، والليث بن سعد، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من العلماء... فيحصل بمجموع الأخبار علمٌ ضروريٌّ بأن الشخص موصوفٌ بذلك النعت، وإن كان كلٌّ من الأخبار لو تجرد وحده، لم يُفِدِ العلم، وإن كان كل من الحكايات ليست وحدها منقولةً بالتواتر.

وإذا عرف هذا، فهذه الأحاديث وأضعاف أضعافها هي أضعاف أضعاف ما ينقل عن الواحد من هؤلاء، ونَقَلَتُها أجلُّ وأكثر وأفضل من نَقَلة أخبار هؤلاء، وهي كاملة تتضمن أن محمد بن عبد الله ﷺ كان يجري على يديه من الآيات الخارقة للعادة والعجائب العظيمة ما لا يُعْرف نظيره عن أحدٍ من الناس.

وعلم المسلمين بهذا أعظم من علم أهل الكتاب بما ينقلونه من آيات موسى وعيسى وغيرهما، فإن نَقَلةَ آيات مُحمَّدٍ ﷺ غير القرآن أضعاف أضعاف نَقَلة التوراة والإنجيل فضلًا عن غيرهما من أخبار الأنبياء، فإنَّ التوراة لم تكن جميعها محفوظةً لعموم بني إسرائيل كما يحفظ القرآن عامة المسلمين، وعند

خراب بيت المقدس قَلَّ مَن يحفظها جدًّا حتى تنازع الناس في تواتر نقلها.

وكذلك الإنجيل نَقَلته أقل بكثيرٍ من نَقَلة آيات محمد ﷺ، وإذا قال النصارى: هؤلاء كانوا صالحين، وكان لهم آيات، كما يذكرونه من آيات الحواريين، فأصحاب مُحمَّدٍ ﷺ وتابعوهم صالحون، ولهم من الآيات أعظم ممَّا للحواريين وغيرهم من الأمم، وفيهم مَن كان يحمل العسكر على الماء، ومن كان يشرب السموم القاتلة، ومن يحيي الله الموتى بدعوته، ومن يكثر الطعام والشراب.

وكتب كرامات الأولياء فيها من ذلك أعظم مما عند أهل الكتاب، وهم ينقلون أخبار الأنبياء والصالحين من كتبٍ عندهم، مثل كتاب (أخبار الحواريين)، وكتاب (سفر الملوك)، ونحو ذلك، وما يذكرون من حجةٍ في صحة نقلها إلا وحجة المسلمين فيما ينقلونه عن نبيهم وأصحابه والتابعين أظهر وأقوى.

الطريق الرابع: أن يقال: هذه الآيات التي ذكرنا بعضها كانت تكون بمحضرٍ من الخلق الكثير، كتكثير الطعام يوم الخندق، فإنه كان أهل الخندق رجالهم ونساؤهم ألوفًا، وكذلك نبع الماء من بين أصابعه، وفيضان البئر بالماء يوم الحديبية، وكانوا يومئذٍ ألفًا وخمسمائة، وكلهم صالحون من أهل الجنة، لا يُعْرف فيهم مَن تعمَّد كذبةً واحدةً على النبي ﷺ.

وكذلك تكثير الماء والطعام في غزوة خيبر كانوا ألفًا وخمسمائة، وفي تبوك كانوا ألوفًا مؤلفةً، وكان بعض من حضر هذه المشاهد نقل هذه الآيات قدام

آخرين ممن حضرها، وينقلها لأقوامٍ، فيذهب أولئك فيخبرون بها أولئك، ويصدق بعضهم بعضًا، ويحكي هذا مثل ما حكى هذا من غير تواطئٍ وتشاعرٍ، وأدنى أحواله أن يُقرَّه ولا ينكر عليه روايتها.

ونحن نعلم بموجب العادة الفطرية التي جَبَل الله عليها عباده، وبموجب ما كان عليه سلف الأمة من اعتقاد الصِّدق وتحرِّيه، واعتقادهم أن ذلك واجب، ومن شدَّة توقِّيهم الكذب على نبيِّهم، وتعظيمهم ذلك، إذ قد تواتر عندهم عنه أنه قال: «**مَنْ كذب عَليَّ متعمدًا، فليتبوَّأ مقعده من النار**».

فنحن نعلم أنهم لم يكونوا يقرُّون من يعلمون أنه يكذب عليه، ومن أخبر عنه بما كانوا مشاهدين له، وكذب عليه، فقد علموا أنه كذب عليه، فلمَّا اتفقوا على الإقرار على ذلك، وعلى تناقله بينهم من غير إنكار أحدٍ منهم لذلك، علم قطعًا أن القوم كانوا متفقين على نقل ذلك.

وكلما أمعن الإنسان في ذلك النظرَ، واعتبر ذلك بأمثاله، واعتبر وأعطاه حقه من النظر والاستدلال، ازداد بذلك علمًا ويقينًا، وتبيَّن له أنَّ العلم بذلك أظهر من جميع ما يطلب من العلم بالأخبار المتواترة، فليس في الدنيا علمٌ مطلوبٌ بالأخبار المتواترة إلا والعلم بآيات الرسول وشرائع دينه أظهر من ذلك، وما من حال أحدٍ من الأنبياء والملوك والعلماء والمشايخ المتقدمين وأقواله وأفعاله وسيرته إلا والعلم بأحوال مُحمَّدٍ ﷺ أظهر من العلم به.

وما من علمٍ يعلم بالتواتر مما هو موجود الآن كالعلم بالبلاد البعيدة كعلم أهل الشام بالعراق وخراسان والهند والصين والأندلس، وعلم أهل المغرب

بالشام والعراق وخراسان والهند، وعلم أهل خراسان بالشام والعراق ومصر، وعلم أهل الهند بالعراق والشام، وأمثال ذلك من علم أهل البلاد بعضهم بحال بعض إلا وعلم الإنسان بحال المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، وما هم عليه من الدين، وما ينقلونه عن نَبِيِّهم من آياته وشرائعه أظهر من علمه بهذا كله.

وهذا ممَّا يُبيِّن أنه ليس في الوجود أمرٌ يعلم بالنقول المتواترة إلا وآيات الرسول وشرائعه تعلم بالنقول المتواترة أعظم مما يعلم ذلك الأمر تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨][(١)].

جواب اعتراض: لماذا لم يُجب النبي المشركين في طلبهم الآيات؟

وممَّا ينبغي أن يُعْلم أن الله إذا أرسل نبيًّا، وأتى بآيةٍ دالةٍ على صدقه، قامت بها الحجة، وظهرت بها المحجة، فمَنْ طالبهم بآيةٍ ثانيةٍ، لم تجب إجابته إلى ذلك، بل وقد لا ينبغي ذلك؛ لأنه إذا جاء بآيةٍ ثانيةٍ، طُولب بثالثةٍ، وإذا جاء بثالثةٍ، طُولب برابعةٍ، وطَلَبُ المتعنِّتين لا أمدَ له، ومعلومٌ أنه قامت عليه حجةٌ في مسألة علمٍ أو حقٍّ من حقوق العباد التي يتخاصمون فيها، وقال: أنا لا أقبل حتى تقوم عليه حجة ثانية وثالثةٌ كان ظالمًا متعديًا، ولم يجب إجابته إلى ذلك.

ولا يمكن الحكام الخصوم من ذلك، بل إذا قامت البينة بحق المدعي، حُكِمَ له بذلك، ولو قال المطلوب: أُريد بينةً ثانيةً، وثالثةً، ورابعةً، لم يجب إلى ذلك، فحقُّ الله الذي أوجبه على عباده من توحيده، والإيمان به، وبرسله أَوْلَى إذا أقام بينةً

(١) (٣/ ٣٢٤).

أوجبت على الخلق الإيمان برسله ألَّا يجب إجابة الطالب إلى ثانية وثالثة(١).

ثمَّ قد يكون في تتابع الآيات حكمةٌ، فيتابع تعالى بين الآيات، كما أرسل مُحمَّدًا ﷺ بآيات متعددة لعموم دعوته وشمولها، فإنَّ الأدلة كلما كثرت، وتواردت على مدلولٍ واحدٍ، كان أوكد وأظهر وأيسر لمعرفة الحق، فقد يعرف دلالة أحد الأدلة من لا يعرف الآخر، وقد يبلغ هذا ما لم يبلغ هذا، وقد يرسل الأنبياء بآياتٍ متتابعةٍ، وتقسى قلوب الكفار عن الإيمان لتتابع الآيات آية بعد آية

(١) ويقال أيضًا: إنَّ مثل هذا قد حصل للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما يحكونه عنه كما في يوحنا (٦/ ٣٠-٣٣):
«فقالوا له: فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك؟ ماذا تعمل؟ ٣١ آباؤنا أكلوا المنَّ في البرية، كما هو مكتوب: أنه أعطاهم خبزًا من السماء ليأكلوا ٣٢ فقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم: ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء، بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء.
فهنا طلبوا منه آيةً دنيويةً، فأجابهم بوعدٍ أخروي -وفي متَّى (١٢/ ٣٨، ٣٩): حينئذٍ أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين: يا معلم، نريد أن نرى منك آيةً ٣٩ فأجاب وقال لهم: جيل شرير وفاسق يطلب آيةً، ولا تعطى له آية إلا آية يونان النبي.
وجاء في التفسير التطبيقي هنا ما مفاده أن المسيح قد علم أنهم قد رأوا من المعجزات ما يكفي ليكون دليلًا لإقناعهم، ولكنهم كانوا قد صمَّموا ألَّا يؤمنوا به، ورؤية معجزات أكثر لم تكن لتغير من موقفهم.
- وفي لوقا (٢٣/ ٣٥) في حادثة صلب المسيح المزعومة: «٣٥ وكان الشعب واقفين ينظرون، والرؤساء أيضًا معهم يسخرون به قائلين: خلص آخرين، فليخلص نفسه إن كان هو المسيح مختار الله».
-ففي هذه المواطن لم يُجب المسيح من طلب منه آيةً، فسيقال: إن المسيح أراهم من الآيات ما يكفي، وعلم أنهم لن ينتفعوا بالمزيد.
وهذا بعينه هو جواب المسلمين عما يحتج به مخالفوهم من عدم إجابة النبي للمشركين في طلب الآيات، ويضيف المسلمون وجود الآية الحاضرة الخالدة، وهو القرآن المعجز.

لينتشر ذلك ويظهر، ويبلغ ذلك قومًا آخرين، فيكون ذلك سببًا لإيمانهم، كما فعل بآيات موسى، وآيات محمدٍ، كما ذكر في التوراة أنه يقسي قلب فرعون لتظهر عجائبه وآياته(١).

وكما صد المكذبين عن الإيمان بمحمَّد حتى يمانعوه، ويسعوا في معارضته، والقدح في آياته، فيظهر بذلك عجزُهُم عن معارضة القرآن، وغيره من آياته، فيكون ذلك من تمام ظهور آياته وبراهينه بخلاف ما لو اتبع ابتداء بدون ذلك، فإنه قد كان يظن أنَّهم قادرون على معارضته.

وكذلك أيضًا يكون في ذلك على يقينه، وصبره، وجهاده، ويقين مَن آمن به، وصبرهم، وجهادهم ما ينالون به عظيم الدرجات في الدنيا والآخرة.

وقد تقتضي الحكمة ألَّا يرسل بالآيات التي توجب عذاب الاستئصال كما ذكره الله في كتابه من أنَّ الكفار كانوا يقترحون على الأنبياء آيات غير الآيات التي جاءوا بها، فتارةً يجيبهم الله إلى ذلك لما فيه من الحكمة والمصلحة، وتارةً لا يجيبهم لما فيه في ذلك من المضرَّة والمفسدة، وقد كان الرسول ﷺ ربما طلب تلك الآيات رغبةً منه في إيمانهم بها.

فيُجَاب بأن الآيات لا تستلزم الهدى، بل تستلزم إقامة الحجة، وتوجب عذاب الاستئصال لمن كذَّب بها، والله تعالى قد يظهر الآيات الكثيرة مع طبعه على قلب الكافر، كما فعل بفرعون، وأبي لهب، وغيرهما؛ لما في ذلك من الحكمة العظيمة كما دلَّ على ذلك القرآن، والتوراة، وغيرهما.

---

(١) جاء في سفر الخروج (٣:٧): «ولكني أقسي قلب فرعون، وأكثر آياتي وعجائبي في أرض مصر».

وقد بين أنه لا يظهرها لانتفاء الحكمة فيها، أو لوجود المفسدة، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

بيَّن سبحانه أنَّ ما منعه أن يرسل بالآيات إلا تكذيب الأولين بها الذي استحقوا بها الهلاك، فإذا كذب بها هؤلاء، استحقوا ما استحقَّه أولئك من عذاب الاستئصال، وهذا المعنى مذكورٌ في عامَّة كتب التفسير والحديث، وغيرها من كتب المسلمين، وهو معروف بالأسانيد الثابتة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ.

فقد ذكر المُفسِّرون ما رواه أهل التفسير والحديث والمسند(١) وغيرهم من حديث الأعمش، عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي عنهم الجبال حتى يزرعوا. قال: فقيل له: إن شئت تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم. قال: (لا، بل أَسْتأني بِهِمْ)»، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٣٣٣)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٢٢٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٢٧١).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٥].

وهذه الآيات التي اقْتَرحوها لو أجيبوا بها ولم يؤمنوا، أتاهم عذاب الاستئصال كما تقدم.

وأيضًا فهي مما لا يصلح الإتيان بها، فإنَّ قولهم: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾، يقتضي تفجير الينبوع بأرض مكة، فيصير واديًا ذا زرعٍ، والله من حكمته جعل بيته بوادٍ غير ذي زرعٍ؛ لئلا يكون عنده ما ترغب النفوس فيه من الدنيا، فيكون حَجُّهم للدنيا لا لله، وإذا كان له جنة من نخيلٍ وأعنابٍ يفجر الأنهار خلالِها تفجيرًا، كان في هذا من التوسع في الدنيا ما يقتضي نقص درجته، وانخفاض منزلته، وكذلك إذا كان له بيتٌ من زخرفٍ، والزخرف الذهب.

وأما إسقاط السماء كسفًا، فهذا لا يكون إلى يوم القيامة، وهو لم يخبرهم أن هذا لا يكون إلا يوم القيامة، فقولهم: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾، كذب عليه إلا أن يريدوا التمثيل، فيكون القياس فاسدًا، وأما الإتيان بالله والملائكة قبيلًا، فهذا لما سأل قوم موسى ما هو دونه أخذتهم الصاعقة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ

لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

وأمَّا إنزال الكتاب، فقد قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٥٣].

بيَّن سبحانه أنَّ المشركين سألوه إنزال كتابٍ، وأن أهل الكتاب سألوه ذلك، وبيَّن سبحانه أنَّ الطائفتين لا تؤمن إذا جاءهم ذلك، وإنما سألوه تعنتًا، فقال عن المشركين: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ٧].

وذكر عن أهل الكتاب أنهم سألوا موسى أكبر من ذلك، وهو رؤية الله جهرةً، فقال: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٥٣]...

وقد عرض الله على مُحمَّدٍ ﷺ أن يهلك قومه لمَّا كذبوه، فقال: «**بَلْ أستأني بهم لَعلَّ الله أن يُخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا**».

كما في (الصحيحين)(١) عن عائشة أنها قالت للنبي ﷺ: «هل أتى عليك يومٌ كان أشد عليك من يوم أُحُدٍ؟ فقال: (**لقد لقيت من قومكِ، وكان أشد ما لقيت**

(١) صحيح البخاري (٣٢٣١)، وصحيح مسلم (١٧٩٥).

منهم يوم العقبة؛ إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يُجبني إلى ما أردتُ، فانطلقت على وجهي وأنا مهموم، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلتني، فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم عليَّ، وقال: إن الله قد سمع قول قومك، وما ردُّوا عليك، وقد بعثني إليك لتأمرني بما شئت، إن شئت أن أُطْبق عليهم الأخشبين. فقال: بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله لا يشرك به شيئًا)»، أخرجاه...

وكان من حكمته ورحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمَّا أرسل محمدًا ألَّا يهلك قومه بعذاب الاستئصال كما أهلكت الأمم قبلهم، بل عذَّب بعضهم بأنواع العذاب كما عذب طوائف ممَّن كذبه بأنواعٍ من العذاب كالمستهزئين الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٥، ٩٦]، فعذَّب الله كل واحدٍ بعذابٍ معروفٍ...

فأخبر أنه يعذب الكفار تارةً بأيدي عباده المؤمنين بالجهاد، وإقامة الحدود، وتارةً بعذاب غير ذلك، فكان يعذبهم بمثل هذه الأسباب مما يوجب إيمان أكثرهم كما جرى لقريشٍ وغيرهم، فإنهم لمَّا كذَّبوه لو أهلكهم كما أهلك قوم فرعون ومَن قبلهم لبادَتَا وانقطعت المنفعة به عنهم، ولم يبق لهم ذرية تؤمن به بخلاف ما إذا عذب بعضهم بأنواع من العذاب، ولو بالهزيمة والأَسْر، وقتل بعضهم كما عذبوا يوم بدرٍ، فإنَّ في هذا من إذلالهم وقهرهم ما يوجب عجزهم

مع بقائهم، والنفوس إذا كانت قادرةً على كمال أغراضها، فلا تكاد تنصرف عنها بخلاف ما إذا عجزت عن كمال أغراضها، فإنَّ ذلك مما يدعوها إلى التوبة، كما يقال: من العصمة ألَّا تقدر. فكان ما وقع بهم تعجيزًا وزاجرًا وداعيًا إلى التوبة، ولهذا آمن عامتهم بعد ذلك، لم يُقْتل منهم إلا قليل، وهم صناديد الكفر الذين كان أحدهم في هذه الأمة كفرعون في تلك الأمة...

ومحمد ﷺ لم يكن محتاجًا إلى تقرير جنس النبوة؛ إذ كانت الرسل قبله جاءت بما ثبت ذلك، وقومه كانوا مقرِّين بالصانع، وإنما كانت الحاجة داعية إلى تثبيت نُبوَّته، ومع هذا فأظهر الله على يديه من الآيات مثل آيات مَن قبله وأعظم، ومع هذا فلم يأت بآيات الاستئصال التي يستحق مُكذِّبها العذاب العام العاجل كما استحقَّه قوم فرعون وهود، وصالح وشعيب وغيرهم.

فلهذا، يُبيِّن الله في القرآن أن هذه الآيات إذا جاءت لا تنفعهم إذ كانوا يؤمنون بها، ولكن تضرهم إذ كانوا يستحقون عذاب الاستئصال إذا كذبوا حينئذٍ، ومع وجود المانع وعدم المقتضي لا يصلح الفعل على قول الجمهور القائلين بالحكمة، ومَن لم يعلل فلا يطلب سببًا، ولا حكمةً، بل يردُّ الأمر إلى محض المشيئة، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، وهو يعلم أن قلوب هؤلاء كقلوب أولئك الأولين، فيكذبون بها، فيستحقون بها ما استحقه أولئك كقوم نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، وشعيبٍ، ولوطٍ، وغيرهم.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾

أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٥]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠]...

فإذا كان من تمام الحكمة والرحمة ألَّا يهلكهم هلاك استئصالٍ كما أهلك المُكذِّبين، وكانت الآيات التي اقترحوها موجبةً لعذاب الاستئصال كما أهلكت الأمم قبلهم كما قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]، كان ألَّا يأتي بموجب عذاب الاستئصال مع إتيانه سبحانه بما يقيم الحُجَّة، ويُوضِّح المحجة أكمل في الحكمة والرحمة، إذ كان ما أتى به من الآيات حصل به كمال الخير، والمنفعة، والهدى، والبيان، والحجة على مَن كفر، وما امتنع منه دفع من عذاب الاستئصال، والهلاك، والعذاب العام ما أوجب بقاء جمهور الأُمَّة حتى يتوبوا، ويؤمنوا، ويهتدوا، وكان في إرسال محمدٍ ﷺ لما كان خاتم الرسل من الحكمة البالغة والمنن السابغة ما لم يكن في رسالة رسولٍ غيره، صلوات الله عليهم أجمعين(١).

(١) (٦/ ٤٢٩).

المبحث الثاني: معجزة القرآن

القرآن كلام الله، وفيه الدعوة والحجة، فله به اختصاصٌ على غيره كما ثبت عنه في الصحيح[1] أنه قال: «**ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنَّما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**».

وجه إعجاز القرآن من حيث الجملة:

والقرآن يظهر كونه آيةً وبرهانًا له من وجوهٍ؛ جملةً وتفصيلًا، أما الجملة، فإنه قد علمت الخاصة والعامة من عامة الأمم، علمًا متواترًا أنه هو الذي أتى بهذا القرآن، وتواترت بذلك الأخبار أعظم من تواترها بخبر كل أحدٍ من الأنبياء والملوك والفلاسفة، وغيرهم.

والقرآن نفسه فيه تحدي الأمم بالمعارضة، والتحدي هو أن يحدوهم -أي: يدعوهم- فيبعثهم إلى أن يعارضوه، فيقال فيه: حداني على هذا الأمر -أي: بعثني عليه- ومنه سُمِّي حادي العيس؛ لأنه بحداه يبعثها على السير... قال تعالى في سورة الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]، فهنا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، في أنه تقوَّله، فإنه إذا كان محمد قادرًا على أن يتقوَّله

---

(١) صحيح البخاري (٢٩٨١)، وصحيح مسلم (١٥٢).

كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظمٍ ونثرٍ، كان هذا ممكنًا للناس الذين هم من جنسه، فأمكن الناس أن يأتوا بمثله.

ثم إنه تحداهم بعشر سور مثله، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

ثم تحدَّاهم بسورةٍ واحدةٍ منه، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨]، فطلب منهم أن يأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات هم وكل مَن استطاعوا من دون الله، ثمَّ تحدَّاهم بسورةٍ واحدةٍ هم ومن استطاعوا، قال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤]، وهذا أصل دعوته، وهو الشهادة بأنه لا إله إلا الله، والشهادة بأن محمدًا رسول الله.

وقال تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ﴾ [هود: ١٤]، كما قال: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]، أي: هو يعلم أنه منزلٌ، لا يعلم أنه مفترًى، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧]، أي: ما كان لأَنْ يُفْترى، يقول: ما كان ليفعل هذا، فلم ينف مجرد فعلِهِ، بل نفى احتمال فعلِهِ، وأخبر بأنَّ مثل هذا لا يقع، بل يمتنع وقوعه، فيكون المعنى: ما يمكن، ولا يحتمل، ولا يجوز أن يفترى هذا القرآن من دون الله، فإنَّ الذي يفتريه من دون الله مخلوق، والمخلوق لا يقدر على ذلك. وهذا التحدي كان بمكة، فإن هذه السور مكية؛ سورة يونس، وهود، والطور.

ثم أعاد التحدي في المدينة بعد الهجرة، فقال في (البقرة) وهي سورة مدنية:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، فذكر أمرين:

أحدهما قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤]، يقول: إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حقٌّ، فخافوا الله أن تُكذِّبوه، فيحيق بكم العذاب الذي وعد به المُكذِّبين، وهذا دعاءٌ إلى سبيل ربه بالموعظة الحسنة بعد أن دعاهم بالحكمة، وهو جدالهم بالتي هي أحسن.

والثاني قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤]، و«لن» لنفي المستقبل، فثبت الخبر أنهم فيما يُسْتقبل من الزمان لا يأتون بسورةٍ من مثله كما أخبر قبل ذلك، وأمره أن يقول في سورة (سبحان)، وهي سورة مكية، افتتحها بذكر الإسراء، وهو كان بمكة بنصِّ القرآن والخبر المتواتر.

وذكر فيها من مخاطبته للكفار بمكَّة ما يُبيِّن بذلك بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فعمَّ بالخبر جميع الخَلق معجزًا لهم، قاطعًا بأنهم إذا اجتمعوا كلهم، لا يأتون بمثل هذا القرآن، ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك.

وهذا التحدي والدعاء هو لجميع الخَلْق، وهذا قد سمعه كلُّ مَن سمع القرآن وعرفه الخاص والعام، وعلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه، ولا أتوا بسورةٍ مثله، ومن حين بُعث وإلى اليوم، الأمر على ذلك، مع ما عُلِمَ من أن الخَلق كلهم كانوا كفارًا قبل أن يبعث، ولما بعث إنَّما تبعه قليلٌ، وكان الكفار من أحرص الناس على إبطال قوله، مجتهدين بكل طريقٍ يمكن، تارةً يذهبون إلى

أهل الكتاب فيسألونهم عن أمورٍ من الغيب حتى يسألوه عنها، كما سألوه عن قصة يوسف وأهل الكهف وذي القرنين كما تقدم.

وتارةً يجتمعون في مجمعٍ بعد مجمعٍ على ما يقولونه فيه، وصاروا يضربون له الأمثال، فيُشبِّهونه بمَنْ ليس مثله لمجرد شبهٍ ما مع ظهور الفرق، فتارةً يقولون: مجنون. وتارةً يقولون: ساحر. وتارةً يقولون: كاهن. وتارةً يقولون: شاعر... إلى أمثال ذلك من الأقوال التي يعلمون -هم وكل عاقلٍ سمعها- أنها افتراءٌ عليه.

فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة مرةً بعد مرة وهي تبطل دعوته، فمعلومٌ أنهم لو كانوا قادرين عليها لَفَعلوها، فإنه مع وجود هذا الداعي التام المؤكد إذا كانت القدرة حاصلةً، وجب وجود المقدور، ثم هكذا القول في سائر أهل الأرض.

فهذا القدر يوجب علمًا بيِّنًا لكل أحدٍ بعجز جميع أهل الأرض عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلةٍ، وبغير حيلةٍ، وهذا أبلغ من الآيات التي يكرر جنسها كإحياء الموتى، فإن هذا لم يأت أحدٌ بنظيره.

وكون القرآن أنه معجزةٌ ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صَرْف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط، بل هو آيةٌ بينةٌ معجزةٌ من وجوهٍ متعددةٍ: من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته، وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي، وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بيَّن فيه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية التي هي الأمثال

المضروبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]...

وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجةٌ على إعجازه، ولا تناقض في ذلك، بل كل قومٍ تنبَّهوا لما تنبهوا له.

مناقشة القول بالصرفة(١):

ومن أضعف الأقوال: قول مَن يقول من أهل الكلام: إنه معجزٌ بصرف الدواعي -مع تمام الموجب لها- أو بسلب القدرة التامة، أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلبًا عامًّا، مثل قوله تعالى لزكريا: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، وهو أنَّ الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضي التام، فَإِنَّ هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل، وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله، فامتناعهم جميعهم عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة، من أبلغ الآيات الخارقة للعادات، بمنزلة مَن يقول: إني آخذ أموال جميع أهل هذا البلد العظيم، وأضربهم جميعهم، وأجوعهم، وهم قادرون على أن يشكوا إلى الله، أو إلى

(١) المقصود بالصرفة أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن، وسلب عقولهم، وكان مقدورًا لهم، لكن عَاقَهم أمرٌ خارجيٌّ، فصار كسائر المعجزات.
وهذا القول نسب في الأصل للنظام من المعتزلة، لكن مال إليه، وانتصر له غيره أيضًا؛ كالإمام الجويني، وابن حزم، وغيرهما. ينظر البرهان (٤/ ٧)، والعقيدة النظامية (٥٤)، والفصل في الملل والنحل (٣/ ١١).

ولي الأمر، وليس فيهم مع ذلك مَنْ يشتكي.

فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة، ولو قدر أن واحدًا صنَّف كتابًا يقدر أمثاله على تصنيف مثله، أو قال شعرًا، يقدر أمثاله أن يقولوا مثله، وتحدَّاهم كلهم، فقال: عارضوني، وإن لم تعارضوني فأنتم كفار، مأواكم النار، ودماؤكم لي حلال، امتنع في العادة ألَّا يعارضه أحد، فإذا لم يعارضوه، كان هذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة، والذي جاء بالقرآن قال للخَلق كلهم: أنا رسول الله إليكم جميعًا، ومن آمن بي دخل الجنة، ومن لم يؤمن بي دخل النار، وقد أُبيح لي قتل رجالهم، وسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم، ووجب عليهم كلهم طاعتي، ومن لم يطعني كان من أشقى الخَلق، ومن آياتي هذا القرآن، فإنه لا يقدر أحدٌ على أن يأتي بمثله، وأنا أخبركم أن أحدًا لا يأتي بمثله، فيقال: لا يخلو إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين، فإن كانوا قادرين، ولم يعارضوه، بل صرف الله دواعي قلوبهم، ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدي العظيم، أو سلبهم القدرة التي كانت فيهم قبل تحديه، فإن سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل: معجزتي أنكم كلكم لا يقدر أحدٌ منكم على الكلام، ولا على الأكل والشرب، فإن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد، فهذا من أبلغ الخوارق، وإن كانوا عاجزين، ثبت أنه خارقٌ للعادة، فثبت كونه خارقًا على تقدير النقيضين؛ النفي والإثبات، فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة في نفس الأمر.

فهذا غاية التنزُّل، وإلا فالصواب المقطوع به أن الخَلق كلهم عاجزون عن معارضته، لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمدٌ ﷺ نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورةً من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه لكل مَن له أدنى

تدبُّر، كما قد أخبر الله به في قوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وأيضًا، فالناس يجدون دواعيهم إلى المعارضة حاصلة، لكنهم يحسُّون من أنفسهم العجز عن المعارضة، ولو كانوا قادرين لَعارضوه، وقد انتدب غير واحدٍ لمعارضته، لكن جاء بكلامٍ فضح به نفسه، وظهر به تحقيق ما أخبر به القرآن من عجز الخَلق عن الإتيان بمثله، مثل قرآن مسيلمة الكذاب، كقوله: «يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين، رأسك في الماء، وذنبك في الطين».

وكذلك أيضًا يعرفون أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه، فلا يجدون أنفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه، كما وجد زكريا عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه.

وأيضًا، فلا نزاع بين العقلاء المؤمنين بمحمدٍ والمكذبين له، إنه كان قصده أن يصدقه الناس ولا يكذبوه، وكان مع ذلك من أعقل الناس وأخبرهم وأعرفهم بما جاء به، ينال مقصوده، سواء قيل: إنه صادق أو كاذب، فإنَّ مَن دعا الناس إلى مثل هذا الأمر العظيم، ولم يزل حتى استجابوا له طوعًا وكرهًا، وظهرت دعوته، وانتشرت ملته هذا الانتشار، هو من عظماء الرجال على أيِّ حالٍ كان، فإقدامه مع هذا القصد في أول الأمر وهو بمكة، وأتباعه قليل على أن يقول خبرًا يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، لا في ذلك العصر، ولا في سائر الأعصار المتأخرة، لا يكون إلا مع جزمه بذلك، وتيقُّنه له، وإلا فمع الشك والظن لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر

كذبه فيفتضح، فيرجع الناس عن تصديقه، وإذا كان جازمًا بذلك، متيقنًا له، لم يكن ذلك إلا عن إعلام الله له بذلك.

وليس في العلوم المعتادة أن يعلم الإنسان أنَّ جميع الخَلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه إلا إذا علم العالم أنه خارجٌ عن قدرة البشر، والعلم بهذا يستلزم كونه معجزًا، فإنَّا نعلم ذلك وإنْ لم يكن علمنا بذلك خارقًا للعادة، ولكن يلزم من العلم ثبوت المعلوم، وإلا كان العلم جهلًا، فثبت أنه على كل تقديرٍ يستلزم كونه خارقًا للعادة.

وجه إعجاز القرآن تفصيلًا:

وأمَّا التفصيل، فيقال: نفسُ نظم القرآن وأسلوبه عجيبٌ بديعٌ، ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأت أحدٌ بنظير هذا الأسلوب، فإنه ليس من جنس الشعر، ولا الرجز، ولا الخطابة، ولا الرسائل، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيب خارق للعادة، ليس له نظيرٌ في كلام جميع الخَلق.

وبَسْط هذا وتَفْصيله طويل، يعرفه مَن له نظر وتدبر، ونفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته، أمر عجيب خارق للعادة، لم يوجد مثل ذلك في كلام بشرٍ، لا نبي ولا غير نبيٍّ، وكذلك ما أخبر به عن الملائكة والعرش والكرسي والجن وخلق آدم، وغير ذلك، ونفس ما أمر به القرآن من الدين، والشرائع كذلك، ونفس ما أخبر به من الأمثال، وبينه من الدلائل هو أيضًا كذلك.

ومَن تدبَّر ما صنَّفه جميع العقلاء في العلوم الإلهية والخلقية والسياسية وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية -التوراة والإنجيل والزبور وصحف

الأنبياء- وجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم مما بين لفظه ونظمه، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم.

فالإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه، وما في التوراة والإنجيل ولو قدر أنه مثل القرآن، لا يقدح في المقصود، فإنَّ تلك كتب الله أيضًا، ولا يمتنع أن يأتي نبي بنظير آية نبيٍّ، كما أتى المسيح بإحياء الموتى، وقد وقع إحياء الموتى على يد غيره، فكيف وليس ما في التوراة والإنجيل مماثلًا لمعاني القرآن؛ لا في الحقيقة، ولا في الكيفية، ولا الكمية، بل يظهر التفاوت لكل مَن تدبَّر القرآن، وتدبَّر الكتب.

وهذه الأمور مَن ظهرت له من أهل العلم والمعرفة، ظهر له إعجازه من هذا الوجه، ومَن لم يظهر له ذلك، اكتفى بالأمر الظاهر الذي يظهر له ولأمثاله كعجز جميع الخَلْق عن الإتيان بمثله مع تحدي النبيِّ، وإخباره بعجزهم، فإنَّ هذا أمرٌ ظاهرٌ لكل أحدٍ(١).

(١) (٥/ ٤٢٢).

المبحث الثالث: الإخبار بالغيب الماضي، والأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء

ومثل إخباره بالغيوب التي لا يعلمها أحدٌ إلا بتعليم الله ﷻ من غير أن يُعلِّمه إياها بشرٌ؛ فأَخْبَرهم بالماضي مثل قصة آدم ونوحٍ وإبراهيم وموسى والمسيح وهود وشعيب وصالح وغيرهم، وبالمستقبلات، وكان قومه يعلمون أنه لم يتعلم من أهل الكتاب، ولا غيرهم، ولم يكن بمكَّة أحدٌ من علماء أهل الكتاب ممَّن يتعلم هو منه، بل ولا كان يجتمع بأَحَدٍ منهم يعرف اللسان العربي، ولا كان هو يُحسن لسانًا غير العربي، ولا كان يكتب كتابًا، ولا يقرأ كتابًا مكتوبًا، ولا سافر قبل نبوته إلا سفرتين: سفرة وهو صغير مع عمِّه أبي طالبٍ لم يفارقه، ولا اجتمع بأحدٍ من أهل الكتاب، ولا غيرهم، وسفرة أخرى وهو كبيرٌ مع رَكْبٍ من قريش لم يفارقهم، ولا اجتمع بأحدٍ من أهل الكتاب.

وأخبر مَن كان معه بأخبار أهل الكتاب بنبوته مثل إخبار بحيرى الراهب بنُبوَّته، وما ظهر منه مما دلَّهم على نُبوَّته، ولهذا تزوَّجته خديجة قبل نُبوَّته لما أُخْبرت به من أحواله...

ولكن المقصود هنا ذكر بعض ما في القرآن من أنه كان يخبرهم بالأمور الماضية خبرًا مفصلًا لا يعلمه أحد إلا أن يكون نبيًّا، أو مَن أخبره نبيٌّ وقومُهُ يعلمون أنه لم يخبره بذلك أحدٌ من البشر، وهذا مما قامت به الحجة عليهم، وهم

مع قوة عداوتهم له، وحصرهم على ما يطعنون به عليه، لم يمكنهم أن يطعنوا طعنًا يقبل منهم، وكان علم سائر الأمم بأن قومه المعادين له، المجتهدين في الطعن عليه، لم يمكنهم أن يقولوا: إن هذه الغيوب علَّمها إياه بشرٌ، فوجب على جميع الخَلق أن هذا لم يُعلِّمه إيَّاها بشرٌ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩]، فأخبر أنه لم يكن يعلم ذلك هو ولا قومه، وقومه تقرُّ بذلك، ولم يتعلم من أحدٍ غير قومه(١).

والقرآن نفسه قد بيَّن من آيات نُبوَّته، وبراهين رسالته أنواعًا متعددةً مع اشتمال كل نوعٍ على عددٍ من الآيات والبراهين، مثال ذلك: إخباره لقومه بالغيب الماضي الذي لا يمكن بشرًا أن يعلمه إلا أن يكون نبيًّا، أو يكون ممن تلقَّاه عن نبيٍّ، وقومه يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشرٍ، ولا من أهل الكتاب، ولا غيرهم، وهذا نوعان:

منه: ما كان يسأله عنه المشركون وأهل الكتاب؛ لينظر هل هو نبيٌّ أم لا؟ وكان قومه يرسلون إلى أهل الكتاب البعيدين عنهم، مثل مَن كان بالمدينة، وغيرها من أهل الكتاب يطلبون منهم ما يسألونه عنه، فيُرْسلون إليهم ليسألوه عن ذلك، ويمتحنون بذلك هل هو نبي أم لا؟

ومنه ما كان الله يُخْبره به ابتداءً، ويجعله علمًا وآيةً لنبوته، وبرهانًا لرسالته، مع ما في ذكر هذه القصص من الاعتبار لأمورٍ أخرى.

فكان كلٌّ من هذين النوعين دليلًا وعبرةً على نبوته من طريقين، فكان دليلًا وعبرةً على نبوته من جهة إخباره بالغيب الذي لا يعلمه إلا نبي، وكانت عبرةً

---

(١) (١/ ٤٠٠).

بما فيها من أحوال المؤمنين والكافرين التي توجب اتباع سبيل المؤمنين الذين اتبعوا مثله، وتجنب سبيل الكافرين الذين خالفوا مثله.

وحُكْمُ الشيء حُكْمُ نظيره، فإذا كان مَنْ كان مثله ومثل مَن اتَّبعه سعيدًا، وحال من خالف مثله، ومثل مَن اتبعه شقيًّا، كان في هذا دلالةٌ وعبرةٌ توجب اتباعه، وتنهى عن مخالفته.

وهذا أيضًا دليلٌ على نُبوَّة مَن قبله من الأنبياء من وجهين: من جهة أنه أخبر بمثل ما أخبروا به من غير مواطأةٍ بينهم وبينه، ولا تشاعرٍ، لم يأخذوا عنه، ولم يأخذ عنهم، وكل منهما أخبر عن الله بأخبارٍ مفصلةٍ، يمتنع الاتفاق عليها عادةً إلا بتواطؤٍ، فإذا لم يكن تواطؤٌ وتشاعرٌ، وامتنع اتفاق ذلك من غير مواطأةٍ، علم أن كلًّا من المخبرين صادق، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].

وقصَّ قصته في السورة إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢ - ١٠٦] إلى قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١٠، ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]، وقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّن

﴿ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩].

وقال تعالى لما قصَّ قصة نوحٍ من سورة هود، وهي أطول ما قصَّه في قصَّة نوحٍ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

فذكر سبحانه أن هذا الذي أوحاه إليه من أنباء الغيب ما كان يعلمه هو ولا قومه من قبل هذا، فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك لا من أهل الكتاب، ولا من غيرهم، وهو لم يعاشر إلا قومه، وقومه يعلمون ذلك منه، ويعلمون أنَّهم لم يكونوا يعلمون ذلك، ويعلمون أيضًا أنه هو لم يكن يعلم ذلك، وأنه لم يكن يعاشر غيرهم، وهم لا يعلمون ذلك، صار هذا حجة على قومه، وعلى من بلغه خبر قومه.

ومثل ما أخبرهم عن قصَّة آدم، وسجود الملائكة له، وتزيين إبليس له حتى أكل من الشجرة، وهبط هو وزوجه، وأخبرهم عن قصة نوحٍ، ومكثه فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا، وهذا في التوراة الموجودة بأيدي أهل الكتاب: مقدار لُبْثه في قومه قبل الغرق وبعده(١).

وأخبرهم عن قصَّة الخليل، وما جرى له مع قومه، وإلقائه في النار، وذبح ولده، ومجيء الملائكة إليه في صورة ضيفان، وتبشيره بإسحاق ويعقوب، وذهاب الملائكة إلى لوطٍ، وما جرى للوطٍ مع قومه، وإهلاك الله مدائن قوم لوطٍ.

---

(١) جاء في سفر التكوين (٩/ ٢٨، ٢٩): «وعاش نوحٌ بعد الطوفان ثلاث مئةٍ وخمسين سنة ٢٩ فكانت كل أيام نوحٍ تسع مئة وخمسين سنة، ومات».

وقصَّة إسرائيل مع بنيه؛ كقصة يوسف، وما جرى له بمصر، وقصة موسى مع فرعون، وتكليم الله إياه مرةً بعد مرةٍ، وآياته كالعصا، واليد البيضاء، والقُمَّل، والضفادع، والدم، وفلق البحر، وتظليل الغمام على بني إسرائيل، وإطعامهم المن والسلوى، وانفجار الماء من الحجر اثنتي عشرة عينًا لسقيهم وعبادتهم العجل، وقتل بعضهم بعضًا لمَّا تاب الله عليهم، وقصة البقرة، ونتق الجبل فوقهم.

وقصة داود وقتله لجالوت، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذَر الموت، فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم، وقصة الذي أماته الله مائة عامٍ، ثم بعثه، وغير ذلك من أحوال بني إسرائيل، إلى أن ذكر قصة زكريا وابنه يحيى، وعيسى ابن مريم، وأحوال المسيح وآياته، ودعائه لقومه، والآيات التي بعث بها، وتفاصيل ذلك.

وذكر قصة أصحاب الكهف، وقصَّة ذي القرنين، وغير ذلك من قصص الأنبياء والصالحين والكفار مفصلة مبينة بأحسن بيانٍ، وأتم معرفةٍ، مع علم قومه الَّذين يعرفون أحواله من صغره إلى أن ادعى النُّبوة أنه لم يتعلم هذا من بشرٍ، بل لم يجتمع هو بأحدٍ من البشر يعرف ذلك، ولا كان عندهم بمكة مَنْ يعرف ذلك، لا يهودي، ولا نصراني، ولا غيرهم، فكان هذا من أعظم الآيات والبراهين لقومه بأنَّ هذا إنما أعلمه به وأنبأه به الله.

ومثل هذا الغيب لا يعلمه إلا نبيٌّ، أو من أخذ عن نبيٍّ، فإذا لم يكن هو أخذه عن نبيٍّ، تعيَّن أن يكون نبيًّا[1].

---

(١) (٥/ ٣١٩).

كيف يعلم أنه لم يتعلم ذلك من غيره؟[١]:

ثمَّ سائر أهل الأرض يعلمون أنه لم يتعلَّم ذلك من بشرٍ، من طرقٍ:

أحدها: أنَّ قومه المعادين له الَّذين هم من أحرص الناس على القدح في نُبوَّته، مع كمال علمهم لو علموا أنه تعلَّم ذلك من بشرٍ لطعنوا عليه بذلك وأظهروه، فإنهم مع علمهم بحاله يمتنع ألَّا يعلموا ذلك لو كان، ومع حرصهم على القدح فيه يمتنع ألَّا يقدحوا فيه، ويمتنع ألَّا يظهر ذلك.

الثاني: أنه قد تواتر عن قومه أنهم كانوا يقولون: إنه لم يكن يجتمع به مَن يُعلِّمه ذلك.

الثالث: أنه لو كانت هذه القصص المتنوعة قد تعلمها من أهل الكتاب مع عداوته لهم، لكانوا يخبرون بذلك، ويظهرونه، ولو أظهروا ذلك لنُقِلَ ذلك وعُرِفَ، فإن هذا من الحوادث التي تتوفَّر الهمم والدواعي على نقله.

---

(١) فتقرير الاستدلال بإخباره عَلَيْهِ السَّلَامُ بالغيوب الماضية يحتاج إلى سَبْرٍ وتقسيمٍ، فيقال: هذه الغيوب التي أخبر بها إما أن يكون تعلَّمها من مصدرٍ أرضيٍّ، أو من مصدرٍ سماويٍّ، وهذا المصدر الأرضي إما أن يكون قومه أو غيرهم، فإذا بطل أن يكون إنما تعلم هذا العلم من مصدرٍ أرضيٍّ؛ سواء من قومه أو من غيرهم كما سيقرره الشيخ، تعيَّن أن يكون وحيًا من الله تعالى، وإلى هذا أشار القرآن في مواطن عدة إلى أن هذه الأخبار إنما هي من الغيب الذي لا طريق لمعرفته إلا الوحي، قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦].

الرابع: أنه حيث بُعِثَ، كان الناس إما مشركًا، وإما كتابيًّا، فلم يكن هناك أحدٌ على الدين الذي دعا إليه، وقد علم الناس بالتواتر أنَّ المشركين -من قريشٍ وغيرهم- لم يكونوا يعرفون هذه القصص، ولو قدر أنَّهم كانوا يعرفونها، فهم أوَّل مَن دعاهم إلى دينه، فعادَوه وكذبوه، فلو كان فيهم من علَّمه، أو يعلم أنه تعلَّم من غيره لأظهر ذلك.

الخامس: أن مثل هذا لو كان، فلا بد أن يعرفه -ولو خواص الناس- وكان في أصحابه الذين آمنوا به من يعرف ذلك، وكان ذلك يشيع، ولو تواصوا بكتمانه كما شاع ما كتم من أمر الدول الباطنية، ولكان خواصه في الباطن يعلمون كذبه، وكان علمهم بذلك يناقض تصديقه في الباطن كما عرف في مثل ذلك، فكيف، وكان أخص أصحابه وأعلمهم بحاله أعظمهم محبةً وموالاةً؟ بخلاف حال من يبطن خلاف ما يظهر، فإن خواص أصحابه لا يُعظِّمونه في الباطن، فإنه علم الناس أنَّ قومه الذين كانوا معادين له غاية العداوة، وكانوا يطلبون القدح في نُبوَّته بكلِّ طريقٍ، يعلمون أنه لم يكن عندهم بشرٌ يعلمه مثل هذا، وأنه لم يكن في قومه ولا بلده من يعرف هذا، علم الناس ما علمه قومه أن هذا أنبأه به الله، وكان هذا من أعلامه وآياته وبراهينه.

وهذا ممَّا يبين الله في القرآن أنه من آياته، وأنه حين أخبر قومه بهذا -مع تكذيبهم وفرط عداوتهم له- لم يمكن أحدًا منهم أن يقول له: بل فينا من كان يعلم ذلك، وأنت كنت تعلم ذلك، وقد تعلَّمته منَّا أو من غيرنا، فكان إقرارهم بعدم علمه وعلمهم، ومع فرط عداوتهم له، آيةً بينةً لجميع الأمم أنه لم يكن هو ولا هم يعلمون ذلك...

وقد قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، بيَّن بذلك أن تلاوته عليهم هذا الكتاب، وإدراءهم -أي: إعلامهم به- هو بمشيئة الله وقدرته، لا من تلقاء نفسه.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ﴾ [يونس: ١٥- ١٦]، فبيَّن أنه لبث فيهم عُمرًا من قبله، وهو لا يتلو شيئًا من ذلك، ولا يعلمه، ولا يعلمهم به، فليس الأمر من جهته، ولكن من جهة الله الذي لو شاء ما تلاه عليهم، ولا أدراهم به، وتلاوته عليهم وإدراؤهم به هو من الإعلام بالغيوب الذي لا يعلمها إلا نبيٌّ.

وبيَّن أنَّ ذلك من الإرسال الذي يحبُّه الله ويرضاه، لا من الكونيِّ الذي قدَّره، وهو لا يحبه، ولا يرضاه؛ كإرسال الشياطين... وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

بيَّن سبحانه من حاله ما يعلمه العامة والخاصة، وهو معلومٌ لجميع قومه الذين شاهدوه، متواترٌ عند من غاب عنه وبلغته أخباره من جميع الناس أنه كان أُميًّا لا يقرأ كتابًا، ولا يحفظ كتابًا من الكتب، لا المنزلة، ولا غيرها، ولا يقرأ شيئًا مكتوبًا، لا كتابًا منزلًا، ولا غيره، ولا يكتب بيمينه كتابًا، ولا ينسخ شيئًا من كتب الناس المنزلة، ولا غيرها.

ومعلومٌ أن من يعلم من غيره إما أن يأخذ تَلْقينًا وحفظًا، وإما أن يأخذ من كتابه، وهو لم يكن يقرأ شيئًا من الكتب من حفظه، ولا يقرأ مكتوبًا، والذي يأخذ

من كتاب غيره إما أن يقرأه، وإما أن ينسخه، وهو لم يكن يقرأ، ولا ينسخ[(١)].

والقرآن مملوءٌ من إخباره عن الغيب الماضي الذي لا يعلمه أحد من البشر إلا من جهة الأنبياء الذين أخبرهم الله بذلك، ليس هو الشيء الذي تزعمه ملاحدة المتفلسفة، فإنَّ هذه الأمور الغيبيَّة المعينة المفصَّلة لا يؤخذ خبرها قطُّ إلا عن نبيٍّ؛ كموسى، ومحمد، وليس أحدٌ ممَّن يدعي المكاشفات؛ لا من أولياء الله، ولا من غير أولياء الله يخبر بشيءٍ من ذلك.

ولهذا، كان هذا من أعلام الأنبياء وخصائصهم التي لا يشركهم فيها غيرهم، وأهل الملل مُتَّفقون على ما دلَّ عليه العقل الصريح من أنَّ هذا لا يعلم إلا بخبر نبيٍّ، فإذا كان محمد قد أخبر من ذلك بما أخبر به موسى وغيره من الأنبياء، وأخبر بما يعلمونه مما لا يعلمه أحد إلا بالتعلُّم منهم، وقد عرف أن محمدًا لم يتعلم هذا من بشرٍ، كان هذا آيةً وبرهانًا قاطعًا على نُبوَّته.

ثم العلم بأن محمدًا لم يتعلم هذا من بشرٍ يحصل في حياته، أما قومه المباشرون له، الخبيرون بحاله، فكانوا يعلمون أنه لم يتعلم هذا من بشرٍ، فقامت عليهم الحجة بذلك، وأما مَن لم يعرف حاله إلا بالسماع، فيعلم ذلك بطرقٍ؛ منها: تواتر أخباره، وكيف كان؟ من حين ولد إلى أن مات كما هي مستفيضةٌ مشهورةٌ متواترةٌ، يعلمها مَن كان له خبرةٌ بذلك أعظم مما يعلم به حال موسى وعيسى، فإنَّ محمدًا ظهر أَمْره، وانتشرت أخباره، وتواترت أحواله، أعظم من جميع بني آدم، فما بقي ما دون هذا من أحواله يخفى على

(١) (٥/ ٣٢٥).

الناس، فكيف مثل هذا؟

ومنها: أن يقال: مثل هذا لو وقع لكان من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، بل كان المتبعون له، المؤمنون به إذا اطلعوا على ذلك، فلا بد أن يُشِيعُوه ويُعلنوه، فكيف المخالفون له، المكذبون له؟ فإنَّ القوم المتفرقين الذين لم يتواطئوا، كما لا يجتمعون على تعمُّد الكذب، فلا يجتمعون على كتمان مثل ذلك، بل يجتهد الملوك والرؤساء في إخفاء ما يُبْطنونه من أمر ملكهم الذي بَنَوْه عليه، ويحلفون أولياءهم على كتمان ذلك، ويبذلون لهم الرغبة والرهبة في ذلك... لا سيما والذين آمنوا بحمده واتَّبعوه -أولًا- من المهاجرين كانوا مؤمنين به باطنًا وظاهرًا، هجروا لأجله الأوطان والأهل والمال، وصبروا على أنواع المكاره والأذى، طائفة كبيرة ذهبت إلى الحبشة، مهاجرةً بدينها لما عذَّبها المخالفون له حتى يرجعوا عن دينه، وطائفة كانوا بمكة يعذبون؛ هذا يقتل، وهذا يخرج به إلى بطحاء مكة في الحر، وتُوضَع الصخرة على بطنه حتى يكفر، وهذا يمنع رزقه ويترك جائعًا عريانًا.

ثم إنهم هجروا أحب البلاد إليهم، وأفضلها عندهم: مكة أم القرى إلى مدينةٍ كانوا فيها محتاجين إلى أهلها، وتركوا أموالهم بمكة... وجميع المهاجرين والأنصار آمنوا به طوعًا واختيارًا قبل أن يؤمر أحدٌ بقتالٍ، فإنه مكث بمكة بضع عشرة سنةً لا يقاتل أحدًا، ولم يُؤمر بقتالٍ، بل كان لا يُكرِه أحدًا على الدين كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وكانوا خلقًا كثيرًا.

ومعلوم أن الخلق الكثير الذين اتبعوا شخصًا قد جاء بدينٍ لا يوافقه عليه

أحد، وطلب منهم أن يؤمنوا به ويتبعوه، ويفارقوا دين آبائهم، ويصبروا على عداوة الناس وأذاهم، ويهجروا لأجله ما ترغب النفوس فيه من الأهل والمال والوطن، وهو مع ذلك لم يعط أحدًا منهم مالًا، ولا كان له مال يعطيهم إياه، ولا ولَّى أحدًا ولايةً، ولم يكن عنده ولايةٌ يوليهم إياها، ولا أَكْره أحدًا، ولا بقرصةٍ في جلده، فضلًا عن سوطٍ أو عصا أو سيفٍ، وهو مع ذلك يقول عمَّا يخبرهم به من الغيب: الله أخبرني به، لم يخبرني بذلك بشرٌ، فلو كانوا -مع ذلك- يعلمون أن تعلمه من بشرٍ، لكان هذا مما يقوله بعضهم لبعضٍ.

ويمتنع في جِبلَّةِ بني آدم وفِطَرِهم أن يعلموا أنه كاذبٌ، وأنه قد تعلم هذا من بشرٍ، وليس فيهم مَن يخبر بذلك، مع أنهم كانوا كثيرين لا يمكن تواطؤهم على الكذب والكتمان، بل ولا داعي لهم يدعوهم إلى ذلك، ويمتنع أَلَّا يعلموا ذلك، وهم بطانته المُطَّلعون على أحواله، وهم يسمعون كلام أعدائه المطلعين على حاله، والقرآن كان ينزل شيئًا فشيئًا، لم ينزل جملةً، بل كانوا يسألونه عن الشيء بعد الشيء من الغيب بين الذين آمنوا به، وباطنوه، واطلعوا على أسراره، وهو لا يعلم شيئًا من ذلك، ثم يخبرهم به، وهم مُطَّلعون على أمره خبرًا بعد خبرٍ، وسؤالًا بعد سؤالٍ، وهذا كان بمكة، وليس بها أحدٌ من علماء أهل الكتاب، لا اليهود، ولا النصارى.

ثم هاجر إلى المدينة، وبها خَلقٌ كثيرٌ من اليهود؛ قينقاع والنضير وقريظة، ولعلهم كانوا بقدر نصف أهلها، أو أقل أو أكثر، وهم أيضًا يسألونه عن الغيوب التي لا يعلمها إلا نبيٌّ، فيخبرهم بها، وبتلو عليهم ما سأله عنه المشركون من الغيب، وما أخبرهم به، ويتلو عليهم هذا الغيب الذي أوحاه الله إليه، ويُبيِّن أنَّ

الله أعلمه ذلك، لم يعلمه إياه بشرٌ.

فآمَن به طائفةٌ من أهل الكتاب، وكفرت به طائفةٌ أخرى، والطائفتان ليس فيهم مَن يقول: إنَّ هذا تعلمه منَّا، أو من إخواننا، أو نظرائنا، ولا إنك قرأته في كتبنا، مع أنه لو كان قد تعلم ذلك منهم، لكان شيوخه منهم، وشيوخهم إذا علموا أنه كاذبٌ تعلمه منهم، يمتنع أن يصدقوه باطنًا وظاهرًا، بل تصديقهم الكتاب الأول، وعلمهم بكذب مَن ادَّعى نزول كتابٍ ثانٍ، وقد تعلم منهم يدعوهم إلى أن يُبيِّنوا أَمْره، ويُظْهروا كذبه، ويقولوا للناس: تعلَّم منَّا، نحن أخبرناه بذلك، لا سيما مع ما فعله باليهود من القتل والحصار والجلاء والسبي، وغير ذلك.

وهذا لو وقع، لكان من أعظم ما تتوفَّر الهمم والدواعي على نقله، ينقله الموافق والمخالف، فلمَّا لم يقل ذلك أحدٌ، ولم ينقله أحدٌ مع ما أظهره من الأخبار المتواترة التي علمها الخاص والعام بأنَّ هذا ممَّا أنبأني الله، لم يخبرني به بشرٌ، كان هذا دليلًا قاطعًا بينًا في أن هذه الأخبار الغيبية التي لا يعلمها إلا نبيٌّ أعلمه الله بها، أو من تعلمها من نبيٍّ: هي مما أنبأه الله به، ولم يعلمه ذلك بشر(١).

اعتراض المشركين على الإخبار بالغيب الماضي وجوابه:

ولهذا، زَعْم بعضهم أنه تعلم من بشرٍ، ظهر كذبه لكل أحدٍ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

فكان بمكة رجلٌ أعجمي مملوك لبعض قريشٍ، فادعى بعض الناس أن

---

(١) (٥/ ٣٨٦).

محمدًا كان يتعلم من ذلك الأعجمي، فبيَّن الله أن هذا كذب ظاهر، فإن ذلك رجلٌ أعجمي لا يمكنه أن يتكلم بكلمةٍ من هذا القرآن العربي، ومحمد ﷺ عربي لا يعرف شيئًا من ألسنة العجم، فمَن كلمه بغير العربية لا يفقه كلامه، فلا ذلك الرجل يحسن التكلم بالعربية، ولا مُحمَّد ﷺ يفهم كلامًا بغير العربية، فلهذا قال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ [النحل: ١٠٣]، أيْ: يميلون إليه، ويضيفون إليه أنه علَّم محمدًا ﷺ ﴿أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وكذلك قال بعض الناس عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٤ - ٦].

فبيَّن سبحانه أنَّ قول هذا من الكذب الظاهر المعلوم لأعدائه فضلًا عن أوليائه، فإنهم يعلمون أنه ليس عنده أحدٌ يعينه على ذلك، وليس في قومه، ولا في بلده مَن يحسن ذلك ليعينه عليه؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤]، فإنَّ جميع أهل بلده وقومه المعادين له يعلمون أن هذا ظلمٌ له وزورٌ، ولهذا لم يقل هذا أَحدٌ من عقلائهم المعروفين.

وكذلك قولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، فإن قومه المُكذِّبين له يعلمون أنه ليس عنده مَن يُمْلي عليه كتابًا، وقد بيَّن ما يظهر كذبهم بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]، فإنَّ في القرآن من الأسرار ما لا يعلمه بشرٌ إلا بإعلام الله إياه، فإن الله يعلم السِّرَّ في السماوات والأرض.

ثم لمَّا تبيَّن بطلان قولهم هذا، ذكر ما قدحوا به في نُبوَّته، فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

فهذا كلام المعارضين له الذين أنكروا أَكْله ومَشْيه في الأسواق التي يباع فيها ما يؤكل، وما يلبس، وقالوا: هلَّا أنزل إليه مَلَك فيكون معه نذيرًا، أو يستغني عن ذلك بكنزٍ ينفق منه، أو جنةٍ يأكل منها؟ وقال الظالمون: إن تتَّبعون إلا رجلًا مسحورًا، قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨].

يقول: مثَّلوك بالكاذب والمسحور والناقل عن غيره، وكلٌّ من هذه الأقوال يظهر كذبه لكلِّ من عرفك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]، والضالُّ: الجاهل العادل عن الطريق، فلا يستطيع الطريق الموصلة إلى المقصود، بل ظهر عجزهم وانقطاعهم في المناظرة.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]، فإنه أتاهم بجليَّة ما في الصحف الأولى، كالتوراة والإنجيل مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئًا، فإذا أخبرهم بالغيوب التي لا يعلمها إلا نبيٌّ أو مَن أخبره نبيٌّ، وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبر أحدٍ من الأنبياء، تبيَّن لهم أنه نبيٌّ، وتبيَّن ذلك لسائر الأمم؛ فإنه إذا كان قومه المعادون وغير المعادين له مُقرِّين بأنه لم يجتمع بأحدٍ يعلمه ذلك، صار هذا منقولًا بالتواتر، وكان مما أقرَّ به مخالفوه مع حرصهم على الطعن لو أمكن، فهذه

الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة على قومه، وعلى جميع مَنْ بلغه خبر ذلك[(١)].

إجابته على أسئلة أهل الكتاب:

وقد كانوا يرسلون إلى أهل الكتاب ليسألوهم عن أمره ﷺ، قال محمد بن إسحاق: حدثني شيخٌ من أهل مصر قدم منذ بضعٍ وأربعين سنةً عن عكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس قال: «بَعثتْ قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: اسألوهم عن محمدٍ، وَصِفُوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء.

فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أَمْرَه وبعضَ قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالت لهم أحبار يهود: سَلُوه عن ثلاثٍ نأمركم بهن، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتقوِّلٌ، فروا فيه رأيكم.

سلوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجلٍ طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح، ما هو؟ فَإِنْ أخبركم بذلك، فإنه نبيٌّ فاتبعوه، وإنْ هو لم يخبركم، فهو رجل مُتقوِّلٌ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريشٍ، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين

---

(١) (١/ ٤٠٣).

محمدٍ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمورٍ، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، خبرنا...

فسألوه عمَّا أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: أُخْبركم، وجاءه جبريل من الله بسورة الكهف، فيها خبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وقول الله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]...

وقد ذكر الله تعالى سؤالهم عن الآيات التي كانوا يسألونه عنها ليعلموا: هل هو نبيٌّ صادقٌ أم كاذبٌ؟ فقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧] إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]...

وقال تعالى لما ذكر قصَّة أهل الكهف التي سألوه عنها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]، أي: يسألونك عن ذاك، ويسألونك عن هذا(١).

فممَّا سأله عنه أهل الكتاب في المدينة مسائل، وهي غير المسائل التي كان يسأل عنها وهو بمكة، كما كان مشركو قريشٍ يرسلون إلى اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمدٍ، فيرسل اليهود بمسائل يمتحنون بها نُبوَّته، وذلك مثل ما في (صحيح البخاري)(٢)، عن أنسٍ قال: «جاء عبد الله بن سلام إلى رسول الله ﷺ

---

(١) (٥/ ٣٨١).

(٢) صحيح البخاري (٣٢٢٩).

مقدمه المدينة، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، والولد ينزع إلى أمه تارةً، وإلى أبيه. قال: (**أخبرني جبريل آنفًا**). قال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، (**أمَّا أول أشراط الساعة فنارٌ تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأمَّا أول طعامٍ يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوتٍ، وأما الولد، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة، نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل، نزع الولد إلى أُمِّه**)، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله.

قال: يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بهتٌ، فإنْ علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك، فجاءت اليهود، فقال لهم النَّبيُّ ﷺ: (**أي رجلٍ عبد الله فيكم؟**). قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وعالمنا وابن عالمنا، قال: (**أرأيتم إنْ أسلم عبد الله؟**). قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج إليهم عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرُّنا وابن شرِّنا، وتنقَّصوه. قال: فهذا ما كنت أخاف وأحذر».

وروى مسلمٌ في (صحيحه)(١)، عن ثوبان قال: «كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ، فجاء حبرٌ من أحبار اليهود، وقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعةً كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ قال: قلت: ألا تقول: يا رسول الله؟ قال: إنما سمَّيته باسمه الذي سمَّاه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: (**إنَّ اسمي الذي سماني به أهلي محمد**)، فقال اليهودي: جئتُ أسألك، فقال رسول الله ﷺ: (**ينفعك**

---

(١) صحيح مسلم (٣١٥).

شيءٌ إن حدثتك؟). قال: أسمع بأذني، فنكت بعودٍ معه، فقال له: (**سَلْ**)، فقال اليهودي: أين الناس يوم تبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات؟

فقال رسول الله ﷺ: (**في الظُّلمة دون الجسر**). قال: فمَن أوَّل الناس إجازةً؟ قال: (**فقراء المهاجرين**)، فقال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون؟ قال: (**زيادة كبد نونٍ**). قال: وما غذاؤهم على أثره؟ قال: (**يُنْحر لهم ثور الجنَّة الذي كان يأكل من أطرافها**). قال: فما شرابهم عليه؟ قال: (**من عينٍ فيها تُسمَّى سلسبيلًا**). قال: صدقت.

قال: وجئت أسألك عن شيءٍ لا يعلمه أحدٌ من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: (**ينفعك إذا حدثتك**). قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: (**ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعَلَا منيُّ الرجل منيَّ المرأة، أَذْكَرا بإذن الله، وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجل آنثا بإذن الله**)، فقال اليهودي: صدقت، وإنك لَنبيٌّ، ثم انصرف، فقال النبيُّ ﷺ: (**إنَّه سألني هذا الذي سألني عنه، وما أعلم شيئًا منه حتى أتاني به الله تعالى**)»...

ففي هذه الأحاديث أن علماء اليهود كعبد الله بن سلام وغيره كانوا يسألونه عن مسائل، يقولون فيها: لا يعلمها إلا نبيٌّ، أي: ومَن تعلَّمها من الأنبياء، فإنَّ السائلين كانوا يعلمونها، كما جاء أيضًا: لا يعلمها إلا نبي أو رجل أو رجلان، فكانوا يمتحنونه بهذه المسائل ليتبيَّن هل يعلمها، وإذا كان يعلم ما لا يعلمه إلا نبي، كان نبيًّا.

ومعلوم أنَّ مقصودهم بذلك إنما يتم إذا علموا أنه لم يعلم هذه المسائل من أهل الكتاب، ومن تعلَّم منهم، وإلا فمعلوم أن هذه المسائل كان تعلَّمها بعض

الناس، لكن تعلمها هؤلاء من الأنبياء.

وهذا يُبيِّن أنَّ هؤلاء السائلين له من أهل الكتاب كانوا يعلمون أن أحدًا من البشر لم يعلمه ما عند أهل الكتاب من العلم؛ إذ لو جوَّزوا ذلك عليه، لم يحصل مقصودهم من امتحانه؛ هل هو نبيٌّ أم لا؟ فإنهم إذا جوَّزوا أن يكون تعلم ما لا يعلمه إلا نبي من أهل الكتاب، كان من جنسهم، فلم يكن في علمه بها، وإجابتهم عنها دليل على نبوته، فلا بد أن يكون هؤلاء السائلون يقطعون بأنه لم يتعلَّم من أهل الكتاب.

وهذا كان بالمدينة بعد أن أقام بمكة بضعة عشرة سنةً، وانتشر أمرُهُ، وكذَّبه قومه، وحرصوا على إبطال دعوته بكلِّ طريقٍ يقدرون عليه، فلو كان بمكة أو بالمدينة أحدٌ من أهل الكتاب يتعلم منه، أو لقي أحدًا من أهل الكتاب في طريقٍ فتعلم منه، لكان ذلك يقدح في مقصود هؤلاء السائلين، فتبيَّن أنه كان معلومًا عند أهل الكتاب أنه لم يتعلم شيئًا من الغيب من بشرٍ، لا سيما ولو كان قد تعلَّمه من أهل الكتاب -وقد كذَّبهم وحاربهم- لأظهروا ذلك، ولشاع في أهل الكتاب، فكان إذا أجابهم قالوا: هذا تعلَّمته من فلانٍ، وفلان منا، أو هذا علَّمكه بعض أهل ديننا.

وهذا كما كانوا يُرْسلون إلى قومه من قريشٍ ليسألوه عن مسائل، ويقولون: إن أخبركم بهنَّ، فهو نبي مرسل، وإلا فهو مُتقوِّلٌ، ويقولون: سلوه عن مسائل لا يعلمها إلا نبي، فهذا من أهل المدينة ومن قريش قومه، يُبيِّن أن قومه المشركين وأهل الكتاب كانوا متفقين على أنه لم يتعلم شيئًا من ذلك البشر، إذْ لو جوَّزوا ذلك لم يحصل مقصودهم بذلك، ولم يجز أن يقولوا: لا يعلمها إلا نبي، فإنهم كانوا جميعًا يعلمون أنَّ من أهل الكتاب مَن يعلم هذه المسائل، وبذلك يعرف

هل يجيب فيها بما قالته الأنبياء، أو بخلاف ذلك، ويعلمون أنَّ مَن كان تعلَّمها من أهل الكتاب، ومَن تعلَّم منهم لا يدل جوابه عنها على نُبوَّته كما لو أجاب عن تلك المسائل بعض أهل الكتاب.

وكما لو سأل في زماننا بعض الناس لبعض المسلمين عن تلك المسائل أو غيرها من أنباء الغيب التي لا يعلمها إلا نبيٌّ، فإن ذلك لا يدل على نبوته؛ لأنه قد تعلم ذلك من الأنبياء، فدلَّ على أن مرادهم بقولهم: «لا يعلمها إلا نبي»، أي: لا يعلمها ابتداءً بدون تعليمٍ من بشرٍ إلا نبي، ويدلُّ على أن المشركين وأهل الكتاب كانوا جميعًا متفقين على أنه لم يتعلم من بشرٍ مع انتشار أخباره، ومع اطلاع قومه على أسراره، ومع ظهور ذلك -لو وجد- ومع أنهم لو جوَّزوا تجويزًا أن يكون قد تعلمها من بشرٍ في الباطن، لم يجز أن يستدلَّ بها على نبوته، فدل على أنهم كانوا قاطعين بأنه لم يتعلم ذلك من بشرٍ؛ لا في الباطن، ولا في الظاهر، وهذا طريقٌ بيِّن يدل على أنه لم يتعلم ذلك من بشرٍ سوى الطرق المذكورة هنا(١).

---

(١) (٥/ ٣٨١).

المبحث الرابع: موافقة أصول شرائع الرسل السابقين

وأهل الكتاب معهم حقٌّ في الخبريات والطلبيات[1]، ومعهم باطل، وهو ما بدَّلوه في الخبريات؛ سواء كان المبدل هو اللفظ أو معناه وما ابتدعوه أو ما نسخ من العمليات[2]، والمنسوخُ الذي تنوَّعت فيه الشرائع قليلٌ بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب والرسل، فإن الذي اتفقت عليه هو الذي لا بد للخَلق منه في كل زمانٍ ومكانٍ، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

وعامَّة السور المكيَّة؛ كالأنعام، والأعراف، وآل حم، وآل طس، وآل الر، هي من الأصول الكليَّة التي اتفقت عليها شرائع المرسلين؛ كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والصدق والعدل والإخلاص، وتحريم الظلم والفواحش

---

(١) الخبر هو ما يقبل الصدق والكذب لذاته، ويقصد الشيخ هنا بالخبريات هو ما ورد في كتب السابقين من أخبارٍ عن الله وصفاته، وعن الأنبياء، وقصص الأمم الغابرة، والطلب هو استدعاء حصول شيء، وقد يكون هذا استدعاء لفعل شيء، وهو الأمر أو تركه وهو النهي، ومقصود الشيخ بالطلبيات هنا هي الشرائع والأوامر والنواهي الواردة في الكتب السابقة.

(٢) المقصود بالعمليات: هي الأحكام الشرعية الفرعية التي تتعلق بكيفية أعمال الجوارح، وبعض أعمال القلوب؛ كأحكام العبادات والمعاملات والأنكحة وغيرها، وضدها العلميات المتعلقة بالاعتقاد كمسائل أصول الدين، وكذا أصول الأدلة كحجية الإجماع والقياس ونحوها.

والشرك، والقول على الله بلا علمٍ.

وعامَّة ما عندهم من النُّقول الصحيحة عن الأنبياء من التوراة والإنجيل والزبور ونبوات الأنبياء توافق المنقول عن مُحمَّدٍ ﷺ، شهد هذا لهذا، وهذا لهذا، وذلك من دلائل نبوة أولئك الأنبياء، ومن دلائل نبوة محمد ﷺ، ولهذا يذكر الله ذلك بيانًا لإنعامه بمحمد، ودلالةً لنبوته؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٤].

وقال تعالى لما قصَّ قصة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، فذكر الإله نعمته وآيته بكونه لم يكن يعلمها هو ولا قومه أيضًا كانوا يعلمونها؛ لئلَّا يظن أنه تعلَّم ذلك من قومه، فإنَّ قومه لم يكونوا يعلمون ذلك، وقد علم بالنقل المتواتر أن محمدًا ﷺ وُلِدَ بمكَّة، وبها نشأ بعد أن كان مسترضعًا في بادية سعد بن بكر قريبًا من الطائف شرقي مكة وهو صغير، ثم حملته مرضعته حليمة السعدية إلى أمه بمكة، لا يعلم شيئًا من ذلك، ولا هناك من يتعلَّم منه شيء من ذلك.

وأهل مكة يعلمون حاله، وأنه لم يتعلم ذلك من أحدٍ، ثم أخبرهم بالغيب الذي لا يعلمه أحدٌ إلا بتعليم الله له، فكان هذا من أعلام رسالته، ودلائل نبوته عليهم أولًا، وعلى غيرهم آخرًا، فإنهم كانوا مشاهدين له، يعلمون أنه لم يتعلم

ذلك من أحدٍ، وغيرهم يعلم ذلك بالأخبار المتواترة، ويعلم أن قومه المكذبين له مع حرصهم على الطعن فيه، ومع علمهم بحاله، لو كان قد تعلَّم من أهل الكتاب لقالوا: هذا قد تعلَّمه منهم، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

والمقصود: أنه نفى عِلْم قومه بما أخبره فيه؛ بيانًا لآلاء الله التي هي آياته ونعمه، فإن ذلك يدلُّ على أنه لم يتعلم ذلك من قومه، وفيه إنعام الله على الخلق بذلك.

وقال تعالى لمَّا ذكر قصة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٣ - ٤٦].

فنفى سبحانه شهادته لهذه الأمور الغائبة، وحضوره لها؛ تنبيهًا للناس على أنه أخبر بالغيب الذي لم يشهده ولم يعرفه من جهة أخبار الناس، فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك، ولا عاشر غير قومه، وكل مَن عرف حاله يعلم أنه لم يتعلم شيئًا من ذلك، لا من أهل الكتاب، ولا ممَّن نقل عن أهل الكتاب.

فإذا كان محمدٌ ﷺ أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله في باب أسماء الله

وصفاته، وتوحيده وملائكته وأوليائه وأعدائه، مع العلم بأنَّ في هذه الأمور من التفاصيل الكثيرة ما يمتنع اتفاق اثنين عليه إلا عن مواطأةٍ بينهما، ومحمد وموسى -صلوات الله عليهما وسلامه- لم يتواطآ، بل لم يواطئ محمد ﷺ أحدًا من الرسل قبله، ولا واطئوه، والخبر الكذب إما أن يتعمد صاحبه الكذب، وإما أن يغلط، فالكاذبان المتعمدان للكذب لا يتفقان في القصص الطويلة، والتفاصيل العظيمة، وكذلك الغالطان لا يتَّفق غلطهما في مثل ذلك، بل الاثنان من آحاد الناس إذا أخبر كلٌّ منهما عن حال بلدةٍ، وأخبر الآخر بمثل خبره من غير مواطأةٍ، عُرف صدقهما، فكيف بالأمور الغائبة التي لا يمكن العلم بها إلا من جهة الله تعالى، فهذا من دلائل نبوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

وأمَّا القدر الذي يخالف ما جاء به مُحمَّدٌ ﷺ مما ينقلونه عن الأنبياء، فهو نوعان:

أحدهما: ما وقع فيه النسخ من الشرائع، وهذا لا يمنعه، لكن المنسوخ مثل هذا بالنسبة إلى ما لم ينسخ من الكتاب نظير المنسوخ من القرآن والأحاديث النبوية، فإنه قليلٌ جدًّا بالنسبة إلى ما لم ينسخ، وكذلك عامة ما أمر به موسى وداود والمسيح وغيرهم من الأنبياء، إذا اعتبر بما أمر به محمد ﷺ، وجد عامة ذلك متفقًا لم ينسخ منه إلا القليل.

والثاني: الخبريات، وهذه قد ادَّعى بعض أهل الكتاب أن محمدًا خالف بعض ما أخبرت به الأنبياء قبله، وهذا باطلٌ، فإنَّ أخبار الأنبياء لا يجوز أن تتناقض؛ إذ هم كلهم صادقون مصدقون، ومن علم أن محمدًا رسول الله، وأن

موسى رسول الله، وأن المسيح رسول الله، علم أن أخبارهم لا تتناقض، لكن قد يخبر هذا بما لم يخبر به هذا؛ فيكون في أخبار أحدهم زيادات على أخبار غيره لا ما يناقض خبر غيره.

وما يذكره أهل الكتاب ممَّا يناقض خبر مُحمَّدٍ ﷺ، فهو عامته ممَّا حرفوا معناه وتأويله، وقليل منه حرف لفظه[١].

---

(١) (١١٧/٥).

المبحث الخامس: الإخبار بالغيوب المستقبلة

وقد أخبر بالغيوب المستقبلة، وهذه تقوم بها الحجة على مَن عرف تصديق ذلك الخبر[1]، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢]، ثم قال:

---

(١) وإنْ عُورض هذا الاستدلال بما يظهر على ألسنة الكُهَّان من الإخبار بأمورٍ مستقبليةٍ، فتقع كما أخبروا، أُجيب بالفرق من جهتين؛ من جهة أنَّ أخبار الأنبياء لا يقع فيها الكذب منهم، وإنَّما قد يقع الكذب عليهم، فيقيم الله مَنْ ينفيه ويُبيِّنه، أما الكذب منهم لا يكون بخلاف أخبار الكُهَّان التي لابد ان يقع فيها الكذب، وهو أمرٌ مشهورٌ معلومٌ بالنص، وواقع الحال.
وأيضًا من جهة أن إخبار الأنبياء يكون فيها من التفصيل والبيان لما سيقع ما لا يقدر على مثله غيرهم من البشر، ولا معاونوهم من الجن. يقول الشيخ رحمه الله عن ذلك في النبوات (١/ ١٥٠): «وكذلك الإخبار ببعض الأمور الغائبة مع الكذب في بعض الأخبار، فهذا تفعله الجن كثيرًا مع الكهان، وهو معتاد لهم مقدور، بخلاف إخبارهم بما يأكلون، وما يدخرون، مع تسمية الله على ذلك، فهذا لا تظهر عليه الشياطين... وأيضًا: فخبر المسيح وغيره من الأنبياء ليس فيه كذبٌ قط، والكهان لا بدَّ لهم من الكذب، والرب قد أخبر في القرآن أن الشياطين تنزل على بعض الناس، فتُخْبره ببعض الأمور الغائبة، لكن ذكر الفرق، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣].
وقال: وكذلك ما يُخبر به الرسول من أنباء الغيب، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].
فهذا غيب الرب الذي اختصَّ به؛ مثل علمه بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق، فإنَّ هذا لا يقدر عليه إلا الله، والجن غايتها أن تخبر ببعض الأمور المستقبلة؛ كالذي يسترقه الجن من السماء مع ما في الجنِّ من الكذب، فلا بدَّ لهم من الكذب، والذي يخبرون به هو مما يعلم بالمنامات وغير المنامات، فهو من جنس المعتاد للناس، وأما ما يخبر الرسل من الأمور البعيدة الكبيرة مفصلًا؛ مثل إخباره: «**إنكم تقاتلون الترك، صغار الأعين، ذلف الآنف، ينتعلون الشعر، كأن وجوههم المجان المطرقة**»، وقوله: «**لا تقوم الساعة حتى تخرج نارٌ من**

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [الروم: ٢ - ٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٣- ٢٤]، فأخبر أنهم لن يفعلوا ذلك في المستقبل، وكان كما أخبر.

وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فأخبر أنه لا يقدر الإنس والجن إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهذا الخبر قد مضى له أكثر من سبعمائة سنةٍ، ولم يقدر أحدٌ من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

وقال عن الكفار وهو بمكة: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، وظهر تصديق ذلك يوم بدرٍ وغيره، وبعد ذلك بسنين كثيرةٍ.

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥]، وكان

=

أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى»، ونحو ذلك، فهذا لا يقدر عليه جني، ولا إنسي. والمقصود أن ما يخبر به غير النبي من الغيب معتاد، معروف نظيره من الجن والإنس، فهو من غيب الله الذي قال فيه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن. ٢٦، ٢٧].اهـ. باختصار.

الأمر كما وعده، وظهر تصديق ذلك بعد سنين كثيرةٍ.

وكذلك قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، فأظهر الله ما بعثه به بالآيات والبرهان واليد والسنان(١).

وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤]، وكانوا كما أخبر.

وقال تعالى خطابًا لليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٦].

وقال: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]، فأخبر عن اليهود أنهم لن يتمنَّوا الموت أبدًا، وكان كما أخبر، فلا يتمنى اليهود الموت أبدًا، وهذا دليلٌ من وجهين؛ من جهة إخباره بأنه لا يكون أبدًا، ومن جهة صرف الله لدواعي اليهود عن تمني الموت، مع أنَّ ذلك مقدورٌ لهم، وهذا من أعجب الأمور الخارقة للعادة، وهم -مع حرصهم على تكذيبه- لم تنبعث دواعيهم لإظهار تكذيبه بإظهار تمني الموت.

---

(١) (١/٤٠٨).

وقال في سورة المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر: ١١ - ١٣] إلى قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: ٢٦ - ٢٨]. وقال عن أبي لهبٍ عمِّه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١ - ٣]، وكان كما أخبر به، مات الوليد كافرًا، ومات أبو لهبٍ كافرًا.

وقال في سورة الفتح: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٠]، وقال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]، وقال: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦].

وهذا كله وقع كما أخبر، فحصلت لهم الغنائم الكثيرة، ودخلوا المسجد الحرام آمنين، ودعيت الأعراب إلى قتال الروم، والفرس يقاتلونهم أو يسلمون، فلا بد من القتال أو الإسلام، ليس هناك هدنةٌ بلا قتالٍ، كما كان يكون قبل نزول الآية.

وقال تعالى عن المنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١- ١٢].

وكذلك كان، فروى أهل التفسير والمغازي والسير أن هذه الآية نزلت في

المنافقين؛ كعبد الله بن أُبي، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن تابوت، ونحوهم، كانوا يقولون لبني النضير -وهم اليهود حلفاؤهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ الآية [الحشر: ١١]، فأخبر الله عنهم أنَّهم لن يفعلوا ذلك، وكذلك كان، وضرب الله لهم مثلًا بالشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، كذلك المنافقون، وبنو النضير...

وكذلك في الأحاديث الصحيحة مما أخبر بوقوعه، فكان كما أخبر:

وفي (صحيح البخاري)(١)، عن عدي بن حاتمٍ قال: «بينا أنا عند النبي ﷺ إذ جاءه رجلٌ، فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر، فشكا قَطْع السبيل، فقال: **(يا عدي، هل رأيت الحيرة؟)**. قلت: لم أرَها، وقد أُنْبئت عنها. قال: **(فإن طالت بك حياةٌ لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله)**. قال: قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيئ الذين قد سعروا البلاد؟ **(وَلَئن طالت بك حياةٌ لتفتحن كنوز كسرى)**. قلت: كسرى بن هرمز! قال: **(كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياةٌ لترين الرجل يخرج ملء كفِّه من ذهبٍ أو فضةٍ يطلب مَن يقبله عنه، فلا يجد أحدًا يقبله منه، وليَلْقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن له: ألم أبعث إليك رسولًا فيبلغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالًا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم)**. قال عدي: سمعت النبي ﷺ يقول: **(اتَّقوا النار ولو بشق تمرةٍ، فمن لم يجد فبكلمةٍ طيبةٍ)**. قال عدي: فَرأيتُ الظعينة ترتحل من الحيرة

---

(١) صحيح البخاري (٣٥٩٥).

حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياةٌ لترون ما قال رسول الله ﷺ: (**يخرج ملء كفه**). قلت: وهذا الذي أخبر به من خروج الرجل بملء كفه من ذهبٍ أو فضةٍ، فلا يجد مَن يَقبله، ظهر كما أخبر في زمن عمر بن عبد العزيز»...

وروى البخاري(١)، عن عوف بن مالكٍ قال: «أتيت النَّبيَّ ﷺ في غزوة تبوك، وهو في قبةٍ من أدمٍ، فقال: (**اعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم مَوَتان يأخذ فيكم كقُعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينارٍ، فيظل ساخطًا، ثم فتنةٌ لا يبقى بيتٌ من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غايةٍ تحت كل غايةٍ اثنا عشر ألفًا**)».

قلت: ففتح بيت المقدس بعد موته في خلافة عمر بن الخطاب، ثم بعد ذلك وقع الطاعون العظيم بالشام، طاعون عمواس في خلافة عمر أيضًا، ومات فيه معاذ بن جبل، وأبو عبيدة بن الجراح، وخلقٌ كثيرٌ، وكان ذلك أول طاعونٍ وقع في الإسلام، فكان ما أخبر به، حيث أخذهم طاعونٌ كقُعاص الغنم، ثم استفاض المال في خلافة عثمان بن عفان حتى كان أحدهم يعطى مائة دينارٍ فيسخطها، وكَثُر المال حتى كانت الفرس تشتري بوزنها، ثم وقعت الفتنة العامة التي لم يبق بيتٌ من العرب إلا دخلته لمَّا قتل عثمان، ووقعت الفتنة بين المسلمين أو الملوك يوم الجمل، ويوم صفين.

---

(١) صحيح البخاري (٣١٧٦).

وفي (صحيح البخاري)[١]، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم السَّاعة حتَّى تقاتلوا التُّرك، صغار الأعين، حمر الوجوه، ذُلْف الأنوف، كأنَّ وجوههم المجانُّ المطرقة، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا نِعَالهم الشعر**».

قلت: وهؤلاء الطوائف كلهم قاتلهم المسلمون كما أخبر ﷺ، وأَمْر هذه الطوائف معروفٌ، فإنَّ قتالَ الترك من التتار وغيرهم الذين هذه صفتهم معروفٌ مشهورٌ، وحديثهم في أكثر من عشرة آلاف نسخة كبار وصغار من كتب المسلمين، قبل قتال هؤلاء الذين ظهروا من ناحية المشرق الذين هذه صفتهم التي لو كلف مَن رآهم بعينه أن يصفهم لم يحسن مثل هذه الصفة.

وفي (الصحيحين)، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى**»، وقد ظهرت هذه النار سنة بضعٍ وخمسين وستمائة، ورآها الناس، ورأوا أعناق الإبل قد أضاءت ببصرى، وكانت تحرق الحجر، ولا تنضج اللحم.

وفي (الصحيحين)[٢]: عن أبي سعيدٍ وأسماء أن رسول الله ﷺ «قال لعمار بن ياسر: (**تَقْتلك الفئةُ الباغيةُ**)».

وفي (الصحيحين)[٣]: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**هلك كسرى، ثمَّ لا يكون كسرى بعده، وقيصر ليهلكن، ثمَّ لا يكون قيصر بعده،**

---

(١) صحيح البخاري (٢٩٢٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٩١٢).

(٢) صحيح البخاري (٤٤٧)، وصحيح مسلم (٢٩١٦).

(٣) صحيح البخاري (٣٠٢٧)، وصحيح مسلم (٢٩١٨).

ولتنفتن كنوزهما في سبيل الله».

وفي (صحيح البخاري)(١) وغيره عن أبي بكرة، عن النَّبيِّ ﷺ «أنه قال عن الحسن: (**إنَّ ابني هذا سيدٌ، وسيُصْلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**)». قلت: فوقع هذا كما أخبر به بعد موت الرسول بنحو ثلاثين سنةً، وهو سنة أربعين من الهجرة، لما أصلح الله بالحسن بين الفئتين العظيمتين اللتين كانتا متحاربتين بصفين، عسكر عليٍّ، وعسكر معاوية.

وفي (الصحيحين)(٢): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**بينا أنا نائمٌ رأيتني على قَلِيبٍ عليها دلوٌ، فنزعتُ منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة، فنزع بها ذنوبًا أو ذنوبين، وفي نزعه ضعفٌ -والله يغفر له- ثم استحالت غربًا، فأخذها ابن الخطاب، فلم أرَ عبقريًّا من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن**»، وفي روايةٍ: «**فاستحالت الدلو غربًا في يد عمر**»...

وقوله: «**في نزعه ضعفٌ**»، قصر مدته، وعجلة موته، وشغله بالحرب مع أهل الردة عن الافتتاح والتزيُّد الذي بلغه عمر في طول مدته.

وفي (الصحيحين)(٣): عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه «أن امرأةً سألت رسول الله ﷺ شيئًا، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك يا رسول الله؟ قال -أي: كأنها تعني الموت- قال: (**إنْ لم تجديني، فائتي أبا بكرٍ**)».

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٩٢).

(٢) صحيح البخاري (٣٦٦٤)، وصحيح مسلم (٢٣٢٩).

(٣) صحيح البخاري (٣٦٥٩)، وصحيح مسلم (٢٣٨٦).

وفي (السنن)[(١)]: عن سفينة، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**تكون خلافة النُّبوة ثلاثين سنةً، ثم تصير مُلكًا**»، فكان هذا العام تمام الثلاثين سنةً من موته، ودخل في ذلك خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي.

وفي (الصحيحين)[(٢)]: عنه ﷺ أنه قال: «**زُويَت لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ مُلْك أُمَّتي ما زوي لي منها**»...

قال الشافعي[(٣)]: كانت قريش تنتاب الشام انتيابًا كثيرًا، وكان كثيرٌ من معاشها منه، وتأتي العراق فيقال: لمَّا دخلت في الإسلام، ذكرت للنبي ﷺ خوفها من انقطاع معاشها بالتجارة من الشام والعراق إذا فارقت الكفر، ودخلت في الإسلام، مع خلاف ملك الشام والعراق لأهل الإسلام، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إذا هلك كسرى، فلا كسرى بعده**»، فلم يبق بأرض العراق كسرى يثبت له أمرٌ بعده، وقال: «**إذا هلك قيصر، فلا قيصر بعده**»، فلم يكن بأرض الشام قيصر، فأجَابهم على ما قالوا، وكان كما قال، قطع الله الأكاسرة عن العراق، وفارس، وقيصر عن الشام، وقال في كسرى: «**مزَّق الله مُلكه**»، فلم يبق للأكاسرة ملك، وقال في قيصر: «**ثبَّت مُلْكه**»، فثبت ملكهم ببلاد الروم، وتنحَّى عن الشام، وكل هذا يصدق بعضه بعضًا.

وفي (الصحيحين)[(٤)]: عن سفيان بن أبي زهير قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٤٦)، والترمذي في الجامع (٢٢٢٦)، وأحمد في المسند (٢١٩٢٨).

(٢) صحيح مسلم (٢٨٨٩)، ولم أقف عليه عند البخاري، ولم يعزه له المزي في التحفة (٢/ ١٣٥).

(٣) ينظر: الأم (٤/ ١٨١).

(٤) صحيح البخاري (١٨٧٥)، وصحيح مسلم (١٣٨٨).

«تفتح اليمن، فيأتي قومٌ يبسون فيتحملون بأهليهم ومَن أطاعهم، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، ثم تفتح الشام، فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»، فأخبر ﷺ بفتح اليمن، والشام، والعراق قبل أن يكون، وأخبر أنه يخرج من المدينة أقوامٌ يتحمَّلون بأهليهم ومَن أطاعهم إلى هذه الأمصار، ويطلبون الريف وسَعة الرزق، قال: والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون.

وفي (صحيح مسلم)[1]: عن أبي ذرٍّ، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**ستُفْتح مصر، وهي أرضٌ يُسمَّى فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا**». وفي روايةٍ: «**فأحسنوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذمَّةً ورحمًا، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان على موضع لَبنةٍ، فاخرج منها**»...

وفي (صحيح البخاري): عن سليمان بن صرد قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول حين أجلي الأحزاب عنه: «**الآن نغزوهم، ولا يغزونا**»، وكذلك كان.

وفي (صحيح مسلم)[2]: عن عبد الله بن عمرٍو أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا فتحت عليكم فارس والرُّوم، أيُّ قومٍ وأنتم**». قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله. قال رسول الله ﷺ: «**أوَ غير ذلك؟ تتنافسون، ثمَّ تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين، فتحملون بعضهم على رقاب بعضٍ**».

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٤٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٩٦٢).

وقال لعثمان: «**إنَّ الله مُقمِّصك قميصًا، فإن أرادوك على خَلْعه فلا تخلعه**»(١).

وفي (الصحيحين)(٢): عن أبي موسى قال: «بينا رسول الله ﷺ في حائطٍ من حوائط المدينة، وهو متكئٌ يركز بعودٍ في الماء والطين، إذ استفتح رجلٌ، فقال له: (**افتح وَبشِّره بالجنَّة**)، فإذا هو أبو بكرٍ، ففتحت له، وبشرته بالجنة، ثم استفتح رجلٌ آخر، فقال له: (**افتح له وبشِّره بالجنة**)، فذهبتُ، فإذا هو عمر، ففتحت له، وبشَّرته بالجنة، ثم استفتح رجلٌ آخر، فقال له: (**افتح له، وبشِّره بالجنَّة على بلوى تصيبه**)، فذهبت، فإذا هو عثمان، ففتحت له، وبشَّرته بالجنة، فقلت له الذي قال، فقال: اللهم صَبْرًا، والله المستعان».

وفي (الصحيحين)(٣): حديث حذيفة، «عن النَّبيِّ ﷺ في الفتن التي تموج موج البحر، وقال لعمر: (**إن بينك وبينها بابًا مغلقًا يوشك ذلك الباب أن يكسر**)، فسأله مسروق من الباب؟ فقال: عمر»...

وفي (الصحيحين)(٤) من غير وجهٍ أنه «لمَّا قال له ذو الخويصرة: يا محمد، اعدل فإنك لم تعدل. فقال: (**وَيْحك! قد خبتَ وخسرتَ إنْ لم أعدل**)، فقال بعض أصحابه: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبيُّ ﷺ: (**إنه يخرج من**

(١) أخرجه الترمذي في الجامع (٣٧٠٥)، وابن ماجه في سننه (١١٢).

(٢) صحيح البخاري (٣٦٧٤)، وصحيح مسلم (٢٤٠٣).

(٣) صحيح البخاري (٥٢٥)، وصحيح مسلم (١٤٤).

(٤) صحيح البخاري (٣٣٤٤)، وصحيح مسلم (١٠٦٤).

ضئضئ هذا أقوامٌ يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السَّهم من الرميَّة، آيتهم أن فيهم رجلًا مُخدَّج اليد، على عضده مثل البضعة من اللحم تدردر، عليها شعراتٌ)».

وفي روايةٍ في (الصحيحين): «**تمرق مَارقةٌ على حين فرقةٍ من المسلمين، يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحقِّ**»، وهؤلاء ظهروا بعد موته ببضعٍ وعشرين سنةً في أواخر خلافة عليٍّ، لما افترق المسلمون، وكانت الفئة بين عسكر عليٍّ وعسكر معاوية، وقَتلَهم عليٌّ بن أبي طالبٍ وأصحابه، وهم أدنى الطائفتين إلى الحقِّ، والطائفة الأخرى قتلوا عمار بن ياسر، وهي الطائفة الباغية، وكان عليٌّ قد أخبرهم بهذا الحديث وبعلامتهم، فطلبوا هذا المخدج فلم يجدوه حتى قام عليٌّ بنفسه، ففتَّش عليه، فوجده مقتولًا، فسجد شكرًا لله.

وفي الصحيح[1] عنه أنه قال: «**ستكون بعدي أمراء يُؤخِّرون الصلاة عن وقتها، فصلوا الصلاة لوقتها، واجعلوا صلاتكم معهم نافلةً**»، وهؤلاء ظهروا بعده بمدةٍ، فكانوا يؤخرون الظهر إلى وقت العصر، ويؤخرون العصر إلى اصفرار الشمس.

وفي (الصحيحين)[2] عنه أنه قال: «**إنَّكم ستَلْقون بعدي أثرةً، فاصبروا حتى تَلْقَونـي على الحوض**»، فلقوا بعده مَن استأثر عليهم.

---

(١) صحيح مسلم (٥٣٤).

(٢) صحيح البخاري (٧٠٥٧)، وصحيح مسلم (١٨٤٥).

وفي (الصحيحين)(١) عنه: «أنه سارَّ فاطمة، فقال لها وهو في مرضه الذي تُوفِّي فيه: (**إنِّي أُقْبَض في مرضي هذا**)، ثم أخبرها أنها أوَّل أهله لحوقًا به. وفي روايةٍ: وأخبرها أنها سيدة نساء المؤمنين».

وفي (الصحيحين)(٢): عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «(**أسرعكنَّ بي لحاقًا، أطولكن يدًا**). قالت: قالت: فكنَّ يتطاولن أيتهنَّ أطول يدًا، فكانت أطولنا يدًا زينب؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدَّق».

وفي (الصحيحين)(٣): عن أنسٍ قال: «كان النبي ﷺ يدخل على أُمِّ حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أُمُّ حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته، وجعلت تَفلي رأسه، فنام ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت: ممَّ تضحك؟ فقال: (**عُرِض عَليَّ ناسٌ من أُمَّتي يركبون ثَبَج هذا البحر ملوكًا على الأسرَّة**) -أو: مثل الملوك على الأسرَّة- فقالت أُمُّ حرامٍ: ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثمَّ وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت: ممَّ تضحك؟ فقال: (**عُرِضَ عليَّ ناسٌ من أُمَّتي**)... كما قال في الأولى، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال: (**أنتِ من الأوَّلين**). قال أنس: فركبت البحر زمان معاوية بن أبي سفيان، فصرعت عن دابتها لمَّا خرجت من البحر، فماتت»، وهذا كان في خلافة عثمان، ومعاوية نائبه، وكان المسلمون في

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٢٤)، وصحيح مسلم (٢٤٥٠).
(٢) صحيح البخاري (١٤٢٠)، وصحيح مسلم (٢٤٥٢).
(٣) صحيح البخاري (٢٧٨٨)، وصحيح مسلم (١٩١٢).

خلافة عمر لم يغزوا في البحر، وأول ما غزوا البحر في خلافة عثمان، وفتحوا جزيرة قبرص...

وفي حديث مسلمٍ(١)، عن أسماء بنت أبي بكرٍ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**سيكون في ثقيفٍ كذابٌ ومُبِيرٌ**»، وظهر الكذاب من ثقيف، وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي أظهر التشيُّع والانتصار للحسين، وقتل عبيد الله بن زيادٍ وغيره من قَتَلة الحسين، ثم أظهر أنه يوحى إليه، وأنه ينزل عليه، حتى قيل لابن عمر وابن عباس عنه، قيل لأحدهما: إنه يوحى إليه، وللآخر: إنه ينزل عليه، فقال أحدهما: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال الآخر: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢]، وأمَّا المُبِيرُ فكان هو الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان مُبِيرًا سفاكًا للدماء بغير حقٍّ، انتصارًا لملك عبد الملك بن مروان الذي استنابه.

وقد أخبر بأشياء من المُغيَّبات، ووقعت في زمانه، ووجدت كما أخبر، كما في (الصحيحين)(٢)، عن سهل بن سعدٍ، عن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «**لأُعْطينَّ هذه الراية غدًا رجلًا يحبُّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه**»، فكان كذلك.

وفي (الصحيحين)(٣)، عن أبي هريرة قال: «شهدنا مع رسول الله ﷺ حنينًا،

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٤٥).

(٢) صحيح البخاري (٣٠٠٩)، وصحيح مسلم (٢٤٠٦).

(٣) صحيح البخاري (٣٠٦٢)، وصحيح مسلم (١١١).

فقال لرجلٍ ممن يدَّعي الإسلام: (**هذا من أهل النار**)، فلمَّا حضرنا القتال، قاتل الرجل قتالًا شديدًا، فأصابته جراحةٌ، فقيل: يا رسول الله، الرجل الذي قلت له آنفًا: إنه من أهل النار، فإنه قاتل اليوم قتالًا شديدًا، وقد مات، فقال النبي ﷺ: (**إلى النَّار**)، فكاد بعض المسلمين أن يرتاب، فبينا هُمْ على ذلك إذ قيل: فإنَّه لم يمت، ولكن به جرحًا شديدًا، فلمَّا كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأُخْبر النبي ﷺ بذلك، فقال: (**الله أكبر! أشهد أنِّي عبد الله ورسوله**)، ثم أمر بلالًا فنادى في الناس: (**إنه لا يدخل الجنَّة إلا نفس مسلمة، وأن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**)»، ورواه سهل بن سعد.

وفي (الصحيحين)[1]: عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بعثني رسول الله ﷺ، وأبا مرثدٍ الغنوي، والزبير بن العوام، والمقداد، وكلنا فارس، فقال: (**انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخٍ، فإنَّ بها امرأةً معها كتابٌ من حاطبٍ إلى المشركين**)، فأدركناها تسير على بعيرٍ لها خبب، فقلنا لها: أين الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب. قال: فأنخنا بها، فالتمسنا الكتاب في رحلها، فلم نر كتابًا، قال: قلنا: ما كذب رسول الله ﷺ، لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. قال: فلما رأت أنِّي أهويت إلى حجزتها، وهي محتجزة بكساء، أخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناسٍ من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أَمْر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (**يا حاطب، ما هذا؟**). قال: لا تعجل عليَّ، إنِّي كنت امرءًا مُلْصقًا في قريش، ولم

---

(١) صحيح البخاري (٣٠٠٧)، وصحيح مسلم (٢٤٩٤).

أكن من أنفسها، وكان مَن كان معك من المهاجرين لهم قراباتٌ يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا، ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضاءً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (**إنَّه قد صَدقَكم**). فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: (**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك؟ لعلَّ الله قد اطَّلع على أهل بدرٍ، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**)».

فكان في هذا الكتاب إخبار المشركين بأن النبي ﷺ يريد أن يغزوهم، فأعلمه الله بذلك.

وفي (الصحيحين)[١]: عن أبي هريرة قال: «نعى رسول الله ﷺ للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه، فخرج إلى المصلَّى، وكبَّر أربع تكبيراتٍ»...

وعن كعب بن مالكٍ قال: «كان أُبي بن خلفٍ أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ، فلمَّا بلغت رسول الله ﷺ حلفته، قال رسول الله ﷺ: (**بَل أَنا أَقتلُهُ -إنْ شاء الله ﷻ**)، فأقبل أبي مقنعًا في الحديد، وهو يقول: لا نجوت إن نجا محمدٌ، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله، فاستقبله مصعب بن عميرٍ من بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر النبي ﷺ ترقوة أُبَي بن خلفٍ من فرجةٍ بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه فيها بحربته، فوقع أُبَي عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دمٌ، فأتاه أصحابه، فاحتملوه، وهو يخور خوار الثور، فقالوا: ما أجزعك! إنما هو خدشٌ، فذكر لهم قول رسول الله

---

(١) صحيح البخاري (١٣٣٣)، وصحيح مسلم (٩٥١).

ﷺ: (**أنا أقتل أُبيًّا**)، ثم قال: والذي نفسي بيده، لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لَماتوا أجمعون، فمات إلى النار»[١]...

روى البخاري[٢]، عن أنس بن مالكٍ قال: نعى رسول الله ﷺ زيدًا، وجعفرًا، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، وإن عيني رسول الله ﷺ لتذرفان، ثمَّ أخذها خالد بن الوليد سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[٣].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٧٣١)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٥).

(٢) صحيح البخاري (٣٧٥٧).

(٣) (٦/ ٧٣).

المبحث السادس: تأييد الله تعالى له

وقد أَيَّده تأييدًا لا يؤيد به إلا الأنبياء، بل لم يؤيد أحد من الأنبياء كما أيد به، كما أنه بعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع، وجعله سيد ولد آدم ﷺ، فلا يُعْرف قط أحدٌ ادعى النُّبوة وهو كاذب إلا قطع الله دابره، وأذلَّه، وأظهر كذبه وفجوره.

وكل مَن أَيَّده الله من المدعين للنُّبوة لم يكن إلا صادقًا كما أيد نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان، بل وأَيَّد شعيبًا وهودًا وصالحًا، فإن سُنَّة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وهذا هو الواقع، فمَنْ كان لا يعلم ما يفعله الله إلا بالعادة، فهذه عادة الله وسُنَّته يعرف بها ما يصنع، ومَن كان يعلم ذلك بمقتضى حكمته، فإنه يعلم أنه لا يؤيد من ادعى النُّبوة وكذب عليه تأييدًا لا يمكن أحدًا معارضته، وهكذا أخبرت الأنبياء قبله أن الكذاب لا يتمُّ الله أمره، ولا ينصره، ولا يؤيده، فصار هذا معلومًا من هذه الجهات.

ولهذا، أمر سبحانه أن نعتبر بما فعله في الأمم الماضية من جَعْل العاقبة للأنبياء وأتباعهم، وانتقامه ممَّن كذبهم وعصاهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ

أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤٦]...

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الشعراء: ٥، ٦]، فأخبر بأنَّ المكذبين له سيأتيهم في المستقبل أخبار القرآن الذي استهزءوا به، وبيَّن أن ما أخبرهم به حق بوقوع الخبر مطابقًا للخبر، وكان الأمر كذلك[(١)][(٢)].

---

(١) (١/ ٤١٠).

(٢) وقد أحسن الإمام ابن القيم تقرير دليل التأييد، فقال في زاد المعاد (٣/ ٥٥٩): «ودار بيني وبين بعض علمائهم مناظرة في ذلك، فقلت له في أثناء الكلام: ولا يتم لكم القدح في نبوة نبينا ﷺ إلا بالطعن في الرب تعالى، والقدح فيه، ونسبته إلى أعظم الظلم والسفه والفساد، تعالى الله عن ذلك.
فقال: كيف يلزمنا ذلك؟
قلت: بل أبلغ من ذلك، لا يتم لكم ذلك إلا بجحوده، وإنكار وجوده تعالى.
=

=

وبيان ذلك أنه إذا كان محمدٌ عندكم ليس بنبيٍّ صادقٍ، وهو بزعمكم ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفتري على الله، ويتقوَّل عليه ما لم يقله، ثم يتم له ذلك، ويستمر حتى يحلل ويحرم، ويفرض الفرائض، ويشرع الشرائع، وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل، وهم أهل الحق، ويسبي نساءهم وأولادهم، ويغنم أموالهم وديارهم، ويتمُّ له ذلك حتى يفتح الأرض، وينسب ذلك كله إلى أمر الله تعالى له به، ومحبته له، والرب تعالى يشاهده، وما يفعل بأهل الحق وأتباع الرسل، وهو مستمرٌّ في الافتراء عليه ثلاثًا وعشرين سنةً، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره، ويُعْلي أمره، ويُمكِّن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر، وأعجب من ذلك أنه يجيب دعواته، ويهلك أعداءه من غير فعل منه نفسه، ولا سبب، بل تارةً بدعائه، وتارةً يستأصلهم سبحانه من غير دعاءٍ منه ﷺ، ومع ذلك يقضي له كل حاجةٍ سأله إياها، ويعده كل وعدٍ جميلٍ، ثم ينجز له وَعْده على أتم الوجوه وأهنئها وأكملها، هذا وهو عندكم في غاية الكذب والافتراء والظلم، فإنه لا أكذب ممَّن كذب على الله، واستمرَّ على ذلك، ولا أظلم ممن أبطل شرائع أنبيائه ورسله، وسعى في رفعها من الأرض، وتبديلها بما يريد هو، وقتل أولياءه وحزبه وأتباع رسله، واستمرَّت نصرته عليهم دائمًا، والله تعالى في ذلك كله يقرُّه، ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع منه الوتين، وهو يخبر عن ربه أنه أوحى إليه أنه لا ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فيلزمكم معاشر مَنْ كذبه أحد أمرين لا بد لكم منهما: إما أن تقولوا: لا صانع للعالم، ولا مدبر، ولو كان للعالم صانع مدبر قدير حكيم، لأخذ على يديه، ولَقابله أعظم مقابلة، وجعله نكالًا للظالمين، إذ لا يليق بالملوك غير هذا، فكيف بملك السماوات والأرض، وأحكم الحاكمين؟

الثاني: نسبة الرَّبِّ إلى ما لا يليق به من الجور، والسفه، والظلم، وإضلال الخَلق دائمًا أبد الآباد، لا، بل نصرة الكاذب والتَّمكين له من الأرض، وإجابة دعواته، وقيام أمره من بعده، وإعلاء كلماته دائمًا، وإظهار دعوته، والشهادة له بالنبوة قرنًا بعد قرنٍ على رءوس الأشهاد في كلِّ مجمعٍ ونادٍ، فأين هذا من فعل أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، فلقد قدحتم في رب العالمين أعظم قدحٍ، وطعنتم فيه أشد طعنٍ، وأنكرتموه بالكلية، ونحن لا ننكر أن كثيرًا من

=

الكذَّابين قام في الوجود، وظهرت له شوكةٌ، ولكن لم يتمَّ له أمره، ولم تطل مدته، بل سلط عليه رسله وأتباعهم، فمحقوا أثره، وقطعوا دابره، واستأصلوا شأفته، هذه سنته في عباده منذ قامت الدنيا وإلى أن يرث الأرض ومَنْ عليها».اهـ.

- وحكى مناظرةً نحوها في «هداية الحيارى» (١٥٤)، قال: وقَدْ جرت لي مناظرةٌ مع أكبر من تشير إليه اليهود بالعلم والرئاسة، فقلت له في أثناء الكلام: إنهم بتكذيبهم محمدًا ﷺ وقد شتمتم الله أعظم شتيمة، فعجب من ذلك وقال: مثلك يقول هذا الكلام!

فقلت له: اسمع الآن تقريره، إذا قلتم: إن محمدًا ملك ظالم قهر الناس بسيفه، وليس برسولٍ من عند الله، وقد أقام ثلاثًا وعشرين سنةً يدَّعي أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافة، ويقول: أمرني الله بكذا، ونهاني عن كذا، وأوحي إليَّ كذا، ولم يكن من ذلك شيءٌ، ويقول: إنه أباح لي سبي ذراري مَن كذبني وخالفني ونساءهم، وغنيمة أموالهم، وقتل رجالهم، ولم يكن من ذلك شيء، وهو يدأب في تغيير دين الأنبياء، ومعاداة أممهم، ونسخ شرائعهم، فلا يخلو إما أن تقولوا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا: إنه خفي عنه، ولم يعلم به، فإن قلتم: لم يعلم به، نسبتموه إلى أقبح الجهل، وكان من علم ذلك أعلم منه، وإن قلتم: بل كان كله بعلمه ومشاهدته واطلاعه عليه، فلا يخلو إمَّا أن يكون قادرًا على تغييره، والأخذ على يديه، ومنعه من ذلك، أو لا، فإن لم يكن قادرًا، فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبية، وإن كان قادرًا، وهو مع ذلك يعزُّه وينصره ويودُّه، ويعليه ويعلي كلمته، ويجيب دعاءه، ويُمكِّنه من أعدائه، ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أَحدٌ بسوءٍ إلا ظفر به، ولا يدعوه بدعوةٍ إلا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم والسفه الذي لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء، فضلًا عن رب الأرض والسماء، فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته وتأييده بكلامه، وهذه عندكم شهادة زورٍ وكذب؟

فلما سمع ذلك، قال: معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذبٍ مفترٍ، بل هو نبي صادق، مَن اتبعه أفلح وسعد.

قلت: فما لك لا تدخل في دينه؟

قال: إنما بعث للأميين الذين لا كتاب لهم، وأما نحن فعندنا كتاب نتبعه.

=

اعتراض على الاحتجاج بالتأييد وجوابه:

وما يذكره بعض أهل الكتاب أو غيرهم من أنه نصر فرعون ونمرود وسنحاريب وجنكسان وغيرهم من الملوك الكافرين جوابه ظاهر؛ فإن هؤلاء لم يدَّعِ أحدٌ منهم النبوة، وأن الله أمره أن يدعو إلى عبادة الله وطاعته، ومَن أطاعه دخل الجنة، ومَن عصاه دخل النار بخلاف من ادَّعى أن الله أرسله بذلك، فإنه لا يكون إلا رسولًا صادقًا ينصره الله ويؤيده وينصر أتباعه، ويجعل العاقبة لهم، أو يكون كذابًا، فينتقم الله منه، ويقطع دابره، ويتبيَّن أن ما جاءه به ليست من الآيات والبراهين التي لا تقبل المعارضة، بل هي من جنس مخارق السَّحَرة والكهان والكذابين التي تقبل المعارضة، فإن معجزات الأنبياء من خواصها أنه لا يقدر أحدٌ أن يعارضها، ويأتي بمثلها، بخلاف غيرها، فإنَّ معارضتها ممكنة، فيبطل دلالتها.

والمسيح الدجال يدَّعي الإلهية، ويأتي بخوارق، ولكن نفس دعواه الإلهية دعوى ممتنعة في نفسها، ويرسل الله عليه المسيح ابن مريم فيقتله، ويظهر كذبه، ومعه ما يدلُّ على كذبه من وجوهٍ؛ منها: أنه مكتوبٌ بين عينيه: كافر. ومنها: أنه أعور، والله ليس بأعور. ومنها: أن أحدًا لن يرى ربه حتى يموت، ويريد أن يقتل الذي قتله أولًا، فيعجز عن قتله، فمعه من الدلائل الدالة على كذبه ما يبيِّن أنَّ ما

=

قلت له: غلبت كل الغلب، فإنه قد علم الخاص والعام أنه أخبر أنه رسول الله إلى جميع الخَلق، وإن مَن لم يتبعه فهو كافرٌ من أهل الجحيم، وقاتل اليهود والنصارى وهم أهل كتابٍ، وإذا صحت رسالته، وجب تصديقه في كل ما أخبَر به، فأمسك ولم يحر جوابًا». اهـ.

معه ليس آيةً على صدقه، بخلاف معجزات الأنبياء، فإنه لا يمكن أحدٌ من الإنس والجن أن يأتي بنظيرها، ولا يبطلها، مثل: قلب العصا حيةً لموسى، وإخراج ناقةٍ لصالحٍ من الأرض، وإحياء الموتى للمسيح، وانشقاق القمر، وإنزال القرآن، وغير ذلك لمُحمَّدٍ ﷺ(١).

---

(١) (١/ ٢٤٢).

المبحث السابع: بشارات الكتب السابقة

هل البشارة من شرط النبوة؟

والنصارى لهم سؤالٌ مشهورٌ بينهم، وهو أن فيهم من يقول: محمد ﷺ لم تبشر به النبوات بخلاف المسيح، فإنه بشرت به النبوات، وزعموا أن من لم تبشر به، فليس بنبيٍّ.

وهذا السؤال يورد على وجهين:

أحدهما: أنه لا يكون نبيًّا حتى تبشر به.

والثاني: أن من بشَّرت به أفضل أو أكمل ممن لم تبشر به، أو أن هذا طريق يعرف به نبوة المسيح، اختص به، وأنتم قد قلتم: ما من طريقٍ تثبت به نبوة نبيٍّ إلا ومحمد تثبت نُبوَّته بمثل تلك الطريق وأفضل.

وبكل حالٍ، فلا ريب عند علماء المسلمين أنَّ المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بشر بمحمدٍ ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٖ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] في موضعين من القرآن.

وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وإذا كان كذلك، فيقال: معلومٌ باتفاق أهل الملل أنه ليس من شرط نُبوَّة كل نبيٍّ أن يبشِّر به من قبله؛ إذ النُّبوة ثابتة بدون ذلك، لاسيما ونوح وإبراهيم وغيرهما لم يعلم أنه بشَّر بهما مَن قبلهما، وكذا عامة الأنبياء الذين قاموا في بني إسرائيل لم تتقدَّم بهم بشاراتٌ؛ إذ كانوا لم يبعثوا بشريعةٍ ناسخةٍ، كداود وأشعيا وغيرهما، وإنما قد يدعى هذا فيمن جاء بنسخ شرع مَن قبله، كما جاء المسيح

بنسخ بعض أحكام التوراة، وكذلك مُحمَّد ﷺ.

ففي مثل هذا يتنازع المتنازعون من علماء المسلمين وغيرهم: هل يشترط أن يكون قد أخبر بذلك قبل النسخ؟ على قولين. وحينئذٍ فالمسلمون يقولون: شريعة التوراة والإنجيل لم تشرع شرعًا مطلقًا، بل مقيدًا إلى أن يأتي محمد ﷺ، وهذا مثل الحكم المؤقت بغايةٍ لا يعلم متى تكون؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥]، ومثل هذا جائزٌ باتفاق أهل الملل، وهل يُسمَّى هذا نسخًا؟

فيه قولان(١)، قيل: لا يُسمَّى نسخًا؛ كالغاية المعلومة؛ كقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ

---

(١) قال المرداوي في التحبير (٦/ ١٩٩٣): «أكثر أصحابنا والأكثر: بيان الغاية المجهولة كـ ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥] ليس بنسخٍ، وابن عقيل وغيره: بلى، فالناسخ ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ الآية [النور: ٢]، وللقاضي القولان. قال ابن مفلحٍ: بيان الغاية المجهولة كـ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥] اختلف كلام أصحابنا وغيرهم: هل هو نسخ أم لا؟ والأظهر النفي. قال الشيخ تقي الدين في «المسودة»: بيان الغاية المجهولة مثل التي في قوله: ﴿ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥] نسخ عند القاضي وغيره. وقال القاضي: الناسخ ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ الآية [النور: ٢]؛ لأنَّ هذه الغاية مشروطة في حكمٍ مطلقٍ؛ لأن غاية كل حكمٍ إلى موت المكلف أو إلى النسخ، وكذلك ذكر في مسألة نسخ الأخف بالأثقل: أنَّ حد الزاني في أول الإسلام كان الحبس، ثم نسخ، وجعل حد البكر الجلد والتغريب، والثيب الجلد والرجم، وكذا قال القاضي أيضًا لمَّا احتج اليهود بما حكَوه عن موسى أنه قال: شريعتي مُؤبَّدة ما دامت السموات والأرض، فأجاب بالتكذيب، وبجوابٍ آخر، وهو: أنه لو ثبت لكان معناه: إلا أن يدعو صادق إلى تركها، وهو مَنْ ظهرت المعجزة على يده، وثبتت نبوته بمثل ما ثبتت نبوة موسى به، والخبر يجوز =

وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فإنَّ ارتفاع وجوب الصيام بمجيء الليل لا يسمَّى نسخًا باتفاق الناس، فقيل: إنَّ الغاية المجهولة كالمعلومة. وقيل: بل هذا يسمَّى نسخًا، ولكن هذا النسخ جائز باتفاق أهل الملل اليهود وغيرهم.

وعلى هذا، فثبوت نُبوَّة المسيح ومُحمَّد -صلوات الله وسلامه عليهما- لا تتوقَّف على جواز النسخ المتنازع فيه، فإنَّ ذلك إنما يكون في الحكم المطلق، والشرائع المتقدمة لم تشرع مطلقًا. وسواء قيل: إنَّ الإشعار بالناسخ واجب، أو قيل: إنه غير واجبٍ.

فعلى القولين قد أشعر أهل الشرع الأول بأنه سينسخ، فإنَّ موسى بشَّر بالمسيح، وكذلك غيره من الأنبياء وموسى والمسيح، وغيرهما من الأنبياء بشَّروا بمحمدٍ، وإذا كان هذا هو الواقع، فنُبوَّة المسيح ومحمد -صلى الله عليهما وسلم- لا تتوقَّف على ثبوت النسخ المتنازع فيه.

وحينئذٍ فنقول: العلم بنُبوَّة محمدٍ ﷺ ونبوة المسيح لا تتوقف على العلم بأنَّ مَن قبلهما بشَّر بهما، بل طرق العلم بالنُّبوة متعددة؛ فإذا عرفت نبوته بطريقٍ

=

تخصيصه كما يجوز تخصيص الأمر والنهي. قلت: وعلى هذا يستقيم أنَّ شريعتنا ناسخة، وهذا قول أبي الحسين وغيره، ثم ذكر القاضي في مسألة نسخ القرآن بالسُّنة أن الحبس في الآية لم ينسخ؛ لأنَّ النسخ أن يرد لفظ عام يتوهم دوامه، ثم يرد ما يرفع بعضه، والآية لم ترد بالحبس على التأبيد، وإنما وردت به إلى غايةٍ هو أن يجعل الله لهن سبيلًا، فأثبت الغاية، فوجب الحد بعد الغاية بالخبر. انتهى».اهـ.

من الطرق، ثبتت نُبوَّته عند مَن علم ذلك وإن لم يعلم أنَّ مَن قبله بشر به، لكن يقال: إذا كان الواجب أو الواقع أنه لا بدَّ من إخبار مَنْ قبله بمجيئه، وأن الإشعار بنسخ شريعة من قبله واجب أو واقع، صار ذلك شرطًا في النُّبوة، ومن علم نُبوَّته، علم أنَّ هذا قد وقع وإن لم ينقل إليه.

فإذا قال المعارض: عدم إخبار مَن قبله به يقدح في نُبوَّته، وأنه إذا قدر أنه لم يخبر به من قبله، والإخبار شرط في النبوة، كان ذلك قدحًا.

قيل: الجواب هنا من طريقين؛ أحدهما: أن يقال: إذا علمت نبوته بما قام عليها من أعلام النبوة؛ فإما أن يكون تبشير مَن قبله لازمًا لنبوته واجبًا أو واقعًا، وإما ألَّا يكون لازمًا، فإن لم يكن لازمًا، لم يجب وقوعه، وإن كان لازمًا، علم أنه قد وقع، وإن كان ذلك لم ينقل إلينا؛ إذ ليس كل ما قالته الأنبياء المتقدمون علمناه ووصل إلينا، وليس كل ما أخبر به المسيح ومن قبله من الأنبياء وصل إلينا، وهذا ممَّا يعلم بالاضطرار.

ولو قدر أنَّ هذا ليس في الكتب الموجودة، لم يلزم أن المسيح ومَن قبله لم يذكروه، بل يمكن أنَّهم ذكروه وما نقل، ويمكن أنه كان في كتبٍ غير هذه، ويمكن أنه كان في نسخٍ غير هذه النسخ، فأُزيلَ من بعضها، ونسخت هذه مما أزيل منه، وتكون تلك النُّسخ التي هو موجودٌ فيها غير هذه، فكلُّ هذا ممكنٌ في العادة لا يمكن الجزم بنفيه، فلو قدر أنه ليس في هذه الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب، لم يقطع بأنَّ الأنبياء لم يبشروا به، فإذا لم يمكن لليهود أن يقطعوا بأنَّ المسيح لم يبشر به الأنبياء، ولا يمكن أهل الكتاب أن يقطعوا بأن

محمدًا لم يبشر به الأنبياء، لم يكن معهم علمٌ بعدم ذلك، بل غاية ما يكون عند أحدهم ظن لكونه طلب ذلك فلم يجده...

ودلائل نُبوَّة المسيح ومحمد قطعية يقينية، لا يمكن القدح فيها بظنٍّ، فإنَّ الظن لا يدفع اليقين، لاسيما مع الآثار الكثيرة المخبرة بأن محمدًا كان مكتوبًا باسمه الصريح فيما هو منقولٌ عن الأنبياء، كما في (صحيح البخاري)(١) أنه قيل لعبد الله بن عمرٍو: «أخبرنا ببعض صفة رسول الله في التوراة، فقال: إنه لَموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي، إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتك المتوكل، لست بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا صَخَّابٍ بالأسواق، ولا تجزي بالسيئة السيئة، ولكن تجزي بالسيئة الحسنة، وتعفو وتغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة المَوجاء، فأفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، بأن يقولوا: لا إله إلا الله».

لكن هذا عندهم في نُبوَّة أشعيا(٢)، قال فيها: «عبدي الذي سرت به نفسي،

---

(١) صحيح البخاري (٢١٢٥).

(٢) في أشعيا (٤٢/ ١ - ٨): «هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه، فيخرج الحق للأمم. ٢ لا يصيح، ولا يرفع، ولا يسمع في الشارع صوته. ٣ قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة خامدة لا يطفئ إلى الأمان يخرج الحق ٤ لا يكلُّ، ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته ٥ هكذا يقول الله الرب، خالق السماوات وناشرها، باسط الأرض ونتائجها، معطي الشعب عليها نسمة، والساكنين فيها روحًا ٦ أنا الرب قد دعوتك بالبر، فأمسك بيدك، وأحفظك، وأجعلك عهدًا للشعب، ونورًا للأمم ٧ لتفتح عيون العمي؛ لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة».

أنزل عليه وَحْيي، فيظهر في الأمم عدلي، ويوصيهم بالوصايا، لا يضحك، ولا يسمع صوته في الأسواق، يفتح العيون العور، والآذان الصم، ويحيي القلوب الغلف، وما أعطيه لا أعطي أحدًا، يحمد الله حمدًا جديدًا يأتي من أقصى الأرض، وتفرح البرية وسكانها، يُهلِّلون الله على كل شرفٍ ويُكبِّرونه على كل رابيةٍ، لا يضعف، ولا يغلب، ولا يميل إلى الهوى، مشقح، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة، بل يقوي الصديقين، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذي لا يطفى، أثر سلطانه على كتفيه»، وهذه صفات منطبقة على محمد ﷺ وأمته، وهي من أجلِّ بشارات الأنبياء المتقدمين به(١).

طرق العلم بوقوع البشارات:

ثم العلم بأنَّ الأنبياء قبله بشَّروا به يُعْلم من وجوهٍ:

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب من ذكره.

الثاني: إخبار مَن وقف على تلك الكتب وغيرها من كتب أهل الكتاب ممَّن أسلم، ومَن لم يسلم، بما وجدوه من ذكره فيها، وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أنَّ جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه، وأنه رسول الله، وأنه موجودٌ عندهم، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لمَّا دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار به، وبايعوه من غير رهبةٍ ولا رغبةٍ.

ولهذا قيل: إن المدينة فُتحَت بالقرآن، لم تُفتح بالسيف كما فُتح غيرها. ومثل ما تواتر عن إخبار النَّصارى بوجوده في كُتُبهم مثل إخبار هرقل ملك الروم

---

(١) (٥/١٤٦).

والمقوقس ملك مصر صاحب الإسكندرية والنجاشي ملك الحبشة، والذين جاءوه بمكة.

وقد ذكر الله ذلك في القرآن في قوله عن اليهود: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال عن النصارى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ [القصص: ٥٢- ٥٣].

وقال ابن إسحاق: حدَّثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلمَّا بعثه الله من العرب، كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور، وداود بن سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمُحمَّدٍ ﷺ ونحن أهل شركٍ، وتخبرونا بأنه مبعوثٌ، وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا شيء نعرفه، وما هو بالذي كنَّا نذكر لكم»... فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وقال أبو العالية وغيره: كانوا -يعني: اليهود- إذا استنصروا بمُحمَّدٍ على مشركي العرب يقولون: اللَّهمَّ ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبًا عندنا، حتى نُعذِّب المشركين ونقتلهم، فلمَّا بعث الله محمدًا، ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به

حسدًا للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

وروى أبو زرعة بإسنادٍ صحيحٍ، عن أسامة بن زيد، عن أبيه زيد بن حارثة قال: «خرج رسول الله ﷺ وهو مُرْدفي، ثم أقبل رسول الله ﷺ في يومٍ حارٍّ من أيام مكة، حتى إذا كنَّا بأعلى الوادي لقيه زيد بن عمرو بن نفيل، فقال له رسول الله: (**يا ابن عمرٍو، ما لي أرى قومك قد شنفوك؟**). قال: أما والله، إن ذلك لغير ثائرةٍ كانت مني فيهم، لكن أراهم على ضلالٍ، فخرجت أبتغي هذا الدين، فأتيت إلى أحبار يثرب، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به.

فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فخرجت حتى آتي أحبار خيبر فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فقال لي حبرٌ من أحبار الشام: إنك لتسأل عن دينٍ ما نعلم أحدًا يعبد الله به إلا شيخٌ بالجزيرة، فخرجت فقدمت عليه، فأخبرته بالذي خرجت له، فقال: إن كل مَن رأيت في ضلالةٍ، فمن أنت؟

قلت: أنا من أهل بيت الله، ومن أهل الشوك والقرظ. فقال: إنه قد خرج في بلدك نبيٌّ -أو: خارجٌ- قد خرج نجمُهُ، فارجع فصدِّقه واتَّبعه وآمن به، فرجعت، فلم أحس شيئًا بعد، قال: فأناخ رسول الله ﷺ بعيره، فقدمنا إليه السفرة، قال زيد: ما آكل شيئًا ذبح لغير الله، فتفرَّقا، فجاء رسول الله ﷺ، فطاف بالبيت.

قال زيد: وأنا معه، وكان صنمان من نحاس يقال لهما: (إساف) و(نائلة) مستقبل الكعبة، يتمسَّح بهما الناس إذا طافوا، فقال رسول الله ﷺ: (**لا تمسَّهما،**

ولا تمسح بهما). قال زيد: فقلت في نفسي -وقد طفنا- لأمسنهما حتى أنظر ما يقول، فمسستهما، فقال رسول الله ﷺ: **(ألم تنهه؟)**، فلا والذي أكرمه، ما مسستهما حتى أنزل الله عليه الكتاب».

-«ومات زيد بن عمرو بن نفيل قبل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **(إنه يُبْعث أُمَّةً وحده)**، وروى البخاري[(١)] حديث خروج زيد بن عمرٍو قريبًا من هذا اللفظ.

وعن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن غلامًا يهوديًّا كان يخدم النبي، فمرض، فأتاه رسول الله يعوده، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة، فقال له رسول الله: **(يا يهودي، أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد في التوراة صفتي ومخرجي؟)**. قال: لا. قال الفتى: بلى والله يا رسول الله، إنا نجد في التوراة نعتك ومخرجك، وإنِّي أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال النبي ﷺ: **(أقيموا هذا من عند رأسه، وَلُوا أخَاكم)**، رواه البيهقي[(٢)] بإسنادٍ صحيحٍ...

وفي (الصحيحين)»[(٣)]: من حديث ابن عبَّاس عن أبي سفيان بن حرب لما حدثه عن هرقل -وقد تقدَّم حديثه في أول الكتاب- وذكر فيه أن هرقل لمَّا سأله عن صفات رسول الله ﷺ قال: إن يكن ما تقول حقًّا، إنه نبيٌّ، قد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أعلم أنِّي أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٢٦، ٣٢٢٧).

(٢) دلائل النبوة (٦/ ٢٧٢).

(٣) تقدم.

وزاد البخاري في حديثه، وقال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فنظر فقال: إن ملك الختان قد ظهر، فمَن يختتن من هذه الأُمَّة؟ قال: تختتن اليهود، فلا يهمنك شأنهم، وابعث إلى مَن في مملكتك من اليهود فيقتلوهم. ثم وجد إنسانًا من العرب فقال: انظروا أمُخْتتن هو؟ فنظروا، فإذا هو مختتن، وسأله عن العرب، فقال: يختتنون.

وكذلك النجاشي ملك الحبشة، لمَّا هاجر الصحابة إليه لمَّا آذاهم المشركون، وخافوا أن يفتنوهم عن دينهم، وقرءوا عليه القرآن، قال: فأخذ عودًا بين أصبعيه، فقال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته، فقال: وإن نخرتم، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي -يعني: أنتم آمنون- وقال: هذا لأن قريشًا أرسلوا هدايا إليه، وطلبوا منه أن يرد هؤلاء المسلمين، وقالوا: هؤلاء فارقوا ديننا، وخالفوا دينك.

والوجه الثالث: نفس إخباره بذلك في القرآن مرةً بعد مرة، واستشهاده بأهل الكتاب، وإخباره بأنه مذكورٌ في كتبهم، مما يدلُّ العاقل على أنه كان موجودًا في كتبهم، فإنه لا ريب عند كلِّ مَن عرف حال محمدٍ من مؤمنٍ وكافرٍ أنه كان من أعقل أهل الأرض، فإنَّ المُكذِّبين له لا يشكون في أنه كان عنده من الخبرة والمعرفة والحذق ما أوجب أن يقيم مثل هذا الأمر العظيم الذي لم يحصل لأحدٍ مثله، لا قبله ولا بعده، فعلم ضرورةً أنه لا يفعله، ولا يخبر به، وهو من أحرص الناس على تصديقه.

وأخبرهم بالطرق التي يصدق بها، وأبعدهم عن أن يفعل ما يعلم أنه يكذب به، فلو لم يعلم أنه مكتوبٌ عندهم بل علم انتفاء ذلك، لامتنع أن يخبر بذلك مرةً بعد مرةٍ، ويستشهد به، ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه، وأوليائه وأعدائه، فإنَّ هذا لا

يفعله إلا مَن هو أقل الناس عقلًا؛ لأنَّ فيه إظهار كذبه عند مَن آمن به منهم، عند مَن يخبرونه وهو ضد مقصوده، وهو بمنزلة مَن يريد إقامة شهودٍ على حقه.

فيأتي إلى مَن يعلم أنه لا يكذب، ويعلم أنه ليس بشاهدٍ، ولا حضر قضيته، ويقول: هذا يشهد لي، وهذا يشهد لي، فإنهم كانوا حاضرين هذه القضية، فيقول أولئك: لسنا نشهد له، ولا حضرنا هذه القضية، فهذا لا يفعله عاقلٌ يعلم أنهم لم يكونوا حاضرين، وأنهم يُكذِّبونه، ولا يشهدون له»(١).

ذكر بعض البشارات التي ما زالت باقيةً في كتبهم:

وممَّا ينبغي أن يُعْرف: ما قد نبَّهنا عليه غير مرةٍ، أن شهادة الكتب المتقدمة لمُحمَّدٍ ﷺ إما شهادتها بنبوته، وإما شهادتها بمثل ما أخبر به هو من الآيات البينات على نبوته ونبوة من قبله، وهو حُجَّةٌ على أهل الكتاب، وعلى غير أهل الكتاب من أصناف المشركين الملحدين، كما قد ذكر الله هذا النوع من الآيات في غير موضعٍ من كتابه، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]...

وذلك مثل قوله في التوراة ما قد ترجم بالعربية: «جاء الله من طور سينا»، وبعضهم يقول: «تجلَّى الله من طور سينا، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران»(٢).

---

(١) (٥/ ١٦٠).

(٢) جاء في سفر التثنية (٣٣/ ١، ٢): «وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله، بني إسرائيل قبل موته (٢) فقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبل فاران».

قال كثيرٌ من العلماء -واللفظ لأبي محمد بن قتيبة: ليس بهذا خفاء على مَن تدبره، ولا غموض؛ لأن مجيء الله من طور سينا إنزاله التوراة على موسى من طور سينا، كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا، وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح، وكان المسيح من ساعير -أرض الخليل بقرية تدعى (ناصرة)- وباسمها يُسمَّى من اتبعه: نصارى، كما وجب أن يكون إشراقُهُ من ساعير بالمسيح، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران إنزاله القرآن على محمد ﷺ، وجبال فاران هي جبال مكة.

قال: وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلافٌ في أن فاران هي مكة، فإن ادَّعوا أنها غير مكة، فليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم. قلنا: أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن (هاجر) و(إسماعيل) فاران؟ وقلنا: دلُّونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبيِّ الذي أنزل عليه كتابًا بعد المسيح أو ليس (استعلن) و(علن) وهما بمعنًى واحدٍ؟ وهو ما ظهر وانكشف، فهل تعلمون دينًا ظهر ظهور الإسلام، وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فُشوَّه؟...

فعُلِمَ أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال مُحمَّدٍ ﷺ، وهو سبحانه ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزماني، فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله وهداه...

وهذه الأماكن الثلاثة أقسم الله بها في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ١-٨].

فأقسم بالتين والزيتون، وهو الأرض المقدسة الذي ينبت فيها ذلك، ومنها بعث المسيح، وأنزل عليه فيها الإنجيل، وأقسم بطور سينين، وهو الجبل الذي كلَّم الله فيه موسى، وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة من الشَّجرة، وأقسم بالبلد الأمين، وهي مكة، وهو البلد الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه، وهو الذي جعله الله حرمًا آمنًا، ويتخطَّف الناس من حولهم خلقًا وأمرًا، قدرًا وشرعًا، فإن إبراهيم حرَّمه، ودعا لأهله، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ...

وما ذكر ابن قتيبة وغيره من علماء المسلمين من تربية إسماعيل في برية فاران، فهكذا هو في التوراة، قال فيها: «وغدا إبراهيم، فأخذ الغلام، وأخذ خبزًا وسقاءً من ماءٍ، ودفعه إلى هاجر، وحمله عليها، وقال لها: اذهبي، فانطلقت هاجر، فضلت في برية سبع، ونفد الماء الذي كان معها، فطرحت الغلام تحت شجرةٍ، وجلست في مقابلته على مقدار رميةٍ بسهم؛ لئلَّا تبصر الغلام حين يموت، ورفعت صوتها بالبكاء، وسمع الله صوت الغلام، فدعا مَلَكُ اللهِ هاجرَ، وقال لها: ما لكِ يا هاجر، لا تخشي؛ فإن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو، فقومي فاحملي الغلام، وشدي يدكِ به، فإني جاعله لأمةٍ عظيمةٍ، وفتح الله عينيها، فبصرت بئر ماءٍ، فسقت الغلام، وملأت سقاءها، وكان الله مع الغلام، فرَبَى وسكن في برية فاران»[(١)].

---

(١) بنحوه في سفر التكوين (٢١/ ١٤-٢٢).

فهذا خبَر الله في التوراة أن إسماعيل رَبَى وسكن في برية فاران بعد أن كاد يموت من العطش، وأنَّ الله سقاه من بئر ماءٍ، وقد علم بالتواتر، واتفاق الأمم أن إسماعيل إنما رَبَى بمكة، وهو وأبوه إبراهيم بَنَيا البيت، فعُلِمَ أن أرض مكَّة: فاران.

وهذه البشارة في التوراة لهاجر بإسماعيل، وقول الله: «إنِّي جاعله لأمةٍ عظيمةٍ ومعظمةٍ جدًّا جدًّا، وإن هاجر فتحت عينيها، فرأت بئر ماءٍ، فدنت منها» إلى آخر الكلام[(١)].

وفي موضعٍ آخر قال عن إسماعيل: «إنه يجعل يده فوق يدي الجميع»[(٢)]، ومعلوم باتفاق الأمم، والنقل، أن إسماعيل تربَّى بأرض مكة، فعلم أنها «فاران»، وأنه هو وإبراهيم بَنَيا البيت الذي ما زال محجوجًا من عهد إبراهيم، تحجُّه العرب وغير العرب من الأنبياء وغيرهم، كما حج إليه موسى بن عمران ويونس بن متى، كما في الصحيح[(٣)] من رواية ابن عباس: «أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بوادي الأزرق، فقال: أيُّ وادٍ هذا؟ فقالوا: هذا وادي الأزرق، فقال: كأني أنظر إلى موسى ﷺ هابطًا من الثنية، واضعًا إصبعيه في أذنيه، له جؤارٌ إلى الله ﷻ بالتلبية مارًّا بهذا الوادي.

قال: ثمَّ سرنا حتى أتينا على ثَنيَّةٍ، فقال: أي ثنيَّةٍ هذه؟ قالوا: هرشى، فقال:

---

(١) بنحوه في سفر التكوين (٢١/ ١٨، ١٩).

(٢) في تكوين (١٦/ ١٢، ١٣): «وقال لها ملاك الرب: ها أنت حُبْلى، فتلدين ابنًا، وتدعين اسمه إسماعيل؛ لأنَّ الرب قد سمع لمذلَّتك ١٢وإنه يكون إنسانًا وحشيًّا، يده على كل واحدٍ، ويد كل واحدٍ عليه، وأمام جميع إخوته يسكن».

(٣) صحيح مسلم (١٦٦).

كأنِّي أنظر إلى يونس على ناقةٍ حمراء، عليه جبة صوف، خطام ناقته ليف خلبة، مارًّا بهذا الوادي ملبيًا» ... ولما بعث الله محمدًا ﷺ، أوجب حجه على كل أحدٍ، فحجت إليه الأمم من مشارق الأرض ومغاربها...

والله تعالى قال في إسماعيل: «إنِّي جاعله لأمةٍ عظيمةٍ ومعظمةٍ جدًّا جدًّا»، وهذا التعظيم المؤكد بـ «جدًّا جدًّا» يقتضي أن يكون تعظيمًا مبالغًا فيه؛ فلو قدر أن البيت الذي بناه لا يحجُّ إليه أحدٌ، وأن ذريَّته ليس منهم نبيٌّ، كما يقوله كثيرٌ من أهل الكتاب، لم يكن هناك تعظيمٌ مبالغًا فيه جدًّا جدًّا؛ إذ أكثر ما في ذلك أن يكون له ذريةٌ، ومجرد كون الرجل له نسلٌ وعقبٌ، لا يعظم به إلا إذا كان في الذرية مؤمنون مطيعون لله.

وكذلك قوله: «أجعله لأمةٍ عظيمةٍ»، إن كانت تلك الأمة كافرةً، لم تكن عظيمةً، بل كان يكون أبًا لأمةٍ كافرةٍ، فعلم أن هذه الأمة العظيمة كانوا مؤمنين، وهؤلاء يحجون البيت، فعلم أن حج البيت مما يحبُّه الله، ويأمر به، وليس في أهل الكتاب مَن يحج إليه إلا المسلمون، فعلم أنهم الذين فعلوا ما يحبُّه الله ويرضاه، وأنهم وسلفهم الذين كانوا يحجُّون البيت أمة أثنى الله عليها وشرَّفها، وأنَّ إسماعيل عظَّمه الله جدًّا جدًّا بما جعل في ذريته من الإيمان والنبوة.

وهذا هو كما امتنَّ الله على نوحٍ وإبراهيم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال في الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فعُلِمَ بذلك أنَّ إسماعيل وذريته مُعظَّمون عند الله ممدوحون، وأنَّ إسماعيل

معظم جدًّا جدًّا، كما عظم الله نوحًا وإبراهيم، وإن كان إبراهيم أفضل من إسماعيل، لكن المقصود أنَّ هذا التعظيم له ولذريته إنما يكون إذا كانت ذريته على دينٍ حقٍّ، وهؤلاء يحجون إلى هذا البيت، ولا يَحُج إليه بعد مجيء محمدٍ غيرهم، ولهذا لما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فقالوا: لا نحج، فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وأيضًا فهذا التعظيم المبالغ فيه الذي صار به ولد إسماعيل فوق الناس، لم يظهر إلا بنُبوَّة محمدٍ، فدلَّ ذلك على أنها حقٌّ، ومبشرٌ به...

ومثل هذا بشارةٌ أخرى بمُحمَّدٍ ﷺ من كلام «شمعون» بما رَضوه من ترجمتهم، وهو: «جاء الله بالبيِّنات من جبال فاران، وامتلأت السماء والأرض من تسبيحه، وتسبيح أُمَّته».

فهذا تصريحٌ بنُبوَّة مُحمَّدٍ ﷺ الذي جاء بالنُّبوة من جبال «فاران»، وامتلأت السماوات والأرض من تسبيحه وتسبيح أُمَّته، ولم يخرج أحدٌ قط، وامتلأت السماوات والأرض من تسبيحه وتسبيح أُمَّته، مما يسمى «فاران» سوى محمد ﷺ، والمسيح لم يكن في أرض فاران ألبتَّة، وموسى إنما كلم من الطور، والطور ليس من أرض فاران، وإن كانت البرية التي بين الطور وأرض الحجاز من فاران، فلم ينزل الله فيها التوراة.

وبشارات التوراة قد تقدَّمت بجبل الطور، وبشارة الإنجيل بجبل (ساعير)، ومثل هذا كما نقل في نُبوَّة (حبقوق) أنه قال: «جاء الله من التيمن، وظهر القدس على جبال (فاران)، وامتلأت الأرض من تحميد (أحمد)، وملك بيمينه رقاب

الأمم، وأنارت الأرض لنوره، وحملت خيله في البحر»(١).

وقال داود في الزبور في قوله: «سبِّحوا الله تسبيحًا جديدًا، وليفرح بالخالق مَن اصطفى الله له أُمَّته، وأعطاه النصر، وسدَّد الصالحين منهم بالكرامة، يُسبِّحونه على مضاجعهم، ويُكبِّرون الله بأصواتٍ مرتفعةٍ، بأيديهم سيوف ذات شفرتين؛ لينتقم بهم من الأمم الذين لا يعبدونه»(٢).

وهذه الصفات إنما تنطبق على صفات محمدٍ ﷺ وأمته، فهم الذين يُكبِّرون الله بأصواتٍ مرتفعةٍ في أذانهم للصلوات الخمس، وعلى الأماكن العالية، كما قال جابر بن عبد الله: «كنا مع رسول الله ﷺ إذا علونا كبَّرنا، وإذا هبطنا سبَّحنا، فوضعت الصلاة على ذلك»، رواه أبو داود وغيره(٣)...

وكذلك قوله: «بأيديهم سيوف ذات شفرتين»، وهي السيوف العربية التي بها فتح الصحابة وأتباعهم البلاد، وقوله: «يسبِّحونه على مضاجعهم» بيانٌ لنعت المؤمنين الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا، وعلى جنوبهم، ويُصلِّي أحدهم قائمًا، فإن لم يستطع

---

(١) جاء في حبقوق (٣/ ٣): «الله جاء من تيمان، والقدوس من جبل فاران، سلاه، جلاله غطى السماوات، والأرض امتلأت من تسبيحه».

(٢) في مزامير (١٤٩): «هللويا، غنوا للرب ترنيمةً جديدةً، تسبيحته في جماعة الأتقياء (٢) ليفرح إسرائيل بخالقه؛ ليبتهج بنو صهيون بملكهم (٣) ليسبحوا اسمه برقصٍ بدُفٍّ وعودٍ ليرنموا له (٤) لأن الرب راضٍ عن شعبه، يجمل الودعاء بالخلاص (٥) ليبتهج الأتقياء بمجدٍ، ليرنموا على مضاجعهم (٦) تنويهات الله في أفواههم، وسيف ذو حدين في يدهم (٧) ليصنعوا نقمةً في الأمم، وتأديبات في الشعوب (٨) لأسر ملوكهم بقيودٍ، وشرفائهم بكبولٍ من حديد (٩) ليجروا بهم الحكم المكتوب، كرامة هذا لجميع أتقيائه، هللويا».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٩٩٣).

فقاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنبٍ، فلا يتركون ذِكْرَ الله في حالٍ، بل يذكرونه حتى في هذه الحال، ويصلُّون في البيوت على المضاجع بخلاف أهل الكتاب، والصلاة أعظم التسبيح، كما في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨]، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]...

وهذا معنى قول داود: «سبِّحوا الله تسبيحًا جديدًا)، والتسابيح التي شرعها الله جديدًا: كالصلوات الخمس التي شرعها للمسلمين جديدًا، ولما أقامها جبريل للنبي ﷺ قال: «هذا وقتك، ووقت الأنبياء قبلك»[(١)]، فكان الأنبياء يُسبِّحون في هذه الأوقات كما يدلُّ التسبيح المقدم، والتسبيح الجديد كما يدلُّ عليه سائر الكلام.

ولا يمكن أن يكون ذلك للنَّصارى؛ لأنهم لا يُكبِّرون الله بأصواتٍ مرتفعةٍ، ولا بأيديهم سيوف ذات شفرتين لينتقم الله بهم من الأمم، بل أخبارهم تدلُّ على أنهم كانوا مغلوبين مع الأمم، لم يكونوا يجاهدونهم بالسيف، بل النَّصارى قد تَعيب مَنْ يقاتل الكفار بالسيف، ومنهم مَنْ يجعل هذا من معايب محمدٍ ﷺ وأُمَّته، ويغفلون ما عندهم من أنَّ الله أمَرَ موسى بقتال الكفار، فقاتلهم بنو إسرائيل بأمره، وقاتلهم يوشع وداود، وغيرهما من الأنبياء، وإبراهيم الخليل قاتل لدفع الظلم عن أصحابه.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٩٣)، والترمذي في الجامع (١٤٩)، وأحمد في المسند (٣٠٨١) من حديث ابن عباس بلفظ: «يا محمد، هذا وقت الأنبياء من قبلك».

وقال داود في مزاميره -وهي الزبور: «من أجل هذا بارك الله عليه إلى الأبد، فتقلَّد أيها الجبار بالسيف؛ لأن البهاء لوجهك، والحمد الغالب عليك، اركب كلمة الحق، وسمة التأله، فإنَّ ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، والأمم يخرُّون تحتك»(١).

قالوا: فليس متقلد السيف من الأنبياء بعد داود سوى محمدٍ ﷺ، وهو الذي خرَّت الأمم تحته، وقُرنَت شرائعه بالهيبة، كما قال ﷺ: «**نُصرْت بالرُّعب مسيرة شهرٍ**»(٢)، وقد أخبر داود أن له ناموسًا وشرائع، وخاطبه بلفظ الجبار، إشارةً إلى قوَّته وقهره لأعداء الله، بخلاف المستضعف المقهور، وهو ﷺ نبي الرَّحمة، ونبي الملحمة، وأُمَّته أشداء على الكفار رحماء بينهم، أذلَّة على المؤمنين، أعزَّة على الكافرين، بخلاف مَن كان ذليلًا للطائفتين من النصارى المقهورين مع الكفار، أو كان عزيزًا على المؤمنين من اليهود، بل كان مستكبرًا كلما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقًا، وقتلوا فريقًا.

قال داود في مزمورٍ له: «ويحوز من البحر إلى البحر، ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض، ويخرُّ أهل الجزائر بين يديه، ويلحس أعداؤه التراب، ويسجد له

---

(١) في مزامير (٤٥/ ١-٦): «(١) فاض قلبي بكلامٍ صالحٍ، متكلم أنا بإنشائي للملك، لساني قلم كاتب ماهر (٢) أنت أبرع جمالًا من بني البشر، انسكبت النعمة على شفتيك، لذلك باركك الله إلى الأبد (٣) تقلَّد سيفك على فخذك أيها الجبار، جلالك وبهاءك (٤) وبجلالك اقتحم، اركب، من أجل الحق والدعة والبر، فتريك يمينك مخاوف (٥) نبلك المسنونة في قلب أعداء الملك، شعوب تحتك يسقطون».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٥)، ومسلم في صحيحه (٥٢١).

ملوك الفرس، وتَدين له الأمم بالطاعة والانقياد، ويخلص البائس المضطهد ممَّن هو أقوى منه، وينقذ الضَّعيف الذي لا ناصر له، ويُرْأف بالمساكين والضُّعفاء، ويُصلَّى عليه، ويبارك في كلِّ حينٍ»[(١)].

وهذه الصفاتُ منطبقةٌ على محمْدٍ وأمته، لا على المسيح، فإنه حاز من البحر الرومي إلى البحر الفارسي، ومن لدن الأنهار بجيحون وسيحون إلى منقطع الأرض بالمغرب، كما قال: «**زُويَت لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ مُلْك أُمَّتي ما زُوي لي منها**»[(٢)]، وهو يُصلَّى عليه، ويبارك في كلِّ حينٍ في كلِّ صلاةٍ في الصلوات الخمس وغيرها، يقول كلُّ من أُمَّته: اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، وبارك على مُحمَّدٍ وعلى آل مُحمَّدٍ، فيُصلَّى عليه ويبارك.

ومنه خرَّت أهل الجزائر بين يديه، أهل جزيرة العرب، وأهل الجزيرة التي بين الفرات ودجلة، وأهل جزيرة قبرص، وأهل جزيرة الأندلس، وخضعت له ملوك الفرس، فلم يَبْقَ منهم إلا مَنْ أسلم، أو أدَّى الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، بخلاف ملوك الروم، فإنَّ فيهم مَنْ لم يُسْلم، ويؤد الجزية.

فلهذا، خص ملوك فارس، ودانت له الأمم التي تعرفه وتعرف أُمَّته، كانت إما

---

(١) في مزمور (٧٢/ ٨-١٥): «ويملك من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض (٩) أمامه تجثو أهل البرية، وأعداؤه يلحسون التراب (١٠) ملوك ترشيش، والجزائر يرسلون تقدمة، ملوك شبا وسبأ يقدمون هدية (١١) ويسجد له كل الملوك، كل الأمم تتعبَّد له (١٢) لأنه ينجي الفقير المستغيث، والمسكين؛ إذ لا معين له (١٣) يشفق على المسكين والبائس، ويخلص أنفس الفقراء (١٤) من الظلم والخطف، يفدي أنفسهم، ويكرم دمهم في عينيه (١٥) ويعيش ويعطيه من ذهب شبا، ويصلي لأجله دائمًا اليوم كله يباركه».

(٢) تقدم تخريجه.

مؤمنةً به، أو مسلمةً له منافقةً، أو مهادنةً مصالحةً، أو خائفةً منهم، وأنقذ الضعفاء من الجبارين، وهذا بخلاف المسيح، فإنه لم يتمكن هذا التمكُّن في حياته، ولا من اتبعه بعد موته تمكَّنوا هذا التمكُّن، ولا حازوا ما ذكر، ولا صُلِّي عليه وبُورك عليه في اليوم والليلة، فإن القوم يدَّعون إلهيَّته.

وقالوا في نُبوَّة أشعياء: قال أشعياء: «قيل لي: قم نظارًا، فانظر ماذا ترى، فقلت: أرى راكبين مقبلين؛ أحدهما على حمارٍ، والآخر على جملٍ، يقول أحدهما لصاحبه: سقطت بابل وأصحابها للمنحر»(١).

قالوا: فراكبُ الحمار هو المسيح، وراكبُ الجمل هو محمد ﷺ، وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار، وبمُحمَّدٍ ﷺ سقطت أصنام بابل.

قالوا: وقال أشعياء النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ متنبيًا على مكة -شرَّفها الله: «ارفعي إلى ما حولك بصيرك، فستبتهجين وتفرحين من أجل أن يصير إليك ذخائر البحر، وتحج إليك عساكر الأمم، حتى يعم بك قطر الإبل الموبلة، وتضيق أرضك عن القطرات التي تجتمع إليك، وتُساق إليك كباش مدين، ويأتيك أهل سبأ، ويسير إليك أغنام فاران، ويخدمك رجال مأرب»(٢)، يريد سَدَنة الكعبة، وهم أولاد مأرب بن

---

(١) في سفر إشعياء (٢١/ ٦-٩): «لأنه هكذا قال لي السيد: اذهب أقم الحارس ليخبر بما يرى (٧) فرأى ركابًا أزواج فرسان، ركاب حمير، ركاب جمال، فأصغى إصغاءً شديدًا (٨) ثم صرخ كأسدٍ أيها السيد، أنا قائمٌ على المرصد دائمًا في النهار، وأنا واقف على المحرس كل الليالي (٩) وهو ذا ركاب من الرجال، أزواج من الفرسان، فأجاب وقال: سقطت، سقطت بابل، وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسرها إلى الأرض».

(٢) ينظر إشعيا (٦٠/ ٤-٧).

إسماعيل. قالوا: فهذه الصِّفات كلُّها حصلت بمكَّة، فحملت إليها ذخائر البحرين، وَحجَّ إليها عساكر الأمم، وسيقت إليها أغنام فاران -الهدايا والأضاحي- و(فاران) هي البرية الواسعة التي فيها مكة، وضاقت الأرض عن قطرات الإبل الموبلة الحاملة للناس وأزوادهم إليها، وأتاها أهل سبأ، وهم أهل اليمن.

قالوا: وقال أشعياء النبي ﷺ معلنًا باسم رسول الله ﷺ: «إنِّي جعلت أمرك يا محمد، يا قدوس الرب، اسمك موجود من الأبد»[(١)]، قالوا: فهل بقي بعد ذلك لزائغٍ، فقال: أو لطاعنٍ مجال؟... وقوله: «يا قدوس الرَّب»، يعني: يا مَن طهَّره الرب، وخلَّصه من بشريَّته، واصطفاه لنفسه.

قالوا: وقال أشعياء النبي -ونص على خاتم النبوة: «وُلِدَ لنا غلام، يكون عجبًا وبشرًا، والشامة على كتفيه، أركون السلام، إله جبار، وسلطانه سلطان السلام، وهو ابن عالمه، يجلس على كرسي داود»[(٢)]، قالوا: الأركون هو العظيم بلغة الإنجيل، والأراكنة المعظمون، ولما أبرأ المسيح مجنونًا من جنونه، قال اليهود: «إن هذا لا يخرج الشياطين من الآدميين إلا

---

(١) أقرب ما في سفر أشعياء لهذا النص (٥٧/ ١٣-١٦): «أما المتوكل عليَّ فيملك الأرض، ويرث جبل قدسي (١٤) ويقول: أعدوا، أعدوا، هيِّئوا الطريق، ارفعوا المعثرة من طريق شعبي (١٥) لأنه هكذا قال العلي المرتفع، ساكن الأبد، القدوس اسمه في الموضع المرتفع المقدس أسكن، ومع المنسحق والمتواضع الروح، لأحيي روح المتواضعين، ولأحيي قلب المنسحقين».

(٢) في سفر أشعياء (٩/ ٦، ٧): «لأنه يولد لنا ولدٌ، ونعطى ابنًا، وتكون الرياسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيبًا، مشيرًا، إلهًا قديرًا، أبًا أبديًّا، رئيس السلام (٧) لنمو رياسته، وللسلام لا نهاية على كرسي داود، وعلى مملكته، ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد».

بأركون الشياطين»[١]، يعنون: عظيمهم.

وقال المسيح في الإنجيل: «إن أركون العالم يدان»، يريد إما إبليس أو الشرير العظيم الشر من الآدميين، وسمَّاه إلهًا على نحو قول التوراة: «إن الله جعل موسى إلهًا لفرعون»[٢]، أي: حاكمًا عليه، ومتصرفًا فيه، وعلى نحو قول داود للعظماء من قومه: «إنكم آلهة»، فقد شهد أشعياء بصحة نبوة محمد ﷺ، ووصفه بأخص علاماته وأوضحها، وهي شامته، فلعمري لم تكن الشامة لسليمان، ولا للمسيح، وقد وصفه بالجلوس على كرسيِّ داود، يعني أنه سيرث بني إسرائيل، نُبوَّتهم وملكهم، ويبتزهم رياستهم.

قالوا: وقال أشعياء في وَصْف أُمَّة محمدٍ ﷺ: «ستمتلئ البادية والمدن من أولاد قيذار يسبحون، ومن رءوس الجبال ينادون، هم الذين يجعلون لله الكرامة، ويسبحونه في البر والبحر»[٣]، وقيذار هو ابن إسماعيل باتفاق الناس، وربيعة ومضر من ولده، ومحمد ﷺ من مضر، وهذا الامتلاء والتسبيح لم يحصل لهم إلا بمبعث مُحمد ﷺ.

١٢- قالوا: وقال حبقوق -وسُمِّي محمد رسول الله ﷺ صريحًا مرَّتين في نُبوَّته: «إنَّ الله جاء من التيمن، والقدوس من جبل فاران، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد، وامتلأت الأرض من حمده، شعاع منظره مثل النور، يحوط بلاده

---

(١) في متَّى (٩/ ٣٤،٣٣): «فلما أخرج الشيطان تكلم الأخرس، فتعجب الجموع قائلين: لم يظهر قط مثل هذا في إسرائيل (٣٤) أما الفريسيون، فقالوا: برئيس الشياطين يخرج الشياطين».

(٢) في خروج (٧-١): «فقال الرب لموسى: انظر، أنا جعلتك إلهًا لفرعون».

(٣) في أشعياء (٤٢/ ١، ١١).

بعزه، تسير المنايا أمامه، وتصحب سباع الطير أجناده، قام فمسح الأرض، فتضعضعت له الجبال القديمة، وانخفضت الروابي، وتزعزعت ستور أهل مدين».

ثم قال: «زجرك في الأنهار، وإقدام صوامك في البحار، ركبت الخيول، وعلوت مراكب الإيفاد، وستنزع في قسيك أعراقًا ونزعًا، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواءً، ولقد رأتك الجبال فارتاعت، وانحرف عنك شؤبوب السيل، وتغيرت المهاوي تغيرًا ورعبًا، رفعت أيديها وجلًا وخوفًا، وسارت العساكر في بريق سهامك ولمعان نيازكك، وتدوخ الأرض غضبًا، وتدوس الأمم زجرًا؛ لأنك ظهرت بخلاص أمتك، وإنقاذ تراث آبائك»(١).

قالوا: وهذا تصريح بمحمد، ومَن رام صرف نُبوَّة حبقوق هذه عن مُحمَّدٍ ﷺ، فقد رام ستر النهار، وحبس الأنهار، وأنَّى يقدر على ذلك؟! وقد سمَّاه باسمه مرتين، وأخبر بقوة أُمَّته، وسير المنايا أمامهم، واتباع جوارح الطير آثارهم، وهذه

---

(١) في حبقوق إصحاح (٣-١٤): «الله جاء من تيمان، والقدوس من جبل فاران، سلاه، جلاله غطى السماوات، والأرض امتلأت من تسبيحه (٤) وكان لمعان كالنور، له من يده شعاع، وهناك استتار قدرته (٥) قدامه ذهب الوبأ، وعند رجليه خرجت الحمى (٦) وقف وقاس الأرض، نظر فرجف الأمم، ودكت الجبال الدهرية، وخسفت آكام القدم، مسالك الأزل له (٧) رأيت خيام كوشان تحت بلية، رجفت شقق أرض مديان (٨) هل على الأنهار حمي يا رب؟ هل على الأنهار غضبك؟ أو على البحر سخطك حتى إنك ركبت خيلك، مركباتك مركبات الخلاص (٩) عريت قوسك تعريةً، سباعيات سهام كلمتك، سلاه، شققت الأرض أنهارًا (١٠) أبصرتك ففزعت الجبال، سيل المياه طما، أعطت اللجة صوتها، رفعت يديها إلى العلاء (١١) الشمس والقمر وقفًا في بروجهما لنور سهامك الطائرة، للمعان برق مجدك (١٢) بغضبٍ خطرت في الأرض، بسخطٍ دست الأمم (١٣) خرجت لخلاص شعبك، لخلاص مسيحك، سحقت رأس بيت الشرير معريًا الأساس حتى العنق، سلاه».

النُّبوة لا تليق إلا بمُحمَّدٍ، ولا تصلح إلا له، ولا تدل إلا عليه، فمَن حاول صرفها عنه، فقد حاول ممتنعًا.

وقال دانيال عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكر محمدًا رسول الله ﷺ باسمه، فقال: «ستنزع في قسيك إغراقًا، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواءً»، فهذا تصريحٌ بغير تَعْريضٍ، وتصحيحٌ ليس فيه تَمريضٌ؛ فإن نازع في ذلك منازعٌ، فليوجدنا آخر اسمه محمد، له سهام تنزع، وأمر مطاع لا يدفع.

بعض البشارات الإنجيلية:

قالوا: وقال يوحنا الإنجيلي: قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر من إنجيله: «إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي، هو يعلمكم كل شيءٍ»(١).

وقال يوحنا التلميذ أيضًا عن المسيح أنه قال لتلاميذه: «إن كنتم تحبوني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليط آخر، يثبت معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لم يطق العالم أن يقتلوه؛ لأنهم لم يعرفوه، ولست أدعكم أيتامًا؛ لأني سآتيكم عن قريبٍ»(٢)...

وقال أيضًا: «إذا جاء الفارقليط الذي أبي أرسله، روح الحق الذي من أبي،

---

(١) في يوحنا (١٤/ ٢٦): «وأما المعزي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلمكم كل شيءٍ، ويذكركم بكل ما قلته لكم».

(٢) في يوحنا (١٤/ ١٥-١٩): «إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي (١٦) وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد (١٧) روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله؛ لأنه لا يراه، ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه؛ لأنه ماكثٌ معكم، ويكون فيكم (١٨) لا أترككم يتامى، إنِّي آتي إليكم».

هو يشهد لي، قلت لكم هذا حتى إذا كان، تؤمنوا به، ولا تشكُّوا فيه»[(١)].

قال أيضًا: «إنَّ خيرًا لكم أن أنطلق؛ لأنِّي إن لم أذهب، لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقت أرسلته إليكم، فهو يوبخ العالم على الخطيئة، وإنَّ لي كلامًا كثيرًا أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذا جاء روح الحق ذاك يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بكلِّ ما يأتي، ويعرفكم جميع ما للأب»[(٢)]...

وقال متَّى التلميذ: قال المسيح: «ألم يقرءوا أنَّ الحجر الذي أرذله البناءون صار رأسًا للزاوية من عند الله، كان هذا -وهو عجيبٌ في أعيننا- ومن أجل ذلك أقول لكم: إنَّ ملكوت الله سيؤخذ منكم، ويدفع إلى أُمَّةٍ أخرى تأكل ثمرها، ومَن سقط على هذا الحجر ينشرح، وكل مَن سقط هو عليه يمحقه»[(٣)].

---

(١) في يوحنا (١٥/ ٢٦، ٢٧): «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي (٢٧) وتشهدون أنتم أيضًا؛ لأنكم معي من الابتداء».

(٢) في يوحنا (١٦/ ٧-١٣): «لكنِّي أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق؛ لأنه إنْ لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم (٨) ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية، وعلى برٍّ، وعلى دينونة (٩) أما على خطية؛ فلأنهم لا يؤمنون بي (١٠) وأما على برٍّ، فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضًا (١١) وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين (١٢) إن لي أمورًا كثيرةً أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن (١٣) وأمَّا متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلَّم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمورٍ آتيةٍ».

(٣) في متَّى (١٢/ ٤١٤-٤٤): «قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البنَّاؤون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا (٤٣) لذلك أقول لكم: إنَّ ملكوت الله ينزع منكم، ويعطى لأُمَّةٍ تعمل أثماره (٤٤) ومَن سقط على هذا الحجر يترضض، ومَنْ سقط هو عليه يسحقه!».

وقال يوحنا التلميذ في كتاب (رسائل التلاميذ)، المسمى بـ (فراكسيس): «يا أحبابي، إياكم أن تؤمنوا بكل روحٍ، لكن ميِّزوا الأرواح التي من عند الله من غيرها، واعلموا أن كل روحٍ يؤمن بأن يسوع المسيح قد جاء، فكان جسدانيًّا، فهي من عند الله، وكل روحٍ لا تؤمن بأن يسوع المسيح جاء، وكان جسدانيًّا، فليست من عند الله، بل من المسيح الكذاب الذي سمعتم به، وهو الآن في العالم»(١)...

استطراد في بيان انطباق لفظ «الفارقليط»، وصفته على مُحمَّدٍ ﷺ:

قلت: وهذا اللفظ -لفظ الفارقليط- في لغتهم ذكروا فيه أقوالًا، قيل: إنه الحماد. وقيل: إنه الحامد. وقيل: إنه المعز. وقيل: إنه الحمد، ورجَّح هذا طائفةٌ، وقالوا: الذي يقوم عليه البرهان في لغتهم أنه الحمد، والدليل عليه قول يوشع: «مَن عمل حسنةً، تكون له فارقليط جيدًا»، أي: حمدًا جيدًا.

وقولهم المشهور في تخاطبهم: فارقليط، وفارقليطان، وما زاد على الجميع -أي: حمد- ومنه كما نقول نحن: يَدٌ ومِنَّةٌ. ومن قال: معناه المخلص، فيحتجُّون بأنها كلمة سريانية، ومعناها: المخلص، وقالوا: هو مشتقٌّ من قولنا: «راوف»، ويقال بالسريانية: «فاروق»، فجعل «فارق»، قالوا: ومعنى: «ليط» كلمة تزاد، والتقدير كما يقال في العربية: رجل هو، وحجر هو، وبدر هو، وذكر هو. قالوا: وكذلك يزاد في السريانية: «ليط»، والذين قالوا: هو المعز، قالوا: هو في لسان اليونان المعز.

---

(١) في رسالة يوحنا الأولى (٤/ ١-٤): «أيها الأحبَّاء، لا تصدقوا كل روحٍ، بل امتحنوا الأرواح: هل هي من الله؟ لأن أنبياء كَذَبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم (٢) بهذا تعرفون روح الله، كل روحٍ يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد، فهو من الله (٣) وكل روحٍ لا يعترف بيسوع المسيح أنَّه قد جاء في الجسد، فليس من الله، وهذا هو روحُ ضد المسيح الذي سمعتم أنه يأتي، والآن هو في العالم».

ويعترض على هذين القولين بأنَّ المسيح لم تكن لغته سريانيةً، ولا يونانيةً، بل عبرانيةً. ويجاب عنه: بأنه تكلم بالعبرانية، وترجم عنه بلغةٍ أخرى كما أملوا أحد الأناجيل باليونانية، والآخر بالرومية، وواحد بقي عبرانيًّا، وأكثر النصارى على أنه المخلص، والمسيح نفسه يسمونه: المخلص، وفي الإنجيل الذي بأيديهم أنه قال: «إنِّي لم آت لأزين العالم، بل لأخلص العالم»(١).

والنصارى يقولون في صلاتهم: «لقد ولدت لنا مخلصًا»، وقد اختلف فيه، فمن النَّصارى مَن قال: هو روحٌ نزلت على الحواريين، وقد يقولون: إنه ألسنٌ نارية نزلت من السماء على التلاميذ، ففعلت الآيات والعجائب.

ولهذا، يقول مَن خبر أحوال النصارى: إنه لم ير أحدًا منهم يحسن تحقيق مجيء هذا الفارقليط الموعود به، منهم مَن يزعم أنه المسيح نفسه؛ لكونه جاء بعد الصلب بأربعين يومًا، وكونه قام من قبره.

وتفسيرُهُ بـ «الرُّوح» باطلٌ، وأبطل منه تفسيره بالمسيح؛ لوجوهٍ:

منها: أنَّ روح القدس ما زالت تنزل على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده، وهذا مما اتفق عليه أهل الكتاب: أنَّ روح القدس نزلت على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده، وليست موصوفةً بهذه الصفات...

وأيضًا فإنه وصف الفارقليط بصفاتٍ لا تناسب هذا، وإنما تناسب رجلًا يأتي

---

(١) في يوحنا (١٢/ ٤٧): «٤٧ وإنْ سمع أحدٌ كلامي، ولم يؤمن، فأنا لا أدينه، لأنِّي لم آت لأدين العالم، بل لأخلص العالم».

بعده نظيرًا له، فإنه قال: «إن كنتم تحبوني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليط آخر، يثبت معكم إلى الأبد»، فقوله: «فارقليط آخر»، دلَّ على أنه ثانٍ لأول كان قبله، ولم يكن معهم في حياة المسيح إلا هو، لم تنزل عليهم روحٌ، فعلم أن الذي يأتي بعده نظيرًا له، ليس أمرًا معتادًا يأتي للناس.

وأيضًا، فإنه قال: «يثبت معكم إلى الأبد»، وهذا إنما يكون لما يدوم، ويبقى معهم إلى آخر الدهر، ومعلومٌ أنه لم يرد بقاء ذاته، فعلم أنه بقاء شرعه وأمره، فعلم أن الفارقليط الأول لم يثبت معهم شرعه ودينه إلى الأبد، وهذا يُبيِّن أن الثاني صاحب شرعٍ لا ينسخ بخلاف الأول، وهذا إنما ينطبق على مُحمَّدٍ ﷺ.

وأيضًا فإنه أخبر أن هذا الفارقليط الذي أخبر به يشهد له، ويعلمهم كل شيءٍ، وأنه يذكركم كل ما قال المسيح، وأنه يوبخ العالم على خطيئته، فقال: «والفارقليط الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيءٍ، وهو يذكركم كل ما قلت لكم».

وقال: «إذا جاء الفارقليط الذي أبي أرسله، هو يشهد لي، قلت لكم هذا حتى إذا كان تؤمنوا به، ولا تشكُّوا فيه»، وقال: «إن خيرًا لكم أن أنطلق؛ لأني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقت أرسلته إليكم، فهو يوبخ العالم على الخطيئة، وإن لي كلامًا كثيرًا أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه ليس ينطق من عند نفسه، بل يتكلم بما يسمع، ويخبر بكل ما يأتي، ويعرفكم جميع ما للأب»، فهذه الصفات والنعوت التي تلقَّوها عن المسيح لا تنطبق على شيءٍ في قلب بعض الناس، لا يراه أحدٌ، ولا يسمع كلامه، وإنما تنطبق على مَنْ يراه الناس، ويسمعون كلامه.

فيشهد للمسيح، ويعلمهم كل شيءٍ، ويذكرهم كل ما قال لهم المسيح، ويوبخ العالم على الخطيئة، ويرشد الناس إلى جميع الحق، وهو لا ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبرهم بكل ما يأتي، ويعرفهم جميع ما لرب العالمين، وهذا لا يكون ملكًا لا يراه أحد، ولا يكون هدى، ولا علمًا في قلب بعض الناس، بل لا يكون إلا إنسانًا عظيم القدر يخاطب الناس بما أخبر به المسيح.

وهذا لا يكون إلا بشرًا رسولًا، بل يكون أعظم من المسيح، بيَّن أنه يقدر على ما لا يقدر عليه المسيح، ويعلم ما لا يعلمه المسيح، ويخبر بكلِّ ما يأتي، وبما يستحقه الرَّبُّ حيث قال: «إن لي كلامًا كثيرًا أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حَمْله، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بما يأتي، ويعرفكم جميع ما للأب».

وهذه الصِّفات لا تنطبق إلا على مُحمَّدٍ ﷺ، وذلك أنَّ الإخبار عن الله بما هو متصفٌ به من الصفات، وعن ملائكته، وعن ملكوته، وعن ما أعدَّه الله في الجنة لأوليائه، وفي النار لأعدائه، أمر لا يحتمل عقول كثيرٍ من الناس معرفته على التفصيل.

ولهذا، قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حدِّثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله»[١]، وقال ابن مسعودٍ: «ما من رجلٍ يحدث قومًا بحديثٍ لا يبلغه عقولهم إلا كان فتنةً لبعضهم»[٢]...

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٧).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في مقدمة صحيحه (١/ ١١).

فقال لهم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن لي كلامًا كثيرًا أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله»، وهو الصادق المصدوق في هذا؛ لهذا ليس في الإنجيل من صفات الله، وصفات ملكوته، ومن صفات اليوم الآخر إلا أمور مجملة، وكذلك التوراة، ليس فيها من ذكر اليوم الآخر إلا أمور مجملة، مع أنَّ موسى كان قد مهَّد الأمر للمسيح، ومع هذا فقد قال لهم المسيح: «إن لي كلامًا كثيرًا أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله».

ثم قال: «ولكن إذا جاء روح الحقِّ ذلك الذي يرشدكم إلى جميع الحق»، وقال: «إنه يخبركم بكلِّ ما يأتي، ويعرفكم بجميع ما للرَّبِّ»، فدلَّ هذا على أن هذا الفارقليط هو الذي يفعل هذا دون المسيح.

وكذلك كان محمد ﷺ أرشد الناس إلى جميع الحقِّ، حتى أكمل الله له الدين، وأتمَّ به النعمة، ولهذا كان خاتم الأنبياء، فإنه لم يبق شيء يأتي به غيره، وأخبر محمد ﷺ بكل ما يأتي من أشراط الساعة، والقيامة، والحساب، والصراط، ووزن الأعمال، والجنة وأنواع نعيمها، والنار وأنواع عذابها.

ولهذا، كان في القرآن من تفصيل أمر الآخرة، وذكر الجنة والنار، وما يأتي من ذلك أمور كثيرة توجد لا في التوراة، ولا في الإنجيل، وذلك تصديق قول المسيح: (إنه يخبر بكل ما يأتي)، ومحمد بعثه الله بين يدي الساعة كما قال: «**بُعِثْتُ أنا والساعة كَهَاتَيْن**»، وأشار بأصابعه السبابة، والوسطى[(١)].

وكان إذا ذكر الساعة، علا صوته، واحمرَّ وجهه، واشتد غضبه كأنه منذر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٤)، ومسلم في صحيحه (٢٩٥١).

جيش، وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، وقال: «**أنا النَّذير العريان**»[1]، فأخبر من الأمور التي تأتي في المستقبل بما لم يأتِ به نبيٌّ من الأنبياء، كما نعته به المسيح حيث قال: «إنه يخبركم بكلِّ ما يأتي»، ولا يوجد مثل هذا قطُّ عن أحدٍ من الأنبياء قبل مُحمَّدٍ ﷺ، فضلًا عن أن يوجد شيء نزل على قلب بعض الحواريين.

وأيضًا، فقال: «ويعرفكم جميع ما للرب»، فبيَّن أنه يُعرِّف الناس جميع ما لله، وذلك يتناول ما لله من الأسماء والصفات، وما له من الحقوق، وما يجب من الإيمان به، وبملائكته وكتبه ورسله، بحيث يكون ما يأتي به جامعًا لكلِّ ما يستحقه الرَّبُّ، وهذا لم يأت به أحد غير محمد، حيث يتضمن ما جاء به من الكتاب والحكمة، هذا كله، ومعلومٌ أن ما نزل على الحواريين لم يكن فيه هذا كله، ولا نصفه، ولا ثلثه، بل ما جاء به المسيح أعظم ممَّا جاء به الحواريون، وهذا الفارقليط الثاني جاء بأعظم مما جاء به المسيح.

وأيضًا، فالمسيح قال: «إذا جاء الفارقليط الذي أرسله أبي، هو يشهد لي، قلت لكم هذا، حتى إذا كان، تؤمنوا به، ولا تشكوا فيه»، فبيَّن أنه أخبرهم به؛ ليؤمنوا به إذا جاء، ولا يشكوا فيه، وأنه يشهد له، وهذه صفة من بشَّر به المسيح، ويشهد للمسيح كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وأخبر أنه يوبِّخ العالم على الخطيئة، ولم يوجد أحد وبَّخ جميع العالم على

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٨٢)، ومسلم في صحيحه (٢٢٨٣).

الخطيئة إلا محمد ﷺ، فإنه أنذر جميع العالم من أصناف الناس، ووبَّخهم على الخطيئة من الكفر والفسوق والعصيان، وبَّخ جميع المشركين من العرب والهند والترك وغيرهم، ووبَّخ المجوس، وكانت مملكتهم أعظم الممالك، ووبَّخ أهل الكتابين اليهود والنصارى، وقال في الحديث الصحيح عنه: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»(١)، لم يقتصر على مجرد الأمر والنهي، بل وبَّخهم وقرعهم وتهدَّدهم.

وأيضًا، فإنه أخبر أنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع، وهذا إخبارٌ بأن كل ما يتكلم به فهو وحيٌ يسمعه، ليس هو شيئًا تعلَّمه من الناس، أو عرفه باستنباطه، وهذه خاصة مُحمَّد ﷺ، فإن المسيح ومَن قبله من الأنبياء كانوا يتعلمون من غيرهم، مع ما كان يوحى إليهم، فعندهم علم غير ما يسمعونه من الوحي، ومحمد ﷺ لم ينطق إلا بما يسمعه من الوحي، فهو مُبلِّغٌ لما أرسل به، وقد قيل له: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، فضمن الله له العصمة إذا بلَّغ رسالاته، فلهذا أرشد الناس إلى جميع الحق، وألقى إلى الناس ما لم يمكن غيره من الأنبياء إلقاءه؛ خوفًا أن يقتلوه كما يذكرون عن المسيح وغيره...

وأيضًا، فإنَّ في الإنجيل -إنجيل يوحنا- أن المسيح قال: «أركون العالم سيأتي، وليس لي شيءٌ»(٢)، وقد ذكروا أن الأركون بلُغَتهم: العظيم القدر،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٦٥).

(٢) في يوحنا (١٤/ ٣٠): «لا أتكلم أيضًا معكم كثيرًا؛ لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيءٍ».

والأراكنة: العظماء، فقول المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أركون العالم»، إنما ينطبق على عظيم العالم، وسيد العالم، وكبير العالم، وقد أخبر أنه سيأتي، فامتنع أن يكون هذا الأركون المسيح، أو أحدًا مثله، ولم يأت بعد المسيح من ساد العالم، وأطاعه العالم غير مُحمَّدٍ ﷺ، وهذا من بشارة المسيح به، وقد «سئل ﷺ: ما كان أول أمرك؟ قال: **(دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي رأت حين ولدتني أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام)**»[1].

وبالجملة، فمعلوم باتفاق أهل الأرض أنه لم يأت بعد المسيح مَن ساد العالم باطنًا وظاهرًا، وانقادت له القلوب والأجساد، وأطيع في السِّرِّ والعلانية، في محياه وبعد مماته في جميع الأعصار، وأفضل الأقاليم شرقًا وغربًا، غير محمدٍ، فإن الملوك يطاعون ظاهرًا لا باطنًا، ولا يُطَاعون بعد موتهم، ولا يطيعهم أهل الدين طاعةً يرجون بها ثواب الله في الدار الآخرة، ويخافون عقاب الله في الدار الآخرة بخلاف الأنبياء، ومحمد أظهر دين الرسل قبله، وصدقهم، ونوَّه بذكرهم وتعظيمهم، فبِهِ آمن بالأنبياء والرسل قبل موسى والمسيح وغيرهما أمم عظيمة، لولا محمد لم يؤمنوا بهم[2].

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧١٦٣).

(٢) (٥/ ١٩٧).

المبحث الثامن: أخلاق النبي ﷺ وسيرته

وسيرة الرسول وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعلم أمته ودينهم من آياته، وكرامات صالح أُمَّته من آياته، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين وُلِدَ وإلى أن بُعِثَ، ومن حيث بُعِثَ إلى أن مات، وتدبر نسبه وبلده وأصله وفصله، فإنَّه كان من أشرف أهل الأرض نسبًا، من صميم سلالة إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النُّبوة والكتاب، فلم يأت نبيٌّ بعد إبراهيم إلا من ذرِّيَّته، ونجعل له ابنين: إسماعيل، وإسحاق، وذكر في التوراة هذا وهذا، وبشَّر في التوراة بما يكون من ولد إسماعيل، ولم يكن في ولد إسماعيل مَن ظهر فيما بشرت به النبوات غيره.

ودعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث فيهم رسولًا منهم، ثم من قريشٍ صفوة بني إبراهيم، ثم من بني هاشم صفوة قريش، ومن مكة أُمِّ القرى، وبلد البيت الذي بناه إبراهيم، ودعا الناس إلى حجه، ولم يزل محجوجًا من عهد إبراهيم، مذكورًا في كتب الأنبياء بأحسن وصفٍ.

وكان من أكمل الناس تربيةً ونشأةً، لم يزل معروفًا بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق، وترك الفواحش والظلم وكل وصفٍ مذمومٍ، مشهودًا له بذلك عند جميع مَن يعرفه قبل النبوة، وممَّن آمن به، وممَّن كفر بعد النبوة لا يعرف له شيءٌ يُعَاب به؛ لا في أقواله، ولا في أفعاله، ولا في أخلاقه، ولا جرب

عليه كذبة قط، ولا ظلم، ولا فاحشة، وكان خلقه وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله.

وكان أُميًّا من قومٍ أُميِّين، لا يعرف لا هو ولا هم ما يعرفه أهل الكتاب التوراة والإنجيل، ولم يقرأ شيئًا عن علوم الناس، ولا جالس أهلها، ولم يدع نُبوَّة إلى أن أكمل الله له أربعين سنةً، فأتى بأمرٍ هو أعجب الأمور وأعظمها، وبكلامٍ لم يسمع الأوَّلون والآخرون بنظيره، وأخبرنا بأمرٍ لم يكن في بلده وقومه مَن يُعْرف مثله.

ثمَّ اتبعه أتباع الأنبياء وهم ضعفاء الناس، وكذَّبه أهل الرياسة وعَادَوْه، وسَعَوا في هلاكه وهلاك مَن اتبعه بكل طريقٍ، كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم، والذين اتبعوه لم يتبعوه لرغبةٍ، ولا لرهبةٍ، فإنه لم يكن عنده مالٌ يعطيهم، ولا جهاتٌ يوليهم إياها، ولا كان له سيفٌ، بل كان السيف والمال والجاه مع أعدائه، وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى، وهم صابرون محتسبون لا يرتدون عن دينهم؛ لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة.

وكانت مكَّة يحجُّها العرب من عهد إبراهيم، فتجتمع في الموسم قبائل العرب، فيخرج إليهم يُبلِّغهم الرسالة، ويدعوهم إلى الله صابرًا على ما يلقاه من تكذيب المُكذِّب، وجفاء الجافي، وإعراض المعرض إلى أن اجتمع بأهل يثرب، وكانوا جيران اليهود قد سمعوا أخباره منهم، وعرفوه، فلمَّا دعاهم، علموا أنه النبي المنتظر الذي تخبرهم به اليهود، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته، فإنَّ أمره كان قد انتشر، وظهر في بضع عشرة سنةً فآمنوا به، وبايعوه على

هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم، وعلى الجهاد معه، فهاجر هو ومَن اتبعه إلى المدينة، وبها المهاجرون والأنصار، ليس فيهم مَن آمن برغبةٍ دنيويةٍ، ولا برهبةٍ إلا قليلًا من الأنصار أسلموا في الظاهر، ثم حَسُن إسلام بعضهم.

ثم أُذِنَ له في الجهاد، ثم أُمِرَ به، ولم يزل قائمًا بأمر الله على أكمل طريقةٍ وأتمها من الصِّدق والعدل والوفاء، لا يحفظ له كذبة واحدة، ولا ظلم لأحدٍ، ولا غدر بأحدٍ، بل كان أصدق الناس وأعدلهم، وأوفاهم بالعهد، مع اختلاف الأحوال عليه من حربٍ وسِلْمٍ وأمنٍ وخوفٍ وغنًى وفقرٍ وقلةٍ وكثرةٍ، وظهوره على العدو تارةً، وظهور العدو عليه تارةً، وهو على ذلك لازمٌ لأكمل الطرق وأتمها حتى ظهرت الدَّعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءةً من عبادة الأوثان، ومن أخبار الكُهَّان، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق، وسفك الدماء المُحرَّمة، وقطيعة الأرحام، لا يعرفون آخرةً، ولا معادًا، فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم، حتى إنَّ النصارى لمَّا رأوهم حين قدموا الشام قالوا: ما كان الَّذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء، وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض، وآثار غيرهم يعرف العقلاء فرقَ ما بين الأمرين.

وهو ﷺ مع ظهور أمره، وطاعة الخَلق له، وتقديمهم له على الأنفس والأموال، مات ﷺ ولم يخلف درهمًا، ولا دينارًا، ولا شاةً، ولا بعيرًا له، إلا بغلته وسلاحه، ودرعه مرهونة عند يهوديٍّ على ثلاثين صاعًا من شعيرٍ ابتاعها لأهله، وكان بيده عقارٌ ينفق منه على أهله، والباقي يصرفه في مصالح المسلمين، فحكم بأنه لا يورث، ولا يأخذ ورثته شيئًا من ذلك، وهو في كل

وقتٍ يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وَصْفه، ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويشرع الشريعة شيئًا بعد شيءٍ حتى أكمل الله دينه الذي بعث به، وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروفٌ تعرف العقول أنه معروفٌ إلا أمَر به، ولا منكرٌ تعرف العقول أنه منكرٌ إلا نهى عنه، لم يأمر بشيءٍ فقيل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيءٍ فقيل: ليته لم ينه عنه، وأحل الطيبات لم يحرم شيئًا منها كما حرم في شرع غيره، وحرم الخبائث لم يحلَّ منها شيئًا كما استحله غيره.

وجمع محاسن ما عليه الأمم، فلا يُذْكَر في التوراة والإنجيل والزبور نوعٌ من الخبر عن الله، وعن ملائكته، وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجهٍ، وأخبر بأشياء ليست في الكتب، فليس في الكتب إيجابٌ لعدلٍ، وقضاءٌ بفضلٍ، وندبٌ إلى الفضائل، وترغيبٌ في الحسنات إلا وقَدْ جاء به، وبما هو أحسن منه، وإذا نظر اللَّبيب في العبادات التي شرعها، وعبادات غيره من الأمم، ظهر فضلها ورجحانها، وكذلك في الحدود والأحكام، وسائر الشرائع[(١)].

وقد نقل الناس صفاته الظاهرة الدالَّة على كماله، ونقلوا أخلاقه من حِلْمه وشجاعته وكرمه وزهده وغير ذلك، ونحن نذكر بعض ذلك:

ففي (الصحيحين)[(٢)]: «عن البراء بن عازب، قال: كان رسول الله ﷺ أحسن

---

(١) (٥/ ٤٣٧).

(٢) صحيح البخاري (٣٩٤٥)، وصحيح مسلم (٢٣٣٧).

الناس وجهًا، وأحسنهم خُلقًا، ليس بالطويل الذاهب، ولا بالقصير».

وعنه قال: «كان بعيد ما بين المنكبين، عظيم الجمَّة إلى شحمة أذنيه، عليه حُلَّة حمراء، ما رأيت شيئًا قط أحسن منه».

وفي البخاري(١): «وسئل البَراء: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر».

وفي (الصحيحين)(٢): من حديث كعب بن مالكٍ قال: «كان النبي ﷺ إذا سُرَّ، استنار وجهه حتى كأنه فلقة قمر»...

وفي (الصحيحين)(٣): عن سماك بن حرب، عن جابر بن سمرة، قال: «كان رسول الله ضليع الفم، أشكل العينين، منهوس العقبين، وفسَّرها سماك بن حرب فقال: واسع الفم، طويل شق العين، قليل لحم العقب»...

وعن أنسٍ قال: «دخل علينا رسول الله ﷺ، فقال عندنا، فعرق، وجاءت أمي بقارورةٍ، فجعلت تَسْلت العرقَ فيها، فاستيقظ رسول الله ﷺ، فقال: (**أُمَّ سليمٍ، ما هَذَا الَّذي تَصْنعينَ؟!**). قالت: هذا عرقك نجعله في طيبنا، وهو أطيب من الطيب»، أخرجاه في (الصحيحين)(٤)...

وفي (الصحيحين)(٥): «عن أنسٍ قال: كان رسول الله أحسن الناس، وكان

---

(١) صحيح البخاري (٣٥٥٢).

(٢) صحيح البخاري (٣٥٥٦)، وصحيح مسلم (٢٧٦٩).

(٣) صحيح مسلم (٢٣٣٩)، ولم أقف عليه في البخاري، ولم يعزه له المزي في التحفة (٢/ ١٥٨).

(٤) صحيح مسلم (٢٣٣١)، وبنحوه في البخاري (٦٢٨١).

(٥) صحيح البخاري (٢٨٢٠)، وصحيح مسلم (٢٣٠٧).

أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلةٍ، فانطلق ناسٌ قِبَلَ الصوت، فتلقَّاهم رسول الله راجعًا، وقد سبقهم إلى الصوت، وقد استبرأ الخبر، وهو على فرسٍ لأبي طلحة عري في عنقه السيف، وهو يقول: (**لن تُرَاعوا**)، وقال: (**وَجَدناه بحرًا**)، وكان الفرس قبل ذلك بطيئًا، فعاد لا يُجارَى».

وفي (الصحيحين)[1]: «عن ابن عباسٍ قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».

وفي (الصحيحين)[2]: عن البَراء بن عازب قال: «كنَّا إذا احمرَّ البأس، نتقي به، وإن الشجاع منَّا الذي يحاذي به -يعني: رسول الله ﷺ».

«وعن عليٍّ بن أبي طالبٍ قال: لمَّا كان يوم بدرٍ، اتَّقينا المشركين برسول الله ﷺ، وكان أشد الناس بأسًا، وما كان أحدٌ أقرب إلى العدو منه»، ذكره البيهقي[3] بإسنادٍ صحيحٍ.

وفي (الصحيحين)[4]: عن أنسٍ قال: «خَدمتُ رسول الله عشر سنين، واللهِ، ما قال لي: (أُفًّا) قطُّ، ولا قال لي لشيءٍ: لِمَ فعلت كذا؟ وهلَّا فعلت كذا؟».

وفي (الصحيحين)[5]: عن جابرٍ قال: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا، فقال: لا».

---

(١) صحيح البخاري (٦)، وصحيح مسلم (٢٣٠٨).

(٢) صحيح مسلم (١٧٧٦).

(٣) دلائل النبوة (١/ ٣٢٤).

(٤) صحيح البخاري (٦٠٣٨)، وصحيح مسلم (٢٣٠٩).

(٥) صحيح البخاري (٦٠٣٤)، وصحيح مسلم (٢٣١١).

وفي (الصحيحين)[١]: عن أنسٍ قال: «ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فَجَاءه رجلٌ، فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم، أسلموا، فَإِنَّ محمدًا يعطي عطاء مَنْ لا يخاف الفاقة».

وفي (الصحيحين)[٢]: عن أبي سعيدٍ الخدري قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خِدْرها، وكان إذا كره شيئًا، عرفناه في وجهه».

وروى البخاري[٣] عن أنسٍ قال: «لم يكن رسول الله ﷺ سبَّابًا، ولا فحَّاشًا، ولا لعَّانًا، كان يقول لأحدنا عند المعتبة: (مَا لَه؟! تربت جبينه)».

وفي (صحيح مسلم)[٤]: عن عائشة أنها قالت: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا، كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قطُّ إلا أن تُنْتَهَك حرمة الله».

وعنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئًا قط، لا امرأةً، ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيءٌ قط فينتقم من صاحبه إلا أن يُنْتهك شيءٌ من محارم الله، فينتقم لله»[٥].

وروى مسلم في (صحيحه)[٦]: «عنها، وقد سئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ،

---

(١) صحيح مسلم (٢٣١٢)، ولم أقف عليه عند البخاري، ولم يعزه له المزي في التحفة (١/ ٤١٤).

(٢) صحيح البخاري (٦١٠٢)، وصحيح مسلم (٢٣٢٠).

(٣) صحيح البخاري (٦٠٣١).

(٤) صحيح مسلم (٢٣٢٧)، وأخرجه البخاري في صحيحه (٣٦٥٠).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٢٨).

(٦) صحيح مسلم (٧٤٦) بنحوه.

فقالت: كان خلقه القرآن»...

وفي (الصحيحين)[١]: «عن علقمة قال: سألت عائشة: كيف كان عمل رسول الله ﷺ؟ وهل كان يخصُّ شيئًا من الأيام؟ قالت: لا، كان عملُهُ ديمةً، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع»...

وفي (الصحيحين)[٢]: عن المغيرة بن شعبة قال: «قام رسول الله حتى تورَّمت قدماه، فقيل: يا رسول الله، أليس قد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك، وما تأخَّر؟ قال: (أفلا أكونُ عبدًا شكورًا)».

وفي (الصحيحين)[٣]: من حديث أبي هريرة قال: «ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط، إن اشتهاه أكَله، وإلَّا تركه»...

وروى الإمام أحمد[٤]، وأبو داود[٥]، والترمذي[٦]، عن أنس بن مالكٍ قال: قال: «ما كان شخصٌ أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا؛ لما يعلمون من كراهته لذلك»، رواه عن عبد الرحمن بن مهدي: ثنا حمَّاد بن سلمة، عن حميدٍ، عنه...

وفي الصحيح: «عن أنسٍ: أن امرأةً كان في عقلها شيء، قالت: يا رسول الله،

---

(١) صحيح البخاري (٦٤٦٦)، وصحيح مسلم (٧٨٣).

(٢) صحيح البخاري (٤٨٣٦)، وصحيح مسلم (٢٨٩١).

(٣) صحيح البخاري (٣٥٦٣)، وصحيح مسلم (٢٠٦٤).

(٤) مسند أحمد (١٢٣٤٥).

(٥) لم أقف عليه في سنن أبي داود، ولم يعزه له المزي في التحفة (١/ ١٨٢).

(٦) جامع الترمذي (٢٧٤٥).

إن لي إليك حاجةً. قال: (يا أُمَّ فلانٍ، خذي في أيِّ الطُّرق شئتِ، قومي فيه حتى أقوم معكِ)، فخلا معها يناجيها حتى قضت حاجتها»، رواه مسلم[١].

«وعن أنسٍ قال: كانت الأَمَة من إماء أهل المدينة لَتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتدور به في حوائجها حتى تفرغ، ثم يرجع»، رواه البخاري[٢] في الأدب...

وروى مسلم[٣] في (صحيحه): «عن أنسٍ قال: ما رَأيتُ أرحم بالعيال من رسول الله».

وروى البخاري[٤] عنه قال: «مرَّ رسول الله على صبيانٍ، فسلَّم عليهم»...

«وعن عائشة قالت: ما رأيتُ رسول الله قطُّ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لَهواته، إنما كان يبتسم، وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا، عُرف في وجهه، فقلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاءَ أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيتَه، عُرف في وجهك الكراهية، قال: (يا عَائشةُ، وما يؤمنني أن يكون فيه عذابٌ؟ قد عُذِّب قوم بالريح، وقد أتى العذاب قومًا)، وتلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»، أخرجاه في (الصحيحين)[٥].

(الصحيحين)[٥].

---

(١) صحيح مسلم (٢٣٢٦).

(٢) صحيح البخاري (٦٠٧٢).

(٣) صحيح مسلم (٢٣١٦).

(٤) صحيح البخاري (٦٢٤٧)، وأخرجه بنحوه مسلم في صحيحه (٢١٦٨).

(٥) صحيح البخاري (٦٠٩٢)، وصحيح مسلم (٨٩٩)، واللفظ له.

وفي (الصحيحين)(١) أيضًا: «عن أنسٍ قال: كنت أمشي مع النَّبيِّ ﷺ وعليه بُرْد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ، فجبذ بردائه جبذًا شديدًا حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثَّرت بها حاشية البُرْد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مُرْ لي من مال الله الذي عندك. قال: فالتفت إليه رسول الله فضحك، ثم أمَر له بعطاءٍ»...

وفي (صحيح البخاري)(٢): «عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وسألها الأسود: ما كان رسول الله ﷺ يصنع في أهله؟ فقالت: كان يكون في مهنة أهله -تعني: خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة، خرج»...

وفي (صحيح مسلم)(٣): عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيامٍ من خبز بُرٍّ تباعًا حتى مضى لسبيله».

وعنها قالت: «كنَّا آل محمدٍ ﷺ يمرُّ بنا الهلال والهلال ما نوقد بنارٍ لطعامٍ إلا أنه التمر والماء، إلا أنه حولنا أهل دورٍ من الأنصار، فيبعث أهل كل دارٍ بفريزة شاتهم إلى رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ يشرب من ذلك اللبن»، أخرجاه في (الصحيحين)(٤)...

وفي (صحيح مسلم)(٥): «عن عمر بن الخطاب: أنه خطب وذكر ما فتح

---

(١) صحيح البخاري (٥٨٠٩)، وصحيح مسلم (١٠٥٧).

(٢) صحيح البخاري (٦٧٦).

(٣) صحيح مسلم (٢٩٧٠)، وبنحوه في البخاري (٥٤١٦).

(٤) صحيح البخاري (٢٥٦٧)، وصحيح مسلم (٢٩٧٢).

(٥) صحيح مسلم (٢٩٨٧).

على الناس، فقال: لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يتلوّى يومه من الجوع ما يجد من الدَّقَل ما يملأ بطنه».

وفي (صحيح البخاري)(١): «عن أنسٍ: أنه مشى إلى النبي ﷺ بخبز شعيرٍ، وإهالة سنخة، ولقد رَهَن درعه عند يهوديٍّ، فأخذ لأهله شعيرًا، ولقد سمعته يقول: (**ما أَمْسَى عند آل مُحمَّدٍ صاع برٍّ، ولا صاع حبٍّ**)، وإنهم يومئذٍ تسعة أبياتٍ».

وفيه(٢): عن عائشة قالت: «كان فراش رسول الله من أدمٍ حشوُهُ ليفٌ».

وفي (صحيح مسلم)(٣): من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا ذكر اعتزال رسول الله نساءه قال: «فدخلتُ على رسول الله ﷺ في خزانته، فإذا هو مضطجعٌ على حصيرٍ، فأدنى إليه إزاره وجلس، وإذا الحصير قد أثَّر بجنبه، وقلَّبت عيني في بيته، فلم أجد شيئًا يردُّ البصر غير قبضةٍ من شعيرٍ، وقبضةٍ من قرظٍ نحو الصاعين، وإذا أَفِيقٌ مُعلَّقةٌ، فابتدرت عيناي، فقال رسول الله: (**مَا يُبْكيك يا ابن الخطاب؟**)، فقلت: يا رسول الله، وما لي لا أبكي وأنت صفوة الله ورسوله وخيرته من خَلقه، وهذه خزانتك، وهذه الأعاجم كسرى وقيصر في الثمار والأنهار! فقال: (**أَوَ في شكٍّ أنت يا ابن الخطَّاب؟! أولئك قومٌ عُجِّلت لهم طيِّباتهم في حياتهم الدنيا**)، وفي روايةٍ: (**أَوَ ما ترضى أن تكون لهم الدُّنيا، ولنا الآخرة؟**). قال: بلى. قال: (**فالحمد لله ﷻ**). قال: فقلت: أستغفر الله»(٤).

(١) صحيح البخاري (٢٠٦٩).

(٢) صحيح البخاري (٦٤٥٦).

(٣) صحيح مسلم (١٤٧٩) وأخرجه البخاري (٢٤٦٨).

(٤) (٥/ ٤٤٩).

المبحث التاسع: شهادة قومه له بالصدق

وقَد ذكرنا أنَّ قومه المعادين له غاية العداوة ما زالوا معترفين بصدقه ﷺ، وأنهم لم يُجرِّبوا عليه كذبًا، بل ومعترفين بأنَّ ما يقوله ليس بشِعْرٍ، ولا كهانةٍ، وأنه ليس بساحرٍ.

ففي (الصحيحين)[1]: عن ابن عباسٍ أنَّ أبا سفيان بن حرب حدَّثه قال: «انطلقت إلى الشام في المدَّة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ قال: فبينما أنا بالشام إذ جيء بكتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل، قال: وكان دحية الكلبي جاء به، فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقال هرقل: هل هاهنا أحدٌ من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ؟ قالوا: نعم. قال: فدعيت في نفرٍ من قريشٍ، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسبًا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ. قال أبو سفيان: فقلت: أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، فدعا بترجمانه، فقال: قل لهم: إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ، فإن كذبني فكذبوه. قال: فقال: وايم الله، لولا مخافة أن يؤثر عليَّ كذب لَكذبتُ عليه، ثم قال لترجمانه: سَلْه: كيف حسَبه فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو حَسَبٍ. قال: فهل كان في آبائه من مَلِكٍ؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم

---

(١) صحيح البخاري (٧)، وصحيح مسلم (١٧٧٣).

تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا»، وذكر باقي الحديث.

وفي (الصحيحين)[١]: عن عبد الله بن مسعودٍ، حديث سعد بن معاذ، لمَّا قال لأُمية: إنهم قاتلوك -يعني: النبي ﷺ وأصحابه- وفزع منه لذلك، وقال لامرأته ذلك، فقالت: واللهِ، ما يكذب محمد، وقال هو في روايةٍ أخرى: والله ما يكذب محمد، وعزم ألَّا يخرج خوفًا من هذا، وقال: واللهِ، لا أخرج من مكة، وأراد التخلُّف عن بدرٍ حتى قال له أبو جهلٍ: إنَّك متى يراك الناس قد تخلَّفت وأنت سيد هذا الوادي، تخلَّفوا معك. فقال: أما إذ غلبتني، فلأشترين أجود بعيرٍ بمكة، وذكَّرته امرأته بقول سعدٍ، فقال: ما أريد أن أكون معهم إلا قريبًا.

وعن مجاهدٍ: قال مولاي السائب بن أبي السائب: كنتُ فيمَن بنى البيت، وأن قريشًا اختلفوا في الحَجَر حين أرادوا أن يضعوه حتى كادوا يقع بينهم قتالٌ بالسيوف، فقال: اجعلوا بينكم أول رجلٍ يدخل من الباب، فدخل رسول الله ﷺ، وكانوا يسمُّونه في الجاهلية: الأمين، فقالوا: يا محمد، قد رضينا بك[٢].

وفي حديث البخاري[٣]: عن ابن عباسٍ: «أنَّ أبا ذرٍّ أرسل أخاه، وقال: اعلم لي عِلْمَ هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، فاسمع من قولِهِ، ثم ائتني، فانطلق الآخر حتى قدم مكة، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذرٍّ، فقال: رأيته يأمر

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٣٢)، لم أقف عليه عند مسلمٍ، ولم يعزه له المزي في التحفة (٧/ ١٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٥٥٠٤).

(٣) صحيح البخاري (٣٨٦١)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٤٧٤).

بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشِّعر. فقال: ما شفيتني فيما أَردتُ، فتزوَّد وحَمَلَ شَنَّةً له فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجد...»، وذكر تمام الحديث...

وعن ابن عبَّاس: «أنَّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي، فقرأ عليه من القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، قال: أَعِدْ، فأعاد النبي ﷺ، فقال: «واللهِ، إنَّ له لَحلاوة، وإن عليه لَطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمُغْدق، وما يقول هذا البشر»[(١)][(٢)].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٨٧).

(٢) (٥/ ٣٥٨).

المبحث العاشر: فضل أُمَّته[1]

وأُمَّته أكمل الأمم في كلِّ فَضِيلةٍ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم، ظهر فضل علمهم، وَإِنْ قيس دينهم وعباداتهم وطاعتهم لله بغيرهم، ظهر أَنَّهم أَدْين من غيرهم، وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله، وصبرهم على المكاره في ذات الله، ظهر أنهم أعظم جهادًا، وأشجع قلوبًا، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم بغيرهم، تبيَّن أنهم أسخى وأكرم من غيرهم.

---

(١) وتقرير هذا الدليل كما يرد مفرقًا في كلام الشيخ في هذا الكتاب وغيره: أن ما حصل للمسلمين من الفضائل والعلوم الإلهية والعقلية والمعارف العلمية إما أن يكون إنما تحصل لهم من علوم آبائهم، أو علم وسلوك اقتبسوه من أهل الكتاب، أو حصل لهم من تنزُّل الوحي بين أظهرهم، فإذا ثبت أن ما حصل لهم من العلم والعقل والعمل أكمل وأفضل مما كان عند أهل الكتاب، وأن آباءهم لم يكونوا يقرءون كتابًا، فهم أدنى من أهل الكتاب في هذه الوجوه، فامتنع أن يكون مصدر هذه الفضائل أهل الكتاب، أو اتباع الآباء، وتعيَّن أن يكون ذلك قد حصلت لهم باتباع مُحمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لا غير، فيعلم من ذلك فضل وكمال ما جاء به محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ على ما كان عند الأمم السابقة من الكتابيين والوثنيين، وهو ما لا يتَّفق مع كونه متنبيًا كاذبًا، فتعيَّن كونه نبيًّا صادقًا.

- وقد جاء هذا الدليل على لسان المسيح في كتاب متَّى (٧/ ١٥-٢٠): «احترزوا من الأنبياء الكَذَبة الذين يأتونكم بثياب الحملان، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة (١٦) من ثمارهم تعرفونهم، هل يجتنون من الشوك عنبًا، أو من الحسك تينًا (١٧) هكذا كل شجرةٍ جيدةٍ تصنع أثمارًا جيدةً، وأما الشجرة الرديَّة، فتصنع أثمارًا رديةً (١٨) لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارًا رديَّة، ولا شجرة رديَّة أن تصنع أثمارًا جيدةً (١٩) كل شجرةٍ لا تصنع ثمرًا جيدًا تقطع وتلقى في النار (٢٠) فإذا من ثمارهم تعرفونهم».

وهذه الفضائل به نالوها، ومنه تعلَّموها، وهو الذي أمَرهم بها، لم يكونوا قبله مُتَّبعين لكِتَابٍ جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة، فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة، وبعضها من الزَّبور، وبعضها من النُّبوات، وبعضها من المسيح، وبعضها ممَّن بعده كالحواريين، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا -لمَّا غيَّروا دين المسيح- في دين المسيح أمورًا من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح.

وأمَّا أُمَّة مُحمَّدٍ ﷺ، فلم يكونوا قبله يقرءون كتابًا، بل عامَّتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود، والتوراة والإنجيل والزبور إلَّا من جهته، فهو الذي أمَرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء، ويقرُّوا بجميع الكتب المنزلة من عند الله، ونهاهم أن يُفرِّقوا بين أحدٍ من الرسل، فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا

وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦].

وأُمَّته لا يستحلُّون أن يأخذوا شيئًا من الدين من غير ما جاء به، ولا يبتدعون بدعةً ما أنزل الله بها من سلطانٍ، فلا يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله، لكن ما قصَّه عليهم من أخبار الأنبياء وأممهم اعتبروا به، وما حدثهم أهل الكتاب موافقًا لما عندهم، صدقوه، وما لم يعلموا صدقه، ولا كذبه، أمسكوا عنه، وما عرفوا أنه باطلٌ، كذَّبوه، ومن أدخل في الدين ما ليس منه من أقوال متفلسفة الهند أو الفرس أو اليونان أو غيرهم، كان عندهم من أهل الإلحاد والابتداع.

وهذا هو الدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وهو الذي عليه أئمَّة الدين الذين لهم في الأمة لسان صدقٍ، وعليه جماعة المسلمين وعامَّتهم، ومَن خرج عن ذلك، كان مذمومًا مدحورًا عند الجماعة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة الظاهرون إلى قيام الساعة، الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**لا تزالُ طَائفةٌ من أُمَّتي ظاهرينَ على الحقِّ، لا يَضرُّهم مَن خالفهم، ولا مَن خَذلَهم حتى تَقُوم السَّاعة**»(١).

وقد تنازع بعض المسلمين مع اتفاقهم على هذا الأصل الذي هو دين الرسل عمومًا، ودين محمد خصوصًا، ومن خالف في هذا الأصل كان عندهم ملحدًا مذمومًا، ليسوا كالنصارى الذين ابتدعوا دينًا قام به أكابر علمائهم وعُبَّادهم،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٢٠) من حديث ثوبان، وبنحوه البخاري في صحيحه (٣٦٤٠) من حديث المغيرة.

وقاتل عليه ملوكهم، ودان به جمهورهم، وهو دين مبتدع ليس هو دين المسيح، ولا دين غيره من الأنبياء.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أرسل رسله بالعلم النافع، والعمل الصالح، فمَن اتبع الرسل، حصل له سعادة الدنيا والآخرة، وإنَّما دخل في البدع مَن قصَّر في اتباع الأنبياء علمًا وعملًا، ولمَّا بعث الله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق، تلَقَّى ذلك عنه المسلمون أُمَّتُهُ، فكل علمٍ نافعٍ وعملٍ صالحٍ عليه أُمَّة مُحمَّدٍ ﷺ أخذوه عن نبيِّهم مع ما يظهر لكلِّ عاقلٍ: أن أُمَّته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية.

ومعلومٌ أن كلَّ كمالٍ في الفرع المتعلم هو من الأصل المعلم، وهذا يقتضي أنه كان أكمل الناس علمًا ودينًا، وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقًا في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، لم يكن كاذبًا مفتريًا، فإنَّ هذا القول لا يقوله إلا مَنْ هو من خيار الناس وأكملهم إنْ كان صادقًا، أو هو من شَرِّ الناس وأخبثهم إن كان كاذبًا، وما ذكر من كمال علمه ودينه، يناقض الشَّرَّ والخبث والجهل، فتعيَّن أنه متصفٌ بغاية الكمال في العلم والدين.

وهذا يستلزم أنه كان صادقًا في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]؛ لأنَّ الذي لم يكن صادقًا: إما أن يكون متعمدًا للكذب، أو مخطئًا، والأول يوجب أنه كان ظالمًا غاويًا، والثاني يقتضي أنه كان جاهلًا ضالًّا، وكمال علمه ينافي جهله، وكمال دينه ينافي تعمُّد الكذب، فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنَّه لم يكن متعمدًا للكذب، ولم يكن جاهلًا يكذب بلا علمٍ، وإذا انتفى هذا وذاك، تعيَّن أنه كان

صادقًا عالمًا بأنه صادق(١).

إذ المقصود هنا أن كلَّ ما عند أهل الكتاب بل وسائر أهل الأرض من علمٍ نافعٍ وعملٍ صالحٍ فهو عند المسلمين، وعند المسلمين ما ليس عند غيرهم في جميع المطالب التي تنال بها السعادة والنجاة، وعقلاء جميع الأمم تأمر بالعدل ومكارم الأخلاق، وتنهى عن الظلم، والفواحش، ولهم علومٌ إلهيةٌ، وعباداتٌ بحسبهم، ويُعظِّمون أهل العلم والدين منهم، والهند، واليونان، والفرس في ذلك أكمل من كفار التُّرك، والبربر، ونحوهم، مع أن هؤلاء أيضًا فيهم قسطٌ من ذلك.

ومعلوم عند الاعتبار أن الأمم الذين لهم كتاب كاليهود والنصارى أكمل من الأمم الذين لا كتاب لهم في الفضائل العلمية والعملية، فَإِنَّ ما لم يأخذه الناس عن الأنبياء، يُعْلم بالعقل والاعتبار، أو بالمنام، والإلهام، وأخبار الجنِّ ونحو ذلكِ من طرق الأمم، وكل طريقٍ صحيحٍ من الطرق العقلية، والإلهامية، وغيرها، شارك أهل الكتاب فيه مَنْ لا كتاب له.

ويمتاز أهل الكتاب بعلومٍ وأعمالٍ أخذوها عن الأنبياء، ليس في قوة مَن ليس بنبيٍّ أن يعلمها، وهذا ظاهرٌ في الأخلاق، والسياسات المنزلية والمدنية، فإن جنس أهل الكتاب -ولو كان منسوخًا مبدلًا- أحسن حالًا ممن لا كتاب له.

وأما في العبادات والإيمان بالله واليوم الآخر، فرجحانهم فيه ظاهرٌ، وأما علوم وأعمال يكون ضررها راجحًا؛ كالسِّحر، والطلسمات، وما يتوسَّل به من

---

(١) (٥/ ٤٤١).

الشِّرك إلى استخدام الشياطين، ونحو ذلك، فهذا وَإنْ كان غير أهل الكتاب أقوم به، فإنما ذاك لاستغناء أهل الكتاب بما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة...

وإذا كان جنس أهل الكتاب أكمل في العلوم النافعة، والأعمال الصالحة ممَّن لا كتاب له، فمعلومٌ أن أُمَّة محمدٍ ﷺ أكمل من طائفتي أهل الكتاب -اليهود والنصارى- وأعدل، وقد جمع لهم محاسن ما في التوراة وما في الإنجيل، فليس عند أهل الكتاب فضيلة علمية وعملية إلا وأُمَّة محمدٍ ﷺ أكمل منهم فيها.

فأمَّا العلوم، فهم أحذق في جميع العلوم من جميع الأمم حتى العلوم التي ليست بنبويَّة، ولا أخرويَّة؛ كعلم الطب -مثلًا- والحساب، ونحو ذلك، هم أحذق فيها من الأُمَّتين، ومصنفاتهم فيها أكمل من مصنفات الأُمَّتين، بل أحسن علمًا وبيانًا لها من الأولين الذين كانت هي غاية علمهم، وقد يكون الحاذق فيها مَنْ هو عند المسلمين منبوذ بنفاقٍ وإلحادٍ، ولا قدر له عندهم، لكن حصل له بما يعلمه من المسلمين من العقل والبيان ما أعانه على الحذق في تلك العلوم، فصار حُثَالة المسلمين أحسن معرفةً وبيانًا لهذه العلوم من أولئك المتقدمين.

وأما العلوم الإلهية، والمعارف الربانية، وما أخبرت به الأنبياء من الغيب كالعرش، والملائكة، والجن، والجنة، والنار، وتفاصيل المعاد، فكل مَن نظر في كلام المسلمين فيها، وكلام علماء اليهود والنصارى، وجد كلام المسلمين فيها أكمل وأتمَّ. ومعلومٌ أن علم أهل الكتاب والملل بذلك أتم من علم غيرهم، وأما العبادة، والزهد، والأخلاق، والسياسة المنزلية، والمدنية، فالكلام فيها

مبنيٌّ على أصلٍ، وهو معرفة المقصود بها، وما به يحصل المقصود...

وأمَّا حكم المسلمين في الحدود والحقوق، فلا يخفى على عاقلٍ فضله، حتى إن النصارى في طائفةٍ من بلادهم ينصبون لهم مَنْ يقضي بينهم بشرع المسلمين إذا لم يكن لهم شرعٌ يحكم به الناس. وليس في الإنجيل حكمٌ عامٌّ، بل عامته، وإنما فيه الأمر بالزهد، ومكارم الأخلاق، وهو مما يأمر به المسلمون أيضًا. وقد ذكرنا في كون المسلمين معتدلين متوسطين بين اليهود والنصارى في التوحيد، والنبوات، والحلال، والحرام، وغير ذلك، مما يبين أنهم أفضل من الأمتين، مع أن دلائل هذا كثيرة جدًّا، وإنما المقصود التنبيه على ذلك، وحينئذٍ ففضل الأمة يستلزم فضل متبوعها[1].

---

(١) (٦/ ١٢).

المبحث الحادي عشر: إثبات نبوته ﷺ بالقسمة العقلية

وممَّا يُبيِّن أمر محمدٍ ﷺ: أنَّ مَن دعا إلى مثل ما دعا إليه لا يخلو من ثلاثة أقسامٍ:

إمَّا أن يكون نبيًّا صادقًا مرسلًا من الله كما أخبر عن نفسه بمنزلة نوحٍ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وداود، وسليمان، وغيرهم من الأنبياء...

وإما أن يكون ملكًا مسلمًا عادلًا، وضَع ناموسًا سياسيًّا وقانونًا عدليًّا ينفع به الخَلق، ويحملهم به على السيرة العادلة بمبلغ علمه، كما كان للأمم مَنْ يضع لهم النواميس مثل واضعي النواميس من اليونان، والهند، والفرس، وغيرهم... فهذا القسم الثاني.

وإما أن يكون رجلًا كاذبًا فاجرًا أفَّاكًا أثيمًا يتعمد الكذب والظلم، أو يتكلم بلا علمٍ، فيخطئ خطأ من يتكلم بلا علمٍ.

وكل مَنْ دعا الخَلْق إلى متابعته وطاعته على سبيل الحتم والإيجاب بأن يُصدِّقوه بما أخبر، ويطيعوه فيما أمر به، وأوجبه باطنًا وظاهرًا من غير أن يخير أحدًا في اتباعه وتصديقه وطاعته، ولا يسوغ له مخالفته بوجهٍ من الوجوه لا في الباطن، ولا في الظاهر، لم يخرج عن هذه الأقسام الثلاثة.

وإذا كان الأمر كذلك، فمعلومٌ بالتواتر أن محمدًا ذكر أنه رسول كإبراهيم، وموسى، وعيسى، بل أخبر أنه سيِّد ولد آدم، وأنَّ آدم فمَنْ دونه تحت لوائه يوم

القيامة، وأنه لمَّا أُسْري به، وعرج إلى ربه، علا على الأنبياء كلهم، على إبراهيم، وموسى، وهارون، ويحيى، وعيسى، وغيرهم، وأخبر أنه لا نبي بعده، وأن أُمَّته هم الآخرون في الخَلق، السابقون يوم القيامة، وأن الكتاب الذي أُنْزل إليه أحسن الحديث، وأنه مهيمنٌ على ما بين يديه من الكتب مع تصديقه لذلك، وحينئذٍ فإن كان عالمًا بصدق نفسه، فهو نبي رسول، ومن قال هذا القول وهو يعلم أنه كاذبٌ، فهو من أظلم الناس وأفجرهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وإن كان يظنُّ صدق نفسه وليس كذلك، فهو مخطئٌ غالطٌ ملبوسٌ عليه، وإذا كان كذلك فلا بد أن يخطئ فيما يخبر به من الغيوب، ويظلم فيما يأمر به من العدل، ولا يتصور استمراره على هذا، بَلْ لا بد أن يَتبيَّن له ولغيره أنه صادقٌ أو كاذبٌ؛ فَإنَّ مَنْ ظنَّ صدق نفسه في مثل هذه الدعوى، وليس بصادقٍ يكون من أجهل الناس وأظلمهم، وأبعدهم عن التمييز بين الحقِّ والباطل، والصدق والكذب، والخير والشَّر، فإنَّ هذا بمنزلة مَن اشتبه عليه النبي الصادق بالمتنبي الكذَّاب، وهذا من أجهل الناس، إذا اشتبه عليه حال غيره، فكيف بمَنْ اشتبه عليه حال نفسه ولم يعلم ما يقوله أصدقٌ هو أم كذبٌ؟

فإذا كانت أخباره عن الماضي والمستقبل يصدق بعضها بعضًا، والذي يأمر به هو الطريق الأقوم، والكتاب الذي جاء به كتاب متشابه مثاني، يشبه بعضه بعضًا في الصدق، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فإنه لو كان من عند غير الله، لَوَجب أن يكون فيه تناقضٌ؛ لامتناع قدرة البشر على أن تُخْبر بهذه الأخبار، وما فيها من الغيوب، ويأمُرُ بهذه

الأوامر مع سلامة ذلك من التناقض، ولهذا لا يوجد بشرٌ غير نبيٍّ يَسْلم من ذلك.

وإذا كان مُحمَّدٌ ﷺ قد علم بالاضطرار من سيرته أنه كان يتحرَّى الصدق والعدل، وأنه ما جربت عليه كذبة قط، وعلم أنه كان جازمًا بما يخبر به مع عظم الأخبار وكثرتها، وهو وحده قام يدعو الناس إلى ما جاء به.

ومن عادة طالب الملك والرياسة -ولو كان عادلًا- أن يستعين بمَن يعينه كأقاربه وأصدقائه ونحوهم، وأن يبذل للنفوس من العاجل ما يُرغِّبها به كالمال والرياسة، ويرهب من خالفه. ومحمدٌ ﷺ دعا الناس وحده وهو بمكة، فآمن به المهاجرون، ثم آمن به الأنصار بالمدينة، ثم آمن به أهل البحرين، ولم يعط أحدًا منهم درهمًا، ولا كان معه ما يُخِيفُهم به، لا سيف ولا غيره، بل مكث بمكة بضع عشرة سنةً، هو والمؤمنون به مستضعفين، لم يكن له مال يبذله لهم، ولا سيف يخيفهم به، وكان أعظم مَن آمن به أبو بكر الصِّدِّيق مع كمال عقله وخلقه، ودينه في قومه، ومحبتهم له، وعُلو قدره فيهم، أنفق ماله كله في سبيل الله حتى قال له النَّبِيُّ ﷺ: «(ما تركتَ لأهلكَ؟)، قال: تركتُ لهم الله ورسوله»[(١)]، ولم يُعْطه النبي ﷺ درهمًا واحدًا يخصه به، ثم تولَّى الأمر بعده، وترك ما كان معه للمسلمين، وتولَّى بعده عمر بن الخطاب، وفتح أعظم ممالك العالم؛ مملكة فارس والروم، فقهر الرُّوم على بلاد الشام، والجزيرة، ومصر، وأميره الكبير أبو عبيدة أزهد الخَلق في الأموال، وأعبدهم للخالق، وأرحمهم للمخلوق، وأبعدهم عن هوى النفس...

---

(١) أخرجه بنحوه أبو داود في السنن (١٦٧٨)، والترمذي في الجامع (٣٦٧٥).

وأميره على فارس سعد بن أبي وقاص الذي كان مستجاب الدعوة، وكان من أزهد الناس، وكان آخر مَن بقي من أهل الشورى، والناس يتنازعون في الولاية، وهو معتزلٌ في قصره بالعقيق لا يزاحم أحدًا، فقال له ابنه عمر: تركتَ الناس يتنازعون الملك، وجلستَ ههنا! فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله يحبُّ العبد التقيَّ الغنيَّ النقيَّ الخفيَّ**»(١)(٢)(٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٦٥).

(٢) وتتمَّة الدليل أن يقال: فلمَّا خالف عادة أهل الرياسة والملك، وباينهم في المقاصد والوسائل، بطل أن يكون ملكًا، وبطل أن يكون كاذبًا لما سبق، فتعيَّن أن يكون نبيًّا صادقًا.
ويمكن أن يزاد في القسمة العقلية أن يكون يتراءى ويخيل إليه، أي: إنما يمدُّه بالوحي حسه المرهف، وخياله الخصب المتهيج، كما صرح بذلك برمنجهام ونولدلكه، وغيرهما من المستشرقين، وهذا باطل من وجوهٍ كثيرةٍ، بل هو أظهر بطلانًا من سابقيه، فلا يمكن للخيالات أن تمدَّ الإنسان بما لم يتحصل عنده من العلوم الإلهية، وأخبار الغيب، والأمم السابقة، ولا يمكن للخيالات أن تخدع صاحبها وكل المحيطين به لبضعٍ وعشرين سنةً حتى يتمم القرآن، ويحكم أمر التشريع الإسلامي، ويبني دولةً قويةً، بل الخيالات تضعف عقل الإنسان، وتُخْرجه عن القصد والاعتدال، وليس تمدُّه بما يبهر العقول ويعجزها، فهذا الاحتمال يظهر بطلانه بنفس تمام تصوره».

(٣) (٦/ ٤٦).

البَابُ الخَامِسُ

مناقشة بعض الشبهات الواردة على القرآن والنبي محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

تمهيد

يتناول هذا الباب بعض الإيرادات التي أوردها المنكرون لنُبوَّة محمد ﷺ، أو لعموم رسالته.

ولم يتناول هذا الباب بالطبع كل شبهات أعداء الإسلام، أو حتى أهمها؛ لأنَّ الشيخ لم يقصد إلى ذلك، وإنما كان يتناول بالمناقشة والرد ما أورده صاحب الرسالة المردود عليه، وغالبها يتعلق بإنكار عموم رسالة النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا إنكار أصل نبوته، مثل دعوى أن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسل إلى العرب خاصَّة، أو استنكار عموم رسالته لخصوص لغة الكتاب، أو دعوى استكفاء أهل الكتاب بالكتب والرسال السابقين، ونحو ذلك.

ومع ذلك، فإنَّ من يتأمل طريقة الشيخ التي تجمع بين النقل والعقل، وبين التسليم والمنع، مع حسن التقرير وأمانة النقل، ويحاول التحقُّق بها، والتحصُّل عليها، فإنها تنفعه، وتقوي مَلَكته ومادته في مناقشة أي شبهةٍ كانت، في هذا الباب أو غيره.

مناقشة بعض الشبهات الواردة على القرآن والنبي محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

مناقشة الدعوى بأنَّ محمدًا ﷺ أرسل إلى العرب خاصَّة

بطلان هذه الدعوى بالتواتر:

فنقول بعد ذلك لمَنْ قال: إنه رسول أرسل إلى العرب الجاهلية دون أهل الكتاب:

إنه من المعلوم بالضرورة لكلِّ مَن علم أحواله بالنقل المتواتر الذي هو أعظم تواترًا مما ينقل عن موسى وعيسى وغيرهما، وبالقرآن المتواتر عنه، وسُنَّته المتواترة عنه، وسُنَّة خلفائه الراشدين من بعده أنه ﷺ ذكر أنه أرسل إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى، كما ذكر أنه أرسل إلى الأميين، بل ذكر أنه أرسل إلى جميع بني آدم؛ عربهم وعجمهم من الروم والفرس والترك والهند، والبربر والحبشة وسائر الأمم، بل أنه أرسل إلى الثَّقلين الجن والإنس جميعًا، وهذا كلُّه من الأمور الظاهرة المتواترة عنه التي اتفق على نقلها عنه أصحابه مع كثرتهم، وتفرُّق ديارهم وأحوالهم.

وقد صحبه عشرات ألوف، لا يحصي عددهم على الحقيقة إلا الله تعالى، ونقل ذلك عنهم التابعون، وهم أضعاف الصحابة عددًا، ثم ذلك منقول قرنًا بعد قرنٍ إلى زمننا مع كثرة المسلمين، وانتشارهم في مشارق الأرض ومغاربها، كما أخبر بذلك قبل أن يكون، فقال في الحديث الصحيح: «**زُويَت لي الأرض،**

فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ مُلْك أمتي ما زُوي لي منها»[(١)]...

والمقصود: أن محمدًا ﷺ هو نفسه دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإيمان به، وبما جاء به، كما دعا مَن لا كتاب له من العرب وسائر الأمم، وهو الَّذي أخبر عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بكفر مَن لم يؤمن به من أهل الكتاب وغيرهم، وبأنهم يَصْلون جهنم، وساءت مصيرًا، وهو الذي أَمَر بجهادهم، ودعاهم بنفسه ونُوَّابه، وحينئذٍ فقولهم في الكتاب: لم يأت إلينا بل إلى الجاهلية من العرب؛ سواء أرادوا أن الله بعثه إلى العرب، ولم يبعثه إلينا، أو أرادوا أنه ادعى أنه أرسل إلى العرب لا إلينا، فإنه قد علم جميع الطوائف أن محمدًا دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به، وذكر أنَّ الله أرسله إليهم، وأَمَره بجهاد مَنْ لم يؤمن به منهم، فإذا قيل مع هذا: إنه قال: لم أُبْعث إلا إلى العرب، كان كاذبًا كذبًا ظاهرًا عليه؛ سواء صدقه الإنسان أو كذبه، فإن المقصود هنا أنه نفسه دعا جميع أهل الأرض إلى الإيمان به، فدعا أهل الكتاب كما دعا الأميين.

أمَّا اليهود، فإنَّهم كانوا جيرانه في الحجاز بالمدينة، وما حولها، وخيبر، فإن المهاجرين والأنصار كلهم آمنوا به من غير سيفٍ ولا قتالٍ، بل لمَّا ظهر لهم من براهين نبوته، ودلائل صدقه، آمنوا به، وقد حصل من الأذى في الله لمَن آمن بالله ما هو معروفٌ في السيرة، وقد آمن به في حياته كثيرٌ من اليهود والنصارى، بعضهم بمكة، وبعضهم بالمدينة، وكثيرٌ منهم كانوا بغير مكة والمدينة، فلمَّا قدم المدينة عاهد مَنْ لم يؤمن به من اليهود، ثم نقضوا العهد، فأجلى بعضهم، وقتل بعضهم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٨٩).

لمحاربتهم لله ورسوله، وقد قاتلهم مرةً بعد مرةٍ، قاتل بني النضير، وأنزل الله تعالى فيهم سورة الحشر، وقاتل قريظة عام الأحزاب، وذكرهم الله في سورة الأحزاب، وقاتل قبلهم بني قينقاع، وبعد هؤلاء غزا خيبر هو وأهل بيعة الرضوان الذين بايعوه تحت الشجرة، وكانوا ألفًا وأربعمائة، ففتح الله عليهم خيبر، وأقرَّ اليهود فيها فلاحين، وأنزل الله تعالى سورة الفتح يذكر فيها ذلك، فكيف يقال: إنه لم يذكر أنه أرسل إلا إلى مشركي العرب، وهذه حال اليهود معه؟

وأما النصارى، فإن أهل نجران التي باليمن كانوا نصارى، فقدم عليه وَفْدهم ستون راكبًا، وناظرهم في مسجده، وأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران، ولمَّا ظهرت حُجَّته عليهم، وتبيَّن لهم أنه رسول الله إليهم، أمَره الله إنْ لم يجيبوه أن يدعوهم إلى المباهلة، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

فلمَّا دعاهم إلى المباهلة، طالبوا أن يمهلهم حتى يشتوروا، فاشتوروا، فقال بعضهم لبعضٍ: تعلمون أنه نبي، وأنه ما باهل قوم نبيًّا إلا نزل بهم العذاب، فاستعفوا من المباهلة، فصالحوه، وأقروا له بالجزية عن يدٍ وهم صاغرون؛ لما خافوا من دعائه عليهم، لعلمهم أنه نبيٌّ، فدخلوا تحت حكمه، كما يدخل أهل الذمة الذين في بلاد المسلمين تحت حكم الله ورسوله، وأدَّوا إليه الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وهم أول من أدَّى الجزية من النصارى(١).

وكان قبل قصَّة نجران قد آمن به كثيرٌ من اليهود والنصارى؛ رؤساؤهم

---

(١) (١/ ١٦٢).

وغير رؤسائهم لما تبيَّن لهم أنه رسول الله إليهم، كمَا آمن به النجاشي ملك الحبشة، وكان نصرانيًّا هو وقومه، وكان إيمانه به في أول أمر النبي ﷺ لمَّا كان أصحابه مستضعفين بمكة، وكان الكفار يظلمونهم ويؤذونهم ويعاقبونهم على الإيمان بالله ورسوله، فهاجر منهم طائفةٌ؛ مثل: عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود وجعفر بن أبي طالب، وغيرهم من الرجال والنساء إليه، وكان ملكًا عادلًا، فأرسل الكفار خلفهم رسلًا بهدايا ليردهم إليهم، فامتنع من عدله أن يُسْلمهم إليهم حتى يسمع كلامهم، فلما سمع كلامهم وما أخبروه به من أَمْر النبي ﷺ، آمَن بالنبيِّ ﷺ وآواهم...

وقد ذكر قصَّتهم جماعةٌ من العلماء والحُفَّاظ؛ كأحمد بن حنبل في (المسند)، وابن سعد في (الطبقات)، وأبي نعيم في (الحلية)، وغيرهم، وذكرها أهل التفسير والحديث والفقه، وهي متواترة عند العلماء[(١)].

وكان أوَّل ما أنزل الله تعالى عليه ﷺ الوحي، عرضت خديجة امرأته أَمْره على عالمٍ كبيرٍ من علماء النصارى يُقَال له: ورقة بن نوفل، وكان من العرب المتنصرة، فقال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى بن عمران، يا ليتني أكون فيها جذعًا حين يُخرجك قومك -يعني: ليتني أكون شابًّا، فإنه كان شيخًا كبيرًا، قد كفَّ بصره- فقال له النبي ﷺ: (أَوَ مُخْرجي هم؟). قال: نعم، لم يأت أحدٌ بمثل ما أتيت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك، أنصرك نصرًا مؤزرًا»، رواه أصحاب الصحيح[(٢)].

---

(١) (١/ ٢٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣)، ومسلم في صحيحه (١٦٠).

وقدم إليه بمكة طائفةٌ من أهل الكتاب من النصارى، فآمنوا به، فآذاهم المشركون، فصبروا واحتملوا أذاهم، فأنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٥].

وروى البيهقيُّ في كتاب (دلائل النُّبوة[١] وأعلام الرسالة)، فقال: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو العباس محمد بن يعقوب، نبأنا أحمد بن عبد الجبار، أنبأنا يونس عن ابن إسحاق، قال: ثمَّ قدم على رسول الله ﷺ عشرون رجلًا -وهو بمكة أو قريب من ذلك- من النصارى حين ظهر خبَره في الحبشة، فوجدوه في المجلس، فكلَّموه وسألوه، ورجال من قريشٍ في أنديتهم حول الكعبة.

فلمَّا فرغوا من مساءلتهم رسول الله ﷺ إلى الله، وتلا عليهم القرآن، فلمَّا سمعوا، فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له، وآمنوا به، وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا من عنده، اعترضهم أبو جهل في نفرٍ من قريشٍ، فقالوا: خيَّبكم الله من ركبٍ بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم، فتأتونهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم، ما نعلم ركبًا أحمق منكم، أو كما قال لهم، فقالوا: سلامٌ عليكم لا نجاهلكم، لنا أعمالنا، ولكم أعمالكم، لا نألوا لأنفسنا إلا خيرًا، ويقال والله أعلم: إنَّ فيهم نزلت هؤلاء الآيات ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ

(١) دلائل النبوة (٢/ ٣٠٦).

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢] إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

ولمَّا كان بعد عام الحديبية، ومهادنة قريشٍ، أرسل ﷺ رسله إلى جميع الطوائف، فأرسل إلى النصارى -نصارى الشام ومصر- فأرسل إلى هرقل ملك الروم...

وأرسل النبي ﷺ رسولًا أيضًا إلى ملك مصر المقوقس ملك النصارى في ذلك الوقت بالإسكندرية، وكان رسوله إليه حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ... ثم إنه بعد هذا غزا النصارى بنفسه، وأمَرَ جميع المسلمين أن يخرجوا معه في الغزاة، ولم يأذن في التخلُّف عنه لأحدٍ، وغزا في عشرات ألوفٍ غزوة تبوك، فقدم تبوك، وأقام بها عشرين ليلةً؛ ليغزو النصارى عربهم ورومهم وغيرهم، وأقام ينتظرهم ليقاتلهم، فسمعوا به، وأحجموا عن قتاله، ولم يقدموا عليه.

وأنزل الله تعالى في ذلك أكثر سورة (براءة)، وذمَّ تعالى الذين تخلفوا عن جهاد النصارى ذمًّا عظيمًا، والذين لم يروا جهادهم طاعةً جعلهم منافقين كافرين، لا يغفر الله لهم إذا لم يتوبوا، وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤].

وقام خلفاؤه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعده بدينه ﷺ، فأرسل أبو بكرٍ الصِّدِّيق الجيوش لغزو النصارى بالشام، وجرت بين المسلمين وبينهم عدَّة غزواتٍ، ومات أبو بكرٍ وهم محاصرو دمشق، ثم ولي عمر بن الخطاب، ففتح عامَّة الشام ومصر والعراق وبعض خراسان في خلافته، وقدم إلى الشام في خلافته، وسلَّم إليه النصارى بيت

المقدس؛ لما رأوه من صفته عندهم[(١)].

وقاتل عمر بن الخطاب الفرس المجوس، وفتح أرضهم، وظهر تصديق خبر رسول الله ﷺ حيث قال: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده، لتنفقن كنوزهما في سبيل الله ﷻ**»، أخرجاه في (الصحيحين)[(٢)]، وهذا بعد أن بعث رسول الله ﷺ رسوله إلى المجوس، وكتب كتابًا إلى كسرى ملك الفرس، كما كتب إلى ملوك النصارى، كما تقدم عن قيصر والمقوقس، ولكن ملوك النصارى تأدَّبوا معه، وخضعوا له، فبقي ملكهم، وأما ملك الفرس فمزق كتابه، فدعا عليهم فقال: «**اللَّهمَّ مزِّق مُلْكَهم كلَّ مُمزَّقٍ**»[(٣)]، فلم يبق لهم ملكٌ[(٤)].

وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن دعوة المشركين وعُبَّاد الأوثان، وجميع الإنس والجن ما لا يُحْصى إلا بكُلْفةٍ، وهذا كلُّه معلومٌ بالاضطرار من دين الإسلام، فكيف يقال: إنه لم يذكر أنه بعث إلا إلى العرب خاصَّة، وهذه دعوته ورسله وجهاده لليهود والنصارى والمجوس بعد المشركين، وهذه سيرته ﷺ فيهم؟

وأيضًا، فالكتاب المتواتر عنه -وهو القرآن- يذكر فيه دعاءه لأهل الكتاب إلى الإيمان به في مواضع كثيرة جدًّا، بل يذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيه كفرَ مَنْ كفر من اليهود

---

(١) (١/ ٢٦٦).

(٢) صحيح البخاري (٣٠٢٧)، وصحيح مسلم (٢٩١٨).

(٣) أخرجه بنحوه البخاري في صحيحه (٦٤).

(٤) (١/ ٣١٥).

والنصارى، ويأمر فيه بقتالهم؛ كقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٧].

وقوله في هذه السورة أيضًا: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٧].

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ

وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧١ - ١٧٣]...

فهذه الدلائل وأضعافها ممَّا تبين أنه نفسه ﷺ أخبر أنه رسول الله إلى النصارى وغيرهم من أهل الكتاب، وأنَّه دعاهم وجاهدهم، وأمَرَ بدعوتهم وجهادهم، وليس هذا مما فعلته أُمَّته بعده بدعةً ابتدعوها، كما فعلت النصارى بعد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ(١).

فمَنْ قال بعد هذا من أهل الكتاب اليهود والنصارى: أنه لم يبعث إلينا، بمعنى أنه لم يقل: إنه مبعوثٌ إلينا، كان مكابرًا جاحدًا للضرورة، مفتريًا على الرسول فريةً ظاهرةً تعرفها الخاصة والعامة، وكان جحدُهُ لهذا كما لو جحد أنه جاء بالقرآن، أو شرع الصَّلوات الخمس، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام، وجحد محمد ﷺ، وما تواتر عنه أعظم من جحد أتباع الحواريين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإرساله لهم إلى الأمم، ومجيئه بالإنجيل، وجحد مجيء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتوراة، وجحد أنه كان يسبت؛ فإنَّ النقل عن مُحمَّدٍ ﷺ مدته قريبة، والناقلون عنه أضعاف أضعاف مَنْ نقل دين المسيح عنه، وأضعاف أضعاف أضعاف مَن اتصل به نقل دين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنَّ أُمَّة محمدٍ ﷺ ما زالوا

---

(١) (١/ ٣٣٦).

كثيرين منتشرين في مشارق الأرض ومغاربها، وما زال فيهم مَنْ هو ظاهرٌ بالدين، منصورٌ على الأعداء بخلاف بني إسرائيل، فإنهم زال مُلْكهم في أثناء الأمر لمَّا خرب بيت المقدس الخراب الأول بعد داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونقص عدد مَن نقل دينهم حتى قد قيل: إنه لم يبق مَن يحفظ التوراة إلا واحد، والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينقل دينه عنه إلا عدد قليل...

والمقصود هنا: الكلام مع هؤلاء بأنَّ العلم بعموم دعوته لجميع الخَلق -أهل الكتاب وغيرهم- هو متواتر معلوم بالاضطرار كالعلم بنفس مبعثه ودعائه الخَلق إلى الإيمان به وطاعته، وكالعلم بهجرته من مكة إلى المدينة، ومجيئه بهذا القرآن، والصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، وحج البيت العتيق، وإيجاب الصدق والعدل، وتحريم الظلم والفواحش، وغير ذلك مما جاء به محمد ﷺ[(١)].

إيراد وجوابه:

وإن قيل: بل في القرآن ما يقتضي أنَّ رسالته خاصة، وفيه ما يقتضي أنَّ رسالته عامة، وهذا تناقض.

قيل: هذا باطل، ويعلم بطلانه قبل العلم بنُبوَّته، فإنه من المعلوم لكلِّ أحدٍ آمن به، أو كذَّبه أنه كان من أعظم الناس عقلًا وسياسةً وخبرةً، وكان مقصوده دعوة الخَلق إلى طاعته واتِّباعه، وكان يقرأ القرآن على جميع الناس، ويأمر بتبليغه إلى جميع الأمم، وكان من طلب منه أن يؤمنه حتى يقرأ عليه القرآن من الكُفَّار، وجب عليه أن يجيبه ولو كان مشركًا، فكيف إذا كان كتابيًّا؟ كما قال

---

(١) (١/ ٣٦٩).

تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

وكان قد أظهر أنه مبعوثٌ إلى أهل الكتاب وسائر الخَلق، وأنه رسولٌ إلى الثقلين: الجن والإنس، فيمتنع مع هذا أن يظهر ما يدلُّ على أنه لم يبعث إليهم، فإن هذا لا يفعله مَن له أدنى عقل لمناقضته لمراده، فكيف يفعله مَن اتَّفقت عقلاء الأمم على أنه أعقل الخَلق وأحسنهم سياسةً وشريعةً؟

وأيضًا، فكان أصحابه والمقاتلون معه بعد ذلك ينفرون عنه، وقد كان عادتهم أن يستشكلوا ما هو دون هذا، وهذا لم يستشكله أحدٌ، ثم بعد هذا فلو قُدِّر أن في القرآن ما يدل على أنه لم يبعث إلا إلى العرب، وفيه ما يدلُّ على أنه بعث إلى سائر الخَلق، كان هذا دليلًا على أنه أرسل إلى غيرهم بعد أن لم يرسل إلا إليهم، وأن الله عمَّ بدعوته بعد أن كانت خاصةً، فلا مناقضة بين هذا وهذا.

فكيف وليس في القرآن آيةٌ واحدةٌ تدل على اختصاص رسالته بالعرب، وإنما فيه إثبات رسالته إليهم، كما أنَّ فيه إثبات رسالته إلى قريشٍ، وليس هذا مناقضًا لهذا، وفيه إثبات رسالته إلى أهل الكتاب؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ [النساء: ٤٧].

كما فيه إثبات رسالته إلى بني إسرائيل؛ كقوله: يا بني إسرائيل، وليس هذا التخصص لليهود منافيًا لذلك التعميم، وفي رسالته خطاب لليهود تارةً، وللنصارى تارةً، وليس خطابه لإحدى الطائفتين ودعوته لها مناقضًا لخطابه للأخرى، ودعوته لها، وفي كتابه خطابٌ للذين آمنوا من أُمَّته في دعوته لهم إلى شرائع دينه، وليس في ذلك مناقضةٌ بأن يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم، وفي

كتابه أمر بقتال أهل الكتاب النصارى، حتى يُعْطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

ثمَّ لم يكن هذا مانعًا أن يأمر بقتال غيرهم من اليهود والمجوس حتى يُعْطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، بل هذا الحكم ثابتٌ في المجوس بسُنَّته واتفاق أمته، وإن قيل إنهم ليسوا من أهل الكتاب.

فهذا كلُّه مما يُعْلم بالاضطرار من دينه قبل العلم بنُبوَّته، فكيف ونحن نتكلم على تقدير نُبوَّته، والنبي لا يتناقض قوله، وإذا كان العلم بعموم دعوته ورسالته معلومًا بالاضطرار قبل العلم بنبوته، وبعد العلم بنبوته، فالعلم الضروري اليقيني لا يعارضه شيء[(١)].

الرد على رمي القرآن بالتناقض في شأن عموم الرسالة:

وإن قالوا: كلامه متناقض، ونحن نحتج بما يوافق قولنا، إذ مقصودنا بيان تناقضه، قيل لهم عن هذا أجوبة:

أحدها: أنه في الكتب المتقدمة مما يظنُّ أنه متعارض أضعاف ما في القرآن وأقرب إلى التناقض[(٢)]...

---

(١) (١/ ٣٧٣).

(٢) هذا ليس فيه تسليم بوقوع التناقض في القرآن، بل هذا إلزامٌ للمخالف، وبيان أنَّ ما احتج به هو حجةٌ عليه وأَوْلَى؛ لأن قوع بعض النصوص الموهمة للتعارض والتناقض في الكتب المقدسة أضعاف ما يدعى على القرآن، فإن استخدم ما في القرآن للطعن، فما في الكتب =

الثاني: أنه إذا كان ما جاء به متناقضًا، لم يكن رسول الله، فإنَّ ما جاء به من عند الله لا يكون مختلفًا متناقضًا، وإنما يتناقض ما جاء من عند غير الله، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

فكلُّ كتابٍ ليس من عند الله لا بد أن يكون فيه تناقضٌ، وما كان من عند الله لا يتناقض، وحينئذٍ فإن كان متناقضًا، لم يجز لهم الاحتجاج بشيءٍ منه؛ فإنه ليس من عند الله، وَإِنْ لم يكن متناقضًا، ثبت أنَّ ما فيه من عموم رسالته، وأنه رسولٌ إليهم، فليس فيه شيءٌ يناقضه، فإنَّ ما جاء من عند الله لا يتناقض.

الثالث: أنَّا نُبيِّن أن ما فيه من عموم رسالته لا ينافي ما فيه من أنه أرسل إلى العرب، كما أن ما فيه من إنذار عشيرته الأقربين، وأمر قريش لا ينافي ما فيه من دعوة سائر العرب، فإن تخصيص بعض العامِّ بالذِّكر إذا كان له سببٌ يقتضي التخصيص لم يدلَّ على أن ما سوى المذكور مخالفة، وهذا الذي يُسمَّى: مفهوم المخالفة، ودليل الخطاب.

=

المتقدمة أكبر وأَوْلَى في دلالته على الطعن، فإن أثبتموه، أبطلتم ما بأيديكم، وإن نفيتموه بأيِّ طريقٍ، فنفيه عن القرآن أَوْلَى.

ويُزَاد على ذلك ويقال: ليس هناك شيءٌ في القرآن قط قد استوفَى شروط التناقض، بل هي نصوص قد توهم التعارض حتى يبين الراسخون في العلم اختصاص كل نصٍّ بالدلالة على محل أو حال يخالف ما يدل عليه غيره، كما فعل الشيخ هنا، بخلاف الكتب المتقدمة، فكثيرٌ مما يدعى عليها قد استوفى شرط التناقض من اتحاد المحل والمدلول مع تناقض المعنى كما هو مبينٌ في مظانه.

والناس كلُّهم متفقون على أنَّ التخصيص بالذِّكر متى كان له سببٌ يوجب الذِّكر غير الاختصاص بالحكم، لم يكن للاسم اللقب مفهوم(١)، بل ولا للصفة(٢)؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، فإنه نَهَاهم عن ذلك؛ لأنه هو الذي كانوا يفعلونه، وقد حرم في موضعٍ آخر قتل النفس بغير الحق؛ سواء كان ولدًا، أو غيره، ولم يكن ذلك مناقضًا لتخصيص الولد بالذِّكر(٣).

الرابع: أنه في ذلك أُسْوةٌ بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن المسيح خصَّ أولًا بالدعوة،

---

(١) مفهوم اللقب هو تخصيص اسمٍ بحكمٍ؛ سواء كان الاسم اسم علمٍ كـ: محمد رسول الله. أو اسم جنسٍ كذكر الأصناف الستة في جريان الربا، وهو ليس بحُجَّة في غير المذكور عند الأكثرين خلافًا للدقاق والصيرفي وابن فورك وغيرهم. ينظر الإحكام للآمدي (٣/ ٩٥)، وشرح الكوكب المنير (٣/ ٥٠٩).

(٢) أي: مفهوم الصفة أيضًا ليس حجةً لو كان هناك سبب لذكر الصفة غير التخصيص بالحكم، مثل أن يكون ذكر الصفة خرجَ مخرجَ الغالب، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]، فلا يدلُّ على حل القليل من الربا، وكذا إذا خرج مخرج التفخيم، كما في قوله: «لا يحلُّ لامرأةٍ تؤمن بالله واليوم الآخر...»، أو خرج مخرج الامتنان؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤]، وكذا لو كان جوابًا لسؤالٍ أو نحو ذلك من الأسباب. ينظر شرح المحلى على جمع الجوامع (١/ ٣٢٢)، وشرح الكوكب المنير (٣/ ٤٩٠).

(٣) ومناسبة ذكر المفهوم هنا أنَّ ذكر إرسال النبي إلى قومه أو إلى أهل مكة هو من اللقب الذي لا مفهوم له عند الجمهور، أي: لا يدل على نفي الحكم -وهو الإرسال هنا- عن غيرهم، حتَّى لو سلَّمنا أن له مفهومًا، ويدل على النفي، فإن ذلك حين يكون ليس للذكر سبب سوى التخصيص بالحكم، وهذا غير متحققٍ هنا؛ لدلالة النصوص الأخرى على عموم الرسالة، وأنَّ ذكر العرب هنا للتنويه والتنبيه، لا لنفي الإرسال عن غيرهم.

ثم عمَّ، كما قيل في الإنجيل: «ما بُعثت وأُرْسلت إلا لبني إسرائيل»[(١)]، وقال أيضًا في الإنجيل: «ما بُعثت إلا لهذا الشعب الخبيث»، ثم عمَّ، فقال لتلامذته حين أرسلهم كما في الإنجيل: «كما بعثني أبي، أُبعث بكم، فمن قبلكم فقد قبلني»[(٢)]...

ثم يقال في بيان الحال: إنَّ الله تعالى بعث محمدًا ﷺ، كما بعث المسيح وغيره، وإن كانت رسالته أكمل وأشمل كما نذكر في موضعه، فأمره بتبليغ رسالته بحسَب الإمكان إلى طائفةٍ بعد طائفةٍ، وأمر بتبليغ الأقرب منه مكانًا ونسبًا، ثم بتبليغ طائفةٍ بعد طائفةٍ حتى تبلغ النذارة إلى جميع أهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي: مَنْ بلغه القرآن، فكلُّ مَنْ بلغه القرآن فقد أنذره محمد ﷺ.

ونُبيِّن هنا أن النذارة ليست مُختصَّةً بمَنْ شافههم بالخطاب، بل ينذرهم به، وينذر مَن بلغهم القرآن، فأمره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أولًا بإنذار عشيرته الأقربين وهو قريش، فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ولمَّا أنزل الله عليه هذه الآية انطلق ﷺ إلى مكانٍ عالٍ، فعلا عليه، ثم جعل ينادي: «**يا بني عبد منافٍ، إنِّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجلٍ رأى العدو، فانطلق يريد أهله، فخشي أن يسبقوه، فجعل يهتف: يا صباحاه، يا صباحاه**».

---

(١) في متَّى (١٥/ ٢٤): «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة».

(٢) يوحنا (٢٠/ ٢٢).

وهذه القصَّة رواها ابن عباس وأبو هريرة وعائشة وغيرهم في (الصحيحين)[١] وغيرهما من كتب السنن والمسانيد والتفسير... ثمَّ أمره الله تعالى أن يدعو سائر العرب، فكان يخرج بنفسه ومعه أبو بكرٍ صديقه إلى قبائل العرب قبيلة قبيلة، وكانت العرب لم تزل تحج البيت من عهد إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان ﷺ يأتيهم في منازلهم بمنى، وعكاظ، ومجنة، وذي المجاز، فلا يجد أحدًا إلا دعاه إلى الله...

فلما اشتدَّ عليه أمر قريش، خرج إلى الطائف -وهي مدينة معروفة شرقي مكة بينهما نحو ليلتين- ومعه زيد بن حارثة، ومكث بها عشرة أيامٍ لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه في منزله وكلَّمه ودعاه إلى التوحيد، فلم يجبه أحدٌ منهم، وخافوه على أحداثهم، وأَغْرَوا به سفهاءهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة إذا مشى...

ثم انصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعًا إلى مكة وهو محزونٌ، إذ لم يستجب له رجلٌ واحدٌ ولا امرأةٌ، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم يا رسول الله وقد فعلوا وفعلوا، فقال: يا زيد، إنَّ الله ﷻ جاعلٌ لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه...

وذكر ما لقي النبي ﷺ من قومه من الأذى والاستهزاء والإغراء وهو صابر محتسب، مظهر لأمر الله بتبليغ رسالته، لا تأخذه في الله لومة لائمٍ، مواجه لقومه بما يكرهون من عيب دينهم وآلهتهم، وتضليل آبائهم، وتسفيه أحلامهم،

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٠١)، وصحيح مسلم (٢٠٧)، واللفظ له، من حديث ابن عباس.

وإظهار عداوته، وقتاله إياهم ما بلغ مبلغ القطع[(١)].

وأنزل الله إذ ذاك آياتٍ بيَّن فيها أنه رسولٌ إليهم، ولم يذكر فيها أنه لم يرسل إلى غيرهم، فقال تعالى في سورة القصص: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٣-٤٧].

وقال في سورة السجدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣]، وقال في سورة يس: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ١-٦].

ذكر تعالى في هذه الآيات الثلاث نعمته على هؤلاء، وحُجَّته عليهم بإرساله، وذكر بعض حكمته في إرساله، وذلك لا يقتضي أنه لم يرسل إلا لهذا، بل مثل هذا كثيرٌ معروفٌ في لسان العرب وغيرهم، قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، ومعلومٌ أن في هذه

---

(١) (١/ ٣٧٨).

الدواب منافع غير الرُّكوب.

وقال تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، فقد أخبر أنه ينزل الملائكة بالوحي على الأنبياء؛ لينذروا يوم القيامة، وذلك لا يمنع أن يكونوا نزلوا بالبشارة للمؤمنين، والأمر والنهي بالشرائع، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، ومعلوم أن لله حِكَمًا في خَلق الشمس والقمر، والليل والنهار، غير انتفاع بني آدم.

وكذلك قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وفيها حِكَم أخرى...

ومثل ذلك كثير في كلام الله ﷻ، وغير كلام الله إذا ذكر حِكْمة للفعل لم يلزم ألَّا تكون له حكمة أخرى، لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذِّكر في ذلك الموضع من مناسبته، وهذا كالمناسبة في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]، فإنَّ هؤلاء كانوا أول المنذرين، وأحقهم بالإنذار، فكان في تخصيصهم بالذِّكر فائدة لا أنه خصَّهم لانتفاء إنذار مَن سواهم[1].

وأمَّا احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟

---

(١) (١/ ٤٢٧).

عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [البقرة: ١٥١]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فهذا كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وهذا في عمومه نزاعٌ، فإنه إما أن يكون خطابًا لجميع الناس، ويكون المراد: إنَّا بعثنا إليكم رسولًا من البشر، إذ كنتم لا تطيقون أن تأخذوا عن مَلَكٍ من الملائكة، فمَنَّ الله عليكم بأن أرسل إليكم رسولًا بشريًا، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

وإمَّا أن يكون الخطاب للعرب، وعلى التقديرين فإنَّ ما تضمن ذكر إنعامه على المخاطبين بإرساله رسولًا من جنسهم، وليس في هذا ما يمنع أن يكون مرسلًا إلى غيرهم، فإنه إن كان خطابًا للإنس كلهم، فهو أيضًا مرسل إلى الجن، وليس من جنسهم، فكيف يمتنع إذا كان خطابًا للعرب بما امتنَّ به عليهم أن يكون قد امتنَّ على غيرهم بذلك، فالعجم أقرب إلى العرب من الجن إلى الإنس، وقد أخبر في الكتاب العزيز أنَّ الجن لمَّا سمعوا القرآن آمنوا به.

ونظير هذا قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقومه قريش، ولا يمنع أنه ذكر لسائر العرب بل لسائر الناس، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١- ٥٢].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٦ - ٨٨].

وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧- ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]...

هذا الكلام على الوجه الأول، وهو قول من يقول: إنه لم يقل: إنه أرسل إلا إلى العرب.

وأمَّا الوجه الثاني: وهو أن نقول: هو ذكر أنه رسولٌ إلى الناس كافَّة، كما نطق به القرآن في غير موضعٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقد صرَّح فيه بدعوة أهل الكتاب، وبدعوة الجنِّ في غير موضعٍ، فإذا سلَّموا أنه ذكر ذلك ولكن كذبوه في ذلك، فإمَّا أن يقرُّوا برسالته إلى العرب، أو لا يقرُّوا، فإن أقرُّوا بأنه رسولٌ أرسله الله، لم يمكن مع ذلك تكذيبه كما تقدَّم، بل يجب الإقرار برسالته إلى جميع الخَلق كما أخبر بذلك، كما تقدم أنَّ من ذكر أنه رسول الله لا يكون إلَّا من أفضل الخَلق وأصدقهم، أو من شرِّ الخَلق وأكذبهم، فإنَّه إن كان صادقًا فهو من أفضلهم، وإنْ كان كاذبًا فهو من شرِّهم.

وإذا كان الله قد أرسله ولو إلى قريةٍ كما أرسل يونس بن متى إلى أهل نينوى

-كان من أفضل الخَلق، وكان صادقًا لا يكذب على الله، ولا يقول عليه إلا الحق، ولو كذب على الله ولو في كلمةٍ واحدةٍ لكان من الكاذبين، لم يكن من رسل الله الصادقين، فإنَّ الكاذب لا يكذب في كل شيءٍ، بل في البعض.

فمَن كَذَب على الله في كلمةٍ واحدةٍ، فقد افترى على الله الكذب، وكان من القسم الكاذبين في دعوى الرسالة لا من الصادقين.

وأيضًا فإنَّ مقصود الرسالة تبليغ رسالات الله على وجهها، فإذا خلط الكذب بالصِّدق لم يحصل مقصود الرسالة، وأيضًا فإذا علم أنه كذب في بعضها، لم يتميز ما صدق فيه مما كذب فيه إلا بدليلٍ آخر غير رسالته، فلا يحصل المقصود برسالته...

فالإقرار برسالته إلى العرب دون غيرهم مع ما ظهر من عموم دعوته للخَلق كلهم، قولٌ متناقضٌ ظاهر الفساد، وكل ما دلَّ عليه أنه رسول، فإنه يستلزم رسالته إلى جميع الخَلق، وكل من اعترف بأنه رسولٌ، لزمه الاعتراف بأنه رسولٌ إلى جميع الخَلق، وإلا لزم أن يكون الله أرسل رسولًا يفتري عليه الكذب، ويقول للناس: إنَّ الله أمَركم باتباعي، وأمرني بجهادكم إذا لم تفعلوا، وهو كاذب في ذلك.

ومعلوم أن كل ما دلَّ على أن الله أرسله، فإنه يدل على أنه صادقٌ في الرسالة، وإلا فلا، فالرسول الكاذب لا يحصل به مقصود الرسالة، بل يكون من جملة المفترين على الله الكذب، وأولئك ليسوا من رسل الله، ولا يجوز تصديقهم في قولهم: إنَّ الله أرسلهم...

ولهذا، كان مجرَّد التصديق بأن محمدًا رسول الله ولو إلى العرب، يوجب بطلان دين النصارى واليهود، وكل دينٍ يخالف دينه، فإنَّ من كان رسولًا لله، فإنه لا يكذب على الله، ومحمدٌ ﷺ قد علم منه أنه دعا النصارى واليهود إلى الإيمان به وطاعته كما دعا غيرهم، وأنه كفر مَنْ لم يؤمن به، ووعده النار، وهذا متواترٌ عنه تواترًا تعلمه العامَّة والخاصَّة، وفي القرآن من ذلك ما يكثر ذكره، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ١-٨].

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٨-٢٠].

وقد ذكر كفر اليهود والنصارى في غير موضعٍ كقوله تعالى عن النصارى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

وقال تعالى أيضًا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]...

والمقصود هنا أنهم سواء صدَّقوا محمدًا أو كذبوه، فإنه يلزم بطلان دينهم على التقديرين، فإنه إن كان نبيًّا صادقًا، فقد بلغ عن الله في هذا الكتاب كفر النصارى في غير موضعٍ، ودعاهم إلى الإيمان به، وأمر بجهادهم، فمَن علم أنه نبيٌّ ولو إلى طائفةٍ معينةٍ يجب تصديقه في كل ما أخبر به، وقد أخبر بكفر النصارى وضلالهم، وإذا ثبت هذا لم يُغْن عنهم الاحتجاج بشيءٍ من الكتب والمعقول، بل يعلم من حيث الجملة أن كل ما يحتجُّون به على صحة دينهم فهو باطلٌ وإن لم يبين فساد حُجَجهم على التفصيل؛ لأنَّ الأنبياء لا يقولون إلا حقًّا... وَإنْ كذبوا محمدًا تكذيبًا عامًّا مطلقًا، وقالوا: ليس هو نبي أصلًا، ولا أُرْسل إلى أحدٍ؛ لا إلى العرب، ولا إلى غيرهم، بل كان كذابًا امتنع مع هذا أن يُصدِّقوا بنُبوَّة غيره، فإنَّ الطريق الذي يعلم به نبوة موسى وعيسى يعلم به نبوة

محمد ﷺ بطريق الأَوْلَى[(1)].

الرد على شبهة إنزال القرآن باللسان العربي وحده[(2)]:

وأمَّا كون القرآن أُنْزل باللسان العربي وحده، فعنه أجوبةٌ:

أحدها: أن يقال: والتوراة إنما أُنْزلت باللسان العبري وحده، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن يتكلم إلا بالعبرية، وكذلك المسيح لم يكن يتكلم بالتوراة والإنجيل وغيرهما إلا بالعبرية، وكذلك سائر الكتب لا ينزلها الله إلا بلسانٍ واحدٍ، بلسان الذي أُنْزلت عليه، ولسان قومه الذين يخاطبهم أولًا، ثم بعد ذلك تبلغ الكتب وكلام الأنبياء لسائر الأمم؛ إمَّا بأن يترجم لمَن لا يعرف لسان ذلك الكتاب، وإمَّا بأن يتعلَّم الناس لسان ذلك الكتاب، فيعرفون معانيه، وإمَّا بأن يُبيِّن للمرسل إليه معاني ما أرسل به الرسول ﷺ إليه بلسانه وإنْ لم يعرف سائر ما أرسل به، وقد أخبر الله في القرآن ما قالته الرسل لقومهم، وما قالوا لهم، وأكثرهم لم يكونوا عربًا.

وأنزله الله باللسان العربي، وحينئذٍ، فإن شرط التكليف تمكن العباد من فهم ما أرسل به الرسول إليهم، وذلك يحصل بأن يرسل بلسانٍ يعرف به مراده، ثم جميع الناس متمكنون من معرفة مراده بأن يعرفوا ذلك اللسان، أو يعرفوا معنى الكتاب بترجمة مَنْ يترجم معناه، وهذا مقدورٌ للعباد، ومَنْ لم يمكنه فَهم كلام

---

(1) (1/ 440).

(2) تقرير الشبهة: كيف يكلف الله الخَلق على اختلاف لغاتهم التصديق بكتابٍ نزل بلسانٍ واحدٍ، وهو اللسان العربي وحده؟

الرسول إلا بتعلُّم اللغة التي أرسل بها، وجب عليه ذلك، فإن ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجبٌ...

وجمهور الناس لا يعرفون معاني الكتب الإلهية: التوراة والإنجيل والقرآن إلا بمَن يُبيِّنها ويُفسِّرها لهم، وإن كانوا يعرفون اللغة فهؤلاء يجب عليهم طلب علم ما يعرفون به ما أمَرهم الله به، ونهاهم عنه.

وهذا هو طلب العلم المفروض على الخَلْق، فالحُجَّة تقوم على الخلق، ويحصل لهم الهدى بمن ينقل عن الرسول؛ تارةً المعنى، وتارةً اللفظ؛ ولهذا يجوز نقل حديثه بالمعنى، والقرآن يجوز ترجمة معانيه لمَن لا يعرف العربية باتفاق العلماء.

وأيضًا، فمعرفة ما أمر الله عباده أمرًا عامًّا هو مما نقله الأمة عن نبيها ﷺ نقلًا متواترًا، وأجمعت عليه، مثل الأمر بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأنه أرسل إلى جميع الناس أُميِّهم وغير أُميِّهم، وإقام الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق مَن استطاع إليه سبيلًا، وإيجاب الصِّدق، وتحريم الفواحش والظلم.

والأمر بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت هو ما يعرفه المسلمون معرفةً عامةً، ولا يحتاج الإنسان في معرفة ذلك إلى أن يحفظ القرآن، بل يمكن الإنسان معرفة ما أمَر الله به على لسان رسوله وَإنْ لم يعرف اللُّغة العربيَّة، ويكفيه أن يقرأ فاتحة الكتاب وسورًا معها يصلي بهنَّ، وكثيرٌ من الفرس والروم والترك والهند والحبشة والبربر وغيرهم لا يعرفون أن يتكلموا

بالعربية الكلام المعتاد، وقد أسلموا وصاروا من أولياء الله المتقين، ومنهم مَنْ يحفظ القرآن كله، وإذا كلم الناس لا يستطيع أن يُكلِّمهم إلا بلسانه لا بالعربية، وإذا خُوطِبَ بالعربية لم يفقه ما قيل له.

الوجه الثاني: أنَّ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ كان لسانه عبريًّا، وكذلك ألسنة الحواريين الذين اتبعوه أولًا، ثم إنه أرسلهم إلى الأمم يخاطبونهم، ويُتَرجمون لهم ما قاله المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فإن قالوا: إنَّ رسل المسيح حوَّلت ألسنتهم إلى ألسنة مَنْ أرسل إليهم. قيل: هذا منقول في رسل المسيح، وفي رسل مُحمَّدٍ ﷺ الذين أرسلهم إلى الأمم، ولا ريب أن رُسلَ رسلِ اللهِ كرسل محمدٍ ﷺ والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الأمم، لا بدَّ أن يعرفوا لسان مَن أرسلهم الرسول ﷺ إليهم أو أن يكون عند أولئك مَن يفهم لسانهم ولسان الرسول ﷺ ليترجم لهم، فإذا لم يكن عند مَن أرسل المسيح إليهم مَن يعرف بالعربية، فلا بد أن يكون رسوله ينطق بلسانهم.

وكذلك رُسُلُ النبي ﷺ الذين أرسلهم إلى الأمم، فإن النَّبيَّ ﷺ لمَّا رجع من الحديبية، أرسل رُسُلَه إلى أهل الأرض، فبعث إلى ملوك العرب باليمن والحجاز والشام والعراق، وأرسل إلى ملوك النصارى بالشام ومصر قبطهم ورومهم وعربهم وغيرهم، وأرسل إلى الفرس المجوس ملوك العراق وخراسان.

الوجه الثالث: أنَّ النصارى فيهم عربٌ كثيرٌ من زمن النبيِّ ﷺ وكل مَن يفهم اللِّسان العربي، فإنه يمكن فَهْمه للقرآن وإن كان أصل لسانه فارسيًّا، أو روميًّا، أو تركيًّا، أو هنديًّا، أو قبطيًّا، وهؤلاء الذين أرسلوا هذا الكتاب من علماء

النَّصارى قد قرءوا المصحف، وفهموا منه ما فهموا، وهم يفهمونه بالعربية، واحتجُّوا بآياتٍ من القرآن، فكيف يسوغ لهم مع هذا أن يقولوا: كيف تقوم الحجة علينا بكتابٍ لم نفهمه؟...

والرَّجل يكتب كتاب علمٍ في طبٍّ أو نحوٍ أو حسابٍ بلسان قومه، ثم يترجم ذلك الكتاب وينقل إلى لغاتٍ أخر، وينتفع به أقوام آخرون، كما تُرْجمت كتب الطِّبِّ والحساب الَّتي صنفت بغير العربي، وانتفع بها العرب، وعرفوا مراد أصحابها، وإنْ كان المُصنِّف لها أولًا إنما صنَّفها بلسان قومه، وإذا كان هذا في بيان الأمور التي لا يتعلق بها سعادة الآخرة، والنجاة من عذاب الله، فكيف يمتنع في العلوم التي يتعلَّق بها سعادة الآخرة، والنجاة من العذاب أن ينقل من لسانٍ إلى لسانٍ حتى يفهم أهل اللسان الثاني بها ما أراده بها المتكلم بها أولًا باللسان الأول، وأبناء فارس المسلمون لما كان لهم من عنايةٍ بهذا، ترجموا مصاحف كثيرة، فيكتبونها بالعربي، ويكتبون الترجمة بالفارسية، وكانوا قبل الإسلام أبعد عن المسلمين من الروم والنصارى، فإذا كان الفرس المجوس قد وصل إليهم معاني القرآن بالعربي وترجمته، فكيف لا يصل إلى أهل الكتاب وهم أقرب إلى المسلمين منهم.

وعامة الأصول التي يذكرها القرآن عندهم شواهدها ونظائرها في التوراة والإنجيل والزبور، وغير ذلك من النبوات[١].

وأمَّا قولهم: نعلم أنَّ الله عدلٌ، وليس من عدله أن يطالب أُمَّةً يوم القيامة باتباع

---

(١) (٢/ ٥٢).

إنسانٍ لم يأت إليهم، ولا وقفوا له على كتابٍ بلسانهم، ولا من جهة داعٍ من قبله.

فيقال: الجواب من وجوهٍ:

أحدها: أنَّ هذا الكلام لا يجوز أن يقوله مَن كتب هذا الكتاب، ولا أحد يفهم بالعربية، فإن هؤلاء يفهمون هذا الكتاب بالعربية، وقد قرءوه وناظروا بما فيه، وإذا كانوا مع ذلك يفهمون بغير العربية، كان ذلك أبلغ في قيام الحُجَّة عليهم، فإنهم يمكنهم فَهْم ما قال بالعربية، وتفهيم ذلك لقومهم باللسان الآخر.

الثاني: كما أنَّهم يفهمون ما في كتبهم الرومية والسريانية والقبطية وغيرها، ويُتَرجمونها للعرب من النصارى بالعربية، فإذا قامت الحُجَّة على عرب النصارى باللسان الرومي، فلأن تقوم على الروم باللسان العربي أَوْلَى، فإنَّ اللسان العربي أكثر انتشارًا في العالم من اللسان الرومي، والناطقون به بعد ظهور الإسلام أكثر من الناطقين بغيره، وهو أكمل بيانًا، وأتم تفهمًا، وحِينَئذٍ فيكون وصول المعاني به إلى غير أهل لسانه أيسر لكمال معناه، ولكثرة العارفين به، وهؤلاء علماء النَّصارى يقرءون كتب الطِّبِّ والحساب والفلسفة، وغير ذلك باللِّسان العربي مع أنَّ مُصنفيها كانوا عجمًا من رومي ويوناني وغير ذلك، فَمَا المانع أن يقرأ القرآن العربي وتفسيره وحديث النبي ﷺ باللسان العبري مع أنه أخذ عن الرسول بالعربيِّ، فهو أَوْلَى بأن يعرف به مراد المتكلم به...

ومعلومٌ أنه إذا أمر العبد بما يقدر عليه، كان جائزًا باتفاق طوائف أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، وإن كان الفعل مكروهًا للإنسان، فإنَّ الجنة حُفَّت بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات، وقد كلفت بنو إسرائيل والنصارى من

الأعمال ما هو مكروهٌ لهم، وشاقٌّ عليهم، فكيف يمتنع أن يأمرهم وينهاهم بلغةٍ يبين بعض المسلمين معناها لهم، والعرب الذي نزل القرآن بلسانهم طبقوا الأرض، ومنهم نصارى لا يحصون.

فكلُّ مَن عرف بالعربية من النصارى أمكنه فَهْم ما يقال بالعربي، ومَن كان منهم روميًّا كان له أُسْوة مَن أسلم من سائر طوائف الأعاجم كالفرس والترك والهند والبربر والحبشة وغيرهم، وهو متمكنٌ من معرفة ما أمَره الله، والعمل به، كما يمكن هؤلاء كلهم، بل الروم أقدر على ذلك من غيرهم، فلأي وجهٍ يمتنع أن يأمرهم الله بذلك.

وما لا يتم الواجب إلا به إذا كان مقدورًا للعبد، فعليه أن يفعله باتفاق أهل الملل المسلمين واليهود والنصارى، وإنَّ ما تنازع الناس فيه هل يسمَّى واجبًا، والمقصود هنا أنَّ الله إذا أوجب على العباد شيئًا، واحتاج أداء الواجب إلى تعلم شيءٍ من العلم، كان تعلُّمه واجبًا.

فإذا كان معرفة العبد لما أمَره الله به تتوقف على أن يعرف معنى كلامٍ تكلم به بغير لغته وهو قادر على تعلُّم معنى تلك الألفاظ التي ليست بلغته، أو على معرفة ترجمتها بلغته، وجب عليه تعلُّم ذلك، ولو جاءت رسالةٌ من ملكٍ إلى ملكٍ بغير لسانه، لطلب مَن يترجم مقصود الملك المرسل، ولم يجز أن يقول: أنت لم تبعث إليَّ مَن يخاطبني بلغتي مع قدرته على أن يفهم مراده بالترجمة، فكيف يجوز أن يقال ذلك لربِّ العالمين؟ ولو أمر به بعض الملوك بعض رعاياه وجنوده بلغته وهم قادرون على معرفة ما أمرهم به؛ إما بتعلُّم لغته، وإما

بمَن يترجم لهم ما قاله، لم يكن ذلك ظلمًا، فكيف يكون ظلمًا من رب العالمين مع أنه ليس بظلمٍ من المخلوقين؟

والناس في مصالح دنياهم يتوسَّل أحدهم إلى معرفة مراد الآخر بالترجمة وغيرها، فيتبايعون وبينهم ترجمان يبلغ بعضهم عن بعضٍ، ويتراسلون في عمارة بلادهم، وأغراض نفوسهم بالتراجم الذين يترجمون لهم، وأَمْر الدين أعظم من أَمْر الدنيا، فكيف لا يتوسلون إلى معرفة مراد بعضهم من بعضٍ، وكيف يكون أَمْر الدنيا أهم من أَمْر الدين إلا عند مَن أغفل الله قلبه عن ذكر ربِّه، واتَّبع هواه، وأَعْرض عن ذِكْر ربِّه، ولم يُرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨][1].

مناقشة دعوى اقتباس النبي من أهل الكتاب:

بل كل مَن تدبَّر نبوات الأنبياء، وتدبَّر القرآن، جزم يقينًا بأن محمدًا رسول الله حقًّا، وأن موسى رسول الله صدقًا؛ لما يرى من تصادق الكتابين -التوراة والقرآن- مع العلم بأنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يأخذ عن مُحمَّدٍ ﷺ، وأن محمدًا ﷺ لم يأخذ عن موسى، فإن محمدًا ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحاله كان أُميًّا من قومٍ أميين، مقيمًا بمكة، ولم يكن عندهم مَن يحفظ التوراة والإنجيل، ولا الزبور.

---

(١) (١/١٠٢).

ومحمد لم يخرج من بين ظهرانيهم، ولم يسافر قط إلا سفرتين إلى الشام، خرج مرَّةً مع عمِّه أبي طالب قبل الاحتلام، ولم يكن يفارقه، ومرةً أخرى مع ميسرة في تجارته، وكان ابن بضعٍ وعشرين سنةً مع رفقةٍ كانوا يعرفون جميع أحواله، ولم يجتمع قطُّ بعالمٍ أخذ عنه شيئًا؛ لا من علماء اليهود، ولا النَّصارى، ولا من غيرهم، لا بحيرى، ولا غيره، ولكن كان بحيرى الراهب لمَّا رآه عرفه؛ لِمَا كان عنده من ذكره ونَعْته، فأخبر أهله بذلك، وأمَرهم بحفظه من اليهود، ولم يتعلَّم لا من بحيرى، ولا من غيره كلمةً واحدةً.

وسنُبيِّن -إن شاء الله- الدلائل الكثيرة على أنه لم يأخذ عن أحدٍ من أهل الكتاب كلمةً واحدةً، وقصة بحيرى مذكورة، ذَكرها أرباب السير وأصحاب المسانيد والسنن.

قال الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي في (جامعه)(١): حدثنا الفضل أبو العباس البغدادي، قال: حدَّثنا عبد الرحمن بن غزوان أبو نوحٍ، أنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه قال: خرج أبو طالبٍ إلى الشام، وخرج معه النبي ﷺ في أشياخٍ من قريشٍ.

فلمَّا أشرفوا على الراهب، هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به، فلا يخرج إليهم، ولا يلتفت، قال: فهم يحلون رحالهم، فجعل يتخلَّلهم الراهب حتى جاء، فأخذ بيد رسول الله ﷺ، فقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمةً للعالمين.

فقال له أشياخٌ من قريشٍ: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة،

---

(١) جامع الترمذي (٣٦٢٠).

لم يبقَ شجرٌ ولا حجرٌ إلا خرَّ ساجدًا، ولا يَسْجدن إلا لنبيٍّ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غرضوف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعامًا، فلما أتاهم به -وكان هو في رعية الإبل- فقال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامةٌ تظلُّه.

فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلمَّا جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه، قال: فبينما هو قائمٌ عليهم يناشدهم ألَّا يذهبوا به إلى الروم، فإنَّ الروم إنْ رأوه عرفوه بالصفة، فيقتلونه، فالتفت فإذا بسبعةٍ قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهم الراهب، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا لأنَّ هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريقٌ إلا بعث إليه بأناسٍ، وإنَّا قد أخبرنا خبره بطريقك هذا، فقال: أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحدٌ من الناس ردَّه؟ قالوا: لا. قال: فتابعوه، وأقاموا معه. قال: أنشدكم الله يا معشر العرب، أيكم وليه؟ فقال أبو طالبٍ: أنا، فلم يزل يناشده حتى ردَّه أبو طالب، وزوَّده الراهب من الكعك والزيت.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. ورواه البيهقي في كتاب (دلائل النبوة)(١) من حديث العباس بن محمد عن قراد بن نوح، وقال: العباس لم يحدث به -يعني: بهذا الإسناد- غيرَ قراد، وسمعه يحيى وأحمد من قراد. قال البيهقي: أراد أنه لم يحدث بهذا الإسناد سوى هؤلاء، فأما القصة فهي عند أهل المغازي مشهورة.

هذا مع أنَّ في القرآن من الرَّد على أهل الكتاب في بعض ما حرَّفوه مثل دعواهم أنَّ المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صلب، وقول بعضهم: إنه إله، وقول بعضهم: إنه

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٤).

ساحر، وطعنهم على سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقولهم: إنه كان ساحرًا، وأمثال ذلك ما يبين أنه لم يأخذ عنهم.

وفي القرآن من قصص الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ ما لا يوجد في التوراة والإنجيل، مثل قصة هود وصالح وشعيب، وغير ذلك، وفي القرآن من ذِكْر المعاد وتفصيله وصفة الجنة والنار والنعيم والعذاب ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل، بل التوراة ليس فيها تصريحٌ بذكر المعاد، وعامة ما فيها من الوعد والوعيد فهو في الدنيا؛ كالوعد بالرزق والنصر والعاقبة والوعيد بالقحط والأمراض والأعداء، وإن كان ذِكْر المعاد موجودًا في غير التوراة من النبوات، ولهذا كان أهل الكتاب يقرُّون بالمعاد وقيام القيامة الكبرى، وقد قيل: إنَّ ذلك مذكور في التوراة أيضًا، لكن لم يبسط كما بسط في غير التوراة(١)(٢).

---

(١) (١/ ٢٩٩).

(٢) فيقال تقريرًا وإيضاحًا لجواب الشيخ على هذا الإيراد القديم الحديث:

١- أنَّ ما بين القرآن والكتب المتقدمة من تشابهٍ وتقاربٍ فإنه من آيات نبوة أصحاب هذه الكتب كلهم؛ لأنه لا يعلم أخذ بعضهم من بعضٍ أو اشتراكهم في مصدرٍ أرضيٍّ لهذه المعارف، فإنَّ المتقدم لم يأخذ عن المتأخر قطعًا، والمتأخر -هو نبينا محمد عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ- قد قامت الأدلَّة المتكاثرة المتضافرة على عدم أَخْذه من هذه الكتب المتقدمة، كما قد تقدم في كلام الشيخ مفصلًا عند ذكر دلائل النُّبوة، فانتفى أن يكون لهذه المعارف مصدر أرضي، وتعيَّن عزو هذا التشابه لمصدرٍ متعالٍ، وهو الوحي الإلهي، فهذا التشابه يستدلُّ به على نُبوَّة أصحاب هذه الكتب، ولا يصلح دليلًا على نفي نُبوَّة أحدهم.

٢- هذا لو سلم بالتشابه أو التطابق التام، ولكن عند أدنى مقارنةٍ بين القرآن وما تقدمه من الكتب يظهر بوضحٍ أن القرآن جاء مكملًا ومنقحًا لهذه الكتب، فأكمل ما أجملته أو أهملته من أصول الإيمان؛ كمعرفة الله بصفاته الحسنى، وأسمائه العُلَى، مع تنزيهه عن صفات =

مناقشة دعوى الاكتفاء بأنبيائهم السابقين، وعدم الحاجة للإسلام:

وأما قولهم: لا يلزمنا اتباعه؛ لأننا نحن قد أتانا رسلٌ من قبله خاطبونا بألسنتنا، وأنذرونا بديننا الذي نحن متمسكون به يومنا هذا، وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغتنا على ما يشهد لهما الكتاب الذي أتى به هذا الرجل، حيث يقول في سورة إبراهيم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال في سورة النحل: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا ﴾ [النحل: ٣٦].

فالجَوابُ عنه من وجوهٍ:

أحدها: أنَّ إثبات رسولٍ من قبله إليكم لا يمنع إتيان رسول ثانٍ، فإن بني إسرائيل قد بعث الله إليهم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكانوا على شريعة التوراة، ثم بعث الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إليهم المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ووجَب عليهم الإيمان به، ومَنْ لم يؤمن به كان كافرًا، وَإنْ قال: إنِّي متمسِّك بالكتاب الذي أُنْزل إليَّ، فكذلك إذا أَرسل الله

=

النَّقص، ومماثلة المخلوقين، وكذكر اليوم الآخر إجمالًا وتفصيلًا، مع ذكر الأدلَّة على وجود الله وتوحيده، واليوم الآخر إمكانًا ووجوبًا، وغير ذلك مما لم يذكر في الكتب السابقة، أو ذكر ناقصًا أو محرفًا.

- ثم إنه جاء منقحًا لما في هذه الكتب مما ألحقته الأيدي من صفات النقص لله تعالى؛ كالتعب والندم والبكاء، وغير ذلك، ومن نسبة الأنبياء إلى الفواحش والنقائص، ومن الأخطاء العلمية والتاريخية، وغير ذلك مما هو معلومٌ ومبسوطٌ في مظانه.

- وهذان الوصفان اللذان هما التصديق والتنقيح هما اللذان ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴾ [المائدة: ٤٨].

- فالتشابه وحده وإن كان دالًّا على النُّبوة، فاجتماعه مع الاختلاف والتنقيح يدل دلالةً قطعيةً على إلهية مصدر القرآن، وكذلك الكتب المتقدمة من جهة أصلها.

رسولًا بعد المسيح، وجب الإيمان به، ومَن لم يؤمن به كان كافرًا، كما أنَّ مَنْ لم يؤمن بالمسيح من بني إسرائيل كان كافرًا.

الوجه الثاني: دعواهم أنَّهم متمسكون في هذا الوقت بالدين الذي نقله الحواريون عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ كذبٌ ظاهرٌ، بل هم عامَّة ما هم عليه من الدين عقائده وشرائعه كالأمانة والصلاة إلى المشرق، واتخاذ الصُّور والتَّماثيل في الكنائس، واتخاذها وسائط، والاستشفاع بأصحابها، وجعل الأعياد بأسمائهم، وبناء الكنائس على أسمائهم، واستحلال الخنزير، وترك الختان، والرهبانيَّة، وجعل الصِّيام في الربيع، وجعله خمسين يومًا، والصلوات والقرابين والناموس لم ينقله الحواريون عن المسيح، ولا هو موجود لا في التوراة، ولا في الإنجيل، وإنما هم متمسكون بقليل مما جاءت به الأنبياء.

وأمَّا كفرياتهم وبدعهم فكثيرةٌ جدًّا، لم ينقل أحد عن المسيح والحواريين أنهم أمروهم أن يقولوا ما يقولونه في صلاتهم السحرية، «تعالوا بنا نسجد للمسيح إلهنا»، وفي الصلاة الثانية والثالثة: «يا والدة الإله مريم العذراء، افتحي لنا أبواب الرحمة».

الوجه الثالث: قولهم: إنَّهم سلَّموا إليهم التوراة والإنجيل بلغاتهم إنَّما يستقيم إن كان صحيحًا في بعض النصارى، لا في جميعهم، فإنَّ العرب من النصارى وغير العرب لم يسلم أحدٌ إليهم توراةً، ولا إنجيلًا بلسانهم، وهذا أمر معروفٌ، ولا توجد قط توراة ولا إنجيل معرب من زمن الحواريين، وإنما عربت في الأزمان المتأخرة، فإذا كانت النصارى من العرب تقوم عليهم الحجة

قبل محمد ﷺ بكتابٍ نزل بغير لسانهم، ثم عرب لهم، فكيف لا تقوم على الروم وغيرهم الحُجَّة بكتابٍ نزل بغير لسانهم، ثم ترجم بلسانهم؟

الوجه الرَّابع: أن يقال: الأُمَّة إذا غيَّرت دين رسولها الذي أرسل إليها، وبدَّلته، أرسل الله إليها مَن يدعوها إلى الدين الذي يحبه الله ويرضاه، كما أن بني إسرائيل لمَّا غيَّروا دين موسى وبدَّلوه، بعث الله إليهم وإلى غيرهم المسيح بالدين الذي يحبه ويرضاه، وكذلك النصارى لمَّا بدَّلوا دين المسيح وغيَّروه، بعث الله إليهم وإلى غيرهم محمدًا ﷺ بالدين الذي يحبه ويرضاه، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله نظر إلى أهل الأرض، فَمَقَتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»، ولم يقل: وما أرسلنا من رسولٍ إلا إلى قومه، بل محمد أرسل بلسان قومه وهم قريش وأرسل إلى قومه وغير قومه كما يذكرون ذلك عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

مناقشة دعوى عدم الحاجة لشرائع الإسلام:

ثم قالوا: إنَّا نعجب من هؤلاء القوم الذين مع أدبهم وما يأخذون به أنفسهم من الفضل، كيف لم يعلموا أنَّ الشرائع شريعتان: شريعة عدل، وشريعة فضل؛ لأنه لمَّا كان الباري عدلًا وجوادًا، وجب أن يظهر عدله على خلقه.

فأرسل موسى إلى بني إسرائيل، فوضع شريعة العدل، وأمرهم بفعلها إلى أن استقرت في نفوسهم، ولمَّا كان الكمال الذي هو الفضل لا يمكن أن يضعه إلا أكمل الكمال، وجب أن يكون هو -تقدَّست أسماؤه، وجلَّت آلاؤه- الذي يضعه؛ لأنه ليس شيء أكمل منه، ولأنه جوادٌ وجب أن يجود بأجلِّ الموجودات، وليس

في الموجودات أكمل من كلمته؛ لذلك وجب أن يجود بكلمته.

فلهذا، وجب أن يجود بكلمته، فلهذا وجب أن يتَّحد بذاتٍ محسوسةٍ يظهر منها قدرته وجوده. ولمَّا لم يكن في المخلوقات أجل من الإنسان، اتحد بالطبيعة البشرية من السيدة الطاهرة، من مريم البتول المصطفاة على نساء العالمين، وبعد هذا الكمال ما تبقى شيءٌ يوضع؛ لأن جميع ما يتقدمه وما يأتي مقتضيه، وما يأتي بعد الكمال غير محتاجٍ إليه؛ لأن ليس شيءٌ يأتي بعد الكمال، فيكون فاضلًا، بل دون، أو أخذ منه، فهو فاضلٌ لا يحتاج إليه.

والجواب على هذا من وجوهٍ:

أحدها: أن يقال: بل الشرائع ثلاثة: شريعة عدل فقط، وشريعة فضل فقط، وشريعة تجمع العدل والفضل، فتوجب العدل، وتندب إلى الفضل، وهذه أكمل الشرائع الثلاث، وهي شريعة القرآن الذي جمع فيه بين العدل والفضل، مع أنَّا لا ننكر أن يكون موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أوجب العدل، وندب إلى الفضل.

وكذلك المسيح أيضًا أوجب العدل، وندب إلى الفضل، وأما مَن يقول: إن المسيح أوجب الفضل، وحرم على كل مظلومٍ أن يقتص من ظالمه، أو أن موسى لم يندب إلى الإحسان، فهذا فيه غضاضةٌ بشريعة المرسلين.

لكن قد يقال: إن ذكر العدل في التوراة أكثر، وذكر الفضل في الإنجيل أكثر، والقرآن جمع بينهما على غاية الكمال، والقرآن بيَّن أن السعداء أهل الجنة، وهم أولياء الله نوعان: أبرار مقتصدون، ومقربون سابقون؛ فالدرجة الأولى تحصل بالعدل، وهي أداء الواجبات وترك المحرمات، والثانية لا تحصل إلا بالفضل،

وهو أداء الواجبات والمستحبات، وترك المحرَّمات والمكروهات، فالشريعة الكاملة تجمع العدل والفضل؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

فهذا عدلٌ واجبٌ، مَنْ خرج عنه استحقَّ العقوبة في الدنيا والآخرة، ثم قال: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، فهذا فضلٌ مستحبٌّ مندوب إليه، مَنْ فَعلَه أثابه الله، ورفع درجته، ومَنْ تركه لم يعاقبه.

وقال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٩٢]، فهذا عدلٌ.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢]، فهذا فضل، وقال تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، فهذا عدل.

ثم قال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]، فهذا فضل.

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، فهذا عدل.

ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، فهذا فضل.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، فهذا عدل، ثم قال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، فهذا فضل.

وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فهذا عدل.

ثم قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، فهذا فضل.

وهو سبحانه دائمًا يحرم الظلم، ويوجب العدل، ويندب إلى الفضل.

الوجه الثاني: أن يقال لهم: الناس لهم في أَمْر الله ونَهْيه قولان مشهوران:

أحدهما: أنه يرجع إلى محض المشيئة، لا يعتبر فيه أن يكون المأمور به مصلحة للخلق، وإن اتفق أن يكون مصلحة، وإن كان الواقع كونه مصلحة، وهذا قول مَنْ يقول: لا يفعل ولا يحكم بسببٍ، ولا لحكمةٍ، ولا لغرضٍ.

والقول الثاني -وهو قول جمهور الناس: إنَّ الله إنما أرسل الرسل ليأمروا الناس بما يصلحهم وينفعهم إذا فعلوه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٦].

فإن قيل بالأول: لم يسأل عن حكمة إرسال الرسل، وإن قيل بالثاني: ففي إرسال محمد ﷺ من الحكم والمصالح أعظم ممَّا كان في إرسال موسى والمسيح، والذي حصل به من صلاح العباد في المعاش والمعاد أضعاف ما حصل بإرسال موسى والمسيح من جهة الأمر والخَلق؛ فإنَّ في شريعته من الهدى ودين الحق أكمل ممَّا في الشريعتين المتقدمتين، وتيسير الله من اتباع الخَلق له، واهتدائهم به ما لم يتيسَّر مثله لمَن قبله.

فحصل فضيلة شريعته من جهة فضلها في نفسها، ومن جهة كثرة من قبلها، وكمال قبولهم لها بخلاف شريعة مَن قبله، فإنَّ موسى ﷺ بعث إلى بني

إسرائيل، وكان فيهم من الرَّدِّ والعناد في حياة موسى وبعد موته ما هو معروف، وقد ذكر النصارى في كتابهم هذا من ذلك ما تقدم.

ولم تكن شريعة التوراة في الكمال مثل شريعة القرآن، فإنَّ القرآن فيه ذكر المعاد وإقامة الحجج عليه وتفصيله، ووصف الجنة والنار، ما لم يذكر مثله في التوراة.

وفيه من ذِكْرِ قصة هود وصالح وشعيب وغيرهم من الأنبياء ما لم يذكر في التوراة.

وفيه من ذِكْرِ أسماء الله الحسنى وصفاته ووصف ملائكته وأصنافهم وخَلق الإنس والجن ما لم يفصل مثله في التوراة.

وفيه من تقرير التوحيد بأنواع الأدلَّة ما لم يذكر مثله في التوراة، وفيه من ذكر أديان أهل الأرض ما لم يُذْكر مثله في التوراة.

وفيه من مناظرة المخالفين وإقامة البراهين على أصول الدين ما لم يذكر مثله في التوراة، مع أنه لم ينزل كتابٌ من السماء أهدى من القرآن والتوراة.

وفي شريعة القرآن تحليل الطيبات وتحريم الخبائث، وشريعة التوراة فيها تحريم كثيرٍ من الطيبات عليهم، حُرِّمت عليهم عقوبةً لهم، وفي شريعة القرآن من قبول الدِّية في الدماء ما لم يشرع في التوراة، وفيها من وَضْع الآصار والأغلال التي في التوراة ما يظهر به أنَّ نعمة الله على أهل القرآن أكمل.

وأما الإنجيل، فليس فيه شريعةٌ مستقلةٌ، ولا فيه الكلام على التوحيد، وخلق العالم، وقصص الأنبياء وأُمَمهم، بَلْ أحالهم على التوراة في أكثر الأمر،

ولكن أحلَّ المسيح بعض ما حرَّم عليهم، وأمَرهم بالإحسان والعفو عن الظالم واحتمال الأذى، والزهد في الدنيا، وضرب الأمثال لذلك.

فَعامَّة ما امتاز به الإنجيل عن التوراة بمكارم الأخلاق المستحسنة، والزهد المستحب، وتحليل بعض المحرمات، وهذا كلُّه في القرآن، وهو في القرآن أكمل، فليس في التوراة والإنجيل والنُّبوات ما هو من العلوم النَّافعة، والأعمال الصَّالحة إلا وهو في القرآن، أو ما هو أفضل منه.

وفي القرآن من العلوم النافعة والأعمال الصالحة من الهدى ودين الحق ما ليس في الكتابين، لكن النَّصارى لم يتبعوا لا التوراة، ولا الإنجيل، بل أحدثوا شريعةً لم يُبْعث بها نبيٌّ من الأنبياء، كما وضعوا لقسطنطين (الأمانة)، ووضعوا له أربعين كتابًا فيها القوانين، فيها بعض ما جاءت به الأنبياء، وفيها شيءٌ كثيرٌ مخالفٌ لشرع الأنبياء، وصاروا إلى كثيرٍ من دين المشركين الذين عبدوا مع الله آلهةً أخرى، وكذبوا رسله، فصار في دينهم من الشرك وتغيير دين الرسل ما غيَّروا به شريعة الإنجيل.

ولهذا، التبست عند عامَّتهم شريعة الإنجيل بغيرها، فلا يعرفون ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقرَّه، ولا ما شرعه مما أحدث بعده، فالمسيح لم يأمرهم بتصوير الصور وتعظيمها، ولا دعاء مَن صورت تلك التماثيل على صورته، ولا أَمَر بهذا أحدٌ من الأنبياء، لا يوجد قط عن نبيٍّ أنه أمر بدعاء الملائكة، والاستشفاع بهم، ولا بدعاء الموتى من الأنبياء والصالحين

والاستشفاع بهم، فضلًا عن دعاء تماثيلهم والاستشفاع بها، فإنَّ هذا من أصول الشِّرك الذي نبَّهت عليه الرسل.

وهذا كان أصل الشرك في بني آدم من عهد نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله تعالى عن قوم نوحٍ: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤].

قال كثيرٌ من العلماء، منهم ابن عباس وغيره: وهؤلاء كانوا قومًا صالحين في قوم نوحٍ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم عبدوهم، وقد ذكر ذلك المسيح وعلماء النصارى، والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يأمرهم بعبادته، ولا قال: إنه الله، ولا بما ابتدعوه من التثليث والاتحاد، والمسيح لم يأمرهم باستحلال كل ما حرَّمه الله في التوراة من الخبائث؛ كالخنزير وغيره، فاستحلُّوا الخبائث المحرمة، وغيَّروا شريعة التوراة والإنجيل، والمسيح لم يأمرهم بأن يصلُّوا إلى المشرق، ولم يأمرهم أن يُعظِّموا الصليب، ولم يأمرهم بتَرْك الختان، ولا بالرهبانية، ولا بسائر ما ابتدعوه بعده...

وتبيَّن هذا بالوجه الثالث: وهو أن يقال: هَبْ أن شريعة الكتاب كانت كافيةً، فإنما ذاك إذا كانت محفوظةً معمولًا بها، ولم يكن الأمر كذلك، بل كانت قد درس كثيرٌ من معالمها، وقد اختلف أهل الكتاب في المسيح وغيره اختلافًا عظيمًا، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ١٤].

وقد قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]، أي: فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

والوقت الذي بعث الله فيه محمدًا ﷺ لم يكن قد بقي أحد مظهرًا لما بعث الله به الرسل قبله، فبَعَثه على حين فترةٍ من الرسل، وطموسٍ من السبل، أحوج ما كان الناس إلى رسول، كما في (صحيح مسلم)(١) عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله نظَر إلى أهل الأرض، فمَقَتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**».

وكان الناس حين مبعث محمدٍ ﷺ إما أميين لا كتاب لهم، يشركون بالرحمن، ويعبدون الأوثان، وإما أهل كتاب قد بدَّلوا معانيه وأحكامه، وحرَّفوا حلاله وحرامه، ولبسوا حقه بباطله، كما هو الموجود، فلو أراد الرجل أن يميز له أهل الكتاب ما جاءت به الأنبياء ممَّا هم عليه ممَّا أحدثوه بعدهم، لم يعرف جمهورهم ذلك، بل قَدْ صار الجميع عندهم دينًا واحدًا.

فبعث الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ محمدًا بالكتاب الذي أنزله عليه مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا، فميَّز به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والغي من الرشاد، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٥-١٧] إلى قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

الوجه الرابع: إنَّ شريعة التوراة تغلب عليها الشِّدَّة، وشريعة الإنجيل يغلب عليها اللِّين، وشريعة القرآن معتدلة جامعة بين هذا وهذا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال في وَصْف أُمَّته: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال أيضًا: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

فَوَصفهم بالرحمة للمؤمنين، والذِّلَّة لهم، والشدَّة على الكفار، والعزَّة عليهم، وكذلك كان صفة مُحمَّدٍ ﷺ نبيهم، أكمل النبيين وأفضل الرسل بحيث

قال: «**أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا نبي الرحمة، وأنا نبي الملحمة، وأنا نبي التوبة، وأنا الضَّحوك القتَّال**»(١).

فوصف نفسه بأنه نبي الرحمة والتوبة، وأنه نبي الملحمة، وأنه الضَّحوك القتَّال، وهذا أكمل ممَّن نعت بالشدة والبأس غالبًا، أو باللين غالبًا، وقد قيل بسبب ذلك: إنَّ بني إسرائيل كانت نفوسهم قد ذلَّت لقهر فرعون لهم، واستعباد فرعون لهم، فشرعت لهم الشدَّة لتقوى أنفسهم، ويزول عنهم ذلك الذلُّ.

ولهذا، لمَّا أُمروا بالجهاد، نكلوا عنه، وقال لهم موسى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢١-٢٤].

وأما أصحاب محمدٍ ﷺ، فقال له قائلهم يوم بدرٍ: «والله، لا نقول لك كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، لكن نقاتل أمامك، ووراءك، وعن يمينك، وعن يسارك، والذي بعثك بالحق لو

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٥٥) من حديث أبي موسى، بلفظ: «**أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة**»، وجاء ذكر نبي الملحمة عند أحمد في المسند (١٩٥٢٥).

استعرضت بنا هذا البحر فخضتَه لخضناه معك، ولو سرتَ بنا إلى برك الغماد لسرنا معك»[(١)].

وكان الكلام قريبًا من (بدر)، والبحر من جهة الغرب و(برك الغماد) مكان من يماني مكة، بينه وبين مكة عدة ليالٍ، والكفار كانوا إذ ذاك بمكة وأصحابه من ناحية المدينة شامي مكة، فمكة جنوبهم، والبحر غربهم، تقول: لو طلبتَ أن ندخل بلد العدو، ونذهب إلى تلك الناحية لفعلناه. قالوا: فلمَّا نَصَر الله بني إسرائيل وأظهرهم، ظهرت فيهم الأحداث بعد ذلك وتجبَّروا، وقست قلوبهم، وصاروا شبهًا بآل فرعون.

فبعث الله المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ باللين والصفح والعفو عن المسيء، واحتمال أذاه؛ ليلين أخلاقهم، ويزيل ما كانوا فيه من الجبرية والقسوة، فأفرط هؤلاء في اللِّين حتى تركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وتركوا الحكم بين الناس بالعدل وإقامة الحدود، وترهب عبادهم منفردين، مع أنَّ في ملوك النصارى من الجبرية والقسوة والحكم بغير ما أنزل الله وسفك الدماء بغير حقٍّ مما يأمرهم به علماؤهم وعبادهم، وممَّا لم يأمروهم به ما شاركوا فيه اليهود.

فبعث الله محمدًا ﷺ بالشريعة الكاملة العادلة، وجعل أُمَّته عدلًا خيارًا لا ينحرفون إلى هذا الطرف، ولا إلى هذا الطرف، بل يشتدون على أعداء الله،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٢٩٥٤) من حديث أنس.

ويلينون لأولياء الله، ويستعملون العفو والصفح فيما كان لنفوسهم، ويستعملون الانتصار والعقوبة فيما كان حقًّا لله.

وهذا كان خُلُق نبيِّهم، كما في (الصحيحين)[١] عن عائشة قالت: «ما ضرب رسول الله بيده خادمًا، ولا امرأةً، ولا دابةً، ولا شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا نِيلَ منه شيءٌ قط فانتقم لنفسه، إلا أن تُنْتهكَ محارم الله، فإذا انتهكت محارم الله، لم يقم لغضبه شيءٌ حتَّى ينتقم لله».

وفي الصحيح[٢]: عن أنسٍ أنه قال: «خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أُف قط، ولا قال لشيءٍ فعلته: لم فعلتَه؟ ولا لشيءٍ لم أفعله: لِمَ لا فعلته؟»، «وكان بعض أهله إذا عتبوني على شيءٍ يقول: (دَعُوه، فلو قُدِّر شيء لَكَانَ)»، هذا مع قوله في الحديث الصحيح[٣]: «لمَّا سرقت امرأةٌ كانت من أشرف قريش من بني مخزوم، فأمر بقطع يدها، فقالوا: مَن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: مَنْ يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد؟ فكلَّموه، فكلَّمه فيها، فقال: (يَا أُسَامة، أَتَشْفع في حدٍّ من حدود الله؟! إنما أهلك مَنْ كان قبلكم أنهم كانوا إذا سَرَق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف، أقاموا عليه الحدَّ! والذي نفس محمدٍ بيده، لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعتُ يدها)».

---

(١) صحيح مسلم (٢٣٢٨)، وبنحوه في البخاري (٦٨٥٣).

(٢) صحيح البخاري (٦٨٥٣)، وصحيح مسلم (٢٣٠٩).

(٣) صحيح البخاري (٣٤٧٥)، وصحيح مسلم (١٦٨٨).

ففي شريعته ﷺ من اللِّين والعفو والصفح ومكارم الأخلاق أعظم مما في الإنجيل، وفيها من الشِّدَّة والجهاد، وإقامة الحدود على الكفار والمنافقين أعظم ممَّا في التوراة، وهذا هو غاية الكمال؛ ولهذا قال بعضهم: بُعث موسى بالجلال، وبُعث عيسى بالجمال، وبُعث محمد بالكمال...

الوجه الخامس: أن يُقَال لأهل الكتاب خصوصًا، فيقال لليهود: أنتم أذلُّ الأمم، فلو قُدِّر أن ما أنتم عليه دين الله الذي لم يبدَّل، فهو مغلوبٌ مقهورٌ في جميع الأرض، فهل تعجبون من أن يبعث الله رسولًا يهدي إلى الحق، وإلى طريقٍ مستقيمٍ، فيبعثه بالهدى ودين الحقِّ ليظهره على الدين كله حتى يصير دين الله الذي بعث به رسله، وأنزل به كتبه، منصورًا ظاهرًا بالحجة والبيان والسيف والسنان.

ويُقَال للنَّصارى: أنتم لم تُخْلصوا دين الله الذي بعث به رسله من دين المشركين والمعطلين، بل أخذتم من أصول المشركين والمعطلين من الفلاسفة وغيرهم ما أدخلتموه في دينكم، وليس لكم على أكثر الكفار حُجَّة علمية، ولا يد قهرية، بل للكفار في قلوبكم من الرُّعب والخوف والتعظيم ما أنتم به من أضعف الأمم حُجَّة، وأضيقها مَحجَّة، وأبعدها عن العلم والبيان، وأعجزها عن إقامة الحجة والبرهان؛ تارةً تخافون من الكفار والفلاسفة وغيرهم من المشركين والمعطلين، فإما أن توافقوهم على أقوالهم، وإمَّا أن تخضعوا لهم متواضعين، وتارةً تخافون من سيوف المشركين، فإمَّا أن تتركوا بعض دينكم لأجلهم، وإما أن تذلُّوا لهم خاضعين، ففيكم من ضعف سلطان

الحجة، وضعف سلطان النصرة ما يظهر به حاجتكم إلى قيام الهدى ودين الحقِّ الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، فالعجب منكم كيف تعدلون عمَّا فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة إلى ما فيه شقاؤكم في الدنيا والآخرة.

هذا هو العجب، ليس العجب ممَّن آمن بما فيه سعادة الدنيا والآخرة، وفي خلافه شقاوة الدنيا والآخرة، ومثل هذا لا يردُّ على المسلمين، فإنَّه لم يزل ولا يزال فيه طائفةٌ قائمةٌ بالهدى ودين الحق ظاهرة بالحجة والبيان واليد والسنان إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، وهو خير الوارثين، كما ثبت في الصحاح عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**لا تَزالُ طائفةٌ من أُمَّتي قائمةً بأمر الله لا يضرُّهم مَن خذلهم، ولا مَن خالفهم حتى تقوم السَّاعة**»، وفي لفظٍ: «**لا تَزالُ طائفةٌ من أُمَّتي ظاهرة حتى يأتي الله بأمره**».

الوجه السادس: أن يقال لأهل الكتاب؛ لليهود: أنتم لمَّا كنتم متبعين لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كنتم على الهدى ودين الحق، وكنتم منصورين، ثم كثرت فيكم الأحداث التي تعرفونها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٥٩، ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠] معطوف على ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾، أَيْ: مَن لعنه الله، وغَضِبَ عليهم، وعبد هو الطاغوت، ليس هو داخلًا في خبر «جعل»، حتى يلزم إشكال كما ظنَّه بعض الناس، وأهل الكتاب

معترفون بأنَّ اليهود عبدوا الأصنام مرات، وقتلوا الأنبياء.

ويُقَال للنصارى: أنتم ما زلتم مقهورين مغلوبين مبددين في الأرض، حتى ظهر قسطنطين، وأقام دين النصرانية بالسيف، وقتل مَنْ خالفه من المشركين واليهود، لكن أظهر دينًا مبدلًا مغيرًا، ليس هو دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومع هذا فكانت أرض العراق وفارس كفارًا -المجوس وغيرهم- مجوسًا ومشركين، وكانوا في بعض الأزمنة يقهرون النصارى على بلادهم.

وأما أرض المشرق والمغرب ففيهما من أنواع المشركين أمم، وكان الشرك والكفر ظاهرًا في أرض اليمن والحجاز والشام والعراق، فلما بعث الله محمدًا ﷺ، أظهر به توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ظهورًا لم يعرف في أُمَّةٍ من الأمم، ولم يحصل مثله لنبيٍّ من الأنبياء.

وأظهر به من تصديق الكتب والرسل والتوراة والإنجيل والزبور، وموسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم من الرسل ما لم يكن ظاهرًا؛ لا عند أهل الكتاب ولا غيرهم، فأهل الكتاب وَإِنْ كانوا خيرًا من غيرهم، فلم يكونوا قائمين بما يجب من الإيمان بالله ورسله، ولا باليوم الآخر، ولا شرائع دينه، ولا كانوا قاهرين لأكثر الكفار، ولا كانوا منصورين عليهم.

ولهذا، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [التوبة: ٢٩].

أمَّا اليهود، ففيهم من التنقُّص من الأنبياء في سبِّهم، وذِكْر عيوبٍ نزَّههم الله عنها، ما هو معروف، حتى إنَّ منهم من يقول: إن سليمان كان ساحرًا، وداود كان منجمًا لم يكن نبيًّا، إلى أمثال ذلك مما يطول وَصْفه، ففيهم من الكفر بالأنبياء من جنس ما كان في سلفهم الخبيث...

وأما النصارى -فمع غُلوِّهم في المسيح وأتباعه- يستخفُّون بغيره، فتارةً يجعلون الحواريين مثل إبراهيم وموسى أو أفضل منهم، وتارةً يقولون -كما قال اليهود: إن سليمان لم يكن نبيًّا، بل سقط من النبوة، وتارةً يجعلون ما خاطب الله به داود وغيره من الأنبياء إنما أريد به المسيح، مع أن اللفظ لا يدل على ذلك، بل يتأوَّلون كتب الله بمجرد هوى أنفسهم، وتارةً يقولون: إن الواحد منهم إذا أطاع الله بما يزعمون أنه طاعةٌ، صار مثل واحدٍ من الأنبياء، ويسوغون لمثل هؤلاء أن يُغيِّروا شرائع الأنبياء، ويضعوا دينًا ابتدعوه.

ومُحمَّدٌ ﷺ وأُمته أقاموا توحيد الله الذي كان عليه إبراهيم وموسى وسائر الرسل، وآمنوا بكل كتابٍ أنزله الله، وكل رسولٍ بعثه الله، وأقاموا دين الرحمن إقامةً لم يقمها أحدٌ من الأمم.

الوجه السابع: قولهم: لمَّا كان الباري عدلًا جوادًا، أوجب أن يظهر عدله وجوده.

فيُقَال لهم: جود الجواد غير إلزام الناس بتَرْك حقوقهم، فإنَّ الجواد هو الذي يحسن إلى النَّاس، ليس هو الذي يلزم الناس بتَرْك حقوقهم، وهؤلاء يزعمون أنَّ شريعة الإنجيل ألزمت الناس بترك حقوقهم، وأنه لا ينصف مظلوم

من ظالمه.

ولهذا، ليس عندهم حكم عدل يحكمون به بين الناس، بل الحكم عندهم حكمان: حكم الكنيسة، وليس فيه إنصاف المظلوم من الظالم. والثاني: حكم الملوك، وليس هو شرعًا منزلًا، بل هو بحسَب آراء الملوك.

ولهذا، تجدهم يردُّون الناس إلى حكم شرع الإسلام في الدماء والأموال ونحو ذلك، حتى في بعض بلادهم يكون الملك والعسكر كلهم نصارى، وفيهم طائفةٌ قليلةٌ مسلمون لهم حاكمٌ، فيردون الناس في الدماء والأموال إلى حكم شرع المسلمين، وذلك أن الدماء والأموال وإن كان يستحبُّ للمظلوم أن يعفو فيها عن ظالمه، فالحاكم الذي يحكم بين الناس متى حكم على المظلوم بترك حقه، كان حاكمًا بالظلم لا بالعدل، ولو أمرنا كل ولي مقتولٍ ألَّا يقتص من القاتل، وكل صاحب دَيْنٍ ألَّا يطالب غريمه، بل يدعه على اختياره، وكل مشتوم ومضروب ألَّا ينتصف من ظالمه، لم يكن للظالمين زاجر يزجرهم، وظلم الأقوياء الضعفاء، وفسدت الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فلا بدَّ من شرعٍ يتضمَّن الحكم بالعدل، ولا بد مع ذلك من ندب الناس إلى العفو، والأخذ بالفضل...

وما أحسن كلام الله حيث يقول: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا

غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٤٣].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

فهذا من أحسن الكلام وأعدله وأفضله حيث شرع العدل، فقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ثم ندب إلى الفضل، فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

ولمَّا ندب إلى العفو، ذكر أنه لا لوم على المنتصف؛ لئلَّا يظن أن العفو فرض، فقال: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

ثم بيَّن أنَّ السبيل إنما يكون على الظالمين، فقال: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢]، ثمَّ لما رفع عنهم السبيل ندبهم مع ذلك إلى الصبر والعفو، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

فهذا أحسن شرعٍ وأحكمه، يُرغِّب في الصبر والغفر والعفو والإصلاح بغاية الترغيب، ويذكر ما فيه من الفضائل والمحاسن وحميد العاقبة، ويرفع عن

المنتصف ممَّن ظلمه الملام والعذل، ويُبيِّن أنه لا حرج عليه، ولا سبيل إذا انتصر بعدما ظلم، فهل يمكن أن تأتي شريعةٌ بأن تجعل على المنتصف سبيلًا مع عدله وهي لا تجعل على الظالم سبيلًا مع ظلمه؟

فعلم أنَّ ما أمر به المسيح من العفو لم يكن لأنَّ تاركَه مستحقٌّ للذم والعقاب، بل لأنه محرومٌ مما يحصل للعافي المحسن من الأجر والثواب، وهذا حقٌّ لا يناقض شرع التوراة، فعلم أن شرع الإنجيل لم يناقض شرع التوراة؛ إذ كان فرعًا عليها، ومكملًا لها، وحينئذٍ فزعمهم أنَّ شرع الإنجيل شرعه الله دون شرع التوراة- كلام مَن هو من أجهل الناس وأضلهم، ولهذا كان فرعًا على قولهم بالاتحاد، وأن المسيح هو الله، فذاك الضلال مما أوجب هذا القول المحال[(١)].

---

(١) (٥/ ٥٧).

تَلقِيحُ الألبَابْ

بِجُهُودِ عُلَمَاءِ المُسلِمِينَ فِي مُجَادَلَةِ أَهْلِ الكِتَابِ

إلى نهاية القرن الثامن

الكتاب الثاني

إعداد

عمرو عفيفي

«وذلك أن الحق إذا جُحد وعُورض بالشبهات، أقام اللّه تعالى له مما يحقُّ به الحق، ويبطل به الباطل من الآيات البيِّنات بما يظهره من أدلَّة الحق وبراهينه الواضحة، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة».

[ابن تيمية الجواب الصحيح (١/٨٨)]

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد بن عبد الله وآله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فقد رأيتُ من المناسب أن ألحق بهذا (التهذيب) هذه الرسالة المختصرة التي تشير وتُعرب عن جهود علماء المسلمين في مجادلة أهل الكتاب في القرون الأولى وحتى عصر شيخ الإسلام ابن تيمية صاحب أصل (التهذيب).

حَاولتُ في هذه الرسالة التعريف المختصر بأصحاب هذه الجهود ومحتواها ومناهجها ومكامن قوَّتها وضعفها، وقدمت على ذلك بتمهيدٍ يشتمل على إضاءاتٍ عامةٍ حول هذه الكتابات، ويجيب على بعض التساؤلات حول مواردها وسماتها العامة، ونحو ذلك.

وهذا سَيُفيد المقتصد في التعرُّف على أهمِّ ما في هذه الجهود من المباحث والبراهين والأجوبة، وما اشتملت عليه من المناهج والطرق؛ تقويةً لعدته، وتزويدًا لمادته، وتكميلًا لمحتوى هذا المختصر.

كما أنها تفيد المتبحر كمدخلٍ ممهدٍ ودليلٍ معرفٍ قبل خوضه في بحر هذه الكتب.

كما أنَّ لها فوائد أخرى، ومدخلًا في علوم شتى، مثل التأريخ للجدل الديني

بين المسلمين وأهل الكتاب، أو التأريخ الاجتماعي والثقافي الذين يتناول أشكال التفاعل بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب في البلاد المجاورة، أو من أهل الذِّمَّة في بلاد المسلمين، كما أنها تعطي صورةً عن المنتج العلمي للمسلمين في ميدان مقارنة الأديان، ونقد الكتب المقدسة، وتنوُّع مناهجه وتطوُّره، ومكان وزمان وسبب وجوده، وفي الفصل الرابع من الباب الأول إشارة أوسع إلى فائدة هذه الدراسة.

وليست هذه الدراسة المختصرة هي الأولى من نوعها، أو الأفضل من غيرها، بل سبقتها دراسات أخرى مشابهة ومميزة، أكثرها من الرسائل العلمية، من أمثلتها:

١- (جهود علماء المسلمين في الرد على النصارى خلال القرون الستة الهجرية الأولى) لبدر بن محمد طراد[(١)].

٢- (جهود علماء المسلمين في نقد الكتاب المقدس من القرن الثامن الهجري إلى العصر الحاضر) لرمضان مصطفى الدسوقي[(٢)].

٣- (جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى في عصر المرابطين والموحدين) لمحمد بن إبراهيم بن صالح[(٣)]، وقد اشتمل هذا الأخير على فصل حول

---

(١) رسالة مقدمة لنَيل الدكتوراه من جامعة أم القرى تحت إشراف الدكتور محمود مزروعة.

(٢) رسالة مقدمة لنَيل درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة تحت إشراف الدكتور عمارة نجيب محمد.

(٣) رسالة مقدمة لنَيل درجة الدكتوراه تحت إشراف الدكتور حمد بن صالح السحيباني.

تصدي علماء المسلمين للحملات الفكرية النصرانية ضد الإسلام.

٤- (الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع)، عبد المجيد الشرفي[1].

ولكن هناك اختلافات عدَّة بين هذه الدراسة وما سبقها من الدراسات من عدة جهاتٍ:

منها: الاختصار، وتكثيف المادة في هذه الدراسة.

ومنها: محاولة تسليط الضوء على كلِّ كِتَابٍ كوحدةٍ مستقلةٍ، وإبراز مضمونه، وتمييز منهجه بخلاف أكثر الدراسات السابقة الَّتي تعاملت مع هذه الكتابات كوحدةٍ واحدةٍ؛ لتصف منها صورتها وملامحها، أو ترتب وتستخرج مضامينها وبراهينها، وفي الحالين تكون مُرَتَّبةً على الموضوعات.

أمَّا هذه الدراسة، فقد أفردت كل كِتَابٍ بما يستحقه من الاختصار والتعليق؛ لأن كل عملٍ منها على الحقيقة هو كشخصٍ مستقلٍّ وعقلٍ منفردٍ، تصعب رؤيته، وتمييز ملامحه إلا بوصفٍ خاصٍّ وتعليقٍ مستقلٍّ يبرز شخص كل كتابٍ وعقل صاحبه، ومع ذلك سيكون في التمهيد إشارة إلى الملامح العامة لهذه الكتابات.

ورغم اشتمال هذه الدراسة على أغلب ما كتب في الحقبة الزمنية المذكورة، إلا أن هناك كتبًا أهملتها؛ إما لأنها لم تصل إلينا مطبوعةً؛ لفقدها بالكلية، أو عدم طبعها بعد، مثل: (مقالات غير الإسلاميين) للأشعري، و(الحجة على

(١) رسالة مقدمة لنَيل درجة دكتوراه الدولة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة التونسية تحت إشراف دكتور محمد الطالبي.

النصارى) لابن سحنون، وإما لضعف أثرها ومحتواها في الجدل الديني، وإما لاستعمالها لأصول المعتزلة في الرد، مثل القاضي عبد الجبار، وهو ما يحتاج إلى شرحٍ وبسطٍ، وربما إلى تفنيدٍ وردٍّ، وهذا قد يُخرج البحث عن مقصوده، وإما للاستغناء بغيرها عنها، فتركناها اختصارًا، مثل كتاب: (الرد على النصارى) للجعفري، فهو كالاختصار لكتاب (التخجيل) له، فاستغنينا بذكر الأصل عن فرعه، فهذه باختصار أهم الأسباب الواعية لإهمال بعض الأعمال، وربما فاتتنا أعمال أخرى بغير قصدٍ.

وقد سمَّيتها: **(تلقيح الألباب بجهود علماء المسلمين في مجادلة أهل الكتاب إلى نهاية القرن الثامن).**

وفي العنوان إشارةٌ إلى أهمِّ أغراض الرسالة، وهو الإضافة إلى أدوات وملكات الباحثين في هذا المجال، بالإشارة إلى محتوى ومنهج العلماء السابقين في عهدٍ زاهٍ ومزدهرٍ في باب الجدل العقائدي ومقارنة الأديان.

أسأل الله تعالى أن ينفع بها كاتبها وقارئها، ويتقبَّل ما وقع فيها من صوابٍ وإحسانٍ، ويغفر ما وقع فيها من النقص والخطأ، فإنه سبحانه لطيفٌ ودودٌ، بكل جميلٍ كفيلٌ، وبالإجابة جديرٌ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

البَابُ الأَوَّلُ

فصول تمهيدية
حول الجهود الإسلامية الجدلية

الفصل الأول: أسباب ظهور المجادلة بين علماء المسلمين والكتابيين.

الفصل الثاني: موارد علماء المسلمين في المجادلة.

الفصل الثالث: الأوصاف والسمات العامَّة لهذه الجهود.

الفصل الرابع: أهمية دراسة هذه الكتابات.

الفصل الأول

أسباب ظهور المجادلة بين علماء المسلمين والكتابيين

أول تساؤلٍ يمكن أن يورده الخاطر عند البحث في عمل المسلمين في مجادلة أهل الكتاب، هو عن الباعث لعلماء المسلمين لخوض هذه المجادلات؟

ويمكن للجواب على هذا الإشارة إلى تضافر أكثر من سببٍ وباعثٍ لعلماء المسلمين للخوض في هذه المجادلات:

١- من أهمِّ البواعث هو الصراع السياسي والعسكري الطويل الممتد عبر الزمان والمكان مع النصارى على اختلاف دولهم وفرقهم، خاصةً مع اقتحام المسلمين لعقر ديار النصارى بدخول الأندلس، ثمَّ اقتحام النصارى لعقر ديار المسلمين بدخول الشام، والاستيلاء على بيت المقدس بعد ذلك في الحروب الصليبية.

فرغم تعدد جهات الصراع عند المسلمين عبر تاريخهم إلا أن الصراع مع النصارى هو الذي كان له النصيب الأكبر من هذا الصراع كمًّا وكيفًا، فكان من الطبيعي أن تنشب بجوار هذه المعارك الحربية معارك أخرى فكريَّة وجدليَّة، ويظهر ذلك بوضوحٍ في الكتب التي كانت ردًّا على رسائل أو كتب صنفها النصارى مثل: رسالة أبي الوليد الباجي، و(مقامع هامات الصلبان) للخزرجي، و(الأجوبة الفاخرة) للقرافي، و(هداية الحيارى) لابن القيم، وغيرها.

ولأجل ذلك، نجد أيضًا ظهورًا واضحًا في هذا الجدل للعلماء الموجودين بالقرب من بؤر الصراع، مثل علماء الأندلس: ابن حزم والباجي والخزرجي

والقرطبي وغيرهم، وعلماء الشام كابن تيمية وابن القيم وغيرهما.

وهذا يفسر أيضًا كون الجدل مع النصارى والرد عليهم أكثر منه على اليهود، وذلك لأنه بعد غزو النبي ﷺ لقبائل اليهود في المدينة، لم يظهر اليهود على ساحة الصراع العسكري مع المسلمين إلى مشارف العصر الحديث، وظهور الدولة الصهيونية، ولذا كانت مساحة الجدل الديني والسجال الفكري بين المسلمين والنصارى أكبر.

٢-وهناك سببٌ آخر يتكامل ويتوازى مع سابقه في الدافعية، وهو القرآن الذي كان داعيًا للدخول في هذا الجدل نظرًا وعملًا، أي أن القرآن هو الذي أمر بهذا الجدل، وحدد مقاصده وشروطه؛ إما في آياتٍ عامةٍ آمرةٍ بالدعوة إلى الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، أو في آياتٍ خاصةٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فهذه النُّصوص القرآنية أمرت بهذا الجدل، وأظهرت مقاصده، وهي هدايتهم وإقامة الحجة عليهم، وحدَّدت شكل المناظرة وشرطها، وهو أن تكون بالحسنى والحجة، كما قال الطبري: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢]، يقول:

إلا بالجميل من القول، وهو الدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حججه[١].

كما أن القرآن لم يكتفِ بالدعوة النظرية، بل وجدت فيه ممارسة عملية لهذا الجدل بعدة صور؛ منها: انتقاد الكتب المقدسة، ورميها بالتحريف والتبديل. ومنها: النقد العقلي لعقائد النصارى، وستأتي الإشارة إلى هذا.

وهذا الباعث الديني، والقصد إلى الهداية، والدعوة والبيان ورد الشبهات، نجده عامًّا وحاضرًا في كل الأعمال الجدلية لعلماء المسلمين، وبعضهم يُصرِّح به، وبعضهم لا يصرح، ولكن يظهر أثره في عمله، ويمكن القول بأنه أهم الأسباب لقوة دافعيته، ولحضوره المشترك في كلِّ الأعمال تصريحًا أو ضمنًا.

٣-وهناك غرض ثالث ليس مباينًا للسببين السابقين، وهو التحوُّل إلى الإسلام؛ وهو ما يجعل صاحبه يكتب بغرض شرح أسباب إسلامه بالإضافة إلى المقصد العام، وهو الدعوة والهداية والمشاركة في السِّجال الفكري، وهذا نراه عند علي بن ربن الطبري الذي كان نصرانيًّا وأسلم، وصنف كتاب (الدين والدولة)، والسموأل بن يحيى الذي كان يهوديًّا وأسلم، وصنف كتاب (غاية المقصود)، فكلاهما كان طبيبًا حاذقًا، له تصانيف في الطب أو غيره من العلوم؛ كالحساب والهندسة، ولم يكن لهما مشاركة واسعة في المصنفات الدينية، ومع ذلك شاركا في مجادلة أهل الكتب بغرضٍ ظاهرٍ، وهو الدعوة والهداية، ويصاحبه هدفٌ باطنٌ، وهو شرح أسباب اعتناقه للإسلام وأدلته على ذلك.

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٤٦).

الفصل الثاني

موارد علماء المسلمين في المجادلة

قبل الإجابة عن سؤال المورد، لابد من التطرق لسؤالٍ آخر، وهو: هل سبق المسلمون إلى هذه العملية النقدية بصورها المختلفة، والتي أهمُّها نقد الكتاب المقدس بأنواعه المختلفة، ومنها النقد العقلي والنقلي لعقائد النصارى؟

أمَّا ما يتعلَّق بالكتاب المقدس، فإنَّ العهد القديم تَعرَّض لأعمالٍ نقديةٍ مختلفةٍ في صورها وأسبابها.

لكن يمكن رصد نقطة البداية في هذا النقد في كتب العهد القديم نفسها؛ ففيها ما يدلُّ على أن أنبياء العهد القديم كانوا ينتقدون الكتاب الكذبة:

ففي إرميا (٨/ ٨): «(٨) كيف تقولون: نحن حكماء وشريعة الرب معنا؟ حقًّا إنه إلى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب».

والنبي حزقيال انتقد ما ذكر في سفر الخروج (٣٤/ ٧): «مفتقد إثم الآباء في الأبناء، وفي أبناء الأبناء، في الجيل الثالث والرابع»، وأشار إلى أنه ليس من الوحي الإلهي المنزل، ففي حزقيال (١٨): «(١) وكان إلى كلام الرب قائلًا (٢) ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل، قائلين: الآباء أكلوا الحصرم، وأسنان الأبناء ضرست؟...

وأنتم تقولون: لماذا لا يحمل الابن من إثم الأب؟ أما الابن فقد فعل حقًّا وعدلًا، حفظ جميع فرائضي، وعمل بها، فحياة يحيا(٢٠) النفس التي تخطئ

هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون».

ثم ظهرت صورٌ من النقد الكتابي عند كتاب التلمود؛ كالبحث عن الكُتَّاب الحقيقيين لبعض الأجزاء من توراة موسى وغيرها من أسفار العهد القديم، كما تساءلوا حول التناقضات في العهد القديم وغيرها من أنواع النقد[(١)].

ثمَّ ظهرت صورٌ أخرى من النقد عبر التاريخ اليهودي؛ منها ما كان بسبب الصراع بين الفرق اليهودية القرائين والربانيين وغيرهم، ومنه ما كان بسبب وَضْع التشكيل، ومنه ما كان بفعل علماء النحو واللُّغة[(٢)].

أمَّا انتقاد العقائد النصرانية، وعرضها على المنقول من الكتاب المقدس، أو عرضها على المعقولات، فهناك إرثٌ كبيرٌ منه في النقاشات التي كانت تدور بين الفرق المسيحية التوحيدية والتثليثية قبل ظهور فكرة المجامع، وحتى بعد ظهورها.

فهل كان لهذه الأعمال النقدية السابقة أثرٌ على العملية النقدية والجدلية عند المسلمين؟

الحقيقة أنه ليس بين أيدينا أية إشارة أو دلالة على أن علماء المسلمين الذين شاركوا في الجدل أو قاموا بالنقد قد كان لهم اطلاعٌ على هذا النقد السابق عليهم،

---

(١) ينظر الفصل الثاني (النقد في التلمود) من كتاب: «نقد العهد القديم» لزالمان شازار. ترجمة د/ أحمد محمود هويدي.

(٢) ينظر الفصل الثاني (النقد اليهودي للعهد القديم) من كتاب «اتجاهات نقد العهد القديم» د.محمد خليفة حسن، د.أحمد محمود هويدي.

أو أنهم نقلوا عنه، واستفادوا منه، باستثناء أنهم كانوا يستعملون التراشق والترامي بين الفرق اليهودية وبعضها، وبينهم وبين النصارى في دعوى الإجماع على وقوع التبديل بين الكتابيين؛ لأنَّ كل فرقةٍ ترمي الأخرى به، كما نجد هذه الطريقة عند الجويني في (شفاء الغليل)، وابن تيمية في (الجواب الصحيح)، وغيرهما.

وبالعودة لسؤال المورد:

فإنَّه يمكن القول بأن القرآن الكريم هو أهم موارد هذا العمل النقدي، لا من جهة تفصيلاته وأفراده، لكن من جهة أصله وأنواعه.

فمثلًا: من جهة النقد الكتابي، فقد أثبت القرآن حصول التحريف والتبديل في الكتب المقدسة، بل وحدَّد بعض أسباب ومصادر هذا التحريف، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

وكما في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

بل إنَّ القرآن تعقب على سبيل التفصيل بعض ما جاء في الكتب من التحريف، على سبيل المثال:

أ- في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

هو تعقُّب لما ورد في (سفر التكوين) من نسبة التعب والراحة للرب، تعالى عن ذلك، كما جاء في (سفر التكوين) (٢/ ٢، ٣): «(٢) وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل (٣) وبارك الله اليوم السابع وقدَّسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقًا».

ب-وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهو تعقُّب لما نسبه اليهود لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتبهم من عبادة غير الله تعالى، كما في ملوك أول (١١/ ٣-١١):

«(٣) وكانت له سبع مئةٍ من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه (٤) وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أَمَلْن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملًا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه (٥)، فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين (٦) وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تمامًا كداود أبيه (٧) حينئذٍ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون (٨) وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللَّواتي كُنَّ يوقدن ويذبحن لآلهتهنَّ (٩) فغضب الرَّبُّ على سليمان؛ لأنَّ قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين (١٠)، وأوصاه في هذا الأمر ألَّا يتبع آلهةً أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب».

ج- وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

أي أنَّ سبب عدم أمانة بعضهم: زعمهم أنه لا عتاب ولا ذم في أكل أموال مَنْ ليس منهم على أحد التفسيرات[١]، وهذا قد يكون تعقبًا لما في تثنية (٢٣/ ٢٠): «للأجنبي تقرض بِربًا، ولكن لأخيك لا تقرض بربًا»، ومثل هذه النصوص، وأمثلة هذا النقد القرآني وأنواعه كثيرة.

ولذا، نجد الادعاء بوقوع التحريف في الكتب المقدسة، والإضافة إليها، والحذف منها، هو قدرٌ يكاد يكون عامًّا ومشتركًا في كل الكتب التي اشتملت على مجادلة أهل الكتاب، وبعضها اشتمل على نفس الأمثلة النقدية الموجودة في القرآن، وزاد عليها من جنسها، مثل: تنزيه الله تعالى عن النَّصَب والتعب، ومن جنسه تنزيه الله تعالى عن صفات النقص الموجودة في الكتب المقدسة، ومثل تنزيه سليمان، ثمَّ تنزيه غيره من أنبياء الله عن الشرك، وغيره من الفواحش المنسوبة إليهم، هذا قدرٌ مشتركٌ يزيد كل مصنفٍ على هذا من صور النقد الأخرى، لكن لا يكاد يخلو مصنفٌ إسلاميٌّ جدليٌّ منه.

ففي الجملة، يمكن القول أنَّ أصل نظرية النقد الكتابي عند المسلمين وأهم مواردها هو القرآن، يقول صاحبا (اتجاهات نقد العهد القديم): «بالنسبة لنشأة

---

(١) كما في الكشاف (١/ ٣٧٥)، والبيضاوي (٢/ ٢٤)، وقيل: الأميون هم العرب كما في الطبري (٦/ ٦٢٥).

النقد الإسلامي للعهد القديم، فقد أتى القرآن الكريم بنظريتين أساسيتين هما عماد النقد الإسلامي، وأصبحا فيما بعد عماد النقد الغربي الحديث... وهاتان النظريتان هما نظرية التحريف والتبديل، ونظرية تعدد المصادر».اهـ. باختصار(١).

ولم يقتصر الأمر على مضاهاة القرآن في النقد الكتابي، بل نجد أيضًا مضاهاةً للقرآن في النقد العقلي والنقلي للعقائد النصرانية واليهودية؛ فإنَّ القرآن قد اشتمل على كثيرٍ من صور هذا النقد، من جهة توصيف هذه العقائد، وذمِّها، ووَصْمها بالشرك بالله، والانحراف عن مسار التوحيد الخالص الذي جاء به الأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٤- ٣٧].

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤، ٥]، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ

---

(١) «اتجاهات نقد العهد القديم». د.محمد خليفة حسن، د.أحمد محمود هويدي (١٠).

خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٨٠]، والآيات في ذلك كثيرةٌ عسيرةٌ على الحصر في هذا المقام.

ولكن لم يقتصر القرآن على التوصيف فقط، بل خاض في الجدل العقلي والنقلي لعقائد الكتابيين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وهذا ردٌّ مفحمٌ على دعواهم أن الولادة المعجزة من أدلة الألوهية، فهذا حاصلٌ وأَوْلَى في حق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحواء، ولم يقتض الألوهية، فبطل التلازم، وهذه الحجة استعملها كثيرٌ من المصنفين أو أكثرهم.

وجادل اليهود الذين زعموا أنَّ سبب إعراضهم عن مُحمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لم يأت بآيةٍ تماثل آيات أنبيائهم، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨].

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

فأَفْحَمهم بأن ما طلبوه تحقَّق على أيدي الأنبياء السابقين، ومع ذلك قد كفر بهم أجدادهم، فسبب الأعراض ليس ما يزعمون من تخلُّف نوعٍ معينٍ من المعجزات والآيات، بل هو التكذيب والاستكبار عن قبول الحق.

ولم يقتصر الجدل القرآني على التوصيف والحجاج، بل شرح بعض

مصادر الانحراف عن الوحي، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وفي هذا النَّصِّ يكشف القرآن أن مصدر العقائد الشركية في الديانتين ليس نصوصًا مقدسة اتبعوها، بل هو اقتباس وترداد للعقائد الوثنية للأمم السابقة، وهو ما أكدته الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية التي أظهرت مدى التشابه بين عقيدة التثليث وابن الإله، وبين العقائد الوثنية السابقة عند البراهمة والبوذيين والمصريين وغيرهم، حتى قال موريس في كتاب (الآثار الهندية القديمة): «كان عند أكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي»(١).

وقال برتشرد: «لا تخلو كافَّة الأبحاث المأخوذة عن مصادر شرقية من ذكر أحد أنواع التثليث أو التولد الثلاثي»(٢).

ولم يتطرَّق أكثر المُصنِّفين لشرح هذا الاقتباس، ربما لعدم توفُّر المعرفة الكافية بمعتقدات هذه الأمم، وإن كان في قول بعضهم إشارةٌ إلى هذا الاقتباس، كما في (الجواب الصحيح) (٣/ ١٨٥) مع ذكر الآية الكريمة: «وقد ضاهوا في ذلك مَن قبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولدًا شريكًا».اهـ.

ولكن في هذا النص إشارة إلى النقد النقلي الذي يثبت التباين بين العقائد

---

(١) العقائد الوثنية في الديانة النصرانية (٢٩)، وينظر تأثر المسيحية بالأديان الوضعية (٥٠٠).

(٢) السابق.

الكتابية، وبين النصوص الكتابية، وهو ما نجده عند أكثر المصنفين.

ومصدريَّة القرآن هنا تعني أنَّ منهج الرَّد ومحتواه مُضَاهٍ للقرآن، متأثرٌ به، وناقلٌ عنه في الجملة، ولا ينفي وجود موارد أخرى، فنحن نرى عند كلِّ مُصنَّفٍ أدواته العلمية والعقلية التي يستعملها في النقد، فالباقلاني -مثلًا- لغَلَبة علم الكلام عليه، نرى أنَّ مادَّته الأصلية كلامية عقلية، والقرافي والطوفي لبراعتهما في علم أصول الفقه نجد أثرًا لهذا العلم في كتابيهما.

وهناك مَنْ كان له عنايةٌ بالعلوم النقلية نراه قد اشتغل بالنقد النقلي، وفحص الكتاب المقدس كالإمام ابن حزم، وهناك مَنْ تنوَّعت موارده وأدواته كالقرطبي وابن القيم وغيرهما.

وهكذا تنوَّعت الموارد، ولكنها لم تكن مصادر اقتباسٍ ونقلٍ، وإنما كانت أدوات نقدية يطور كل مصنفٍ منها منهجه الخاص في النقد، وإنما كان المصدر الخارجي الذي اقتبس منه المصنفون بعض المباحث والحجج، وصور النقد وأنواعه- هو القرآن.

الفصل الثالث

الأوصاف والسمات العامة لهذه الجهود

١- موقعها في خارطة التصنيف:

مَن يوجه النظر إلى الأعمال الجدليَّة لعلماء المسلمين؛ فإنَّ أول ما سيسترعي انتباهه هو تأخر هذا النوع من المصنفات في قائمة التصنيف لعلماء المسلمين، فنجد أنَّ عدد هذه الأعمال يُعدُّ قليلًا مقارنةً بالإنتاج العلمي في سائر العلوم؛ كالفقه والتفسير واللغة، أو حتى المصنفات العقدية بغرض الجدل والرد بين الفرق الإسلامية.

كما نلاحظ أنَّ أكثر هذه الكتب لم يصنف ابتداءً، وإنما كان ردًّا على رسائل أو كتب صنفها الكتابيون، ثم تصدَّر علماء المسلمين للردِّ عليهم، هذا هو القسم الأكبر من هذه الكتابات، وأشار مُصنِّفوها إلى هذا الغرض في مقدمة كتبهم، مثل كتاب: (الإعلام)، و(الأجوبة الفاخرة)، و(المقامع)، و(التخجيل)، و(الجواب الصحيح)، و(هداية الحيارى)، و(التعليق على الأناجيل)، وغيرها.

ثمَّ نجد الكتب التي لم تُشِرْ في سبب تصنيفها إلى كتب أو رسائل نصرانية، بعضها كان تصنيفًا للبيان، والرد على مختلف العقائد والفرق الإسلامية وغير الإسلامية، مثل كتاب: (التمهيد) للباقلاني، و(الفصل) لابن حزم، وبعضها كان يستبطن غرضًا آخر، وهو شرح سبب ترك دين الآباء واعتناق الإسلام، مثل كتاب: (الدين والدولة)، و(غاية المقصود).

أمَّا الكتب التي تخلو من هذه الأغراض -والظاهر أنها صُنِّفت ابتداءً- هي القسم الأقلُّ، مثل كتاب: (الرد الجميل) للغزالي، و(شفاء الغليل) للجويني، وغيرها.

فلماذا كان هذا النوع من الكتابات محدودًا مقارنةً بأغراض التصنيف الأخرى...

يمكن استنتاج عدَّة أسباب لهذا:

١- منها: أنه مع وجود منافذ الالتقاء والاحتكاك الفكري والعلمي بين المسلمين والنصارى؛ إما عن طريق المراسلات والمكاتبات، أو عن طريق أهل الذِّمَّة في بلاد المسلمين، فيمكن وَصْف هذا الاحتكاك بأنه قليلٌ وضعيفٌ مقارنةً بمناظرة ومحاجة الفرق الإسلامية بعضها، لذا نجد المصنفات العقدية والكلامية التي صُنِّفت في البيان والرَّد بين الفرق الإسلامية، مثل: أهل الحديث والحنابلة، والأشاعرة والمعتزلة وغيرهم، أكثر كثيرًا من هذه الكتب؛ لأنَّ التجاور والاحتكاك بين هذه الفرق أكبر، بينما كان الغالب على اللقاء الإسلامي النصراني أن يكون لقاءً عسكريًّا حربيًّا، يوجد الجدل الديني والفكري على هامشه، بعكس الجدل بين الفرق الإسلامية، فقد كان علميًّا في الأساس قد تكتنفه وتجاوره مناوشاتٌ أخرى على هامشه، مثل استعمال العنف أو الطرد أو استعمال السلطة والالتجاء إلى الحكام.

٢- ويمكن الإشارة أيضًا إلى سببٍ آخر، وهو أن الجدل القرآني بأنواعه لليهود والنصارى كان يشمل مساحةً كبيرةً من أغراض القرآن، وهو ما يعتبر بنفسه كافيًا ووافيًا في مقاصد الجدل وأغراضه الكبرى، فيكون التصنيف في

تفسير القرآن وشرح أغراضه عملًا تأسيسيًّا في باب الجدل، وإنما يحتاج الجدل إلى تكميلٍ حين يجد علماء المسلمين أن علماء أهل الكتاب أعرضوا عن المحكم في كتبهم المقدسة، وفي القرآن، واستدلوا بالمتشابه منهما على تصحيح عقائدهم، أو أنَّهم طعنوا في صحة القرآن، أو نُبوَّة مُحمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهنا يحتاج الجدل إلى زيادةٍ وتكميلٍ.

ففي ذلك يقول ابن تيمية: «بل الكتب كلها مع القرآن والعقل حُجَّة عليهم لا لهم، بل عامَّة ما يحتجون به من نصوص الأنبياء، ومن المعقول، فهو نفسه حجة عليهم». اهـ[1].

ويقول القرافي: «فإن كتابنا العزيز وكتبهم دالَّة على صحة مذهبنا، وإبطال مذهبهم». اهـ[2].

٣- ومن الأسباب التي نراها واضحةً مصرحةً في غير مصدرٍ من الكتب الجدلية، والتي تفسر أيضًا قلة هذه التصنيفات: أنَّ علماء المسلمين كانوا يرون أن عقائد أهل الكتاب تشتمل على مناقضةٍ ظاهرةٍ للمعقول والمنقول، وأنهم في تأسيس هذه العقائد والتمسُّك بها، والدفاع عنها لا يعتمدون على الحجج النقلية والعقلية، وإنما يعتمدون على تقليد عقائد آبائهم، والحيل التي يصطنعها قساوستهم في الكنائس، ولا يحفلون كثيرًا بتأسيس عقائدهم على الاحتجاج والنظر، وهذا أضعف عنايةَ المسلمين بالرَّدِّ عليهم إلا عند الاضطرار إلى ذلك،

---

(١) الجواب الصحيح (١/ ١٠٤).

(٢) الأجوبة الفاخرة (٢٢).

مع الإزراء والذَّم لعقول مناظريهم وطرقهم في تأسيس عقائدهم، وسأنقل بعض النُّصوص على سبيل التمثيل تظهر هذا السبب:

قال الإمام القرطبي في (الإعلام): «فقد وقفت -وفَّقك الله- على كتابٍ كتب به بعض المنتحلين لدين الملة النصرانية سمَّاه كتاب: (تثليث الوحدانية)... نائلًا فيه من عصابة الحقِّ الموحدين، سائلًا عمَّا لا يعنيه، ومتكلمًا بما لا يدريه، فأمعنت النظر فيه، فإذا بالمتكلم يهرف بما لا يعرف، وينطق بما لا يحقق، ناقض ولم يشعر، وعمي من حيث يظن أنه يستبصر ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤]، يلحن إذا كتب، ويعجم متى أعرب...

ولَيْته إذا ادَّعى النظر سلك طريقه، والتزم شروطه، فاعترف بالبديهيَّات، ولم ينظر الضروريات التي هي أصول النظريات، ولكن حلَّ من عنقه ربقة العقول...

فاستخرت الله تعالى في جوابه على تخليط معانيه، وتثبيج خطابه بعد أَنْ أقول له: اعلم يا هذا أن البغاة بأرضنا لا تستنسر، والتمييز عندنا بين الفضة والقصَّة متيسر...

وقد كنت عزمت على الاقتداء بالعقلاء في الإعراض حتَّى أكثر هذا المتكلم من التعرُّض والاعتراض، فتعيَّن لذلك الجواب».اهـ. باختصارٍ[(١)].

ويقول الإمام القرافي في صدر كتابه: «فإن النصارى أُمَّة عمياء، وطائفة

---

(١) الإعلام (٤٣، ٤٤).

جهلاء، قد غلب عليهم التقليد، وتجنبوا محجة النظر السديد حتى لا يبحثوا عن صحَّة ما يُلْقيه إليه أساقفتهم، ولا يتأملوا ما يعتمده في دينهم أكابرهم وطغاتهم، ولولا ذلك لم يبقَ لدين النصرانية وجود لظهور فساده... ثم ذكر شيئًا من أعمالهم، إلى أن قال: ولما علم حُذَّاقهم أن دينهم ليس له قاعدة تبنى عليه، ولا أصل يرجع إليه، جمعوا عقول العامة بتخييلاتٍ موهمةٍ، وأباطيل مزخرفةٍ، وضعوها في الكنائس والمزارات.

ثم ذكر شيئًا من هذه الحيل إلى أن قال -وهو محل الشاهد: فلذلك لم تنهض العزيمة إلى بسط القول في الحديث معهم... لعلَّ الله تعالى يجعل ذلك تنبيهًا لبعض الغافلين، فيستيقظ لرؤية هذه المساوئ القبيحة، أما سلوك طريق الأنظار العقلية وبيان المدارك القطعية، فليس القوم أهلًا لذلك»[(١)].

وقال الغزالي: «فإنِّي رأيت مباحث النصارى المتعلقة بعقائدهم ضعيفة المباني، واهية القوى، وعرة المسالك، يقضي المتأمل من عقولٍ جنحت لها غاية عجبه، ولا يقف من تعقيدها على اليسير من أَربه، ولا يُعوِّلون فيها إلا على التقليد المحض».اهـ[(٢)].

وقال الإمام الطوفي بعد أن حكى عقيدتهم في الصلب والفداء: «واعلم أنَّ هذه خرافات عظيمة القبح، تجلُّ عقول العقلاء عن قطع الأوقات في حكايتها، والإجابة عنها، وإنما فعلنا ذلك على جهة التروُّح؛ ليسخر منهم مَنْ لا يعرف مقالتهم.

---

(١) الأجوبة الفاخرة (٢٦).

(٢) الرد الجميل (٥٠).

وأيضًا فإنَّ الأمر قد أفضى بهم إلى أن صنفوا كتبًا يطعنون بها في دين الإسلام، ويقدحون بها في نُبوَّة محمدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يخشى منها على ضعفى المسلمين، فأردنا أن نُبيِّن فساد رأيهم ليجتنبه مَن يُدْعى إليه، وفساد عقولهم لئلَّا يغتر بها مَنْ يسمع قدحهم في الدين، ولا يعول عليه»[١].

٤- وهناك سببٌ آخر يصعب تجاهله، لكن لابد من بيان موضعه، وهو الاستغناء بالحرب والقتال عن الحجة والبرهان.

وهذه من الشُّبهات التي يتعلَّق بها بعض المتعصبين من المستشرقين، وأتباعهم من العصرانيين الذين يطعنون في التراث الإسلامي، مستخدمين في ذلك ما ورد عن بعض المُفسِّرين أن آيات القتال نسخت كل آيات الحجة والبيان[٢].

والحقُّ أنَّنا نجد لهذا التفسير أثرًا في هذه الكتابات، ففي صدر كتاب أبي عبيدة يقول: فلو لم يجب مجاهدة القوم إلا لعموم أضرارهم التي لا تُحْصى وجوهه، لَكَفى كما يجب قتل الحيوان المؤذي بطبعه، فهذا ما بدا له من جهلكم، فلستُ بمُخَاصمكم، ولا مناويكم، ولا متهم باتباع الهوى فيكم».اهـ[٣].

وقال القرطبي: «ومن أعظم ما ظهر عليهم من الفساد، فصرفوا لذلك عن

---

(٥٨٩) التعليق على الأناجيل (٧٥).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٢٠/٤٧) عن قتادة، ورجح الطبري والقرطبي وغيرهما من المفسرين عدم النسخ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ونحوها من الآيات. وقال ابن تيمية: إنه قول أكثر المفسرين.

(٣) «مقامع هامات الصلبان» (١٢٤).

التوفيق والرشاد: إنكارهم ما يدل على نُبوَّة نبينا من المعجزات، وواضح الدلالات، وقد قاربت الضرورات حتى أنكروا ما جاء في كتبهم من الأعلام على نُبوَّته، وإيجاب اتباع شريعته... ولما تبيَّن للعقلاء عنادهم، سقط لذلك إرشادهم، ووجَب حَمْلهم على السيف وجهادهم، فقد يفعل الله بالسيف واللسان ما لا يفعل بالبرهان... فأعرض العقلاء عنهم، واكتفوا من الرَّدِّ عليهم بحكاية مذهبهم، ووكلوا الناظر فيه لظهور تناقضه، وفساد معانيه».اهـ.(١).

والتعليق على ذلك من جهتين، من جهة حقيقة هذا القول وموضعه:

أمَّا حقيقته؛ فإنَّ تأمُّل الأقوال المذكورة أعلاه ونحوها يبين أنَّ طريقة من ذهب إلى هذا القول ليس الإعراض عن الحجج والبراهين، وإيثار السيف والإكراه، وإنما هو الإعراض عن مجادلة المعاند الذي تكاثرت دلائل العقل والنقل على تناقض مذهبه وضعفه، وقوة دليل مخالفه، فإذا ثبتت المعاندة، ضعفت فائدة المجادلة.

فترك الجدل عند هؤلاء ليس تنكُّبًا لطريق الحجة والبرهان، وإنما إعراضٌ عمَّن ظهر عناده، ورغم ذلك فقد خاضوا معترك الجدل والحجة حين وجدوا أنَّ هناك مَن قد يغترُّ ويتضرَّر من هذه العقائد الضعيفة كما هو عند القرطبي والخزرجي، فعلى هذا يكون هذا السبب ليس زائدًا، بل هو مردودٌ إلى القول الأول، وهو الاكتفاء ببيان القرآن دون زيادةٍ إلا قدر الحاجة.

أما عن موضع هذا القول؛ فالحقيقة أننا لا نجد له أثرًا أو ذِكرًا عند أكثر مَن

---

(١) «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام».

خاضوا في هذا الجدل، بل حتى لم يتكلفوا تقديم اعتذارٍ أو تبريرٍ لخوض هذا الجدل، بل وجدنا عند ابن تيمية -كما تقدم- بيانًا واسعًا لمشروعية الجدل، والرد على مَنْ قال بنسخه، فأَثرُ هذا القول في تحجيم الجدل موجود كما يظهر من كلام القرطبي والخزرجي، لكنه محدود كما يظهر في أكثر التصانيف، وعليه فليس هناك حجةٌ أو متعلقٌ لمن يبتغي رمي الإسلام عامةً، أو كتب التراث خاصةً، بتهمة إهمال الحجة، وإيثار السيف، سواء سلَّمنا لهذا القول أو رددناه كما بينَّا، بل موقع الحجج العقلية والنقلية في كتب المسلمين عامة معلومٌ مشهودٌ عند كل باحثٍ جادٍّ.

٥- هناك سببٌ خامسٌ يمكن أيضًا الإشارة إليه، وإن كنت لم أقف عليه إلا عند الجويني، والذي ختم كتابه بأنه لم يرد الإكثار؛ لأنَّ سيد المرسلين حين رأى عمر ينظر في التوراة، غضب منه، يشير إلى ما أخرجه أحمد في (مسنده) (١٥١٥٦) من حديث جابرٍ: «أنَّ عمر بن الخطاب أتى النَّبيَّ ﷺ بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النَّبيِّ ﷺ، فغضب وقال: (**أَمُتهوِّكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية...**)، الحديث».

فيمكن أن يضاف إلى الأسباب ورود هذا الحديث، واستنباط بعض الفقهاء منه حرمة النظر في هذه الكتب[1]، فربما يكون هذا السَّبب من أسباب الإحجام

---

(١) نص عليه الحنابلة، ينظر الكافي (٤/ ١٣٨)، كشاف القناع (١/ ٤٣٤)، وورد عند غيرهم أيضًا. ينظر الموسوعة الفقهية (٣٤/ ١٨٤).

وَإِنْ كان من الفقهاء مَنْ فصَّل في ذلك تفصيلًا حسنًا، فقال مرعي الكرمي الحنبلي بعد نقله لتحريم النظر في كتب أهل البدع وأهل الكتاب: ويتجه جواز النظر للرد عليهم. =

عن الخوض في هذا الجدل، لكن الحقيقة ليس هناك ما يدلُّ على أنه كان له أثرٌ كبيرٌ، فلم أجد مَن أشار إليه، أو صرَّح به إلا الجويني، والجعفري في (التخجيل) اعتذر عنه بنحو ما نقلنا عن مرعي وابن حجر من الفقهاء، فقال في مقدمة كتابه (٢٠): «فإن قيل: كيف استجزت النظر إلى هذه الكتب، وصحبتها محظورة، والأمة بالنظر فيها غير مأمورة، وقد نهي الصحابي عنها، وبحر منقوله عجاج، وبنية معقولة مركبة من أعدل مزاج؟

قلنا: المحظور هو النظر فيها على وجه التَّعظيم والتفخيم، وإجراؤها على ظواهرها الموهمة لا سيما للعامي الغر والحدث الغمر، فأما مَن نظر فيها على المقصد الذي قصدته، والنحو الذي أردته وأوردته، فهو -إن شاء الله- من أُمَّهات القربات، فأمَّا نَهْيه عَلَيْهِ السَّلَامُ الصحابي عن ذلك، فلأنَّ الأمر كان في ابتدائه، والشرك بَعْدُ لم يمت بدائِهِ، فلعلَّ رسول الله ﷺ رأى أن غير ذلك أَوْلَى

=

وقال شارحه الرحيباني: وقد فعله أئمةٌ من خيار المسلمين، وألزموا أهلها بما لم يُفصحوا عنه جوابًا، وكذلك نظروا في التوراة، واستخرجوا منها ذكر نبينا من محلات، وهو متجه. مطالب أولي النهى (١/ ٦٠٨).

- وقال الحافظ ابن حجرٍ بعد أن ذكر طرق حديث عمر، وعلَّق عليها: وهي وإن لم يكن فيها ما يحتج به، لكن مجموعها يقتضي أن لها أصلًا، والذي يظهر أن كراهية ذلك للتنزيه لا للتحريم، والأَوْلَى في هذه المسألة التفرقة بين مَن لم يتمكن ويصر من الراسخين في الإيمان، فلا يجوز له النظر في شيءٍ من ذلك بخلاف الراسخ فيجوز له، ولا سيما عند الاحتياج إلى الرد على المخالف، ويدلُّ على ذلك نقل الأئمة قديمًا وحديثًا من التوراة، وإلزامهم اليهود بالتصديق بمُحمَّدٍ ﷺ بما يستخرجونه من كتابهم، ولولا اعتقادهم جواز النظر فيه لَما فعلوه، وتواردوا عليه. فتح الباري (١٣/ ٥٢٦).

بالصحابة في ذلك الوقت، ولأنَّ الصحابة -رضوان الله عليهم- هم أعيان الأمة، فلو أكبوا على تلك الكتب المبدلة، والصحف المحرفة، لا شك أن يتابعهم الناس في ذلك، وقد قال عَلَيْهِ السَّلَامُ لأصحابه: (**إنكم أئمَّة يُقْتَدَى بكم**)، وقال: (**أَصْحَابي كالنُّجوم...**)، فلهذا نهى الصحابي وندبه إلى الاشتغال بالكتاب العزيز بقوله: (**لقَدَ جِئتُكُم بها بيضاء نقيَّة**)».اهـ.

فهذه أهم الأسباب التي يمكن أن تشرح سبب قلة المدونات الإسلامية في هذا الباب، والترتيب الذي ذكرته لها -في رأيي- هو ترتيبها من جهة أهميَّتها وتأثيرها، مع كون الأسباب الثلاثة الأولى متقاربة في أهميَّتها يمكنها أن تتنافس في ترتيبها وأهميَّتها، وتتبادل مراكزها في وجهات نظرٍ أخرى.

٢-الأدوات النقدية المستخدمة في الجدل:

من أهمِّ الملاحظاتِ العامَّة، والأوصاف المشتركة التي يمكن رَصْدها والإشارة إليها في هذه الجهود على اختلاف أغراضها وبواعثها وعقول مصنفيها وعلومهم- هو تنوُّع واختلاف الأدوات والوسائل المستعملة في الجدل، فلا نكاد نرى في أحد المصنفات اقتصارًا أو توقفًا على طريقةٍ واحدةٍ أو وسيلةٍ واحدةٍ، بل نلاحظ في جميعها -على تفاوتٍ سنشير له لاحقًا- جمعًا بين وسائل وأنواعٍ مختلفةٍ من الجدل، فمن جِهَةٍ نجد جمعًا بين الجدل المعتمد على التسليم، والمعتمد على المنع أو المعارضة.

فحينًا يتناول المصنفون الكتب المقدسة على أنها نصٌّ ثابتٌ مقدسٌ، ويستدلُّون بنصوصها على بطلان العقائد التثليثية، أو على إثبات النُّبوة المحمديَّة،

وتارةً أخرى يتجه المصنفون إلى معارضة التسليم بثبوت هذه الكتب، وصلاحيتها للاحتجاج، وإقامة مختلف الأدلَّة على وقوع التحريف والتغيير فيها، على اختلاف هذه الأدلة.

ثم يجمعون في النقد الكتابي بين النقد الخارجي المتعلق بافتقادها لشروط الحفظ، وضمانات الثبوت، وبين النقد الداخلي الذي يتعلق بتناقض النصوص، أو غيره من دلائل النقص أو التحريف.

ومن جهةٍ أخرى نجد جمعًا بين النقد العقلي المرتكز على بيان تناقض العقائد التثليثية مع القواطع والأدلَّة البرهانيَّة العقليَّة، وبين النقد النقليِّ الذي يعتمد على النصوص التي يقدسها القوم، وبيان تنافيها وتناقضها مع ما يعتقدون في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومن جهةٍ أخرى، نجد جمعًا بين النقد الساعي إلى النفي والإبطال ببيان فساد عقائد القوم، وإقامة الأدلة المتنوعة على عدم صحتها، وبطلان أدلتها، وبين البيان الساعي إلى الإثبات والتصحيح بإظهار الأدلَّة على صحَّة نُبوَّة مُحمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى ثبوت نسبة القرآن إلى الخالق جلَّ وعلا.

ومن جهةٍ رابعةٍ، نجد جمعًا بين الجدل الدفاعي الذي يبغي رد الشُّبهات، وتوضيح المتشابهات في النصوص والأحكام الإسلامية، وبين الجدل الهجومي الذي يبادر بطرح الأسئلة، وإظهار الإشكالات العقلية والنقلية في العقائد النصرانية واليهودية.

وهذا من حيث الجملة أو التوصيف العام، أمَّا عند التوصيف المفصل،

فإنَّنا نجد تفاوتًا بين المصنفات في هذا التنوُّع، فمنها الشامل لصور التنوُّع، وطرائق الجدل السابق ذكرها، ومنها ما قد يغلب عليه غرضٌ أو وسيلةٌ معينةٌ، وقد يكون ذلك بقصدٍ ووعيٍ، أو بغير قصدٍ.

فمن أكثر الكتب حظًّا في هذا التنوع، وأكثرها جمعًا بين الأغراض والوسائل، هو كتاب: (الإعلام) لأبي العباس القرطبي، وهو قريب من كتاب (الجواب الصحيح)، وكلٌّ منهما يفوق الآخر من وجوهٍ، وقد أشرنا إلى هذا عند تناول الكتاب.

ومن الكتب الجامعة، هو كتاب: (الأجوبة الفاخرة) للقرافي؛ فرغم أنَّ غرض المصنف كان الجواب على بعض أسئلة النصارى، فقد اشتمل جوابه على النقد الكتابي الداخلي والخارجي، والنقد العقلي، كما جمع بين ردِّ الشبهات وبين طرح الإشكالات، وذكر التساؤلات الواردة على القوم، كما اشتمل على إثبات صحة النبوة.

وقريبٌ منه في أصل الغرض والشمول: (هداية الحيارى) لابن القيم.

ومن أمثلة الكتب التي غلبت فيها أحد الأغراض:

نجد ابن حزم في (الفصل) مع وجود أغراضٍ ووسائل مختلفة في كتابه، إلا أن النقد الكتابي قد غلب عليه، حتى إن كتابه يعدُّ متقدمًا فريدًا على غيره من الكتب في هذا الغرض، كما أشير إليه في محله.

بينما على الجانب الآخر نجد الباقلاني قد أفاض في النقد العقلي، وغلب على كتابه، والسبب الظاهر لهذا هو تقدُّم الباقلاني في العلوم الكلامية، وغزارة مادته فيها.

وفي حين نرى الجويني قد أفرد المساحة الكبرى من كتابه للنقد الكتابي بأنواعه؛ لبيان إمكان ووقوع التغيير في الكتب المقدسة، فعلى عكسه، لم يعتنِ الغزالي بذلك، وإنما انصرفت مادته إلى النقد النقلي، والتشكيك في دلالة الأدلَّة الكتابيَّة على العقائد النصرانية، وإنما تشكك في صحة الترجمة في أحد المواضع.

أما الإمام الطوفي في كتابه (التعليق على الأناجيل)، فقد جمع بين الغرضين، فتناول النقد الدلالي للنصوص الكتابية التي يستدل بها على عقائد النصارى، وبيان عدم دلالتها وشرح معانيها، وبين النقد الكتابي، وإظهار ما وقع في هذه الكتب من التناقض مع بعضها، ومع قواطع العقل.

أما في (الانتصارات الإسلامية)، فقد غلب عليه رد الشبهات، وشرح النصوص الإسلامية التي تعلق بها النصارى للطعن على الإسلام، أو لإثبات معتقداتهم من نصوصه.

أمَّا الإمام ابن ربن الطبري، فكان الغالب على غرضه ومادته هو إثبات النبوة، فكان عمله في ذلك فائقًا متميزًا ومتوسعًا في مواده وأدلته على هيئةٍ نادرة الوقوع، وقريبة من طريقة ابن تيمية في كتابه، ولعل ابن تيمية استفاد من كتابه مباشرةً أو بواسطةٍ.

والحقيقة يمكن ردُّ سبب هذا التباين في المحتوى، وتنوُّع الأدوات النَّقديَّة إلى سببين رئيسين:

أحدهما: هو الغرض والباعث من التصنيف، أو محتوى الكتاب المردود عليه، فلمَّا كان ابن ربن الطبري يشرح سبب إسلامه، تركَّز عمله على شرح

علامات النُّبوة، ولما قصد الجويني إثبات وقوع التحريف، تمركز كتابه حول غرضه، وكثير من الكتابات على هذا المنوال يتأثر بمحتواها بغرض كاتبها وباعثه على التصنيف.

والسبب الثاني: هو المادة العلمية للمُصنِّفين، فالمتبحِّر في العلوم العقلية كالباقلاني غلب عليه استعمالها، والمتبحِّر في المواد النقلية الإسلامية كالطوفي فقد أطال في كتابه منها، والمتقدم في مطالعة الكتب المقدسة كالخزرجي زاد نصيبه من استعمالها على غيره، وهكذا، والموسوعي الضليع في علومٍ شتَّى تميَّز كتابه بالشمول والتنوُّع كابن تيمية والقرطبي.

٣-أدب الخطاب ولغته:

سبقت الإشارة إلى أنَّ القرآن قد اشتمل على التحريض، والحث على الدُّخول في الجدل مع أهل الكتاب، ونبَّه مع ذلك إلى شيءٍ من آداب هذا الجدل وطريقته نظرًا وعملًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ففي هذه الآيات نجد أن القرآن قد وضع الأساس النظري والعملي لأدب المناظرة، فجعل الأصل فيها أن تكون بالحسنى، قال الطبري: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ﴾، يقول: إلا بالجميل من القول، وهو الدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حججه.اهـ.

قال ابن كثيرٍ: «وقوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، أي: من احتاج منهم إلى مناظرةٍ وجدالٍ، فليكن بالوجه الحسن برفقٍ، ولينٍ، وحسنِ خطابٍ، كما قال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾، فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ حين بعثهما إلى فرعون، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]».اهـ.

ثمَّ استثنى من ذلك الأصل الظالمين، فلا يقابلون بالحسنى، قال ابن كثيرٍ: «وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾، أي: حادوا عن وجه الحقِّ، وعَمُوا عن واضح المحجَّة، وعاندوا وكابروا، فحينئذٍ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم».اهـ.

قال ابن تيمية: «فإنَّ الظالم باغٍ مستحقٌّ للعقوبة، فيجوز أن يقابل بما يستحقُّه من العقوبة، لا يجب الاقتصار معه على التي هي أحسن بخلاف من لم يظلم، فإنه لا يجادل إلا بالتي هي أحسن»[(١)].

هذا من جهة التأصيل والنظر، أمَّا من جهة التطبيق والعمل نجد أن هذه الآيات قدمت مثالًا عمليًّا على الجدال بالحسنى، فنلاحظ في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أنه قد اشتمل على الحق المحض الذي لا يخالطه شائبة مداهنة، أو موافقة للباطل، ولكنه في الوقت نفسه وضع في

---

(١) الجواب الصحيح (٣/ ٧٢).

ألطف صورةٍ، وأدعاها للقبول.

قال ابن تيمية: «فإنَّ هذا من الجدال بالتي هي أحسن، وهو أن تقول كلامًا حقًّا يلزمك، ويلزم المنازع لك أن يقوله، فإن وافقك وإلا ظهر عناده وظلمه»(١).

فهذه الآياتُ تُرْسي أساسًا متينًا، مفاده أنَّ الجدال بالحسنى لا يعني مداهنة الباطل، أو موافقته في شيءٍ قط، بل هو عرض للحق المحض المجرد الذي لا تشوبه شائبة.

ومن جهةٍ أخرى، فإن عرض الحق والانتصار له لا يلزم أن يكون على صورةٍ يضيق بها المخالف تثير حفيظته للعناد، بل ينبغي أن يكون عرض الحق في ألطف صورةٍ وأنسبها وأدعاها للقبول، كأنها تستدعي ما في نفس سامعها من بقايا الفطرة، وصرائح العقول، فينجذب إلى قبولها.

ولا يتعارض ذلك مع قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: ٦٤]، ونحوها من الآيات التي يظهر فيها التغليظ والتوبيخ؛ لأنَّ هذه الآيات في مقابلة ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: ٥٨]، و﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، فهذا الخطاب من العقوبة المشروعة في مقابلة البغي والظلم أو الكفر الذي يصدر عن أهل المكابرة والمعاندة منهم، كما سبقت الإشارة إليه.

وبجمع النُّصوص يتَّضح نظرًا وعملًا أدب الجدل مع أهل الكتاب

---

(١) الجواب الصحيح (٣/ ٨٢).

وقاعدته، وهي الحسنى إلا للظالمين منهم.

ثم يعنينا هنا أن نتساءل عن الجدل الإسلامي في الحقبة محلِّ البحث، هل كان متوافقًا مع القاعدة القرآنية السابقة أم لا؟

إذا أردنا أن نشير إشارةً عامةً إلى لغة الخطاب المستعملة في الجدل، يمكننا أن نُميِّز بين ثلاثة أنماطٍ متمايزةٍ من لغة الخطاب:

الأولى: هي اللُّغة المفرطة في الحدة الموغلة في التقبيح والتوبيخ؛ كتلك التي نراها عند الإمام ابن حزمٍ الأندلسي الذي كان يشفع نقده دائمًا بالإزراء والتوبيخ الشديد على أرباب المقولات التي يحكيها، وعلى واضعي النصوص التي يراها منحولةً مزيفةً، بل بلغ في نقده إلى رَمْي أصحاب الأناجيل الأربعة المعتمدة عند النصارى بتعمُّد الكذب.

وهو مبلغ ليس معتادًا في الكتابات النقديَّة الإسلامية لتوقُّفه على إثبات صحة مقدمات يتعذَّر إثباتها، مثل ثبوت صحَّة النقل إلى أصحاب الأناجيل، وثبوت صحَّة الترجمة، ونحو ذلك.

ولذا من النادر أن نرى اتهام كتاب الأناجيل أنفسهم بالكذب عند غير ابن حزمٍ من العلماء، والظاهر أن هذه اللغة الحادَّة من جوانب شخصية الإمام ابن حزم حتى في جدله مع الفرق الإسلامية، بل حتى في الخلافات الفقهية الفروعية، وفي ترجمته المذكورة هنا، وفي أكثر المصادر إشارةً إلى هذا الجانب من شخصية الإمام.

ونرى قريبًا من هذه اللُّغة في كتاب أبي عبيدة الخزرجي، خاصةً في مقدمة كتابه، وأبو عبيدة كان أسيرًا في يد النصارى حين صنَّف كتابه، فصدور هذه

اللهجة منه ظاهر السبب(١).

الثانية: على العكس من هذا نجد اللُّغة الهادئة الليِّنة البريئة تمامًا من التقبيح والتجريح، وهذه نلاحظها عند الإمام أبي الوليد الباجي في رسالته إلى راهب فرنسا، وعند ابن ربن الطبري في (الدين والدولة)، وغيرهما، ويمكن إدراج كتاب الجواب الصحيح في هذا القسم.

الثالثة: بين هاتين المرتبتين نجد بعض المصنفين قد استخدم لغةً مشتملةً على بعض عبارات الإزراء والتوبيخ، ولكن الجامع بينها أنها غالبًا تكون في سياق الرَّدِّ على كتب أو رسائل من أهل الكتاب سبقت بالإساءة إلى المسلمين، أو الانتقاص من عقائدهم، فيأتي الرَّد عليها مشتملًا على ما يناسب هذه الإساءة من التوبيخ، بَيْد أنها لا تكون موغلةً في التقبيح والتجريح، بل آخذة بطرفٍ يسيرٍ منه على هامش الجدل.

وهذا نراه مثلًا عن القرطبي في (الإعلام)، والقرافي في (الأجوبة الفاخرة)، وابن القيم في (هداية الحيارى)، وغيرهم.

والظاهر أن القسمين الثاني والثالث ليسا متنافيين أو متغايرين، بل منزلين على حالين:

الأول: هو المقام الأصلي المحمود في الجدال، وهو الجدال بالحسنى

---

(١) ولقد جعل الشرفي محقق كتاب «المقامع» نشرية الجامعة التونسية في مقدمته هذه اللغة الحادَّة هي القاعدة المطلقة -أو تكاد- في المصنَّفات من هذا النوع.

وهي دعوى استقرائيَّة، لا يمكن قبولها إلا مع أدلةٍ كافيةٍ، وهو مفقود هنا، والظاهر أنها مبالغة لا تحقيق فيها، كما سَيتبيَّن من الأمثلة المذكورة هنا.

حيث لا يكون هناك مقتضٍ لغيره.

والثاني: هو حال المقابلة للظلم والبغي.

وهذا القسمان -كما يظهر- ليسا خارجين عن القاعدة القرآنية التي تقدم شرحها، بل هما توزعا على قسميها، وهذان القسمان يشتملان على الغالب الأعم من الكتابات الجدلية في الحقبة محل البحث، ولم يشذَّ عنها إلا القليل، وعليه يمكن أن القول أن طريقةَ علماء المسلمين في الجدل في الحقبة محل البحث متناسبةٌ مع القاعدة القرآنية، وليست خارجةً عنها إلا في النادر، خلافًا لمَن زعم أن الشَّتم والسَّبَّ كان هو القاعدة المطلقة لهذه الكتابات.

الفصل الرابع

أهمية دراسة هذه الكتابات

من الأسئلة التي قد يثيرها تناول هذه المصنفات بالدراسة، هو سؤال الجدوى والأهمية، فهل من ضرورةٍ وأهميةٍ لتناول هذه المصنفات بالدراسة، أو الاختصار أو الشرح أو الضبط؟

والحقيقة: أن تناول هذه الكتابات بالدراسة ونحوها له وظائف وفوائد كثيرة، بعضها مباشر متعلق بالمحتوى العلمي لها، وبعضها عرضي يستنبط منها، وإنْ لم يكن مقصودًا عند واضعيها.

فمن فوائدها المباشرة: هو ما احتوت عليه من مادةٍ جدليةٍ وأدواتٍ نقديةٍ يحتاج إليها كلُّ مشتغلٍ ومهتمٍّ بهذا العلم من جهة غزارة مادتها وقوتها، ومن جهة أثرها في تقوية القوى العقلية والمَلَكات النقديَّة.

وهذا يضعنا أمام جدل المقارنة بين هذا المخزون التراثي الإسلامي في مقارنة الأديان، وبين الجهود المعاصرة في هذا الباب، خاصَّةً في الغرب الَّذي خطا بعلم النقد الكتابي خطوات واسعة، ووصل فيه إلى نتائج كثيرة لم يسبق إليها، فهل مثل هذا العمل المعاصر يغني عن الجهد التراثي، ويحل محله؟

ومثل هذه المقارنة تحتاج إلى دراسةٍ خاصةٍ، لكن يمكن القول هنا على سبيل الإجمال أن هناك فروقًا كبيرةً بين العمل التراثي الإسلامي والعمل الغربي المعاصر، سببُهُ اختلاف الغرض، فالعمل التراثي الإسلامي ليس عملًا

علميًّا محضًا، بل هو مع ذلك عمل ديني يهدف إلى تزييف العقائد الباطلة، وتثبيت وتأييد العقائد الصحيحة بخلاف العمل الغربي، فقد خرج عن الإطار الديني إلى إطار العلوم الإنسانيَّة التي تهدف إلى البحث المجرد.

وبسبب هذا الاختلاف يمكننا أن نلاحظ أن العمل التراثي الإسلامي قد تنوَّع في وسائله ومباحثه، واشتمل على مباحث إما أنها لم تنل عنايةً بالكلية، أو عنايةً كافيةً في البحوث الغربية المعاصرة، مثل مباحث النقد العقلي الذي يعرض كليات العقائد النصرانية على الأدلة البرهانية، والقواطع العقلية.

وكذلك النقد النقلي الذي يتناول بالنظر والنقد الاستدلالات النصرانية من الكتب المقدسة على أصولهم العقديَّة، وكذلك المباحث المتعلقة بدلائل النُّبوة والبشارات الكتابيَّة التي بشَّرت بخاتم النَّبيِّين ﷺ وأصحابه، وأرض العرب، فهذه المباحث وما يُشْبهها التي اشتملت عليها الكتابات التراثية الإسلامية ليس لها مساحةٌ مماثلةٌ في الدراسات الغربية بسبب اختلاف الغرض.

أما المباحث المشتركة مثل النقد الكتابي بأنواعه، فلا شكَّ أن الدراسات الغربية قد توسعت فيها إلى غايةٍ لم تسبق إليها، ووصلت فيها إلى نتائج دقيقةٍ ومفصلةٍ عن أماكن وأزمنة ولغات كتابة كثيرٍ من أسفار الكتب المقدسة.

وتنوَّعت وسائل البحث ومناهجه وأغراضه ما بين مدارس النقد النَّصي والنقد المصدري والنقد الأدبي والنقد الشكلي وغيرها، ففي هذا الباب لا يمكن إنكار تفوُّق البحث الغربي المعاصر من جهة دقَّة وتنوُّع الوسائل المستخدمة في البحث، ودقَّة وغزارة النتائج المتحصلة منه، لكن يمكن الإشارة

إلى أنَّ لهذا التفاوت أسبابه الظاهرة، منها بالطبع التفاوت الكبير بين المادة والمعطيات المتوفرة للباحث المعاصر من مخطوطات ووسائل حديثة مبتكرة في البحث، وبين ما كان متوفرًا في البحث القديم.

ومنها أيضًا اختلاف الغرض، فقد كان غرض الباحث المسلم إثبات إمكان ووقوع التحريف اللفظي والمعنوي في الكتب المقدسة لإثبات صحة العقائد الإسلامية دون أن يعتني بتحديد مكان وزمان وطريقة وقوع التحريف، بخلاف الباحث الغربي الذي يهدف إلى تحصيل أكبر قدرٍ من المعلومات، ولا يقتصر على غرضٍ بعينه.

ومن الأمور التي تحتاج إلى دراسةٍ وبحثٍ في سياق هذه المقارنة، هو مدى أثر هذه الكتابات التراثية في الكتابات الغربية الحديثة، فقد أشار كثيرٌ من الباحثين إلى أن علماء المسلمين كان لهم أثرٌ بليغٌ على رُوَّاد مدارس النقد الكتابي من الغربيين المعاصرين، وخاصةً ابن حزم -وستأتي الإشارة لذلك- وإنْ كانت دعوى مثل هذه تحتاج إلى دراسةٍ أكبر، وأدلةٍ أكثر حتى يمكن إضافة هذا العلم لقائمةٍ طويلةٍ من العلوم كان لعلماء المسلمين فيها مقام الأستاذية والسبق.

أما إذا أردنا عَقْد مقارنة إجمالية مماثلة بين العمل التراثي والعمل الإسلامي المعاصر في باب مقارنة الأديان، سنرى أنه على الرغم من غزارة وكثافة المادة المعاصرة في هذا الباب مقارنة بالكتب التراثية إلا أن العمل التراثي من جهة أصالة وقوة محتواه، ومن جهة رزانة لهجته، وتنوُّع مباحثه ووسائله، يفوق العمل المعاصر، بل إن كثيرًا من الكتابات المعاصرة هي إعادة

تكرار وإنتاج لبعض ما تناولته الكتب التراثية، لكن بجودةٍ أقل، ولا ينفي ذلك وجود دراساتٍ جادةٍ ومبتكرةٍ في هذا المجال في العصر الحديث، لكن لا يعني ذلك أنها تضاهي أو تنافس العمل التراثي، أو يمكن الاستغناء بها عنه.

فيمكن القول أنَّ العمل التراثي في هذا الباب يشبه العمل التراثي في سائر أبواب العلوم الشرعية، يتعذَّر الاستغناء عنه، وليس في العمل المعاصر ما يصلح أن يحلَّ محله، بل بقدر تحقق المعاصر بهذا الجهد التراثي وتضلُّعه منه بقدر ما يكون لعمله من رزانةٍ وأصالةٍ، فهو أصلٌ لابد من الإتقان له، والصدور عنه، ثم لا مانع بعد ذلك من تطويره، والبناء عليه.

أمَّا البحث الغربي، فمع الاعتراف بفائدته، وإمكان الاستعانة به، والاستفادة منه، ولكنه -لاختلاف الغرض كما سبق- مشاركٌ للأعمال التراثية في بعض الأبواب، وليس شاملًا لكلِّ ما فيها من المباحث والوسائل، فلا يمكن دعوى الاستغناء به، والوقوف عنده.

أما من جهة الفوائد غير المباشرة، فهناك نتائج وفوائد شتى يمكن استنتاجها من دراسة التراث الإسلامي في هذا الباب، منها: استنتاج واستشراف صورة العقل المسلم، والمراحل التي مرَّ بها، وأثر الوحي الإلهي عليه، فكما تقدم فإن علم مقارنة الأديان من العلوم التي يتعذَّر عزوها لمصادر خارجية كما هو الحال في بعض العلوم الفلسفية والتجريبية كالطب والفلك وغيرها التي لها موردها اليوناني المعلوم، وإنما كان دور المسلمين هو النقل، ثم النقد، والإضافة والتعديل.

وهذا على النقيض من علم مقارنة الأديان، أو علم مصطلح الحديث، أو

علم العلل، أو علم أصول الفقه ونحوها من العلوم التي كان للعقل المسلم فيها فضلٌ كبيرٌ؛ إما في ابتكارها أصلًا، أو الابتكار فيها دون اعتمادٍ على مصادر خارجية، وعليه: فإن دراسة هذا الجهد التراثي هو أصدق تعبير عن صورة العقل المسلم ونشاطه، وأثر الوحي الإلهي عليه، فقد سبقت الإشارة إلى أن الوحي هو المورد الأساس الذي تأسس منه هذا العلم، واستمدَّ منه وسائله، وكثيرًا من مادته وطريقته.

فالحقبة محل البحث تظهر كيف أن العقل المسلم كان متوهجًا، له نصيب وافر من القوة العقلية، والمَلَكة النقدية، أما دراسة فترات تالية في نفس الباب، سيظهر كيف ضعفت هذه القوة، وانتقلت إلى النقل والاختصار والجمع أكثر من النقد والابتكار، كما قال بعض الباحثين: كان علم مقارنة الأديان في السبعة قرون الأولى من عمر الحضارة الإسلامية علمًا احتكر المسلمون الإبداع فيه... لكن مع بداية السبعة قرونٍ التالية من الثامن الهجري إلى الرابع عشر، جاءت مجموعة من العلماء اقتصرت جهودهم على الشرح والتلخيص والتجميع.اهـ[(١)].

وهذا أيضًا في الحقيقة يحتاج إلى دراسةٍ وافيةٍ مفردةٍ، تستعمل تاريخ وصورة هذه العلوم الإسلامية المبتكرة في رَصْد التحوُّلات التي مرَّ بها العقل المسلم.

ومن الفوائد غير المباشرة لدراسة هذه الأعمال: هو رصد صورة الجدل الديني بين المسلمين والنصارى في البلاد الأخرى على هامش الصراع العسكري، أو بين المسلمين وأهل الذمة المقيمين بين أظهرهم، وهو ما يُمثِّل

---

(١) «فلسفة الدين» محمد عثمان الخشت (٣٤).

أهميةً في التأريخ الديني والاجتماعي والثقافي للمسلمين وغيرهم.

وفي ختام هذا التمهيد:

فإنَّه يمكن القول أنَّ هذه الكتابات التراثية لم تلقَ حتى الآن ما تستحقُّه من العناية والدراسة، أولًا على جانب التحقيق والإخراج، فإنَّ البعض منها لم يخرج إلى عالم المطبوعات بعد، والكثير منها طبع لكن على صورةٍ أقل مما يستحقها من الضبط والإخراج.

ورغم تعدُّد الدراسات والرسائل العلمية عنها، فإنَّ هذه الكتابات ما زالت تحتاج إلى المزيد من الدِّراسات التي تتناول بالبحث جميع جوانبها وفوائدها المباشرة وغير المباشرة، وتتناول أوجه المقارنة بينها وبين بعضها، أو بينها وبين الأعمال المعاصرة، ونحو ذلك من ميادين البحث.

وأخيرًا:

فإن عملي في الفصول الآتية من الرسالة هو تناول هذه الكتابات بالوصف المختصر للمحتوى والمنهج بعد الإشارة المختصرة إلى ترجمة مصنفها، وتحقيق اسم الكتاب، وسيراعى في ذلك ترتيبها على سنة الوفاة، مع ملاحظة أنَّ بعضها هو كتابات مستقلة مخصصة لهذا الجدل، والبعض منها هو فصول في كتابات تتناول غير أهل الكتاب بالدراسة والجدل.

البَابُ الثَّانِي

جهود علماء المسلمين

في جدال الكتابيين إلى نهاية القرن الثامن

١

الباقلاني

نبذة عن المصنف:

هو الإمام أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم البصري، ثم البغدادي، ابن الباقلاني.

قال الخطيب البغدادي: «فأما علم الكلام، فكان أعرف الناس به، وأحسنهم خاطرًا، وأجودهم لسانًا، وأوضحهم بيانًا، وأصحهم عبارةً، وله التصانيف الكثيرة المنتشرة في الرد على المخالفين من الرافضة، والمعتزلة، والجهمية، والخوارج، وغيرهم»(١).

قال ابن تيمية: «وهو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري، ليس فيهم مثله، لا قبله، ولا بعده»(٢).

قال الذهبي: «وكان ثقةً إمامًا بارعًا، صنَّف في الرد على الرافضة، والمعتزلة، والخوارج والجهمية والكرامية، وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري، وقد يخالفه في مضائق، فإنه من نظرائه، وقد أخذ علم النظر عن أصحابه»(٣).

قال ابن العماد: «وكان ورعًا، لم تحفظ عنه زلة، ولا نقيصة، وكان باطنه

---

(١) تاريخ بغداد (٣/ ٣٦٤).

(٢) شذرات الذهب (٥/ ٢١).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٩٠).

معمورًا بالعبادة، والديانة، والصيانة»[١].

من أشهر كتبه: (التمهيد)، (الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به)، (إعجاز القرآن)، (التقريب والإرشاد).

تُوفِّي سنة ثلاثةٍ وأربعمائةٍ:

اسم الكتاب:

الباب الثامن والأبواب من الثاني عشر إلى الخامس عشر من كتاب (التمهيد)[٢] للإمام أبي بكر الباقلاني.

وصف الكتاب:

تناول المصنف في هذا الفصل بعض المقولات الكبرى عند النصارى التي يقوم عليها مذهبهم بالنقد والتفنيد عن طريق مساءلة المخالف واستنطاقه بحيث يقول: لِمَ قلتم كذا؟ ثم يذكر ما يمكنهم ذكره من أجوبةٍ أو أدلةٍ، في صيغة: فإن قالوا... ثم يجيب عليها.

فبدأ بقولهم: «الله جوهر»، وبيَّن أنَّ اعتمادهم في ذلك على قياس الغائب على الشاهد، ثم تناول هذا القياس بالنقد، وبيَّن أنه قاصرٌ في باب الإلهيات.

ثمَّ تناول دعواهم حول الأقانيم الثلاثة، وسألهم حول حصرهم في هذا

---

(١) شذرات الذهب (٥/ ٢١).

(٢) طبع الكتاب طبعته الأولى باسم «التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والخوارج والمعتزلة»، وذكر في كثيرٍ من المصادر المتأخرة بعنوان «تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل»، لكن لم أعثر على دليلٍ ظاهرٍ على هذين الاسمين، وإنما المذكور عند أكثر من ترجم للباقلاني أو نقل عنه «التمهيد» فقط، فالله أعلم.

العدد، فإن ردُّوا ذلك إلى الصفات -وهي الوجود والحياة والعلم- فهذا محض تحكُّم لوجود صفاتٍ أخرى كالقدرة والسمع والبصر والكلام، فلزم أن تزيد الأقانيم على ثلاثٍ.

ثم سألهم حول الأقانيم، وهل هي الجوهر أم غيره؟ فبدأ بذكر جواب اليعقوبية والنسطورية من جانب الَّذين سيقولون: ليست غير الجوهر، فألزمهم بأنَّ ما يثبتونه من تباينٍ وتعددٍ في الأقانيم يخالف اتحاد الجوهر، وما اختص به بعضها كاتحاد أقنوم الابن بالجسد، يلزم منه أنَّ الجوهر غير المختلف ولا المتباين هو نفسه مختلف ومتباين، وهو تناقض.

أمَّا الملكية، فسيقولون: الجوهر غير الأقانيم، فألزمهم بأن يكون الإله أربعةً، فإن نفوا إلهية الجوهر، فقد صار إثباته كنفيه، ثم يمكن أن يكون الروح والعلم مع الإله واحدًا.

ثم ذكر اختلافهم في معنى الأقانيم، فمن قال: إنها صفات، قُوبِلَ باستحالة كونها صفات لنفسها، فَتعيَّن أن تكون لغيرها، فتعيَّن إثبات أربعة معانٍ، وإن قالوا: صفات لنفسها، فهذا جهلٌ عظيمٌ، ومَن قال: إنها أشخاص، فإن كانت أشخاصًا لنفسها، تركوا قولهم، وإن قالوا: لجوهرٍ جامعٍ، تركوا التثليث، ثم إذا كانت الأقانيم جوهرًا واحدًا، فلم اختص الابن والروح بأنها للآب؟ ولِمَ لَمْ يكن كل منهما أبًا مع كونهما قديمين، والأب ليس سابقًا عليهم.

ثم تناول اختلاف عباراتهم حول الاتحاد، فمن قائلٍ بالحلول، وآخر بالامتزاج، وآخرون بانقلاب الكلمة لحمًا ودمًا، وآخرون قالوا: كظهور صورة

الإنسان في المرآة بغير حلول وظهور نقش الخاتم في الطين. وقال آخرون: حلول بغير مماسَّة كحلول العقل في الجوهر.

ثم تناول كل هذه التشبيهات بالنقد، فصورة الوجه لا تحلُّ في المرآة، ولا تنتقل إليها، وظهور نقش الخاتم هو شيءٌ غير الخاتم، فما في الشمع هو جزءٌ منه، وما في الخاتم هو جزءٌ منه، ومَن قال بالمخالطة والامتزاج ألزمه إنْ أجاز حلول الكلمة مع قدمه، فتجوز كل صفات المحدث من الظهور والكمون والحركة والسكون، فيجوز حينها القدم على سائر الأجسام، والقائلون بالاستحالة إلى لحمٍ ودمٍ ألزمهم بجواز انقلاب القديم إلى محدثٍ، والعكس، ثم تناول سائر التشبيهات على طريق الإلزامات.

ثم تناول الاتحاد من جهة كونه فعلًا، هل له فاعل؟ فإن قالوا: لا، لجازت الأفعال والحوادث بلا فاعلٍ، وهم لا يقولونه، وإن قالوا: له فاعل، فهل هو الجوهر أم الأقانيم أو هي دونه أو هو دونها أو واحد منها؟ لو قيل: الجوهر معها أو دونها، للزم حلولهم في الجسم، وإن قيل: بل أقنوم الابن، فهو إثباتٌ لانفراد أحد الأقانيم بالفعل، فما المانع من انفراد غيرها بالفعل، فيلزم التمانع، وإذا جاز للأقانيم الانفراد بالفعل، فليس الجوهر أَوْلَى منها، وليس كونها أقانيم له أَوْلَى من كونه أقنومًا لها.

ثم أيضًا أورد على اتحاد الابن فقط لزوم التباين والانفصال، وكذلك يلزم ذلك من قولهم: مريم ولدت الابن دون الأب والروح.

ثمَّ سألهم حول الاتحاد: هل كان موجودًا عند القتل والصَّلْب؟ فإن قالوا:

لا، تركوا قولهم، وإن قالوا: نعم، فالابن قتل وصلب، فيجب أن يكون قد مات، كما قتل وصلب، فلا يجوز حينها أن يكون إلهًا، ويلزم حينها جواز القتل على الأب والروح.

ثم سألهم: لِمَ زعمتم اختصاص اتحاد الكلمة بالمسيح دون غيره من الأنبياء؟ فإن احتجوا بالمعجزات، فلِمَ لا يجوزون أن يكون الله هو فاعلها على الحقيقة، وإنما أظهرها على يد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كسائر الأنبياء؟ وَلِمَ لا يكون موسى متحدًا بالكلمة لما أظهره من الآيات والعجائب؟ فإن فرَّقوا بأنَّ موسى أُوتِيَ ذلك بعد دعائه ورغبته. قيل: وكذلك عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يدعو ويبتهل كما في قوله: «ربِّ، إن كان في مشيئتك أن تصرف هذه الكأس عن أحدٍ، فاصرفها عني»، «يا أبي، أدعوك كما كنت أدعوك فتستجيب لي»، «إلهي إلهي، لم تركتني»، فإن قالوا: فعل ذلك تعليمًا، أو بناسوته فقط.

قيل: وكذلك موسى، فإن قالوا: الأنبياء صرَّحوا بإنسانيتهم. قيل: وكذلك المسيح صرَّح بإنسانيته، فإن قالوا: صرَّح بناسوته. قيل: وكذلك الأنبياء، فإن احتجوا بولادته المعجزة. قيل: يجب أن يكون آدم إلهًا وأَوْلَى؛ لأنه بغير أُمٍّ أو أبٍ، ولم تَحْوه بطن، وكذلك حواء والملائكة.

ثمَّ ذكر بعض النُّصوص الأخرى التي يستدلُّون بها مثل: «أنا وأبي واحد»، «مَنْ رآني فقد رأى أبي»، «أنا قبل إبراهيم»، وبيَّن ما فيها من التجوُّز في العبارة، وتعذر حملها على ظاهرها.

ثم بدأ المصنف الباب الثاني عشر بذكر بعض معتقدات فرق اليهود، فذكر

الشمعنية ومعتقدهم أنَّ نسخ الشرائع وإرسال نبيٍّ بعد موسى جائز عقلًا، ممنوع سمعًا؛ لورود النَّصِّ في التوراة بمنعه، أما العنانية فأحالوا النسخ من جهة العقل، والنسخ مؤكد له، ومنع أكثرهم النسخ قبل وقت الفعل، أمَّا السامريَّة فأقرَّت نُبوَّة موسى وهارون ويوشع، وأنكرت نُبوَّة غيرهم، وأقرَّ الباقون بنُبوَّة سائر الأنبياء، إلا محمد وعيسى فأنكروها، أما العيسوية فجعلوا رسالة محمدٍ وعيسى هي إلى قومهما فقط، وليس فيها تبديل شريعة موسى.

ثمَّ بدأ الاحتجاج عليهم جميعًا بمساءلتهم عن الدليل عن صحة أعلام نُبوَّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعجزاته، مع تكذيب البراهمة والمجوس وغيرهم لها، فإن قالوا: نقل الكافة عن الكافة من اليهود، وهذا يفيد العلم، ولا يقدح فيه مخالفة أحد، فيقال لهم: فكيف تنكرون صحة نُبوَّة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد نقل أعلام نُبوَّته الكافة عن الكافة الذين يمتنع الكذب عليهم.

فإن قالوا: لو كان كذلك، لعلمنا صدقه ضرورةً. قيل: وكذلك لو صدق ما تدَّعيه اليهود، لَعلمه البراهمة ونحوهم اضطرارًا. فإن قيل: يعلمونه، ولكن ينكرونه. قيل: كذلك اليهود والنصارى.

فإن قيل: بل اتفاق الملل الثلاث على أعلام نُبوَّة موسى دليل ثبوته بخلاف محمد وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فأَجَاب بتكذيب غيرهم كالمجوس والبراهمة.

فإن قيل: لا يدلُّ بنفسه على الكذب. فقيل: وكذلك لا يدلُّ على الصدق، وكذلك فإنَّ اتفاق المسلمين والعيسوية على أعلام محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو اتفاقهم مع النصارى على أعلام نبوة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا يدل عندهم، وكذلك لو توقف

إثبات أعلام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على اتفاق الملل الثلاث، للزم عدم ثبوتها، وقيام الحجة بها قبل وجودهم.

ثمَّ إن زعموا أنَّ المسلمين إنَّما حملهم على نقل أعلام النُّبوَّة السيف، طُولبوا بالدليل، ويقال أيضًا: أليس قتل المرتد من شريعة موسى، فَلِمَ لا يكونوا هم أيضًا قد حملوا على نقل الأعلام بالسيف. فإن قالوا: لا إكراه عندنا على ذلك، إنَّما على البقاء على الدين، لا على الدخول فيه، ولا على نقل أعلامه، فيقال: وكذلك المسلمون.

ثمَّ ذكر بعض ما اشترطه كثيرٌ منهم في الخبر ليوجب العلم، مثل اختلاف بلد الناقلين، واختلاف نسبهم، وتختلف دواعيهم، ونحو ذلك، فبين بطلان هذه الاشتراطات لحصول العلم من الخبر.

فإن ادَّعوا القطع بصحة خبر قتل المسيح وصلبه، فأجيب بأن النقل مأخوذٌ عن أربعةٍ، وخبرهم لا يفيد العلم(١)، وأجيب بأن المنقول أن شخصًا قتل وصلب، وهم توهَّموا أنه المسيح، مثل هذا لا يفيد العلم.

ثم انتقل في الباب الثالث عشر إلى مناقشة المنكرين لنسخ شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من جهة السمع دون العقل، فذكر ما احتجُّوا به من المنقول هو قول

---

(١) يقصد: رواة الأناجيل الأربعة، هذه من الجدال بالتسليم، وإلا فإن اثنين منهم ليسا من أصحاب المسيح بالإجماع، والآخران هناك خلافٌ وشكٌّ في كونهما من أصحابه كما نوَّهنا عليه في غير هذا الموضع، وعلى التسليم بأنهما من أصحابه، فليس هناك ما يثبت أنهما أو أحدهما قد حضر واقعة القتل والصلب، فالمنقول أنَّ أصحاب المسيح لم يشهدوا حادثة القتل والصلب، بل هربوا جميعًا، كما في مرقس (١٤/ ٥٠).

موسى: «هذه الشريعة مؤبدة عليكم، ولازمة لكم مادامت السماوات والأرض، لا نَسْخ لها، ولا تبديل»[(١)]، ثمَّ أورد عليهم احتمال ألَّا يكون صحيحًا، واحتمال أن يكون مخصوصًا بما إذا ظهرت المعجزات على يد مَن يدَّعي نسخها وتبديلها، فإن أجابوا بوجوب حمل الخبر على عمومه لنقل أهل التواتر له، فأجابهم بتكذيب هذه الدعوى؛ لأنَّها لو ثبتت، لحصل العلم الضروري بهذا القول، وهو ليس بحاصلٍ.

ثمَّ ذكر أنَّ غيرهم من اليهود يجعلون المنقول في هذا الباب هو قول موسى: «إنْ أطعتُمُوني فيما أمرتكم به، ونهيتكم عنه، ثبت مُلْككم كما ثبتت السماوات والأرض»[(٢)]، وليس في هذا تعرضٌ لنفي النسخ، أو تأبيد شريعة موسى.

ثم ضعف دعواهم الضرورة في هذا المنقول أيضًا بأن لسان موسى هو العبرانية، فلابد أن هذا المنقول بالعربية هو ترجمة عنه، والنقل يدخل فيه الخطأ والتحريف.

ثم إن قالوا: بماذا استدللتم على منع النُّبوة بعد محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأجاب بالخبر الوارد: «**لا نبيَّ بعدي**»، ثم فرق بين هذا الخبر المنقول، وبين المنقول عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بوجوهٍ:

منها: أنَّ خبر محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ منقول بلفظه، لا بترجمةٍ وتفسيرٍ.

---

(١) ظاهر كلام المصنف أن هذا نصٌّ منقولٌ متوارثٌ بينهم، وليس في كتبهم المقدسة.

(٢) في سفر التثنية (٤/ ١) قريب من هذا: «فالآن يا إسرائيل اسمع الفرائض والأحكام التي أنا أعلمكم لتعملوها، لكي تحيوا وتدخلوا وتمتلكوا الأرض التي الرب إله آبائكم يعطيكم».

ومنها: أن خبر محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقترن خبره بما يقتضي وجود نبيٍّ بعده، بخلاف خبر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي اقترن بوجوب تصديق الأنبياء بعده، وقد صدق اليهود بنُبوَّة يوشع وحزقيال وغيرهم.

ثم انتقل في الباب الرابع عشر إلى مناقشة الذين يُحِيلُون النسخ من جهة العقل، فذكر حُجَّتهم على المنع، وهو أنَّ الله إذا أمَرَهم بشيءٍ، دلَّ على أنه مصلحة، فكيف ينهى عنه بعدها، وإذا نهاهم عن شيءٍ فهو مفسدةٌ، فكيف يأمرهم به بعد، فأجاب المصنف بأنه على التسليم بما بَنَوْا عليه، وهو لا يقول به[1] بأنَّ ذلك إنَّما يكون إذا نهى عن الشيء المأمور به قبل امتثاله، أما نهيه عن مثل المأمور به في وقتٍ آخر، ليس من ذلك؛ لأن مثله هو غيره.

وضرب المثل على ذلك بأنَّ الطعام والشَّراب والعلاج بالكيِّ صواب ومصلحة عند الجوع والعطش والمرض، ثم يكون قبيحًا ومعصيةً عند الري والشبع والسلامة، فلا يمتنع مثل ذلك في العبادات المنسوخة.

ثم إن احتجُّوا على المنع بلزوم البداء[2] من النسخ، وهو مُحالٌ على الله

---

(١) قصد المصنف أنَّ هذه الحجة مبنية على القول بأن للأشياء حسنًا وقبحًا في ذاتها، وأن الشرع يأتي على وَفق ذلك، فيأمر بالحسن، وينهى عن القبيح، وهذا القول هو قول المعتزلة، ووافقهم عليه بعض أهل الحديث وأتباع الأئمة؛ كالزنجاني والسجزي والصيرفي وأبي الخطاب وابن تيمية وابن القيم وغيرهم، مع وجود خلافٍ بين القائلين به من عدة وجوه، أما المصنف وأكثر أتباع الإمام أبي الحسن الأشعري لا يقولون به، بل الحسن والقبح تابع لحكم الشرع، وليس للأشياء حسن وقبح في ذاتها، لذا فجوابه هنا مبنيٌّ على التسليم بهذا الأصل مع كونه لا يقول به.

(٢) «**البداء**»: ظهور الرأي بعد أن لم يكن. التعريفات (٤٣).

تعالى، كان الجواب عنه ما تقدَّم؛ لأن النهي عن الشيء في غير وقته ليس بنهيٍ عنه، فالنهي عن العمل في السبت ليس بنهيٍ عنه في الأحد، ثم ذكر أنه حتى لو قلنا بجواز النسخ قبل الامتثال، فلا يلزم البداء؛ لجواز أن تكون المصلحة متعلقةً بذلك.

ثم ساءلهم عن إماتة الجسم بعد إحيائه، وسقمه بعد صحته، ونحوه: ما المانع أن يكون من البداء؟ فإن قالوا: بل ذلك أصلح لهم. قيل: فَلِمَ أنكرتم ذلك في التكاليف؟

ثم انتقل المصنف في الباب الخامس عشر إلى مناقشة العيسوية الذي يزعمون أن محمدًا وعيسى عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ إنَّما بُعِثَا إلى قومهما، ولم يُبْعثا بنسخ شريعة موسى.

فيُقَال لهم: إذا أوجبتم تصديق محمد وعيسى في النُّبوة، فيلزم تصديقهما في أنَّهما بعثا إلى الناس كافة، وبنسخ شريعة موسى، فإن كانا كاذبين في هذا الخبر، جاز كذبهما في سائر الأخبار، وهذا يبطل النُّبوة.

فإن قالوا: لا نكذبهما، بل نكذب النقل عنهما. قيل: لو جاز الكذب في الناقلين عنهما، لجاز الكذب عليهم في نقل أعلام نُبوَّتهما، وجاز على اليهود أيضًا، ونَقَلة البلدان والسير، وهذا يبطل الأخبار جملةً.

ثم رد المصنف على الخرمدانية القائلين بتواتر الرسل(١) بأنه نقل عن مُحمَّدٍ عَلَيْهِالسَّلَامُ: «لا نبيَّ بعدي»، فهل صدق الناقلون عنه أم لا؟ فإن قالوا:

---

(١) أي: بعدم انقطاع الرسالة.

صدقوا، أبطلوا نُبوَّة الأنبياء بعد محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وإن قالوا: كذبوا، فما المانع أن يكونوا كذبوا في نقل أعلام النُّبوة، ولجاز ذلك على اليهود والنصارى، وعلى نَقلَة أعلام أيِّ نبيٍّ، ولَبطل أصل دينهم.

منهج المصنف:

غلب على المُصنِّف الجدل العقلي حول الأصول الكلية الكبرى لعقيدة النصارى، عن طريق مساءلة خصومه، وبيان ما يلزمهم من الباطل على أي وجهٍ يكون ردُّهم، وسبب ذلك هو تقدم الباقلاني في علم الكلام، وبروزه فيه، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك.

وكان المصنِّف يتحرَّى الدقة فيما يفترضه من ردودهم، فيُعدِّد الردود المفترضة التي لن يخرج عنها أقوالهم في الغالب، وكان أيضًا ينوِّع في الردود باختلاف الفرق، فيفترض ردًّا لليعقوبية خلاف ردِّ الملكية، خلاف النسطورية، بناءً على مذاهبهم، وقد نال الملكية النصيب الأكبر من ردوده ومناقشاته.

ولم يستعمل المُصنِّف الجدل النقلي أو الاحتجاج بالمنقولات إلا مواضع قليلة حين ذكر حجج النصارى على اتِّحاد الكلمة بالمسيح دون غيره من الأنبياء، فذكر بعض النُّصوص الدَّالَّة على تضرُّع المسيح لربِّه وإنسانيَّته، وتعرَّض لبعض النصوص الأخرى التي يحجون بها لبيان وجه التجوُّز فيها، وتعذُّر حملها على الظاهر.

ولم يشتغل الباقلاني بالنقد الكتابي أو إثبات التحريف اللفظي في الكتاب المقدس، بل ناقش حجيَّة ما يحتجون به من النصوص على طريق التسليم

بصحة منقولاتهم.

وتركَّز جدل المُصنِّف مع فرق اليهود حول قضية إمكان النسخ، وإرسال رسالةٍ تاليةٍ وناسخةٍ لشريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكر حجج القائلين بمنعه عقلًا، ثم سمعًا، واستعمل معهم طريقته في الجدل العقلي، واستعمال الأدلة العقلية، والتوسُّع في افتراض الاعتراضات والردود عليها وتفنيدها، وتناول في بحثه بعض المباحث المتعلقة بالتواتر وشروطه، ثم ناقش المنكرين لعموم رسالة محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا لأصلها، واستعمل هنا حُججًا نقليةً مع الجدل العقلي؛ لأن الخصم مُقِرٌّ بنبوة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ وصدقه، لكنه منكرٌ لعموم رسالته.

٢

الباجي

نبذة عن المصنف:

هو الإمام أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد[١] بن أيوب بن وارث التجيبي، الأندلسي، القرطبي، الباجي.

وُلِدَ سنة ثلاثٍ وأربع مائة.

قال القاضي عياض: «كان أبو الوليد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقيهًا نظارًا محققًا راويةً محدثًا، يفهم صيغة الحديث ورجاله، متكلمًا أصوليًّا فصيحًا شاعرًا مطبوعًا، حسن التأليف، متقن المعارف»[٢].

وقال: «وبلغني أن أبا محمد بن أبي جعفر وأبا محمد بن حزم الظاهري على بُعد ما بينهما كان يقول: لم يكن للمالكية بعد عبد الوهَّاب مثل أبي الوليد رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[٣].

قال الصفدي: «وصنَّف (المنتقى في الفقه والمعاني) في شرح الموطأ عشرين مجلدًا، لم يؤلف مثله، وكان قد صنَّف كتابًا كبيرًا جامعًا بلغ فيه الغاية، سمَّاه كتاب: (الاستيفاء)، وكتاب (الإيماء في الفقه)، و(السراج) في الخلاف لم يتم، (مختصر المختصر) في مسائل المدونة، و(اختلاف الموطآت)، و(الجرح

---

(١) كذا عند ابن عساكر والذهبي والصفدي وابن خلكان وغيرهم، وفي ترتيب المدارك (سعدون).

(٢) ترتيب المدارك (٨/ ١١٩).

(٣) السابق.

والتعديل)، و(التسديد إلى معرفة التوحيد)، و(الإشارة) في أصول الفقه، و(أحكام الفصول في أحكام الأصول والحدود)، و(شرح المنهاج) و(سنن الصالحين) و(سنن العابدين) و(سبل المهتدين) و(فرق الفقهاء) و(تفسير القرآن) لم يتم، و(سنن المنهاج) و(ترتيب الحجاج)»(١).

مات سنة أربعٍ وسبعين وأربع مائةٍ.

اسم الكتاب:

هي رسالة كتبها الباجي ردًّا على رسالة راهب فرنسي، وليس مصنفًا مستقلًّا.

وصف الكتاب:

أصل الرسالة أن راهبًا فرنسيًّا أرسل رسالةً إلى المقتدر بالله أمير سرقسطة يدعوه فيه إلى دينه، وجملة ما جاء في الرسالة هو شرح طرفٍ مما يعتقده النصارى في المسيح، ثم الدعوى بأن الشيطان لمَّا عجز عن إرجاع الناس إلى ضلالهم القديم، أغوى بني إسماعيل بنُبوَّة الرسول ﷺ ليأخذهم إلى الجحيم، ثم يدعوه الراهب إلى إيثار النجاة، واتباع المسيح، وكلُّ هذا بلهجة تعظيمٍ بالغٍ للأمير، وإظهار حرصٍ شديدٍ على هدايته، ودون استعمال أيِّ لغةٍ برهانيةٍ أو إشارةٍ للأدلة المصححة لقوله.

فيبدو أنَّ الأمير انتدب الإمام أبا الوليد الباجي للرد على الراهب، فأرسل أبو الوليد رسالةً يرد بها على الراهب، فبدأ رسالته بلهجةٍ لينةٍ تصف الراهب بالحرص على الخير، والرغبة في الحق، وأنه لولا بُعْد مستقرِّه لكان جديرًا

---

(١) فوات الوفيات (٢/ ٦٤).

بعرض الحقِّ عليه، وإيصاله إليه، ثم ذكر سبب ردِّه عليه، وهو كثرة مراسلاته، وطريقة ردِّه، وهي الإنذار والإعذار مع الرِّفق والتَّبيين.

ثمَّ انتقل للجدل الديني، فتكلَّم على استحالة كون عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلهًا لظهور دلائل الحدوث عليه من التغيُّر والانتقال والموت، ثم أشار إلى أن ولادة عيسى لا تقتضي ربوبيته وإلا كان آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَوْلَى بذلك.

ثم أشار إلى ضعف الاستدلال بالمعجزات على الألوهيَّة؛ لأنها ليست مختصَّةً بالمسيح، بل جرت على يد غيره من الأنبياء، كما أن الآيات لا تجوز المحال، أو تجعل القديم محدثًا.

ثم أشار إلى معرفة المسلمين وعلمائهم بعقائد النصارى واختلاف أقوالهم، ثم بيَّن أن بعض ما في رسالته يخالف عقائد قومه؛ كقوله: «لا ينبغي الإيمان بغير المسيح»، وهذا فيه كفرٌ بأقنوم الأب.

ثم -وكأنه يتعقَّب لهجة العاطفة التي استعملها الراهب- أشار إلى أنَّ أهل كل ملةٍ يسكنون إلى ما هم عليه، ولكن وضع الكلام ونشره وتمييزه يُعْلي الحقَّ.

ثمَّ أشار إلى أن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي بذل دمه -بزعمهم- لأجل الخلاص، لم يؤمن به إلا العدد القليل بخلاف غيره من الأنبياء كمحمدٍ وموسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، فلو كان إلهًا لَخلقهم مؤمنين، ولمنعهم من معصيته، ولو كان يعلم الغيب، لم يبذل دمه فيما لم يحصل له، ثم كيف تثبتون له الدم وهو من صفات الأجساد المخلوقة، وكيف تثبتون له الموت؟!

ثم أشار إلى التناقض بين قولهم: هو ابن الله، وبين جعله من نسل داود.

ثم أشار إلى التناقض في نسب المسيح بين إنجيلي متَّى ولوقا.

ثم انتقد الرواية الإنجيلية حول فتنة الشيطان لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودعوته إلى عبادته، والمفترض أنَّ عيسى إلهه، وخالقه، والقادر على إهلاكه في معتقدهم.

ثم أشار بعد ذلك لبعض دلائل نُبوَّة مُحمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كالمعجزات الحسية، والإخبار بالمغيبات الماضية والآتية من غير مدارسة كتابٍ، ولا مذاكرة أصحابٍ.

ثم تكلم عن إعجاز القرآن من جهة التحدي به لجميع العرب والعجم، ومن جهة فضيلة شرائعه، وما أمر به من الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة بالعدل والإحسان... ونهى عن الفواحش والمنكرات والظلم والطغيان.

ثمَّ أشار إلى نوعٍ آخر من الدلائل النبوية، وهو أخلاقه عَلَيْهِ السَّلَامُ من الاجتهاد في العبادة والشجاعة والزُّهد، ولو جاز الكذب عليه، لَجَاز على عيسى وموسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ فإننا عرفنا صدقهم بما جرى على أيديهم من الآيات، وآياتُ محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ أبينُ وأوضحُ.

ثم ختم رسالته بموعظة الراهب، ودعوته إلى مسالك النجاة، والخلاص له ولأتباعه في الآخرة.

منهج المصنف:

يبدو للناظر في الرسالة أن الباجي لم يقصد إلى تأليف كتابٍ، وإنما كان يكتب رسالةً بما يجود به خاطره، وتسمح قريحته، ولذا لم يظهر أن هناك ترتيبًا مقصودًا فيها، ولكن مع هذا طاف المصنف في مختلف المباحث التي يتناولها

الخائضون في الجدل مع النصارى، فتحدَّث عن بطلان عقيدة النصارى، وضعف أدلتهم على أصولهم، وتناقض كتبهم، ثم أشار إلى بعض دلائل النبوة باختصارٍ.

وكما طاف بين المواضيع، طاف بين مختلف طرائق الاستدلال، فاستخدم النقد العقلي، والنقد الكتابي، والاستدلال العقلي على النُّبوَّة.

كان الغالب على المُصنِّف استعمال الرفق واللين، وإظهار الحرص على دعوة مخالفه وهدايته، ولم يتناوله بالتعنيف والتشنيع، وإنْ كان أَزْرَى على عقله وفهمه في مواطن، ولكن أيضًا بلغةٍ هادئةٍ، وانتقد على طريق الإشارة اللهجة العاطفية المجردة عن الاستدلال التي استعملها الراهب في رسالته.

٣

ابن حزم

نبذة عن المصنف:

هو الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح، الفارسي الأصل، ثم الأندلسي القرطبي، الفقيه الحافظ، المتكلم، الأديب، الوزير، الظاهري، صاحب التصانيف، مولده سنة أربعٍ وثمانين وثلاثمائةٍ بقرطبة.

قال ابن أبي نصرٍ الحميدي -وهم ممَّن سمع منه: «كان حافظًا عالمًا بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسُّنة، متفننًا في علومٍ جمةٍ، عاملًا بعلمه، زاهدًا في الدنيا بعد الرِّياسة التي كانت له ولأبيه من قبله من الوزارة، وتدبير الممالك، متواضعًا ذا فضائل جمَّة، وتواليف كثيرة في كلِّ ما تحقَّق به في العلوم، وجَمَع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات شيئًا كثيرًا، وسمع سماعًا جمًّا».اهـ[(١)].

قال ابن كثير: «والعجب كل العجب منه أنه كان ظاهريًّا حائرًا في الفروع، لا يقول بشيءٍ من القياس؛ لا الجلي، ولا غيره، وهذا الذي وضعه عند العلماء، وأدخل عليه خطأً كبيرًا في نظره وتصرفه، وكان مع هذا من أَشدِّ الناس تأويلًا في باب الأصول، وآيات الصفات، وأحاديث الصفات، لأنه كان أولًا قد تضلَّع من علم المنطق، أَخَذه عن محمد بن الحسن المذحجي الكناني القرطبي، ذكره ابن

---

(١) جذوة المقبس (١٨/ ١٨٥).

ماكولا وابن خلكان، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، ففسد بذلك حاله في باب الصفات»[١].

قال الذهبيُّ: «وفي الجملة، فالكمال عزيز، وكل أحدٍ يؤخذ من قوله ويُتْرك إلا رسول الله ﷺ، وكان ينهض بعلوم جمَّة، ويجيد النقل، ويُحْسن النَّظم والنَّثر، وفيه دينٌ وخيرٌ، ومقاصدُهُ جميلةٌ، ومصنَّفاته مفيدة، وقد زهد في الرئاسة، ولزم منزله مُكبًّا على العلم، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه، وقد أثنى عليه قبلنا الكبار.

قال أبو حامدٍ الغزالي: وجدتُ في أسماء الله تعالى كتابًا ألَّفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه، وسيلان ذهنه.

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفةً مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر، والمعرفة بالسير والأخبار».اهـ[٢].

من أشهر كتبه: (المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار)، (الإحكام لأصول الأحكام)، (مراتب الإجماع)، (التقريب لحد المنطق)، وغيرها كثيرٌ.

وكانت وفاته سنة ستٍّ وخمسين وأربع مائةٍ.

اسم الكتاب وموضوعه:

(الفصل في الملل والأهواء والنحل)[٣].

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ١١٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٧).

(٣) وقد اختلف الكُتَّاب المعاصرون في ضبط كلمة «الفصل» في عنوان الكتاب، فبعضهم يضبطها بكسرٍ، ثم فتحٍ، ويقولون: إنها جمع فصلة، وهي القطعة التي تنقل لغير موضعها، وإليه ذهب الشيخ محمد أبو زهرة وغيره.

ويعضهم يضبطها بفتح فسكون بمعنى الحق أو القطع بين مختلف الأقوال، ويستدلون لذلك بوجوهٍ، منها: ملائمته لموضوع الكتاب، ولطريقة ابن حزمٍ في مسائل الدين التي يكثر فيها في الحسم والقطع.

قصد به مُصنِّفه حكاية أقوال الفرق الإسلامية والملل والأديان غير الإسلامية، ثم تتبع هذه الأقوال وتفنيد الباطل منها بالحجج والبراهين النقلية والعقلية، وعقد فصولًا في كتابه عن اليهود والنصارى مجادلًا لهم، محتجًّا عليهم.

وصف الفصول المتعلِّقة بمجادلة أهل الكتاب:

بدأ المُصنِّف كلامه على اليهود بذكر افتراقهم إلى خمس فرقٍ، وهي (السامرية، والصدوقية، والعنانية والربانية والعيسوية)، ثم ذكر معتقداتهم باختصارٍ، ثم تناول اختلافهم حول النسخ، وأنَّ منهم مَنْ منع وجوده، ومنهم مَنْ أجاز وجوده، ومنع وقوعه.

وحُجَّة مَن منع وجوده: هو أنَّ ذلك لو جاز، لانقلب الحق باطلًا، والطاعة معصيةً، ثم أبطل قولهم من وجوهٍ، منها: الاستدلال بأفعال الله تعالى الذي يحيي ويميت ويعز ويذل، وتبدل أحوال الناس، فمنهم من يكون عدوًّا حلال الدم، ثم ينقلب وليًّا يحرم قتله، واحتج عليهم بالشرائع المؤقتة كتحريم السبت، وينقلب الحال وتصير الطاعة معصيةً، وعكسه بانقضاء الأجل، ثم احتج عليهم ببعض ما كان جائزًا في شرائع الأنبياء السابقين، ثم نسخ في شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مثل جمع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بين الأختين، ثم تحريمه في شريعة موسى، وغير ذلك.

ثمَّ احتجَّ على الطائفة التي تمنع وقوعه بأنَّ أعلام نُبوَّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا تحصَّلت عند غيره، وجب تصديقه.

ثمَّ احتجَّ على الفرق اليهودية -حاشا السامرية- بأنهم في تكذيبهم لعيسى

ومحمد كالسامرية في تكذيبهم الأنبياء بعد يوشع، وَإنْ زعموا أنهما لم يأتيا بالمعجزات، فقد بان كذبهم، مبينًا رواية الكافة لمعجزات محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم تناول عَجْز العرب عن معارضة القرآن، ثم منع أن يكون ذلك لعلوِّ بلاغته، وإنما عجزهم لأنَّه حِيلَ بينهم وبين ذلك، وذكر بعض اعتراضاتٍ على دلالة الآيات وجوابها.

ثمَّ احتجَّ على العيسوية من اليهود بأنَّ تصديق مُحمَّد عَلَيْهِ السَّلَامُ في نُبوَّته تستلزم تصديقه في بعثته للناس كافَّة، وفي نسخ ما هم عليه.

واحتج على مَن أقرَّ بنُبوَّة بعض الأنبياء بأنهم إذا احتجوا على نُبوَّتهم بالمعجزات، فمعجزات محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ أكثر وأصح نقلًا.

ثم عقد فصولًا لإثبات وقوع التناقض والكذب في التوراة والأناجيل، فذكر نصوصًا توراتيةً؛ إما يقطع بكذبها أو تناقضها، منها على سبيل المثال: ما في تكوين «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا»، والله تعالى ليس كمثله شيء، وما ينسب إلى الله «هذا آدم قد صار كواحدٍ منا»، وما يلزمه من تعدد الآلهة، وما فيها من أن «أولاد الله اتخذوا نساءً من بنات آدم»، ومنها: اضطرابات في حساب عُمُر والد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأبنائه وغيرهم، ومدة استعباد بني إسرائيل في مصر، ومنها: قصة لقاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالملائكة، وسجوده لهم، وقصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ومضاجعته لابنتيه بزعمهم، ونسبة أوصاف لا تليق بمقام الألوهية لله تعالى والأنبياء.

ثمَّ تناول طرفًا من تاريخ ملوكهم وأنبيائهم بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ليشرح من خلاله أنَّ بني إسرائيل ارتدُّوا مرَّات عديدة إلى عبادة الأوثان، واستحلال

الفواحش، فكيف يدعون أنَّ كتاب الله بقي معهم بلا تغييرٍ.

ثم تطرَّق إلى الكتب المنسوبة إلى الأنبياء بعد موسى، وذكر بعض دلائل وقوع التغيير فيها، وبعض أخبار يمتنع نسبتها إلى الله تعالى والأنبياء، فذكر كتاب يوشع والزبور، وكتب سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: الأمثال والجامعة ونشيد الأنشاد، وكتاب حزقيا، وأشعيا.

ثم ذكر اعتراضات على المسلمين في دعواهم تحريف التوراة، منها: أن الأنبياء لا يقرُّون على الباطل، وكذلك بأن في القرآن إقرارًا بالكتابين، واستشهادًا بهما، وكذلك المسلمون ينقلون منها صفة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فأجاب بأنَّ أنبياء بني إسرائيل كانوا إما مقتولين، وإما مطرودين لا يسمع لهم، كما أنه لا يلزم أن يبعث النبي بتصحيح كتاب مَنْ قبله، وبأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ علَّمه الله التوراة بنص القرآن، ولكن لم يبق ذلك بعده، وبأنَّ إقرار القرآن إنما هو بالتوراة التي أنزلها الله على موسى والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، والزبور الذي أنزله الله على داود، وغيرها من الكتب، لكن نقول: إن كفار بني إسرائيل غيَّروا فيها وبدَّلوا، وأما استشهاد القرآن والمسلمين بما في هذه الكتب إنما هو بما بقي فيها على حاله بغير تبديلٍ.

ثم تناول طرفًا من الأخبار المنقولة عن أحبارهم في كتبهم المعظمة، وما تشتمل عليه من الأخبار التي يمتنع صدقها، إمَّا لاشتمالها على المُحَال، وإما لنسبتها لله تعالى ما لا يليق به.

وختم هذه الفصول بقوله: «واعلموا أنَّنا لم نكتب من فضائحهم إلا قليلًا من

كثير، ولكن فيما كتبناه كفاية قاطعة في بيان فساد كلِّ ما هم عليه، وبالله التوفيق».

ثم انتقل بعد ذلك إلى فصولٍ تتناول النصارى وكتبهم، فبدأ بذكر هذه الكتب على سبيل الإجمال، وذكر أنَّ بيان فساد دينهم وتحريف كتبهم لا يحتاج إلى تَكلُّفٍ؛ لأنَّهم لا يدعون في كتبهم أنها من الله أو المسيح، بل يتفقون على أنها تواريخ أَلَّفها رجال معروفون في أزمان مختلفة[1].

ثم عقد فصلًا لإثبات الخلاف بين التوراة التي يؤمن بها اليهود، والتوراة التي عند النصارى؛ ليبطل بذلك تعلُّق النصارى بنصوص التوراة لإثبات عقائدهم؛ لأنهم إن صدقوا بنقل اليهود للتوراة، فقد شهدوا على آبائهم بالكذب في نقل التوراة، وإمَّا أن يكذبوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم لا يقولون به، وإمَّا أن يكذبوا اليهود في نقلهم، فيبطل تعلقهم بما في التوراة من المنقولات.

ثمَّ شرع في ذكر ما يقطع بكذبه وتناقضه في الأناجيل، فذكر نصوصًا عديدةً مما يستدل به على وقوع الكذب أو التناقض في الأناجيل:

منها: الاختلاف في نسب المسيح بين الأناجيل وبعضها، وبينها وبين كتب العهد القديم.

---

(١) لكنهم مع ذلك يعتقدون أنها كتبت بإلهامٍ أو إشرافٍ أو عنايةٍ من الروح القدس الذي هو أحد أقانيم الإله عندهم، ولذلك يدَّعي كثير منهم عصمة الكتاب، واستحالة وقوع الخطأ فيه، كما قال فندر القس الشهير: «... الأنبياء والحواريين وإن كانوا قابلي السهو والنسيان في جميع الأمور، لكنهم معصومون في التبليغ والتحرير».اهـ. من إظهار الحق (١/ ٣٩).
وقال صاحب كتاب المرشد إلى الكتاب المقدس (٢١٦): «وهذه البشائر الأربعة كتبت بعناية الروح القدس وإرشاده».

ومنها: حكاية اختبار إبليس للمسيح، فلو كان المسيح منقادًا له، فهي منزلة دنيا، وإن كان مُكْرهًا فهي منزلة المصروعين، وحاشا الأنبياء من ذلك.

ومنها: التناقض بين قول المسيح: «ما جئت لأنقض أحكام التوراة»، وبين نسخه لبعض أحكامها، ثم نسخ بولس لكثيرٍ من أحكامها.

ومنها: تسمية يهوذا في الحواريين الذين أعطاهم المسيح سلطانًا لشفاء المرضى، والتحليل والتحريم، فإمَّا أن يكون علم خبث طويته، وأعطاه ذلك، وإما أن يكون جهل ذلك، وكلاهما لا تصح نسبتُهُ للإله.

ومنها: التناقض بين النصوص التي تنفي النعيم الحسيَّ في الآخرة وبين التي تثبتها.

ومنها: نفي المسيح لمعرفته بموعد الساعة، وهو ما يتنافي مع دعوى ألوهيته.

ومنها: التناقض في خبر اللِّصَّين اللَّذين صُلبا مع المسيح حيث جعلهما متَّى ومرقس من أعداء المسيح، بينما جعل لوقا أحدهما فقط كذلك.

ومنها: التناقضات في قصة قيامه، وإتيان النساء لقبره.

وذكر أيضًا نصوصًا تنفي الألوهية عن المسيح؛ كقوله: «مَن سبَّ ابن الإنسان، يغفر له»، وتوجه المسيح إلى الله بالدعاء. وقوله: «لأنِّي لَستُ أنفذ إرادتي، بل إرادة أبي الذي بعثني»، وتناقض هذا مع نصوصٍ أخرى توهم الحلول، مثل قوله: «مَنْ رآني فقد رأى الآب»، «أنا في الآب، والآب فيَّ»... إلى غير ذلك من النصوص التي إما يظهر كذبها أو تناقضها، لتعارضها مع بعضها،

أو مع قواطع العقل.

وتطرَّق -في أثناء ذلك- لذكر الحواريين، وأن الحواريين الذين يعظمهم المسلمون ليسوا هم الحواريين الذين يسميهم النصارى بذلك، ونسب حواريي النصارى إلى الكذب والكفر والغلو في المسيح.

ثمَّ انتقل إلى ما في كتبهم الأخرى -غير الأناجيل- من الكذب والكفر، وذكر نصوصًا من رسائل يوحنا وبولس وغيرهما تشتمل على ما لا يليق بالله تعالى، ولا الأنبياء، ونسخ الختان، وشرائع التوراة، ونفى ما يُحْكى عن الحواريين من المعجزات؛ لأنَّ المعجزة لا تكون إلا لنبيٍّ(١)، ولابد من ثبوتها بنقلٍ يقطع العذر(٢).

---

(١) هذه من اختيارات الإمام ابن حزم، إنكار ما يروى من كرامات الصالحين، كما نص عليه في مواضع من كتابه هذا.
بينما طريقة جمهور المنتسبين للسُّنَّة من أهل الحديث والأشاعرة وغيرهم هو إثبات كرامات الأولياء، والإنكار على مَنْ أنكرها وردَّها كما روي عن الإمام أحمد وغيره، وروى كثيرٌ من أهل الحديث طائفةً من هذه الكرامات بأسانيد بعضها صحيح لا مطعن فيه تقوم به الحجة؛ كالإمام اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة»، والخلال في جزء مفرد وغيرهما، وأدخلها بعضهم في معجزات الأنبياء، ودلائل صدقهم، كما فعل ابن تيمية في «الجواب الصحيح»، والقرطبي في «الإعلام».

(٢) قد يسلم هذا في معجزات الأنبياء لتوقف ثبوت النبوة على ثبوتها، فلابد أن تنقل نقلًا قطعيًّا لا يداخله احتمال، أما كرامات الأولياء فهي لإيناسهم وتثبيتهم، والشهادة لما هم عليه من الحق، ونحو ذلك، وهذه الأغراض لا تفتقر للنقل القطعي، وأيضًا هذا الطريق لو صحَّ لنفي كرامات الحواريين، فلا يصحُّ لنفي كرامات الصالحين من أُمَّة محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لحصول القطع من مجموع أسانيدها، وجملة مروياتها وإن لم يحصل من كل واحدٍ منها.

ثم ذكر المُصنِّف بعض اعتراضاتٍ لهم وجوابها، ومنها: الثناء القرآني على الحواريين وأتباع المسيح، وأجاب: بأن الله لم يسمهم، وليس في القرآن ما يدل على أنهم متَّى ويوحنا.

ومنها: الخلاف في القراءات ومصاحف الصحابة، وأجاب: أن القراءات كلها منقولةٌ عن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ ومُنزَّلةٌ، وأما ما لا تجوز القراءة به من الوارد عن الصحابة، فهو محمولٌ على الوهم، وأبطل وضعف قول مَن يقول: إنَّ مصحف عبد الله بن مسعود خلاف مصحف الكافة، وكذا من زعم أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبطل قراءات صحيحة.

ثم بعد تزييفه للمنقول في الكتب المقدسة، وإثبات وقوع الخطأ والكذب فيها، تناول وجوه النقل عند المسلمين لكتابهم ودينهم، فذكر نقل الكافَّة عن الكافة، ونقل الآحاد الثقات، وهذا هو ما يعتمد عليه في الدين، وذكر المرسل والضعيف، والصحيح المنقول عن الصحابة ومَنْ دونهم، وهذا اختلف المسلمون في الأخذ به، وهو صفة النقل عند اليهود والنصارى.

وختم فصوله المتعلِّقة باليهود والنصارى بالإشارة إلى معجزات محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودلائل نبوَّته، فذكر بعض المعجزات، وكثرة أتباع النبي محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ وسيرته، وغير ذلك.

منهج المصنف:

غلب على نقد المُصنِّف إثبات وقوع التحريف اللفظي في الكتب المقدسة، وإضعاف الثقة بالمنقول منها؛ سواء في ذلك العهد الجديد أو القديم، وذكر أدلة

كثيرة متنوعة على هذا، وقد بلغ ابن حزم في هذا مبلغًا فريدًا؛ من جهة عمق وقوة النقد الذي وجَّهه للنصوص المقدسة، ومن جهة تنوُّع الأدوات التي استعملها في هذا النقد، ولذا عدَّه كثيرٌ من المعتنين بالنقد النَّصي رائدًا في هذا المجال، كما أطلق عليه «لابوليه» مؤرخ الأديان الفرنسي: رائد هذه الدراسات في الفكر الإنساني كله[(١)].

بل رجَّح صاحبا كتاب (اتِّجاهات نقد العقد القديم) تأثر «فلهاوزن» أهم أعلام دراسات النقد المصدري للكتاب المقدس بابن حزم، وأن نقده المصدري قد أخذه منه مباشرةً[(٢)].

وقالا: ويتَّصف عمل ابن حزمٍ في نقد العهد القديم بالشمولية في الموضوع والمنهج، فقد غطَّت العملية النقدية التي قام بها العهدين القديم والجديد، كما اشتملت على كلِّ اتجاهات النقد الرئيسة، وأهمُّها: النقد النصي والمصدري والأدبي واللغوي والتاريخي والديني والأخلاقي[(٣)].

فقد جمع ابن حزمٍ في منهجه بين النقد الخارجي، وإثبات انعدام شروط حفظ وصيانة النَّصِّ المقدَّس من التحريف ببراعةٍ شديدةٍ واستقراءٍ واسعٍ لتاريخ بني إسرائيل، وبين النقد الداخلي وتفحُّص هذه النصوص واستخراج ما فيها من الأدلة الظاهرة على وقوع الأخطاء التاريخية والدينية والتناقضات والمحالات.

---

(١) «بين ابن حزم واسبينوزا» محمد عبد الله الشرقاوي (١٨).

(٢) ينظر «اتجاهات نقد العهد القديم». د.محمد خليفة حسن، د.أحمد محمود هويدي (٦٥).

(٣) السابق (٤٥).

ولكن مع ذلك يمكن رَصْد بعض أوجه التباين بين منهج النقد عند ابن حزم، وبين غيره من النقاد المسلمين:

منها ما يتعلق بالنتائج، فلم يتوقف ابن حزم عند إثبات وقوع التحريف، بل تجاوز ذلك إلى رمي رواة الأناجيل أنفسهم بتعمُّد الكذب، واستبطان الكفر، وبالغ في ذم الكتب وكُتَّابها.

وهذا القدر ليس معتادًا عند علماء المسلمين في جدلهم مع النَّصارى، بل يعدون كتبة الأناجيل ككتبة التاريخ الذين يقع في كتابتهم الصواب والخطأ، وفسَّروا الألفاظ المتشابهة في هذه الكتب التي قد تُوهِمُ الحلول وغيره من العقائد الباطلة بالمحكم الذي ينفي ذلك، أمَّا الإمام ابن حزم فجعل هذه الأخطاء والمتشابهات دليلًا على نسبتهم إلى الكفر والكذب(١).

ومع كون فصول ابن حزم في هذا الكتاب من أوسع المصادر في ذكر أدلة وأمثلة وقوع التحريف اللفظي في الكتب المقدسة، وعنده من أدلَّة وقوع التحريف وأمثلته ودقائقه ما لا تجده عند غيره، إلا أنه لم يتطرَّق للأنواع الأخرى من النقد إلا اختصارًا، مثل النقد العقلي، وإثبات التحريف المعنوي، ومخالفة عقائدهم للمنقول في كتبهم، ونحو ذلك، في حين نجد أنَّ الغالب على

---

(١) وقد يقال: إنَّ التهمة التي ذهب الإمام إليها تحتاج إلى شروطٍ لم تستوف، وانتفاء موانع لم تنتف، منها: أن يثبت أنَّ ما وقع من أخطاء هذه الكتب كان على سبيل العمد، وأن النُّسَّاخ والمترجمين قد أصابوا في نقلهم وترجمتهم، وهذا لا سبيل لمعرفته؛ لنُدْرة المعلومات عن كُتَّاب هذه الكتب، ولانعدام الأخبار عن النُّسَّاخ والمترجمين، فالأَوْلَى الاقتصار على نسبة هذه الكتب إلى الخطأ والتشابه الذي يضعف الثقة، والاعتماد عليها لا أكثر.

علماء المسلمين هو التنوُّع، والجمع بين أنواعٍ مختلفةٍ من النقد، وعدم الاقتصار على إثبات التحريف، حتى إنَّ ابن تيمية في (الجواب الصحيح) لم يَعْتنِ بإثبات وقوع التحريف اللفظي، وإنما كان يذكره إجمالًا وعرضًا، بينما على العكس من ذلك نجد ابن حزم جعل أصل جدله هو إثبات وقوع التحريف، ولم يعرج على غيره إلا اختصارًا وعرضًا.

ومنها: أنَّ الغالب على لغة الإمام ابن حزم هي الحدة الشديدة، والمبالغة في الذم والتوبيخ، بينما نجد أن الغالب على كتب علماء المسلمين في هذا الباب هو ترك المبالغة في التوبيخ والتقريع، ومن توجد لديه هذه المبالغة، فغالبًا ما تكون ردًّا على البادئ بذلك معاملةً له بالمثل، كما فعل القرطبي في (الإعلام)، وغيره.

والظاهر أنَّ هذه الحدة ليست متعلقةً بهذا الكتاب أو مختصةً بالجدل مع النصارى، بل هي من جوانب شخصية الإمام ابن حزم حتى في بحثه الفقهي مع مخالفيه من المجتهدين المسلمين، وبحثه العقدي مع الفرق الإسلامية كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

٤

الجويني

نبذة عن المصنف:

هو إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني الشافعي، وُلِدَ سنة تسع عشرة وأربعمائة.

قال أبو سعد السمعاني: «كان أبو المعالي إمام الأئمة على الإطلاق، مجمعًا على إمامته شرقًا وغربًا، لم ترَ العيون مثله»(١).

وقال الإمام الشيرازي: «تمتعوا بهذا الإمام؛ فإنه نزهة هذا الزمان»(٢).

وكان الجويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأسًا في علم الكلام، ولكن كثر النقل عنه بالندم على بعض ذلك.

قال السمعاني: «قرأت بخطِّ أبي جعفرٍ: سمعت أبا المعالي يقول: قرأت خمسين ألفًا في خمسين ألفًا، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها، وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وغُصْتُ في الذي نهى أهل الإسلام، كل ذلك في طلب الحقِّ، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فَإِنْ لم يدركني الحق بلطيف برِّه، فأموت

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٦٩)، وقال السمعاني في الأنساب (٣/ ٤٣٠) عن إمام الحرمين: «إمام وقته، ومن تغني شهرته عن ذكره».اهـ.

(٢) طبقات الشافعيين (٤٦٨).

على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله، فالويل لابن الجويني.

وقال **الفقيه أبو الفتح الطبري**: دخلنا مجلس أبي المعالي في مرضه، فقال: اشهدوا عليَّ أني قد رجعت عن كل مقالةٍ تخالف السلف، وأني أموت على ما تموت عليه عجائز نيسابور.

وقال **الفقيه غانم الموشيلي**: سمعت الإمام أبا المعالي الجويني يقول: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ، ما اشتغلت بالكلام»[(١)].

توفِّي سنة ثمانٍ وسبعين وأربع مائةٍ.

اسم الكتاب:

(شفاء الغليل في بيان وقوع التبديل)[(٢)].

وصف الكتاب:

بدأ المُصنِّف كتابه بذكر السبب الذي حمل علماء المسلمين على القول بوقوع التبديل في التوراة والإنجيل، وهو ما ورد صريحًا في القرآن من اشتمال الكتابين على ذِكْرِ سيد المرسلين.

ثم ذكر الدفع الذي احتج به اليهود على عدم وقوع التبديل، وهو أن التبديل مشروط بالإمكان، والإمكان مشروط بما يتعذَّر حصوله، وهو العلم بحصر

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٧١)، وطبقات الشافعيين لابن كثير (٤٦٨).

(٢) هذا هو العنوان الذي ذكره المصنف في خاتمة رسالته، بينما طبع الكتاب أكثر من طبعة بعنوان: «شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل».

نسخ التوراة والإنجيل كلها، وإجماع كلِّ أفراد الفرقتين ومَنْ فيهم من الزُّهَّاد والعلماء وغيرهم على تغيير شرائعهم، وإفساد عبادتهم، وهذا غير ممكنٍ، علاوةً على ما بين الفرقتين من العداوة والتباين وعدم الانقياد.

ثمَّ ذكر الخلل في هذه الحجة، فشرح أنَّ التوراة قد فقدت بعد فتنتهم مع بختنصر، ثم كتبها عزرا الكاتب، فالتبديل حينها ممكن منه، أو من ناسخها من نسخته.

ثم ذكر اتفاق الفرقتين على وقوع التبديل، فكلٌّ منهما تدَّعي على الأخرى تبديل ما بين يديها من الكتب، وهذا إجماعٌ منهما على وقع التبديل في الكتب.

ثم انتقل المُصنِّف لما يمكن تسميته: دليل الوقوع، فذكر بعض ما وقع له من التناقضات بين النسخ التي بأيدي اليهود وتلك التي في أيدي النصارى[1].

فممَّا ذكره أنَّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ولد شيث حين أتى عليه مائة وثلاثون سنةً في توراة اليهود، ومائتان وثلاثون في توراة النصارى، وهكذا ورد الخلاف بينهما في عمر إنجاب شيث لأنوش، وإنجاب أنوش لقينان، ثم قينان لمهللال، ثمَّ ماهللال ليارد.

ثمَّ بعد ذكر هذه الاختلافات، استدلَّ بها على وقوع التبديل، فقال: فانظر إلى قبح هذا الاختلاف وغرابته بين هاتين الطائفتين في أمرٍ ليس من قبيل المظنونات التي تختلف باختلاف مآخذ العلماء الناشئة عن اختلاف مراتب

---

(١) وهو الخلاف بين النسخة العبرية التي يعتمدها اليهود والبروتستانت، والنسخة السبعينية اليونانية التي اعتمدها الكاثوليك والأرثوذكس في العهود الأولى، ولا زالوا حتى الآن يعترفون بقانونية ما جاء فيها من أسفارٍ زائدًا على ما في النسخة العبرية، وهي ما تُسمَّى عندهم بالأسفار القانونية الثانية، بينما ينكر البروتستانت واليهود قانونيتها، ويسمونها أسفار الأبوكريفا.

الظنون[١]، بل كل طائفةٍ تزعم أن ما بيدها هو المنزل على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا عين التبديل والتغيير.اهـ.

ثمَّ أشار إلى اختلاف النُّسخة السامريَّة عن نسخ الطائفتين[٢]، وأشار إلى كفاية هذا الاختلاف وحده للدلالة على التبديل.

ثمَّ انتقل للكلام على الأناجيل، وما وقع فيها من الخطأ الفاحش، وعدم التحفُّظ الذي سببه عدم المبادرة إلى التدوين، والغفلة أزمانًا يحصل في مثلها التبديل والنِّسيان، ثم نقل عنهم تصريحهم بتأخُّر تأليفهم أناجيلهم عن رفع المسيح بسنواتٍ.

ثم ذكر بعض ما وقع كُتَّاب الأناجيل فيه من الخطأ:

---

(١) وكأن هذا جوابٌ عن سؤالٍ تقديره: ولماذا تستقبح هذه الاختلافات، وبين المسلمين من الاختلاف في أمر دينهم ما هو معلومٌ؟
فأجاب بالتفريق بين اختلافٍ ناشئٍ عن اختلاف المآخذ، وتباين الأنظار، مع عصمة النَّصِّ من التغيير، وبين خلافٍ ناشئٍ عن تغييرٍ وتبديلٍ وقع في النص المقدس، مع فقد النص الأصلي الذي يمكن معايرة هذه الاختلافات إليه.

(٢) والنسخة السامرية هي النسخة المعتمدة عند اليهود السامريين، وتشتمل على أسفار التوراة الخمسة فقط، ولا يعترفون بغيرها.
وجاء في قاموس الكتاب المقدس (تأليف نخبة من الأساتذة المختصين واللاهوتيين): ويختلف النص السامري عن النص العبري فيما يقرب من ستة آلاف موضعٍ... وتعزى معظم هذه الاختلافات إلى أخطاءٍ في النقل وقعت من النُّسَّاخ وقت الكتابة، أو إلى أخطاءٍ متعمدةٍ قاموا بها عن قصدٍ وإصرارٍ، ويتَّفق نص التوراة السَّامريَّة مع الترجمة السَّبعينيَّة في ألفٍ وتسعمائة موضعٍ من هذه المواضع.اهـ.

١- فذكر نسب المسيح حسَب إنجيل متَّى، ثم بيَّن أن ما ذكره متَّى في عدِّ الأجيال في إنجيله خطأ في الحساب[1] والنسب، ثم انتقل إلى مقارنة النسب حسَب متَّى بالنسب المذكور في إنجيل لوقا، التي تظهر ما وقع بينهما من المباينة في النسب، فإن كانا صادقين، لزم اجتماع أبوين للمسيح، وكذلك في أجداده، وهو مُحَالٌ، ولا يقولون به، وَإنْ كانا كاذبين أو أحدهما، دلَّ على جواز وقوع التبديل، ويسقط الثِّقة بالمنقول.

٢- ثمَّ تناول اختلافًا آخر في قصة إنكار بطرس للمسيح، حيث وقع في إنجيل مرقس أنه قال لمرقس: «قبل أن يصيح الديك مرَّتين، تنكرني ثلاث مرات»، ثم بيَّن النص ذلك بأنه أنكره مرةً بعد صيح الديك، ثم كمل الثلاث قبل صياحه مرَّتين، بينما عند لوقا أن المسيح قال له: «لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفني»، ثم فيه أنه أنكره ثلاث مراتٍ قبل صياح الديك، ثم حقق المصنف شروط التناقض هنا من جهة اتحاد الواقعة والزمان والمكان، والنسبة مع التباين الذي يقضي بكذب أحدهما.

٣- ثم ذكر قصَّةً أخرى من رواية متَّى، وفيها أن المسيح لمَّا قرب من أورشليم مع تلاميذه أمَرهم أن يأتوا له بأتانٍ مربوطٍ ففعلوا، بينما يروي لوقا ومرقص القصة نفسها، فيجعلان بدلًا من الأتان جحشًا، فهذه كسابقتها يقضي تباينها بوقوع الكذب فيها.

---

(١) وغلطه في قوله: «ومن سبي بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلًا» مع كون المذكورين من سبي بابل إلى المسيح لا يزيد على ثلاثة عشر جيلًا.

٤- ثم يذكر نصًّا آخر يتعلق بصلب المسيح -على زعمهم- فيجعل متَّى اللِّصَّين المصلوبين معه يعيرانه، بينما يجعل لوقا أحدهما مؤمنًا به، عطوفًا عليه، والآخر سابًّا له، مستهزئًا به.

٥- ثم ذكر ما تفرَّد بذكره متَّى من انشقاق الهيكل، وتزلزل الأرض، وانشقاق الصخور، وانفتاح القبور بعد إسلام يسوع للروح، وأنَّ ذلك لو صح لم يتفرد به متَّى؛ لكونه مما تتوافر الدواعي على نقله، فإهمال الثلاثة لها مع دلالتها على علوِّ شأن المسيح مع استحضار ما يغضُّ من شأنه من أصناف الإهانة التي تعرَّض لها، إما أن يكون لكذب متَّى، أو تخلف أصحابه الثلاثة، وهو في ثنايا هذه الأمثلة يتعرَّض لبعض ما وقف عليه من شرحهم وردهم عليها، ويوهنه ويزيفه.

ثمَّ تناول باختصارٍ ما بدأ به من ذكر دعواهم امتناع التبديل، والجواب عنه بأنَّ فيما ذكره بيان وقوعه -والوقوع أقوى أدلة الإمكان- وكذلك إجماع الطائفتين المذكور سابقًا.

ثم ختم بأن مطالعة الكتابين توقف على ما نقضي منه العجب، لكنه أعرض عن الإكثار لما روي من غضب النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ حين رأى عمر ينظر في التوراة[1].

---

(١) يشير إلى ما أخرجه أحمد في مسنده (١٥١٥٦) من حديث جابر: «أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي ﷺ، فغضب وقال: **أَمُتَهَوِّكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية...**»، الحديث.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٧٤): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، وفيه مجالد بن سعيد، ضعَّفه أحمد، ويحيى بن سعيد، وغيرهما.
وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٥٢٦) بعد أَنْ ذكر طرق حديث عمر، وعلق عليها: =

منهج المصنف:

لمَّا كان غرض المُصنِّف إثبات وقوع التبديل في الكتب المقدسة، وذكر أنَّ الذي حمل علماء المسلمين على القول بذلك هو التصريح القرآني بوقوع البشارات بخاتم الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ(١)، فقد تركَّز عمل المُصنِّف على إثبات وقوع التغيير في الكتب المقدسة، فاستخدم في الاستدلال على هذا دليلي الإجماع والوقوع، أي: إجماع الطائفتين اليهود والنصار على وقوع التبديل؛ لأنَّ كلًّا منهما ترمي الأخرى به.

ثم دليل الوقوع بذكر اختلافاتٍ بين تراجم العهد القديم لا يمكن الجمع

=

«وهي وإنْ لم يكن فيها ما يحتج به، لكن مجموعها يقتضي أن لها أصلًا».اهـ.

(١) وقد يقال: إنَّ على وقوع التبديل اللفظي أدلَّة شرعية أوضح من هذا هي التي حملت جمهور علماء المسلمين على القول به؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، ونفيه تعالى لبعض ما جاء ذكره في الكتب المقدسة؛ كذكر الاستراحة من خَلْق السماوات والأرض، ونسبة سليمان إلى الشرك، واستباحة أموال غير اليهود، وغير ذلك.

أمَّا الاستدلال بوقوع البشارات، فقد يقال: بقي منها جملةٌ صالحةٌ يحصل بها الغرض، وإقامة الحجة. فإن قيل: بل ظاهر نصوص القرآن أن البشارات كانت أكثر وأوضح من هذا ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فيقال: صحيح، لكن ما تقدم من الأدلَّة أصرح وأوضح من الاستدلال بالبشارات، فذكره أَوْلَى من هذا، ولو تعيَّن الاقتصار، فعليه أَوْلَى وأحسن، والله تعالى أعلم.

بينها، ثم انتقل للعهد الجديد، وذكر الاختلاف بين مُدوِّني الأناجيل بما يثبت إمكان الغفلة عليهم، والخطأ منهم، ويبطل دعوى العصمة، وحلول روح القدس فيهم.

فالكتاب يعدُّ من كتب النقد النصِّي التي جمعت بين النقد الخارجي وإثبات إمكان التحريف، وفَقْد شروط الصيانة والحفظ، وكذا تطرق للنقد الداخلي بتفحُّص النصوص، وإظهار ما فيها من التناقض والاختلاف الذي يثبت وقوع التغيير، ويُضْعف الثقة في المنقول، وتعذُّر الاعتماد عليه والاحتجاج به.

ولم يتطرق المصنف لنقد دلالة النُّصوص التي يحتجُّون بها على عقائدهم، ولا تطرق للنقد العقلي لأصول اعتقادهم، وإنما استخدم المصنف اللغة العقلية في تحقيق شروط التناقض من اتفاق النسبة والمكان والزمان ونحوها، واستخدم اللُّغة الأصولية في بيان أنَّ ما تتوافر الدواعي على نقله إذا نقله الآحاد، وسكت عنه الباقون مع كلفهم وعنايتهم بما هو أدنى منه، أوقعه ذلك في نطاق الريبة والشك.

فرسالةُ المُصنِّف على وجازتها وافيةٌ بغرضها من إثبات وقوع التبديل بذكر أوضح الأمثلة التي وقعت له، حيث لم يقصد المُصنِّف الإكثار من البحث والنظر في الكتاب للحديث الذي أشار إليه[1]، ففي حدود النطاق الذي وضعه

---

(١) وللإمام الجعفري صاحب «التخجيل» كلام جيد في هذا يُسْتحسن ذكره هنا، قال في مقدمة كتابه (٢٠): «فإن قيل: كيف استجزت النظر إلى هذه الكتب وصحبتها محظورة، والأمة بالنظر فيها غير مأمورة، وقد نهى الصحابي عنها، وبحر منقوله عجاج، وبنية معقوله مركبة من =

المُصنِّف لرسالته، فقد استوفى غرضه، وبلغ قصده من طريقٍ مختصرٍ لائحٍ، لا غموض فيه، ولا حشو.

=

أعدل مزاج؟».

قلنا: المحظور هو النظر فيها على وجه التعظيم والتفخيم، وإجراؤها على ظواهرها الموهمة لاسيما للعامي الغرِّ، والحدث الغمر، فأما مَن نظر فيها على المقصد الذي قصدته، والنحو الذي أردته وأوردته، فهو -إن شاء الله- من أُمَّهات القربات، فأما نَهْيه عَلَيْهِ السَّلَامُ الصحابي عن ذلك، فلأنَّ الأمر كان في ابتدائه، والشرك بعد لم يمت بدائه، فلعلَّ رسول الله ﷺ رأى أن غير ذلك أَوْلَى بالصحابة في ذلك الوقت، ولأن الصحابة -رضوان الله عليهم- هم أعيان الأمة، فلو أكبُّوا على تلك الكتب المبدلة، والصحف المحرَّفة، لا شك أن يتابعهم الناس في ذلك، وقد قال عَلَيْهِ السَّلَامُ لأصحابه: «**إنكم أئمةٌ يُقْتَدَى بكم**»، وقال: «**أصحابي كالنُّجُوم...**»، فلهذا نهى الصحابي وندبه إلى الاشتغال بالكتاب العزيز بقوله: «**لقَدْ جئتُكُم بها بيضاءَ نقيَّة**».

قلت: وقد ذكر الفقهاء ترددًا في جواز استصحاب هذه الكتب للوقوف عليها، وتوجيه وجوه الرد إليها، وبالجملة: فالأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى، والحكمة ضالَّة المؤمن حيث وجدها خطبها، ومطيَّة تنهج سواء السبيل بمَن ركبها، وربنا المسؤول أن يصحح منا المقاصد، ويبعث رائد التوفيق، فيقف لنا بالمراصد.اهـ.

٥

الغزالي

نبذة عن المصنف:

هو الإمام أبو حامدٍ محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الغزالي الشافعي، وُلِدَ بطوس سنة خمسين وأربعمائةٍ.

قال ابن عساكر: «كان إمامًا في علم الفقه مذهبًا وخلافًا، وفي أصول الديانات والفقه»(١).

قال الصفدي: «الفقيه الشافعي لم يكن في آخر عصره مثله»(٢).

قال الذهبي: «الشيخ، الإمام، البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان»(٣).

ومن مُصنَّفاته: (إحياء علوم الدين)، و(المستصفى في أصول الفقه)، و(المنخول)، و(بداية الهداية)، و(كيمياء السعادة)، و(فضائح الباطنية)، و(مقاصد الفلاسفة)، و(تهافت الفلاسفة)، و(جواهر القرآن)، و(معيار العلم)، و(المضنون به على غير أهله).

تُوفِّي سنة خمسٍ وخمس مائةٍ(٤).

---

(١) تاريخ دمشق (٥٥/ ٢٠٠).

(٢) الوافي بالوفيات (١/ ١١٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٢).

(٤) وفي سيرة الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ ومسيرته أطوار وأحوال، وجدل وخلاف، ومادح مبالغ، وذام مبالغ، وما بينهما، ولم أرَ الإطالة في ذلك أو حتى التعرض له؛ لخروجه عن المقصود، واحتياجه إلى تتبُّعٍ وبحثٍ ليس هنا محله.

اسم الكتاب:

(الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل).

وصف الكتاب:

بدأ المُصنِّف كتابه بالتعجُّب مما انتهت إليه عقائد النصارى من ضعفٍ وتعقيدٍ، ثم قسم القائلين بها إلى المقلدين الذين اتَّبعوا ما ارتسم في أذهانهم منذ الصغر، وإلى مَن أدرك شيئًا من المعقولات، فهو يعول على تقليد الفيلسوف في مسألة الاتحاد، ثم يردُّ الاتحاد إلى مسألة تعلُّق النفس بالجسد، ثم بين ما في هذا القياس من ضعفٍ، وأن الأَوْلَى لهم كان التعلُّق بظواهر كتبهم المصرِّحة بإنسانية عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثمَّ ذكر قاعدتين نقل عليهما اتفاق العلماء:

الأولى: حصيلتها أنَّ العمل بظواهر النُّصوص إنما يكون عند اتفاقها مع المعقولات، وإن خالفت وجب تأويلها(١).

والثانية: أنَّ النصوص إذا تعارضت ظواهرها، فلا تُتْرك متعارضةً إلا عند العجز عن الجمع بينها.

ثمَّ ذكر بعض النُّصوص الكتابية التي توهم إلهيَّة المسيح، أو اتحاد الإله به؛ كقوله: «أنا والآب واحد»، وقوله: «احفظهم باسمك الذي أعطيتني ليكونوا معك واحدًا كما نحن»، وقوله: «كما أنت يا أبي حالٌّ في، وأنا فيك»، وبيَّن أنَّ هذا من قبيل التجوُّز، وليس على حقيقته، ثم ذكر القرائن المتصلة في تتمة النص

(١) ولأجل مناقشة هذه القاعدة، وشرح قدر الخطأ والصواب فيها، صنَّف ابن تيمية كتابه الكبير حجمًا وقدرًا: «درء تعارض العقل والنقل».

التي تدلُّ على ذلك، وكذلك القرائن المنفصلة في النصوص الأخرى المبينة للمعنى المقصود.

ثمَّ ذكر بعض النُّصوص المُصرِّحة بإنسانيَّة المسيح؛ كقوله: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة، فلا يعلم بهما أحدٌ، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآب»، وقوله: «وهذه حياة الأبد، أن يعرفوك أنك الإله الحق وحدك، والذي أرسلته يسوع المسيح»، وقوله: «لأنِّي لم أتكلم بها من نفسي؛ لأنَّ الأب الذي أرسلني هو أعطاني الوصية بماذا أقول»، وشرح ما فيها من دلالة صريحة محكمة على إنسانية المسيح ورسوليته.

ثم تناول بعض ما يعتذرون به عن هذه النصوص كرَدِّ نصوص الإنسانية إلى ناسوت المسيح، فتناول اعتقادهم في اتحاد اللاهوت بالناسوت بالنقد، وما يتضمنه من المحال؛ كاستحالة اتحاد حقيقتين إلى حقيقةٍ ثالثةٍ مغايرةٍ لهما، متصفة بكلِّ صفاتهما، فتحمل جميع ذاتيات الإنسان ولوازمه، ثمَّ هي تحمل جميع ما يجب للإله، وما يستحيل عليه، وأنه إن كان الحامل لهم على ذلك هو النُّصوص الدَّالَّة على الاتحاد، فهي ثابتةٌ لغيره، وإنْ تعلَّقوا بالآيات والمعجزات فهي ثابتةٌ بالسؤال والطلب كما قال عند إقامته لعازر: «أيها الآب، أشكرك لأنك سمعت لي»، وهذا لا يختص بالمسيح، بل ثابت لغيره من الأنبياء.

ثمَّ عاد إلى تناول احتجاجهم بألفاظ الإلهية والربوبية والبنوة والأبوة، وأنها أطلقت على غير المسيح، وهذا يدلُّ على أنها يراد بها غير ظاهرها.

ثمَّ ختم بمثل ما بدأ به، أي: ببعض ما يتعلَّقون به في إثبات إلهيَّة المسيح من

النصوص الكتابية «في البدء كان الكلمة»، «الكلمة صار جسدًا»، «والعالم به كون»، «إني قبل أن يكون إبراهيم»، «مَن رآني فقد رأى الآب»، وبين وجه التجوُّز فيها بالقرائن المحتفَّة بها.

منهج المصنف:

استعمل الإمام في كتابه طريق التسليم، فلم ينازع في ثبوت النصوص التي يستدلُّ بها النصارى، ولم يشتغل في كلِّ كتابه بالنقد الكتابي، وإثبات وقوع التحريف اللفظي في الكتاب، بل كان جُلُّ اشتغاله في الكتاب ببيان عدم دلالة ما يستدلُّون به على مرادهم، ووقوع التحريف المعنوي، وسوء الفهم والتأويل.

وَإنْ كان في مواطن قليلة قد نازع في صحة الترجمة، كما حصل منه عند التعليق على احتجاجهم بعبارة: «الكلمة صار جسدًا».

قال: وضع هذا اللفظ: «وه بيصاجي أفأر أو صركيس»، مفهوم هذه الكلمات في القبطي: والكلمة صنع جسدًا؛ لأن «أفأر» مفهومها في القبطي: «صنع»، وعلى هذا الوضع لم يبق إشكالٌ البتة.اهـ.

والنظر في صحَّة الترجمة، وتعقب أخطاء المترجمين، نوعٌ نادرٌ عزيزٌ من النقد قَلَّ مَن تعرَّض له من أقران الإمام أو سابقيه.

واستعمل الإمام مهاراته الأصولية مع معرفةٍ جيدةٍ وقراءةٍ فاحصةٍ لكتبهم في إبراز القرائن الدالة على التجوُّز في العبارات التي احتجُّوا بها.

ومع غَلَبة المنقول من كتبهم على ردِّه، فلم يخلُ الكتاب من استعمال المعقولات والجدل الكلامي في عدَّة مواطن، وهو في هذا الجدل العقلي

يستخدم أدلةً برهانيةً قطعيةً في أكثر المواطن، وفي مواطن يستعمل أدلةً جدليةً مما اختص به المتكلمون؛ كقاعدته التي صدَّر بها الكتاب في تعارض المنقول مع المعقول، وكعزوه حدوث المخلوقات إلى الإرادة والقدرة القديمة دون حدوث شيءٍ سوى النسب والإضافات، حيث قال: «فإذا خلق مخلوقًا، فعلمه بوجوده في زمن خلقه، والقدرة على إيجاده في ذلك الزمن أيضًا كلاهما ثابتٌ أزلًا، فلم يبق حادث سوى وجوده، ووجودُهُ ليس صفة قائمة بذات الإله جلَّ اسمه، بل بذات المخلوق، وأما نسبة الوجود إلى تأثير القدرة فيه زمن إيجاده، فذلك من باب النسب والإضافات، والنسب والإضافات ليست أمرًا وجوديًّا»، وهذه من الأصول التي فيها تنازعٌ معلومٌ بين الإسلاميين ليس هذا محله.

٦

الخزرجي

نبذة عن المصنف:

هو أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة محمد بن أحمد، أبو جعفر القرطبي الأنصاري الخزرجي، ينتسب إلى سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وُلِدَ سنة تسع عشرة وخمسمائة.

قال ابن فرحون: «وله تصانيف مفيدة»(١).

قال ابن الأبار: «وكان مَعنيًّا بالحديث وروايته»(٢).

تُوفي سنة اثنتين وثمانين وخمس مائة.

اسم الكتاب:

(مقامع هامات الصلبان ومراتع رياض الإيمان)(٣).

---

(١) الديباج المذهب (١٩٧).

(٢) التكملة لكتاب الصلة (١/ ٧٦).

(٣) كذا ذكره ابن فرحون، وسمَّاه ابن الأبار «مقامع الصلبان»، وجاء على طرة بعض النسخ -كما ذكر محققا الكتاب- عناوين أخرى مثل: «مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان»، «مقامع الصلبان في الرد على عبدة الأوثان»، ولقد وضع محقق طبعة مكتبة وهبة على واجهة الكتاب المطبوع عنوان «بين الإسلام والمسيحية»! بينما اكتفى الشرفي محقق طبعة الجامعة التونسية بعنوان: «مقامع الصلبان».

وصف الكتاب:

يبدأ الكتاب بحكاية سبب تصنيفه، وقصة مصنفه، وذلك أن قسيسًا بمدينة طليطلة -التي كانت قد وقعت في يد النصارى- يكثر من إيراد الشُّبه والاعتراضات على بعض المسلمين، فكانوا يلجئون إلى المصنف والذي كان صغيرًا[1]، فكان يجيب أسئلته، فاستفهمهم القسيس عن صاحب الجواب؛ لمعرفته بقصورهم عن ذلك، فأخبروه بخبَر المصنف.

فكتب إليه كتابًا يدعوه إلى دينه، ذكر فيه معتقدهم في المسيح، وعقيدة الفداء والصلب، وأهم أدلَّتهم على معتقدهم، وهو حصول الآيات على يد المسيح وحوارييه، وأورد بعض الشُّبهات على القرآن، وشرائع الإسلام، فأجابه المصنف برسالةٍ ردَّ عليه فيها.

فبدأ رسالته بتقديم الاعتذار عن التنزُّل إلى إجابته؛ لأنَّ الالتفات إلى ما لديه يخلُّ بعقل الإنسان؛ لاشتمال دينهم على ما يضاد العقل، حتى إنه يجعل العاقل المتشرع به أخرق، والمحسن مسيئًا؛ لأنَّ في أصل عقيدته الإساءة إلى الإله، علاوةً على ما في خلقهم من جهلٍ وضعفِ عقلٍ وطمعٍ، فلو لم يجب مجاهدة القوم إلا لعموم أضرارهم لَكفى، كما يجب قتلُ الحيوانِ المؤذي[2].

---

(١) كان في قرابة الثالثة والعشرين من عمره، ينظر: «جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى» (٣٨٩)، ومقدمة «مقامع هامات الصلبان».

(٢) وهذا من المصنف جارٍ على طريقة مَن نصب التعارض بين آيات المجادلة وآيات القتال، ورأى أن آيات المجادلة نسخت بآيات القتال، فلا يستحق أهل الكتاب إلا السيف، بينما ذهب طوائف من المحققين إلى عدم التنافي بينهما، وأن لكلٍّ منهما مقامًا يخالف مقام الآخر، وإنَّما نسخت آيات القتال الاقتصار على المجادلة، وليس أصل مشروعيتها، وقد شرح ابن تيمية ذلك، وبيَّنه في كتاب «الجواب الصحيح»، وإليه جنح كثيرٌ من المفسرين كالطبري والقرطبي وغيرهما.

ثم أظهر التعجُّب من دعوة القسيس مسلمًا أن يؤمن بالله والمسيح مع تحقُّق المسلم بذلك، بل هو أَوْلَى بالمسيح، يظهر التبرؤ من طائفتين؛ طائفة المفتونين به الضالين الذين أشركوا بعبادة الله غيره، وطائفة الذين يبغضونه ويسبونه ويلعنونه.

ثمَّ انتقل للردِّ على مُؤلِّهة المسيح، فذكر أن سببَ التأليه هو نفخ روح الله فيه، يلزم منه تأليه آدم، وذكر أيضًا أنه وأمه كانا يأكلان الطعام، ولازم ذلك التغوُّط، والله مُنزَّه عنه.

ثمَّ ذكر بعض النُّصوص الكتابية التي تردُّ دعوى الألوهية، وتدلُّ صراحةً على النبوة؛ كقول المسيح: «لم يُكرَم أحد من الأنبياء في وطنه»، وقوله: «ليس أحد صالحًا إلا واحد هو الله»، «إنما الحياة الباقية أن يؤمنوا بك إلهًا واحدًا، وبالمسيح الذي بعثت»، «لا تدعوا معلمين، فإنَّ مُعلِّمكم المسيح وحده»، «لست أنفذ إرادتي، بل إرادة الذي بعثني»، وذكر بعض كلام مَن حوله من اليهود وغيرهم بالنبوة.

ثم بيَّن بطلان دلالة الآيات على الألوهيَّة بأنَّ المسيح أيَّد نفرًا من الحواريين بإحياء الموتى، فما الذي يمنع أن يكون الله أيَّد بشرًا بالآيات، وجعله رسولًا، كما أن إلياس النبي أحيى ميتًا.

ثم انتقل للكلام على متناقضات الإنجيل، فمن ذلك أنهم يستشهدون بأقوال الأنبياء السابقين ويحتجون بهم، مع وَصْف المسيح لهم بأنَّهم لصوصٌ وسُرَّاقٌ(١)، وكذلك قوله في موضع أنَّ شهادته لنفسه غير مقبولةٍ، وفي آخر أنَّ

---

(١) يشير إلى ما في يوحنا (١٠/ ٧-١٠): «فقال لهم يسوع أيضًا: الحق الحق أقول لكم: إنِّي أنا باب الخراف ٨ جميع الذين أتوا قبلي هم سُرَّاقٌ ولصوصٌ، ولكن الخراف لم تسمع لهم».

شهادته لنفسه حقٌّ. ومن ذلك أنه جزع من صنيع اليهود معه، وحادثة الصَّلب مع دعوته قبل ذلك للتضحية وإهلاك النفس للخَلاص، وذكر التعارض بين نسب المسيح في متَّى ولوقا، ومن ذلك أنه قال في موطنٍ: إنه لم يأت ليصلح، بل ليلقي المحربة، وفي موطنٍ آخر ذكر أنه جاء ليصلح، ومن ذلك أنه ذكر أنه ما جاء لينقض، بل ليكمل، ثمَّ في مكانٍ آخر غير أحكام التوراة.

وذكر أنَّهم يلتمسون تأويلًا لهذه المقالات الشنيعة في الفلسفة والروحانيات، مع تضاد ديانتهم مع الفلسفات والعقليات، وأن عَبَدة الأوثان من العرب قد اتقوا ما هم عليه.

ثمَّ تناول دعواهم بصلب المسيح بالنقد من جهة أنَّ الرواية الإنجيلية تدلُّ على أن اليهود لم يكونوا يعرفونه، وأنَّ الذي دلَّهم عليه هو يهوذا، وهو عندهم كافرٌ ملعونٌ، فلا تقبل شهادته، ولعله دلَّهم على غيره، وفي الإنجيل أنه ندم على فعله، وظاهر الإنجيل يدلُّ على أن المسيح لم يصلب، بل وقع الشبه على غيره؛ لما فيها من أنه لما استقى ولم يسق نادى: «إلهي، لِمَ خذلتني» مع أن المسيح كان يصبر على ترك الطعام والشراب أيامًا طويلةً، كما أنَّ في هذا القول عدم رضا بالقدر، والمسيح مُنزَّهٌ عن ذلك، كما أنَّ وقوع الاشتباه والالتباس في أَمْره على اليهود مع كونه كان مشتهرًا فيهم، مجادلًا لهم يدلُّ على وقوع الشبه.

واعترض على كلام صاحب الرسالة عن الفداء، وأنَّ الإله انتصف من خطيئة آدم بصلب عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمورٍ؛ منها: أنه من الظلم أن يعاقب الله أحدًا بذنب غيره، وأن التوراة بما يزعمونه من كون آدم وجميع بنيه كانوا ثاوين في الجحيم، مع أنه أمرٌ شنيعٌ، ومصابٌ بشيعٌ، ثم تناول بعض أدلتهم على ذلك من

التوراة بالتوهين والتضعيف.

ثم تناول ما في منقولهم أنَّ الرَّبَّ جلس عن يمين الرب بالتساؤل: أيهما خلق صاحبه؟ ولمن الحكم فيهما؟ فالمخلوق والمقهور منهما يمتنع أن يكون إلهًا قادرًا.

ثم تناول الشبهات التي ذكَرها القسيس في رسالته بالرَّدِّ، فذكر سبب طعنهم في الإسلام، وتجرؤهم على الكذب عنه، وهو أن بعثة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ زلزلت الملة النصرانية، ونقضت عُرَى دينهم، ثم ذكر بعض هذه الأكاذيب؛ كدعواهم أنَّ محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكر أنه لا يموت ثم مات، أو أن مسيلمة له كتابٌ لو طالعته العرب لارتدت، وإنكار فصاحة القرآن، وبيَّن ما فيها من مُحَالٍ.

وذكر بعض ما ورد لنَبِيِّنا عَلَيْهِ السَّلَامُ من المعجزات؛ كانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وآية المطر والنعاس، ورمي السماء بالشهب في عام بعثته عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومعجزات الهجرة، وتكثير الطعام، وشفاء المرضى، وإخباره بالمغيبات الآتية كما جاء في سورة الروم، وفي سورة الفتح.

ثم ذكر بعض ما جاء في كتابهم من بشاراتٍ بنبيِّنا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كقول الله لموسى: «إنِّي أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم نبيًّا مثلك»، وقول موسى: «جاء الرب من سيناء، وأشرق من ساعير، وتلألأ من جبال فاران»، وحديث المسيح عن الفارقليط القادم، وأن الملكوت سينزع من بني إسرائيل، ويعطى أمة أخرى[1]، وذكر نُبوءات أشعياء من امتلاء البادية والمدن من قصور آل قيدار بتسبيح الله، ونبوءة أشعياء: «عبدي الذي سرت به نفسي...»، وبين انطباقها على محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتعذر

(١) في متَّى (٢١/ ٤٣): «لذلك أقول لكم: إنَّ ملكوت الله ينزع منكم، ويُعْطى لأُمَّةٍ تعمل أثماره».

انطباقها على المسيح، وذكر نبوءات أخرى في حزقيال ودانيال وحبقوق، ثم ذكر بعض أخبار النبي محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ وصفاته وزهده وخلقه.

ثم بيَّن أنَّهم إن كفروا بالقرآن، لم يتمكَّنوا من إثبات آيةٍ أو فضيلةٍ للمسيح؛ لأنَّ قولهم وقول المسيح فيه لا يُلْتفت إليه؛ لاختلاف الطائفتين، وتضاد أقوالهم فيه.

وذكر أيضًا رَمْي اليهود لبعضهم بتحريف التوراة، ورمي النصارى لهم بذلك، وهو ما يؤكد وقوع التحريف.

ثم أورد على القول بالتحريف إشكالًا، وهو قول الله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وأجاب باحتمال أن يوحى إليهم بالصحيح منها[١]، وليس ثَمَّ ما يدل على أنهم حكموا بجملتها، فالتغيير لم يتعيَّن له زمن، والحكم لم يتعيَّن له شيء معين، ولا زمن، فلا ينفعهم هذا الاستدلال، ثم ذكر بعض ما في التوراة من القبائح المنسوبة للأنبياء، كنوحٍ ولوطٍ ويعقوب وهارون وغيرهم، وبعض ما يُنْسَب إلى الله في التوراة مما يُقْطَع بكذبه.

ثم ردَّ على ما زعمه من وقوع الخطأ في القرآن في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] بأن هذا ليس إثباتًا لأخوة موسى، بل خرج هذا على وجه السَّبِّ؛ لأنَّ هارون قصدوا به رجلًا اشتهر في زمانهم بالفُجْر والاستكثار من البغايا.

ثَمَّ تناول ذكر القسيس لإباحة تعدُّد الزوجات بالنقد بأنَّ قبولنا لهذه الأحكام إنما كان بعد ثبوت الأصل بتحقُّق نُبوَّة الشارع، وتبين صدق رسالته، ثم ذكر له أنه إن أراد

---

(١) وقد سبق في التعليق على المختصر بيان رجاحة هذا القول، وأن في كتب العهد القديم الدليل عليه، وسيأتي نحو ذلك في كتاب «الإعلام» للقرطبي، والتعليق عليه.

انتقاد الفروع، فهَلُمَّ أريك عجبًا، وأراد أنه سيبرز له بعض أحكام التوراة المنافية للأخلاق أو الآداب، فذكر له أن يوكابد أُمَّ موسى كانت عمة عمران أبيه، وأن إسرائيل جمع بين الأختين، فلماذا أبصرت في كتابنا شيئًا، وعميت عن الأكبر منه في كتابك، أمَّا اعتراضه فَجهلٌ؛ لأنَّ الله لو كان أمَرَ بالاقتداء بآدم في الاقتصار على الواحدة، فلم وجدنا التَّعداد يحصل من إبراهيم وإسرائيل، ولو صحَّ زعمك لَوجب على مذهبك إباحة نكاح الأخ لأخته لإذن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيه.

ثم ذكر الشُّبهة الرابعة، وهي قوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [التوبة: ١١١]، في جزاء المجاهد مع أن التوراة نهت عن القتال، فأجابه بأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد حارب أعداءه من أهل مَدْين وولد عملاق، ولو صح ما نقله عن التوراة لكان موسى غير مطيعٍ لربه.

ثم تعرَّض لنقده للنسخ، وبيَّن أنه موجودٌ في التوراة والإنجيل أوضح من الصبح، وإن كان منكرًا، فكيف جاز لهم جعل الختان تغطيسًا، والسبت أحدًا.

ثم تناول دعوى القسيس بأنَّ صالحيهم يظهرون البراهين وقت الحاجة، وذكر بأنَّ حُذَّاقهم لمَّا وجدوا دينهم ليس له قاعدةٌ ينبني عليها، جمعوا عقول العامة بتخيلاتٍ موهمةٍ وأباطيل مزخرفةٍ، ثم ذكر شيئًا من هذه الحيل، ثم حمد الله أنَّ الله طهَّر الإسلام من هذه الأوصاف، وأغنى المسلمين عن هذه النقائص بالأدلَّة الواضحة الواقعة بفعل الله، ثم ذكر حادثة أبرهة والفيل الشهيرة التي وقعت على أبرهة الذي كان نصرانيًّا؛ تبشيرًا بقدوم نبينا محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم ذكر اعتراض القسيس على اعتقاد المسلمين بوجود المآكل والمشارب واللذائذ الحسية في الجنة، وأجاب بأنَّ موسى لم ينقل عنه شيءٌ في كتبهم عن

الآخرة والعذاب والنعيم، وإنما أخبرهم عن الصانع المبدع، وعليه لا يكون حشر الأجساد وتركيبها ممتنعًا، فإذا أخبر مَن قامت الدلائل على صدقه بذلك، وجَب تصديقه، كما أنَّ في التوراة أنَّ جنة آدم كان فيها طعام وشراب، وأنها لم تكن بالأرض، وفي الإنجيل نصوصٌ تدلُّ على وجود الطعام والشراب في ملكوت الآخرة، ثم ذكر نصوصًا دالَّةً على هذا؛ كقول المسيح وقد سقاهم الخمر: «إنِّي لا أشربها معكم حتى تشربوها معي في الملكوت».

ثم تطرَّق للشُّبهة الشهيرة حول انتشار الإسلام بالسيف بخلاف دينهم، فأجابه من وجوهٍ، منها: أن مؤرخيهم كتبوا عن قتالهم مع اليهود مخالفين ما أمَرهم به دينهم من المسامحة، كما أنه لو عاب الإسلام بهذا، لزمه أن يعيب موسى ويوشع وداود وسليمان، فالقتال سُنَّة الله تعالى لأهل الحقِّ مع أهل الضلال، فيكون من مناقبنا، ثم كرر أنهم مع أوامر دينهم لهم بالمسالمة، فَهُمْ من أحرص الناس على القتل والقتال، وبسط الأيدي، ويعتقدون ذلك من أقرب القربات بخلاف المسلمين الذين يمتثلون أمر ربِّهم، وينصرون دينه، وذكر أن بشارات الأنبياء بمحمد عَلَيْهِ السَّلَامُ تنبئ أنه سيأتي بالسيف.

ثم ختم الكتاب بتساؤلاتٍ حول أصل اعتقادهم في المسيح، وأنه الله الذي نزل إلى الأرض ليُخلِّص العالَم من خطيئة آدم، فما الذي أوجب عليه ذلك من النزول إلى بطن امرأةٍ يغتذي بدمها، ويلبث في رحمها، ويرتضع منها... إلى أن ذكر ما فعله به اليهود -على زعمهم- وجزعه من ذلك، وأنَّ ذلك تضاعف للجناية لا تخليص منها، ومع ذلك لم يؤمن به إلا النفر اليسير، والعدد القليل، فأين هذا من اعتقاد المسلمين في توحيد الله وتنزيهه ونبوة عيسى وتكريمه.

منهج المصنف:

تنوعت أساليب المُصنِّف في كتابه بين استخدام المعقول والمنقول والنقد الكتابي وإثبات النبوة، وَإِنْ كان الغالب على كتابه هو استخدام المنقول من كتابهم في الرَّدِّ، وإبطال أصل اعتقادهم في ألوهيَّة المسيح، وفي صلبه وفدائه ونحو ذلك، وقد تطرَّق أثناء بحثه باختصارٍ إلى وقوع التحريف في الكتب المقدسة، واستدلَّ على ذلك بوجوهٍ؛ منها: التراشق بين أهل الكتاب وبعضهم بالتحريف. ومنها: وقوع التناقض في كتبهم. ومنها: الأخبار المُحالَة على الله تعالى، وعلى الأنبياء، وغير ذلك.

ولم يُطِلِ المُصنِّف ويُكْثر من الحجاج العقلي، بل كان يذكره عَرَضًا.

والظاهر أنَّ المُصنِّف كانت له معرفةٌ جيدةٌ، وقراءةٌ ليست هينةً للكتب المقدسة، كما له معرفة جيدة بعلوم الشرع، وهذا كله مع حداثة السن، وهو ما يثير مشاعر التعجُّب والاستحسان.

ويبدو من الأحوال المحيطة بتصنيف الكتاب، وأنَّ مُصنِّفه كان تحت الأَسْر، وكذلك حديث السن، أنه لم يعتنِ كفايةً بتنميق اللغة، وإحكام الاستدلال العقلي مقارنةً بالمصنفات الأخرى في الباب، والتي كتبت في ظرفٍ أوفر، وسنٍّ أكبر.

وكذا لم يَعْتنِ المُصنِّف بالتَّرتيب والتَّبويب، بل ولم يلتزم تمامًا بترتيب رسالة القسيس في ردِّه عليه، ولكن لم يُوقِعْهُ ذلك في التكرار أو الإطناب، بل كان كلامه في الغالب مختصرًا مكثفًا.

٧

الرازي

نبذة عن المصنف:

هو الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي القرشي البكري، الطبرستاني الأصل، ثمَّ الرازي الشافعي، وُلِدَ سنة أربعٍ وأربعين وخمس مائةٍ.

قال ابن خلكان: «الفقيه الشافعي، فريد عصره، ونسيج وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل، له التصانيف المفيدة في فنون عديدة»[(١)].

قال ابن أبي أصيبعة: «انتشرت في الآفاق مصنفات فخر الدين وتلامذته، وكان إذا ركب، مشى حوله نحو ثلاثمائة تلميذٍ فقهاء وغيرهم... وكان شديد الحرص جدًّا في العلوم الشرعية والحكمية، حاد الذهن، كثير البراعة، قوي النظر في صناعة الطبِّ، عارفًا بالأدب، له شعر بالفارسي والعربي... كانوا يقصدونه من البلاد على اختلاف مطالبهم في العلوم وتفنُّنهم، فكان كلٌّ منهم يجد عنده النهاية القصوى فيما يرومه منه». اهـ. باختصارٍ[(٢)].

قال ابن كثيرٍ: «أتقن علومًا كثيرةً، وبرز فيها، وتقدم وسَادَ، وقصده الطلبة من سائر البلاد، وصنف في فنونٍ كثيرةٍ، فمن ذلك: تفسيره المشهور، وله تفسير الفاتحة في مجلدٍ مفردٍ، وله شرح الأسماء الحسنى، وله مناقب الشافعي الذي

---

(١) وفيات الأعيان (٤/ ٢٤٩).

(٢) تاريخ الإسلام (٤٣/ ٢١٣).

فيه من الحكايات الغرائب، وقد شرح (الوجيز) أو أكثره، وله شرح (سقط الزند)، وشرح (المفصل) و(المحصول في أصول الفقه) و(المنتخب)، وله (الأربعون) في علم الكلام، و(نهاية العقول) و(المطالب العالية)، و(تأسيس التقديس)، وكتاب (الملخص)، و(شرح الإشارات في الأصول)، وغير ذلك من المصنفات المبتدعة، ومنها ما ذكره القاضي شمس الدين بن خلكان، وهو كتاب (السر المكتوم في مخاطبة الشمس والنجوم)، وقد قيل: إنه إنما صنَّفه لأُمِّ الملك خوارزم، وأنها أعطته على ذلك جُعْلًا، فعمله صناعة لتمكنه في العلوم، ومنهم مَن أنكر أن يكون من مُصنَّفاته، والله أعلم»(١).

قال الذهبي: «وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وانحرافات عن السُّنة، والله يعفو عنه، فإنه تُوفِّي على طريقةٍ حميدةٍ، والله يتولى السرائر»(٢).

تُوفِّي سنةَ ستٍّ وستمائة.

اسم الكتاب:

هي مناظرةٌ حكاها مَنْ سمعها من الفخر، ولا يبدو أنه سماها شيئًا، أو قصد إلى تدوينها، وإنما حكى بعضها في (تفسيره).

وصف الكتاب:

أصل الكتاب أن أحد كبار علماء النصارى ذهب إلى الرازي(٣)، ودارت

---

(١) طبقات الشافعيين (٧٧٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠١).

(٣) جاء صدر هذه المناظرة في التفسير الكبير للرازي (٨/ ٢٤٦)، وفيه أنَّ الرازي هو الذي ذهب إليه بخلاف المناظرة المطبوعة.

بينهما رحى هذه المناظرة، فبدأ النصراني بالسؤال على دليل نُبوَّة محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأجابه الرازي بظهور الخوارق التي لو جحدناها من جهة ردِّ التواتر أو ردِّ دلالتها على الصدق، ستبطل نبوة سائر الأنبياء، وإن اعترفنا بها، اعترفنا بنُبُوَّة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ قطعًا، فأجاب النصراني بأن عيسى في معتقده إله، وليس بنبيٍّ، فأجابه الرازي بأن دعوى إلهية المسيح باطلة من وجوهٍ، وذكر أربعة وجوهٍ:

منها: أنَّ دلائل الحدوث على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الوجود بعد العدم، والانتقال إلى الطفولة، ثم الشباب، والأكل والنوم والموت، يمنع كونه قديمًا.

والوجه الثاني: أنَّه صلب بعد محاولته الاختفاء والهروب ثم جزع، فلو كان إلهًا لأمكنه الدفع عن نفسه، وإهلاك خصومه.

والوجه الثالث: أنه إمَّا أن يكون الإله هو الجسم، أو حلَّ فيه الجسم، أو هو جزء منه، ثم بيَّن بطلان هذه الأقسام الثلاثة، فبطل قولهم.

والوجه الرابع: ما ثبت عن عيسى من العبادة والطاعة التي تمنع كونه إلهًا.

ثم سأل النصراني على دليل إلهيَّته؟ فأجاب بظهور العجائب، فردَّ بوجوهٍ:

منها: أنه إذا كان لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول، فما المانع على قولهم من حلول الإله في بدني وبدن كل حيوانٍ؟ فأجاب بالتفريق من جهة ظهور العجائب، فأجابه الرازي بأنَّ عدم الدليل على حلوله لا يستلزم عدم حصوله، فإجازة حلول الإله في بدن الكلب هو محض الكفر، وهو لازم قولهم.

ومنها: أن معجزة موسى في قلب العصا حيَّة أكبر من معجزة المسيح في إحياء الموتى، وليست دليلًا على إلهيَّته.

ثمَّ أجاب النصراني على ما ذكره الرازي بإنكار التواتر في آيات النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وضرب مثلًا بانشقاق القمر، فإنه لم يَرْوِه إلا ابن مسعود، وكذلك بأن محمدًا لو كان نبيًّا لم يكن ليمكث حتى يبلغ أربعين دون أن ينبئه ربه، أو يُظْهر على يديه الخوارق.

ثمَّ أجاب على كلامه عن ألوهيَّة عيسى بأنَّهم لا يعتقدون أنَّ الشخص الجسماني كان إلهًا، وإن اعتقده طائفةٌ منهم، فقد اعتقد طائفةٌ من المسلمين بالتجسيم أو لوازمه، أو الحلول في عليٍّ أو غيره، وجعل قولهم: «المسيح ابن الله» على سبيل التفخيم، كما يقول المسلمون: إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله.

وعن صلب عيسى فهو للجسد، أو الصدف وليس للجوهر وهو الروح، ثم جعله قاعدة: «عدم الدليل لا يستلزم عدم المدلول» لازمة للمسلمين ما لو قيل: مسيلمة كان نبيًّا؛ لأن عدم الدليل على نُبوَّته لا يستلزم عدم المدلول، ثم ردَّ على تفضيله معجزة قلب العصا على إحياء الموتى بأنَّ ما وقع من عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أكبر من ذلك؛ كإبراء الأكمه، وعلم الغيب، وغير ذلك، وهذا المجموع أكبر من معجزة موسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

فأجاب الرازي على إنكار التواتر بأنَّ وجود القرآن لا شكَّ فيه، فردَّ النصرانيُّ بالتشكك في كونه من محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، فربما ساعده غيره، فأجابه الرازي بأنه لو كان، لادعى مَن أعانه، ثم زعم النصراني أن الإتيان بمثل القرآن إنما يكون من بعض الوجوه؛ كالفصاحة أو الهداية إلى مكارم الأخلاق،

فالعلوم الشريفة مثله من بعض الوجوه، فأجابه الرازي بأن الإتيان بمثله يعني أن يظهر كتابٌ فيه علم الأولين والآخرين على لسان رجلٍ أُمِّيٍّ، ويبهر بأدلته ويقهر بحججه جميع مخالفيه، ثمَّ أجاب الرَّازي عن كلام النَّصرانيِّ حول تأخُّر النبوة والمعجزات الى سنِّ الأربعين بأن ظهور المملكة على مَن لم يكن ملكًا من أول عمره بل حراثًا أو تاجرًا أبلغ في التعجب، كما أن تقدم العطاء أو تأخره لا فضيلة له في ذاته.

ثمَّ أجابه على ما نقله من أحاديث توهم التَّشبيه عند المسلمين بالقياس على القاضي إذا ثبت عنده عدالة شاهد، فإنه يقبل منه ما لم يخالف المعقول أو يقدح في الأصول، فكذلك أئمة الحديث يروون أخبار الصفات لما ثبت عندهم عدالة ناقليها، ولا يعني ذلك أنَّهم يقطعون بصحتها، ومع ذلك زيفوا المخالف للمعقول، أو أوَّلوا منه ما لا يقبل التأويل(١).

---

(١) جواب الرازي رحمه الله هنا جارٍ على طريقة المتكلمين، أمَّا أهل الحديث فلهم جوابٌ أصحُّ من هذا فيما يرمى به أهل الإسلام من التشبيه، جماعُهُ أن التشبيه المزعوم إمَّا أن يراد به تمثيل الخالق بخلقه، وتكييف صفاته على هيئة صفات المخلوقين، فهذا المعنى باطل لم يقل به جمهور المسلمين، وفي القرآن رده صريحًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ومن قال به من المسلمين بدعوه وذموه.

وإمَّا أن يراد بالتشبيه إثبات ما ورد لله من صفاتٍ على ما يليق بجلاله مع تفويض كيفيَّتها ومعرفة كنهها إلى الله تعالى، فهذا القدر يثبتونه، ولا ينكرونه، بل هو لازمٌ لكل المؤلهة، فلا يخلو أحدٌ منهم من إثبات شيءٍ لله تعالى، فمنهم مَن يثبت القدرة والإرادة وغيرها، ومنهم مَن يثبت الحياة، ومنهم مَن يثبت العلم، ومنهم مَن يثبت الأسماء دون الصفات، ومنهم مَن يثبت =

وأجابه عن قول طائفةٍ من المسلمين بالحلول بأنَّهم ليسوا من المسلمين.

وأجابه عن قياسه البُنُوَّة بالخلَّة والمحبَّة بالفرق من جهة أن الله نزَّه نفسه عن البنوة دون الخلة، فيمتنع أن يقال: «أبناؤه» بمعنى «أحباؤه»؛ لوقوع اللبس، ونسبة الوالدية لا تحتمل إلا الحقيقة بخلاف المحبة والخلة، ولأن الوالدية مُشْعرة بالجنسية.

وأجابه عن قوله في صَلب الجسد بأنه تحصيل حاصل؛ لأنه لا يصلب إلا الجسد، فأيُّ مَزيَّة لعيسى. فإن قيل: بقي يتكلم بعد الصلب، يجاب بأنها كمعجزات الأنبياء على تقدير حصولها.

وأجابه عن إلزامه للمسلمين بقاعدة: «عدم الدليل لا يستلزم عدم المدلول» بأنَّ مسيلمة قد قام الدليل على كفره وكذبه بخلاف ما ألزمهم به، أما الآيات التي ذكرها عن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا يلزم أن تظهر على يدي إلهٍ.

فأقرَّ النصراني بالانقطاع، ولكنه جعل مانعه من الانقياد للإسلام اعتقاده أن من أتباع دينه مَنْ هو خيرٌ منه، وربما غلب في المناظرة، فأجابه الرازي بأنَّ هذا الاعتقاد يؤدي للتسلسل؛ لأن كلًّا منهم سيرى أن كلَّ شبهةٍ لها جواب عند غيره، وما من جوابٍ إلا وله شبهةٌ... إلى غير نهاية.

ثم سأله الرازي عن أساس دينك، فأجابه بأنَّ قاعدةَ دينه مبنيةٌ على تكذيب

=

الوجود المطلق، فلو رماهم أحدٌ بالتشبيه لوجود هذه الصفات أو الأسماء بعينها في المخلوقين، لأجابوا بأنها على ما يليق به، أو مختصَّة به، مخالفة لصفات المخلوقين، ونحو ذلك من الأجوبة، وأي جوابٍ لهم هو جواب أهل الحديث بعينه.

محمد ﷺ وعداوته، والتنفير عنه، والدعاء على المسلمين، ونحو هذا، فأجابه الرازي بأنَّ على هذا من يودهم ويُقرِّبهم من المسلمين، فقد أعان على قتل مُحمَّدٍ ﷺ، وتمزيق كتابه، وإهلاكِ أُمَّته.

ثمَّ أورد عليه النصراني أسئلةً أخرى، منها: ذكر بعض ما يتوهَّم اختصاص عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ به عن مُحمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مثل أن عيسى في السماء، ومحمد في الأرض، وعيسى روح الله وكلمته، وأنه خُلق من غير نطفةٍ، وأنه ما اشتغل بشيءٍ من حظوظ النفس أو بغير العلم والحكمة والذكر، وأن محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يدعو بالسيف، وهذا حال الملوك.

ثم أورد عليه ثانيةً ما روي من النُّصوص ممَّا يوهم التَّشبيه دون إشارةٍ إلى ما يرفع الإيهام، ويثبت التقديس، وأنَّ هذا تكرَّر في القرآن، فلا يمكن عَزْوه لخطأ الرُّواة، وسأله أيضًا عن الحروف المقطعة التي لا تستقل بمعنًى مع كون الكتب المنزلة يقصد بها الإفهام، مع كون الصحابة لم يسألوا عن معناها، أو عن آيات الصفات، فإن كانوا على بلادةٍ أو إيثارٍ للجهل، فكيف صلحوا لصحبة النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعلم أن الأمة ستفترق بسبب هذه النصوص، فَلِمَ لم يرفع الإيهام وهو رحمة للعالمين؟

ثم أشار إلى اختلاف الفرقة التي تدَّعي التزام السُّنة بين أشعري وحنبلي، وفي الفقه يشنع بعضهم على بعضٍ، ثم ذكر بعض المسائل التي يُنتقد ويُنتقص بها الأئمة المتبوعون، ثم ذكر المتصوفة، وما أحدثوه في أمر الدين من الغناء والرقص والشحاذة، فهذا حال الأخيار، فما حال الأشرار، ثم كل ملَّة تدَّعي أنها

مُحِقةٌ، وغيرها مبطل مع اشتراكهم في الاستدلال بالقطعيات، فكيف التمييز؟ وعلى تقدير أنه بالمعجز، فكيف يتميَّز عن السحر مع اشتراكهما في التخييل؟

فأجابه الرازي عمَّا ذكره من خصائص عيسى بأنه على التسليم يدلُّ على الأفضلية لا إلهية عيسى، فلا يتمُّ به الاستدلال، ثم أجابه تفصيلًا بأن كون عيسى في السماء أفضل من جهةٍ واحدةٍ، أما كون محمد في الأرض فله أفضلية من جهاتٍ، منها: أنه في الأرض رحمة للعالمين، فلا يسلط على المعرضين عذاب الاستئصال كالأمم السابقة، كما أنَّ زيارة قبره دعوة للنظر إلى قبره، والتبرك بحضرته، فأين مثل هذه الثمار من ثمرة رفع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التي كانت سببًا لكفر النصارى، وبين هذه الثمرة التي كانت سببًا لعلم العلماء، وكمال الصِّدِّيقين، ثم إن كان الجسد في الأرض فالروح في أعلى عليين، والعبرة بها، كما أنَّ عروج عيسى تخلَّى فيه عن حظوظ نفسه، لكن عرج معه جسده بخلاف عروج نبيِّنا، فقد تخلَّى عن جسده(١).

---

(١) بعض أو أكثر ما ذكره الإمام الرازي في هذا الجواب الأخير ممَّا قد ينازعه فيه غيره من علماء المسلمين، أو يطالبه بالدليل عليه؛ كجعله دفن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ دافعًا لعذاب الاستئصال، وسببًا لعلم العلماء، أو جعله العروج تجردًا عن الجسد، أو جعله رفع عيسى سببًا لكفر النصارى، ولو اقتصر على قوله: «العبرة بالروح لا بالجسد»، لكان كافيًا وسالمًا عن المعارضة.

وقد يقال أيضًا في الجواب: إن لكل نبيٍّ من الخصائص ما يناسب ظرفه، ويليق بعمله، ممَّا لا يستلزم الأفضليَّة، كما أنَّ الله أفهم سليمان كلام الطير، وسخَّر له الجنَّ، وآتاه الملك، وأسجد لآدم ملائكته، وألان الحديد لداود، ولم يزعم أحدٌ أن هذا يقتضي تفضيل هؤلاء الأنبياء على غيرهم، بل هذه خصائص لهم تناسب وقائع أمورهم، وخصيصة ظرفهم وأعمالهم، فمن أعمال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ نزوله آخرَ الزمان، فناسب أن يرفع في السماء ليتمَّ عمله، فأين في هذا =

وأجاب عن تفضيل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه روح الله وكلمته بأنّه متروك الظاهر؛ لأن الجسد لا يكون روحًا وكلمةً، واستحالة التركيب على الله بحيث تصير الروح عيسى، والباقي غيره، فلابد من التأويل(١)، وتأويله هنا أنه روح الله تشريفًا، وأنه كلمته؛ لمعرفته الكتاب والحكمة.

وأجاب عن كونه من غير نطفةٍ، بأن العبرة بالروح والمعنى لا بالجسد والصورة(٢).

وأجاب عن تجرُّد عيسى من اللذَّات بأن من اشتغل باللذات على قصد نفي الربوبية خيرٌ ممن ترك الزواج حتى اغتر بسببه أقوامٌ، ونسبوه للربوبية(٣).

الفضيلة على غيره من الأنبياء؟ أمّا لو أتممنا القصة بأنه جاء مبشرًا بمُحمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم حاكمًا وعاملًا بشريعته آخر الزمان، لم يبقَ وجهٌ للسؤال أو الإشكال.

(١) وغيره من العلماء يجعل الظاهر هنا الذي تشير إليه القرائن السياقيَّة المتصلة، والنصيَّة المنفصلة، أنَّ إضافة الروح إلى الله إضافة تشريفٍ، كما قال في سورة النساء: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، أي: من أمره كان الروح، وكما قال عن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، وتلقيب عيسى بالكلمة لأنها السبب القريب بخلاف غيره من البشر الذي سببهم القريب النطفة، فلذا أطلق عليه. وقد نوَّه على ذلك الإمام أحمد وغيره من علماء الإسلام، وقد تقدَّم الكلام على هذا في كتاب «الجواب الصحيح».

(٢) وقد أجاب غير واحدٍ من علماء الإسلام على مثل هذا بأنَّ ولادةَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من غير أبٍ آيةٌ من آيات الأنبياء، وقع لغيره من الأنبياء ما هو أكبر منها، لا تقتضي الألوهية، ولا التقديم المطلق على الأنبياء، وإلا لزم عليهم تفضيل آدم وزوجه على عيسى، وهم لا يقولون به، فبطل الملزوم والمدعى.

(٣) هذا جوابٌ على تسليم ما قالوه، لكن قد يفهم منه أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تسبَّب في إضلالهم، وربما كانت المعارضة أسهل وأسلم، فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يترك اللذَّات المباحة، بل كان يأكل

وأجاب عن استعمال السيف في دعوة الناس إلى الهدى، أنه كان مع مَن يجحدون المعجزات، ويعاندون البراهين، فناسبهم المقاتلة بالسيف.

وأجاب عن الأحاديث الموهمة للتشبيه، فقد ضرب له المثل بأنه مع علم كل عاقلٍ بامتناع الإرادة على الجدار سيعلم أنَّ قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]، وعليه إذا علم تنزُّه الباري عن الجسمية والعرضية ونحوها، ثم وصف بالحركة أو نحوها، علم أن هذا على طريق المجاز، أمَّا

=

الطعام، ويمشي في الأسواق [بل في كتابهم أنه طلب الخمر]، فيلزمهم تفضيل الملائكة عليه بذلك، وكل جوابٍ لهم هو جوابنا.

وقد يقال أيضًا: بل القيام بحقِّ الزَّوجات والأولاد مع تحمُّل أعباء الرِّسالة على الكمال، وتبليغها أتمَّ البلاغ، فيه زيادة عملٍ صالحٍ وقربةٍ؛ لما ثبت من شريعة الإسلام أن الزواجَ خيرٌ من تَرْكه، وأن القيام بحقوق الزوجة والأولاد من الفضائل المحمودة، فَإنْ كان هذا من شريعة التوراة، وعيسىٰ أيضًا، فهو المطلوب، وإنْ كان ممَّا نسخه الإسلام، فكان تغيير الحال من لوازم النسخ.

وقد يقال أيضًا: إنَّ عيسى ويحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لم يأتيا بشرعٍ جديدٍ، بل كانا تابعين لشريعة التوراة باستثناء بعض ما نسخه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من شرائع التوراة بخلاف محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي جاء بشرعٍ جديدٍ، فاحتاج أن يلابس أحوال الناس وأعمالهم ليجتمع له في التشريع والتعليم القول والعمل، ويرى من كمال خلقه، وجميل عمله في التجارة والزواج والحرب وغيرها من الأحوال ما يقتدي به الخلق، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، وكما جاء عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أمَّا والله، إنِّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنِّي أصوم وأُفطر، وأُصلِّي وأَرقد، وأتزوَّج النساء، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس منِّي**»، فناسب الزواج حاله عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكمل به، وناسب تركه حال عيسى ويحيى عليهم السلام، ولم يكن نقصًا فيهما، والله تعالى أعلم.

كونه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يشرح أو يسأل عن ذلك أصحابه؛ لأنَّ التنبيه على مثل هذا يُعدُّ قبيحًا لظهوره في ضرورة العقل.

وعن بيان الاختلاف، فقد بيَّن لهم عَلَيْهِ السَّلَامُ ما اختلفوا فيه في حياته، ولم يكن يلزمه ذلك إلى قيام الساعة، وإلا لما كان للعلماء حينها مَزيَّة على غيرهم، أو لا ثواب على فعلهم(١)، ثم إن هذا لازمٌ عليكم؛ لأن بسبب تجرُّد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وعروجه إلى السماء وآياته، وقعت البدع والكفر في دينكم، فإذا نزَّهنا عيسى عمَّا نُسِبَ إليه، فكيف ننسب إلى محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ما وقع من بعض المسلمين، أما الحروف المقطعة فإنه يحتمل أن تكون الحكمة فيها هو التهويل على الخَلق حتى يبقى القلب والعقل مشتغلًا بالفكر، وعدم سؤال الصحابة عنها لمهابة النبيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولمعرفتهم أنَّ في كتابه سرًّا لا يطلع عليه إلا الأنبياء والملائكة، وفي كتابه تعالى سرًّا لا يطلع عليه إلا هو.

أما تكفير الأشاعرة الحنابلة والعكس، فهو تبديعٌ لا تكفير مع اتفاقهما في القصد الحسن؛ كالتنزيه عند الأشاعرة، والفرار من البدع عند الحنابلة. أمَّا ما يُشنع به على أئمة المذاهب فهذا حكمهم بمقتضى ظاهر النص لا أنَّهم قطعوا

---

(١) ويقال أيضًا: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قد بيَّن كل ما يتوقف معرفة الحق عليه إلى قيام الساعة إذا اجتمع مع العقل والإنصاف، وإنما يحصل الانحراف والاختلاف إمَّا من قبل اتباع الهوى وترك الإنصاف، وإمَّا من قبل اتِّباع الظن والمتشابه، وترك اليقيني والمحكم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، فوظيفة النُّبوَّة في البيان قام بها محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ على أكمل وجهٍ، أما رد الأهواء وتزييف الظنون هذه وظيفة العلماء يقومون بها إلى قيام الساعة.

به، ولا يمتنع أن يكون صحيحًا.

أمَّا مَن اشتغلوا بالرَّقص والدُّف، فليسوا ممَّن يعتمد عليهم في الدِّين في علمٍ، ولا حكمٍ، ولا أصل ولا فرع.

أمَّا عن مقارنته بين سنوات نُبوَّة النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ المشوبة بأمر الدنيا، وسنوات المسيح التي تزيد على ألف سنةٍ في صفاء النفس وحضرة القدس، فأجاب الرازي بأنَّ ساعةً من ساعات محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ اهتدت بها أُمَّته خير من ألف سنةٍ ضلَّ بها النصارى(١).

أمَّا دعواه أن كل ملة تدعي أنها المحقَّة، وتقيم على ذلك الأدلة، فجوابه أن الرسل يحكمون بين الخلق فيما اختلفوا فيه.

أمَّا التفريق بين المعجزة والسِّحر، فَبأنَّ إبطال السِّحر لا يعجز عنه العلماء، وخواص الحكماء، بينما المعجز لا يقدر على إبطاله أحدٌ، وما أظهره محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقدر على إبطاله، فعلمنا أنه كان معجزًا.

منهج المصنف:

لا شك أنَّ طريق المناظرة يختلف من وجوهٍ عن طريق مَنْ يصنف كتابًا، يقسم أبحاثه، ويرتب محتواه بخلاف المناظرة التي لا تشتمل على ترتيبٍ محكمٍ، بل تتعدد فيها الأبحاث بتعدد الأسئلة والأجوبة، كما أنها قد تشتمل على تكرارٍ، وتكون مباحثها عفويةً تعتمد على ما يسمح به الخاطر، ويجود به

(١) سبقت الإشارة إلى أن مثل هذا الجواب قد يوهم أمورًا باطلةً في حق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فغيره أَوْلَى منه، فراجعه.

الذِّهن، فربما وقعت فيها إجاباتٌ لا يرتضيها قائلها عند التروِّي والتأمُّل بخلاف الكتب التي غالبًا تنال ما تحتاجه من التأمل.

لذا، فقد كانت مناظرة المصنف متنوعة المباحث، بين ما يتعلق بنقد أُلُوهية عيسى وإثبات نُبوَّة محمد، والكلام على إعجاز القرآن إلى ردِّ شبهات متنوعة تتعلق بالصفات والنبوات والتفسير وغير ذلك.

وقد غلب على المصنف النقد العقلي، ولم يستعمل المنقول من كتب النصارى، ولا المنقول من القرآن والسُّنة إلا نادرًا، فالرازي -كما هو معلومٌ- من أكابر المشتغلين بالمعقولات من علماء المسلمين، وربما لم يكن له اشتغالٌ بمعرفة الكتب المقدسة عندهم، والاحتجاج بها.

وقد جاء كثيرٌ من أجوبته برهانيةً مفحمةً كما اعترف بذلك مناظره، وبعضها كان جدليًّا جاريًا على طريقة المتكلمين، وبعضها كان مما قد ينازعه فيه غيره من علماء المسلمين من المتكلمين وغيرهم، كما تقدمت الإشارة إليه.

لكن في المناظرة مواطن من كلام النصراني تُوقِعُ الريبة في ثبوت هذه المناظرة أو بعضها، منها ما ذكره من أنَّ قول النصارى على عيسى: «ابن الله»، هي بُنُوَّة تشريفٍ كالخلة والمحبة لمحمد وإبراهيم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وهذا مخالفٌ لاعتقاد فرقهم التي كانت موجودةً في عهد الرازي، وكإقراره ببغض النصارى لمحمد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وسعيهم في تمزيق كتابه، وتنفير الناس عنه، وكإقراره بالغلبة والهزيمة، بل وحكاية كاتبها أنه أسلم عقب المناظرة.

فهذه المواطن التي يَبْعد وقوعها على هذه الصورة تشير إلى عدَّة

احتمالات؛ منها: أن يكون قد أُضِيفَ إلى المناظرة أشياء ليست منها مع ثبوت أصلها الذي حكاه الرازي في (تفسيره)، لكن كثير من أجزائها ليس له مصدرٌ سوى المُدوَّن في المناظرة، فلا يمتنع أن يُضَاف إليها أشياء من بعض النساخ، وإمَّا أن يكون بعض ذلك على سبيل المراوغة والمخادعة من النصراني، وحب التخلُّص لا حب نصرة الحق، وبعضه الآخر من العجائب التي ينذُر وقوعها، مثل أن يُسْلم إنسان عقب مناظرة في جلسةٍ واحدةٍ، ولكنه ليس مُحَالًا، خاصةً في حضرة إمامٍ في المعقولات كالرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٨

القرطبي

نبذة عن المصنف:

هو الإمام أبو العبَّاس أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر القرطبي المالكي، العلَّامة الفقيه المُحدِّث[١]، الشهير بابن المزين[٢]، وُلِدَ سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة بقرطبة.

من أشهر أعماله: أنَّه اختصر (الصحيحين)، ثم شرح مختصر مسلم بكتابٍ سمَّاه: (المفهم).

قال الصفدي: «وأتى فيه بأشياء مفيدة، وكان بارعًا في الفقه والعربية، عارفًا

---

(١) وصفه الذهبي في «تذكرة الحفاظ» بالعلَّامة المحدث، ووصفه السيوطي في «حسن المحاضرة» بالفقيه المحدث، والظاهر أنه يستحق هذه الألقاب وأكثر، فكتابُهُ هذا يشهد له بالإجادة للعلوم العقلية والنقلية، واطلاع جيد على الكتب المقدسة مع جودة العقل، وحسن المناظرة.

(٢) وقد حصل نوع اختلافٍ واضطرابٍ في تمييز القرطبي المذكور، فجعله القرطبي المفسر المستشرق الألماني بروكلمان، وتبعه على ذلك بعض الباحثين المسلمين، وتردد فيه آخرون مثل الدكتور أحمد حجازي السقا محقق كتاب «الإعلام»، ولكن تكاثرت وقويت القرائن على أن صاحب هذا الكتاب هو أبو العباس القرطبي المذكور، خاصةً لما طبع كتابه «المفهم»، والذي احتوى على إحالاتٍ على هذا الكتاب، وانظر لمزيدٍ من التفصيل والأدلة في هذا الخلاف «جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى في عصر المرابطين والمُوحِّدين» (٤٠٦)، «مقدمة إثبات النبوة» لأبي العباس القرطبي، تحقيق أحمد آيت بلعيد، وهو جزء من كتاب «الإعلام».

بالحديث». اهـ[١].

وتُوفِّي بالإسكندرية سنة ستٍّ وخمسين وست مائةٍ.

اسم الكتاب:

(الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإثبات نبوة نبينا محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)[٢].

وصف الكتاب:

بدأ المُصنِّف كتابه ببيان سبب تصنيفه له، وهو أنَّ بعض النَّصارى صنَّف كتابًا سمَّاه: (تثليث الوحدانية)! تعرَّض فيه لدين المسلمين، ونال منهم[٣]، ثم تكلم المصنف بلغةٍ حادةٍ على صاحب هذا الكتاب، وأزرى على لغته وعقله[٤]، ثم تعرَّض لسبب تصدُّره للرد بعد أن عزم على الإعراض عنه، وهو

---

(١) الوافي بالوفيات (٧/ ١١٣).

(٢) هذا أكمل اسمٍ ذكره المصنف لكتابه هذا في كتاب «المفهم» (٧/ ٤٠٤)، وقد ذكره في مواطن أخرى باسم «الإعلام» فقط، أو «الإعلام بصحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام»، ولكن الظاهر أن هذا على سبيل الاختصار.

(٣) ولقد وجدت بعض العبارات في الكتاب المردود عليه، هي نفسها في الرسالة التي أرسلها القسيس إلى أبي عبيدة الخزرجي، ورد عليها أبو عبيدة في كتابه «مقامع هامات الصلبان»، فربما يكون المردود عليه هو صاحب هذه الرسالة نفسها، وقد اقتبس منها في كتابه، وربما يكون غيره وقد اقتبس منها، فالله أعلم.

(٤) ولعلَّ ما حمله على هذه الحدة التي غلبت على كتابه: تعرض المردود عليه للمسلمين ودينهم، فاستحق المثل، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فاستثنى الظالم من المجادلة بالحسنى.

أن صاحب هذا الكتاب تبجَّح عند قومه بسكوت علماء المسلمين عن جوابه، والَّذي كان إعراضًا، فقصد بعضُ الناس المُصنِّفَ، واستنفره للرَّدِّ على صاحب الكتاب، فَتعيَّن عليه، وسُرَّ به واغتنمه، ورآه من النِّكاية في العدوِّ بالبرهان واللِّسان، وتعرَّض في ثنايا كلامه لمنهجه في كتابه، وأنه سيسلك سبيل الإنصاف، ويَتْرك طريق التعصُّب والاعتساف، وأنه سيبين أخطاءه وتناقضه وسوء نقله، ثم سينقل مذهب الأساقفة والرهبان، ويبين ما فيها من الفساد والتناقض.

ثمَّ جعل المصنف صدر كتابه في تناول عنوان الكتاب المردود عليه، وخطبة افتتاحه، فتكلم على العنوان (تثليث الوحدانية في معرفة الله) من جهة اشتماله على التناقض؛ لأن الوحدانية معناها راجع لنفي التعدُّد والكثرة، وهو مناقضٌ لإثبات التثليث، أمَّا معرفة الله فقد رأى القرطبي أنَّ المردود عليه لا نصيب له منها؛ لأنَّ الكتاب لم يشتمل على حُجَّةٍ صحيحةٍ، ولا قولٍ فصيحٍ يفيد هذا، ثم تناول ألفاظ افتتاحه عبارة تلو الأخرى منتقدًا للعبارات الخاطئة أو الضعيفة النازلة عن درجة البلاغة؛ كقوله: «بالغ القوى» و«تعارفنا في الحمد»، أما العبارات الصحيحة كألفاظ الحمد ونحوها فقد جعلها مما يجري على لسانه دون تحققٍ بمعناه، لما ينسبه لربِّه من النقص، وما يجعلونه له ممَّا يكرهونه لأنفسهم أو رهبانهم.

جعل المصنف الباب الأول عن الأقانيم، وإبطال قولهم فيها.

ثمَّ ذكر الفصل الأول للردِّ على حجةٍ للنصرانيِّ مفادها: أن خلق الله بقدرة وعلم وإرادة، فإن كانت هذه أسماء لذاته فهو تجسيم، وإن قلت أسماء لأفعاله،

فهي الأقانيم.

فردَّ عليه المصنف بطرقٍ؛ منها: أن التقسيم غير حاصرٍ؛ لأنه يمكن أن يقال: هي أسماء الصفات.

وأيضًا بعدم لزوم التجسيم لمَنْ جعلها أسماء للذات، ثم بإحالة انطباق أسماء الأفعال على الأقانيم أو على صفات الله.

ثمَّ ناقش المصنِّف في الفصل الثاني حُجَّة للنصراني بدأها بسؤالٍ عن سبب قولهم باسم الآب والابن والروح القدس بدلًا من بسم العالم القادر المريد؟ ثم أجاب بذكر المنقول، وهو ما ينسب للمسيح: «عمدوا الناس باسم الآب والابن والروح القدس»، ومن المعقول أنَّ الله خلق بالقدرة فسماها أبًا، وسمى وعظ الناس بالعلم ابنًا، وإفناء الدنيا ومكافأة أهلها بالإرادة الروح القدس؟

فَردَّ عليه المُصنِّف بإظهار ما في صيغة السؤال من الخطأ واللحن، ثم انتقل للمنقول، وذكر أننا لا نعلم ثبوته، وعلى التسليم بثبوته فهو من المتشابه الذي تُوهِّنه الاحتمالات، فلعله أراد بالأب الملك الذي نفخ الروح، والابن نفسه، ولعله أطلق الأب على الله على معنى الشفيق الرحيم أو الهادي المرشد، وذكر شواهد ذلك من الكتاب، وهذه الاحتمالات تجعله من المتشابهات التي لا يحتج بها في الاعتقادات، ثم من جهةٍ أخرى لا يمكن إطلاق الأب والابن على القدرة والعلم؛ لا حقيقةً، ولا مجازًا؛ لأنَّ معنى الأب والابن المعروف مُحَالٌ على القدرة والعلم، والمجاز يحتاج لجامعٍ، ولا جامع هنا.

ثمَّ في الفصل الثالث تعرَّض لجواب النصراني على سؤالٍ أورده على

نفسه، وهو: لماذا قالوا بالتثليث وأسماء الأفعال أكثر من ثلاثةٍ؛ كعزيز وسميع ونحوهما؟ وأجاب: بأنَّ مردَّ الأسماء كلها إلى القدرة والإرادة، وما لا يمكن ردُّه كالحي والقديم، جعلها أسماء ذاتٍ تؤدِّي معنًى واحدًا لنفي ضده.

فأجاب المصنف -بعد التوبيخ المعتاد على لحن السؤال وخلله- بأن رَدَّ الأسماء إلى ثلاثةٍ تحكم محض، ودعوى مجردة يسهل مقابلتها بمثلها، ويمكن على منوالها ردُّ الإرادة إلى العلم أو القدرة إلى الوجود، ثم رد زعمه بأن الحيَّ ونحوه من صفات السلوب والنفي، ولو سلَّمنا يمكن أن يُقَال على منواله أنَّ العلم كذلك؛ لأنه لنفي الجهل.

ثمَّ ذكر في الفصل الرابع شرح النصراني للتثليث والأقانيم بأنها ثلاث خواص لجوهرٍ قديمٍ أزليٍّ لا يتبعض، ولا يتجزأ.

فردَّ المصنف بأن شرحه هذا مباينٌ للملة النصرانية التي ترى أن الأقانيم الثلاثة آلهةٌ، وليست مجرد خواص، مع إنكاره لإطلاق الجوهر على الله؛ لعدم وروده، وإشعاره بالنقص.

ثم تناول في الفصل الخامس شرحًا آخر مفادُهُ أن حياة الله ونطقه يمتنع أن يكونا جزئين من جوهره، كما في الإنسان لتنزُّه الله عن التأليف والتركيب، ولا عرضين حادثين؛ لأنه يلزم عليه اتِّصاف الله تعالى بالموت والجهل، فتبقَّى أنَّ لكلِّ واحدٍ منهما أقنومية خاصة.

فتعرَّض المُصنِّف ابتداءً إلى اختلاف وتضارب المذاهب حول الأقانيم التي تدلُّ على التخبُّط والحيرة، ثم ذكر قول أوغسطين الذي رأى أنه أبعد عن الملة النصرانية، وأقرب إلى الحنيفية، ثم تَطرَّق للردِّ على النصرانيِّ بأنَّ العلم

والحياة يمتنع كونهما من صفات النفس، أي: الصفات الذاتيَّة[١]؛ لأنَّه يلزم من هذا التركيب والتبعُّض، والله مُنزَّهٌ عنه، وإن كانا خارجين عن الذات فهما من الصِّفات المعنوية، ولا يلزم من تعدُّدها مُحَالٌ، لكن حينها يمتنع أن يقال: إنها مستغنيةٌ عن أصل جوهرها، أو أنها عين الجوهر، فليس يمكن على الأقانيم أن تكون صفات نفسية، ولا معنوية، فقولهم فيها غير معقولٍ. ثم هذه الأقانيم إما أن تكون أجزاء إلهٍ أو آلهة، والجزئية يلزم منها التبعُّض، وإن كانت آلهةً للزم أن تكون موصوفةً بالحياة والقدرة ونحوها، فستكون الصفات (التي هي أقانيم العلم والإرادة والحياة على قولهم) موصوفة بصفاتٍ أخرى، فلا يمتنع أن تكون الصفات الأخرى موصوفةً أيضًا، فيفضي هذا إلى التسلسل، أو لا نهائية الأقانيم، وهو مُحَالٌ.

جعل المُصنِّف الباب الثاني في ذِكْرِ مذهبهم في الحلول والاتحاد وإبطاله، ثمَّ ذكر في الفصل الأوَّل شرح النَّصراني لمسألة اتحاد أقنوم الابن بالمسيح، فطرح على نفسه أسئلةً من قبيل: لِمَ بعَّضتم الذات وهي لا تتبعَّض، ولِمَ جعلتم

(١) تقسيم الصفات إلى ما هو داخلٌ في الماهية، وما هو خارجٌ عنها، من المواطن التي تابع فيها بعض المتكلمين المناطقة الأرسطيين، ونَازَعهم في ذلك طائفةٌ من نُظَّار المسلمين وغيرهم، من أشهرهم: أبو العباس ابن تيمية في كتاب «الرد على المنطقيين»، وغيره من كتبه، وشرح أنه تقسيمٌ مقدرٌ في الذهن، وفصل قائم على الاصطلاح المتفاوت لا على حقيقةٍ، فليس في الخارج إلا ذاتٌ تقوم بها الصفات، وهذه الصفاتُ مباينةٌ للذات من جهة إمكان الفصل بينهما في الذهن، أو تقدير الذات منفصلة عن الصفة، أما في الخارج فليس إلا ذات تقوم بها الصفات، فيتحصَّل من ذلك أنه لا يطلق على الصفة أنها داخلةٌ في الذات، أو زائدة عليها، بل يقال: هي خارجةٌ عن الذات من جهة تقدير الذهن، وليست خارجةً من جهة أنها قائمةٌ بالذات لا تنفصل عنها.

الاتحاد مختصًّا بأقنوم الابن دون غيره؟ وأجاب بأن المسيح إنما اتخذ في الدنيا للموعظة، والوعظ مختصٌّ بأقنوم العلم دون غيره، ولذا جاء في الكتاب: «التحمت الكلمة، وسكنت فينا».

فأجابه المصنف بأمورٍ؛ منها: أنَّ عيسى قد اتَّخذه الله لإبراء الأكمه والأبرص وغيرها من الأمور المتعلِّقة بالإرادة والقدرة، فلا فرق بينهما وبين العلم إلَّا بالتحكُّم، أما النَّصُّ الذي احتجَّ به؛ فهو قول يوحنا وهو غير معصوم، وعلى تقدير عصمته فكتابكم قابلٌ للتحريف، وعلى تقدير ثبوته، فهو محتملٌ وليس نصًّا؛ لأنَّ فيه: «فالتحمت الكلمة، وسكنت فينا»، فالالتحام ليس خاصًّا بالمسيح، بل بكل مَن آمن، وأنتم لا تخصون المسيح بالاتحاد، فالسياق يدلُّ على تأويل النص.

ثمَّ في الفصل الثاني نقل كلام النصراني الذي صَدَّره بسؤالٍ عن معنى الاتحاد، فأجاب بأنهم يقولونه تقليدًا للإنجيل والنبيين، ثم تساءل عن جوازه العقلي، كيف يتوحد القديم بالحادث؟ وأجاب بأنهم يقولون: صار الحادث إلهًا، وليس صار الإله حادثًا؟ ثم ردَّ علَّة الاتحاد إلى الإرادة، كما يرد خَلْق العلم إليها، ثم وصف الاتحاد بأنه قديمٌ بالقوة، حادثٌ بالفعل.

فأجابه أولًا بالتوبيخ على حَيْدته في الجواب، حيث لم يشرح معنى الاتحاد، ثم بيَّن أن الأنبياء لا يمكن أن يأتوا بما تُحيلُهُ العقول، ثم شنَّع على قوله: «صار الحادث إلهًا»، فكيف تتصور الإلهية لمحدثٍ مخلوقٍ يجوع ويفرح ويعذَّب بالضرب، مع تصريحه بالعبودية، ثم نقل بعض نصوص العُبُوديَّة من القرآن

والإنجيل، ثم تعقب تشبيهه الاتحاد بتحوُّل الفحمة إلى نارٍ، بعدم المطابقة؛ لأنَّ النارية حادثةٌ.

ثمَّ في الفصل الثالث نقل احتجاج النصراني بكلام الله لموسى، كيف كان؟ إن قيل: كلَّمه بنفسه، ثبتت له جارحة النطق، فلزمت الجسمية، وإن قلتم: خلق كلامًا، فقد أثبتم كلامًا جوهرًا في نفسه واسطةً بين الله وموسى، قال لموسى: ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾، وقال له موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فردَّ عليه المصنف بأن السؤال بـ «كيف» لا يتوجَّه على الله تعالى، ثم ردَّ على الإلزام بالجارحة بأنه لا يلزمه؛ لأنه يثبت الكلام القديم القائم بذات الله ليس بحرفٍ، ولا صوتٍ يخرج من لهواتٍ ولسانٍ كما يحدث الإنسان نفسه بغير حرفٍ أو صوتٍ. فإن قيل: وكيف سمع موسى هذا؟ ردَّ بامتناع السؤال بـ «كيف»، ولو سلَّمنا بصحته، فإنه يُسمع من غير صوتٍ أو حرفٍ(١) كما يسمع من غير أُذُنٍ، ويراه المؤمنون في الآخرة من غير لونٍ، ولا جسمٍ.

ثم نقل المصنف عن النصراني في الفصل الرابع حُجَّةً أخرى مفادها قياس المسيح على الصدى، من جهة أن الصدى خاطب موسى بقوله: «أنا الله»، وخاطبه

---

(١) إثبات المُصنِّف لصفة الكلام لله تعالى بغير حرفٍ ولا صوتٍ هي الطريقة الشهيرة التي جرى عليها الإمام الأشعري ومَن تبعه، وقد كان المُصنِّف رحمه الله على طريقته كما هو ظاهرٌ من كتابه، أمَّا ظواهر النُّصوص والمنقول عن السلف، ومقتضى لغة العرب، إثبات كلام الله كصفة فعلٍ تتعلق بإرادة الله تعالى، وتليق بجلاله، وليست معنًى أزليًّا قائمًا بذات الله كما ذهب الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومَن تبعه، وللإمام أبي نصر السجزي رسالة مفردة لمناقشة الأشعري رحمه الله فيما ذهب إليه.

موسى وسجد له، فكذلك صدق المسيح في قوله: «أنا الله»، واستحق العبادة.

فأجابه المُصنِّف أنه لو صحَّ ما يقول، للزم من ذلك ألوهيَّة الصدى، وبطلان ألوهية الله، ولَوجب على الأنبياء عبادته، وهذا يخالف المأثور عن الرُّسل، وألزمه أيضًا أن يكون الإله حادثًا، وهو مُحَالٌ، وأبطل أن يكون المسيح قال: «أنا الله»، بل ثبت عنه عكسه.

ثم عقد المصنف الفصل الخامس لشرح مذاهب النصارى في الاتحاد والرد عليها، فحكى أقوال الأريوسية واليعقوبية والنسطورية والروم (الملكية)، ثم تناولها بالنقد واحدًا واحدًا.

أمَّا مَن نفى المعرفة بالكيفية، فرده بأن إثبات شيءٍ يستلزم المعرفة بكيفيَّته؛ إما إجمالًا، وإما تفصيلًا، وأما مَنْ شبه الاتحاد باختلاط الخمر بالماء، فألزمه بأمورٍ محالةٍ؛ منها قيام الصفة بنفسها، وانفصالها وانتقالها، ومثله مَنْ قال بالحلول، ثم تكلم على مَنْ قال بتحوُّل الكلمة إلى اللحم والدم بلزوم جواز تحوُّل القديم إلى حادثٍ، وهو مُحَالٌ، ثما تناول سائر التشبيهات بالإلزام بالمُحَالات.

ثم انتقل إلى مساءلتهم عن السبب الذي حَمَلهم على القول بالاتحاد؟ ثم أجاب عنهم بأمورٍ مختلفةٍ، فمنهم مَنْ يقول: تقليدًا للإنجيل، ومنهم مَن يحتج بالمعجزات، ومنهم من يحتج بالولادة المعجزة.

فأما مَن احتجَّ بالإنجيل، فأحال إلى ما سبق من الرَّدِّ عليه، ومن احتج بالمعجزات، فبيَّن أن المسيح احتج بها على رسالته، وأنتم تستدلُّون بها على ألوهيَّته، ثم ذكر من الكتاب أنه كان يتوجه إلى الله بالدعاء لحصول هذه الآيات، كما أنَّ مثل

هذه الآيات حصلت على يد غيره؛ كإحياء الموتى على يد إلياس واليسع.

أمَّا من احتج بالولادة، فألزمه بإلهية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أما مَن احتجَّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، فأجاب بتتمَّة الآية وهي: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ﴾ [النساء: ١٧١].

ثمَّ ختم المصنف هذه الفصل بأنواعٍ من الإلزامات على القول بالاتحاد، يلزم منها المُحَال الصَّريح أو التناقض، من أمثلة ذلك: قولهم باتحاد أقنوم العلم بعيسى، فيقال: هل تغيَّر الرب به؟ فإن قالوا: لا، لزم عدم انتقال شيءٍ لعيسى، وإن قالوا باختلاف حاله، لزم تحوُّله إلى الجهل والحدوث، وهو مُحَالٌ، ومنها التناقض بين دعواهم بعد تغاير الأقانيم واتحادها، وبين دعواهم أن أقنوم الابن اتَّحد بعيسى دون أقنوم، وألزمهم أيضًا بأفعال عيسى الاختيارية التي يلزم منها ثبوت القدرة والإرادة له، ويجري عليها ما يجري على العلم، إما أن تنسب كلها لله، وإما لعيسى.

ثم عقد المصنف الفصل السادس لنقل كلام «أوغسطين» الذي سمَّاه زعيم القسيسين، وتعقبه بالرَّدِّ، فنقل عنه حجة الصدى الذي سمعه موسى، وأنه كما أمكن خَلْق صوتٍ يخاطب كما يخطب الرب تعالى، ويسجد له، فالله قادرٌ على اتخاذ صورةٍ يظهر لعباده فيها.

وأجابه المصنف بنفي ثبوت الصوت لله كما تقدم منه ذلك في ردِّه على النصراني، ثم ألزمه في إثبات الصورة بالوقوع في التشبيه الذي هو معرضٌ عنه،

ثم ألزمه بِعدَّةِ أمورٍ من المُحَالات، وكذلك بأنَّ القدرة إنَّما تتعلَّق بالممكنات، أمَّا المستحيلات فلا تتعلَّق بها القدرة، ثم رد أصله الذي قاس عليه بأنَّ موسى لم يخاطب الصوت -على التسليم به- بالرُّبوبية، وإنما خاطب صاحب الصوت.

ثم عقد المُصنِّف الباب الثالث للكلام على النُّبوات، من جهة حكاية أقوالهم وردها، والكلام على النبوات وإثبات نُبوَّة محمد ﷺ، ونقل في الفصل الأول كلامًا عن النصراني رمى فيه أهل الأديان بالتقليد، واتباع سُنَّة الآباء، فيحكمون على أنفسهم بالإيمان، وعلى غيرهم بالكفر، ثم انتهى إلى لزوم تقديم البيِّنات على الدعوى، فالنصراني يدعي نسخ دين اليهودي، فلابد من بيِّنة في كتابه على ذلك، والمسلم يدَّعي نسخ دين النصراني، فلابد من بيِّنة من كتابه على ذلك.

فَردَّ المصنِّف تعميمه، وبيَّن أنَّ أهل الفضائل لا يقنعون بالتقليد، بل يطلبون الحقَّ، ويبذلون في طلبه، وأشار إلى أنَّ القرآن ذمَّ تقليد الآباء، وأمر بالنظر الصحيح، ثم ردَّ دعواه بأنَّ دينه نسخ شرع اليهود بقول المسيح: «ما جئتُ لأنقض شرع مَن قبلي، بل لأتممه»، وبمَن جاء بعد موسى من الأنبياء، ثم ختم بأن نُبوَّة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ ثبتت بطرقٍ متعددةٍ، منها بشارات الأنبياء، ولو لم يبشروا به لثبتت نُبوَّته بطرقٍ أخرى.

ثم ذكر في الفصل الثاني كلام النصراني الذي يحتجُّ به على اليهود من إيمانهم بالمسيح المنتظر، والدليل على مجيئه افتراقهم إلى مؤمنين به وكافرين، وأن الكافرين به هم اليهود، وعلامة كونهم كافرين هي الذلَّة والفرقة فيهم.

فأجابه المصنف بعد توبيخه المعتاد على ضعف الاستدلال أنَّ ما احتج به على اليهود هو نفس الدعوى التي تفتقر للدليل، ولا تصلح دليلًا، أمَّا ما جَعَله علامةً على كفرهم من الذلة والفرقة، ألزمه المصنف بأنه ينسحب على ما يزعمونه عن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الصفع والتقييد، ونحوه.

ثم نقل في الفصل الثالث كلام النصراني حول بعض نصوصٍ من العهد القديم تتحدَّث عن المسيح والحواريين والقديسين، فأجابه المصنف بأنَّ الاحتجاج بهذه النصوص يتوقف على مقدماتٍ من إثبات حدوث العالم، وإثبات كمال محدثه، وهذا يعرف بالأدلَّة العقلية القطعية، ثم النقل عن الرسل يتوقف على تثبيت النقل، وفهم دلالة اللغة، وهذه المقدمات لم تتوفر للنصراني.

ثم انتقل للكلام على كتبهم المقدسة لبَيان ما وقع فيها من السهو كمثلٍ على عدم تحقق هذه الشروط، فعقد فصلًا لإثبات وقوع الخلل في التوراة، فذكر ما جاء في (سفر التثنية) من حكاية وفاة موسى، وسنه عند وفاته، وبكاء بني إسرائيل عليه، وأنه لا يعلم موضع قبره، فهذا ليس مما أنزل على موسى، فإما أن يعترفوا بأن هذا ليس كلام موسى، فيلزمهم وقوع الخلط في التوراة بلا تمييزٍ، وإما أن ينسبوه لموسى، فيكذبهم السِّياق، ثم قارن هذا بالقرآن، وعناية علماء المسلمين بتمييزه عن التفسير وأسماء السور.

ثم ذكر ما لحق بالتوراة من الحرق على يد بختنصر وغيره، وذلك يدلُّ على امتناع حصول التواتر في نقلها.

ثم تطرَّق لما يرمي به اليهود بعضهم من تحريف التوراة، كما يقال على

السامرية، ثم أورد على نفسه سؤالًا مفاده أن الأنبياء كانوا يحكمون بالتوراة، ويرجعون إليها إلى زمن عيسى، فيلزم أن الأنبياء أقروا الباطل، وهو محالٌ، فَردَّ ذلك بأنهم لم يعينوا للتحريف زمانًا، ولا شخصًا، فيحتمل أن التحريف كان قبل الأنبياء أو بعدهم، وإنما أَبْدَينا الاحتمال، ثم إن دعواهم حكم الأنبياء بها ليس حُجَّةً؛ لاحتمال أن الله أطلعهم على ما يوافق شريعة موسى مما يخالفها(١)، وعلى التسليم ربما كانوا يحكمون بما لم يحرف.

ثم انتقل المصنف لبيان ما في التوراة مما يتنزَّه عنه الله تعالى وأنبياؤه، فذكر وصف الله بالندم، وصفات المخلوقين، ونسبة الفاحشة إلى لوط، ويعقوب إلى الخداع، ونسبة يهوذا إلى الزنا بامرأة ولده، وداود إلى الزنا، إلى غير ذلك من الحكايات الوخيمة الفاحشة غير المستقيمة، والمتعارضة مع نصوص توراتية

---

(١) قد ورد في كتب العهد القديم ما يؤيد هذا الاحتمال، ففي إرميا (٨/ ٨): «٨ كيف تقولون: نحن حكماء، وشريعة الرب معنا؟ حقًّا إنه إلى الكذب حولها قلم الكَتَبة الكاذب».

وفي حزقيال (١٨): «١وكان إلي كلام الرب قائلًا: ٢ ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل، قائلين: الآباء أكلوا الحصرم، وأسنان الأبناء ضرست؟... وأنتم تقولون: لماذا لا يحمل الابن من إثم الأب؟ أما الابن فقد فعل حقًّا وعدلًا، حفظ جميع فرائضي، وعمل بها، فحياة يحيا ٢٠ النفس التي تخطئ هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون».

وهذا نصٌّ صريحٌ بأن النبي حزقيال أُوحِيَ إليه بتكذيب بعض ما افتراه الكَتَبة من أن الابن يحمل إثم الأب، وذكر في سفر الخروج (٣٤/ ٧): «مفتقد إثم الآباء في الأبناء، وفي أبناء الأبناء، في الجيل الثالث والرابع»، فأَوْحَى الله تعالى -على تقدير صحة النَّصِّ- إلى النبي حزقيال لانتقاد هذا النَّصِّ وتصحيحه.

أخر تثني على هؤلاء الأنبياء.

ثم عقد فصلًا للكلام على الإنجيل، صدَّره بأن الكتاب الذي بِيَدِ النصارى ليس هو الإنجيل المذكور في القرآن، بل هي سيرة عيسى وبعض أحواله ومعجزاته كتبها بعض أتباعه، ولا يصحُّ تسميته كتاب الله إلا مجازًا؛ لاشتماله على أحوال أحد الأنبياء، ثم ألزمهم على هذا أنَّ أي كِتَابٍ يشتمل على حال نبيٍّ من الأنبياء يسمَّى كتابًا أيًّا كان مُؤلِّفه.

ثمَّ ذكر بعض ما يحتجُّون به على صحَّة كتابهم، وهو عصمة الكُتَّاب الأربعة، ويستدلون على عصمتهم بأنَّ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ شهد لهم، وجرت المعجزات على أيديهم، فردَّ المصنف على ذلك من وجوهٍ، منها: اشتمال هذه الحجة على الدور؛ لأنهم أوقفوا صحة الكتاب على العصمة، واحتجوا على العصمة بما في الكتاب، وأيضًا بأنَّ الكتاب ليس فيه ما يدلُّ على العصمة، وبأنه يشتمل أيضًا على ذمِّ المسيح لهم(١).

ثمَّ ذكر بعض مواضع الغلط في الإنجيل، فذكر بعض الأقوال المتناقضة المنقولة عن المسيح، وذكر التناقض في نسب المسيح، والشناعة في نسبته إلى يوسف النجار.

---

(١) هذا كله من المصنف على طريق التسليم بأن الكُتَّاب الأربعة من الحواريين، بينما يمكن معارضة ذلك؛ لأنَّ اثنين منهم ليسوا من الحواريين بلا نزاعٍ، وهما: مرقس ولوقا، والآخرين وهما: متَّى ويوحنا ينازع كثيرٌ من المحققين في كونهما من التلاميذ، وأقل ما في ذلك أنه لا دليل على أنهما متَّى ويوحنا الحواريان، لا من كلامهما، ولا من كلام غيرهما.

فحصل من هذا كلِّه أن الكتابين المقدسين عندهم لا تحصل الثقة بهما، ثم ختم الفصل بنَفْي أن يكون في كلامه ردٌّ لنُبوَّة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو تشكيكٌ فيها، بل نحن أَوْلَى بعيسى منكم، وأنتم أبعد من الله وأبغض إليه ممن أنكر نُبوَّة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم نقل في الفصل السابع كلامًا للنصراني عن ضرورة إقامة دليل إثبات دين الإسلام من التوراة والإنجيل كما أثبتوا هم دينهم من كتب الأنبياء، فالمسلمون مُقرُّون بالكتابين، وهم لا يقبلون من كتاب المسلمين شيئًا، والبينة على مَن ادَّعى، ثم تناول حكمًا شرعيًّا يتعلق باشتراط دخول زوج المطلقة ثلاثًا بها حتى تحل لزوجها الأول، وأنَّ هذا أمر بالزنا؛ لأنَّ المسيح جعل مَن تزوج المطلقة زنا بها، ثم انتقل النصراني إلى ما يبدو أنه قصد إلى الشتم والتجريح ردًّا على كتابٍ جاوبه به أحد علماء المسلمين(١)، ثم تعرض لهاجر -عليها السلام- بالذم، وأنه مع ذلك لم يذكر عُشر ما ذكرته بها التوراة.

فردَّ عليه المصنف أننا نؤمن بالتوراة والإنجيل المنزلين على رسل الله قبل التغيير والتبديل، أما ردُّهم لكتاب المسلمين فَردَّه المصنِّف للعناد، فما ينبغي أن يستدلَّ على فساد ديننا كما يفعل هو مع دينهم، وأجاب على قوله: «البيِّنة على

---

(١) فقد قال القرطبي: «إنِّي وقفت على الكتاب الذي جاوبك به بعض أصحابنا».اهـ.

فقوله: «أصحابنا»، ربما قصد به أنه من علماء المسلمين، وربما قصد به أكثر من هذا؛ كالمشاركة في المذهب أو البلد، وربما قصد أبا عبيدة الخزرجي، فهو قرطبي أيضًا، لكن لم أجد الكلام المنقول عن هذا العالم المذكور في كتاب أبي عبيدة، فالله تعالى أعلم.

مَن ادعى» بشهادة الأنبياء العارفين، ثم ذكر بعض البشارات في الكتب السابقة مثل ما في كتاب حبقوق: «جاء الله من التيمن، وتقدس من جبال فاران، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد وتقديسه، وملك الأرض بهيبته»(١).

ثمَّ تعرَّض المصنِّف لمسألة نكاح المطلقة ثلاثًا بأن منع النصراني له إما من جهة العقل أو الشرع، فأما عقلًا فلا مانع منه، فما المانع من أن يحكم به مَنْ قامت الأدلة القاطعة على نُبوَّته، وأما شرعًا فالشرائعُ متباينةٌ بدليل وجود الطلاق في شريعة موسى، فخالف عيسى ذلك في كتابهم، فلا مانع أن يخالف شرع الإسلام شرع عيسى وموسى، ثم تحدث عن حكمة هذا التشريع، ثم رد على ما ذكره من التشنيع والتقبيح بأن شرع الإسلام يمنعه من الرَّدِّ بالسباب، وبأن فعل النصراني مخالف لما أمر به الإنجيل من عدم الانتصاف من المظلوم، أو مكافئة الإساءة بمثلها.

ثم بيَّن له أن ما فَهِمَهُ من قدح الكاتب المذكور في المسيح فهمٌ خاطئٌ، ومع ذلك فقد بادر النصراني إلى الردِّ والتقبيح مكابرةً ومجاهرةً.

ثم انتقل إلى تناول كلامه عن هاجر -عليها السلام- بأنه يستلزم القدح في الخليل إبراهيم، بل كذلك في سارَّة وإسحاق، ثم ردَّ ما أوهمه من ذمِّ التوراة لها ولولدها بأنه كذبٌ صراحٌ وكفرٌ بواحٌ، ثم ساق المصنف قصة هاجر من التوراة،

---

(١) هو الآن في حبقوق (٣/ ٣): « (٣) الله جاء من تيمان، والقدوس من جبل فاران، سلاه، جلاله غطى السماوات، والأرض امتلأت من تسبيحه».

ومخاطبة المَلَك لها، والذي يفيد كونها نبيةً أو صدِّيقةً[(١)]، ولم يرد مثل هذا لسارَّة، وفيه مدح الله إسماعيل، وذكر فيه ما لم يذكر في إسحاق من مباركته وتكثيره، وفي هذا بشارةٌ وخبرٌ عن محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم بيَّن تدليس النصراني، وبَتْره في النقل لينفي فضائل هاجر وولدها إسماعيل، ويوهم ذم التوراة لهما.

ثم انتقل المصنف للقسم الثاني في الباب الثالث، والذي خصَّصه للكلام على النُّبوات، وإثبات نُبوَّة مُحمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقسمه إلى مقدمتين وأربعة أنواعٍ.

خصَّص المقدمة الأولى للكلام على معنى النُّبوة والرسالة، وبيان المعجزة، وشرح حقيقتها، ووجه دلالتها.

ثم خصص المقدمة الثانية لبيان أن ما ظهر على يد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من المعجزات كان للإقرار برسالته لا بإلهيَّته، وذكر فيه قصة طويلة وصفها بأنها استفاضت في كتب التاريخ عندنا وعندهم، فيها أن بولس اليهودي لمَّا خاف من أن يكثر أتباع المسيح، لبس لباسهم، وأظهر الانتساب لهم ليضلهم، وأظهر

---

(١) هكذا ذكر المصنف الاحتمالين على السواء، فإما أن يكون إلزامًا للنصراني بما في كتابه، وليس تصحيحًا أو اعتقادًا له، وإمَّا أن يكون يرى إمكان النبوة في النساء، ويقوي هذا الاحتمال أنَّ تلميذه القرطبي المفسر قد صحَّح نبوة مريم عليها السلام في تفسيره (٤/ ٨٣)، فربما يشير هذا مع ما هنا أن القول بالنُّبوة في النساء من الخلاف السائغ عند المصنف وتلميذه، ويحتمل أن يكون اختيار ابن حزم الأندلسي لصحة وقوع النبوة للنساء أثر في علماء الأندلس بعده، بينما في كلام غيرهم من العلماء نقل الإجماع، وعدم تسويغ الخلاف في هذا. قال ابن تيمية في الصفدية (١/ ١٩٨): «وقد حكى الإجماع على أنه لم يكن في النساء نبيَّة غير واحدٍ؛ كالقاضي أبي بكر بن الطيب، والقاضي أبي يعلى، وأبي المعالي الجويني، وخلاف ابن حزم شاذ مسبوق بالإجماع».اهـ.

فيهم القول بالتجلِّي الإلهي في صورة المسيح، ومن ذلك اختلفت الفرق، وأن قسطنطين إنما أخذ من أقوال الفرق المختلفة ما يوافق عقائد قومه.

ثم قال: إنَّ هذه الوقائع لا يمكن إنكارها جملةً وإن أنكروا بعض تفاصيلها، وعلى التسليم بأنها لا تعلم صحتها، فشَرْعهم قابلٌ لأمثالها، فمعتمدهم في أمر دينهم على الإنجيل، ولم يتواتر، ويُعوِّلون على المنامات، ويعتمدون عليها.

ثمَّ سرد بعض ما وقع له في الإنجيل من دعوى المسيح للرسالة، ثم ختم الفصل بقصة إسلام النجاشي ملك الحبشة.

ثم شرع في محتوى القسم الثاني بعد المقدمة في إثبات نبوة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقسمها إلى أربعة أنواعٍ.

جعل النوع الأول إخبار الأنبياء السابقين؛ لأنَّ النصراني لم يطلب بجهله -بحسَب تعبير القرطبي- إلا هذا الدليل، ولذا بدأ به، وذكر أن هذا النوع حُجَّة على اليهود والنصارى فقط لدعواهم تواتر هذه الكتب عندهم، وغيرهم لا ينتفع بهذا الدليل بخلاف سائر الأدلة التي ينتفع بها كلُّ أحدٍ.

ثمَّ ذكر بعض نصوص الكتب المُقدَّسة التي تشير لنُبوَّة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ من العهدين القديم والجديد، منها: قول موسى: «إنِّي أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم نبي مثلك، أجعل كلامي على فيه، فمَن عصاه انتقمت منه»(١)، وقول

(١) وهو في تثنية (١٨/ ١٨) بنحوه، وقد جعل كاتب سفر أعمال الرسل (وينسب للوقا صاحب الإنجيل) هذا النص بشارة بالمسيح كما في أعمال (٣/ ٢٢)، ولا شك أنَّ هذا خطأٌ ظاهرٌ من كاتب السفر، وممَّن تبعه على ذلك من النصارى لوجوهٍ كثيرةٍ:
=

موسى: «جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران»، وقول الله لإبراهيم: «قد استجبتك في إسماعيل، وباركته وكثرته وأنميته جدًّا جدًّا»، ومنها قول إشعيا: «ستمتلئ البادية والقصور التي سكنها قيدار يسبحون، ومن رؤوس الجبال ينادون، هم الذين يجعلون لله الكرامة، ويبثُّون تسبيحه في البر والبحر».

وذكر نصوصًا صرَّحت بذكر اسم النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ[1]، كما في أشعيا: «عبدي الذي سُرَّت به نفسي أُنزل عليه وَحْيي، فيُظهر في الأمم عدلي، يوصي الأمم بالوصايا، لا يضحك، ولا يسمع صوته في الأسواق، يفتح العيون العور، ويُسمع الآذان الصم، ويحيى القلوب الغُلف، وما أعطيه لا أعطيه غيره، أحمد يحمد

=

منها: أن عيسى ليس من إخوة بني إسرائيل، بل هو من أنفسهم.

ومنها: أن عيسى ليس كموسى، أما عند الموحدين فموسى جاء بتشريعٍ مستقلٍّ، ليس تابعًا فيه لأحدٍ بخلاف عيسى الذي جاء مصدقًا وتابعًا لما جاء به موسى، ولم يأت بتشريعٍ مستقلٍّ، كما نقل عنه: «لا تظنوا أنِّي جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض، بل لأكمل».

أما عند المثلثين، فعيسى إله أو ابن إله ليس بنبيٍّ، وهو خير من موسى عندهم، فعلى كلا القولين لا ينطبق النص على عيسى.

ومنها: أن تتمة النص المذكور في أعمال: «ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب»، ومن المعلوم أن هذا الوصف لا يطابق حال المسيح الذي لم يكن له من القوة والسلطان ما يعاقب به المخالفين.

(١) ويبدو أنَّ هذا التصريح طمسته الأيدي بعد عمدًا أو جهلًا؛ لأنَّنا نرى مثل هذا النقل المتضمِّن للتَّصريح باسم خاتم النبيِّين عند غير واحدٍ من علماء المسلمين المجادلين للنصارى مع تباعد بلدانهم وأزمانهم، وامتناع تواردهم على الوهم، أو تواطئهم على الكذب.

الله حمدًا كثيرًا، يأتي من أقصى الأرض تفرح البرية، وسكانها يهللون الله على كل شرفٍ، ويكبرونه على كل رابيةٍ»(١).

وذكر نصوصًا في مخاطبة مكة كما جاء في أشعياء: «فقومي واشرقي، فإنه قد ورى زندك، ووقار الله عليك، انظري بنيك حولك، فإنهم مجتمعون، يأتيك بنوك وبناتك على الأيدي، فحينئذٍ تنظرين وتزهرين، ويخفق قلبك ويتسع، وكل غنم قيدار تجتمع إليك، وسادات نبايوت يخدمونك، وتفتح أبوابك الليل والنهار، فلا تغلق، ويتخذونك قبلةً، وتدعين بعد ذلك مدينة الرب»(٢).

وهو في أثناء ذلك يذكر بعض اعتراضاتٍ على الاستدلال بهذه النصوص ويناقشها، ويذكر القرائن التي تُقوِّي دلالتها على التبشير بنبيِّ الإسلام عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ثمَّ جعل النوع الثاني في الاستدلال بقرائن أحواله ﷺ، فذكر في هذا النوع طرفًا من سيرة النبي ﷺ، وما فيها من العجائب الدالَّة على نبوته بدايةً من أخبار أمه وأبيه، ومرورًا بأخباره مع جدِّه عبد المطلب، وعمِّه أبي طالبٍ، وزوجته

(١) وقد جعل كاتب الإنجيل المنسوب لمتَّى هذا العدد بشارة بالمسيح كما في متَّى (١٢/ ١٧)، وهذا خطأ؛ لأن النص الذي كان بين يدي القرطبي وغيره من علماء المسلمين، ونقلوه في كتبهم ظاهر الانطباق على محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ لفظًا ومعنًى، أما النص الذي وصلنا -بعدما عملت به الأيدي- فأيضًا لا يطابق وَصْف المسيح؛ لأن في تتمته: «لا يكلُّ، ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته»، فالمسيح لم يأت بشرعٍ جديدٍ، كما أنه لم يؤمر بمقاتلة أعدائه، ولم يظهر عليهم، فلا ينطبق عليه هذا الوصف.

(٢) وقد جعل مفسرو الكتاب المقدس هذه العبارات في وصف أورشليم، أما ما فيها من ذكر قبائل العرب، وكثرة الجمال، فهي قبائل في الصحراء العربية التي تبعد مئات الأميال عن أورشليم، فكلُّ الناس سيأتون إلى أورشليم، وهذا تكلفٌ لا يصمد أمام أي قدرٍ من التأمل.

خديجة، وكلام اليهود عنه، وقصة سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم تطرَّق لصفاته عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتكلَّم على صفاته الظاهرة من حسن وجهه، وطيب ريحه، وفصاحة لسانه، وشرف نسبه، وفضائل أرض مكة.

ثم تكلَّم عن قوة عقله وعلمه، واشتمال شريعته على أصول مصالح العالم، مع كونه أُميًّا لم يتعلم ذلك من أحدٍ.

ثم تكلم على صبره وحِلْمه، وذكر شواهد ذلك من سيرته، وتكلَّم على تواضعه وعدله وزهده وجوده وكرمه ووفائه بالعهد، وفي كلِّ ذلك يذكر شواهده من السيرة.

وذكر حسن سمته وحيائه ومروءته وشجاعته ونجدته وخشيته من الله واجتهاده في العبادة.

ثم ختم الفصل بذكر حديث أبي سفيان، وحادثته الشهيرة مع هرقل، وكذا ذكر بعض ما تعرض له النبيُّ من عداوة قومه، وقيامهم عليه، وصبره عليهم حتى أظهر الله دينه، وقارنه بما تدَّعيه الكتب المقدسة على المسيح من الجزع والخور الذي ينزَّه عنه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثمَّ جعل النوع الثالث في الاستدلال على نُبوَّته ﷺ بالكتاب العزيز، وذكر أنه كان ينبغي البدء بهذا النوع، لكنه قدم النوع الأول تسكيتًا وتأنيسًا، والثاني بناءً وتأسيسًا.

فذكر أولًا أنَّ كونه جاء بالقرآن ممَّا جاء متواترًا حصل العلم به لكلِّ الأمم من أنكره، فقد تَبيَّن عناده، وسقط استرشاده.

ثمَّ انتقل لوجه الإعجاز فيه، فذكر ما تحدَّى به النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ العرب من

الإتيان بمثل القرآن على فصاحتهم وبلاغتهم ودرايتهم، فلم يقدر على ذلك أحدٌ، ثم ذكر بعض اعتراضاتٍ على ذلك وناقشها.

ثم ذكر أن وجوه الإعجاز كثيرة، لكنه سيقتصر منها على أربعةٍ لظهورها.

فذكر في الوجه الأول فضل لسان العرب على سائر الألسن من عدَّة وجوهٍ، ثم فضل القرآن على لسان العرب، وعلى كلام النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ بغير القرآن، من جهة فصاحته وبلاغته وجزالته، وكثافة المعنى مع وجازة اللفظ، ثم ذكر أمثلةً متنوعةً على هذا.

ثم ذكر في الوجه الثاني نَظْم القرآن العجيب وأسلوبه الغريب الذي خالف به جميع أساليب الكلام، فليس هو شعرًا، ولا نثرًا، فهو أسلوب لم تكن العرب تعرفه، ولم يتحدث واحدٌ منهم بالقدرة على معارضته.

ثم ذكر في الوجه الثالث إخباره بالمغيبات والكائنات قبل وقوعها؛ كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٢، ٣]، ونحو ذلك من الآيات.

والوجه الرابع هو ما تضمنه من الأخبار عن الأمم السالفة، والقصص الغابرة التي لا يعلم منها بعضها إلا الآحاد من علماء هذا الشأن، ولقد كان يسأله أهل الكتاب، فيجيبهم القرآن، فلا ينكرون شيئًا من جوابه، مثل سؤالهم عن ذي القرنين، وأصحاب الكهف، ونحوه، ثم ذكر بعض ما اشتملت عليه كتب السير من ذلك.

ثم انتقل إلى النوع الرابع، وهو الاستدلال بالآيات الخارقة للعادة، فقد اجتمع لمُحمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الآيات ما لم يجتمع لغيره، ثم ذكر القليل الواضح -على حسَب تعبيره- من هذه الآيات، مثل انشقاق القمر، ونبع الماء، وتكثير الطعام، وكلام بعض الحيوانات، وتسخيرهم له، وإبراء المرضى، وإحياء الموتى، وإجابة الدعاء، وغير ذلك من الخوارق والآيات، ثم ذكر فصلًا في أخبار من الغيب أطلعه الله عليها؛ كفتح خيبر على يد عليٍّ، وقتال الترك، وذهاب كسرى، وقوله لعمارٍ: «**تقتلك الفئة الباغية**»، وقوله: «**يكون في ثقيفٍ كذابٌ ومُبِيرٌ**».

ثم ذكر فصلًا في عصمة الله للنبي ممن أراد كيده، ثم ذكر بعض ما جاء في كتب الصحاح والسير من ذلك كقصة خروجه يوم الهجرة أمام المشركين، وقصة مهاجمة أبي جهلٍ له، ودفع الملائكة عنه، ونحو ذلك، وأورد على نفسه اعتراضًا بأنَّ هذه أحاديث آحاد، وأجاب بأنَّها من التواتر المعنوي الذي يحصل به العلم القطعي على حدوث الخوارق.

ثمَّ ختَم هذا النوع بفصلٍ عن الخوارق والكرامات التي حصلت للصحابة والتابعين، بدأه بتقرير أن ما يحصل لصحابته وأهل دينه عَلَيْهِ السَّلَامُ من الآيات، فهو آيةٌ لرسول الله دون أن نعتقد فيه النبوة، كما فعل النصارى بالحواريين، ثم ذكر طرفًا مما روي في ذلك عن ابن عمر، والعلاء بن الحضرمي، وعباد بن بشر، وغيرهم من الصحابة والتابعين.

ثم بيَّن أن هذه الآيات تخالف الحيل التي يُعظِّمون بها دينهم، ويُموِّهون على العوام، وحكى طرفًا مما بلغه من ذلك.

ثم عقد الباب الرابع في بيان أن النصارى متحكمون في أديانهم، ولا مستند لهم، وقسم الباب إلى صدر وفنين، ثم قسم الصدر إلى فصلين، فبدأ الفصل الأول في تقرير أن النصارى ليسوا على شيءٍ، بل هم أضعف الناس عقولًا، يعتقدون المحالات، وينكرون الضروريات، ويستندون إلى الخرافات والمنامات، كما حدث مع بولس وقسطنطين.

ثمَّ انتقل في الفصل الثاني للكلام على مخالفة النصارى لأحكام التوراة والإنجيل، ثم ذكر بعضًا من أحكام التوراة التي تركها النصارى وتأوَّلوها على غير ظاهرها مع أن المسيح لم يَرِدْ عنه ما يدل على نسخها.

ثمَّ ذكر في الفَنِّ الأول طائفةً من شعائر الدين النصراني وطقوسه؛ ليُبيِّن فسادها وخلافها للإنجيل والتوراة، فذكر العمودية، وطرح حولها عدة أسئلةٍ وإشكالاتٍ، ثم ذكر غفران الأساقفة والقسيسين ذنوب المذنبين، وذكر اختلاف الكفارات والقوانين في ذلك دون مستندٍ من التوراة أو الإنجيل، وأظهر ما فيها من فساد الرأي.

ثمَّ ذكر الصلوبية، وقولهم في الخطيئة التي لحقت بآدم وبنيه حتى عفي عنهم بعد حادثة الصلب، ثم تناول هذا الكلام بالإزراء والتسخيف والتقبيح، وأضاف أنَّ مستندهم في الصلب هو الإنجيل، وهو قابلٌ للتحريف، كما أنه منقولٌ بالآحاد[1]، كما أنَّ دلالتها على صلب المسيح محتملة لا قطعية، ثم ذكر

---

(١) وهذا على التساهل والتنزُّل، وإنما الدارج إطلاق الآحاد على ما اتصل إسناده، ووثق رجاله، ولكن لم يتواتر، أما الأناجيل فناقلوها ومترجموها من المجاهيل الذين لا تعرف أعيانهم ليستدلَّ على ثقتهم، أو اتصال سندهم، بل كُتَّابها أنفسهم في تحديد أشخاصهم كلام واضطراب.

نصوص الصلب، وما يدخلها من الاحتمالات، ثم سألهم وألزمهم بأمورٍ منكرةٍ في عقيدة الصلب، ثم ذكر تركهم الختان، وهو من شرائع التوراة من غير أصلٍ يعتمدون عليه، ولا نسخٍ، ثم ذكر صيامهم، وأنه ليس له أصلٌ من كلام الأنبياء، إنما شرعه بولس الذي غيَّر دين الأنبياء، وعلى التسليم فغايته أن يكون حواريًّا لم يصحب المسيح إلا قليلًا بزعمه، فلا يكون قوله ملزمًا.

وعلى هذا المنوال ذكر أعيادهم وقرابينهم وتصليبهم في صلاتهم، ثم ختم بقولهم في نعيم الآخرة وعذابها واختلافهم فيه، وإنكارهم على المسلمين التنعُّم بالمأكل والمشرب والنكاح في الجنة، والعذاب بالسلاسل في النيران، وبيَّن أن هذا ليس ممنوعًا عقلًا، ولا شرعًا، ثم ذكر من نصوص التوراة والإنجيل ما ظاهره وجود العذاب الحسِّي الناري، والنعيم الحسي من الطعام والشراب، كما أن نص التوراة على أن جنة آدم كان فيها ذلك.

وذكر الفن الثاني في محاسن دين الإسلام، وبيَّن غرضه من ذلك أن يذكر شريعة الإسلام حتى لا يتولى نقلها جهولٌ لا يحسن، وأيضًا لعله يصادف يهوديًّا أو نصرانيًّا لا يعلم عنه شيئًا، فيتفطن إلى حسن شرائعه إن كان صحيح الفطرة.

ثمَّ جعل الفصل الأول عن عقائد المسلمين؛ فذكر طرفًا من عقائدهم في الله ورسله والجنة والنار، وبعدها ذكر بعض شرائع المسلمين مقارنًا لها بعقائد النصارى، فذكر العبادات واشتمالها على تعظيم الله، والخضوع له، وذكر صلاة النصارى واشتمالها على ألفاظٍ مُسْتَهجنةٍ، وذكر شرائع الإسلام الأخرى ومُحرَّماته، ومكارم الأخلاق، وسنن الفطرة، والتنظُّف الظاهر من الأقذار، والباطن من الأخلاق الذميمة.

ثم جعل الفصل الثاني دفاعًا عن شرائع الإسلام التي يعيبها بعض النصارى، فبيَّن إجمالًا أن طريق النظر في الشرائع هو النظر في دليل صدق ذلك الشرع، فإن كان صحيحًا، تُلقِّي بالقبول، فالصادق لا يقول ما تُكذِّبه العقول، وقد يقول ما لا تدركه العقول.

ثم ذكر تفصيلًا بعض ما يعترض به بعض النصارى، مثل تحذير المسيح من الأنبياء الكَذَبة، ورده بشهادة الكتاب وعيسى لمحمدٍ عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، ودعواهم أنه حرَّض على قَتْل مَن خالفه بأنَّ هذا لا يُعَاب به؛ لأنَّ الكافر جنايته أكبر من كل جنايةٍ، فوجب أن تكون عقوبته أكبر من كل عقوبةٍ، وأن هذا كان في شريعة موسى ويوشع بن نون، ثم أمر به عيسى في آخر أمره، وأنهم يُكْثِرون من القتال، فإن كان مشروعًا لهم، فبماذا يَعيبون المسلمين؟ وإن لم يكن مشروعًا لهم، فلماذا تركوا شرعهم؟

وذكر أيضًا قول بعضهم: إنَّ شرع الإسلام لا فائدة فيه؛ لأنَّ التوراة جاءت بالقصاص، والإنجيل بالعفو، ولا ثالث لهما، وأجابه المُصنِّف بأنَّ الثالث هو الوسط ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وذكر اعتراضه على إباحة كثرة النساء، ورده بأنه من مجوزات العقول، وورد به الشرع المنقول، فقد فعله إبراهيم ويعقوب وسليمان، كما أنه يشتمل على مصلحة تكثير النسل وغيرها، وذكر اعتراضه على اعتقاد المسلمين في القدر، وأجابه بأنَّ الهدى والضلال أمورٌ حادثةٌ لابد لها من محدثٍ، ويمتنع أن يكون غير الله، فتعيَّن أن يكون الخالق لها هو الله وحده، وذكر شواهد لذلك من كتابهم.

منهج المصنف:

كتاب (الإعلام) بكثرة مباحثه، وتعدُّد مناهجه يعدُّ من أجمع الكتب التراثية الإسلامية في مجادلة أهل الكتاب، فقد جمع المُصنِّف فيه بين النَّقد العقليِّ لعقائد النصارى مع الجدل النقليِّ والاستدلال والإيراد من الكتب المُقدَّسة بطَلَاقةٍ، كما عرج على النقد الكتابيِّ، وإثبات وقوع التحريف اللفظي، علاوةً على إثبات النبوة، ورد الشبهات، ولا ينافسه في ذلك الجمع والإيعاب إلا كتاب (الجواب الصحيح) لابن تيمية.

وبمقارنةٍ سريعةٍ بينهما نجد أن كتاب (الجواب الصحيح) كانت مادته أوسع، ومباحثه أكثر؛ لأنَّ النصراني المردود عليه كان أحذق من المردود عليه هنا، وأدلته أكثر، كما أننا في بعض المباحث المشتركة كدلائل النبوة نرى أن أنواع الأدلة وأعدادها وطريقة تقريرها عند ابن تيمية كانت أكثر وأجود.

لكن نجد عند القرطبي من حسن الترتيب والتبويب، واختصار الكلام، وتكثيف المادة، والبعد عن الإسهاب والتكرار والاستطراد ما لا نجده عند ابن تيمية، كما أنَّ الظاهر أن قراءة القرطبي للكتب المقدسة، واستشهاده بها، وإيراده منها، قد بلغ فيه مبلغًا متقدمًا لا يضاهيه فيه أكثر المصنفين في هذا. كما أنه تفرَّد بمباحث لم يحتوِ عليها ردُّ ابن تيمية؛ كالنقد الكتابي، وإثبات التحريف اللفظي، وإفراده بابًا عن جواب الشبهات حول التشريع الإسلامي، وإظهار محاسن الإسلام، وهذا وإن وجد مفرقًا في كلام ابن تيمية، فمساحتُهُ عند القرطبي أكثر، علاوةً على عبارة القرطبي الأدبية الماتعة بالمقارنة بأسلوب ابن تيمية العلمي الصارم.

لكن في جانبٍ آخر نرى أن المذهب الكلامي للمصنف جعله يتبنَّى آراء

أضعفت مناظرته في بعض المواطن؛ كقوله بالكلام النفسي، ونَفْي الحرف والصوت، ونفي العلو، ونحو ذلك من الآراء الكلامية الشهيرة، أما في سائر المواطن فالمادةُ العقليةُ للقرطبي قويةٌ للغاية.

أمَّا ابن تيمية، فمع تقدُّمه في العقليات، ومكانه المعلوم فيها، فالتزامه العقائد القرآنية جعل مناظرتَه العقلية برهانيةً ليس فيها ثغرات.

في جانبٍ آخر نرى أن رد المصنف غلب عليه الحدة والتوبيخ بعباراتٍ بليغةٍ نظيفةٍ، ليس فيها سبٌّ ولا لعنٌ، لكن نجد عند ابن تيمية استعمال اللغة الهادئة المنصرفة إلى الجدل دون عنايةٍ بتقبيح المخالف وتوبيخه إلا عرضًا لا قصدًا، وربما سبب هذا الاختلاف أن النصراني الذي رد عليه القرطبي كان قَدْ أسرف وولغ في التشنيع على المسلمين وكتبهم ونبيهم، فاستوجب الحدة من المصنِّف ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: ٤١]، ولكنه لم يهوِ إلى مستوى السبِّ والبذاء كما فعل النصراني.

وليس في كتاب ابن تيمية إشارةٌ إلى أنه رأى كتاب القرطبي، أو اقتبس منه، ومع ذلك نجد تشابهًا في بعض الأفكار خاصةً في باب دلائل النُّبوة، فربما كان هذا من توارد الأفكار والخواطر، وربما كان ابن تيمية قد وقع له الكتاب، أو كتب نقلت عنه، فانتفع ببعض أفكاره، واستعملها، وولد منها في ثنايا كتابه دون نَقْل شيءٍ بعينه، فلم يحتج لاقتباسٍ أو تصريحٍ باسم الكتاب.

٩

القرافي

نبذة عن المصنف:

هو الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي العلاء إدريس بن عبد الرحمن بن عبد الله، الصنهاجي البهنسي المصري، وُلِدَ سنة ستٍّ وعشرين وستمائة[١].

قال السيوطي: «انتهت إليه رياسة المالكية في عصره، وبرع في الفقه وأصوله، والعلوم العقلية، ولازم الشيخ عز الدين بن عبد السلام الشافعي، وأخذ عنه أكثر فنونه، وألَّف التصانيف الشهيرة؛ كـ (الذخيرة)، و(القواعد)، و(شرح المحصول)، و(التنقيح في الأصول)، وشرحه، وغير ذلك»[٢].

قال ابن فرحون: «كان إمامًا بارعًا في الفقه والأصول والعلوم العقلية، وله معرفة بالتفسير، وتخرج به جمعٌ من الفضلاء»[٣].

تُوفِّي في جمادى الآخرة سنة أربعٍ وثمانين وستمائة[٤].

عنوان الكتاب:

(الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة)[٥].

---

(١) ذكره هو عن نفسه في كتابه: «العقد المنظوم» (١/ ٤٤٠).

(٢) حسن المحاضرة (١/ ٣١٦).

(٣) الديباج المذهب (٢١٦).

(٤) شجرة النور الزكية (١٨٩).

(٥) كذا سماه المصنف في مقدمته.

وصف الكتاب:

بدأ المُصنِّف كتابه ببيان سبب تصنيفه الكتاب، وهو أنَّ بعض النصارى قد كتب كتابًا يشتمل على الاحتجاج بالقرآن على صحة مذهبهم، فكتب المصنف ردًّا يبيِّن فيه أن كتبهم وكتبنا دالَّة على صحة مذهبنا.

ثم عقد الباب الأول في الجواب عن الرسالة، وإثبات خطأ النصراني في احتجاجه بالقرآن، وذكر في صدر الباب أنه كتب الرَّد على وجه الاختصار؛ لأنَّ النصارى أمةٌ عمياء غلب عليهم التقليد، وتجنَّبوا محجَّة النظر السديد، ثم ذكر شيئًا من علامات ضعف عقولهم في بعض عاداتهم وتشريعاتهم، وتقديسهم لقساوستهم، وفساد هؤلاء القساوسة وضلالهم، وأنهم يجمعون عقول العامَّة بتخييلاتٍ وأوهامٍ يصنعونها في كنائسهم، وذكر بعضًا منها، فلأجل ذلك كله سلك مسلك الاقتصاد.

ثم شرع في ذِكْر ما أورده النصراني في المسألة المذكورة، مع تعقبه فيما قال.

ومن ذلك: احتجاجه بالقرآن على أن محمدًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يبعث إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، وأجاب بأجوبةٍ:

منها: أنه تعالى لم يقل: إلا لقومه، وإلا أفاد الاختصاص، وإنما «بلسان قومه»؛ لأنَّ قومه إذا أسلموا ووافقوا، كان غيرهم أَوْلَى.

ومنها: أن التوراة نزلت بالعبرانية، والإنجيل بالرومية، فلو صحَّ هذا للزم أن من اتبعها من غير أهل اللسانين قد أخطأ.

ومنها: أنه لو ثبت أنه رسولٌ لقومه، فالرسل معصومون عن الزلل، وهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد قاتل اليهود، وكتب إلى الفرس.

ومن جملة ما نزل إليه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، فلا يَسَعُهم مع التصديق برسالته التكذيب بعموميَّتها، وممَّا احتجَّ به النصراني: أنَّ القرآن ورد بتعظيم عيسى وأُمِّه، كما يقول النصارى، فلا إنكار عليهم، فأجابه المُصنِّف بأجوبةٍ:

منها: أن تكفير المسلمين لهم لأنهم نسبوا إليهما ما لا يليق بجلال الربوبية كالأبوة والبنوة والحلول والاتحاد.

ومنها: أن هذا التعظيم دليلٌ على رجحان الإسلام على سائر الملل لاشتماله على تعظيم جملة الرسل، وجميع الكتب.

وممَّا احتج به: أنَّ القرآن وصف عيسى بأنه روح الله وكلمته، فوافق النصارى، فأجابه بأنه من المُحَال أن يكون المراد من ذلك ما ادَّعاه النصارى، بل الإسلام يكفر قائل هذا ويقاتله.

ومنها: أن الروح والكلمة لها معانٍ عديدة، فحمل النصراني لها على معتقده تحكم، ثم فسر الروح وفقًا لمعتقد المسلمين.

ومنها: احتجاجه بقوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، فأجابه المصنِّف بأن أتباع الإنسان هم موافقوه فيما جاء كالحواريين، أما هؤلاء المتأخرون فما آذى أحد عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مثلهم.

ومنها: احتجاجه بقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ

﴿وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ [الحج: ٤٠]؛ لأنه قدم الصوامع والبيع على المساجد، ونسب ذكر الله إليها، فأجابه المصنف من وجوهٍ:

منها: جعل المصنف الصوامع والبيع هي أماكن العبادة وقت الاستقامة على شريعة موسى، ثم شريعة عيسى عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، وليس المراد بها بعد الكفر والتبديل.

ومنها: أنَّ تأخير ذكر المساجد في سياق الهَلَكة يدلُّ على أفضليتها وتقدُّمها.

ومنها: أن الضمير في ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا﴾ يعود لأقرب مذكورٍ، وهو المساجد.

ومنها: احتجاجه بقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وفيه تعظيم للإنجيل، وأنه غير مبدلٍ.

فأجابه المصنف بأن المراد الكتب المتقدمة قبل تغييرها، وذكر نبذةً عن الأناجيل، وأنها تشتمل على التناقض والتكاذب، وأنَّ أكثرها من أقوال الرواة وأقاصيصهم.

ثم شرع في ذكر بعض المتناقضات، فذكر خمسة عشر تناقضًا؛ منها: التناقض بين لوقا ويوحنا في نسب المسيح، وذكر يوحنا أول آيةٍ للمسيح تحويل الماء خمرًا، وأن المسيح غسل أقدام التلاميذ، ولم يذكر ذلك الثلاثة الآخرون، وجعل متَّى يوسف النجار ابن يعقوب، بينما جعله لوقا ابن هال، وجعل متَّى اللصين في حادثة الصلب يهزءان به، بينما جعل لوقا أحدهما يهزأ به، والثاني يأمره بالتقوى، ولم يذكر هذه الواقعة مرقس ويوحنا، وصعود المسيح إلى السماء ذكره لوقا ومرقس، وأغفله متَّى ويوحنا.

ومنها: التناقض بين متَّى ويوحنا في تعامل بيلاطس مع المسيح.

ومنها: أنه زعم أنَّ المسلمين لم يفهموا مرادهم، فالأب هو الذات، والابن

هو النطق، وروح القدس هو الحياة، ومرادهم بالبُنُوَّة هو أن الله تعالى لم يزل ناطقًا، ثم أرسل نطقه من غير مفارقة الوالد، فأجابه المصنف بأنَّ النُّطقَ صفة قائمة بذات الله، يمتنع تجسُّدها في زمنٍ من الأزمان، كما أنَّ إرسال الشيء هو اتِّصاله بغيره، المباين له، وهو غير معقولٍ في الصفات.

ومنها: أن الله له عدلٌ وفضلٌ، فأرسل شريعة موسى بالعدل، ثم أرسل كلمته بالكمال، فلم يبق بعد ذلك إلا النقص، فأجابه المصنف بأنَّ شريعة موسى تشتمل على العدل والفضل، ثم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يأت بشرعٍ جديدٍ، بل جاء مقررًا لشريعة موسى، ثم تطرق لفضائل الشرع المحمدي على غيره من وجوهٍ؛ منها: أن معجزات الشرائع ذهبت بذهاب أنبيائها بخلاف معجزة الإسلام، وهي القرآن. ومنها: أن نبينا بعث إلى الناس عامةً بخلاف غيره. ومنها: أن هذه الأمة أفضل الأمم، فتكون شريعتها أفضل الشرائع؛ لأنَّ ما حصل لها من العلم والعقل إنما هو ببركة شرعها، وأن شرعها جمع بين تطهير الظاهر والباطن.

عقد المصنف الباب الثاني للجواب على أسئلةٍ للنصارى، ذكر منها خمسة عشر سؤالًا، وأجاب عنها.

منها: أن صَلْب المسيح متفق عليه بين اليهود والنصارى، وهم عددٌ كثيرٌ يحصل به التواتر، ورد هذا التواتر قدح في ثبوت القرآن، وجحد للضرورة؟ فأجاب المصنف بذكر شروط التواتر؛ ككون المخبر عنه أمرًا محسوسًا، واستواء الطرفين والوسط، وكلا الشرطين لا ينطبق؛ لأن كون المصلوب هو عيسى لا يستفاد بالحس، كما أن العدد المباشر للصلب لم يبلغ عدد التواتر، ثم

ذكر بعض شواهد تدلُّ على عدم صلب المسيح، كجزعه وقوله: «إلهي إلهي، لم خذلتني»، وهو يخالف مع ما علم عن المسيح من الجلد، وتحمل المشاق، كما أنه يخالف الرضا بقضاء الله، والاستبشار بلقائه.

ومنها: أن القول بإلقاء الشبه يُفْضي إلى السفسطة، والدخول في الجهالة، وأن يتشكَّك الإنسان في ولده وامرأته ومعارفه.

فأجاب المصنف من وجوهٍ؛ منها: أن هذا داخلٌ في الإمكان ليس مستحيلًا، وأن ما روي في الإنجيل من حصول الاشتباه في شخص المسيح من رئيس الكهنة وغيره يدلُّ على حصول إلقاء الشبه، كما أن المسيح أخبرهم أنهم يشكون فيه هذه الليلة.

ومنها: أنَّ دعوى المسلمين بنسخ شريعة الإسلام لكثيرٍ من شعائر التوراة يلزم منه جواز البداء أو الندم على الله، وهو محالٌ، فأجاب المصنف بوجوهٍ؛ منها: بأنه لا يلزم من النسخ البداء، بل هو اختلاف المصالح باختلاف الزمان، ثم ألزمهم بوقوع النسخ في شرائعهم مثل أن الطائفتين متفقتان على أن الزواج من الأخت كان مشروعًا في شريعة آدم، ثم نسخ ذلك بعد، وهذه حقيقة النسخ، وكذلك نسخ ذبح إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لولده، وكذلك نسخ وَعْد الله لموسى ومَن معه بدخول الأرض المقدسة.

ومنها: دعواهم وقوع القرآن في الخطأ حين جعل مريم أخت هارون، فأجاب المصنف: بأنها إنما نُسبَت لرجلٍ عابدٍ منهم اسمه هارون، والأخوة هنا هي التساوي في الصفة، أو بأنه قيل لها ذلك؛ لأنها من ذرية موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومنها: أن إقرار المسلمين للمسيح بإحياء الموتى -وهو من خصائص الألوهية- فيه إقرارٌ بألوهية المسيح.

وأجاب المصنِّف بوجوهٍ؛ منها: أن الله تعالى هو الفاعل لإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وإنما يفعل ذلك عند إرادة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا أن المسيح هو الفاعل، وعلى التسليم أن المسيح هو الفاعل، فقد شهد الإنجيل بأن الحواريين فعلوا ذلك، وكذلك إلياس واليسع وحزقيال وغيرهم فعلوا ذلك، ثم ذكر بعض الشواهد التي تدلُّ على عبودية المسيح في الإنجيل.

ومنها: أن ثبوت الأكل والشرب والجماع في الجنة ينافي كمالها، وأنها دار الكرامة، للزوم هذه الأمور للقاذورات وكشف العورات، فأجاب المصنف من وجوهٍ:

منها: أن الاستمتاع الذي يدعيه المسلمون في الجنة مُنزَّه عن الآلام والحاجات السابقة، وكذا إبداء العورات والمستقبحات المقارنة واللاحقة، ثم ذكر نصوصًا من الإنجيل تدلُّ على إثبات الطعام والشراب في الملكوت الأبدي؛ كقول المسيح: «إنِّي لست شاربًا من هذه الكرمة حتى أشربها معكم حديثًا في ملكوت السماء»، وقال: «طوبى للجياع العطشى، فإنهم يشبعون، طوبى للجياع العطشى فإنهم يشبعون».

ومنها: أن المسلمين يدعون التغيير في التوراة مع كونها منتشرةً في أقطار الأرض على نظامٍ واحدٍ لا اختلاف فيه.

وأجاب المصنف من وجوهٍ، حكى في أولها طرفًا من تاريخ التوراة، بدايةً من

عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم هجوم بختنصر على اليهود، وإحراق الهيكل، ثم جمع عزرا لها، وذكر أن ما انتهت إليه التوراة هي تواريخ مُلفَّقة لا يوثق بها، ولا يتَّصل إسنادها بالعدول.

ثم ذكر بعض ما تنسبه التوراة للأنبياء ولله تعالى مما يقطع ببطلانه، ويدلُّ على حدوث التغيير والتبديل، مثل نسبة لوطٍ إلى الزنا بابنتيه، ويعقوب إلى الجمع بين الأختين، ونوح إلى انكشاف عورته أمام ابنه، ثم دعا عليه وعلى عقبه حين ضحك منه، وقصة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أوريا وزوجته، ونسبة الله تعالى إلى الجهل والندم، وذكر أيضًا من أدلة التحريف اختلاف النسخ وتناقضها، وحكاية التوراة أشياء حدثت بعد موت موسى بما يقطع بكونها زائدةً على توراة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذلك تراشق فرق اليهود بالتحريف.

ومنها: أنَّ المسلمين ليسوا على ثقةٍ مما بأيديهم من القرآن؛ لوقوع الخلاف فيه بين الصحابة؟

فأجاب المصنِّف بأنَّ خلاف الصحابة لم يكن في نفس القرآن، وإنما كان لأنَّ بعضهم كان يضم تفسيره لنصِّ القرآن كابن مسعودٍ، فحرص جمهور الصحابة ألَّا يخلط بنصِّ القرآن شيءٌ؛ حذرًا من الغلط عليه.

ومنها: أن المسلمين على ضلالٍ في دينهم؛ لأن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكتب الكتاب الذي قال فيه: «**هلمُّوا أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا**»؟

وأجاب المصنف بأنَّ الضلال المنفي لا يلزم أن يكون في عقائد المسلمين، أو في أصل الدين، بل يصدق بأي مسألةٍ من الفروع، كما أنه لا يلزم من نفي

سببٍ معينٍ للضلال أن يقع الضلال، بل يجوز أن ينتفي بأسبابٍ أخرى، علاوةً على أنَّ العلماء ذكروا في سبب هذا الكتاب أنه كان في تعيين الخليفة بعده، والخلافة ليست من قواعد الدين، ولا شرطًا في الإيمان، والله تعالى قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]، فتعيَّن أنَّ هذا الكتاب كان من باب الاحتياطات والكمالات.

ثمَّ عقد المُصنِّف الباب الثالث ليطرح فيه على الفريقين أسئلةً معارضةً لأسئلتهم، دامغةً لكلمتهم وملتهم.

فذكر سبعةً ومائةً من الأسئلة، بعضها يتضمن إثبات الرسالة للمسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ استدلالًا بالنقل عن الإنجيل، وبعضها يتضمَّن نفي الألوهية عنه، وإبطال عقيدة الخطيئة والفداء باستعمال المعقولات، وما يليق بالله تعالى من الصفات التي ينافيها رواية الخطيئة الأصلية والفداء، وبَعضها تفنيدٌ ونقدٌ لمذهبهم في الاتحاد وعقيدة الأمانة، وبعضها يتناول شرائعهم بالنقد؛ كالتناول من جسد المسيح ودمه، والاعتراف بالذنوب للراهب، وترك الاختتان والاستنجاء، والصيام والأعياد التي لا أصل لها في كتابهم، ومنع الرهبان من الزواج والتعميد والتصليب على الوجه، وغير ذلك من شرائعهم وصلواتهم.

ثم تناول بعض ما يحتجُّون به على إلهية المسيح بالإبطال والنقد، ثم تطرَّق إلى دلائل نُبوَّة مُحمَّدٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، من المعجزات الحسية والمعجزة القرآنية، وأن الذي يكذب بنبوة محمد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يلزمه التكذيب بنبوة غيره، ثم ساءل اليهود حول تحريف التوراة، وعدم تميز المروي عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من غيره، وما تعرَّضت له

على يد بختنصر، وأن إسلام أكابرهم وخيارهم حجة عليهم، وحول ما في التوراة من الصِّفات والأحوال غير اللائقة بالله والأنبياء الدَّالَّة على وقوع التحريف.

ثم عقد المصنف الباب الرابع لإثبات صحة الإسلام ونبوة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ من كتب أهل الكتاب، فذكر إحدى وخمسين بشارةً بمحمد عَلَيْهِ السَّلَامُ من التوراة والإنجيل؛ كقول الله تعالى لإبراهيم في ابنه إسماعيل: «وإنِّي أُبَاركه وأنميه وأعظمه جدًّا»، وقول الله لموسى: «إني سأقيم لبني إسرائيل نبيًّا من إخوتهم مثلك، أجعل كلامي في فيه»، وقول موسى: «أقبل الله من سيناء، وتجلَّى من ساعير، وظهر من جبال فاران»، والبشارات الإنجيلية بالفارقليط روح الحق، وأركون العالم، والحجر الذي رفضه البنَّاؤون، وبشارات المزامير بأُمَّة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ الذين يكبرون بأصواتٍ مرتفعةٍ، بأيديهم سيوف ذوات شفرتين، وبشارات سفر إشعياء عن محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمته ومكة وشرفها، ومثلها بشارات في حزقيال ودانيال وحبقوق وغيرهم.

منهج المصنف:

قصد المصنف من كتابه الجوابَ على استدلال أحد النصارى بالقرآن على صحة عقيدته، وبيان فساد هذا الاستدلال، واشتماله على أنواعٍ من الجهل والخطأ، ولكن مع ذلك فقد اشتمل الكتاب على أنواعٍ أخرى من الجدل، فقد أكثر المصنف من الاستدلال بالكتب المقدسة حينًا لإظهار فساد اعتقاد القوم، ومخالفته لمنصوص كتابهم، وحينًا لإثبات تناقض الكتاب، ووقوع التبديل والتحريف فيه، وحينًا لإثبات نُبوَّة مُحمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحصول البشارة به في

الكتب السابقة، كما اشتمل الكتاب أيضًا على الاستدلال بالمعقولات، خاصةً عند التعرُّض لإبطال عقيدة الفداء، والخطيئة الأصلية، وتفنيد عقيدة الأمانة.

فلم يكتفِ المصنِّف بجواب الأسئلة الواردة على المسلمين، ودفع الشبهات الواردة عليهم، بل انتقل منها إلى إيراد أسئلةٍ على أهل الكتاب، وإقامة الحجج عليهم من المعقول والمنقول من كتبهم، وكذا إثبات نُبوَّة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ عن طريق البشارات الكتابية.

كما اشتمل الكتاب على أنواعٍ من النقد الكتابيِّ؛ منها ما هو خارجي يتعلق بتاريخ الكتاب المقدس، وعدم توفُّر شروط الصيانة والحفظ له، ووقوع اختلافٍ بين النسخ، ومنها ما هو داخلي يتعلق بوقوع التناقض والاختلاف والمحالات العقلية والدينية.

والظاهر من كتاب المُصنِّف أنَّ مطالعته لكتب أهل الكتاب جيدة، كما أن أدواته العقلية والأصولية بارعة كما هو مشهورٌ عنه، إلا في المَواطن التي تضعف فيها المناظرة لتبنِّي آراء كلامية ضعيفة، مثل نفي الصفات الفعلية، وإثبات الكلام النفسي الأزلي.

وغلب على المصنف لغة الاستعلاء والإزراء على عقائد النصارى وعقولهم ورهبانهم، وحكى طرفًا من أخبارهم وشعائرهم وشرائعهم التي فسر بها هذا الإزراء.

١٠
ابن ربن الطبري

نبذة عن المصنف:

هو أبو الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري الطبيب.

قال القفطي: «فاضل في صناعة الطب»(١).

قال ابن نديم: «وكان يكتب للمازيار بن قارن، فلما أسلم على يد المعتصم قرَّبه وظهر بالحضرة فضله، وأدخله المتوكل في جملة نُدمائه، وكان بموضعٍ من الأدب»(٢).

من مصنفاته: كتاب (فردوس الحكمة)، (منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير)، (تحفة الملوك).

أكثر من ترجم له لم يذكر سنة وفاته، في حين ذكر البغدادي في (هدية العارفين) أنه مات في حدود سنة (٢٦٠)، وفي (معجم المؤلفين) لكحالة (كان حيًّا قبل (٢٧٧)، وجعل الزركلي تاريخ وفاته (٢٤٧).

والظاهر أن هذه التواريخ استنتاج وتخرُّص، يتعذَّر الترجيح بينها.

اسم الكتاب:

(الدين والدولة)(٣).

---

(١) «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» للقفطي (١٧٨).

(٢) الفهرست (٣٥٨).

(٣) كتب المحقق على طرة النسخة المطبوعة: «الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد ﷺ»، ولكن لم يذكر دليلًا على هذه التسمية، والظاهر أنَّ هذا تصرفٌ منه في عنوان الكتاب، وإلا فقد قال المصنف في ختام كتابه: «سمَّيته كتاب الدين والدولة».اهـ.
ولا دليل على الزيادة على ذلك، والله تعالى أعلم.

وصف الكتاب:

بدأ المصنف كتابه بالكلام على أنواع الأخبار، فذكر أن من الأخبار ما يصدق مرةً، ويكذب أخرى، ومنها ما هو كذبٌ في كل وقتٍ، ومنها ما هو حق في كل وقتٍ، ثم ذكر أن من الأخبار الصادقة ما هو مجمعٌ عليه من كل أحدٍ، ثم منها ما هو دون ذلك في الإجماع من جهة الكثرة والعموم، حتى نزل إلى إجماعٍ يتوارثه قومٌ وهو باطلٌ عند غيرهم.

فعلم منه أن قبول كل إجماعٍ فتنة، ورد كل إجماعٍ ضلالة، وأن الإجماع ليس كافيًا في تثبيت النبوة إلا مع شهادات الحق وأماراته، فإن الكاذب في دعوى النبوة لابد من أن يجري من التناقض على لسانه ما يظهر به كذبه، وذكر أمثلة على ذلك من شريعة زرادشت وماني، وعقيدة الأمانة النصرانية.

أما النبي محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد اجتمعت له شهادات الحق، ومقاييس العبر، وحصرها المصنف في عشرة معانٍ، وهي: موافقته للأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى، ونسك النبي وخلقه، ومحمود سننه وشرائعه، والآيات التي جرت على يده، والنبوءات التي صدقت في زمانه، وما بعده، والآيات التي في كتابه والحجج، ونَصْر الله له على الأمم، وأحوال صحابته وأمته، وبشارات الأنبياء السابقين.

فذكر في الباب الأول أن دعاء النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ كان إلى التوحيد الذي دعا إليه إبراهيم وإسماعيل وغيرهم من الأنبياء، وذكر بعض شواهد ذلك من القرآن.

وجعل الباب الثاني في فضائل سننه وشرائعه، فذكر بعض شرائع الإسلام وأخلاقه؛ كحب الوالدين وصلة الرحم والزهد في الدنيا والعبادات بأنواعها، ونحو ذلك، وذكر شواهد ذلك من القرآن.

ثم ذكر زهد النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتورُّعه واستخفافه بالدنيا، وقلة طعامه، وبساطة أثاثه، وما أمر به من محاسن الأخلاق، والزهد في الدنيا.

ثم أفرد الباب الثالث في معجزات النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فذكر طائفةً من الآيات؛ منها: حادثة الإسراء، وكفايته المستهزئين، واستجابة دعائه، وتكثير الطعام، وتصرُّفه في الشجر، ومكالمة الشاة له، وغير ذلك.

وجعل الباب الرابع في حكاية النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ أمورًا غائبةً عنه تمت في أيامه، فذكر أمورًا أخبر بها القرآن أو النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر، ومنها قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقوله: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١]، ونَعْي النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ للنجاشي قبل مجيء خبره.

وخصص الباب الخامس للأشياء التي أخبر بها ووقعت بعد وفاته عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ لجبلٍ: «اسْكُنْ، فمَا عَلَيْك إلَّا نبيٌّ وَصدِّيقٌ وشهيدٌ»(١).

---

(١) ونصه في صحيح البخاري (٣٦٩٩): من حديث أنسٍ قال: صعد النبي ﷺ أُحُدًا ومعه أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان، فرجف، وقال: «اسْكُنْ أُحُد -أظنه ضربه برِجْلِهِ- فليسَ عليك إلَّا نبيٌّ، وَصدِّيقٌ، وشهيدان».

وقول النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ لفاطمة: «**أنتِ أسرع أهلي لُحوقًا بي**».

وقوله لعمارٍ: «**تقتلك الفئة الباغية**»، وقوله للحسين: «**إنَّ ابني هذا سيِّد، سيصلح الله به بين فئتين من المسلمين**»، وتنبؤه بقتال الترك وفتح خراسان، وتمزُّق ملك كسرى.

ثم جعل السادس في معجزة القرآن رغم أُميَّته عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكر أن القرآن لا يماثله كتابٌ فيما جمعه من توحيد الله، والتَّصديق بأنبيائه، والحث على الصالحات، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والترغيب في الجنة، والترهيب من النار، ثم ذكر طرفًا من أخبار كتب الأنبياء الأخرى؛ ليُبيِّن فضل القرآن عليها، وكل ذلك مع أُميَّته عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعدم تردُّده على مجالس الأدباء أو البلغاء، ومع ذلك جاء بما بهر أهل اللغة، وغمر أهل الفصاحة، وتحدَّى به العرب.

وذكر في الباب السَّابع أنَّ غلبته عَلَيْهِ السَّلَامُ، وظهور دينه من دلائل نبوته، ثم أجاب إشكالًا حول ذلك يتعلق بتمكُّن الإسكندر وأردشير وغيرهما، فأجاب بالفرق بأن هذه الغلبة لم تكن في الدعاء إلى الله وأنبيائه بخلاف دعوة الإسلام، فهذه الغلبة إما أن تكون من الله، أو من الشيطان، ويمتنع أن تكون من الشيطان؛ لأنَّ الإسلام يدعو إلى الله وأنبيائه، ويلعن الشيطان، وينذر من شرِّه، فلابد أنها من الله.

ثم عقد الباب الثامن في أن الداعين إلى دينه، والشاهدين حقيقة أمره، كانوا خيار الناس وأبرارهم، وتعرَّض فيه لفضائل الصحابة، فبدأ بأبي بكرٍ، فذكر زهده وعفته وخشيته، ثم ذكر عمر فذكر زهده وعدله، وذكر عمر بن عبدالعزيز وعبد الله بن عمر والربيع بن خثيم، وشيئًا من أخبارهم ومحاسنهم، وأنهم لا نظير لهم في ملوك الأرض وأمم الأنبياء، ومَن كان كذلك لا يظن بهم الأباطيل والكذب.

وجعل الباب التاسع في أنه لو لم يظهر النبي محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، لبطلت نبوات الأنبياء، وأراد به أنَّ ما ورد من البشارات الكتابية في نسل إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي النبي الآتي، لو لم يكن تحقَّقها في ظهور محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، لبطلت هذه النبوات، ولم يكن لها تحقُّق في نفس الأمر، وهذا باطلٌ؛ لأن الله لا يخلف وعده، ولا يكذب خبره.

ومن ذلك البشارات لإبراهيم وهاجر في شأن نسل إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فذكرها وبرهن على أنه لا تحقُّق لها إلا في بعثة محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وجعل الباب العاشر في نبوءات الأنبياء في النبي محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، فذكر طائفةً من البشارات الكتابية مع تقرير دلالتها على محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

منها: قول الله تعالى لموسى: «إنِّي مقيم لهم نبيًّا مثلك من بين إخوتهم»، ثم تعقب مَن يزعم أنه المسيح.

ومنها: قول موسى: «إن الرب جاء من طور سينين، وطلع من ساعير، وظهر من جبال فاران»، ثم ذكر بشاراتٍ من مزامير داود فيها ذكر صفة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي بعضها تصريحٌ باسمه، ثم ذكر بشارات سفر أشعياء بصفة النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ واسمه، وذكر مكّة، ثم ذكر بشارات من أسفار الأنبياء الآخرين، مثل: ميخا وحبقوق، وصفنيا وزكريا وأرميا وحزقيال ودانيال وغيرهم، ثم انتقل إلى البشارات الإنجيلية.

ثم ذكر شبهةً ذكر أن قائلها هو أحد أعمامه في كتابٍ صنَّفه للرد على أهل الأديان، وهو أن المهاجرين والسابقين الأولين لم يدخلوا الإسلام لآيةٍ رأوها. وذكر المصنف أنه اغترَّ بها في أول أمره، ثم لمَّا انسلخ من دينه، رأى الجواب عنها سهلًا، وذكر أنه لو عُورض الكتابيون بهذه الحجة لَبطلت نُبوَّة عدةٍ من

الأنبياء، وذكر عن حزقيال والمسيح أنهما تبعهما جماعةٌ من غير أن تظهر لهم آيةٌ، وذكر شواهد ذلك من الكتاب المقدس.

ثم شرع في الرد على ما يطعن به أهل الكتاب في شرائع الإسلام وسننه، فذكر أنها موروثةٌ عن الأنبياء، فالذبح في ملة إبراهيم، والختان في ملة المسيح ومَن قبله، والجهاد في شرائع الأنبياء السابقين، وذكر أنَّ المسيح نهى عنه أولًا، ثم أذن فيه بعدُ، ونعيم الجنة ولذَّاتها الحسية في شريعة المسيح.

ثم تناول بالتفنيد دعوى التناقض على النبي محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ في أنه آمن بالتوراة والإنجيل قولًا، وخالفهما فعلًا، فذكر أن محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ صدَّق بموسى وعيسى، وأقرَّ بتوحيد الله الذي جاءا به، وأنه لو كان يسوغ الغمز بمثل هذا، لأمكن أن يقال هذا على المسيح؛ لأنه قال: إنه جاء ليكمل، ثم خالف موسى وأبطل أعيادهم وشرائعهم، وأبطل بولس الختان.

ثم ذكر في الخاتمة مشهدًا متخيلًا عن رجلٍ واردٍ من الإقليم، يرتاد الرشد، ويسأل عن الأديان، ثم حكى المصنف أخبار أهل الأديان واعتقادهم من المجوس والزنادقة واليهود والنصارى، والمسلمين، وما يعتقدونه من توحيد الله، وما يأمرون به من محاسن الأخلاق... ثم تساءل: أي هذه الملل كان يجب أن يؤمن به، ويركن إليه، ويستحسنه إذا كان وافر الرأي، سليم الطبع، مريدًا للحق.

منهج المصنف:

يُعَدُّ الغرض الأصلي من هذا الكتاب هو إقامة الحُجَّة، وذكر البراهين على نُبوَّة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورغم أن المصنف من أوائل مَن أفرد تصنيفًا في هذا الباب، لكنه مع ذلك سلك طريقةً حسنةً جامعةً، لم يقتصر فيها على دليلٍ واحدٍ أو بابٍ

واحدٍ من أبواب أعلام نبوته عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنَّما توسع في الاستدلال، وتنوَّع في أساليب الإثبات.

فبدأ بذكر محتوى رسالته عَلَيْهِ السَّلَامُ، وموافقتها لرسائل الأنبياء السابقين عليه، ثم تنقَّل بين أنواعٍ أخرى من الاستدلال كالمعجزات الحسية، ومعجزة القرآن، وبشارات الكتب السابقة، وأخلاق النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ وشرائعه وسننه، حتى إنه جعل أحوال صحابته وأخلاقهم من أعلام نبوة النبي محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا الدليل قَلَّ مَن سلكه واستعمله ممن صنَّف في الدلائل، وقد استعمله ابن تيمية في (الجواب الصحيح)، وشرحه وقرره أحسن تقريرٍ، ولا أدري هل استفاد ذلك من المصنف مباشرةً أو بواسطةٍ، أم لم يستفده منه؟

ولأجل أن المُصنِّف كان نصرانيًّا ثم أسلم، كانت مطالعته لكتب أهل الكتاب واسعةً، فقد أكثر من الإيراد منها، والاستدلال بها في مبحث البشارات وغيره، ويظهر من كلامه في غير موضعٍ أنه يرى وقوع التحريف اللفظي في الكتب المقدسة، ومع ذلك لم يُفْرد لذلك فصلًا، ولم يُطل الكلام فيه، ولعلَّ سبب ذلك أنه خارجٌ عن مقصود كتابه.

كانت لغة المصنف هادئةً، لا تشتمل على التوبيخ والتعنيف، وإنما تقتصر على الحجة والبرهان، والظاهر أنه قصد إلى ذلك؛ تجريدًا للحجة، وإظهارًا للبرهان كما أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه.

١١
الجعفري

نبذة عن المصنف:

هو الإمام تقي الدين أبو البقاء[١] صالح بن الحسين بن طلحة بن الحسين بن محمد الهاشمي الجعفري الزينبي، وُلِدَ سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

قال الذهبي: «كان رئيسًا نبيلًا، عارفًا بالأدب»[٢].

قال اليونيني: «وكان أحد الفضلاء العارفين بالأدب وغيره، والرؤساء المذكورين بالفضل والنبل»[٣].

تُوفِّي سنة ثمانٍ وستِّين وستمائة.

اسم الكتاب:

(تخجيل من حرف الإنجيل)[٤].

---

(١) كذا في تاريخ الإسلام، وفي ذيل مرآة الزمان، وفي الوافي بالوفيات: أبو التقى.

(٢) تاريخ الإسلام (٤٩/ ٢٦٢).

(٣) ذيل مرآة الزمان (٢/ ٤٣٨).

(٤) هذا هو الاسم الذي صرَّح به المُصنِّف في مقدمة كتابه هذا، وفي صدر كتابه: «الرد على النصارى»، وقد ذكر محقق طبعة العبيكان أنَّ المصنِّف سمَّاه في صدر كتابه: «البيان الواضح»: «تخجيل من حرف التوراة والإنجيل»، ولهذا اختار هو هذا الاسم، وتبعه عليه محقق طبعة مكتبة النافذة، لكن الاقتصار على ما ذكره المصنف في نفس الكتاب أَوْلَى، والله تعالى أعلم.

وَصْف الكتاب:

بدأ المصنِّف مقدمته للكتاب ببيان سبب تصنيفه له، وهو أنه حضر محفلًا يبدو أنه من المشتغلين بالمعارف، فذكروا النصارى، وتعجبوا من عقائدهم، ثم طلبوا من المصنف -بعدما ذكروا معرفته بكتبهم وعقائدهم- أن يكتب لهم في هذا الباب، فاستخار الله، ثم جعل يجمع ما لم يكن وقف عليه من كتبهم، ثم شرح باختصارٍ خطته في الكتاب، وطرح إشكالًا وحله أذكره بلفظه لفائدته.

قال: «فإن قيل: كيف استجزت النظر إلى هذه الكتب وصحبتها محظورة والأمة بالنظر فيها غير مأمورةٍ، وقد نهي الصحابي عنها، وبحر منقوله عجاج، وبنية معقوله مركبة من أعدل مزاج؟

قلنا: المحظور هو النظر فيها على وجه التعظيم والتفخيم، وإجراؤها على ظواهرها الموهمة لا سيما للعامي الغر، والحدث الغمر، فأما مَن نظر فيها على المقصد الذي قصدته، والنحو الذي أردته وأوردته، فهو -إن شاء الله- من أمهات القربات، فأما نهيه عَلَيْهِالسَّلَامُ الصحابي عن ذلك، فلأن الأمر كان في ابتدائه، والشرك بعدُ لم يَمُت بدائه، فلعلَّ رسول الله ﷺ رأى أن غير ذلك أَوْلَى بالصحابة في ذلك الوقت، ولأنَّ الصَّحابة -رضوان الله عليهم- هم أعيان الأمة، فلو أكبُّوا على تلك الكتب المبدلة والصحف المحرفة، لا شك أن يتابعهم الناس في ذلك، وقد قال عَلَيْهِالسَّلَامُ لأصحابه: «**إنكم أئمةٌ يُقْتَدى بكم**»، وقال: «**أَصْحَابي كالنُّجوم...**»، فلهذا نهى الصحابي وندبه إلى الاشتغال بالكتاب العزيز بقوله: «**لقَدْ جئتُكُم بها بيضاءَ نقيةً**».

قلت: وقد ذكر الفقهاء ترددًا في جواز استصحاب هذه الكتب للوقوف عليها، وتوجيه وجوه الرد إليها، وبالجملة: فالأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى، والحكمة ضالَّة المؤمن، حيث وجدها خطبها، ومطيَّة تنهج سواء السبيل بمَن ركبها، وربنا المسؤول أن يصحح منَّا المقاصد، ويبعث رائد التوفيق، فيقف لنا بالمراصد».اهـ.

ثم بدأ المصنف بفصلٍ تعريفيٍّ بالأناجيل، فذكر أسماءها، وأسماء كُتَّابها، وتاريخ كتابتها.

ثمَّ جعل الباب الأول في كون المسيح عبدًا من عبيد الله بقوله وفتواه، فذكر تسعة عشر نصًّا تدل على عبودية المسيح، كنُبُوءة أشعياء: «هذا فتاي الذي اصطفيت، وحبيبي الذي ارتاحت له نفسي، أنا واضعٌ روحي عليه، ويدعو إلى الحق»[1]، وكتعميد المسيح على يد يوحنا في متَّى (٣/ ١٣)، وكتجربة إبليس للمسيح وامتحانه في متَّى (٤/ ١) وغيره، وقول بولس في كورنثوس الأولى (١١/ ٣): «وأن رأس المسيح الله»، وقول المسيح في متَّى (١٩/ ١١): «لا صالح إلا الله وحده»، وعوارض البشرية كالجوع والاختتان والرضاع، واستعمال التقية والحيدة، وكذلك صلاته وتعبُّده وتوجُّهه لله بالدعاء، ونَفْي علمه بالقيامة، وإفراد

---

(١) سبب إيراد المُصنِّف لهذه النبوءة أنَّ متَّى جعلها بشارةً للمسيح، وقد أشرنا سابقًا إلى خطأ متَّى في هذا من وجوهٍ، والظاهر أن المصنف لا يقرُّه على هذا، وإنما يلزم الخصم بما يعتقد، والدليل على هذا أنه أورد هذه النبوءة نفسها في البشارة الحادية والعشرين بخاتم الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ في نفس الكتاب.

الله بعلمها[(١)]، مع شرح هذه الأدلة، ورد الاعتراضات عليها.

وجعل الدليل العشرين هو الاحتجاج بأنَّ تعاقب الأحوال والسكون والحركات والاختصاص بالمقادير والهيئات هو دليل حدوث الأجسام، ثم ذكر تغيُّر أحوال المسيح، فقد ثبت بذلك أنه مخلوقٌ.

ثم جعل الباب الثاني في إثبات نبوة المسيح، وتحقيق رسالته، وذكر إن إثبات نبوة المسيح فيه تفنيدٌ لجحد اليهود لنبوة المسيح، وردهم وتأويلهم لآياته ومعجزاته، فإثبات هذه الآيات لا تُبْق للقدح في نبوة المسيح سبيلًا، واعتراض اليهود عليها سينعكس على أنبيائهم، كما أن إثبات نبوته فيه ردٌّ لاعتقاد النصارى بربوبيته.

ثم ذكر اثنين وثلاثين نصًّا تدل على ذلك؛ كقول المسيح في يوحنا (١٣/ ١٦): «مَن قبلني، فإنما يقبل من أرسلني»، وما في يوحنا (١٠/ ١٤): «أنا هو الراعي الصالح»، وذكر بعض آياته من إبراء الأبرص والأكمه وإحياء الموتى، مع الرَّدِّ على اليهود في جحدها من جهة أنَّ طريق ثبوتها هو طريق ثبوت نُبوَّة غيره من الأنبياء، ويلزم من ردِّها آيات غيره.

ثم رد مزاعم النصارى، وبيَّن أنها لا تدل على الربوبية لحصول مثلها وأعجب منها على يد غيره من الأنبياء، كما أنَّ بعضها حصل بدعائه وتوجُّهه إلى الله، وكذلك إقرار الشاهدين لهذه الآيات له بالنبوة كما في متَّى (٢١/ ١١) ولوقا

(١) في مرقس (١٣/ ٣٢): «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة، فلا يعلم بهما أَحدٌ، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآب».

(٢٤/ ١٩) ويوحنا (٤/ ١٩) ويوحنا (٦/ ١٤)، وغيرها، ونسبته ما كان يفعله إلى الله كما في لوقا (٨/ ٣٩).

ومنها أيضًا قول يوحنا في يوحنا الأولى (٢/ ١): «فإن أخطأ أحدكم، فلنا شفيع عند الأب يسوع المسيح البار»، فجعله شفيعًا، وقول المسيح في لوقا (١٣/ ٣٣): «لأنه لا يهلك نبيٌّ خارجًا عن أورشليم».

وذكر في أثناء ذلك إثبات اشتمال الجنة على النعيم الحسي خلاف معتقد أهل الكتاب، فذكر بعض النصوص الكتابية الدالة على ذلك، منها ما في لوقا: «طوبى لمن يأكل خبزًا في ملكوت الله»، وما في لوقا (٢٢/ ٢٩): «إني ذاهب أُعدُّ لكم مائدتي في الملكوت لتأكلوا وتشربوا وتجلسوا على كراسي المجد»، وما في متَّى (٢٦/ ٢٩): «إنِّي لست شاربًا من هذه الكرمة حتى أشربها معكم حديثًا في ملكوت السماوات»، وما في يوحنا (٦/ ٢٧): «اعملوا لا للطعام الفاني، بل للطعام الباقي في الحياة المؤبدة؛ لأنَّ ذلك قد ختمه الله»، وما في يوحنا (١٩/ ٢٩): «مَن ترك زوجةً أو بنين أو حقلًا من أجلي، فإنه يعطى في الجنة مائة ضعفٍ، ويرث الحياة الدائمة»[1].

ومن العهد القديم مثل ما في تكوين (١٣/ ١٠): «كانت سدوم قبل أن يخسف الله بها تشبه فردوس الله، وأرض مصر»، ووصف الجنة التي أخرج الله منها آدم، وناقش المصنف زعمهم بأنها جنة في الدنيا.

---

(١) وهي الآن: «وكل من ترك بيوتًا، أو إخوةً، أو أخوات، أو أبًا، أو أُمًّا، أو امرأةً، أو أولادًا، أو حقولًا، من أجل اسمي، يأخذ مئة ضعفٍ، ويرث الحياة الأبدية».

ثم جعل المصنف الباب الثالث في بيان أن بعض ظواهر الإنجيل لابد فيها من تأويلٍ؛ حراسةً لما دل عليه دليل العقل؛ لأن الشرع لا يأتي على خلاف دليل العقل، وأن الخلل دخل على النصارى من عدم حَمْلهم هذه الظواهر على مقتضياتها، وتهيُّبهم من صَرْفها إلى محتملاتها.

ثم تناول لفظ الأبوة والبنوة، وذكر أن لغتهم تسمي الوليَّ ابنًا، والمربي أبًا، ويُعبِّرون عن ذلك بأُبوَّة النعمة، وبُنوَّة الخدمة، ثم ذكر شواهد ذلك من الكتب، وذكر أنَّ الغالب أن لفظ الابن يُذْكر مقرونًا بالعبودية؛ كقوله: «إسرائيل ابني بكري، أرسله يعبدني»، فإن لم تصحَّ هذه النقول فلا بنوة، وإن صحت فلا مزيَّة للمسيح على مَن سبقه من الأنبياء، ووصف بالبنوة.

بل إنَّ أتباع المسيح أطلقوا البُنوَّة على أنفسهم، كما في رسالة يوحنا الأولى: «يا أحبائي، إنَّا أبناء الله سمَّانا بذلك، واعلموا أنَّ الفصل بين أبناء الله وأبناء الشيطان أنَّ من لم يتبرر ويحب أخاه، فليس من الله، بل من الشيطان»[(١)]، ومثله عند بولس في رسالته إلى رومية.

ثم ذكر لفظي «الإله» و«الرب»، وأنهما قد يستعملان في حق العظيم من الآدميين تجوزًا وتوسعًا، وذكر شواهد ذلك من الكتب؛ كقول إبراهيم ولوط للملاك: «يا رب، مل إلى منزل عبدك»[(٢)]، وقول الله لموسى في الخروج (٧/ ١): «قد جعلتك إلهًا لفرعون»، فإطلاق الرب على المسيح من هذا القبيل.

---

(١) وهو بمعناه مفرقٌ في الإصحاح الثالث من الرسالة المذكورة.

(٢) وهو بنحوه في تكوين (١٨/ ٣) (١٩/ ٢).

وقد جاء التصريح بذلك من قول المسيح كما في يوحنا (١٠/ ٣٤): «أريتكم أعمالًا حسانًا من عند الله، أفمن أجل الأعمال ترجمونني؟ فقالوا: إنما نرجمك لأنك بَيْنا أنت إنسان إذ جعلت نفسك إلهًا، فقال يسوع: أليس هكذا مكتوب في ناموسكم: «إني قلت: إنكم آلهة وبني العلي تدعون».

وذكر بعض المواطن التي كان المسيح ينتهر فيها مَن يسمِّيه بابن الله، وذكر أن سبب ذلك هو ما في الإنجيل أنه ابن داود، وأورد على نفسه قول المسيح: «إنِّي ذاهبٌ إلى أبي وأبيكم»، وأجاب بأنَّ هذا من اضطراب النقل وضَعْفه.

ثم عقد الباب الرابع في التعريف بمواضع التحريف، أراد بها أن يبيِّن وقوع التناقض والتحريف في الإنجيل، فذكر اثنين وخمسين موضعًا؛ إما أن يكون فيها تناقض وتكاذب، وإما أن تكون حادثةً تفرد بها أحد كُتَّاب الإناجيل، وغفل عنها الثلاثة مع توافر دواعي النقل، وإما أن يشتمل على كلامٍ فاسدٍ.

فمن أمثلة التناقض المذكور: الاختلاف بين متَّى ولوقا في نسب المسيح، والخلاف بين الأربعة في قصة تعميد المسيح، والخلاف بين متَّى ولوقا في اسم والد يوسف النجار، وخلاف متَّى ويوحنا في قصة ذهاب مريم المجدلية إلى قبر المسيح، وتناقض متَّى مع نفسه في أكل يوحنا وشربه، والاختلاف بين متَّى والآخرين في موعد قيامة المسيح، والتناقض بين أمر المسيح بشراء سيفٍ، ونَهْيه عن مقابلة الشَّرِّ بالشَّرِّ.

ومن أمثلة التفرُّد: ما في يوحنا (٢/ ٩) من تحويل الماء إلى خمرٍ، وصعود المسيح إلى السماء الذي أغفله متَّى ويوحنا وهما من الاثني عشر، ثم اختلف

فيه مرقس ولوقا تخالفًا شنيعًا، وتفرد يوحنا بقصة الملائكة الذين بشروا الرعاة.

ومن أمثلة الكلام الفاسد: قول يوحنا (١/ ١): «في البدء كان الكلمة، والكلمة عند الله، والله هو الكلمة»، وما في يوحنا من أمر المسيح لتلامذته بأن يأكلوا جسده، ويشربوا من دمه، وتفرد متَّى بذكر نبوءتين ليس لهما ذكرٌ في كتب النبوات، وهما: «المسيح يدعى ناصريًّا»، «من مصر دعوت ابني».

ثمَّ عقد الباب الخامس في أن المسيح لم يُقتل، ولم يُصلب، فساق فيه المصنف قصة الصلب المذكورة في الأناجيل، ثم وجَّه لها سهام النقد من عدَّة جهات:

منها: أنها لم تتواتر، فلم يشهدها الحواريون كلهم، ولم يشهدها من غيرهم إلا عددٌ يسيرٌ لا يحصل التواتر بقولهم، فإذا ثبت هذا، قدم متواتر القرآن عليه، ثم ذكر عدة حجج من القصة تقدح أو تشكك في حصول الصلب فعلًا.

ثم ذكر المصنف ما سمَّاه: «عشر أسئلة مفحمات»، وهي من نوع الجدل العقلي، منها مثلًا: سؤال حول كون الله جسمًا بلحمٍ ودمٍ أم لا، فإن نزَّهوا الإله عن هذا، أخرجوا المسيح من الألوهية، وإن وصفوه بهذا، أكذبتهم التوراة التي تنفي تمثيل الله بخلقه.

وعلى نفس المنوال سألهم عن عوارض البشرية من الجوع ونحوه، هل يتصف بها الإله أم لا؟ هل كان مع الله في الأزل إلهٌ أم لا؟ هل يجوز أن يقهر الإله ويصلب أم لا؟ وهل كان يسوع الذي تتَّخذوه إلهًا تعرفه الأنبياء، فإن قالوا:لا، أَزْرَوا على الأنبياء، وإن قالوا: نعم، كذبتهم كتبُهُم.

وهل يوصف الإله بالجهل بالغيب أو لا؟ فإن قالوا: لا، كذبوا بالكتب التي تنسب له العلم بالمغيبات، وإن قالوا: نعم، تركوا تأليه المسيح؛ لأنه صرح بعدم معرفة وقت الساعة.

ثم أتبع أسئلته بأنواعٍ من المناقشات والإلزامات القادحة في عقيدة الصلب.

ثم عقد الباب السادس في الجواب على أسئلة الملاحدة، أي: أسئلة أوردها المردود عليهم من النصارى، بلغت عشرين سؤالًا، منها: أن أهل الكتاب قد بلغوا عدد التواتر وزيادة، وقد أخبروا عن قتله وصلبه، وهذا يفيد القطع، فكيف يخالفه كتابكم؟ وأجاب بأن الذين شهدوا الصلب لم يبلغوا التواتر، وعلى التسليم فإن المنقول هو حصول الصلب، والقرآن لم ينفه، وإنما أعلمنا أنهم شبه لهم.

ومنها: كيف يكون المصلوب غير المسيح مع اقتران الصلب بالآيات؟ وأجاب بتكذيب النقل، وعلى تقدير صدقه، فربَّما كان لأنَّ المقتول حواري للمسيح، آثر المسيح على نفسه.

ومنها: كيف يكون إلقاء الشبه من الله، وهو ضلال؟ فأجاب بأنه تخليص للمسيح من القتل، وهذا خلاصٌ من الضلال لا إضلال.

ومنها: أليس في كتابكم: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وهو ما ذهبنا إليه؟ فأجاب بأنها الروح تتردد بين معانٍ، والمراد بها هنا أن الله نفخ الروح في مريم بواسطة جبريل، وذكر شواهد ذلك من التوراة.

ومنها: الاستدلال بقول المسيح: «أنا بأبي، وأبي بي» على الاتحاد، فأجاب بقول المسيح في يوحنا: «أنا بهم، وأنت بي»(١)، وتأويل ذلك: أنت يا إلهي معي، وأنت لي،

(١) وهي الآن في يوحنا (١٧/ ١١): «احفظهم في اسمك الذين أعطيتني؛ ليكونوا واحدًا كما نحن».

وأنا أيضًا مع أصحابي، وأنا لهم، ولو عدل عن هذا التأويل لزم منه المحال.

ثم عقب هذه الأسئلة بما سمَّاه: (انتزاعات له)، أي: نصوص من التوراة حملوها على البشارة بالمسيح، فذكر سبعة انتزاعاتٍ أكثرها من التوراة، وشرح عدم دلالتها ومطابقتها، وبعضه مكررٌ قد تقدَّم ذكره في كلامه.

ثم عقد الباب السابع لإبطال دعوى الاتحاد، فحكى قول اليعقوبية في الاتحاد، وهو أن الطبيعتين اتحدتا، وصارتا طبيعةً واحدةً، ثم رد عليهم بخمس عشرة حجة بعضها في صورة تساؤلات، على سبيل المثل سألهم: هل تغيرت الطبيعتان عن حالهم قبل التركيب أو لا؟ فإن نفوا التغيُّر، ناقضوا مذهبهم، وإن قالوا: بل صارت شيئًا ثالثًا، امتنع أن يصفوه بالإلهية أو الإنسانية، وإن زعموا أن التركيب قد أبقاهما على الكمال، فالمسيحُ إلهٌ كاملٌ وإنسانٌ كاملٌ، فقد تحامقوا وجعلوا القديم هو بعينه الحادث.

وبعضها نقد من كلام المسيح؛ كقوله: «إنِّي ذاهبٌ إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم»، ففيه تفريقٌ بينه وبين الإله سبحانه.

ثم حكى عقيدة الملكية، وأنهم أثبتوا مشيئتين؛ لاهوتية وناسوتية في أقنوم واحدٍ، ثم أجابهم بست حجج عقليَّة، منها مُسَاءلتهم: هل الاتحاد حقيقة أو مجاز؟ فإن قالوا: مجاز، أبطلوه، وإنْ جعلوه حقيقةً، تعيَّن أن يكون له مشيئةٌ واحدةٌ؛ لامتناع أن يكون للواحد مشيئتان.

ثم قال عقب الحجج الست: إنَّ أكثر الحجج الواردة على اليعقوبية واردة على هؤلاء، ثم حكى مذهب النسطورية، وأنهم أثبتوا أقنومين وجوهرين، ثم أجابهم بعشر حجج بعضها نقلي، وبعضها عقلي.

ثم ذكر أن الطوائف كلها متفقة على التثليث، ثم جعل يسائلهم عن شرحهم للتثليث، ويثبت أنه على أيِّ وَجْهٍ كان الشرح؛ إما سيكون مخالفًا للتثليث ولعقيدة الأمانة، وإما يكون باطلًا منافيًا لبديهة العقل.

ثم عقد الباب الثامن في الإبانة عن تناقض الأمانة، فذكر قصة مجمع نقية، وسبب انعقاده، وما أسفر عنه، ثم بيَّن ضعفها وتناقضها من خمسة عشر وجهًا، بعضها عقلي، وبعضها نقلي، منها: أن تسميتهم المسيح ابن الله وبكر الخلائق، وهذا يقتضي أنه محدثٌ مصنوعٌ، ومع ذلك أثبتوا له الإلهية وعدم الحدوث.

ومن ذلك: قولهم: إنه من جوهر أبيه، يقتضي أن يعلم ما يعلمه أبوه، ومع ذلك فقد نفى المسيح عن نفسه علم الساعة.

ثم عقد الباب التاسع في إثبات الواضح المشهود من فضائح النصارى واليهود، فبدأ بذكر فضائح اليهود، فذكر بعض ما وقعت فيه الطوائف اليهودية من الشرك بالله، والخروج عن أوامر التوراة التي تأمرهم بتوحيد الله، وإفراده بالعبادة، كالمؤتمنية الذين قالوا: عزير ابن الله، والذين عبدوا الكواكب في عهد أرمياء، والذين عبدوا العِجْل في عهد موسى، والمجسمة والثنوية الذين يعتقدون في صانعٍ للشر غير الله مخلوق له، ثم عدَّد كثيرًا من الطوائف اليهودية المنحرفة.

ثمَّ أشار إلى أنَّ الذي بقي منهم أربع طوائف: القراءون والربانيون والعيسوية والسامرة، فذكر اعتقاد العيسوية، وأنهم يقرون بنبوة محمد للعرب خاصةً، وردَّ عليهم، ثم ذكر اعتقاد غيرهم، وأنهم ينكرون النسخ، ثم تعقَّبهم بوجوهٍ عقليةٍ كقياس الغائب على الشاهد، وأخرى نقلية كاختلاف شرائع الأنبياء السَّابقين عن عقائد التوراة، وهو دليلٌ على وقوع النسخ، بل قد وقع في

شرع موسى نفسه النسخ، وبيَّن أن ما تحرَّزوا منه من إثبات البداء في التوراة ما هو أشنع منه من إثبات الندم والأسف لله تعالى، وتخلف حكمه تعالى ربنا.

ثم أتمَّ المصنف ما سمَّاه: (فضائح اليهود) بذكر نصوصٍ من التوراة مستنكرًا لها، واصفًا إياها بالسماجة والبعد عن العقل؛ كاستراحة الله تعالى في اليوم السابع، ونزوله على الأرض، وغير ذلك من النقائص، وكذلك بعض ما ينسب للأنبياء مما لا يليق بمقام النبوة.

ثم انتقل إلى فضائح النصارى، فذكر بعض معتقدات النصارى وشرائعهم وحيلهم؛ كاعتقاد النصارى في مريم والمسيح، والصلب، واختبار إبليس له، وزعمهم أكل لحم المسيح وشرب دمه، وترك الختان والاستنجاء، واستباحة الخنزير، والأعياد المخترعة، وحكى بعض حيلهم لخداع أتباعهم في كنائسهم كحيلة اليد الَّتي تخرج من خلف الستار، وحيلة الصَّليب المعلق بالهواء.

ثمَّ عقد الباب العاشر في البشائر الإلهية بالعزَّة المحمدية، وقسمها قسمين، فجعل القسم الأول في البشارة بالنبي عَلَيْهِ السَّلَامُ في التوراة والإنجيل، فذكر خمسًا وثمانين بشارةً في التوراة والإنجيل، مثل ما جاء في تكثير إسماعيل، وإقامة نبيٍّ من إخوة بني إسرائيل، وبشارات سفر أشعياء، والمزامير التي تذكر اسم النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ أو صفته، أو تذكر مكة وصفاتها، أو تصف أصحاب محمد ﷺ، وكذا في (سِفْر حبقوق) وأرمياء، وزكريا.

ثمَّ ذكر البشارات الإنجيلية، وتبشير المسيح بالفارقليط، واختلاف النصارى في معناه، وبيَّن تعذُّر جمله على غير محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وجعل القسم الثاني من الباب العاشر في آيات الرسول ﷺ، وإثبات معجزاته

الباهرة للعقول، الخارقة للعادة، فبدأ بكلامٍ مختصرٍ مفيدٍ عن النبوة في العهد القديم، وأن من الأنبياء مَن كانت له نبوءةٌ وآيةٌ، ومنهم مَن كانت له آيةٌ فقط، ومنهم مَن كانت له نبوءة فقط، ومنهم مَن خلا عنهما، أما نبيُّنا فقد اجتمع له التنبؤ (أي: البشارة به)، والنبوءة والآية، فالنبوءة كالإخبار بالمغيبات عن الأزمان الماضية، وأخبار الأنبياء، ومن ذلك ما أخبر به، فوقع في زمانه، ومنه ما وقع بعد موته.

أما آياته ومعجزاته فكثيرة، فبدأ بذكر القرآن، وتحدِّي النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه في الإتيان بمثله، وإحجامهم عن جوابه، ثم تناول وجوه إعجازه؛ كحسن التأليف، ورقَّة الترصيف، وما فيه من خبر الغيب مما لم يكن وقع.

ثم انتقل إلى المعجزات الحسية، فذكر الكثير منها؛ كانشقاق القمر، وحبس الشمس، ونبع الماء، وتكثير الطعام، وحنين الجذع، وتسبيح الطعام والحصى، واضطراب الجبل لهيبته، وسكونه بأمره، وشفاء المرضى، وإجابة دعائه، وعصمته من أعدائه.

ثم جعل من دلائل نبوته ما أجرى الله على يد صحابته وأُمَّته من الكرامات، ثم ذكر طائفةً منها وقعت للصحابة والتابعين والصالحين من المسلمين.

ثم ختم كتابه بسؤالٍ أورده على نفسه، وهو ما إذا قال بعض النصارى: لا نبيَّ بعد المسيح، فأجابه بنصوصٍ في العهد الجديد تثبت وقوع النبوة بعد المسيح في بولس وغيره، ثم ردَّ الاحتجاج بتحذير المسيح من الأنبياء الكَذَبة، بأن في النص ما يشير إلى وجود النبي الصادق؛ لقوله: «من ثمارهم تعرفونهم»، فلو امتنعت النُّبوة بعده لَمَا أحوجهم إلى هذا الاستدلال، فلما دلَّهم على هذا

الاستدلال، كان ذلك صريحًا في انتظار النَّبيِّ الصادق، كما أنَّ موسى قد حذَّر أيضًا ممن يكذب ويضلُّ، ولم يكن هذا عندكم دليلًا على ردِّ عيسى.

منهج المصنف:

يعدُّ كتاب (التخجيل) من الكتب الموسعة الجامعة في مجادلة أهل الكتاب؛ لاشتماله على أنواعٍ مختلفةٍ من الجدل والاستدلال، فمنها الجدل العقلي، ومنها الجدل والاستدلال النقلي من نصوص الكتب المُقدَّسة، وإثبات التحريف المعنوي، علاوةً على النقد الكتابي، والتدليل على التحريف اللفظي في الكتب المقدسة بوقوع التناقض، أو الأخبار المقطوع بكذبها؛ لنسبتها لله أو للأنبياء ما لا يليق بهم، ثم عرج على ذكر بعض دلائل النبوة، ورد الاعتراض عليها.

والكتاب يشهد لصاحبه بالتوسُّع في مطالعة كتبهم، ومعرفة أقوالهم واختلافهم، وهذا هو سبب كون أصحابه قد طلبوا منه أن يكتب في هذا الباب كما حكى هو في مقدمة كتابه، وأشرنا إليه سابقًا.

ولكن افتقد المُصنِّف حسن الترتيب والتبويب بالمقارنة ببعض المصنفات في الباب؛ ككتاب (الإعلام) للقرطبي، علاوةً على وقوعه في بعض التكرار.

كما أنه يعتمد على الإكثار من الأدلة والإيرادات دون العناية الكافية بتقرير الأدلة، وأحيانًا يقتصر على الجدل، وإلزام الخصم دون استعمال البراهين القطعية(١).

---

(١) ومن الأمثلَّة التي تظهر المراد: أنَّ المصنف قال في سياق ذكره للمعجزات الحسية: «وَإِنْ طعن في آية انشقاق القمر يهودي، قلنا له: ما دليلك على انشقاق البحر لموسى؟ أو يُشكِّك في ذلك نصراني. قلنا له: ما حُجَّتك على انشقاق حجاب الهيكل عند صلب الشبه الذي أشركته مع الله في الربوبية؟ فإذا قالا: النقل الصحيح، والخبر الصريح. قلنا: من أصار عباد الصلبان =

بخلاف ما نراه عند ابن تيمية من حسن تقرير الأدلة وصياغتها[١].

=

والعجول أَوْلَى بالقبول من أخبار الموحدين العدول؟!».اهـ.

ومعلوم أنَّ هذا طريق جدلي، وإلزام للخصم، لو قارنَّاه بتقرير ابن تيمية لدلالة المعجزات من جهة ثبوتها ودلالتها، سيظهر عناية ابن تيمية على الصياغة البرهانية للحُجَّة مع استخدامه أيضًا للجدل، وإفحام الخصم مع ذلك.

(١) وقد وقع الدكتور محمد محمد حسانين محقق كتاب «الرد على النصارى» للمصنف في مجازفةٍ ومبالغةٍ، ووافقه عليها خالد محمد عبده محقق هذا الكتاب طبعة النافذة، مفادها أن كتاب ابن تيمية «الجواب الصحيح» ما هو إلا تكرار لما قاله الجعفري قبله بقرنٍ.

ولا شك أنَّ هذه دعوى من جنس دعاوى المستشرقين التي تقفز إلى نتائج متعجلة، وإطلاقات واستنتاجات كبرى، إما بغير برهانٍ، أو بأدنى دليلٍ وتشابهٍ لا يضاهي أو يكفي فيما يراد له من الاستنتاج، وهو ما سمَّاه الفيلسوف الإيطالي فيكو (وهم المصادر)، وهو ادعاء التناقل والاقتباس بمجرَّد التشابه الظاهري.

فليس هناك دليلٌ قطعيٌّ على أن ابن تيمية قد رأى هذا الكتاب، أو اقتبس منه، بل هناك قرائن تشير إلى هذا؛ كالتشابه الذي نراه في بعض المواطن مثل بعض الأدلة العقلية، وبعض البشارات، والكلام على الفارقليط، لكن هذا التشابه ليس قاطعًا في أن ابن تيمية طالع هذا الكتاب، واقتبس منه، فربما كان من توافق الخواطر، وربما كان ابن تيمية استفاد منه بواسطة كتابٍ نقل عنه، أو كلاهما استفاد من غيرهما، فالتشابه وحده دون دليلٍ يقويه، يثير احتمال النقل والاقتباس لا أكثر، ولا يتعداه إلا بدليلٍ آخر.

أمَّا الدعوى بأن كتاب ابن تيمية تكرار لكتاب المصنف، فهي دعوى متعجلة، فأي متصفح للكتابين ولو بلا استقراءٍ أو استيفاءٍ، سيظهر له مبلغ الاختلاف والتباين بين الكتابين من وجوهٍ عدة.

١٢

السموأل

نبذة عن المصنف:

هو أبو النصر(١) السموأل بن يحيى(٢) بن عباس المغربي.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان فاضلًا في العلوم الرياضية، عالمًا بصناعة الطب»(٣).

أكثر كتبه في الطب والحساب ونحوها، منها كتاب: (المفيد الأوسط في الطب)، وكتاب: (إعجاز المهندسين)، وكتاب: (المثلث القائم الزاوية).

مات قريبًا من سنة سبعين وخمسمائة.

اسم الكتاب:

(غاية المقصود بإفحام اليهود)(٤).

---

(١) كنَّاه أبوه بهذه الكنية كما ذكر هو في خاتمة كتابه، ولم تذكر أكثر المصادر هذه الكنية باستثناء «هدية العارفين».

(٢) كذا في عيون الأنباء والأعلام وهدية العارفين، بينما في إخبار العلماء للقفطي: بن يهوذا. ولا تعارض، فقد ذكر المصنف في خاتمة كتابه أنَّ أباه كان له اسم يدعى به عند اليهود وهو: «الراب يهوذا بن أيوب»، واسم يدعى به عند العرب وهو: «أبو البقاء بن يحيى بن عباس».

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٤٧١).

(٤) هذا العنوان هو الذي يؤخذ من كلام المصنف في خاتمة الكتاب، بينما النسخة المطبوعة فهي بعنوان: «غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود»، وهو العنوان الموجود على طرة =

وَصْف الكتاب:

بدأ المصنف كتابه بذكر غرضه من الكتاب، وهو الرد على أهل اللجاج والعناد، وذكر أن غيره من الأئمة قد سبقه إلى غرضه ذلك، ولكنه أراد أن يسلك طريق الإفحام بالاحتجاج عليهم بما يتداولونه من نصِّ كتابهم.

فَتعرَّض المُصنِّف لمسألة النسخ التي ينكرها اليهود، وأراد إلزام اليهود بالنسخ من شرائعهم، فألزمهم بوجود شرائع سابقة على التوراة، وأن التوراة غيرت بعضًا مما فيها، كتحريم العمل يوم السبت بعد أن كان مباحًا، فإن قالوا: النسخ المكروه هو إباحة المحظور لا عكسه. أجابهم بعدم الفرق، وبأنَّ النهي لمَّا وجد بعد عدمه، دلَّ على أنه ليس عن الشيء لعينه، فلا مانع من اختصاصه ببعض الأوقات دون بعضٍ، وأن ينسخ التحريم في زمانٍ آخر.

وتطرَّق لإلزام مَن يصدق بنُبوَّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتصديق بنبوة عيسى ومحمد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، لأنه لم ير أحدًا منهم، وإنما طريق ثبوته التواتر والخبر، وهو حاصلٌ في حقهما كما هو حاصلٌ في حقه.

ثم ألزمهم أيضًا في جواز النسخ بتغييرهم بعض الأحكام الواردة في التوراة،

=

مخطوطة الكتاب التي اعتمد عليها المُحقِّق، فربما كان هذا اسمًا متأخرًا وضعه المُصنِّف لكتابه، وربما كان من تصرُّف النُّسَّاخ.

ومما يقوي أن الزيادة من النُّسَّاخ، ويرجح العنوان الأول: أن الكتاب ليس فيه شيء من مناظرة النصارى أو إفحامهم، بل هو كله في مجادلة اليهود وإفحامهم، وإن كانت بعض حججه تلزم النصارى أيضًا كاستدلاله على نُبوَّة مُحمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمعجزات والبشارات، وفصاحة القرآن إلا أن المصنف لم يقصد إلى ذلك، ولم يُشِرْ له.

بل ووقوع تغيير الحكم في التوراة.

وألزم اليهود بإثبات نُبوَّة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لورود البشارة بها في التوراة، وبحصول المعجزات على يديه، كما جرت على يد موسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وهو أيضًا ما تحقَّق للنبي محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، بالإضافة لمعجزته الباقية، وهي القرآن.

ثمَّ تناول بعض البشارات بخاتم الأنبياء في التوراة، مبينًا وجه دلالتها، ودافعًا وجوه الاعتراض عليها، مثل ما في تثنية «نبيًّا أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك»، ما في تكوين «وأما في إسماعيل، فقد قبلت دعاءك ها قد باركت فيه، وأثمره وأكثره جدًّا جدًّا»، وما في تثنية «إنَّ الله من سيناء تجلى، وأشرق نوره من سيعير، واطلع من جبال فاران».

ثمَّ ناظرهم في دعواهم أن الله يحبُّهم، ولا يختار الأنبياء إلا منهم، واحتج عليهم بأنبياء ليسوا منهم كأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأقوام هم منهم، ولكنهم يَصِمونهم بالكفر، فبطل الاختصاص.

ثم تناول بعض ما وقع فيه اليهود من الضلال والكذب على الله تعالى، وما ينسبونه له من صفات الأجسام، وما لا يليق بكماله وجلاله كالندم وغيره.

ثم شرح كيف ضاعت توراة موسى، ثم كيف لفق عزرا التوراة التي بين أيديهم، وذكر شيئًا من افترائهم ومزاعمهم حول محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم على غيره من الأنبياء في توراتهم كَلُوطٍ ويعقوب وغيرهما.

ثم تناول بعض شرائعهم بالنقد والتوبيخ، وتعرَّض لذكر المشنا والتلمود، وما فيهما من تشديد الإصر عليهم، ثم تعرَّض لِذِكْرِ فرقة القرائين والربانيين

وبعض معتقداتهم في التلمود وفقهائهم.

ثم جعل خاتمة كتابه في بيان أنَّ طائفة اليهود أحق الناس أن يرسم بالجهالة، وينبز بالضلالة، ثم سرد أسباب ذلك من صنائعهم؛ كاتخاذهم العجل، وعبادتهم الأصنام، وقبولهم الباطل.

ثمَّ عقَّب ذلك بذكر قصة إسلامه، وشيئًا من سيرته، والمنامين اللذين عجَّلا بإسلامه بعد قيام البراهين عنده على صحة الإسلام.

منهج المصنف:

يعدُّ المحتوى الأكبر من الكتاب في إقامة الحجة على اليهود، وإفحامهم في منعهم النسخ، واستعمل المصنف في ذلك جدلًا عقليًّا ونقليًّا لإثبات وقوع ذلك في توراتهم، وكذلك في تصرفاتهم وتصرفات فقهائهم.

وتطرَّق المصنف لمباحث أخرى باختصارٍ؛ كإثبات نبوة عيسى ومحمد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بدلالة المعجزات والبشارات، وفصاحة القرآن.

وغلظ المصنف في توبيخ اليهود من جهاتٍ عدةٍ؛ كالتوراة وما أحدثوه فيها من أخبارٍ لا تليق بالله تعالى، والأنبياء، وكذلك شرائعهم وكتبهم الأخرى كالتلمود، علاوةً على مسيرة انحرافهم وطغيانهم قبل بعثة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ وبعدها.

ورغم قلَّة مباحث الكتاب، وصغر حجمه، فإنه لا يخلو من فوائد ومباحث لا توجد في غيره، من حسن تقريرٍ لبعض دلائل النبوة كالمعجزات والبشارات، وحسن شرحٍ لدلالتها، ودفع للاعتراضات عليها.

وكذلك مناظرته المطولة لليهود في مسألة النسخ، وإيراد الحجج عليهم من

المباحث المهمة التي أجاد المصنف فيها.

فالكتاب فيه طرافةٌ في موضوعه؛ لأنَّ أكثر المصنفات تشتمل على مجادلة النصارى فقط، أو يدخلون اليهود معهم تبعًا، ولكن المصنِّف أفرد الكتاب لمجادلة اليهود، وفيه طرافةٌ وفرادةٌ في بعض مباحثه كما مثَّلنا، وإن كان افتقد لحسن الترتيب، واشتمل على شيءٍ من التكرار نتيجة ذلك.

١٣
ابن القيم

نبذة عن المصنف:

هو الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن جريز الزرعي، ثم الدمشقي الحنبلي، ابن قيم الجوزية.

وُلِدَ سنة إحدى وتسعين وست مائةٍ.

قال ابن رجب -تلميذه: «تفقَّه في المذهب، وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين، وأخذ عنه، وتفنَّن في علوم الإسلام. وكان عارفًا بالتفسير، لا يجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى، والحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يُلْحق في ذلك، وبالفقه وأصوله وبالعربيَّة، وله فيها اليد الطولى، وتعلَّم الكلام والنحو وغير ذلك، وكان عالمًا بعلم السلوك، وكلام أهل التصوُّف، وإشاراتهم، ودقائقهم، له في كلِّ فنٍّ من هذه الفنون اليد الطولى»[١].

قال ابن كثير: «لمَّا عاد الشيخ تقي الدين بن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ، فأخذ عنه علمًا جمًّا، مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريدًا في بابه في فنونٍ كثيرةٍ»[٢].

قال الصفدي: «وأكبَّ على الطلب، وصنَّف وصار من الأئمة الكبار في علم

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧١).

(٢) البداية والنهاية (١٤/ ٢٧٠).

التفسير والحديث والأصول فقهًا وكلامًا، والفروع والعربية، ولم يخلف الشيخ العلامة تقي الدين ابن تيمية مثله»(١).

قال ابن حجر: «كان جريء الجنان، واسع العلم، عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف، وغلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيءٍ من أقواله، بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذَّب كتبه، ونشر علمه»(٢).

وقال: «وله من التصانيف: (الهدي)، و(إعلام الموقعين)، و(بدائع الفوائد)، و(طريق الهجرتين)، و(شرح منازل السائرين)، و(القضاء والقدر)، و(جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام)، و(مصايد الشيطان)، و(مفتاح دار السعادة)، و(الروح)، و(حادي الأرواح)، و(رفع اليدين)، و(الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة)، وتصانيف أخرى، وكلُّ تصانيفه مرغوبٌ فيها بين الطوائف»(٣).

تُوفِّي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

عنوان الكتاب:

(هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى)(٤).

وَصْف الكتاب:

بدأ المصنف كتابه بذكر أسماء وأوصاف الملل التي كانت موجودةً عند

---

(١) الوافي بالوفيات (٢/ ١٩٦).

(٢) الدرر الكامنة (٥/ ١٣٨).

(٣) الدرر الكامنة (٥/ ١٣٩).

(٤) نص عليه المصنف في مقدمة كتابه.

بعثة نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أهل الكتاب؛ كاليهود والنصارى، وغيرهم من عَبَدة الأوثان والنيران وغيرهم؛ ليشير إلى فضائل الرسالة المحمدية التي أضاءت تلك الظُّلَم، وفتحت أبواب الهدى.

ثم ذكر المُصنِّف سبب تأليفه للكتاب، وهو مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على أحد المسلمين، فعجز عن جوابها، فشمَّر المصنف عن ساعد الجد ليجيبه عليها، ممتثلًا أمر الله تعالى بمجادلة الكفار بعد دعوتهم؛ إقامةً للحجة، وإزاحةً للعذر، فذكر أنه قسم الكتاب نصفين؛ الأول لجواب المسائل، والثاني في تقرير نُبوَّة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ.

السؤال الأول كان حول دعوى المسلمين بأنَّ المانع من دخول الكتابيين في الإسلام هو الرياسة والمأكلة فقط.

فأجابه المُصنِّف بأنَّ هذا القول جهلٌ بما عند المسلمين والكفار؛ لأنَّ الممتنعين من الدخول هم جزءٌ يسيرٌ من الداخلين، فدعوة النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ استجاب لها أكثر أهل الأديان طوعًا، ولم يكره أحدًا على الدخول في الإسلام، ولم يمتنع عنها إلا أقلُّهم وأراذلهم.

فزَعْمُ السَّائل أن أُمَّتين عظيمتين لم يدخلا في الإسلام خطأٌ وجهلٌ، ولو سَلَّمنا به لكان في ذلك أُسْوةٌ بقوم نوحٍ وعادٍ وثمود وقوم فرعون الَّذين أطبقوا على الكفر، وكذلك اليهود الَّذين كذبوا المسيح، فهذا السؤال واردٌ في حق كل نبيٍّ كذَّبته أُمَّته.

ثم ذكر أن الرياسة والمأكلة من جملة الأسباب المانعة من قبولهم الحق، وذكر عدَّة أسباب أخرى كالجهل والحسد، مع ذكر أمثلة ذلك وشواهده من

صنيع اليهود وصناديد قريش مع المسيح ومحمد عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ.

ثم ذكر أنَّ النصارى اتفقوا على مسبَّة الله تعالى، وما يحكم العقل ببطلانه وفساده، فكيف يمتنع عليها أن تجتمع على سبِّ بشرٍ، وتكابر ما دلَّ عليه صريح العقل من صدقه، ونقل شيئًا من معتقدات النصارى في المسيح والصلب والفداء.

السؤال الثاني: ولو أنَّهم اختاروا الكفر لذلك، فَلِمَ لَمْ يتبع الحق مَنْ لا رياسة له، ولا مأكلة؟ فأجاب بما تقدَّم من أن جمهور العقلاء منهم اتبع الحقَّ طوعًا، ثم ذكر خبر النجاشي بطوله، وخبر وفد نصارى نجران، وخبر إسلام عدي بن حاتم الطائي، وخبر إسلام سلمان الفارسي، واعتراف هرقل والمقوقس بنُبوَّة النبي عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وإسلام ابني الجلندي ملك عمان، وهوذة صاحب اليمامة، وعبد الله بن سلام.

السؤال الثالث: حول دعوى المسلمين بأن النبيَّ مكتوب في التوراة والإنجيل لكنهم مَحوْه، فيستشكل عقلًا أن يكونوا اتفقوا على ذلك؟ فأجاب بأن المسلمين يعتقدون أن المكتوب عندهم هو صفته ومخرجه ونعته، وليس صريح اسمه العربي، وهذا القدر مذكورٌ في التوراة، وهو أبلغ من ذكر الاسم، واستدلَّ على وجود هذا من اثني عشر وجهًا:

منها: أنه عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ مع كمال عقله قد أخبر بذلك مع حرصه على تصديق الناس، وخاصَّةً أهل الكتاب له، فيستحيل أن يصدرمنه هذا إلا وهو واثقٌ كل الوثوق.

ومنها: إيمان مَنْ آمن به من الأحبار والرُّهبان.

ومنها: على التَّسليم بعدم وجود صفته في النُّسَخ الَّتي بين أيديهم، فربما أُزيلَت منها، وبقيت في نسخٍ أخرى، وقولُهُم باتفاق النسخ كذبٌ، وأشار إلى ما

في نسخ التوراة والإنجيل من الاختلاف، وأن الله وبَّخهم في القرآن على الكتمان والتحريف في كتبهم.

ومنها: أنه شهد له عدول علماء أهل الكتاب بوجودها، وهؤلاء لا توزن بشهادتهم شهادة، أو جحود غيرهم.

ومنها: أَنْ لو سلم عدم وجود ذلك فيما بين أيديهم، فلا مانع من كونها كانت موجودةً في زمن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن لم يتَّصل علمها إلى هؤلاء، ولكن حُرِّفت وبُدِّلت، وصارت المحرفة المبدلة هي المشهورة.

ثم تطرَّق لِذِكْر بعض البشارات التي احتفظت بها كتبهم، مثل قول الله لموسى: «سأقيم لبني إسرائيل نبيًّا من إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فيه»، ثم بيَّن انطباق ذلك على النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتعذُّر حَمْله على غيره، وقول موسى: «أقبل الله من سيناء، وتجلَّى من ساعير، وظهر من جبال فاران».

وكذلك تنبؤات التوراة عن إسماعيل، وأنه سيكون أُمَّةً عظيمةً، وأنه سيكون يده على الكل، ويد الكل مبسوطة إليه بالخضوع، وانتقل إلى بشارات الإنجيل، وتنبؤات المسيح بمجيء الفارقليط، وأركون العالم، والحجر الذي أخَّره البنَّاءون، وصار رأس الزاوية.

ثم ذكر اختلاف الأقوال في الفارقليط، وبيَّن انطباق أوصافه الإنجيلية على محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، وضعف الأقوال الأخرى.

ثم ذكر بعض البشارات الواردة في كتب الأنبياء الآخرين؛ كالتي وردت في مزامير داود، وسِفْر أشعياء، وحبقوق ودانيال وغيرهم، عن صفات محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكر مكة شرَّفها الله.

ثمَّ ذكر مُنَاظرةً حصلت بينه وبين يهوديٍّ في نُبوَّة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، استخدم فيها دليل التأييد الإلهي، ثم حكى مناظرةً حصلت لأحد العلماء مع يهوديٍّ حول تفسير ما ورد في (سفر التثنية): «إنِّي أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم نبيًّا مثلك».

ثم نقل بعض الأخبار عن علماء أهل الكتاب الذين يقرُّون ويخبرون بصفة النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ من كتبهم.

ثم تطرَّق لوقوع التحريف اللفظي في التوراة، وذكر بعض شواهد ذلك، مثل خبر زنا لوط -في زعمهم- بابنتيه، وقول الله لإبراهيم: «اذبح ابنك بكرك إسحاق»، وهذا تناقضٌ، ونسبة الندم إلى الله، ونسبة الزنا إلى يهوذا بن يعقوب ومن نسل الزنا وُلِدَ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ[(١)].

وكذلك نسبة النصب والاستراحة إلى الله، والبكاء والنوم والندم، ونحو ذلك من صفات النقص.

ثم انتقل لذكر شواهد التحريف في الإنجيل، فذكر بعض التناقضات بين النصوص وبعضها، أو بين النصوص ومعتقدات القوم، أو بين نسب عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ المذكور في متَّى ونظيره المذكور في لوقا، وغير ذلك مما يدلُّ على وقوع التغيير في كتبهم.

والمسألة الرابعة هي: فإن قلتم: إنَّ عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ونحوهما شهدوا لنا بذلك من كتبهم، فهلَّا أتى ابن سلام وأصحابه الذين

---

(١) يريد أنَّ من نسل واقعة الزنا هذه وُلِدَ ولدان: فارص وزارح، كما في سفر التكوين (٣٨)، ثم جاء في نسب المسيح في لوقا (٣) أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من نسل فارص.

أسلموا بالنسخ التي لهم كي تكون شاهدةً علينا؟

فأجاب بأنَّ نُبوَّة مُحمَّدٍ والمسيح عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ لا تتوقَّف على البشارة، وما في كتب أهل الكتاب، بل جمهور مَنْ آمن بمُحمَّدٍ عَلَيْهِالسَّلَامُ إنما آمن بالآيات والشواهد التي عاينها، وأيضًا بأن اليهود شهدوا لعبد الله بن سلام بالعلم والخيريَّة، فلا يضرُّ شهادتهم بعد ذلك بعكسه، وكعب الأحبار كان الصحابة يختبرون صدقه، وشهدوا بأنه أصدق الذين يحكون عن أهل الكتاب.

المسألة الخامسة: إنكم نسبتم الأُمَّتين العظيمتين المذكورتين إلى اختيار الكفر على الإيمان للغرض المذكور، فابن سلام وأصحابه أَوْلَى بذلك الغرض؛ لأنهم قليلون جدًّا، وأضداده كثيرون لا يحصيهم عدد؟

فأجاب من وجوهٍ؛ منها: أن جمهور الأُمَّتين آمنوا به وصدقوه. ومنها: أن حال ابن سلام ومَن معه، من الإيمان في وقت شدةٍ وقلةٍ من المؤمنين مع التضييق عليهم من اليهود، ينفي هذا الاحتمال عنهم، وأنَّ ما ذكره في السؤال من قلَّة هؤلاء وكثرة هؤلاء ينفي هذا الاحتمال.

والمسألة السادسة حول اعتماد المسلمين في دينهم على حديث عوام الصحابة دون ابن سلامٍ ومَن معه إلا في اليسير؟

فأجابه بأن هذا بهتٌ؛ لأنَّ أساس الدين على القرآن، ولأنَّ الصحابة المذكورين ولو كانوا أُميِّين، فقد زكَّاهم النبي عَلَيْهِالسَّلَامُ، وعلَّمهم الكتاب والحكمة، فصاروا من أعلم الناس بالمعارف الإلهية والعلوم النافعة المكملة للنفوس، ثم نقل بعض مناقب الصحابة ودلائل سَعة علمهم وفضلهم.

المسألة السابعة: نرى في دينكم أكثر الفواحش فيمَنْ هم أعلم وأفقه في

الدين؛ كالزنا واللواط والخيانة، والحسد والبخل، والغدر والجبن، والكبر والخيلاء، وقلة الورع واليقين، وقلة الرحمة والمروءة والحمية، وكثرة الهلع، والتكالب على الدنيا، والكسل في الخيرات، وهذا الحال يكذب لسان المقال؟

وأجابه من وجوهٍ؛ منها: أن الرسل الكرام لا شيء عليهم من معاصي أتباعهم وأممهم، كما أن هذا أمرٌ مشتركٌ بين الأمم، لا يختصُّ بأُمَّةٍ حتى تستحق القدح بسببه، وأنَّ الذُّنوب تكفرها التوبة إذا اجتمعت مع الإيمان بخلاف ذنوب المشركين، ثم تطرَّق لصنائع اليهود بدايةً من طلبهم من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يجعل لهم إلهًا، مرورًا بتحريفهم لكتبهم، ونسبة القبائح إلى الله والأنبياء، وذكر شيئًا عن التلمود، وتلاعب فقهائهم بأمر الدين، وتحريفهم لشرائعهم، انتهاءً بأكل الربا والسحت والحرص على الدنيا وقسوة القلب، فإن كان المعير للمسلمين من اليهود، فَلْيَستحِ إذا كان هذا حال أهل دينه.

وإن كان المعير للمسلمين من النصارى، فلينظر إلى حال أهل دينه، ثم ذكر شيئًا من أخبار النصارى، وسوء اعتقادهم في الله وفي مريم -عليها السلام-، ومخالفتهم للمسيح في شرائعهم في ترك الطهارة والختان وأكل الخنزير وصفة الصلاة والصيام وغيرها.

ثم ذكر الأمانة التي عليها مُعوَّلهم في الاعتقاد، وبيَّن اشتمالها على مخالفة المسيح وتكذيبه في دعوته إلى توحيد الله؛ كقوله: «إنَّ الله ربِّي وربكم، وإلهي وإلهكم»، وقوله: «إنَّ الحياة الدائمة إنما تجب للناس بأَنْ يشهدوا أنَّك الله الواحد الحق، وأنَّك أرسلت يسوع المسيح»، وقال: «إنَّ الكلام الذي تسمعونه منِّي ليس هو لي، ولكن للذي أرسلني، والويل لي إن قلت شيئًا من تلقاء نفسي،

ولكن بمشيئة مَن أرسلني»، ونحو ذلك.

ثم تناول بعض ما يستدلُّون به على إلهيَّة بالمسيح بالرد، مثل استدلالهم بالولادة المعجزة، وبالآيات كإحياء الموتى، وتكثير الطعام، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالغيب، والصعود إلى السماء، وبيَّن لهم أنَّ هذا أو نحوه وقع لغيره من الأنبياء؛ كآدم وإلياس وإدريس وموسى ومحمد عليهم السلام، وتناول أيضًا بالنقد والقدح بعض ما يحتجُّون به من البشارات بالمسيح في الكتب السابقة، أو الأعداد المشبهة الموهمة في العهد الجديد.

ثم عقد فصلًا لبيان أن بعثة محمد عليه السلام من آيات الأنبياء السابقين عليه، وتصديقٌ لهم، فمحمد عليه السلام هو الذي به تحققت نُبُوءات الله لإبراهيم وهاجر، وهو الذي يثبت فضائل المسيح وأمه عليهما السلام، وينفي عنهما مزاعم اليهود وافتراءهم، ثم تناول شيئًا من اختلاف النصارى في المسيح، وتباين أقوال فرقهم في طبيعته.

ثم عقد فصلًا ذكر فيه شيئًا من تاريخهم بدايةً مما حصل مع المسيح من تكذيب اليهود له، ثم دعوة الحواريين الناس إلى الله تعالى، ثم اختلافهم في أَمْر المسيح، ثم أخبار مختصرة عن عشرةٍ من مجامعهم التي قررت أصول دينهم.

ثمَّ عقد فصلًا ختم به كتابه؛ لبيان أنه لا يمكن الإيمان بنُبُوَّة نبيٍّ من الأنبياء مع الجحد بنبوة محمد عليه السلام، من وجوهٍ عديدةٍ؛ منها: تبشير الكتب السابقة له، ومطابقة دعوته لدعوتهم، وأنَّ آياته أكثر وأظهر وأشهر من آيات الأنبياء السابقين، فلا يمكن أن يجامع الجحد بنُبُوَّته الإقرار بنُبُوَّة موسى أو غيره من الأنبياء، ومن جحد إرسال الرسل، فلم يقدر الله حقَّ قدره، ونسبه إلى ما لا يليق به.

ثم بيَّن أن الإنكار لنبوة محمد عليه السلام هو إنكارٌ للرب الذي دعا إليه، والحقوق

التي أمَر بها، وهو ظاهر لمَنْ تأمل مقالات أهل الأرض وأديانهم، ثم تعرَّض لأقوال الفلاسفة وغيرهم من أهل الملل، وما اشتملت عليه من الضلال والخطأ ليختم الفصل ببيانٍ بليغٍ عن حاجة الخَلْق إلى الرسل، وأن الناس دونهم في ظلمةٍ.

منهج المصنف:

لم يقصد المصنف إلى تصنيفٍ شاملٍ وافٍ في الرد على النصارى، بل قصد إلى جواب أسئلة بعض النصارى على أحد المسلمين، ومع هذا الغرض المحدود فقد تطرَّق المصنف إلى مباحث مختلفة متنوعة في مجادلة أهل الكتاب على طريقته، وطريق شيخه في الاستطراد والتوسُّع بأدنى مناسبةٍ.

فاستعمل الجدل النقلي، والاستدلال على أهل الكتاب من كتبهم، وتطرَّق كذلك للنقد الكتابي، وإثبات وقوع التحريف في العهدين القديم والجديد، واشتمل الكتاب على بعض الجدل العقلي، لكن على سبيل النُّدرة والعرض.

وآثارُ الاستفادة والانتفاع من شيخه ابن تيمية واضحةٌ في ردِّه هذا كما هي في كثيرٍ من كتبه، وقد نقل عنه مصرحًا في بعض المواطن، وفي مواطن أخرى تابعه على طريقته واستدلاله بدون تصريحٍ بذكره، كما تجده في مبحث الدلائل وغيره.

١٤
الطوفي

نبذة عن المصنف:

هو الإمام نجم الدين سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الحنبلي الطوفي، نسبةً إلى طوف، وهي قريةٌ ببغداد، الفقيه الأصولي المتفنن.

وُلِدَ سنة بضعٍ وسبعين وستمائة[١].

من أشهر مصنفاته: (مختصر روضة الناظر)، وشرحه، و(الإكسير في قواعد التفسير)، و(الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية)، وغيرها كثيرٌ.

قال ابن رجب: «وكان مع ذلك كله شيعيًّا منحرفًا في الاعتقاد عن السُّنة». اهـ[٢].

قال الصفدي: «وعزر على الرفض بالقاهرة... وكان تعزيره على قوله:

كم بين من شكٍّ في خلافته وبين من قيل إنه الله». اهـ[٣].

---

(١) كما ذكر ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة، وابن العماد في الشذرات، وغيرهما، وذكر الحافظ ابن حجر أنه وُلِدَ سنة سبعٍ وخمسين وستمائة، واختلف الباحثون في الترجيح بين القولين، ولم يظهر لي ما يحسم هذا الخلاف، إلا أن تتلمذه لابن تيمية، وتواضعه له، وذكره في كتبه بعبارة: «شيخنا أبو العباس» قد يشير إلى أنه أصغر سنًّا منه، ويرجح كفة القول الأول، والله تعالى أعلم.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٤٠٩).

(٣) الوافي بالوفيات (١٩/ ٤٣).

مات سنة ست عشرة وسبعمائة[١].

---

(١) والإمام الطوفي من الشخصيات العلمية المثيرة للجدل، فقد اختلفت الأقوال، وتباينت الآراء في معتقده ونسبته، فأكثر مَن ترجم له نسبه إلى الرفض؛ كابن رجب والذهبي والصفدي وابن العماد وغيرهم، وحكوا أنه عزر في ذلك، وحكى بعضهم أنه تاب منه، وابن رجب يشكك في هذه التوبة، ويعدُّها من التقية.

ثمَّ اختلف الباحثون المعاصرون في تثبيت نسبته للرفض، فبعضهم ينفيها مثل الدكتور مصطفى زيد، والشيخ عبد الرزاق عفيفي، وبعضهم يثبتها كالدكتور عبد الرحمن العثيمين محقق ذيل الطبقات، والشيخ محمد أبي زهرة، وغيرهما.

والذي يظهر لي أنَّ الإمام الطوفي كان لا يتقيد في بحثه واختياره بمذهبٍ معينٍ، فالغالب عليه أنه كان على طريقة الأشاعرة، ولكن له اختيارات مقاربة لطريقة أهل الحديث في باب الصفات، أما في أَمْر الصحابة فالظاهر أنه كانت له طعونٌ عليهم، ونقدٌ لبعضهم؛ تأثرًا بمذهب الرافضة، وقامت عليه البينة بذلك في عصره، وعزر به، وحكى ذلك غير واحدٍ من أهل التثبُّت من معاصريه؛ كالذهبي والبرزالي وابن رجب وغيرهم بما يصعب معه التشكُّك فيه.

ولكن الظاهر أنه تاب من ذلك، وتراجع عنه، وتحسنت طريقته في تناول أَمْر الصحابة، لكن بقيت آثارٌ ورواسب لهذه المرحلة من حياته في كتبه، حتى إنه يطلق عبارات غليظة في حق كبار الصحابة كعمر وغيره.

ومن أمثلة ذلك: قوله في هذا الكتاب تعليقًا على قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن النبي ﷺ غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا»، عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس معصومًا، فهو وهم في هذا، وظنَّ الأمر على خلاف ما هو عليه حيث نسب النبي ﷺ إلى التخليط في الكلام، كما وهم في قوله: «إن محمدًا لم يمت، وإنما ذهب إلى مناجاة ربه بروحه، كما ذهب موسى للمناجاة ببدنه»، وأحسب أن عمر عُوقِبَ على هذه الكلمة عقوبةً دائمةً من جهة أن الرافضة تعلقت عليه بها، ونسبته إلى أنه علم أن النبي ﷺ كتب لهم كتابًا نص فيه على عليٍّ بن أبي طالب، «وعلم أنها إن صارت إلى عليٍّ، تداولها بنو هاشم، فلا تخرج عنهم، فلا تحصل له، وهو كان يرجوها بعد أبي بكرٍ، كما وقع، فصدهم عن كتابة الكتاب حتى مات النبي ﷺ، ثم بادر بالبيعة لأبي بكرٍ مخالسةً كما =

أولاً: كتاب: (التعليق على الأناجيل).

عنوان الكتاب:

- (التعليق على الأناجيل الأربعة)[١].

=

قال؛ كانت بيعة أبي بكرٍ فلتة وقى الله شرها»، ثم مات سريعًا، فتناولها بعده.اهـ.

-وهذا الذي ذكره الطوفي رحمه الله مجازفة وخطأ من وجوهٍ، أهمها: أن الحديث ليس فيه أن عمر نسب النبيَّ إلى التخليط في الكلام، وإنما فيه أنه قال: «غلبه الوجع»، وهي كلمة تدل على إشفاقه عليه، وحرصه على رفع الضرر عنه، وأما ما جاء في بعض روايات الحديث: «ما شأنه، أهجر؟»»، فليس منسوبًا إلى عمر.

كما أنَّ زَعْمَه بأنَّ عمر عُوقِبَ على قوله هذا بسبِّ الشِّيعة له، هو كلامٌ واهنٌ جدًّا؛ لأن السَّبَّ لا يختصُّ بعمر، بل يشمل أبا بكرٍ؛ لأنه -بزعمهم- منع فاطمة رضي الله عنها ميراثها، واغتصب الخلافة من عليٍّ رضى الله عنهم أجمعين، إلى آخر ذلك من مزاعمهم، ومثل هذه المزاعم شملت عثمان بن عفان، وأمهات المؤمنين، والعباس وبنيه من آل البيت، وجمهور الصحابة.

-فسب الصحابة أحد الأصول الفاسدة في مذهب الرافضة، من آثار غلوهم في عليٍّ رضي الله عنه وأهل بيته، فلم يتسبَّب فيه عمر، ولا غيره، بل هم اعتقدوه دينًا، ثم جعلوا يبحثون في النصوص عما يطعنون به في أصحاب النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ وأزواجه وآله باستثناء عليٍّ وأهل بيته، وتعلقوا بأشياء ليس فيها متعلقٌ لهم، ولا حجةٌ، لا في هذا الحديث، ولا غيره، كما هو معلومٌ مذكورٌ في مظانِّه في كتب علماء أهل السُّنَّة الذين تصدَّوا لهذه المزاعم.

فكان الأَلْيَق بالإمام الطوفي أن يشرح ضعف تعلُّق الرافضة بهذا الحديث كما فعل غيره من علماء السُّنة -ومنهم شيخه تقي الدين ابن تيمية في «منهاج السنة»- لكن الظاهر أنها رواسب بقيت في قلمه من حقبةٍ سابقةٍ كما تقدم، غفر الله لنا وله.

(١) ذكره المصنف بهذا الاسم في كتابه «الانتصارات الإسلامية»، وذكره أيضًا باسم «التعليق على الإنجيل»، وذكره ابن رجب باسم «تعاليق على الأناجيل وتناقضها»، ووضع محققه على غلافه عنوان: «التعليق على الأناجيل الأربعة وكتب الأنبياء الاثني عشر والتوراة»!

وَصْف الكتاب:

بدأ المصنف بذكر سبب تصنيفه للكتاب، وهو أن أحد النصارى صنَّف كتابًا يطعن فيه على ملة الإسلام، ويقدح في نُبوَّة النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرأى أن يقدم على الرد عليه الكلام على الأناجيل؛ ليهدم أصل مذهبهم ورأيهم، وذكر أنه ألحق بالتعليق على الأناجيل فوائد من بعض كتب العهد القديم.

ثم قدم على التعليق ثلاث مقدماتٍ:

أولها في بيان أن أناجيل النصارى ليس منها إنجيل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما هي سِيَرٌ صنَّفها التلاميذ، أشبه بكتب المغازي والسير عند المسلمين.

والمقدمة الثانية تعقَّب فيها قولهم: «باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد»، وقياسهم ذلك على الإنسان الذي له ثلاثة أقانيم: النفس والنطق والعقل، فأفسد هذا القياس بأنه إلحاقٌ للأصل بالفرع؛ لأنَّ الله تعالى هو مبدأ الكلِّ، ولأنَّ القياس شرطه التساوي، ولأن الأقانيم عندهم قائمةٌ بنفسها، وصفات الله ليست جواهر، وليست منحصرةً في ثلاثٍ.

وفي المقدمة الثالثة ذكر أنَّ ما حمل النصارى على قولهم أمورٌ:

منها: أنه تكون من غير ذكرٍ، وبيَّن أن هذا لا دلالة فيه، كما لم يدل خَلْق آدم بلا أبوين، أو حواء بلا أُمٍّ على ألوهيتهما.

الأمر الثاني: ظهور المعجزات، ولا دلالة فيه لمشاركة الأنبياء له في ذلك.

والأمر الثالث: ألفاظ الابن والأب ونحوها في كتبهم.

ثم أجاب من وجهين؛ أحدهما: منع أن يكون هذا من كلام المسيح. والثاني على التسليم فيكون من المجاز، والعلاقة أو وجه التجوُّز هو الرحمة الموجودة

في الأب، وكذلك في الإله الخالق.

ثم بدأ بذكر إنجيل متَّى، فذكر تعريفًا لمصنفه، وتناول بالتعليق بعض نصوص هذا الإنجيل، منها: ذكر مولد المسيح في متَّى (١/ ١٨-٢٢): «(١٨) أمَّا ولادة يسوع المسيح، فكانت هكذا: لما كانت مريم أمه مخطوبةً ليوسف قبل أن يجتمعا، وجدت حُبْلى من الرُّوح القدس (١٩) فيوسف رجلها؛ إذ كان بارًّا، ولم يشأ أن يشهرها، أراد تخليتها سرًّا (٢٠) ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور، إذا ملاك الرب قد ظهر له في حُلْمٍ قائلًا: يا يوسف بن داود، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك؛ لأنَّ الذي حبل به فيها هو من الرُّوح القدس (٢١) فستلد ابنًا، وتدعو اسمه يسوع؛ لأنه يُخلِّص شعبه من خطاياهم (٢٢) وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل (٢٣) هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنًا، ويدعون اسمه عمانوئيل» الذي تفسيره: الله معنا».

فذكر أنَّ بعض العبارات هنا قد أضلَّتهم؛ كقوله: «يُخلِّص شعبه من خطاياهم»، فحملهم ذلك على عقيدة الفداء المعروفة، وتعقب ذلك من وجوهٍ؛ منها: أنه ينافي كمال قدرة الله تعالى القادر على إعتاق الرِّقاب من النار بغير التجسُّد ونحو ذلك، وأنه أيضًا يتناقض مع أن المسيح لمَّا أحس بالقتل، حزن واكتئب، وجعل يصلي، فكيف يجود بنفسه ثم يبخل بها.

ومما أضلَّهم: تسمية المسيح «الله معنا»، ثم ذكر وجوب حملها على المجاز كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠][1].

---

(١) وقد يقال: إنَّ المعية أنواع؛ منها معية الذات والمصاحبة، ومعية النصرة والتأييد، ومعية الموافقة، ونحوذلك، فجعل معية الذات هي الحقيقة، وغيرها من أنواع المعية مجازًا يحتاج

ومما أضلَّهم أيضًا: قوله في متَّى (٣/ ١٦، ١٧): «(١٦) فلما اعتمد يسوع، صعد للوقت من الماء، وإذا السماوات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلًا مثل حمامةٍ، وآتيًا عليه، (١٧) وصوت من السماوات قائلًا: (هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت)»، ثم ذكر أنها تهدم مذهبهم؛ لأنَّ المسيح هنا منفرد بذاته عن الله، وعن الروح القدس.

وذكر أيضًا ما قاله المسيح في قصة الاختبار، في متَّى (٤/ ١٠): «اذهب يا شيطان، لأنه مكتوبٌ: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد»، وهذا تصريحٌ بالعبودية، فإن اعترض بأنه لاهوتٌ وناسوتٌ، أجيب بأنه ناسوت ومحض، وما يفعله من العجائب فهو بقدرة الله، ولو نسبناه للاهوته، للزم ذلك في كل الأنبياء.

ثمَّ ذكر التناقض بين قوله في متَّى (٥/ ١٧): «لا تظنُّوا أنِّي جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئتُ لأنقض، بل لأكمل»، وفيه إقرارٌ بنُبوَّة السابقين، وبين قوله في يوحنا (١٠/ ٨): «(٨) جميع الذين أتوا قبلي هم سُرَّاقٌ ولصوصٌ»، وفيه إنكارٌ لنبوتهم.

وذكر بعض النُّصوص التي فيها: «أباكم الذي في السماء»، أو «لكيما تكونوا بني أبيكم»، «أبيكم السماوي»، ونحو ذلك، فهو يدل على أن البنوة يقصد بها العبودية.

ثم ذكر قوله في متَّى (٧/ ١٥): «احترزوا من الأنبياء الكَذَبة الذين يأتونكم بثياب الحملان، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة»، وذكر أنَّ احتجاج النَّصارى

=

لتدليلٍ، فقد يقال: إن المعية حقيقة في كل أنواعها، والسياق هو الذي يعين المراد، وسياق المذكور في القرآن وفي إنجيل متَّى لا يدل بالمرة على معية الذات.

به للقدح في نُبوَّة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يصحُّ لوجوهٍ؛ منها: احتمال أن يكون كذبًا على المسيح، ولأنه لم يعين أحدًا، فتعيين محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ احتجاج في محل النزاع. وذكر تلقيب المسيح بالرب في هذا الإنجيل وغيره، وأجاب بأنه كقول القائل: ربُّ الدار، ونحوه، وذكر شواهد ذلك من اللغة والنصوص.

ثم ذكر ما في متَّى (١١/ ١٩): «(١٩) جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب، فيقولون: هو ذا إنسان أكول وشريب خمر، محب للعشارين والخطاة»، فذكر أنَّ سبته للإنسان والأكل والشرب تنبيهٌ على عدم إلهيَّته، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥].

ثمَّ ذكر القول المنسوب للمسيح في متَّى (١٥/ ١١): «ما يدخل الفم ينجس الإنسان، بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان»، وذكر أنه قول صحيح وحكمة، لكن النصارى أساءوا فهمه، وأخذوا منه نفي نجاسة البول والغائط، وإنما نفى المسيح النجاسة المعنوية، ولا يلزم من ذلك نفي النجاسة الحسية.

وذكر قوله في متَّى (١٩/ ٤-١٠): «وجاء إليه الفريسيون ليجربوه قائلين له: (هل يحلُّ للرجل أن يطلق امرأته لكلِّ سببٍ؟) (٤) فأجاب وقال لهم: (أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكرًا وأنثى؟) (٥) وقال: من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسدًا واحدًا (٦) إذًا ليسا بعدُ اثنين، بل جسد واحد، فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان) (٧) قالوا له: (فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاقٍ فتطلق؟) (٨) قال لهم: (إن موسى

من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم، ولكن من البدء لم يكن هكذا) (٩) وأقول لكم: إنَّ مَنْ طلَّق امرأته إلا بسبب الزنا، وتزوَّج بأخرى يزني، والذي يتزوَّج بمطلقةٍ يزني».

فَبيَّن أوجه الضَّعف في هذا الكلام، وعدم مناسبته لحكمة المسيح؛ لأنَّ تعليل عدم جواز الطلاق بهذه العلل غير مناسبٍ للتحريم، بل للكراهة فقط، وقوله: «ما جمعه الله لا يفرقه إنسان»، منقوضٌ بقطع عضوٍ من إنسانٍ لحفظه من التلف، وذكر وجوهًا أخرى من الضعف.

وذكر قوله في متَّى (٢٢/ ٣٠): «(٣) لأنهم في القيامة لا يزوجون، ولا يتزوجون، بل يكونون كملائكة الله في السماء»، وبيَّن أن هذا الكلام إمَّا يحمل على قيامة الموت لا قيامة البعث، وإما أن يكون مختلقًا، ووجه ذلك أن المسيح صرَّح بوجود العذاب الحسي، فلزم وجود النعيم الحسي، ولأنَّ من يمنع نفسه من الشَّهوات المُحرَّمة، ناسب أن يُعوِّضه الله بالشهوات المباحة في الآخرة.

وذكر حوار عيسى مع الفريسيين في متَّى (٢٢/ ٤٢-٤٦): «(٤٢) قائلًا: ماذا تظنون في المسيح؟ ابن مَن هو؟ قالوا له: ابن داود (٤٣) قال لهم: فكيف يدعوه داود بالروح ربًّا؟ قائلًا: (٤٤) قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئًا لقدميك (٤٥) فإن كان داود يدعوه ربًّا، فكيف يكون ابنه؟»، وبيَّن أنه يتعيَّن حمل الكلام على معنى: قال الرب لسيدي.

وذكر ما في متَّى (٢٣/ ٨-١١): «(٢٦) وفيما هم يأكلون، أخذ يسوع الخبز، وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال: خذوا كُلُوا، هذا هو جسدي (٢٧)

وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلًا: اشربوا منها كلكم (٢٨) لأنَّ هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا (٢٩) وأقول لكم: إنِّي من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدًا في ملكوت أبي»، فذكر أنَّ كون الخبز جسده، والخمر دمه، لابد أن يكون مجازًا، وأن قوله: «أشربه معكم في ملكوت السماء»، يناقض قوله السابق: «ولكن تكونون كملائكة الله».

ثم تكلَّم على حادثة الصلب، وذكر أنها كذبٌ ومحالٌ؛ لأن المسيح إما أن يكون هو الله، أو ابنه، أو رسول، ويمتنع صلبه على تقدير كونه هو الله أو ابنه، أما مع تقدير كونه رسولًا، فيمتنع لكونه قد أظهر الكرامات، واشتهر بين الناس، ولو صلب مثل هذا لاشتهر أمره، ولم يختلف الناس فيه، ثم أطال في مناقشة ذلك[1].

وذكر ما في متَّى (٤٥/ ٤٦) منسوبًا للمسيح: «إلهي إلهي، لماذا تركتني»، وهو دليل على عبوديته، وبطلان قولهم فيه؛ لأنه لو كان فاديًا كما يقولون، فلماذا يبخل بنفسه؟

ثم انتقل للكلام على إنجيل مرقس، ومما تناوله بالتعليق: قوله في مرقس (٢/ ٤-١٠): «(٤) وإذ لم يقدروا أن يقتربوا إليه من أجل الجمع، كشفوا

---

(١) والذي يظهر أن مرافعة الطوفي هنا ليست قويةً، فلا يمتنع على تقدير كون المسيح رسولًا أن يكون قتل وصلب، ووجود الخلاف في ذلك ليس دليلًا على امتناعه، وإنما المانع من كونه قد صلب نفي النص القرآني له، فهو ممنوع -على تقدير الرسالة- شرعًا، لا عقلًا.

وعلى أي حالٍ، هم لا يقولون برسالته، فلا حاجة لهذا التقدير، والقتل على اعتقادهم في ألوهية المسيح ممنوع عقلًا وشرعًا.

السقف حيث كان، وبعدما نقبوه دلَّوا السرير الذي كان المفلوج مضطجعًا عليه (٥) فلما رأى يسوع إيمانهم، قال للمفلوج: يا بني، مغفورة لك خطاياك (٦) وكان قوم من الكَتَبَة هناك جالسين يفكرون في قلوبهم (٧) لماذا يتكلم هذا هكذا بتجاديف؟ مَنْ يقدر أن يغفر الخطايا إلا الله وحده؟ (٨) فللوقت شعر يسوع بروحه أنهم يفكرون هكذا في أنفسهم، فقال لهم: لماذا تُفكِّرون بهذا في قلوبكم؟ (٩) أيما أيسر، أن يقال للمفلوج: مغفورة لك خطاياك، أم أن يقال: قم واحمل سريرك وامش (١٠) ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطانًا على الأرض أن يغفر الخطايا».

ذكر أنهم أخطأوا حين ظنوا أنَّ هذا الكلام يقتضي إلهيته، بل يحتمل أن يكون بلاغًا من المسيح بغفران الله، ويحتمل أن لفظة «غفرت» على صيغة ما لم يُسمَّ فاعله.

ثم ذكر ما في مرقس (٢/ ٢٨، ٢٩): «(٢٨) ثم قال لهم: السبت إنما جُعِلَ لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت (٢٩) إذا ابن الإنسان هو رب السبت أيضًا»، وبيَّن أن المراد من هذا ليس أن المسيح هو الذي شرعه وأوجبه، بل المراد أنه رسولٌ كموسى يعلم من جهته التحليل والتحريم.

وذكر ما في مرقس (٦/ ٤): «(٤) فقال لهم يسوع: ليس نبيٌّ بلا كرامة إلا في وطنه، وبين أقربائه، وفي بيته»، فذكر أن هذا صريحٌ في نبوته، وإن زعموا أن هذا هو الناسوت، فيلزمهم أن الإله مركب، وهو باطل.

وذكر ما في مرقس (١٠/ ٢٩، ٣٠): «(٢٩) فأجاب يسوع وقال: الحق أقول

لكم: ليس أحد ترك بيتًا أو إخوةً أو أخوات أو أبًا أو أُمًّا أو امرأةً أو أولادًا أو حقولًا، لأجلي ولأجل الإنجيل،(٣٠) إلا ويأخذ مئة ضعفٍ الآن في هذا الزمان، بيوتًا وإخوةً وأخوات وأمهات وأولادًا وحقولًا، مع اضطهاداتٍ، وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية»، وهذا يتناقض مع ما ذكر في «متَّى»، وفي «مرقس» من نفي النعيم الحسي.

وذكر ما في مرقس (١٢/ ٢٨، ٢٩): «(٢٨) واحد من الكَتَبة، وسمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه أجابهم حسنًا، سأله: أيَّة وصية هي أول الكل؟ (٢٩) فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل، الرَّبُّ إلهنا، رب واحد»، وفيه أتى المسيح بالتوحيد الذي لا لبس فيه، وإثبات الغيريَّة بينه وبين الله.

وذكر ما في مرقس (١٤/ ٩): «(٩) الحق أقول لكم: حيثما يكرز بهذا الإنجيل في كل العالم، يخبر أيضًا بما فعلته هذه، تذكارًا لها»، وفيه إشارةٌ إلى الإنجيل الذي كان موجودًا في عصر المسيح، وهو لا وجود له بينهم الآن، أما الأناجيل الموجودة فهي محرفةٌ، وذكر مناقشة حول ثبوت لفظة «هذا» في النص.

وذكر التناقض في حكاية قصة إنكار بطرس في الأناجيل الثلاثة (متَّى ومرقس ويوحنا)، وهي قصة واحدة، والجمع بين ألفاظها غير ممكنٍ.

ثم انتقل للتعليق على إنجيل لوقا، فمما تناوله بالتعليق ما في لوقا (١/ ١٣-١٥): «(١٣) فقال له الملاك: لا تخف يا زكريا؛ لأن طلبتك قد سمعت، وامرأتك أليصابات ستلد لك ابنًا وتسمِّيه يوحنا (١٤) ويكون لك فرح وابتهاج، وكثيرون سيفرحون بولادته (١٥) لأنه يكون عظيمًا أمام الرب، وخمرًا ومسكرًا

لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس»، وفي هذا مدحٌ ليوحنا بأنه لا يشرب الخمر، وفي الأناجيل أن المسيح شربها، ففيه تفضيل يوحنا عليه، وكذلك امتلاء يحيى وزكريا من الروح القدس أبلغ مما جاء في حق المسيح، فيلزم كونهما إلهين.

ومنها ما في لوقا (١/ ٣٠-٣٣): «(٣٠) فقال لها الملاك: لا تخافي يا مريم؛ لأنكِ قد وجدت نعمةً عند الله (٣١) وها أنتِ ستحبلين وتلدين ابنًا، وتسمينه يسوع (٣٢) هذا يكون عظيمًا، وابن العلي يُدْعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه (٣٣) ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية».

أما قوله: «ابن العلي يدعى»، فيحتمل أن المراد العبودية كما سبق، أو المراد ذكر ما يكون من الغلو فيه، والافتتان به على أنَّ هذا الكلام إنْ أُريدَ به حقيقته، فهو متهافتٌ ومكابرةٌ للحس، مع ما حكي في الإنجيل من صلبه وإهانته، فأين ملكه على بني يعقوب إلى الأبد؟ وقوله: «يعطيه الرب كرسي أبيه داود» منافٍ لما سبق من إنكار المسيح أُبوَّة داود، وإن أريد بكرسي داود ملكه، فالمسيح لم يملك.

وعلق على ألفاظ بُنوَّة المسيح ليوسف النجار: «(٤١) وكان أبواه يذهبان كل سنةٍ إلى أورشليم في عيد الفصح»، و«فلمَّا أبصراه اندهشا، وقالت له أمه: يا بني، لماذا فعلت بنا هكذا؟ هو ذا أبوك وأنا كنا نطلبك مُعذَّبين!»، والمراد هنا أُبوَّة مجازية، فلماذا لا يحملون ألفاظ البُنوَّة والأبوة لله تعالى على المجاز، وهي أَوْلَى.

ومن ذلك ما في لوقا (٧/ ١٢-١٦): «(١٢) فلمَّا اقترب إلى باب المدينة، إذا ميتٌ محمولٌ، ابنٌ وحيدٌ لأمه، وهي أرملة، ومعها جمع كثير من المدينة (١٣) فلما رآها الرب، تَحنَّن عليها، وقال لها: لا تبكي (١٤) ثم تقدم، ولمس النعش، فوقف الحاملون، فقال: أيها الشاب، لك أقول: قم (١٥) فجلس الميت، وابتدأ يتكلم، فدفعه إلى أمه (١٦) فأخذ الجميع خوفٌ، ومجَّدوا الله قائلين: قد قام فينا نبيٌّ عظيمٌ، وافتقد الله شعبه»، فيه أنهم كانوا يرونه نبيًّا، وأن تسمية الرب ونحوه ألفاظ تعظيم.

وذكر التناقض بين ما في لوقا (٩/ ٥٠): «لأنَّ مَن ليس علينا، فهو معنا»، وبين ما في مرقس (٩/ ٤٠): «مَنْ ليس هو معنا، فهو علينا»، والقصة واحدة.

وذكر ما في لوقا (٢٤/ ١-١٢) من إخبار مريم المجدلانية التلاميذ بقيام المسيح: «فتَراءى كلامهنَّ لهم كالهذيان، ولم يصدقوهنَّ»، فكيف لهم أن يكذبوا ذلك وهو أخبرهم به، وثبت صدقه عندهم بالآيات، وهو قَدْ أخبرهم بزمن قيامه، لا بوقوعه فقط.

وذكر ما في لوقا (٢٤/ ١٧- ١٩) من مخاطبة المسيح بعد قيامه لاثنين من التلاميذ: «(١٧) فقال لهما: ما هذا الكلام الذي تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين؟ (١٨) فأجاب أحدهما الذي اسمه كليوباس وقال له: هل أنت متغربٌ وحدك في أورشليم ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها في هذه الأيام؟ (١٩) فقال لهما: وما هي؟ فقالا: المختصة بيسوع الناصري الذي كان إنسانًا نبيًّا مقتدرًا في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب»، وفيه أن تلميذه سمَّاه نبيًّا،

وهذا يدل على أن تلاميذه لم يعتقدوه إلهًا.

ثم انتقل المصنف إلى إنجيل يوحنا، وممَّا تناوله بالتعليق ما في يوحنا (١/ ١-٣): «(١) في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله (٢) هذا كان في البدء عند الله (٣) كل شيءٍ به كان، وبغيره لم يكن شيءٌ مما كان»، فذكر أن هذا الكلام منه صحيح؛ كقوله: «في البدء كان الكلمة»؛ لأن كلام الله من صفاته، وصفاته قديمة، وقوله: «الكلمة كان عند الله»؛ لأنَّ الكلام صفته، والصفة قائمة بالموصوف.

أمَّا قوله: «وكان الكلمة الله»، فهو كلام مكابرة وسفسطة؛ لأن الكلمة صفة المتكلم، والصفة غير الموصوف، وهذا الكلام جمع بين التغاير والاتحاد، وهو محالٌ.

ومن ذلك ما في يوحنا (٣/ ١٦): «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل مَن يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية»، وهذا المعنى مشترك بين الأنبياء؛ لأن الله بذلهم وحيدين في أعصارهم ليهدوا العالم، وينقذوه من كيد الشيطان.

ومن ذلك ما في يوحنا (٥/ ٤٥): «(٤٥) لا تظنوا أنِّي أشكوكم إلى الآب، يوجد الذي يشكوكم وهو موسى الذي عليه رجاؤكم (٤٦) لأنكم لو كنتم تصدقون موسى، لكنتم تُصدِّقونني؛ لأنه هو كتب عني (٤٧) فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك، فكيف تصدقون كلامي؟»، فعند النصارى أن المسيح حج اليهود بهذه الحجة، وهي أن موسى بشَّر بالمسيح، فهم إن لم يؤمنوا به، لم يؤمنوا بموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فهي نفسها حُجَّة النبي محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ على النصارى،

فقد بشَّر عيسى بمحمد عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومن ذلك: أن المسيح لمَّا أشبع خمسة آلاف رجلٍ بخمسة أرغفةٍ وسمكتين، فكما في يوحنا (٦/ ١٤): «فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع، قالوا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم»، دليل على أن الناس اعتقدوه نبيًّا، وأن الأنبياء قبله بشَّروا به نبيًّا، فمن أين له الألوهية؟!

ومن ذلك ما في يوحنا (٨/ ٣٨-٤١): «فقالوا له: (٣٨) أنا أتكلم بما رأيت عند أبي، وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم (٣٩) أجابوا وقالوا له: أبونا هو إبراهيم. قال لهم يسوع: لو كنتم أولاد إبراهيم، لكنتم تعملون أعمال إبراهيم (٤٠) ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني، وأنا إنسانٌ قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله، هذا لم يعمله إبراهيم (٤١) أنتم تعملون أعمال أبيكم. فقالوا له: إنَّنا لم نُولَد من زنًا، لنا أبٌ واحدٌ وهوَ الله»، وفيه إضافة اليهود إلى بُنوَّة الله وإبراهيم وإبليس، وهو يدلُّ على أن لفظ البُنوَّة قد يُرَاد به الحقيقة، وقد يُرَاد به المجاز، ومن المجاز إضافة المسيح إلى بُنوَّة الله.

ومن ذلك ما في يوحنا (١٤/ ٨-١١): «(٨) قال له فيلبس: يا سيد، أرنا الآب وكفانا (٩) قال له يسوع: أنا معكم زمانًا هذه مدته، ولم تعرفني يا فيلبس! الذي رآني فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت: أرنا الآب (١٠) ألست تؤمن أنِّي أنا في الآب، والآب فيَّ؟ الكلام الذي أُكلِّمكم به لستُ أتكلَّم به من نفسي، لكن الآب الحالَّ فيَّ هو يعمل الأعمال (١١) صدقوني أني في الآب، والآب فيَّ، وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها»، فذكر أن هذا الكلام لابد من تأويله؛ لأن الشيئين لا يمكن أن يكون كلٌّ منهما في الآخر، أو كل منهما هو الآخر، وتأويله

أنَّ في المسيح قوة إلهية يفعل بها الخوارق، فقوله: «الآب في»، أي: سر الأب وتأييده، وأعقب ذلك بمناقشةٍ لهذه الاستحالة، وهذا المجاز.

ثم ذكر «الفارقليط»[1] في عدة مواضع، مثل ما في يوحنا (١٤/ ٢٦)، يوحنا (١٦/ ٧-١١)، وذكر أن هذه بشارة بمُحمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه لم يأت بعد المسيح مَن ادعى النبوة، ومجد المسيح، ووبَّخ العالم على الكفر، وأخبر بأن الناس يدانون يوم القيامة، وأمر بالأخلاق والآداب، إلا محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإنْ لم يكن هو فقد بطل وعد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم أعقب ذلك بمناقشةٍ.

ثم ذكر ما في يوحنا (١٧/ ٣، ٤): «(٣) وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته (٤) أنا مجَّدتك على الأرض»، وقد وحَّد الله تعالى في هذه الحال.

وذكر ما في يوحنا (٢٠/ ١٧): «(١٧) قال لها يسوع: لا تلمسيني؛ لأني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي، وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم»، وفيه أن لفظ الأبوة كناية عن الربوبية؛ لأنه أشرك تلاميذه في ذلك.

ثم تطرَّق المؤلف بعد ذلك لإثبات النبوة، وذكر على ذلك برهانًا واحدًا وصفه بأنه واضح للخاص والعام، وتقريره أن محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إما أن يكون ملكًا ماحقًا كما زعمت اليهود والنصارى، وإما أن يكون نبيًّا صادقًا، ولكنه ليس ملكًا

---

(١) هكذا هو في النسخ التي بيد الطوفي والجعفري وابن تيمية وابن القيم وغيرهم، بينما ليس كذلك في أكثر النسخ اليوم، ففي بعضها: «المعزى»، وفي بعضها: «المؤيد».

ماحقًا؛ لأن كل ملك يذهب ملكه، وتنقرض دولته بعد موته، وذلك معلومٌ بالاستقراء، ومحمد عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينقرض ملكه، أو تذهب دولته، فبطل أن يكون ملكًا، وتعيَّن كونه نبيًّا.

ثم انتقل المصنف لذكر بعض أعدادٍ من أسفار العهد القديم:

فبدأ بـ (سفر أشعياء)، فذكر ما في أشعياء (١/ ٢): «ربَّيت بنين ونشَّأتهم، أما هم فعصوا عليَّ»، وفي أشعياء (١/ ٦): «ويلٌ للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الإثم، نسل فاعلي الشر، أولاد مفسدين، تركوا الرب، استهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى وراء»، فسمى عبيده قبل المسيح بزمنٍ بالأبناء، فليس هذا خاصًّا بالمسيح، وهذا مما يدل على أنها تسميةٌ مجازيةٌ، وأن الله لا ولد له.

وذكر ما في أشعياء (٤٠/ ٢٨): «(٢٨) أما عرفت أم لم تسمع؟ إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لا يكلُّ، ولا يعيا، ليس عن فهمه فحص»، وهو معارضٌ لما في العهد القديم في تكوينٍ وغيره أن الله تعالى استراح في اليوم السابع».

وما في أشعياء (٤٣/ ٥، ٦): «(٥) لا تخف، فإنِّي معك، من المشرق آتي بنسلك، ومن المغرب أجمعك (٦) أقول للشمال: أعط، وللجنوب: لا تمنع. ايت ببني من بعيدٍ، وبناتي من أقصى الأرض»، فنسب إلى نفسه بنين وبنات، فهو يدلُّ على عدم ألوهية المسيح كما سبق.

وذكر ما في إشعياء (٥٢/ ١): «استيقظي، استيقظي، البسي عزك يا صهيون، البسي ثياب جمالك يا أورشليم، المدينة المقدسة؛ لأنه لا يعود يدخلك فيما بعد أغلف، ولا نجس»، فجعل عدمَ دخول الأغلف لها طهارةً ومجدًا،

والنصارى لا يختتنون، وهذا يدل على سوء مذهبهم.

وتناول بالتعليق أيضًا (سفر هوشع)، ومن ذلك ما في هوشع (١١/ ١): «لمَّا كان إسرائيل غلامًا أحببته، ومن مصر دعوت ابني»، وإسرائيل عبدٌ مألوهٌ بإجماعٍ، فكذلك المسيح، فلفظة البنوة لا تدلُّ على أكثر من هذا.

وذكر أيضًا ما في هوشع (١١/ ٩): «(٩) لا أجري حمو غضبي، لا أعود أخرب أفرايم؛ لأني الله لا إنسان، القدوس في وسطك، فلا آتي بسخطٍ»، وفيه منافاة الألوهية للإنسانية، والمسيح كان إنسانًا يأكل ويشرب، فامتنع كونه إلهًا.

وتناول بالتعليق أيضًا ما في حبقوق (٣/ ٢-٦): «(٢) يا ربِّ، قد سمعت خبَرك فجزعت، يا رب، عملك في وسط السنين أحيه، في وسط السِّنين عرف، في الغضب اذكر الرحمة (٣) الله جاء من تيمان، والقدوس من جبل فاران، سلاه، جلاله غطى السماوات، والأرض امتلأت من تسبيحه (٤) وكان لمعان كالنور، له من يده شعاع، وهناك استتار قدرته (٥) قدامه ذهب الوبأ، وعند رجليه خرجت الحمى (٦) وقف وقاس الأرض، نظر فرجف الأمم، ودكت الجبال الدهرية، وخسفت آكام القدم، مسالك الأزل له».

ثم تناولها بالتفسير والشرح، ومن ذلك أن حبقوق دعا الله ألَّا يشمل الناس بالغضب في الحياة الفانية، بل إذا غضب على قومٍ في زمنٍ، أعقبه بالرحمة في زمنٍ آخر.

ثم فسر: «استعلن لنا من جبال فاران»، أي: استعلن أمره وحكمته ورحمته، وجبال فاران هي جبال مكة والحجاز، فليس هناك ما يصلح أن يكون بركةً

وأمرًا إلا دين محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفسر ما بعده من امتلاء الأرض من محامده، والسماء من شعاعه باشتهاره في السماء في المعراج، وحراسة السماء بالشهب لمبعثه، واشتهار الثناء عليه، ومدحه في الأرض، وفسر ما بعده على أنه ظهور قوته، وكثرة غزواته، وليس من الأنبياء مَنْ ينطبق عليه ذلك إلا محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم علق على ما في ملاخي (١/ ٦): «(٦) الابن يكرم أباه، والعبد يكرم سيده، فإن كنت أنا أبًا، فأين كرامتي؟ وإن كنت سيدًا، فأين هيبتي؟»، وفيه التعبير بلفظ الأبوة على جهة المجاز، وضرب المثل.

وذكر ما في إرميا (٢/ ٢٧) من توبيخهم على الشرك بقوله: «قائلين للعود: أنت أبي، وللحجر: أنت ولدتني؛ لأنهم حوَّلوا نحوي القفا لا الوجه، وفي وقت بَلِيَّتهم يقولون: قم وخَلِّصنا»، وهذا يدل على التعبير عن الإلهية بالأبوة، والولادة بالخلق.

وما في إرميا (٣١/ ٣٥): «هكذا قال الرب الجاعل الشمس للإضاءة نهارًا، وفرائض القمر والنجوم للإضاءة ليلًا، الزاجر البحر حين تَعجُّ أمواجه»، قد يغترُّ بها النصارى؛ لأنَّ المسيح وصف بأنه يزجر الأرض فتنزجر، وهذا وَهمٌ؛ لأنَّ الألوهية أوسع من زجر البحر، فكل إلهٍ يزجر البحر، وليس كل من يزجر البحر إلهًا.

ثم علق على بعض ما في (سفر حزقيال)، مثل ما حزقيال (١٨/ ٢-٤): «(٢) ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل، قائلين: الآباء أكلوا

الحصرم، وأسنان الأبناء ضرست (٣) حيٌّ أنا، يقول السيد الرب: لا يكون لكم من بعد أن تضربوا هذا المثل في إسرائيل (٤) ها كل النفوس هي لي، نفس الأب كنفس الابن، كلاهما لي، النفس التي تخطئ هي تموت»، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ثم ذكر ما حزقيال (١٨/ ٥-٢٠) من تعاليم، وبيَّن أنها موافقة لتعاليم الإسلام، وقصد بذلك الرد على بعض النصارى الذين زعموا أن شرع محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس موافقًا لشرع مَنْ قبله.

وذكر ما في حزقيال (٢٨/ ٦-٩): «(٦) فلذلك هكذا قال السيد الرب: من أجل أنك جعلت قلبك كقلب الآلهة (٧) لذلك هأنذا أجلب عليك غرباء، عتاة الأمم، فيجردون سيوفهم على بهجة حكمتك، ويُدنِّسون جمالك (٨) ينزلونك إلى الحفرة، فتموت موت القتلى في قلب البحار (٩) هل تقول قولًا أمام قاتلك: أنا إلهٌ؟ وأنت إنسانٌ لا إلهٌ في يد طاعنك!»، وفيه التصريح بأن العجز عن تخليص النفس من صفات الإنسان لا من صفات الله تعالى، وهذا يدل على عدم ألوهية المسيح؛ لعجزه عن تخليص نفسه.

وفيه في حزقيال (٤٤/ ٦، ٧)، (٤٤/ ٩) ذم لغلف المذاكر، وهُمُ الَّذين لا يختتنون، والنصارى كذلك.

ثم انتقل إلى (سفر دانيال)، وذكر فيها رؤيا نبوخذنصر التي فسَّرها دانيال (٢/ ١-٤٥)، وشرح أن قول دانيال في تأويل الرؤيا: «(٤٤) وفي أيام هؤلاء الملوك، يقيم إله السماوات مملكةً لن تنقرض أبدًا، وملكها لا يترك لشعبٍ

آخر، وتسحق وتفني كل هذه الممالك، وهي تثبت إلى الأبد (٤٥) لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبلٍ لا بيدين، فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب، الله العظيم قد عرف الملك ما سيأتي بعد هذا، الحُلْم حق، وتعبيره يقين»، حَمْله على محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْلَى من غيره؛ لأن ملك محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي انتشر في بقاع الأرض.

ثم تناول بعض أعداد (سفر التكوين) بالتعليق، ومن ذلك ما في تكوين (٢/ ٢): «(٢) وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل»، فذكر أن هذا مناقضٌ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]؛ لأنَّ ذكر الاستراحة يلزم منه لحوق التعب واللغوب.

وذكر ما في تكوين (٢/ ١٩، ٢٠): «(١٩) وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية، فهو اسمها (٢٠) فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية، وأما لنفسه فلم يجد معينًا نظيره»، وذكر أنه موافقٌ لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

وذكر ما في تكوين (٢/ ٢١، ٢٢): «(٢١) فأوقع الرب الإله سباتًا على آدم فنام، فأخذ واحدةً من أضلاعه، وملأ مكانها لحمًا (٢٢) وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأةً، وأحضرها إلى آدم»، وذكر أنه موافقٌ لما ورد في السُّنة.

وذكر ما في تكوين (٣/ ٢٢، ٢٣): «(٢٢) وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان

قد صار كواحدٍ منا، عارفًا الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا، ويأكل ويحيا إلى الأبد (٢٣) فأخرجه الرب الإله من جنة عدنٍ ليعمل الأرض التي أخذ منها»، فهذا يشتمل على شناعاتٍ، منها: أنه يوهم أن الله تعالى اكتسب الحياة من شجرة الحياة، وأيضًا يشعر أن الله لم يكن يعلم أن آدم سيأكل من الشجرة.

وجاء قبله في تكوين (٣/ ٦، ٧): «(٦) فأكل (٧) فانفتحت أعينهما، وعلما أنهما عريانان»، وهذا ينافي ظاهر القرآن في قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١].

وفي تكوين (٣/ ٧-١٠): «(٨) وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة (٩) فنادى الرب الإله آدم، وقال له: أين أنت؟ (١٠) فقال: سمعتُ صوتك في الجنة فخشيت؛ لأنِّي عريان فاختبأت»، وفيه شناعاتٌ، منها: وَصْف الله تعالى بالمشي في الجنة، وما يلزم من هذه الحكاية من نسبة الله تعالى إلى الجهل بعري آدم ومكانه.

وذكر ما في تكوين (٣/ ٥-٨): «(٥) ورأى الرب أنَّ شرَّ الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يومٍ (٦) فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسَّف في قلبه (٧) فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء؛ لأني حزنت أنِّي عملتهم (٨) وأما نوح فوجد نعمةً في عيني الرب»، فذكر أن هذا من

وضع اليهود وجهلهم، حيث نسبوا الله تعالى للجهل والبداء وحزن القلب.

وذكر أيضًا ما في تكوين (٨/ ٢١): «فتنسَّم الرب رائحة الرضا، وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضًا من أجل الإنسان؛ لأنَّ تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته، ولا أعود أيضًا أُمِيت كل حيٍّ كما فعلت»، وهذا من تحريف اليهود؛ لما فيه من نسبة الله تعالى إلى الجهل والندم.

وذكر ما في (٣/ ٢٤): «(٢٤) فطرد الإنسان، وأقام شرقي جنة عدنٍ الكروبيم، ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة»، وذكر أنَّ هذا من خرافات اليهود.

وفي تكوين (١٣/ ١٤-١٧): «(١٤) وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لوطٍ عنه: ارفع عينيك، وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا (١٥) لأنَّ جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد (١٦) وأجعل نسلك كتراب الأرض، حتى إذا استطاع أحدٌ أن يعد تراب الأرض، فنسلك أيضًا يعد (١٧) قم امشِ في الأرض طولها وعرضها؛ لأنِّي لك أعطيها»، فذكر أن تحقُّق هذا الوعد بظهور محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وذكر ما في تكوين (١٦/ ١٠-١٢): «(١٠) وقال لها ملاك الرب: تكثيرًا أكثر نسلك، فلا يعدُّ من الكثرة (١١) وقال لها ملاك الرب: ها أنتِ حُبْلى، فتلدين ابنًا، وتدعين اسمه: إسماعيل؛ لأن الرب قد سمع لمذلَّتك (١٢) وإنه يكون إنسانًا وحشيًّا، يده على كل واحدٍ، ويد كل واحدٍ عليه، وأمام جميع إخوته يسكن»، وفيه تكثير إسماعيل، وترأسه على إخوته، ولم يكن هذا إلا بظهور محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفي تكوين (١٧/ ٨): «وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكًا أبديًا، وأكون إلههم»، وفيه دليل على صحة نبوة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وفي تكوين (١٧/ ٢٠): «(٢٠) وأمَّا إسماعيل، فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرًا جدًّا، اثني عشر رئيسًا يلد، وأجعله أُمَّةً كبيرةً»، وفيه دليل على نُبوَّة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ من جهتين؛ لوصفه الاثني عشر بالشرف[1]، والكفار لا يوصفون بذلك، ولا يعلم من بني إسماعيل مَن يستحق ذلك إلا محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصحابه، وكذلك لوصفه للشعب بالعظم، فلابد أن يكون مشتملًا على رسولٍ.

وذكر ما في تكوين (١٩/ ٣٠-٣٨)، وفيها قصة شرب لوطٍ للخمر، ومضاجعته لابنتيه، ثم قال: لعن الله اليهود، فإنَّ هذا من أكاذيبهم على الله ورسله.

وذكر ما في تكوين (٢١/ ١٤، ١٥): «(١٤) فبكَّر إبراهيم صباحًا، وأخذ خبزًا وقِرْبة ماءٍ، وأعطاهما لهاجر، واضعًا إياهما على كتفها، والولد، وصرفها، فمضت وتاهت في برية بئر سبع (١٥) ولمَّا فرغ الماء من القِرْبة، طرحت الولد تحت إحدى الأشجار»، وذكر أن هذا الكلام يشتمل على كذبٍ صريحٍ؛ لأنَّ هذه القصة بعد ولادة إسحاق، وإسحاق وُلِدَ ولإبراهيم مائة سنة، وإسماعيل ولد ولإبراهيم ست وثمانون سنة، فلابد أن يكون إسماعيل قد تجاوز الرابعة عشرة، فكيف يُحْمَل على عاتق هاجر، فلابد من وقوع الكذب في أحد هذه

---

(١) ففي النسخة التي ينقل منها الطوفي: «اثني عشر شريفًا».

الأخبار؛ إما المتعلقة بسنِّ إسماعيل أو إسحاق أو هذه القصة، وعلى كل احتمالٍ يبطل احتجاج اليهود والنصارى بالتوراة بعد ثبوت وقوع الخطأ فيها.

وذكر قصة الذبيح في تكوين (٢٢)، وذكر خلاف المسلمين في تعيين الذبيح، ثم رجح أنه إسماعيل، وأن ما في التوراة تحريف؛ لأن الله بعد أن ذكر قصة الذبيح في سورة الصافات، قال: ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ١١٢]، وسياق قصة إبراهيم في سورة الصافات يدلُّ على مراعاة الترتيب فيها، ولأن أكثر السلف على أنه إسماعيل، ولأنه موصوف في التوراة بـ«خذ ابنك وحيدك الذي تحبه»، وهذا ينطبق على إسماعيل؛ لأنَّ إسحاق لم يكن وحيدًا، ولأن إسماعيل كان محبوبه؛ لأنه كان بِكْره.

ومما ذكر: قصة مصارعة يعقوب في تكوين (٢٢/ ٢٤-٣٠)، وذكر أن بعضهم احتج بها على أن الله له مظاهر يظهر فيها، فيجوز لذلك أن يكون ظهر في ناسوت المسيح، وليس في القصة ما يدل على أن الله هو المصارع، كيف وقد غلبه يعقوب، وقال ليعقوب: أطلقني، فقد أسفر الفجر، وإنما هو مَلَكٌ من الملائكة.

وذكر ما في تكوين (٣٤) من قصة مضاجعة شكيم بن حمور لدينة ابن يعقوب، والتي طلب فيها يعقوب من أبي شكيم حتى يزوج ابنته من ابنه أن يختتن هو وأهل قريته، وبينما هم متوجعين من الختان، أغاروا عليهم، وأعملوا فيهم القتل والنهب والسلب.

وذكر أنَّ نسبةَ قصة كهذه ليعقوب قبيحٌ جدًّا بسبب ما فيها من تسليط

منيفجر بابنة يعقوب، ثم غدرهم بأهل القرية، فلابد أن هذا من أكاذيب اليهود.

وذكر ما في تكوين (٣٥/ ٢٢) من أن رأوبين ابنه فجَر ببلهة سُريَّته، وفي هذا من الشناعة تلويث فراش أحد الأنبياء، وعد نقل ما يدلُّ على غيرته وغضبه من ذلك.

وذكر بعض اختلافاتٍ بين قصة يوسف في القرآن في سورة (يوسف)، وبينها في العهد القديم في (سفر التكوين)، وأوجه ترجيح رواية القرآن.

منهج المصنف:

هذا الكتاب وإنْ كان يتفق في غرضه ومبعثه مع أكثر الكتب في هذا الباب، وهو مجادلة أهل الكتاب، والرد عليهم، إلا أنه فريدٌ في فكرته وصورته، وهو استقراء الكتب التي يُقدِّسها النصارى، واختيار مواطن منها لأنواعٍ مختلفةٍ من التعليقات.

وقد سلك الطوفي في تعليقه طرقًا مختلفةً من النقد، منها النقد الدلالي للمنقولات التي يستدلُّ بها النصارى على أُلُوهيَّة المسيح، وعقيدة الفداء، وبيان أنَّها لا تدلُّ على شَيءٍ من ذلك، وبيان ما وقعوا فيه من التحريف المعنوي، وسوء الفهم والتأويل.

ومنها: النقد الكتابي، ببيان تناقض بعض النصوص الإنجيلية مع بعضها، أو مع اللائق بحال المسيح والأنبياء، وإثبات وقوع الخطأ والتحريف اللفظي في الكتب المقدسة، وشرح في أكثر من موطنٍ أسباب وقوع هذه الأخطاء، مثل الترجمة أو الرواية بالمعنى أو العناد والتعصب.

ومنها: النقد العقلي، ببيان تناقض بعض هذه المنقولات مع القواطع العقلية.

ولم يكن نقد الطوفي هادمًا دائمًا، بل أقرَّ بعض ما في النصوص من الحق والحكمة، وبيَّن موافقة بعضها للقرآن، وجمع بين بعضها وبين دلالة القرآن، وأثبت أَنْ لا تناقض بينهما، وشرح بعض النُّصوص التي تدلُّ على البشارة بخاتم الرسل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

استعمل الطوفي طريقي التسليم والمعارضة مثل أكثر مَن صنَّف في ذلك من علماء المسلمين، فاعتمد على كثيرٍ من النصوص في إثبات النُّبوة، بل وتقرير معانٍ شرعيةٍ في القدر وغيره، وفي غير موطنٍ عارضٍ أن يكون هذا المنقول منسوبًا إلى الوحي، بل نسبه إلى كذب اليهود أو النصارى وتحريفهم.

هذا المصنف كغيره من كتب الطوفي، يثبت ما كان يتمتع به الطوفي من سَعة المعرفة، ووفرة المادة العلمية وتنوُّعها، ففي هذا الكتاب تظهر براعته في استعمال المعقولات، وكذلك معرفته بالمنقولات من الكتاب والسُّنة وأقوال المُفسِّرين.

ثانيًا: كتاب (الانتصارات الإسلامية):

عنوان الكتاب:

(الانتصارات الإسلامية في كشف شُبه النصرانية)[1].

وَصْف الكتاب:

بدأ المصنف ببيان سبب تأليفه الكتاب، وهو أنه رأى كتابًا صنفه بعض النصارى يطعن في دين الإسلام، ويقدح في نُبوَّة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأراد

---

(١) ذكره ابن رجب وغيره ممن ترجم له بهذا الاسم.

مناقضته، والجواب على أسئلته، وقدم لذلك بمقدماتٍ ثلاثٍ، أولها: أن النصراني يستعمل التوراة والإنجيل في طعنه على المسلمين، وهذه الكتب لا تقوم بها الحجة؛ لِمَا دخلها من التحريف والتبديل. والثانية: حول أن امتناع إدراك شيءٍ قد يكون لضعف المدرك؛ كنظر الخفاش، وقد يكون لخفاء المدرك. والمقدمة الثالثة فرق فيها بين ما تثبت به فروع الشريعة دون أصولها، وهي المستفيض، وخبر الواحد، والقياس الظني، ونحوها، وبين ما تثبت به، وهو القاطع؛ كالبديهيات والنظريات والمتواترات.

ثم ذكر مراده من المقدمات، وهو أن إيراد الخصم إن كان من كتبهم، فلا حجة فيه، وإن كان من كتبنا فقد يكون مما يقصر العقل عن فهمه، وإن كان مما يدركه العقل، فيكون جوابه إما بأنه مما لا يثبت به أصل، وإما بتوجيهه.

ثم تناول استدلال النصراني بتحذير عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الأنبياء الكَذَبة بأنه حقٌّ، وقد حذَّر نبيُّنا منهم، لكنه لا يشمل محمدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لاستمرار دعوته بخلاف الكذَّابين الذين لا تلبث دعوتهم أن تنقطع، ولتأييد الله له بالمعجز.

وتناول بعض مباحث النُّبوة من تعريفها، وأدلة وجودها؛ كدليل العناية الإلهية، وظهور المعجز المصدق على يد محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم ذكر بعض فوائد النبوة التي ذكرها المتكلمون.

ثم ذكر كلامًا للنصراني في شروط النبوة، وذكر منها اطراح اللذَّات البدنية لا سيما قذارة النكاح، فردَّ عليه المصنف ببيان فضائل النكاح، وعلى التسليم بأنَّ فيه قذارةً، فهي مغمورةٌ بما فيه من المصالح الدنيوية والأخروية، كما أنها

سُنَّة الأنبياء السابقين، فمَنْ ألصق بها العار، فقد نسبه لهم، ولو أنَّ المسيح تأسَّى في ذلك بسائر الأنبياء، لَكان أكمل له.

وذكر شروطًا أخرى للنُّبوة نقلًا عن النصراني؛ كالصِّدق، وحصول المعجز، وموافقة الدين الطبيعي.

ثمَّ نقل كلام النصرانيِّ حول الشرط الأول من شروط النُّبوة، وهو الصدق، والذي أراد فيه أن يثبت اختلاط الصدق والكذب في أقوال النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، فذكر بعض آياتٍ وصفها بالصدق، ثم ذكر ما يراه كذبًا.

ومن ذلك: زعمه أن القرآن جعل مريم أخت موسى وهارون، رغم أن بينهم وبين عمران أبي موسى ألفًا وخمسمائة سنةٍ، فأجابه المُصنِّف بما ورد مرفوعًا بأنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم.

ومن ذلك خبر سكوت زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ ثلاثة أيامٍ، فأجابه المصنف بأن مستند التكذيب الإنجيل، وهو ليس حجةً على المسلمين، علاوةً على أن إثبات الثلاثة لا ينفي الزائد، ثم استفاض في شرح هذا الاحتمال.

ومن ذلك قصَّة يوسف، ومخالفتها للقصَّة التوراتيَّة، فأجابه المُصنِّف بالجواب العام، وهو عدم صحة الاحتجاج بالتوراة على المسلمين، وبجوابٍ مفصلٍ عما ادَّعاه من تناقضٍ.

على نفس المنوال ذكر تناقضًا بين قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أهل مدين والقصة التوراتية، وذكر نفي الصَّلْب عند المسلمين، وأنه يخالف ما ثبت بالتواتر عند الأُمَّتين، وفي كتب الأنبياء السابقين، علاوةً على مؤرخي المجوس،

والسهروردي من فلاسفة المسلمين، فأجابه المصنف بأنَّ التواتر هو على صلب إنسانٍ مطلقٍ، فهو مسلم، أما صلب المسيح فهو ممنوعٌ، وهو محل النزاع، كما أن الاستدلال بالمجوس لا يسلم؛ لأنهم لم يشاهدوا، وإنما معتمدهم أخبار أهل الكتاب، وقد شبه لهم، كما أنهم أعداء المسلمين، والعدو يطلب العثرات، ويتبع العورات، أما كتب الأنبياء السابقين فلا يوثق بنقلها؛ لوقوع التبديل فيها، وما روي عن السهروردي لم يصحَّ عنه، وإنْ صحَّ فلا حجة فيه؛ لأنه ليس من علماء المسلمين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]، وقول النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**فإنَّها تذهب حتَّى تسجد تحت العرش**»، وتعارضه مع علم الهيئة، فأجابه المُصنِّف من جهة ذكر أقوال المفسِّرين، وأنها لا تتناقض مع أقوال علماء الهيئة، ومن جهة التشكيك في قطعية ودلالة أقوالهم، وأما وصف الشمس بالسجود وخطابها، فهو من الحقائق الإلهية الَّتي لا يستقلُّ العقل بدركها، فيجب تلقِّيها عن أصحاب الشرائع بالقبول، ومن ذلك ما في القرآن من تبشير الإنجيل والتوراة بمحمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا ذكر له فيهما، فأجابهم بذكر بعض بشارات الكتابين بمحمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى تسليم عدم وجودها، فنقل الطائفتين لكتبهم لا يوثق به.

ومن ذلك أنه زعم التناقض بين قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ﴾ [الفرقان: ٥٤]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥] من جهةٍ، وبين قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، فبيَّن له عدم استيفاء التناقض

لشروطه؛ لاختلاف محل الآيتين، فآيةُ الماء محمولةٌ على المني، وآيات التراب قصد بها خلق آبيكم آدم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحج: ٥٢]، وذَكر ما ألقاه الشَّيطان في تلاوة النَّبيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وزعم أنَّ هذا افتراءٌ على الرسل بهذه المثليَّة، فأجابه المصنف ابتداءً بالتسليم بثبوت القصة واشتهارها[١]، وبين عدم اشتمالها على محال؛ لأنَّ السهو وإنْ وقع من الأنبياء، فإنَّ الله لا يقرُّهم عليه، وذكر من قصص الأنبياء السابقين ما يُؤيِّد هذا، كما أن في كتبهم من المنسوب للأنبياء ما هو أشدُّ من هذا.

ومن ذلك أن بعض الحكايات التي ذكرها المفسرون في سورة النمل مستنكرًا لها، فأجاب بأن منها ما لا يقين في صحته، وأن ما ثبت منها إذا أخبر به الصادق، فهو حق، ثم تطرَّق لبعض دلائل صدقه؛ كظهور الخوارق، وحسن السيرة، وساق قصَّة هرقل كاملةً.

ومن ذلك أنه تناول بعض النُّصوص التي تتحدَّث عن صفات الجن من الأكل والشرب والجماع وغيرها، ورأى ذلك متناقضًا مع عدم جسميتها، فبيَّن المصنف عدم تجرُّدها عن المادة بالكليَّة.

كما تناول بعض المغيَّبات بالإنكار؛ كأجنحة الملائكة وغيرها، فأجابه بنحوه.

---

(١) وفي هذا التسليم مناقشات، انظرها في «الشفا» للقاضي عياض، وتفسير البغوي، وتفسير ابن كثير، وغيرها.

ثم ذكر نصوص الصفات التي تُوهِمُ التجسيم في زعمه، فأجابه المصنف أولًا بالتعجب من صنيعه هذا مع تكاثر وتوافر نصوص التَّجسيم في العهدين القديم والجديد، ثم ذكر أقوال أئمَّة المسلمين في هذه النصوص، واختار مذهب المثبتين لها، المُنزِّهين لله عن مشابهة المخلوقين، فلا يلزمه ما رماه به من قبح التجسيم.

ثمَّ ذكر نصوص القدر، وألزم القائلين بها نسبة الله تعالى إلى إرادة الشَّرِّ، والأمر به، ثم ذكر من نصوص التوراة ما زعم أنه ينافي ذلك، فأجابه المصنف بأنه إذا أراد بذلك إبطال النبوة، لم يحصل له المقصود؛ لأنَّ طوائف المسلمين لم تتفق على المقالة التي نسبها لهم، وكذلك بأنها من فروع الشرع تثبت بثبوت أصلها، وتنتفي بانتفائها، والفرعُ يُغْني عنه القدح في أصله.

ثم ذكر أن أهل الإسلام اختلفت مسالكهم في الجمع بين النصوص، بين القدرية والجبرية والمتوسطين بينهم القائلين بالكسب[1]، ثم بيَّن له أن الأمر لا يستلزم الإرادة بمعنى ترجيح الوجود، لكنها تستلزم الإرادة بمعنى الطلب، ثم

---

(١) والكسب هو قدرة الإنسان التي تقارن فعله، لكنها لا تؤثر فيه، وهي على طريقة نفاة أثر الأسباب، وهناك طريقٌ رابعٌ لم يذكره المصنف، وهو طريق مَن يثبت قدرةً للعبد لها أثرٌ في فعله ومقدوره، ولكنها تابعةٌ لقدرة الله وإرادته، فأفعال العبد تنسب إليه حقيقةً من جهة فعله لها، وإلى الرَّبِّ من جهة تقديره وخَلْقه لها. قال ابن تيمية في منهاج السنة (٣/ ١٢): «جمهور أهل السُّنَّة المثبتة للقدر من جميع الطوائف يقولون: إن العبد فاعلٌ لفعلِهِ حقيقةً، وأن له قدرة حقيقية، واستطاعة حقيقية، وهم لا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية، بل يقرُّون بما دلَّ عليه الشرع والعقل من أن الله يخلق السحاب بالرياح، وينزل الماء بالسحاب، وينبت النبات بالماء».اهـ.

استطرد في شرح القول الوسط.

ثمَّ انتقل إلى بعض الأحاديث التي زعم أنها تُخِلُّ بالصِّدق، فأجاب المصنف جوابًا عامًّا أن أحاديث الآحاد توجب العمل لا العلم، فلا يثبت بها أصلٌ، ولا يقدح بها في أصلٍ.

ثم ذكر أجوبةً تفصيليةً على كلِّ حديثٍ؛ كأحاديث عذاب القبر، وبعض أخبار البرزخ والقيامة وأحاديث المعراج والبراق، وأكل الجنة وشرابها، وغير ذلك، من جهة أن أكثرها أمور غيبية ممكنة أخبر بها الصادق، فوجب قبولها، وأجاب عن حديث: «**ما دُفِنَ نبيٌّ قط إلَّا في مكانه الذي تُوفِّي فيه**»، وزعم تعارضه مع أخبار الأنبياء في التوراة، أولًا بأن التوراة أصابها من التحريف ما يوهن الاعتماد عليها، وثانيًا بتضعيف الحديث، ومنع صحته، وعن حديث: «**ما على الأرض نفسٍ منفوسةٍ يأتي عليها مائة سنةٍ**»، ونحوه من الأحاديث بأن المقصود بها موت الموجودين لا قيام الساعة.

ثم انتقل إلى الشرط الثاني، وهو الطهارة، فذكر النصراني أحاديث استمتاع النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ بنسائه، وطوافه عليهنَّ، وذكر المصنف أنَّ احتجاجه هنا يقوم على مقدمة أن النكاح عارٌ لا يليق بالأنبياء، فأعاد جوابه السَّابق عن مصالح النكاح، وأنه سُنَّة الأنبياء، وذكر أخبار أنبياء التوراة؛ كداود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغيره في أمر النكاح.

ثمَّ انتقل إلى الشرط الثالث: الإعجاز، فزعم عدم تأييد النبي محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ بخوارق العادات، واستدلَّ على ذلك بقصةٍ ذكرها أهل السِّير، تشتمل على عدم إجابته قريشًا في طلب الآيات، فأجابه عن القصة بأن قريشًا معاندون، لن يؤمنوا لو

أتاهم بالآيات، وأن الأمم السابقة الجاحدة للآيات أهلكهم الله تعالى، ومحمد عَلَيْهِ السَّلَامُ حريص على هدايتهم لا هلاكهم، وبحصول مثل ذلك للمسيح، وأجاب عن شبهةٍ مفادها: أن القرآن يدلُّ على عدم حصول المعجزات، ومرويَّات المعجزات أخبار آحادٍ، فكيف تعارضه.

فأجاب بأنَّ القرآن لا يدلُّ على ذلك، وبأنَّ أخبار المعجزات ليست آحادًا، بل منها ما تواتر بلفظه، وهو ما ذكر في القرآن، ومنها ما تواتر بمعناه وهو الوارد في السُّنة، ثمَّ سرد بعض المعجزات النبوية؛ كانشقاق القمر، وحنين الجذع، وشفاء المرضى، ونبع الماء، وتكثير الطعام، وغيرها.

ثم تطرَّق النصراني لمعجزة القرآن مشككًا فيها من جهة عدم إيضاح المعنى، واختلاف المفسرين، والفرق فيه، فبيَّن له المصنف خطأ استعمال الإيضاح معيارًا للصحة، كما أنَّ اختلاف الفرق ليس سببه اشتباه القرآن، إنما المواد الفلسفية الدخيلة على الإسلام.

وانتقد النصراني التكرار في القرآن، فأجابه المُصنِّف بفوائد التكرار.

واستشكل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]، فبيَّن له المصنف وجوه التناسب فيها.

ثم اعترض النصراني وشغَّب على الاستدلال بالتحدي بالإتيان بمثل القرآن، وعجز العرب عنه، وأجابه المصنف، ورفع إشكالاته واعتراضه.

ثمَّ انتقل إلى الشَّرط الرَّابع، وهو حسن الشريعة وكمالها واشتمالها على الخير والفضائل والعدل، فأجابه المصنف إجمالًا بوجودها، وامتلاء نصوص

الشرع بها، ثم انتقل للأجوبة التفصيلية على ما استشكله، فمما ذكره: اعتراضه على تشريع التعدُّد، والتسرِّي في الإسلام، وأيَّد استشكاله باقتصار آدم على زوجةٍ واحدةٍ، فلو كانت كثرة الزوجات فضيلةً، لكان آدم أَوْلَى بها، فأجابه المصنف أن كثرة النساء في حقه كان متعذرًا؛ لأن سائر النساء كُنَّ من بناته، وزواج البنات محرم.

ثم ناقش استنكار النصراني للطلاق بأن سببه تحريم الإنجيل له، والإنجيل لا يوثق بنقله، وعلى تسليمه فقد نسخ في دين محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم استطرد في تتبُّع شبهات النصراني واستشكالاته لتشريع التعدد.

وذكر شبهاتٍ أخرى حول الطلاق والفسخ بالعيب، ووقف رجوع المرأة إلى زوجها على نكاحها من غيره، ونكاح المتعة والعزل ومباشرة الحائض وغيرها، فبيَّن له المصنف وجه هذه الشرائع وحكمتها ومحاسنها، وبيَّن له وقوع النسخ في بعضها؛ كنكاح المتعة، واقتصار حد الزنا على الحبس والأذى.

واستشكل أيضًا بعض الشرائع والأحاديث؛ مثل: جواز الحنث في اليمين، ولعق الأصابع عقب الطعام، وحديث قطع الكلب الأسود والحمار والمرأة للصلاة، وحديث طلوع الشمس بين قرني شيطانٍ، وحديث: «**إنَّ أبي وأباك في النار**»، وغيرها، فشرح المُصنِّف وجه هذه الشرائع، وأقوال شُرَّاح الحديث في هذه الأحاديث بما يزيل الإشكال عنها.

واستدلَّ بالهزيمة يوم أُحُد على خُلف الوعد، وعدم التأييد بالنصر، فأجابه المصنف بحصول النصر وصدق الوعد، ولكنه تخلَّف بعد ذلك لعصيان الأمر.

وذكر أحاديث تعرُّضه للسُّم والسِّحر وأنواع الأذى، فأجابه المُصنِّف بجواز ذلك على الأنبياء عليهم السلام لبشريَّتهم، وإنما هم معصومون في البلاغ، وإتمام الرسالة.

ثم ختم كتابه بخاتمةٍ تتضمن عشر حجج على نبوة محمد عليه السلام، وصحة دين الإسلام، اعتمد فيها على المعقولات، أو ما تركَّب منها ومن غيرها، ومن أهمها: ظهور المعجز على يديه.

ومنها: استخدام السَّبْر والتقسيم بأنَّ محمدًا عليه السلام إما ملك ماحق، أو نبي صادق، ثم أبطل أن يكون ملكًا، فتعيَّن كونه نبيًّا، ومنها إقراره لليهود والنصارى بالجزية؛ لعلمه باشتمال كتبهم على بعض الحق، ولو كان ملكًا لأخلى الأرض منهم لتكذيبهم له.

ومنها: أن المسيح لو كان إلهًا أو ابن إلهٍ عن يمين الله كما يزعمون، لَمَا أبقى دعوة محمدٍ عليه السلام، ولأمر بإهلاكه، وقطع فتنته، ومنها أن محمدًا عليه السلام كان وافر الهمة، كامل الحكمة، ومثل هذا لا يكون كاذبًا.

منهج المصنف:

قصد المُصنِّف في كتابه الرد على الأسئلة التي أوردها النصراني، ولم يقصد إلى النقد العقلي والنقلي والكتابي لعقيدة النصرانية، ولعلَّه اكتفى في ذلك بكتابه السابق الذي سبق هذا الكتاب في تصنيفه، وجعل كلًّا منهما مكملًا للآخر.

ولذلك، غلب على كتابه العناية برد الشبهات، وتوضيح المتشابهات، واستفاض في شرح بعض الآيات والأحاديث لكشف الشبهات المزعومة عليها، فكان عمله في ذلك حسنًا وافيًا، ولا يعني ذلك أنه لم يضمن كتابه ذلك،

بل اشتمل كتابه على استعمال الجدل العقلي والنقلي في انتقاد عقيدة النصراني، ولكن كان ذلك على سبيل العرض والتأييد لغرضه الأصلي، وهو ردُّ الشبهات، وتفنيد مزاعم النصراني حول نصوص الشرع.

وفي الأمور الاعتقادية اختلفت اختيارات المصنف، وتنقَّلت بين طرقٍ مختلفةٍ، ففي حين كانت طريقته في الصفات قريبةً من طريقة أهل الحديث والإثبات، فقد استعمل في مواطن أخرى مقدمات كلامية كقاعدة أن أحاديث الآحاد توجب العمل فقط، ولا تثبت أصلًا، ولا تقدح في أصلٍ.

كما أن المُصنِّف طريقه في الجملة طريق أهل السُّنة المُحبِّين للصحابة، المعظمين لهم، المترضين عليهم، ومع ذلك فقد استعمل في مواطن قليلة من هذا الكتاب وغيره عبارات غليظة شيعية المزاج مع بعض كبار الصحابة تنافي طريقة أهل السُّنة في ذلك، ولعلها رواسب باقية من مرحلةٍ سابقةٍ مرَّ بها المصنف، وتقدمت الإشارة إلى ذلك.

فهرس محتويات

كتاب التهذيب المليح لكتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح

فهرس محتويات

كتاب تلقيح الألباب بجهود علماء المسلمين في مجادلة أهل الكتاب إلى نهاية القرن الثامن

تم بحمد الله